BANTAM BOOKS

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

پول سوسمان
Paul Sussman

الكتاب الذي مُنع في «إسرائيل»

آخر أسرار الهيكل
The Last Secret of the Temple

«جواب القارئ الذكي
على رواية شيفرة دافنتشي»
— صحيفة «الإندبندنت»

آخر أسرار الهيكل

The Last
Secret of the Temple

آخر أسرار الهيكل

The Last
Secret of the Temple

پول سوسمان

PAUL SUSSMAN

ترجمة

زينة جابر إدريس

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

The Last Secret of the Temple

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر

BANTAM BOOKS

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-9953-87-025-0



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (961-1+)

ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان

فاكس: 786230 (961-1+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (961-1+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (961-1+)

الهيكل المقدّس،
القدس شهر آب من عام 70 م

تطايرت الرؤوس على حائط الهيكل بصوت مكتوم بالعشرات، مثل سرب من الطيور البشعة، ذاهلة الأعيُن، مفتوحة الأفواه، وتبعثرت بقايا أجسداها حيث قُطعت أعناقها بفظاعة. حطّ بعضها في باحة النساء، وارتطم على الأرض الحجريّة المسودّة من أثر السخام بإيقاع غير منتظم شبيه بضربات الطبل، ما دفع العجائز والأطفال إلى التفرّق من هول المشهد. وطار بعضها الآخر أبعد من ذلك، فتجاوز بوابة ميكانور وبلغ باحة إسرائيل، لينهمر حول مذبح المحارق، مثل حبّات البرَد الضخمة. كما طار عدد قليل منها لمسافة أبعد وارتطم بجدران وسقف الميشكان نفسه، وهو المكان الذي يحتلّ قلب مجمّع الهيكل، والذي بدا وكأنّه يئنّ ألمًا من فظاعة الاعتداء.

قال الصبيّ بصوت مختنق، ودموع اليأس تفيض من عينيه الياقوتيّتين: «أوغاد! رومان قذرون وأوغاد!»

حدّق من موقعه المطلّ من خلف أسوار الهيكل إلى الجنود الذين يتنقّلون كجيش من النمل تحته، وكانت أسلحتهم ودروعهم تومض تحت ضوء اللهب الغاضب. أمّا صراخهم فملأ سماء الليل واختلط بصوت المنجنيق وقرع الطبول وصراخ المحتضرين، ولكنّ قصف المنجنيق طغى على كلّ شيء، فبدا للصبيّ أنّ العالم بأكمله ينهار شيئًا فشيئًا.

همس الصبيّ بتلاوة من المزمور: «كن رؤوفًا بي أيّها الربّ، فأنا في شدّة، عيناي أتلفهما الحزن، وأتلف روحي وجسدي أيضًا».

كان الحصار قد ضيّق الخناق حول المدينة كالمشنقة على مدى ستّة أشهر، تقدّمت خلالها فيالق الجيش الروماني، أربعة منها تدعمها آلاف من جنود الاحتياط، من مواقعها الأساسيّة على جبل سكوبوس (جبل المَشارِف) وجبل الزيتون نحو الداخل بلا توقّف، وخرقت جميع خطوط الدفاع مجبرة اليهود على التراجع ثم جمعتهم وسحقتهم في الوسط. فماتوا بأعداد لا تُحصى، إمّا قُطّعوا وهم يحاولون صدّ المهاجمين أو صُلّبوا على جدران المدينة وعبر وادي كيدرون، الذي أصبحت فيه أسراب النسور كثيفة إلى حدٍّ حجبَ نور الشمس. وكانت رائحة الموت تفوح في

كلّ مكان، نتنة، طاغية، تمزّق الأنوف.

قبل تسعة أيام خلت سقطت قلعة أنطونيا، تبعتها بعد ستّة أيام باحات مجمّع الهيكل الخارجيّة والأعمدة. ولم يتبقَّ الآن سوى الهيكل الداخلي المحصّن، الذي حُشر فيه ما بقي من سكان المدينة الفخورين كالسمك في البرميل، قذرين، جائعين، يأكلون الجرذان ويشربون بولهم، فقد كان عطشهم يُرثى له. مع ذلك، قاتلوا ببسالة، على نحو يائس، وأمطروا الغزاة بالصخور والأخشاب المشتعلة، وحاولوا التقدّم أحيانًا لإجبار الرومان على التراجع من الباحات الخارجيّة، ولكنّهم كانوا يتراجعون هم أنفسهم ويتكبّدون خسائر فادحة. فقد خسر الصبيّ شقيقيه الأكبرين في آخر هجمة من هذا النوع، إذ قُطّعا وهما يحاولان الإطاحة بإحدى آلات الحصار الرومانيّة. كلّ ما يعرفه هو أنّ رأسيهما المشوّهين كانا من بين تلك الرؤوس التي تقذف الآن من خلف الجدران إلى الداخل.

«*Vivat Titus*! *Vincet Roma*! *Vivat Titus*»!

ارتفعت أصوات الرومان تهدر باسم الجنرال تيتوس، ابن الإمبراطور فيسباسيان. فحاول المدافعون المتمركزون على طول الفتحات الردّ عليهم بصرخات مضادة منادين بأسماء قادتهم، جون غيشالا وسيمون بار-جورا. ولكنّ النداء كان ضعيفًا لأنّ أفواههم كانت ظمأى. وعلى كل حال، كان من الصعب حشد مزيد من الحماس لأجل رجال أُشيع بأنّهم عقدوا صفقة مع الرومان مقابل النجاة بأرواحهم. تواصلت الصرخات لدقيقة من الوقت ثمّ خبت شيئًا فشيئًا.

أخرج الصبيّ حصاة من جيب ردائه وراح يمصّها، محاولاً أن ينسى شدّة ظمئه. كان اسمه دايفيد، ابن جودا صانع الشراب. قبل الثورة الكبرى كانت عائلته قد قامت بقطف كرم من العنب من على التلال المدرّجة خارج بيت لحم. في الصيف، شارك الصبيّ بأعمال الحصاد وعصر العنب، وضحك من ملمس الفاكهة المسحوقة تحت قدميه وكيف صبغ عصيرها ساقيه باللون الأحمر. والآن دُمّرت معاصر العنب، وأُحرقت الكروم، وماتت عائلته كلّها. أصبح وحيدًا في العالم. لم يتجاوز عمره الثانية عشرة، ولكنّه يحمل هموم رجل كهل.

«ها قد أتوا مجدّدًا! استعداد! استعداد!»

ارتفعت الصرخة على طول الأسوار مع اندفاع موجة جديدة من الجنود الرومان نحو جدران الهيكل، يحملون السلالم فوق رؤوسهم بحيث بدوا في ضوء اللّهب وكأنّهم حشرات أم أربع وأربعين عملاقة تعدو على الأرض. انهمرت عليهم زخّة يائسة من الصخور جعلتهم يترنّحون للحظة قبل أن يعودوا للتقدّم من جديد. أخيرًا

بلغوا الجدران ورفعوا السلالم التي ثَبّتَ كلاً منها رجلان على الأرض، بينما استعمل عشرة رجال آخرون الأعمدة لرفعها إلى الأعلى نحو الفتحات. عندها بدأت أسراب من الجنود تتزاحم لتسلّقها، وأخذوا يرتفعون على أسوار الهيكل مثل موجة من الحبر الأسود.

بصق الصبيّ الحصاة ثمّ تناول حجر من بين كومة عند قدميه ووضعه في مقلاعه الجلدي. راح يبحث عن هدف ملائم، غافلاً عن عاصفة الأسهم المنطلقة من الأسفل. ترنّحت امرأة إلى جانبه إثر رمح اخترق حنجرتها وأخذت الدماء تتدفق عبر يديها. كانت واحدة من بين كثير من النساء اللواتي ساهمن في الدفاع عن الأسوار. تجاهلها وواصل مراقبته لصفوف العدو تحته، إلى أن وقع نظره على حامل لواء روماني يرفع شارة أبوليناريس، وهو الفيلق الخامس عشر. صرّ بأسنانه وبدأ يؤرجح المقلاع فوق رأسه، وعيناه مثبتتان على هدفه. دورة، اثنتان، ثلاث.

أمسك أحدهم بذراعه من الخلف. فاستدار وهو يلكم بقبضته الخالية ويركل.

«دايفيد! هذا أنا! إليازار. إليازار الصائغ!»

وقف خلفه رجل ضخم ملتحٍ، يحمل في حزامه مطرقة حديديّة ثقيلة، ويلّف رأسه بضمادة دامية. حين رآه الصبيّ توقّف عن اللكم.

«إليازار! اعتقدتك-»

ضحك الرجل بجذل وأرخى قبضته عن ذراع الصبيّ: «رومانيًّا؟ هل رائحتي نتنة إلى هذا الحدّ؟»

عاتبه الصبيّ قائلاً: «كدت أن أصيب حامل لوائهم، كانت ضربة سهلة. لكنت سحقت جمجمة ذاك الحقير!»

ضحك الرجل مجدّدًا، بدفء أكبر هذه المرّة: «أنا واثق أنّك كنت لتنجح في ذلك. الكلّ يعرف أنّ دايفيد بار-جودا هو أفضل من يستعمل المقلاع في المنطقة. ولكن ثمّة ما هو أهمّ الآن».

نظر حوله ثمّ خفض صوته قائلاً: «لقد استدعاك ماتياس».

اتسعت عينا الصبيّ وكرّر ذاهلاً: «ماتياس!»

وضع الرجل يده على فم الصبيّ، ونظر حوله مجددًا ثمّ قال هامسًا: «اهدأ! ثمّة أسرار هنا. لن يكون سيمون وجون مسرورين إن علما أنّنا فعلنا ذلك من دون علمهما».

بدا الارتباك في عيني الصبيّ لجهله عمّا يتحدّث الرجل. ولم يبذل الصائغ أيّ جهد لتوضيح قوله، بل نظر نحوه للتأكّد من أنّ كلماته قد أصابت هدفها، ثمّ رفع

يده عن فم الصبيّ، وأمسك بذراعه وقاده على طول الفتحات، ومن ثمّ عبْر سلّم ضيّق وصولاً إلى باحة النساء. وكانت الأرض الخشبيّة ترتج تحت أقدامهما فيما تجدّد قصف المنجنيق لبوابات الهيكل بمزيد من العنف.

حثّه قائلاً: «أسرع، لن تصمد الجدران طويلاً».

أسرعا الخطى عبر الباحة، وهما يتفاديان الرؤوس المبعثرة على الأرض والأسهم التي تقعقع حولهم. صعدا عند الطرف الآخر من الباحة الدرجات الخمس عشرة المؤدّية إلى بوابة ميكانور، ودخلا قاعة مفتوحة أخرى تجمّعت فيها حشود من الكوهينيم يصلّون غاضبين أمام مذبح المحارق العظيم. كانت أثوابهم ملطّخة بالسُخام الأسود وعويلهم يعبّر عن عنف المعركة.

أيّها الربّ، مع أنّك نبذتنا ودمّرت حصوننا؛
مع أنّك غضبت علينا؛
نجّنا!
مع أنّك جعلت الأرض تهتزّ تحت أقدامنا وتنشقّ،
رمّم شقوقها، لأنّها تتهاوى!

عبرا تلك الباحة أيضًا، وصعدا الدرجات الاثنتي عشرة المؤدّية إلى رواق الميشكان، وامتدّت فوقهما واجهته المهيبة كجرفٍ عالٍ، على ارتفاع مئات الأذرع، معلّق بالذهب الخالص المشغول على شكل نبات متعرّج رائع الجمال. توقّف إليازار هنا، ثمّ التفت إلى الصبيّ، وانحنى لتُصبح أعينهما على المستوى نفسه.

«لا أستطيع الذهاب أبعد من ذلك. وحدهم الكوهينيم والكاهن الأعلى يمكنهم دخول المكان نفسه».

قال الصبيّ بصوت غير مستقرّ: «وأنا؟»

«إنّه مسموح بالنسبة إليك. هذه المرّة، في هذا الظرف. هذا ما قاله ماتياس. الربّ سوف يتفهّم». ثمّ أضاف وهو يشدّ على كتفي الصبيّ: «لا تخف يا دايفيد. قلبك نقيّ ولن يصيبك أيّ أذىً».

نظر في عيني الصبيّ، ثمّ وقف ودفعه نحو المدخل الكبير، بعاموديه الفضّيين التوأم وستارته الحريريّة المطرّزة بألوانها التي تجمع بين الأحمر والأزرق والأرجواني.

«اذهب الآن. الله معك».

نظر الصبيّ إلى وجهه الضخم أمام السماء الملتهبة، ثمّ استدار، وأزاح الستارة ليعبر ردهةً طويلةً تتوزّع الأعمدة على جانبيها، أرضها مكسوّة بالرخام المصقول وسقفها مرتفع إلى حدّ أنّه اختفى في الظلال. كان المكان باردًا وهادئًا، هواؤه عابقًا برائحة حلوة مسكِرة. شعر بأنّ المعركة تتراجع وتختفي وكأنّها تدور في عالم آخر.

همس قائلاً: «شيما يزرائيل، أدوناي إلوهينو، أدوناي إيهود». «اسمع يا إسرائيل، الربّ هو إلهنا، الربّ واحد».

توقّف للحظة وهو يشعر بالرهبة، ثمّ بدأ يمشي ببطء نحو الطرف المقابل للردهة بخطىً مكتومة فوق الرخام الأبيض. بدت أمامه أغراض الهيكل المبجّلة - طاولة خبز التقدمة، مذبح البخور الذهبي، المينورا الكبيرة ذات الفروع السبعة - ومن ورائها رأى الحجاب الحريري الشفّاف الوامض الذي يتدلّى عند مدخل الدبيير، الذي يُحرّم دخوله على أيّ إنسان باستثناء الكاهن الأعلى وحده، ومرّة واحدة في العام، في يوم الكفّارة.

سمع صوتًا يقول: «أهلاً دايفيد، كنت بانتظارك».

خرج ماتياس، الكاهن الأعلى من الظلال عن يسار الصبيّ. كان يلبس رداءً بلونٍ أزرق سماويّ يعلوه مئزر باللونين الأحمر والذهبي، وكان يضع على رأسه تاجًا رقيقًا ويرتدي على صدره الإيفود، وهو درع الصدر المُبجّل، بأحجاره الكريمة الاثني عشر التي يمثّل كلّ منها إحدى قبائل إسرائيل. كانت تجاعيد وجهه عميقة ولحيته بيضاء.

قال بلطف: «أخيرًا التقينا يا ابن جودا». ثمّ اقترب من الصبيّ وأخذ يحدّق إليه، ورافق حركته رنين ناعم صادر عن عشرات الأجراس الصغيرة المثبّتة حول حاشية ردائه. ثمّ أضاف: «أخبرني إليازار الصائغ الكثير عنك. فمن بين جميع من يدافعون عن الأماكن المبجّلة، يقول إنّك الأكثر شجاعة والأجدر بالثقة. هذا ما قاله».

حدّق إلى الصبيّ ثمّ أخذ بيده وقاده إلى آخر الردهة ثمّ توقّفا أمام المينورا الذهبيّة، بفروعها المقوّسة وقوائمها المزخرفة بدقّة، والتي نُحتت من كتلة واحدة من الذهب الخالص. حدّق الصبيّ إلى المصابيح الخافقة فيما راحت عيناه تومضان مثل صفحة الماء المترقرقة تحت أشعة الشمس.

قال العجوز وهو يلاحظ الإعجاب على وجه الصبيّ ويضع إحدى يديه على كتفه: «جميلة، أليس كذلك؟ ما من شيء على وجه الأرض أكثر تبجيلاً بالنسبة إلينا ولا أكبر قيمة بالنسبة إلى شعبنا، لأنّ نور المينورا المبجّلة هو نور المبجّل نفسه. وإن فقدناه...»

تنهّد ورفع يده يلمس الدرع على صدره.

أضاف: «إليازار هو رجل طيّب. إنّه بيزاليل ثانٍ».

وقفا للحظة طويلة صامتَين يتأمّلان الشمعدان العظيم الذي كان نوره يلفّهما ويغمرهما. ثمّ هزّ الكاهن الأعلى رأسه واستدار لمواجهة الصبيّ مباشرةً.

قال بهدوء: «قضى المبجّل اليوم أن يسقط هذا الهيكل، تمامًا كما حدث سابقًا، في هذا اليوم بالذات، تيش باف، منذ أكثر من ستمائة عام، حين ضاع بيت سليمان على أيدي البابليين. سوف تدمّر أحجاره المبجّلة لتصبح رمادًا وتُمزّق أسقفه إرَبًا وسيُنفى شعبنا ويشتت في أنحاء الأرض». انحنى قليلاً وهو يحدّق إلى عيني الصبيّ ثمّ أضاف: «لدينا أمل واحد يا دايفيد. ثمّة سرّ، سرّ عظيم لا يعرفه سوى قلّة منّا. والآن، في هذه الساعة الأخيرة، ستعرفه أنت أيضًا».

انحنى نحوه، وخفض صوته، وراح يتكلّم بسرعة وكأنّه يخشى أن يسترق أحدهم السمع، مع أنّهما كانا وحيدين تمامًا. اتسعت عينا الصبيّ ذهولاً وهو يصغي، فيما راح نظره يتنقّل من الأرض إلى المينورا ومن ثمّ إلى الأرض مجددًا وكتفاه ترتجفان. وحين انتهى الكاهن، استقام وخطى خطوة نحو الخلف.

لاح على جانبي ثغره شبح ابتسامة وهو يقول: «أترى، حتّى في أوقات الهزيمة ثمّة انتصار. حتّى في الظلام، ثمّة نور».

لم يقل الصبيّ شيئًا، فقد بدا وجهه مشوّشًا يتنازعه الذهول وعدم التصديق. مدّ الكاهن يده وداعب شعره.

«لقد سبق وخرج من المدينة وأصبح خلف الجيوش الرومانيّة. والآن يتعيّن عليه أن يغادر هذه الأرض تمامًا لأنّ دمارنا قريب ولا يمكننا أن نضمن أمنه بعد الآن. لقد تمّ ترتيب كلّ شيء ولم يتبقَّ سوى تسمية وصيٍّ لإيصال الشيء إلى مقرّه الأخير، والانتظار معه إلى أن تحلّ ظروف أفضل. وقد تمّ تعيينك في هذه المهمة يا دايفيد بن جودا. هذا إن قبلت. هل ستقبل بهذه المهمة؟»

شعر الصبيّ أنّ نظره ينشدّ نحو نظر الكاهن، وكأنّ خيوطًا غير مرئيّة تجذبه إليه. كانت عينا العجوز رماديّتين ولكنّهما تفيضان بشفافيّةٍ منوّمة غريبة، مثل غيومٍ طافية في سماء صافية واسعة. شعر بثقل في داخله وبخفّة أيضًا، وكأنّه يطير.

سأل بصوت أجشّ: «ماذا عليّ أن أفعل؟»

نظر الرجل إليه وراح نظره يطوف فوق ملامح الصبي وكأنّه يقرأ كتابًا. ثمّ هزّ رأسه، ومدّ يده إلى جيبه، وأخرج لفافةً ورقيّة صغيرة أعطاها له.

«هذه سترشدك، افعل ما هو وارد فيها وسيكون كلّ شيء على ما يرام».

ثـمّ أحـاط وجـه الصبـيّ بيديـه قائلاً: «أنـت أملنا الآن يا دايفيد بـن جودا. معك وحدك ستبقى الشعلة مضاءة. لا تخبر أحدًا بهذا السرّ، بل احرسه بحياتك وانقله إلى أبنائك وإلى أبناء أبنائك وأبنائهم من بعدهم إلى أن يحين الوقت لكشفه».

حدّق الصبيّ إليه ثمّ همس: «ولكن متى يا سـيّدي؟ كيف أعرف بأنّ الوقت قد حان؟»

نظـر الكاهـن فـي عينيـه للحظـة ثمّ اسـتقام واسـتدار نحـو المينورا، يحـدّق إلى مصابيحهـا المتألّقـة قبـل أن يُغمـض عينيـه تدريجيًّـا وكأنّـه يدخـل فـي نشـوة. أصبح الصمت حولهما أعمق وأثقل، وبدت الأحجار الكريمة على صدره وكأنّها تشعّ بضوء داخلي.

قال بلطف، وبدا صوته بعيدًا فجأة، وكأنّه يتحدّث من مكان شديد الارتفاع: «ثمّة ثلاث علامات لإرشادك. أوّلاً، سوف يأتي أصغر الاثني عشر وبيده صقر، ثانيًا، سيقف ابن لإسـماعيل وابن لإسـحاق معًا كصديقين في بيت، ثالثًا، سـيكون الراعي والأسـد واحدًا، وعلى عنقهما مصباح. حين تحدث هذه الأشياء، يكون الوقت قد حان».

بدا الوشاح المعلّق أمام الدبيبر أمامهم وكأنّه يتحرك بخفّة، وشعر الصبيّ بنسمة ناعمـة بـاردة تلفـح وجهه. سـمع أصداء أصـوات غريبة في أذنيه وبوخز على بشـرته. كانت ثمّة رائحة غريبة، غنيّة وعتيقة كالزمن نفسه، إن كان للزمن رائحة. لم تدم سوى للحظة قبل أن يسـمعا فجأة دويًّا عظيمًا وصوت تحطّم من الخارج، تبعه صرخة من آلاف الأصوات التي ارتفعت رعبًا ويأسًا. ففتح الكاهن عينيه. قال: «إنّها النهاية، كرّر العلامات أمامي!»

كرّرها الصبيّ والكلمات تتعثّر بين شفتيه. فطلب منه العجوز تكرارها ثانيًا وثالثًا، إلـى أن حفظهـا تمامًـا. أصبحت أصـوات المعركة تندفع كالفيضان – صرخات الألم، قعقعة الأسلحة، وتحطّم الجدران. أسرع ماتياس عبر الردهة ونظر من خلال المدخل، ثمّ عاد مسرعًا.

صرخ قائلاً: «لقد عبروا بوابة نيكانور! لا يمكنك العودة من ذلك الطريق. تعالَ ساعدني!»

تقدّم العجوز وأمسـك بسـاق المينورا وبدأ يجرّها على الأرض. سـاعده الصبيّ ونقلاها مسافة متر إلى اليسار، فانكشفت لهما بلاطة رخاميّة ثُبّتت فيها قبضتان. أمسك بهمـا الكاهـن ورفـع البلاطـة، فظهرت فجوة مظلمة بدا فيها سـلّم حجري ضيّق يلتّف نزولاً في الظلام.

قـال وهـو يمسـك بـذراع الصبـيّ ويقـوده إلى داخـل الفُتحة: «فـي الهيكل كثير

من الطُرق السريّة، وهذا أكثرها سريّة. انزل الأدراج واتبع السرداب. لا تستدر يمينًا أو يسارًا. سوف يقودك الطريق بعيدًا خارج المدينة، نحو الجنوب، خلف الجيوش الرومانيّة بمسافة كبيرة».

«ولكن ماذا عن-»

«لا وقت لذلك! اذهب! أنت الآن أمل شعبنا. سأسميك شومير ها-أور. احمل هذا الاسم واحتفظ به وافتخر به ومرّره لمن بعدك. سوف يحفظك الربّ، ويُحاسبك أيضًا».

انحنى وقبّل وجنتي الصبيّ ثمّ وضع يده على رأسه ودفعه نحو الأسفل. بعد ذلك رفع البلاطة الرخاميّة وأغلق الفُتحة، ثمّ جرّ المينورا وبالكاد وجد الوقت لإعادتها إلى مكانها قبل أن تتناهى إليه الصرخات من الطرف المقابل للردهة، تلتها أصوات السيوف. ترنّح إليازار الصائغ إلى الخلف أمام المدخل، وكانت إحدى ذراعيه تتدلّى إلى جانبه، فيما بدا جدع دامٍ في المكان الذي كانت فيه. أمّا يده الأخرى فكانت تمسك بمطرقته التي كان يلوّح بها بجنون أمام جدار من الجنود القادمة على أثره. تمكّن للحظة من إبعادهم، ثمّ أطلقوا صرخة واندفعوا إلى الأمام فانهار على الأرض حيث قُطّعت أوصاله وسُحق جسده.

صرخ : «يهوه! يهوه!»

راقب الكاهن الأعلى المشهد بوجه خالٍ من التعابير، ثمّ استدار وتناول قبضة من البخّور ورشّها على الجمرات المشتعلة في المذبح الذهبي. فانبعثت غيمة من البخار المعطّر في الهواء. سمع الرومان وهم يتقدّمون خلفه. كانت صلصلة نعالهم الحديديّة تملأ المكان ضجيجًا وقعقعة أسلحتهم تتردّد عبر الجدران.

أصبح الرومان خلفه الآن. أغمض عينيه وسمع ضحكةً وصلصلة سيفٍ ترتفعان عاليًا في الهواء. بدا له للحظة بأنّ الزمن يتوقّف، ثمّ انخفض السيف وشقّ جسد الكاهن الأعلى بين كتفيه، عبر جسده. ترنّح إلى الأمام ثمّ انهار على ركبتيه.

تدفّق الدّم من زاويتي فمه وقحّ وهو يلفظ كلماته الأخيرة: « ليرتاح في بابل! في بابل، في منزل آبنر».

ثمّ سقط على وجهه ميتًا عند قدم المينورا العظيمة. فركل الجنود جثّته ورفعوا كنوز الهيكل على أكتافهم وحملوها في المكان.

راحوا يصرخون: «*Vicerunt Romani! Victi Iudaei! Vivat Titus!*». «انتصرت روما! هُزم اليهود! عاش تيتوس!»

جنوب ألمانيا كانون الأوّل 1944

شدّ إسحاق إديلشتاين زيّ العمل المقلّم حوله ونفخ في يديه اللتين أصبحتا أرجوانيتين من شدّة البرد. انحنى إلى الأمام وحاول النظر من نافذة في الجزء الخلفي من الشاحنة ولكنّه لم يميّز الكثير من خلف ستارة القنّب غيرَ الإسفلت الرطب وجذوع الأشجار والشاحنة التي تتبعهم. استدار وضغط وجهه على شقٍّ في جانب الستارة، فلمح منحدرًا وسفوحًا مكسوّة بالأشجار والثلوج، قبل أن يتلقّى ضربة بطرف بندقيّة عند كاحله.

«وجهك إلى الأمام. اجلس ساكنًا».

استقام وراح يحدّق إلى قدميه العاريتين داخل الجزمة البالية، التي لم تشكّل سوى وقاءً ضئيلاً من طقس الشتاء الجليدي. بدأ الحاخام الجالس إلى جانبه يسعل مجدّدًا، وجسده الضعيف يرتجف وكأنّه ثمّة من يهزّه. أخذ إسحاق يديّ الرجل العجوز بين يديه وراح يفركهما محاولاً أن يبعث فيهما شيئًا من الدفء.

صرخ الحارس: «اتركه».

«ولكنّه-».

«هل أنت أصمّ؟ قلت لك اتركه».

ورفع بندقيّته نحو إسحاق، فسحب العجوز يديه.

«لا تقلق عليّ يا صديقي الشاب، فنحن الحاخامات أقوى ممّا تظن».

ابتسم بضعف وغرقوا في الصمت، أعينهم مركّزة على الأرض، يرتعشون ويتمايلون على بعضهم كلّما استدارت الشاحنة يمينًا أو يسارًا.

كانوا ستّة، باستثناء الحارسين: أربعة يهود، وشيوعيّان. تمّ اقتيادهم من المخيّم إلى الشاحنة فجرًا وهم يتجهون منذ ذلك الحين شرقًا وجنوبًا كما قدّر إسحاق، مع أنّه ليس أكيدًا من ذلك. ففي البداية، كانت الأرض مسطّحة ورطبة والطريق مستقيمًا. ولكنّهم بدأوا في الساعة الأخيرة يتجهون صعودًا على نحو متواصل، وكانت المراعي والغابات تكتسي تدريجيًّا ببياض الثلج. ثمّة شاحنة أخرى خلفهم، فيها سائق ورجل واحد. ولكنّها لم تكن تحتوي على معتقلين، على حدّ علم إسحاق.

مرّر يده على رأسه الحليق، الذي لم يعتد على ملمسه على الرغم من السنوات الأربع التي انقضت حتّى الآن، ثمّ ضمّ يديه بين فخذيه وحنى كتفيه محاولاً تحويل أفكاره ومقاومة البرد والجوع بذكريات أكثر دفئًا وبأوقات أفضل. حفلات العشاء العائليّة في منزلهم في دريسدين؛ دروس المشنة في اليبشيفا القديمة، فرح الأعياد، لا

سيّما الحانوكا، مهرجان الأنوار، وهو المفضّل لديه من بين جميع الأعياد. وبالطبع ريفكا، ريفكا الجميلة شقيقته الصغرى. كانت معتادة على الغناء وهي تداعب خصلتي البي أوت المتدلّيتين إلى جانبي وجهه، وشراريب التاليت كاتان الذي كان يرتديه: «بيتزي، شميتزي، إيتزي بيتزي! بيتزي، ويتزي، ميتزي، ديتزي!» كم كانت مضحكة بشعرها الأسود الفاحم وعينيها البرّاقتين! كم كانت قويّة وشجاعة! «أيّها الأنذال!» هكذا صرخت حين قاموا بجرّ والدها إلى الشارع وقصّوا خصلتي شعره. «أيّها الأنذال الحقيرون!» فما كان منهم سوى أن اجتثوا خصلاً من شعرها ثمّ دفعوها إلى أحد الجدران وأطلقوا عليها النار.

ثلاثة عشر عامًا وجميلة جدًّا يا لريفكا الصغيرة المسكينة.

عبرت الشاحنة حفرة واهتزت بعنف فأعادته إلى الحاضر. التفت إلى الخلف ورأى أنهم كانوا يعبرون قرية كبيرة. أمال عنقه ورأى من خلال الشقّ في الستارة لافتة على جانب الطريق كُتب عليها بيرشتيسغادن. وبدا له الاسم مألوفًا ولكنّه لم يتمكّن من تذكّره.

صرخ الحارس: «وجهك إلى الأمام. لن أكرّرها مجددًا».

سارت الشاحنة لنصف ساعة أخرى وكان الطريق يزداد ارتفاعًا والمنعطفات تُصبح أكثر حدّة، إلى أن انطلق بوق الشاحنة خلفهم فتوقّفوا.

أمر الحارسان وهما يلكمانهم بالبنادق: «اخرجوا!»

جاهدوا للنزول من الشاحنة، وأمواج من البخار تتصاعد من أفواههم. كانوا وسط غابة صنوبر كثيفة، وقد أوقفوا الشاحنة قرب مبنى حجري قديم ذي نوافذ خالية. كانت تبدو لهم في الأسفل من بين الأغصان المحمّلة بالثلوج بقعٌ من المراعي الخضراء ومنازل موزّعة هنا وهناك، صغيرة كالألعاب، تتصاعد من مداخن مدافئها كُتَل من الدّخان. وكانت تعلوها سفوح غابيّة شديدة الانحدار تصعد نحو الأعلى وتختفي في الضباب والغيوم وفي ظلام يوحي بجبال شاهقة. كان المكان هادئًا جدًّا وشديد البرودة. فراح إسحاق يحرّك قدميه ليمنع عنهما الخدر.

توقّفت الشاحنة الثانية خلفهم. فانحنى الرجل الجالس إلى جانب السائق من النافذة وكان يرتدي معطفًا جلديًّا ذا ياقة عالية ويبدو أنّه هو المسؤول، ثمّ قال شيئًا للحارسين وهو يشير بيده.

صرخ الحارس: «تعالوا إلى هنا».

اقتيدوا إلى الجزء الخلفي من الشاحنة الثانية. وارتفعت ستارة القنّب كاشفة عن صندوق خشبيّ كبير.

«أخرجوه! هيّا! أسرعوا!»

بصعوبة، صعد إسحاق وأحد الشيوعيين، وكان رجلاً متوسط السنّ نحيل الجسد، بدا على ساق بنطاله مثلّث أحمر اللون - كانت ملابس إسحاق تحمل مثلّثات صفراء متراكبة تشير إلى أنّه يهوديّ - إلى الشاحنة وأمسكا بجانبيّ الصندوق. كان ثقيلاً واحتاجا إلى كلّ قوتيهما لجرّه فوق الأرض المعدنيّة وإيصاله إلى باب الشاحنة. عندها استلمه الباقون وبدأوا ينزلونه ببطء على الطريق الجليدي.

فانحنى الرجل صاحب المعطف من نافذة الشاحنة وصرخ قائلاً: «لا، لا، لا! ليحملوه إلى هناك». وأشار إلى ما وراء المبنى القديم، نحو طريق ضيّق مكسوّ بالثلوج يمتدّ صعودًا بين الأشجار، وأضاف: «واحرصوا على أن يحملوه بحذر!»

نظر السجناء إلى بعضهم يعبّرون بصمت عن خوفهم وإجهادهم، ثم انحنوا ورفعوا مجدّدًا الصندوق ببطء، وأمسك كلّ منهم بزاوية واثنان في الوسط، يئنّون تحت ثقله. تمتم أحد الشيوعيّين: «سيكون هذا شاقًّا، سيكون شاقًّا جدًّا».

بدأوا يسيرون في الغابة، وأقدامهم تغرق في الثلج إلى ما تحت الركب. وتبعهم الحارسان والرجل صاحب المعطف الجلدي، مع أنّ إسحاق لم يجرؤ على الالتفات خوفًا من أن يفقد توازنه. أمامه، كان الحاخام يسعل بشدّة.

همس إسحاق قائلاً له: «دعني آخذ عنك بعضًا من الوزن. فأنا قويّ وهذا سهل عليّ».

أجابه العجوز بصوت مبحوح: «أنت كاذب يا إسحاق، وكاذب فاشل».

صرخ أحد الحارسين من خلفهم: «اخرسا! الكلام ممنوع».

جاهدوا للسير قُدُمًا وهم يئنّون من التعب، وبشرتهم تحترق من البرد. فالطريق الذي كان لطيف الانحدار بدأ يرتفع على نحوٍ أقسى ويتلوّى بين الأشجار ويلتفّ حول نفسه. كما أصبح الثلج أكثر عمقًا. وعندما وصلوا إلى قسم شديد الانحدار، خسر أحد الشيوعيين توازنه وتعثّر، فتمايل الصندوق واصطدم بجذع إحدى الأشجار، فتصدّعت زاويته اليسرى الأماميّة وانكسرت.

صرخ صاحب المعطف الجلدي: «أيّها الأحمق! ارفعاه!»

تقدّم الحارسان ورفعا الرجل وأوقفاه على قدميه ثمّ أجبراه على رفع الصندوق مجدّدًا على كتفيه.

قال وهو يشير إلى فردة حذائه اليسرى التي خلعت من قدمه وكانت نصف مدفونة في الثلوج: «حذائي».

ما كان من الحارسين إلاّ أن ضحكا وركل أحدهما الجزمة بعيدًا ثمّ أمرا الجميع بالسير من جديد.

همس الحاخام: «ليكن الله بعونه، ليكن الله بعون الشاب المسكين».

واصلا الصعود إلى الأعلى، وهم يلهثون ويئنّون، وكان الطريق يزداد ارتفاعًا فيما بدا لهم بأنّ كلّ خطوة كانت تستهلك شيئًا من أرواحهم، إلى أن شعر إسحاق أنّه سيسقط ميتًا بالتأكيد. وفجأة أصبح الطريق مستويًا وانكشفت الأشجار عمّا بدا وكأنّه موقع مقلع حجريّ متروك، حُفِر عميقًا في سفح التلّ.

في اللحظة نفسها، انقشعت الغيوم من فوقهم كاشفةً عن جبل شاهق، وظهر لهم في جانبه الأيمن مبنىً صغير يُطلّ على طرف جرف. لم تدم الرؤيا سوى لبضع ثوانٍ ثمّ ضاعت مجدّدًا خلف ستارة كثيفة من الضباب وسرعان ما اختفت حتّى إنّ إسحاق تساءل ما إذا كانت من نسج خياله المرهق واليائس.

صرخ صاحب المعطف الجلدي: «من هنا، إلى داخل المنجم!»

كان في الجزء الخلفي من المقلع وجه صخري عامودي، فُتح في وسطه مدخل عريض أسود، بدا وكأنّه فم يصرخ. تقدّموا متعثّرين نحوه وهم يعبرون أكوامًا من الصخور المغطاة بالثلوج ورافعةً مكسورة وعربة مقلوبة رأسًا على عقب ذات عجلة صدئة واحدة ويختارون خطاهم بحذر فوق الأرض غير المستوية. حين وصلوا إلى الفُتحة، قرأ إسحاق الكلمتين GLÜCK AUF محفورتين في الصخر فوق المدخل، وكُتب تحتهما بالطلاء الأبيض بحجم لا يتجاوز نصف إبهام الأحرف SW16.

«هيّا إلى الداخل! أدخلوه!»

نفّذوا الأمر وهم ينحنون تفاديًا لارتطام الصندوق بالسقف المنخفض. فأخرج أحد الحارسين مصباحًا ووجّهه نحو الظلام كاشفًا عن ممرّ طويل في سفح التلّ مدعّم على مسافات منتظمة بدعائم خشبيّة. ثمّة سكّة حديديّة تمتد فوق الأرض الحجريّة المسطّحة، أمّا الجدران فكانت خشنة وغير مستوية، منحوتة في الصخر، وكانت تبدو هنا وهناك خطوط سميكة من الكريستال الورديّ البرتقاليّ، تُضيء الصخرة مثل البرق الذي يُضيء السماء المظلمة. ثمّة أدوات مبعثرة على الأرض - مصباح زيت صدئ، معوَل، دلو معدني قديم - أضفت على المكان جوًّا من الخوف والعزلة.

أُجبروا على السير لمسافة خمسين مترًا تقريبًا، حتّى وصلوا عند نقطة تفرّعت فيها السكّة الحديديّة إلى طريقين، أحدهما يتواصل إلى الأمام والآخر يلتفّ يمينًا إلى داخل نفق آخر يشكّل زاوية مستقيمة مع الطريق الأساسي، وكانت جدرانه تختفي خلف أكوام من الصناديق المتراصّة. ثمّة عربة مسطّحة مركونة إلى جانب مدخل هذا

الممرّ الجانبي، أُمروا بوضع الحِمْل عليها. قال صوت من خلفهم في الظلام: «تمام. هيّا، أخرجاهم!»

استداروا عائدين أدراجهم وهم يتنفّسون مجهدين، وسعداء لأنّ مهمّتهم انتهت على ما يبدو، وكان أحد اليهود يسند الشيوعي الذي أصبحت قدمه العارية سوداء اللون. تحدّثوا مع بعضهم بدمدمة غير مفهومة ثمّ خرج الحارسان أيضًا. أمّا صاحب المعطف فبقي في المنجم.

حين خرجوا إلى الهواء الطلق قال الحارس: «قفوا هناك، عند تلك الصخرة».

نفّذوا الأمر وساروا نحو كومة صخور ثمّ استداروا، ليفاجأوا بأنّ الحارسين قد رفعا سلاحيهما نحوهم.

فجأة أدرك إسحاق ما سيحدث وهمس قائلاً: «أوي فاي.».

ضحك الحارسان، ومزّق صوت الرصاص سكون الشتاء.

القِسْمُ الأُوَل

الزمن الحاضر

وادي الملوك، الأقصر، مصر

«هل يمكننا العودة إلى البيت باكرًا، بابا؟ سوف يبدأ عالم سمسم على التلفزيون».

أطفأ الضابط عز الدين خليفة سيجارته وتنهّد محدّقًا إلى ابنه علي الواقف قربه وهو يضع إصبعه في أنفه. كان رجلاً رشيقًا ونحيلاً، عظام خدّيه مرتفعة، شعره مسرّحًا بعناية وعيناه كبيرتين وبرّاقتين. كان يوحي بالهدوء والمرح، رجل جادّ يستمتع بالضحك.

وبّخ ابنه بلطف: «أنت لا تحصل دائمًا على جولة خاصّة في أعظم موقع أثري في مصر، يا علي».

تذمّر الولد قائلاً: «ولكنّني أتيت إلى هنا مع المدرسة مرّتين. أرتنا السيّدة ودود كلّ شيء».

قال خليفة: «أنا واثق أنّها لم تُريكم قبر رمسيس الثاني الذي رأيته اليوم، ولا يويا وتجويو».

قال علي: «لم يكن فيه شيء، مجرّد عصيٍّ وكومة من الضمادات القديمة».

أصرّ الأب قائلاً: «مع ذلك، نحن محظوظان لأنّه سُمح لنا بالدخول. فهو لم يُفتح أمام العامّة منذ اكتشافه عام 1905. ولمعلوماتك، فإنّ تلك الضمادات القديمة كانت الغطاء الأصلي للمومياء، تمامًا كما تركها لصوص القبر قديمًا، بعدما نزعوها عن الجثث».

رفع الصبيّ نظره وإصبعه لا يزال مقحمًا في أنفه، وقد شابت عينيه ومضة من الاهتمام.

«ولماذا فعلوا ذلك؟»

«حسنًا، حين لفّ الكهنة المومياءات، وضعوا بين اللفائف الجواهر والتمائم الثمينة، وكان اللصوص يحاولون الحصول عليها».

أضاء وجه الصبيّ حماسًا.

«وهل حاولوا حفر أعينها أيضًا؟»

أجاب خليفة مبتسمًا: «ليس على حدّ علمي. مع أنّهم كانوا في بعض الأحيان يكسرون الأصابع أو الأيدي. وهذا ما سأفعل الآن إن لم تنزع إصبعك من أنفك!»

وقبض على يد ابنه وشدّ عليها مداعبًا أصابعه كأنّه يحاول كسرها. فراح علي يتلوّى ويقاوم وهو يضحك.

صرخ قائلاً: «أنا أقوى منك يا بابا!»

قال خليفة وهو يحمل الصبيّ حول وسطه ويقلبه رأسًا على عقب: «لا أظنّ ذلك، لا أعتقد حتّى أنّك بنصف قوّتي».

كانا يقفان في وسط وادي الملوك قريبًا من مدخل قبر رمسيس السادس. كان الوقت متأخّرًا من بعد الظهيرة، وحشود السيّاح التي ملأت الوادي معظم النهار قد غادرته وتركته خاليًا على نحو مخيف. بقربهما، كانت مجموعة من العمّال ينظّفون بقايا الرمل من موقع للتنقيب ويغنّون وهم ينقلون قطعًا من الجير المحطّم إلى دلاء مطاطيّة. وفي بقعة أبعد من الوادي، كان طابور من السيّاح يدخل قبر رمسيس التاسع. وفيما عدا ذلك، كان المكان خاليًا، باستثناء بضعة عناصر من الشرطة السياحيّة، وأحمد مسؤول المستودع. وعلى المنحدرات التي تعلو الوادي، جلس كلّ من بائع البطاقات البريديّة المتجوّل الغريب وبائع العصير، حيثما وجدا ظلاً، يحدّقان إلى الأسفل أملاً بإيجاد زبون متأخّر.

قال خليفة وهو يضع ابنه أرضًا مداعبًا شعره: «اسمع، سنقوم بجولة سريعة في قبر أمنحوتب الثاني ونختم نهارنا بها، موافق؟ سيكون من غير اللائق أن نرجع الآن بعد أن تكبّد سعيد كلّ هذا العناء لإيجاد المفتاح».

بينما هو يتكلّم، سمعا صرخة من مكتب الضابط على بعد خمسين مترًا، ثمّ بدأ رجل طويل يتوجّه نحوهما متبخترًا.

قال الرجل وهو يلوّح بالمفتاح: «وجدته! لقد علّقه أحدهم في غير مكانه».

كان سعيد ابن بساط، المعروف بلقب زنجبيل بسبب شعره النحاسي، صديقًا قديمًا لخليفة. التقيا منذ سنوات في جامعة القاهرة التي كانا يدرسان فيها التاريخ القديم. ولكنّ المشاكل الماديّة أجبرت خليفة على ترك دراسته وإيجاد وظيفة في الشرطة. أمّا سعيد، فأنهى دراساته وتخرّج بامتياز والتحق بقسم الآثار، حيث رقّي إلى رتبة مساعد مدير وادي الملوك. ومع أنّ خليفة لم يقل ذلك أبدًا، إلاّ أنّها الحياة التي كان ليختارها لنفسه لولا أن أجبرته الظروف على اتخاذ سبيل آخر. فهو يحبّ التاريخ القديم وكان ليفعل أيّ شيء لكي يتمكّن من تكريس وقته للعمل في مجال الآثار. بالطبع، هو لا يكنّ في نفسه أيّ حسد لصديقه. فزنجبيل لا يملك عائلة مثله، وهو أمر ما كان ليتخلّى عنه أبدًا، ولا حتّى مقابل جميع آثار مصر.

توجّه الثلاثة معًا عبر الوادي، وتجاوزوا قبري رمسيس الثالث وحورمحب قبل أن يتجهوا يمينًا في طريقهم إلى مدخل قبر أمنحوتب الثاني، الذي كان يقع أسفل سلسلة من الدرجات تحميه بوابة حديديّة ثقيلة. وبدأ زنجبيل يحرّك القفل.

سأله خليفة: «إلى متى سوف يبقى مقفلاً؟»

«لشهر واحد تقريبًا. فأعمال الترميم أوشكت على الانتهاء».

أقحم علي نفسه بينهما ووقف على رؤوس أصابعه يحدّق من خلال قضبان البوابة إلى الظلام الدامس خلفها.

«هل ثمّة كنوز هنا؟»

قال زنجبيل وهو يرفع الصبيّ ليبعده من طريقه ويفتح البوابة: «كلاّ، لقد سُرقت كلّها قديمًا».

حرّك المفتاح الكهربائي فأشعل النور مضيئًا ممرًّا طويلاً شديد الانحدار منحوتًا في الصخور، لا تزال جدرانه وسقفه تحمل آثار تموّجات الإزميل القديم البيضاء. بدأ علي يسير فيه.

قال لهما وأصداء صوته تتردّد بين جدران القبر الضيّق: «هل تعلمان ماذا كنت لأفعل لو كنت ملك مصر؟ لكنت جهّزت غرفة سريّة ووضعت كنزي فيها، وصنعت غرفة أخرى فيها كنز صغير لكي أخدع اللصوص، مثل ذاك الذي أخبرتني عنه يا بابا، ما كان اسمه؟»

قال خليفة مبتسمًا: «حور عنخ أمون».

«أجل. ولكنت وضعت أيضًا أفخاخًا مثل أفخاخ العصافير لكي يقعوا فيها. وعندها أقبض عليهم وأضعهم في السجن».

قال زنجبيل ضاحكًا: «عندها سيكونون محظوظين لأنّ العقاب المعتاد للصوص القبور في مصر القديمة كان جذم الأنف وإرسال السارق إلى مناجم الملح في ليبيا، إما هذا أو وضعهم على الخازوق».

غمز خليفة وهو يضحك ثمّ بدأ الرجلان يسيران في الممرّ وراء علي. لم يسيرا سوى بضعة أمتار حين سمعا صوت خطى مسرعة خلفهما. فظهر رجل يرتدي جلاّبيّة عند مدخل القبر وهو يتنفّس بسرعة.

قال وهو يلهث: «هل ثمّة من يُدعى الضابط خليفة هنا؟»

نظر الضابط إلى صديقه ثمّ خطى خطوة نحو المدخل قائلاً: «أنا هو».

«عليك أن تأتي بسرعة إلى الجهة الأخرى. لقد عثروا على...»

توقّف الرجل محاولاً التقاط نفسه.

سأله خليفة: «ماذا؟ على ماذا عثروا؟»

نظر إليه الرجل جاحظ العينين وأجاب: «جثّة!»

أتى صوت علي من خلفهما: «رائع! هل يمكنني المجيء أنا أيضًا، بابا؟»

***

تم اكتشاف الجثّة في ملقاتة، وهو موقع أثري عند الطرف الجنوبي لجبال طيبة، وكان في ما مضى قصر الفرعون أمنحوتب الثالث، ولكنّه أصبح الآن مساحة مهجورة من الآثار المغطاة بالرمال لا يزوره سوى أكثر محبّي الآثار إخلاصًا. ثمّة سيّارة شرطة من نوع ديوو تنتظر خليفة خارج مكتب الوادي، فصعد وجلس على المقعد المجاور للسائق بعد أن ترك ابنه مع زنجبيل الذي وعد بإعادته آمنًا إلى البيت. وانطلقت السيّارة فيما تردّدت صرخات علي خلفهم.

«لا أريد الذهاب إلى البيت، بابا! أريد رؤية الجثّة!»

استغرقهما الوصول إلى الموقع عشرين دقيقة. قاد عنصر الشرطة، وهو شاب ذو وجنتين منمّشتين وأسنان رديئة، السيّارة بسرعة عبر تلال سهل النيل ثمّ استدار جنوبًا على طول طرف سلسلة الجبال. راح خليفة يتأمّل من النافذة حقول قصب السكّر والملوخيّة وهو يدخّن سيجارة كليوباترا ويُصغي من دون تركيز إلى تقرير الأنباء الصادر من مذياع السيّارة عن تصاعد العنف بين الإسرائيليين والفلسطينيين – عملية استشهاديّة أخرى، إجراءات انتقاميّة إسرائيليّة أخرى، مزيد من الموت والبؤس.

قال السائق: «سوف تندلع الحرب».

تنهّد خليفة وهو يأخذ نفسًا آخر من سيجارته ويطفئها خارج النافذة: «إنّها مندلعة أساسًا، منذ خمسين عامًا».

تناول السائق علبة لُبان من أمامه ووضع قطعتين في فمه وراح يمضغهما بقوّة.

«هل تعتقد بأنّ السلام سوف يحلّ يومًا ما؟»

«ليس إن استمرّت الحال على ما هي عليه. انتبه للعربة».

انحرف السائق لتجنّب عربة يجرّها حمار كُدست فوقها أكوام قصب السكّر، وداس على الفرامل في الوقت المناسب لتجنّب ارتطام مؤكّد بباص سياحيّ.

غمغم الضابط وهو يتمسّك باللوح الأمامي: «يا لطيف، يا ساتر!»

تجاوزا دير البحري والرمسيوم والآثار المبعثرة لمعبد ميرينبتاه الجنائزي، قبل أن يبلغا نقطة تفرّع فيها الطريق إلى اتجاهين، أحدهما شرقًا نحو النيل، والآخر غربًا إلى

قريـة العمّـال القديمـة فـي دير المدينة ووادي الملـكات. فواصلا طريقهما إلى الأمام، وانتقلا من الطريق المعبّد إلى طريق رمليّ قادهما عبر المعبد الكبير في مدينة حبو ومنه إلى مسـاحة صحراويّة مموّجة، سـطحها مكسـو بالقش والنباتات الشـوكيّة المتشابكة. قادا لمسافة كيلومتر إضافي، وهما ينحرفان يمينًا ويسارًا لتجنّب آثار الجدران الطينيّة القديمة لبنيّة اللون التي فقدت شكلها وأصبحت مثل الشوكولاته الذائبة، قبل أن يجدا أخيرًا أربع سيّارات شرطة وسيّارة إسعاف مركونة بقرب عامود هاتف صدئ، وخلفها سيّارة خامسة، مرسيدس زرقاء مكسوة بالغبار مركونة على مسافة أبعد بعض الشيء. أوقف السائق السيّارة وترجّل منها خليفة.

قـال محمّـد سـاريا، نائـب خليفة، مبتعدًا عـن مجموعة من المسـعفين ومتوجّهًا نحوهمـا لإلقـاء التحيـة: «لا أفهـم لمـاذا لا تملـك هاتفًـا محمولاً. اسـتغرقنا أكثر من ساعة لإيجادك».

أجاب خليفة: «خلال هذا الوقت استمتعت بزيارة قبرين من القبور الأكثر جمالاً في وادي بيبان الملوك. وأظنّه تعويضًا جيّدًا. أضف إلى أنّ الهواتف المحمولة تسبّب السرطان».

سحب سيجارة وأشعلها.

«إذًا، ماذا لدينا؟»

هزّ ساريا برأسه ممتعضًا وقال: «جثّة. رجل قوقازي اسمه بيت جانسن».

بحـث فـي جيـب سـترته وأخرج كيسًـا من النايلـون بداخله محفظـة جلديّة بالية أعطاه لخليفة قائلاً: «إنّه مصري الجنسيّة مع أنّ اسمه لا يشير إلى ذلك، يملك فندقًا في الجزيرة اسمه المينّا-را».

«قرب البحيرة؟ أجل، أعرفه».

أخـرج خليفـة المحفظـة من الكيس وبحث في محتوياتهـا، ولاحظ بطاقة الهوية المصريّة.

مولود عام 1925.

«هل أنت واثق بأنّه لم يمت بسبب كبر سنّه؟»

«ليس إن كانت حالة الجسد لا تشير إلى ذلك».

أخـرج الضابـط بطاقـة اعتمـاد صادرة مـن بنك مصر ورزمة مـن الأوراق الماليّة المصريّة التي تعادل عشـرين جنيهًا. ووجد في جيبٍ جانبي بطاقة عضويّة في جمعيّة البستنة المصريّة، وخلفها صورة مغضّنة، بالأبيض والأسود، لكلبٍ ألزاسي كبير شرس. كُتب على ظهرها بقلم رصاص متلاشٍ «أرمينيوس، 1930». حدّق إليها للحظة وشعر

بأنّ الاسم كان مألوفًا لديه بشكلٍ ما لكنّه لم يتمكّن من تحديد السبب. ثمّ أعادها إلى مكانها ووضع المحفظة في الكيس وأرجعه إلى نائبه.

«هل أخبرت عائلته؟»

أجاب ساريا: «ليس لديه أقارب أحياء. لقد اتصلنا بالفندق».

«وماذا عن المرسيدس، هل هي له؟»

هزّ ساريا رأسه بالإيجاب وقال: «وجدنا المفاتيح في جيبه».

وأخرج كيسًا آخر يحتوي على مجموعة كبيرة من المفاتيح وأضاف: «تحقّقنا منها، ليس فيها ما يريب».

سارا نحو المرسيدس وحدّقا من خلال النافذة. كان داخلُها - المقاعد الجلديّة المشقّقة، لوح المفاتيح البنيّ اللامع، معطِّر يتدلّى من المرآة الأماميّة - خاليًا عدا نسخة من جريدة الأهرام تعود إلى يومين متروكة على المقعد المجاور للسائق، وكان يوجد على أرض السيّارة أمام المقعد الخلفي كاميرا نايكون تبدو باهظة الثمن.

سأل خليفة: «من عثر عليه؟»

«فتاة فرنسيّة. كانت تلتقط الصور بين الآثار، وعثرت على الجثّة بالصدفة». فتح ساريا دفتر ملاحظات صغير وبحث فيه ثمّ أضاف وهو يحاول لفظ الأحرف غير المألوفة بشكلٍ صحيح: «كلوديا شامبوليون. تسع وعشرون سنة. عالمة آثار، تقيم قريبًا من هنا». وأشار نحو مجمّع مشجّر محاط بجدار مرتفع من الأحجار الطينيّة ويضم منزل البعثة الأثرية الفرنسيّة في طيبة.

سأل خليفة: «لا علاقة لها بشامبوليون الشهير؟»

«من؟»

«جان فرانسوا شامبوليون».

بدا الارتباك على وجه ساريا.

تنهّد خليفة ساخرًا: «الرجل الذي حلّ الرموز الهيروغليفيّة. يا الله، ألا تعرف شيئًا عن تاريخ هذا البلد يا محمّد؟»

هزّ النائب كتفيه وقال: «إنّها فتاة جميلة، هذا كلّ ما أعرفه. طويلة القامة...» وأشار بيديه وهو يضيف: «رشيقة».

هزّ خليفة رأسه وهو يسحب نفسًا من سيجارته قائلاً: «لو كان عمل الشرطة يقتصر على مراقبة النساء، لأصبحت الآن المفوّض الأعلى يا محمّد. هل حصلت على إفادتها؟»

حمل ساريا دفتر ملاحظاته أمامه مشيرًا بأنّه قد فعل.

«وماذا لديك؟»

«لا شيء. لم ترَ أو تسمع شيئًا بل عثرت على الجثّة وحسب وعادت إلى المجمّع. رقمه 122».

أنهى خليفة سيجارته وأطفأها تحت حذائه.

«أظنّ أنّه يجدر بنا إلقاء نظرة عليه إذًا. هل أبلغت أنوَر؟»

«عليه إنهاء بعض الأعمال المكتبيّة قبل أن يلحق بنا. طلب أن نحرص على عدم ترك الجثّة تتجوّل في أيّ مكان».

رفع الضابط رأسه ضجرًا وقد اعتاد على الحسّ الفكاهي المملّ لدى أنوَر عالم الأمراض وسار الاثنان عبر الموقع، يسحقان بأقدامهما قطع الفخّار المنثورة على سطح أرض الصحراء مثل قطع الكعك. إلى يمينهما كان بعض الأولاد يجلسون على قمّة تلّ من كسارة الأحجار، أحدهم يمسك بكرة قدم، يراقبون صفوف رجال الشرطة وهم يمشطون الصحراء بحثًا عن الأدلّة. أمامهما، كانت الشمس تنخفض ببطء خلف القبب البيضاويّة لدير المحارب، ويتحوّل ضوءها من الأصفر الباهت إلى البرتقالي العسلي الناري. هنا وهناك، كانت حواجز من الجدران الطينيّة ترتفع من الرمال، مغبرّة ومهجورة، وكأنّها كائنات بدائيّة تخرج من أعماق الصحراء. في ما عدا ذلك، لم يكن ثمّة ما يوحي أنّهما كانا يتجوّلان في ما كان في الماضي أحد أروع أبنية مصر القديمة.

تنهّد خليفة وهو يتوقّف لالتقاط قطعة من الفخّار تحمل آثار طلاء أزرق شاحب وقال: «يصعُب التصديق أنّ هذا المكان كان قصرًا، أليس كذلك؟ حكم أمنحوتب الثالث في أيامه نصف العالم المعروف حينها. واليوم...»

قلّب قطعة الفخّار بين أصابعه وهو يفرك سطحها بإبهامه. لم يقل ساريا شيئًا، بل اكتفى بالإشارة بيده أنّ عليهما التوجّه يمينًا.

قال: «من هنا، وراء ذاك الجدار».

عبرا مسافةً مرصوفة بالأحجار الطينيّة المشقّقة والمكسورة، ودخلا ما يُفترض أنه كان في الماضي مدخلاً هامًا، وقد أصبح الآن يقتصر على كومتين من الحجارة تفصل بينهما درجة جيريّة بالية. في الجهة المقابلة، كان عنصر شرطة يجلس القرفصاء في بقعة من الظلّ أسفل أحد الجدران. وعلى بعد بضعة أمتار، بدا غطاء ثقيل من القنّب بدت من تحته كتلة على شكل جثّة تقدّم ساريا وأمسك بزاوية الغطاء ثمّ رفعه.

قال خليفة: «الله أكبر!»

كان يتمدّد أمامه رجل عجوز جدًّا، ضعيف وهزيل الجسد، بشرته الشاحبة مجعّدة ومكسوّة ببقع الشيخوخة. كان ممدّدًا على وجهه، إحدى ذراعيه تحته والأخرى إلى جانبه، يرتدي بذلة سفاري كاكيّة اللون، ورأسه أصلع، باستثناء بعض الخصل الصفراء الشائبة، كان مثنيًّا إلى الخلف ومفتولاً بعض الشيء، مثل سبّاح يأخذ نفسًا من الهواء قبل أن يُدخل رأسه تحت الماء مجدّدًا - وهي وضعيّة غير طبيعيّة سبّبها وَتَد حديدي صدئ مثبّت في الأرض وموجّه للأعلى دخل عينه اليسرى. وكان خدّاه وشفته وذقنه مكسوةً بطبقة سميكة من الدّم المجمّد. كما بدا جرح في جانب رأسه، فوق أذنه اليمنى تمامًا.

وقف خليفة يحدّق إلى الجثّة، ولاحظ اليدين، والملابس المليئة بالغبار، وتمزّقًا صغيرًا في ساق السروال عند الركبة، وكيف كان جرح الرأس مكسوًّا بالرمال. ثمّ جلس القرفصاء ولكَزَ بلطف قاعدة الوتد الحديدي. كان مثبّتًا جيّدًا في الأرض.

سأل ساريا: «أهو وَتَد خيمة؟»

«جزء من شبكة مسح يُستعمل في التنقيب. يبدو عليه بأنّه كان هنا منذ سنوات».

استقام وهو يلوّح بيده مبعدًا البعوض الذي بدأ يحوم حول الجثّة، وابتعد بضعة أمتار حيث بدت الرمال معكّرة وغير مستوية. أمكنه تمييز ثلاثة آثار أقدام مختلفة على الأقلّ تنتمي ربّما لرجال الشرطة الذين كانوا يمشّطون المنطقة، وربّما لا. قرفص مجددًا وأخرج منديله والتقط به كتلة حادّة من حجر الصوّان عليها رذاذ من الدماء.

قال ساريا: «يبدو أنّ أحدهم ضربه على رأسه فوقع على الوتد، أو دُفع عليه».

قلب خليفة الحجر بيديه محدّقًا إلى بقع الدّم الحمراء المسودّة، وقال: «من الغريب أن يترك المهاجم محفظة مليئة بالمال في جيبه ومفاتيح سيّارته».

قال ساريا: «ربّما فاجأه أحدهم، أو أنّ السرقة لم تكن هي الدافع للقتل».

قبل أن يتمكّن خليفة من إعطاء رأيه سمع صرخة من بعيد عبر حقل الآثار. على بعد مئتي متر، كان عنصر شرطة يقف على قمّة تلّة رمليّة ويلوّح بذراعيه.

قال ساريا: «يبدو وكأنّه عثر على شيء».

أعاد خليفة الحجر إلى حيث وجده وبدأ الرجلان سيرهما نحوه. حين وصلا كان قد نزل عن التلّ ليقف قرب حائط مهدّم رُسم على الجزء الأسفل منه، فوق الجصّ المشقّق، خطّ من أزهار اللوتس الزرقاء الباهتة، ولكنّها لا تزال مرئيّة بوضوح. ثمّة

فجوة في وسط الخطّ حيث يبدو بأنّ قطعة من الجصّ قد أُزيلت. وكان على الأرض بجوار الجدار حقيبة ظهر من القنّب، مطرقة وإزميل، وعصًا سوداء ذات مقبض فضّي. انحنى ساريا بالقرب من الحقيبة ورفع الغطاء.

قال وهو يُخرج قطعة من الجصّ المرسوم: «حسنًا، يبدو أنّ العجوز كان ماكرًا».

حمل قطعة الجص ليُريها لخليفة ولكنّ الضابط لم يكن ينظر إليه. بل جلس القرفصاء ورفع العصا وراح يحدّق إلى قبضتها التي تحمل نقش ورود صغيرة مرصّعة برموز عنخ.

«سيّدي؟»

ولكنّ خليفة لم يجب.

كرّر ساريا بصوتٍ أعلى: «سيّدي؟»

أجاب المحقّق وهو يضع العصا جانبًا ويستدير نحو نائبه: «آسف يا محمّد. ماذا وجدت؟»

أعطاه ساريا قطعة الجصّ، فأخذها خليفة وراح يتفحّص الرسم. ولكنّ نظره كان يتجّه دائمًا نحو العصا، مقطّب الجبين وكأنّه يحاول تذكّر أمرٍ ما.

سأله ساريا: «ماذا؟»

«آه، لا شيء، لا شيء. مصادفة غريبة وحسب».

هزّ رأسه محاولاً التركيز وابتسم. ولكن مع ذلك، بدت مسحة من الاضطراب في عينيه، وكأنّها صدىً ضعيف لقلق أعمق.

إلى يمينه، حطّ غراب كبير على أحد الجدران ووقف يحدّق إليهم وهو يخفق بجناحيه وينعق عاليًا.

تل أبيب، الأراضي المحتلّة

بعد أن بدّل الشاب ملابسه وارتدى زيّ الشرطة، مشى برشاقة عبر حديقة الاستقلال متوجّهًا نحو مبنى فندق الهيلتون ببنائه المستطيل الكبير. حوله كانت العائلات والأزواج الشباب يتنزّهون مستمتعين بهواء المساء المنعش وهم يثرثرون ويضحكون. ولكنّه لم يلاحظهم، بل كانت عيناه مثبّتتين على المبنى أمامه، جبينه يتصبّب عرقًا وشفتاه تتمتمان بكلمات غير مسموعة.

وصل إلى مدخل الفندق وعبر إلى الداخل. ألقى عليه رجال الأمن نظرة خاطفة

قبل أن يلاحظوا لباسه ويصرفوا نظرهم عنه مجدّدًا. رفع يده المرتجفة لمسح الرطوبة عن حاجبه ثمّ تابع تحريك يده إلى ما تحت سترته وشدّ أحد الحبال لتجهيز المتفجّرة. الرعب، الحقد، الغثيان، الإثارة – كلّ هذه المشاعر كانت تعتمل في داخله. ولكن وراء هذه المشاعر كان ثمّة إحساس أكبر يغلّفها جميعًا، أشبه بخفّة النشوة، يرفرف خلف وعيه مثل شعلة بيضاء. الانتقام، المجد، والجنّة الأبديّة.

الحمد لله الذي اختارني. الحمد لله الذي أتاح لي أن أكون أداة لانتقامه.

عَبَر الردهة ودخل من خلال أبواب مزدوجة إلى غرفة كبيرة تملأها الأضواء، يقام فيها حفل زفاف. كان صوت الموسيقى والضحك يسودان المكان. ركضت نحوه فتاة صغيرة وسألته إن كان يرغب بالرقص. فدفعها بعيدًا وشقّ طريقه بين الحاضرين، وهو يشعر بأنّ العالم حوله يتقلّص ويتبخّر وكأنّه ضباب ملوّن. سأله أحدهم ماذا يفعل هنا، وما إذا كان ثمّة مشكلة، ولكنّه تابع التقدّم وهو يتمتم ويفكّر بجدّه العجوز وابن عمّه الصغير الذي قتلته رصاصة إسرائيليّة. فكّر بحياته الفارغة واليائسة التي خنقها العار والغضب والعجز. ثمّ وصل قرب العروسين، وبصرخة من الغضب والفرح، مدّ يده وشدّ الحبل الثاني مطلقًا دوّامة من الحرارة والضوء والمحتويات المعدنيّة التي أردته هو والعروسين وكل من كان متواجدًا على شعاع ثلاثة أمتار أشلاءً دامية.

وفي اللحظة نفسها تقريبًا وصلت ثلاث رسائل بالفاكس على التوالي، واحدة إلى مكتب المؤتمر اليهودي في القدس، والثانية إلى مكتب الأنباء في جريدة هآريتس، والثالثة إلى شرطة تل أبيب. أُرسلت جميعها عبر شبكة المحمول من دون أن تكشف أيّ أثر عن مصدرها ونقلت الرسالة نفسها: «العملية ردّ على استمرار الاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينيّة؛ ما دام هذا الاحتلال قائمًا، يُعتبر جميع الإسرائيليين، مهما تكن سنّهم أو جنسهم، مسؤولين عن الفظائع التي تُرتكب بحقّ الشعب الفلسطينيّ.

الأقصر

ظلّوا في ملقاتة حتّى الساعة السابعة تقريبًا، من دون أن يصل أنوَر، أخصّائي علم الأمراض. عوضًا عن الانتظار أكثر من ذلك، عيّن خليفة مجموعة من عناصر الشرطة لحراسة المكان وانطلق لزيارة فندق الضحيّة برفقة ساريا.

قال متذمّرًا: «نحن نعرف أنوَر، قد ننتظره حتّى منتصف الليل، ومن الأفضل لنا أن نستغلّ الوقت بعمل مفيد».

يحتلّ فندق مينّا-را موقعًا بارزًا في قلب قرية الجزيرة الذي يضمّ تجمّعًا كبيرًا من

المتاجر ومنازل متداعية على الضفّة الغربيّة لنهر النيل، مقابل معبد الأقصر. كان المبنى الأبيض اللون يتألّف من طابقين، يتمّ الوصول إليه عبر طريق ضيّق وقذر تصطف إلى جانبيه بغير انتظام منازل مبنيّة بالأحجار الطينيّة تتوزّع إلى جوانبه مثل مجموعة من نباتات الفطر البنيّة. وصل خليفة وساريا في بداية الأمسية واستقبلتهما امرأة إنكليزيّة نحيلة متوسطة السنّ، قدّمت نفسها بلغة عربيّة ثقيلة بعض الشيء على أنّها كارلا شاو، مديرة الفندق. طلبت لهما الشاي وقادتهما إلى شرفة مرصوفة بالحصى في الجهة الخلفيّة من المبنى، حيث جلسوا على مقاعد من القشّ تحت ظلّ أشجار مزهرة فوّاحة. كان ثمّة جدول صغير يتدفّق من اليسار إلى اليمين أمامهما، وكان أسود اللون داكنًا، سطحه يتموّج فوق أفواج من سمك الفرْخ الأملس الذي يعيش في النيل، وضفافه المحاطة بشجر النخيل تمتلئ بأعداد من عبوات مياه البرَكة الفارغة. وبدا على مسافة بعيدة إلى جانبهما من بين الأشجار إعلان لرحلات منطاد هُدْهد سليمان، مكتوب على جدار منزل. وكان يُسمع في المكان نباح الكلاب وأبواق سيّارات التاكسي كما تناهى من بعيد صوتُ منتظم لمضخّة ريّ. قالت المرأة وهي تثني ساقها المكسوّة ببنطال الجينز تحت الأخرى وتشعل سيجارة ميريت: «لم تكن مفاجأة بالفعل، فهو لم يكن بخير. أعتقد أنّه كان مصابًا بالسرطان مع أنّه لم يتحدّث أبدًا عن ذلك».

أشعل خليفة سيجارة من سجائره واسترق نظرة نحو ساريا وقال: «سوف نعرف المزيد بعد التشريح، ولكن يبدو أنّ السيّد جانسن قد...»

سحب نفسًا من سيجارته غير واثق من كيفيّة التعبير عمّا يريد قوله.

قال أخيرًا: «ثمّة بعض الوقائع الشاذّة حول وفاته».

نظرت المرأة إليه وقد اتسعت عيناها قليلاً. كانت قد زيّنتهما بخط أسود ضاعف من ملامح الدهشة في وجهها.

«ماذا تعني بالوقائع الشاذّة؟ أنت تقول إنّه –»

قال خليفة بلطف: «أنا لم أقل شيئًا بعد. يتعيّن أوّلاً فحص الجثّة كما يجب. ولكن ثمّة نواحيَ غير اعتيادية في وفاة السيّد جانسن ونحتاج إلى طرح بعض الأسئلة. مجرّد روتين».

سحبت المرأة نفسًا عميقًا آخر من سيجارتها ومدّت يدها الخالية لتداعب قرطًا على شكل هلال في أذنها اليسرى. كان شعرها ذا لونٍ أسود غير طبيعي، وكأنّه مصبوغ. وكانت جذّابة، على نحوٍ باهت بعض الشيء.

قالت: «اسأل ما شئت، مع أنّني لا أدري ما إذا كنت سأفيدكما في شيء. لم

يكن بيت جانسن يتحدّث كثيرًا عن نفسه».

أشار خليفة برأسه نحو ساريا الذي أخرج دفتر ملاحظاته وقلمه.

سألها: «منذ متى وأنت تعملين مع السيّد جانسن؟»

أحنت رأسها قليلاً وهي تشدّ بالقرط وأجابت قائلةً: «منذ ثلاث سنوات تقريبًا. إنّها قصّة طويلة ولكن باختصار، كنت هنا في عطلة وكوّنت بعض الأصدقاء. فأخبروني أنّ جانسن يبحث عن شخص يدير الفندق - كان عجوزًا جدًّا ليقوم بالأعمال اليوميّة بمفرده - فقلت لنفسي لم لا؟ كنت قد تطلّقت للتوّ ولم يكن لديّ شيء في إنكلترا لأعود لأجله».

«ألا يملك أقارب؟»

«لا على حدّ علمي».

«ألم يتزوّج أبدًا؟»

«لديّ انطباع بأنّه لم يكن يهتمّ حقًّا بالنساء».

تبادل خليفة وساريا نظرة ثمّ سأل المحقّق: «ماذا إذًا؟»

حرّكت المرأة يدها على نحو غير واثق وأجابت: «سمعت بأنّه كان يحبّ التردّد على جزيرة الموز. ولكنّه لم يقل أبدًا شيئًا عن ذلك ولم أسأله. فهذا شأنه».

سمعوا صوت خطىً فوق الحصى وظهر شاب يحمل صينيّة توّزع عليها ثلاثة أكواب من الشاي ومصباح صغير. وضعها على الطاولة قربهم واختفى مجدّدًا. مدّ خليفة يده لتناول كوب.

قال وهو يرتشف الشاي: «جانسن ليس اسمًا مصريًّا».

«أعتقد أنّه هولندي الأصل. أتى إلى مصر منذ خمسين أو ستين عامًا، لست واثقة بالضبط، منذ مدّة طويلة».

«هل عاش دائمًا في الأقصر؟»

«على حدّ علمي، اشترى الفندق في السبعينيّات، بعد أن تقاعد. أعتقد أنّه كان يعيش في الإسكندريّة قبل ذلك، فهو لم يتحدّث أبدًا عن ماضيه».

أخذت نفسًا أخيرًا من سيجارتها وأطفأتها في منفضة قربها على شكل خنفساء. فوقهم كانت أولى النجوم تظهر في السماء، سمينة وزرقاء كاليراعات.

وضعت يديها خلف عنقها وتمطّت نحو الخلف بحيث ارتفع صدرها تحت قميصها وقالت: «لم يكن يعيش هنا، للمناسبة. ليس في الفندق، بل كان لديه منزل على الضفّة الشرقيّة، قرب الكرنك. كان يأتي إلى هنا بسيّارته كلّ صباح».

قطّب خليفة حاجبيه قليلاً ثمّ أشار لنائبه كي يدوّن العنوان.

سألها ساريا بعد أن انتهى من الكتابة، وعيناه مركّزتان على فُتحة قميص المرأة: «إذًا متى كانت آخر مرّة رأيت فيها السيّد جانسن حيًّا؟»

«قرابة الساعة التاسعة من صباح هذا اليوم. فقد أتى عند السابعة كعادته، وقام ببعض الأعمال في مكتبه ثمّ غادر بعد ساعتين وقال إنّ لديه عملاً يودّ إنجازه».

سألها خليفة: «وهل أخبرك أيّ نوع من العمل؟»

«ليس بالتفصيل، ولكنّني عرفت أنّه ذاهب على الأرجح لرؤية الآثار. فقد بدا أنّه كان يمضي معظم وقته كذلك. كان يزورها دومًا وبدا أنّه يعرف عنها أكثر من معظم الخبراء».

أتت قطّة رماديّة صغيرة تسير على طرف الشرفة، توقّفت للحظة تنظر إليهم قبل أن تقفز فوق ركبتيّ المرأة. فراحت هذه الأخيرة تمرر يدها بلطف على ظهرها وتداعب أذنيها.

قال خليفة: «وجدنا بعض الأغراض قرب جثّته. عصًا للسير وحقيبة من القنّب».

«أجل، إنّها أغراضه. كان يأخذهما معه دومًا حين يذهب لاستكشاف الآثار. كان يحمل العصا بسبب إصابة قديمة في ساقه. حادث سيّارة على ما أظنّ».

تناهى صوت الماء من طرف البحيرة حين تحرّك زورق صغير على سطحها، كان ثمّة رجل يجذّف وآخر يقف في المقدّمة يحمل شبكة صيد. كانت ملامحهما غير واضحة بسبب الظلام. أخذ خليفة نفسًا أخيرًا من سيجارته قبل أن يطفئها في المنفضة.

سأل المرأة: «هل يملك السيّد جانسن أيّ أعداء؟ هل ثمّة من يضمر له الشرّ؟»

رفعت المرأة كتفيها وقالت: «ليس على حدّ علمي. ولكن كما أخبرتك، لم يكن يتحدّث عن نفسه، لا نعرف عنه الكثير».

سأل خليفة: «أصدقاء؟ أيّ شخص كان مقرّبًا منه؟»

هزّت كتفيها مجدّدًا: «ليس في الأقصر، حسب ما أعرف. كان ثمّة زوجان يزورهما في القاهرة، وكان هناك الأسبوع الماضي. أعتقد أنّ الزوج يدعى أنطون. أنطون، أنديرز، شيء من هذا القبيل، قد يكون سويسريًّا، ألمانيًّا أو هولنديًّا». ثمّ رفعت يديها معتذرة وأضافت: «أنا آسفة، لم أقدّم لكما مساعدة حقيقيّة».

قال خليفة: «بل على العكس. لقد أفدتنا كثيرًا».

«في الحقيقة، كان جانسن وحيدًا بعض الشيء، يحتفظ بشؤونه الخاصة لنفسه. فخلال السنوات الثلاث التي عملت فيها لديه، لم أرَ يومًا منزله من الداخل. كان... كتومًا نوعًا ما. وكنت مسؤولة عن الفندق وحسب، وعلاقتنا لم تتجاوز العمل».

عاد الشاب الذي أحضر لهم الشاي، وانحنى يتمتم بشيء في أذن المرأة.

قالت: «حسنًا، سوف آتي قريبًا».

التفتت نحو خليفة قائلةً: «أعتذر منك أيّها الضابط، ولكن لدينا حفلة خاصة الليلة وعليّ أن أبدأ بتنظيم العشاء».

قال خليفة: «بالطبع، أعتقد أنّنا طرحنا جميع الأسئلة التي نحتاج إلى الاستفسار عنها».

وقف الثلاثة وساروا عائدين نحو ردهة الفندق، التي كانت عبارة عن قاعة كبيرة مع مكتب استقبال في طرفها ودرج ضيّق في الزاوية يؤدي إلى الطابق العلوي. كان ثمّة رجل عجوز يرتدي جلاّبيّة متسخة ينظّف الأرض وهو يدندن.

قال خليفة حين توقّفا للتفرّج على صف من الصور لجديس معلّقة على الجدار: «وجدنا في محفظة جانسن صورة لكلب».

قال المرأة مبتسمة: «أرمينيوس، إنّه حيوان كان يربّيه في طفولته ولطالما تحدّث عنه. كان يقول إنّه الصديق الوحيد الحقيقي الذي حصل عليه، والشخص الوحيد الذي وثق فيه حقًّا. كان يتحدّث عنه وكأنّه كائن بشريّ». توقّفت قليلاً ثمّ أضافت: «كان رجلاً وحيدًا على ما أظنّ، لم يكن سعيدًا. حياته مليئة بالأشباح».

تأمّلا الصور للحظات أخرى – رجلان يستعملان الشدوف قرب النيل؛ مجموعة من النساء يبعن الخضار داخل باب زويلا في حيّ القاهرة الإسلامي؛ شاب يلبس الطربوش ويحدّق إلى الكاميرا ضاحكًا – ثمّ عبرا الباب الأمامي وخرجا إلى الشارع. مرّ بقربهما طفلان يعدوان وهما يدحرجان إطارًا مطاطيًّا.

قالت المرأة حين أوشكا على الذهاب: «ثمّة أمر واحد ولكنّه ليس هامًا على الأرجح. كان جانسن شديد العداء للساميّة».

قالت كلمتها الأخيرة بالإنكليزيّة وضاقت عينا خليفة.

«ما معنى ذلك؟»

«لا أعرف كيف تقولونها بالعربيّة. كان... ما يحبّش اليهود. لم يكن يحبّ اليهود».

توترت كتفا الضابط قليلاً على نحو غير ملحوظ، وكأنّه تلقّى صدمة كهربائيّة صغيرة، غير كافية لإيذائه ولكنّها جعلته يشعر بالانزعاج.

«تابعي».

«ليس لديّ الكثير في الواقع، فهو لا يقول شيئًا أمامي. ولكنّني سمعته بضع مرّات يتحدّث إلى أناس آخرين، ضيوف أو رجال من المنطقة. كان يقول أمورًا فظيعة. كيف أنّ المشكلة الوحيدة هي أنّ النازيين لم ينهوا عملهم، وأنّه كان يجدر بهم إلقاء قنبلة نوويّة على الإسرائيليين. أعني، أنا أكره ما يحدث هناك ولكنّ ما يقوله كان ماكرًا». ثمّ هزّت كتفيها وهي تداعب القرط في أذنها وأضافت: «أعتقد أنّه كان يجدر بي أن أسأله عن ذلك، ولكنّني فكّرت أنّه عجوز، والعجائز يملكون آراء غريبة أحيانًا. على كل حال، لم أشأ الدخول في جدال معه يكلّفني وظيفتي. وكما قلت، الأمر ليس هامًا على الأرجح».

أخرج خليفة سيجارة وأشعلها ثمّ أخذ منها نفسًا عميقًا قبل أن يقول: «أنت محقّة على الأرجح ولكن أشكرك لذكر هذه النقطة. إن طرأ أيّ جديد سنكون على اتصال».

أشار لها بالتحيّة، ثمّ استدار، وبدأ يسير في الشارع، يداه في جيبه وجبينه مقطّب. لحق به ساريا.

قال وهما يمشيان: «لا يمكنني القول إنّني أعارضه، في رأيه عن اليهود».

ألقى عليه خليفة نظرة حادّة.

«هل تظنّ أنّ قتلهم كان أمرًا جيّدًا».

قال ساريا ساخرًا: «لا أظنّ أنّه قد حدث حتّى، إنّها بروباغندا إسرائيليّة. كان ثمّة مقال عن ذلك في جريدة الأخبار هذا الأسبوع».

«تظنّ ذلك؟»

هزّ ساريا كتفيه قائلاً وهو يتجنّب الإجابة: «كلّما أزيلت إسرائيل عن الخارطة على نحو أسرع كان ذلك أفضل. فما يرتكبونه بحق الفلسطينيين... لا يُغتفر. ذبح النساء والأطفال».

بدا للحظة أنّ خليفة سوف يتناقش معه، ولكنّه قرّر العكس. فانعطف الرجلان عند نهاية الشارع وتابعا سيرهما نحو النيل بصمت، وكان صوت المؤذّن يصدح خلفهما داعيًا المؤمنين إلى صلاة العشاء.

الأراضي المحتلّة - صحراء البحر الميت،
خارج أريحا

كان الرجل يروح ويجيء قرب المروحية، وهو ينفخ دخان سيجاره وعيناه تتنقّلان بين الطريق الخالي الممتد أمامه وساعته. كان الظلام قد حلّ، والمكان يستمدّ نوره من هلالٍ سمين غمر الصحراء بنوره. وكان السكون أيضًا يسود المكان بحيث سُمعت خُطى الرجل قويةً في جوّ الليل الساكن. كانت الظلال كثيفة جدًّا بحيث حجبت ملامحه، باستثناء طوله المتوسط وجسده النحيل جدًّا، فضلاً عن أنفه المعقوف واليرمولك الذي يغطّي رأسه، كما بدا نُدب على شكل مِنجَل فوق خدّه الأيمن.

تناهى إليه صوت من قمرة المروحية: «هل تعرف كم سيدوم انتظارنا؟»

أجاب الرجل: «سوف يصل قريبًا».

تابع سيره وهو يربّت على فخذه بعصبيّة ويتوقّف من حين إلى آخر ليميل برأسه ويُنصت. مرّت خمس دقائق، ومن ثمّ عشر، ثمّ سُمع صوت محرّك يقترب في الليل، صحبه بعد دقيقة صوت الإطارات وهي تدور فوق الحصى. وقف الرجل في وسط الطريق يراقب السيّارة وهي تظهر تدريجيًّا من بين الظلال وتشقّ طريقها نحوهما ببطء من دون أن تنير مصابيحها.

توقّفت على بُعد عشرة أمتار وخرج منها السائق. انضمّ إليه الرجل وسارا معًا نحو صندوق السيّارة الذي فتحه السائق. سُمع صوت أنين وخشخشة ثمّ خرج منه شخص في الظلام وتمسّك بذراع السائق للنزول. حجب الظلام كثيرًا من ملامحه هو أيضًا، إلاّ أنّه بدا أصغر سنًّا من مدخّن السيجار، شعره أجعد داكن وعنقه ملفوف بكفيّة.

قال الرجل الأكبر سنًّا: «لقد تأخرتَ، شعرتُ بالقلق».

راح القادم الجديد يأخذ أنفاسًا عميقة من الهواء وهو يرفع ذراعيه فوق رأسه لتحريك جسده المتصلّب.

«عليّ أن أكون حذرًا. إن عرف شعبي بذلك...»

ومرّر إصبعه عبر عنقه مصدرًا صوت هسهسة حادًّا، يُشبه صوت السكين وهي تقطع اللحم. فهزّ مدخّن السيجار رأسه وأحاط كتفي القادم الجديد بذراعه وقاده نحو المروحية.

قال بهدوء: «أعلم، نحن معرّضون لكثير من المخاطر هنا».

«أتمنّى أن نتمكّن من الوصول إلى الضفّة الأخرى».

«علينا الوصول من أجل سلامتنا، وإلاّ...»

لوّح بسيجاره بعجز واختفى الرجلان داخل المروحية، فيما تردّد في الصحراء صوت المحرّكات حين بدأت شفرات المروحة تدور في الظلام.

الأقصر

عبر ضابطا الشرطة النيل بالمعدّية، وهي عبارة عن مركب عتيق صدئ يمخر عباب الماء في ضباب من الدخان وضجيج الأبواق. جلس ساريا يأكل حبوب الترمس، فيما راح خليفة يحدّق إلى معبد الأقصر الغارق بالأضواء، تائهًا في أفكاره، سترته الجلديّة المقلّدة مغلقة حتّى العنق لتقيه من برد المساء. صعدا على الضفّة الشرقيّة عددًا من الدرجات حتّى بلغا الكورنيش، حينها سأل خليفة نائبه عن مفاتيح منزل الرجل الميت.

سأله ساريا متفاجئًا: «هل ستذهب إلى هناك الليلة».

«أظنّ أنّني سألقي نظرة سريعة لأرى إن كان ثمّة أمر... غير اعتيادي».

ضاقت عينا ساريا: «ماذا تعني؟»

«غير اعتيادي وحسب. هيّا، أعطني المفاتيح».

رفع ساريا كتفيه ثمّ أخرج من جيبه كيس النايلون الذي يحتوي على مفاتيح جانسن. بعدها تناول دفتر ملاحظاته وانتزع الصفحة التي دوّن عليها عنوان جانسن وأعطاها له أيضًا.

«هل تريدني أن أرافقك».

أجاب خليفة وهو يلقي نظرة على العنوان قبل أن يطوي الورقة ويدسّها في جيبه: «كلاّ، اذهب إلى البيت. لن أتأخر بل سأتحقّق من بعض الأشياء وحسب. أراك في القسم صباحًا».

ربّت على كتف نائبه دافعًا إيّاه إلى الذهاب، ثمّ استدار وأوقف سيّارة أجرة. كان السائق رجلاً بدينًا يلفّ عمامة حول رأسه، وتتدلّى سيجارة من زاوية فمه. مدّ يده إلى الخلف وفتح الباب الخلفي.

سأله: «إلى أين حضرة الضابط؟» فعلى غرار معظم سائقي الأقصر، كان يعرف خليفة شخصيًّا لأنّه اعتقله مرّة على الأقلّ بجرم القيادة من دون حمل الأوراق اللازمة.

قال خليفة: «إلى الكرنك. سر على الكورنيش مباشرة وسأخبرك أين تتوقّف».

انطلقت السيّارة وهي تتوجّه جنوبًا متجاوزة فندق ميركور ومتحف الأقصر والمستشفى القديم وشيكاغو هاوس، وراحت أبنية البلدة تتباعد تدريجيًّا لتتحوّل إلى مجموعة مبعثرة من المنازل المتداعية المحاطة بمساحات من الأشجار. وعلى بعد خمسمائة متر من الأطراف الشماليّة، أشار خليفة للسائق بالتوقّف، أمام شارع واسع تزيّنه أشجار الغار والأوكالبتوس يؤدّي إلى اليمين، نحو البوابة الأولى المغمورة بالضوء من معبد الكرنك.

سأل السائق خليفة وهو يترجّل من السيّارة: «هل تريد مني الانتظار؟»

«لا تقلق، سوف أعود سيرًا على الأقدام».

مدّ يده إلى جيبه لإخراج المال ولكنّ السائق لوّح بيده قائلاً: «انسَ الأمر حضرة الضابط، فأنا مدين لك».

«وكيف ذلك يا محمود؟ في المرّة الأخيرة التي رأيتك فيها، أوقفتك لأنّ مدّة التأمين كانت قد انتهت».

اعترف السائق قائلاً: «صحيح، ولكن حينها لم أكن قد دفعت ضريبة الطريق أيضًا، لذا أتصوّر أنّني مدين لك».

ابتسم كاشفًا عن صفّين من الأسنان البنيّة غير المستوية ثمّ ضغط على البوق والتفّ عائدًا أدراجه.

وقف خليفة يحدّق إلى النيل للحظة، وكانت صفحته تلمع تحت ضوء القمر كالحرير ثمّ استدار وتوجّه نحو مدخل المعبد. استغرقه الوصول إلى منزل الميت عشر دقائق. كان المنزل يقع ضمن سور مغلق على بعد مئتي متر من الزاوية الشماليّة الغربيّة لمجمّع المعبد، في نهاية طريق قذر غير معبّد. وكان عبارة عن فيلا مؤلّفة من طابق واحد ومحاطة بسور طويل، تختفي تقريبًا خلف أشجار النخيل والميموزا. وترجع الفيلا إلى الفترة التي سبقت تحوّل الأقصر إلى مركز سياحيّ كبير، حين كان زوّاره الوحيدون من علماء الآثار أو الأوروبيين الأثرياء الذين يأتون لتمضية الشتاء في مناخ مصر العليا المعتدل. كان المكان محاطًا بضباب خفيف ارتفع من قناة ريّ مجاورة والتفّ حول قاعدة المنزل مضفيًا على المكان إحساسًا مخيفًا، وكأنّه يطفو فوق الأرض.

حدّق خليفة من خلال السور إلى الحديقة المزروعة بالأزهار، النوافذ المغلقة، وإشارات «خاصّ! ممنوع الدخول!» الموزّعة حول السور على مسافات منتظمة، ثمّ سار نحو البوابة الأمامية وحرّك المقبض. وجدها مقفلة، فسحب مفاتيح الميت من

جيبه وجرّبها تحت ضوء القمر الشاحب واحدًا تلو الآخر حتّى عثر على المفتاح المناسب. فتح البوابة وتردّد صوت احتكاكها بالأرض المرصوفة بالحصى. فيما كان يصعد الدرجات المؤدية إلى شرفة المبنى الأماميّة، خرج حيوان من الظلال إلى يمينه، قد يكون قطّة أو ثعلبًا، وقفز فوق رفش ثمّ اختفى بين الشُجيرات المحيطة بالمنزل.

قال فزعًا: «اللعنة!»

أشعل سيجارة وراح يحرّك المفاتيح محاولاً فتح الأقفال الثلاثة التي توصد الباب قبل أن يخطو إلى داخل المنزل المظلم. عثر على مقبس في الجدار، فأشعل الأنوار.

وجد نفسه في غرفة معيشة كبيرة أرضها مكسوّة بالخشب ومرتبة جدًّا، تحتوي على أربع أرائك تحيط بطاولة قهوة مستديرة في الوسط، وعلى خزانة احتلّ سطحها تلفزيون وهاتف، وكرسي طويل ضخم موضوع قرب الحائط الأيمن. وامتدّ أمامه ممرّ مظلم يؤدي إلى الجزء الخلفي من المنزل.

حدّق حوله لفترة من الزمن محاولاً التأقلم مع محيطه، ثمّ توجّه نحو الجدار الأيسر حيث عُلّقت لوحة زيتيّة كبيرة لجبل شاهق مكسوّ بالثلوج، فوق رفّ من الجرائد والمجلاّت. حدّق إلى اللوحة بإعجاب - إذ لم تسبق له رؤية الثلج من قبل، ليس الثلج الحقيقي - ثمّ انحنى يقلّب محتويات الرفّ. وجد جريدتي أهرام ومجلّة لجمعيّة البستنة المصريّة ونشرة من المتحف المصري في برلين. ووجد تحتها نسخة من مجلّة التايم، يحمل غلافها صورًا لرجلين، أحدهما قصير، بدين وملتحٍ والآخر نحيل، وجهه يشبه الصقر ويملك نُدبة هلاليّة فوق خدّه الأيمن قريبًا من خط ذقنه تقريبًا. سحب خليفة المجلّة وقرأ العنوان: «هار-زيون وميلان: أيّ طريق لإسرائيل؟» بقلم ليلى المدني. عرف اسم الكاتبة، ففتح المجلّة وبحث عن المقال، الذي رأى في أوّله صورة لامرأة شابة، جميلة شعرها داكن قصير وعيناها خضراوان كبيرتان. حدّق إلى الصورة للحظة مدفوعًا بشعور غريب ثمّ هزّ رأسه وأغلق المجلّة وأعادها إلى الرفّ قبل أن يبدأ باستكشاف بقية المنزل.

ثمّة خمس غرف أخرى: غرفتا نوم، حمّام، مكتب ومطبخ كبير يقع في القسم الخلفي من المنزل. كانت جميع الغرف نظيفة ومرتبة تمامًا، وكأنّ أحدًا لا يعيش فيها، وبالإضافة إلى الأباجور السميك، ثمّة أقفال أمان ثقيلة على جميع النوافذ. مرّ بها خليفة جميعًا، يهزّها ويحدّق إليها، من دون أن يبحث فعلاً عن شيء معيّن بل لمجرّد الإحساس بالمكان وبالرجل الذي عاش فيه.

بـدأ بالمكتـب، الـذي كان عبـارة عن غرفة كبيرة تحتـوي على زوجٍ من الخزائن المعدنيّـة المخصصـة للملفـات فـي إحدى زواياها، ومكتبتيـن تمتدّان من الأرض إلى السقف على جدارين من الجدران، فضلاً عن مكتب كبير تحت النافذة. كانت خزانتا الملفـات مغلقتيـن، لكنّـه وجد المفاتيح فـي حاملة مفاتيح الميت وفتحهما واحدة تلو الأخرى. احتوت الأولى على مغلّفات من النايلون مليئة بالوثائق التجاريّة والقانونيّة. أمّـا الثانيـة، فكانـت عبـارة عـن مكتبة صغيرة من الصـور الفوتوغرافيّة السـلبية، مئات ومئات منها معنونة ومرتبة في ملفات بلاسـتيكيّة تصوّر حسـب ما أمكنه أن يرى كلّ معلم تاريخيّ هام في مصر، من تلّ الفراعنة في الدلتا وصولاً إلى وادي حلفا جنوب السودان. سحب بعض الصور السلبيّة العشوائيّة وحملها أمام الضوء فتعرّف على معبد سـيتي الأوّل في أبيدوس والقبور الصخريّة في بني حسـن وفناء خونسـو في الكرنك. حدّق إليها أكثر من دقيقة يحرّكها قريبًا من الضوء وبعيدًا عنه لرؤية الصورة جيّدًا، وقد قطّـب العبـوس جبينـه، قبل أن يعيدها إلى ملفها ويغلـق الخزانتين ويقفلهما ثمّ يتوجّه نحو إحدى المكتبتين.

كانت الكتب مرتبة ألفبائيًّا حسـب اسـم الكاتب. وباسـتثناء بضعة قواميس وقسـم صغيـر عـن النباتـات والبستنة، كانت جميعهـا كتبًا تاريخيّة، بعضها من التاريخ الشـعبيّ ومعظمهـا أكاديمـيّ. ألقـى نظـرة خاطفة على العناوين الجانبيّة ليكتشـف كتبًـا باللاتينيّة والفرنسـيّة والألمانيّة والعربيّة والعبريّة، وهذا ما فاجأه نظرًا لما قالته السـيّدة شـاو عن موقفـه مـن اليهـود. أيًّـا يكن جانسـن، من الواضح أنّه واسـع الاطّـلاع والثقافة إلى حدٍّ بعيد.

تمتـم خليفـة لنفسـه: «كيف انتهى الأمر بشـخص مثلك إلـى إدارة فندق رخيص في الأقصر؟ ما قصّتك أيّها السيّد جانسن؟ ولماذا كلّ هذه التدابير الأمنيّة؟ ممّ كنت خائفًا؟ ماذا كنت تحاول أن تخفي؟»

مكث في المكتب لبعض الوقت يتفحّص الكتب ويبحث في الأدراج، ثمّ انتقل إلـى الحمّـام ومـن بعـده إلى غرفتـيّ النوم. عثر فـي الأولى، في خزانـة صغيرة قرب السرير، على مجلّتين ألمانيّتين إباحيّتين، أعادهما إلى الخزانة وأغلقها.

أخيـرًا، أتـى إلـى المطبـخ وكان فيـه بابـان إضافيّـان. كان أحدهمـا مغلقًا بقفلين وعارضة حديديّة ثقيلة، ويؤدي إلى شـرفة خشـبيّة في خلفيّة الفيلاّ. أمّا الباب الثاني، والـذي فتحـه بأحـد مفاتيـح حمّالة الرجل الميت، فكشـف عن سـلّم شـديد الانحدار يـؤدي إلـى غرفـة مظلمة. بدأ ينزل الدرجات الخشـبيّة بحـذر وهي تصر تحت قدميه،

وراح الظلام الدامس يغلّفه بحيث اضطرّ إلى إبقاء يده اليمنى على الجدار الحجري البارد للحفاظ على توازنه. حين وصل إلى الأسفل، مرّت يده فوق مقبس كهربائي فضغط عليه.

احتاج إلى ثانية من الوقت ليستوعب ما رأى، ثمّ صرخ ذاهلاً: «يا الله!»

كان المكان مليئًا بالآثار. جميعها مرتبة على طاولات في وسط الغرفة، ورفوف حول الجدران، وفي صناديق وخزائن موزّعة في الزوايا. مئات ومئات من الأغراض، كلّ منها محفوظ في كيس نايلون ومرفق ببطاقة تبيّن بخط اليد وبوضوح ماهية القطعة الأثريّة ومكان وزمان إيجادها، فضلاً عن عمرها المقدّر.

همس خليفة غير مصدّق: «وكأنّه متحف. متحفه الخاص».

بقي للحظة جامدًا في مكانه ثمّ تقدّم نحو أقرب طاولة وحمل كيسًا يحتوي على تمثال خشبيّ صغير، كُتب على البطاقة المرفقة به: «شابتي، KV39، الممرّ الشرقي. خشبيّ. لا يحمل نصًّا أو زخرفةً. الأسرة 18، على الأرجح أمنحوتب الأوّل (1525–1504 ق.ب). وُجدت في 3 آذار 1982». تُشير KV39 إلى قبر كبير ممتلئ بالحجارة تمّ العثور عليه بين التلال فوق وادي الملوك، واعتبره كثيرون المثوى الأخير لفرعون الأسرة الثامنة عشرة، أمنحوتب الأوّل. في الواقع لم يتمّ التنقيب فعليًّا في المكان، ومن الواضح أنّ جانسن قام ببعض الحفريّات الخاصّة به.

أعاد خليفة التمثال إلى مكانه وتناول غرضًا آخر: «كِسرة من بلاط للأرض مصقول، العمارنة (أختاتون)، القصر الشمالي. مزخرفة برسم قَصب البردي بألوان الأخضر والأصفر والأزرق. الأسرة 18، حكم أخناتون (1353–1335 ق.ب). وُجدت في 12 تشرين الثاني 1963». كانت قطعة جميلة، وإن مكسورة، ألوانها غنيّة وبرّاقة، وكان قَصب البردي المرسوم مائلاً بعض الشيء وكأنّ نسمات رقيقة تهبّ عليه. وبدا أنّ جانسن هو الذي استخرج هذه القطعة أيضًا. قلّبها خليفة في يده وهو يهزّ برأسه ثمّ وضعها وتجوّل في بقية أنحاء الغرفة.

كانت المجموعة رائعة ومذهلة نِتاج أكثر من خمسة عقود من أعمال الحفر السريّ وغير القانونيّ، كما تشير البطاقات المرافقة للقطع الأثريّة. وكانت بعض القطع – فرس نهر صغير من الخزف، وأوستراكون مزخرف جميل يحمل رمز ثالوث طيبة: أمون، موت وخونسو – قيّمة للغاية. ولكنّ أغلبها كان إمّا متضرّرًا أو شائعًا جدًّا إلى حدّ أنّ قيمته لا تساوي شيئًا يُذكر. ويبدو أنّ المبدأ الأساسي لم يكن رغبته بجمع أشياء جميلة أو نادرة بل مجرّد متعة الحفر والعثور على الأشياء وجمع وتصنيف

أغـراض مـن الماضـي. وفكّـر خليفة في أنّها المجموعة التي كان ليرغب بأن يمتلكها. مجموعة محبّ للتاريخ، مجموعة عالم آثار.

وجـد فـي إحـدى الزوايا خزانة حديديّة صغيرة، قصيرة ومتداعية، ذات رافعة من الأمـام. حـاول تحريكهـا ولكـنّ بابها لم يُفتح فاستسـلم بعد دقيقـة وابتعد عنها وتابع جولته.

أخيرًا، نظر إلى ساعته وصرخ قائلاً: «اللعنة!»

لقد وعد زوجته زينب بالعودة إلى البيت عند التاسعة مساءً لقراءة قصّة للأولاد، وها قد تجاوزت الساعة العاشرة. استدار وألقى نظرة أخيرة حوله ثمّ توجّه عائدًا نحو السـلم ورفـع يـده لإطفـاء النـور. عندها لاحـظ أنّ الباب الـذي كان مفتوحًا قد انغلق قليلاً بحيث أمكنه رؤية جهته الخلفيّة. هناك عُلّقت قبعة من اللبّاد الأخضر ذات طرف عريض وبرز منها ريش طويل. توقّف، ثمّ صعد السلّم ببطء بشيء من التردّد، ليرفعها ويحملها أمامه.

تمتـم قائـلاً بصوتٍ اخشوشـن فجأة وكأنّ شـيئًا ما يسـدّ حلقـه: «وكأنّ عصفورًا يحطّ على رأسه».

حدّق إلى القبعة ثمّ ضرب يده بغضبٍ على الباب الذي أُغلق من أثر الضربة.

قال غاضبًا: «اللعنة! لا بدّ من أنّها مصادفة! يجب أن تكون كذلك».

القدس

كانـت مدينـة القـدس القديمـة، تلـك المتاهة المربكة من الشـوارع والسـاحات، المـزارات والأماكـن المقدّسـة، أسـواق التوابـل والتذكارات، سـاكنة وخالية في الليل كمدينة أشباح. والحشود التي تملأ في النهار طرقَها وشوارعها صخبًا - لا سيّما في الأحياء المسلمة، التي تتنقّل فيها بصعوبة بين الباعة وتجّار الفاكهة والأطفال - سرعان ما تنسـحب بعد مغيب الشـمس مخلّفة وراءها شـوارع مهجورة وأبواب متاجر مغلقة، معتمة وصامتة، وكأنّ الحياة قد جفّت من شرايينها. أمّا الأشخاص القليلون الذين ما زالوا في شوارعها، فبدوا غير مرتاحين، ينظرون حولهم بعصبيّة ويسيرون بخطىً أسرع ممّـا لـو كانـوا في وضح النهار، وكأنّ خلـوّ المكان وأضواء المصابيح البرتقاليّة تبعث في أنفسهم الخوف.

كانـت السـاعة الثالثـة صباحًـا تقريبًا حين عبَر بـاروخ هار-زيـون ومرافقاه باب الخليـل وشـقّوا طريقهـم فـي ذاك العالم المعتـم المهجور، في تلك السـاعة المتأخّرة

من الليل التي تختفي فيها حتّى القطط المتشرّدة وتسكن أجراس كنائس المدينة التي يلفّها الصمت. كان أحد الرجال قصيرًا وبدينًا، يُعادل عرضُه طولَه تقريبًا، شعره يغزوه الشيْب، وجهه مربّعًا وملتحيًا، يحمل رشّاشًا من نوع أوزي في إحدى يديه المكسوّتين بقفّازين وحقيبة سفر قماشيّة في يده الأخرى. كان مرافقاه مسلّحين برشاشين مماثلين، أحدهما نحيل وشاحب، تتدلّى من تحت سترته شراريب تاليت كاتان، والآخر طويل أسمر اللون، شعره محلوق على شكل عُرف يمتدّ حتّى أسفل رأسه، وتظهر عضلاته القويّة فوق عنقه وذراعيه. كان الثلاثة يرتدون اليرمولك على رؤوسهم.

سأل الرجل الشاحب وهم يسيرون: «ماذا عن الكاميرات؟» وأشار إلى الشاشات المثبّتة على مسافات منتظمة على طول الشارع.

قال هار-زيون وهو يلوّح بيده بلا مبالاة، وقد بدا في حركته شيء من التصلُّب وكأنّ سترته المغلقة حتّى العنق والتي تصل إلى فكّه ضيّقة جدًّا: «انسَ أمرها. لديّ أصدقاء في مركز دايفيد للمراقبة، سوف يغضّون النظر».

«ولكن ماذا لو-».

كرّر هار-زيون بصوت أكثر حزمًا هذه المرّة: «انسَ أمرها، لقد اهتممنا بكل شيء».

وألقى نظرة على الرجل وقد ضاقت عيناه الرماديتان قليلاً وكأنّه يقول له «لا أريدك هنا إن كنت خائفًا»، ثمّ نظر أمامه مجدّدًا.

سار الثلاثة قُدُمًا في شارع دايفيد وتوجّهوا نحو الحيّ اليهودي قبل أن يلتفّوا يسارًا إلى إحدى الأسواق المنتشرة في قلب الجزء المسلم من المدينة. كانت أبواب المتاجر المغلقة تمتدّ من الجانبين، رماديّة ومتّسقة، تحمل لافتاتها المعدنيّة كلمات عربيّة، وتنتشر هنا وهناك على الجدران كلمات أو جمل بالإنكليزيّة تقول: FATAH, HAMAS, FUCK OFF JEWS. مرّوا بجانب كاهن قبطيّ يُسرع لأداء الصلوات في كنيسة القيامة وسائحَين يجاهدان لإيجاد فندقهما في متاهة الشوارع الضيّقة. وفي ما عدا ذلك كانوا وحدهم.

رنّ جرسٌ معلنًا الساعة، وتردّدت أصداؤه عبر أسقف المنازل.

قال الرجل مفتول العضلات: «أتمنّى أن يرونا. فهذه مدينتنا، وليذهب العرب إلى الجحيم».

ابتسم هار-زيون ولكنّه لم يقل شيئًا بل أومأ لهما لدخول ممرّ ضيّق ارتفع إلى جانبيه جداران حجريّان. عبروا باحة انتشرت فيها النفايات، ثمّ تجاوزوا بابًا خشبيًّا

تناهى من وراءه صوت تلفزيون وبوابةَ مسجد صغير قبل أن يدخلوا شارعًا فارغًا يشكّل زاوية مستقيمة مع ذاك الذي أتوا منه. كان يختفي يمينًا تحت سلسلة من القناطر الحجريّة المنخفضة الممتدّة حتّى الحائط الغربي بينما يرتفع يسارًا باتجاه طريق الآلام وباب العامود. ثمّة لافتة أمامهم كُتب عليها طريق الواد.

تحقّق هار-زيون من الطريقين ثمّ انحنى بتلك الطريقة المتصلّبة أيضًا وكأنّ شيئًا ما يزعج حركته وفتح سحّاب حقيبته ليخرج منها عارضتين حديديّتين أعطاهما لمرافقَيه وعبوة من الرذاذ المستعمل للطلاء أبقاها لنفسه.

«فلنبدأ».

قادهما نحو مبنى طويل وقديم، واحد من المنازل النموذجيّة في المدينة القديمة، بواجهته الحجريّة المتهالكة، وباب خشبي مع نوافذ مقنطرة محميّة بالحديد والأباجورات.

سأل الرجل الشاحب بعصبيّة: «هل أنت واثق بأنّ المكان خالٍ؟»

ألقى عليه هار-زيون نظرة حادّة من عينيه الرماديّتين: «هذا المكان ليس للنبييش، شْمولي».

شعر الرجل القصير بالخجل وخفض رأسه.

قال هار-زيون: «لنبدأ بالعمل».

خضّ عبوة الرذاذ وتردّد صوت طرطقة الكرات الصغيرة بداخلها في أرجاء الشارع، ثمّ بدأ يرسم برذاذها مينورا ذات سبعة فروع على الجدار من جانبيّ الباب. وراح الطلاء يسيل في المكان فبدا في الضوء الخافت وكأنّ الجدار قد أدماه مخلب ضخم. وبدأ مرافقاه يُدخلان العارضتين الحديديّتين في الفجوة بين الباب والحاجب، فدفعاهما لمسافة إنشَين ثمّ رفعاهما لتوسيع الشقّ ودفعا مجدّدًا إلى أن استسلم القفل مع صوت انكسار حادّ. نظرا نحو الأعلى وحولهما، ثمّ دخلا البيت المظلم. أنهى هار-زيون رسم المينورا الثانية ثمّ تناول حقيبته الجلديّة وتبعهما مغلقًا الباب خلفه. كانوا قد سمعوا عن المنزل من صديق في شرطة القدس. إذ غادره الملاّك العرب لتمضية العُمرة وتركوه خاليًا، ما جعل منه هدفًا ممتازًا للاحتلال. كان هار-زيون يفضّل مكانًا أقرب إلى جبل الهيكل، أكثر استفزازًا وإهانة للمسلمين، ولكنّ هذا المنزل جيّد في الوقت الحاضر.

بحث في محتويات الحقيبة وأخرج مصباحًا معدنيًّا ثقيلاً، أشعله ووجّه الضوء حوله. كانوا في غرفة كبيرة مؤثّثة باقتصاد، فيها سلّم حجريّ في زاويتها، وجوّها عابق

برائحة التبغ. كان ثمّة مُلصق على الجدار فوق إحدى الأرائك كُتبت عليه تسعة سطور عربيّة بيضاء اللون على خلفيّة خضراء، هي آيات قرآنيّة. نظر إليها هار-زيون تحت ضوء المصباح ثمّ تقدّم ومزّقها.

«آفي، تحقّق من القسم الخلفي، وأنا سأصعد إلى الطوابق العليا. شمولي، تعالَ معي».

أعطى مصباحًا آخر لصاحب العضلات، ثمّ بدأ بصعود السلّم ومعه الحقيبة، وكان يتحقّق من مختلف الغرف في طريقه، فيما سار خلفه الرجل الشاحب. فتح باب السطح المعدنيّ ووجد نفسه أمام غابة من حبال الغسيل وهوائيّات التلفزيون والصحون اللاقطة الموزّعة حوله. أمامه، ارتفعت قبب كنيسة القيامة وبرج كنيسة المخلّص. أمّا خلفه، فامتدّ جبل الهيكل وفي وسطه قبّة الصخرة الذهبيّة الغارقة بالضوء.

تمتم هار-زيون: «سوف تنتشرون يمينًا وشمالاً وسيسيطر أبناؤكم على الأمم ويسكنون المدن المهجورة».

كم تخيّل هذه اللحظة: خلال الأيام الكالحة في وطنه الأمّ أوكرانيا، في مستشفى الجيش حيث كانت حروقه مؤلمة إلى حدّ أنّه شعر أنّ روحه تُنتزع منه. ومع أنّهم وضعوا أيديهم على أراضٍ في أماكن أخرى خارج الناصرة وقرب الخليل وعلى طول ساحل غزّة، ولكنّها لا تعني شيئًا إن لم تكن القدس نفسها لهم. جبل موريا، إيفن شيتيا، الذي حلُم فيه يعقوب بسلّم يرتفع إلى الجنّة، وبنى فيه سليمان المعبد الأوّل... أن يكون ذاك المكان من بين جميع الأمكنة بين أيدي المسلمين كان يعذّبه جسديًّا، وكأنّه جرح مفتوح.

والآن أخيرًا بدأوا يستعيدونه، ويطالبون بما هو حقّهم المكتسب. أورشليم الذهبيّة، عاصمة إيريتز إزراييل هذا-شليما، موطن الشعب اليهودي. كان هذا كلّ ما يريدونه، أن يكون لديهم وطن. ولكنّ العرب وأعداء اليهود ينكرونه عليهم. يا لهم من حثالة. هم من يجب أن يُعدموا في غرف الغاز.

استدار ببطء يتأمّل المشهد ثمّ انحنى وأخرج من حقيبته لفافة قماشيّة كبيرة عُلّق فيها حبلان.

أعطى اللفافة لمرافقه قائلاً: «علّقها».

تقدّم الرجل نحو الطرف الأمامي للسطح، ثمّ انحنى وبدأ يربط طرف الحبلين بقضيبين معدنيين مثبّتين في الأرض الإسمنتيّة، فيما أخرج هار-زيون هاتفًا محمولاً من جيبه وطلب رقمًا.

قال: «نحن في الداخل، ابدأ بإرسال الباقين».

أقفل الخط، وأعاد الهاتف إلى جيبه، وكان مرافقه قد أنهى تثبيت الحبلين قبل أن يلقي اللفافة القماشيّة من جانب المبنى. فتدلّت على شكل علم أبيض وأزرق طويل كشلاّل فوق الواجهة الحجريّة، وبدت نجمة داوود بوضوح في الوسط.

ابتسم قائلاً: «الشكر لله».

وقال هار-زيون: «هلّيلويا».

مخيّم قلنديا للاجئين، بين القدس ورام الله

مرّرت ليلى المدني يدها في شعرها الأسود القصير، وحدّقت إلى الشاب الجالس أمامها، بسرواله المرتب وقميصه التي تحمل صورة قبّة الصخرة.

«ألا تزعجك فكرة قتل النساء والأطفال؟»

حدّق الشاب إلى عينيها قائلاً: «هل ينزعج الإسرائيليون حين تُقتل نساؤنا وأطفالنا؟ دير ياسين؟ صبرا وشاتيلا؟ رفح؟ إنّها الحرب، آنسة مدني، وفي الحرب تحدث أشياء سيّئة».

«إذًا إن طلب منك الملثّم-»

«سأعتبره شرفًا لي، أن أصبح شهيدًا من أجل شعبي وربّي. سأعتبر نفسي محظوظًا».

كان شابًا وسيمًا، عيناه بنيّتين كبيرتين ويداه تشبهان يدي عازف بيانو، ذات أصابع طويلة ورقيقة. كانت تجري معه مقابلة من أجل مقالٍ حول لصوص الآثار، ذلك أنّ شبابًا فلسطينيين من الذين أرهقهم الحصار الإسرائيلي على الأراضي الفلسطينيّة، اضطروا إلى سرقة وبيع الآثار القديمة من أجل تأمين حاجاتهم. وكان الحديث قد انحرف، كالعادة في هذا النوع من المقابلات، نحو نقاش أوسع عن القمع العسكري الإسرائيلي ومنه إلى موضوع العمليات الاستشهاديّة.

قال وهو يهزّ رأسه: «انظري إليّ. انظري إلى هذا».

وأشار إلى المنزل الفقير المؤلّف من ثلاث غرف، بأرائكه التي تُفتح لتتحوّل إلى أسرّة والموقد الصغير في الزاوية.

«كانت عائلتنا تملك كرمًا من العنب قرب بيت لحم، مئتيّ دُنُم. ثمّ أتى الصهاينة وأخرجونا منه ولم يبقَ لنا سوى هذا. أملك شهادة في الهندسة ولكنّني لا أستطيع إيجاد

عمل لأنّ الإسرائيليين سحبوا رخصة عملي وأنا مضطر الآن إلى بيع الآثار المسروقة لكي أعيش. هل تظنّين أنّني راضٍ عن نفسي؟ هل تظنّين أنّني أملك آمالاً واسعة في المستقبل؟ صدّقيني، إن حصلت على فرصة الاستشهاد لن أتردّد. كلّما قتلت منهم المزيد كان أفضل. نساء، أطفال، لا فرق. كلّهم مذنبون. أكرههم جميعًا».

ابتسم بمرارة ظهرت في الجزء الأسفل من وجهه، وكشفت مدى اليأس والغضب اللذَين يعتملان في نفسه. وبعد فترة من الصمت التي اخترقها صوت أولاد يلعبون في الشارع، أغلقت ليلى دفتر ملاحظاتها ووضعته في حقيبتها.

«شكرًا لك يا يونس».

رفع الرجل كتفيه ولكنّه لم يقل المزيد.

انضمّت إلى سائقها كامل في الخارج وشقّ الاثنان طريقهما خارج المخيّم وكانت السيّارة تسير أو تتعرّج بين الحواجز قبل أن تتخذ طريق رام الله-القدس السريع لينضمّا إلى صف طويل من السيارات المتوقّفة خلف نقطة التفتيش في قلنديا. كان ثمّة مخيّم إلى يسارهما توزّعت أبنيته الرماديّة والمتداعية على سفح تلّ، وكأنّها صخور مرجانيّة متحلّلة، فيما امتدّ إلى يمينهما مدرّج مطار أتاروت الخالي، وكأنّ أحدهم قد رسم خطًّا من الطلاء الأصفر المتّسخ في ذاك المنظر الطبيعيّ. أمامهما، كانت تسير أربعة خطوط من السيارات التي بدت كالشرائط المغبرّة، وتتجمّع في خط واحد عند الحاجز الإسرائيلي على بعد مئتي متر، والذي يتمّ عنده التحقّق من الأوراق وتفتيش السيارات. ولم يكن لهذا التدبير أيّ أهمية، لأنّ كلّ من لا يملك الأوراق المطلوبة كان يعبر نقطة التفتيش على الأقدام ويستقل سيّارة عند الطرف الآخر، ولكنّ الإسرائيليين كانوا يصرّون عليه لإذلال الفلسطينيين أكثر منه لأسباب أمنية، وليظهروا لهم أنّهم هم من يملكون زمام السيطرة.

تمتمت ليلى وهي تلقي برأسها إلى الخلف وتحدّق إلى سقف السيّارة: «اللعنة على كلّ الإسرائيليين».

انقضت عشرون دقيقة من دون أن يتغيّر شيء في صف السيارات، ففتحت الباب وخرجت. تمشت قليلاً لتحرّك جسدها ثمّ عادت إلى السيّارة وأخرجت كاميرتها، نيكون د1 إيكس رقميّة، من غلافها، وشغّلتها، وراحت تحرّك العدسة.

قال كامل: «انتبهي، تعرفين ما حدث في المرّة الأخيرة عندما أخذت فيها صورًا عند نقطة تفتيش».

كيف لها أن تنسى؟ فالإسرائيليون صادروا كاميرتها وأمضوا ساعة وهم يفتّشون

سيّارة كامل كما أخضعوها للتفتيش الكامل كتدبير احترازيّ.

قالت: «سأكون حذرة، ثق بي».

نظر إليها بحدّة وقال: «آنسة مدني، أنت الشخص الأقلّ جدارة بالثقة الذي عرفته. تقولين بوجهك شيئًا، ولكن-».

«نعم، نعم، عيناي تقولان دائمًا شيئًا مختلفًا».

ألقت عليه نظرة منزعجة ثمّ علّقت الكاميرا حول عنقها، وراحت تتجوّل بين صفوف السيارات متجهة نحو نقطة التفتيش.

كانا قد غادرا القدس باكرًا بعد ظهيرة اليوم السابق، وتوجّها نحو رام الله لتغطية قصّة عن عميل فلسطيني تمّ تشويه جثّته التي وُجدت تطوف في النبع وسط البلدة، وكانت حادثة ممتازة لتُضيفها إلى مقالة أوسع كانت تكتبها عن العملاء للغارديان. لم يستغرقها البحث سوى ساعتين. ولكن خلال وجودهما هناك، نفّذ الملثّم تفجيرًا آخر في حفل زفاف في تل أبيب فأغلق الإسرائيليون الضفّة الغربيّة بأكملها، ولم يتركوا لها خيارًا آخر سوى النوم عند صديقة قديمة لها في الجامعة، بينما راحت مروحيّات الأباتشي أي أتش64- تحوم فوق رؤوس السكان وتزرع الرعب في مختلف المباني الفلسطينيّة التي لا تزال شبه مدمّرة منذ آخر مرّة زرعت فيها الرعب.

ولكنّ إقامتها لم تضع سدىً، بل أعدّت قصّة عن لصوص الآثار وتمكّنت من إجراء مقابلة مع صائب مرصودي أحد زعماء الانتفاضة الأولى ونجم صاعد في السياسة الفلسطينيّة. كان رجلاً يتمتّع بالكاريزما- شاب، شغوف، وسيم، ذو شعر أسود فاحم ويلفّ كفيّة حول عنقه - وأعطاها كالعادة بعض الأقوال الجيّدة. ولكنّها متحمسة الآن للعودة إلى القدس. إذ يبدو أنّ شايالاي دافيد، محاربي داوود، قد احتلّوا منزلاً في المدينة القديمة، وهي قصّة جيّدة. كما كانت قد تأخرت أسبوعًا بالمقال الذي تكتبه لجريدة الأهرام عن سوء التغذية بين الأطفال الفلسطينيين. والأهم من هذا كلّه أنّها أرادت العودة إلى شقتها للاستحمام، ذلك أنّ الجيش الإسرائيلي كان قد قطع الماء عن رام الله ولم تغتسل منذ صباح اليوم الفائت، وكانت رائحة نتنة بعض الشيء تفوح من قميصها.

توقّفت على بعد عشرين مترًا من نقطة التفتيش. ثمّة شاحنة محمّلة بالبطيخ طُلب منها الاستدارة، والسائق يصرخ ويشير بيديه لأحد الجنود الذي اكتفى بالتحديق إليه عبر المرآة بلا اكتراث مكرّرًا «إجميا»-عُد أدراجك. وثمّة سيارات تصطف بالاتجاه المعاكس، آتية من القدس، مع أنّها أقلّ عددًا. إلى يسارها، توقّفت سيّارة للهلال

الأحمر، أضواؤها الحمراء تدور من دون حول ولا قوّة.

كانت تكتب عن مشاهد كهذه منذ أكثر من عقد من الزمن، نُشرت بالعربيّة والإنكليزيّة، لجرائد مختلفة من الغارديان إلى الأهرام، ومن بالستنيان تايمز إلى نيو إنترناشوناليست. فبعدما حدث مع والدها، لم يكن من السهل عليها تثبيت قدميها، لا سيّما في البداية بعد عودتها من بريطانيا، حين اضطرت إلى مواجهة جميع أنواع المشاكل. ولكنّها عملت جاهدة لكسب ثقة الناس ولإثبات نفسها وإظهار أنّها فلسطينيّة حقيقيّة. وعلى الرغم من أنّه ثمّة دومًا أشخاص مثل كامل لم يقتنعوا تمامًا، إلاّ أنّ الأغلبية قبلت بها أخيرًا نظرًا إلى صراحتها في التحدّث باسم القضيّة الفلسطينيّة. وأصبحوا يلقّبونها الآن بالصادقة. أمّا الإسرائيليون فكانوا أقلّ حماسة لها وكانوا يلقبونها بالكاذبة الحاقدة على اليهود، الإرهابيّة، لم تكن تلك سوى بضعة من الألقاب التي جمعتها على مرّ السنوات، وهي أوصاف لطيفة مقارنة بغيرها.

أخرجت علبة اللبان من جيبها ووضعت واحدة في فمها وهي تتساءل ما إذا كان ينبغي بها التقدّم نحو نقطة التفتيش وإبراز بطاقة الصحافة لتسريع الأمور قليلاً. ولكنّها أدركت أنّها مضيعة للوقت، فبطاقة الصحافة لن تغيّر واقع كونها فلسطينيّة. حدّقت إلى المشهد قليلاً، ثمّ استدارت عائدة أدراجها وهي تهزّ رأسها بسأم، فيما أخذت الأرض ترتجّ تحت قدميها حين مرّت دبّابتا ميركافا بالاتجاه المعاكس، يرفرف على قمّتيهما علمان إسرائيليّان بالأزرق والأبيض.

تمتمت قائلةً: «اللعنة على كلّ الإسرائيليين».

الأقصر

كان لدى الدكتور إبراهيم أنوَر، رئيس الأطباء في مستشفى الأقصر، كثير من العادات المزعجة، ليس أقلّها رفضه السماح للعمل بمقاطعة لعبة دومينو جيّدة. فشغف أنوَر بهذه اللعبة أخّر كثيرًا من أعمال التحقيق على مرّ السنوات، وهذا ما حدث أيضًا مع قضيّة جانسن. كان قد قام بفحص أوّلي للجثّة في ملقاتة ثمّ أرسلها عبر النهر إلى المشرحة في الأقصر. وعوضًا عن إجراء التشريح في الليلة نفسها، كما أمل خليفة، أجّل الطبيب العملية لكي يشارك في مباراة دومينو بين مدراء الأقسام. وبالنتيجة، كان ظهر اليوم التالي قد حلّ قبل أن يتصل أخيرًا بمركز الشرطة لإخبار خليفة بأنّ نتائج التشريح قد أصبحت جاهزة.

قال المحقّق بنبرة لاذعة وهو يطفئ سيجارته الخامسة عشرة لذلك اليوم في

منفضة ممتلئة: «الآن؟ كنت آمل الحصول عليها البارحة».

قال أنوَر بصوت مرح: «في التأني السلامة. وللمناسبة القضيّة مثيرة للاهتمام. تحتاج إلى كثير من... التفكير. على كل حال، لقد أنهت السكرتيرة طباعة التقرير للتوّ. يمكنني إرساله لك أو تأتي لأخذه بنفسك، القرار لك».

قال خليفة، وكان يعرف أنّه لو ترك الأمر لأنوَر ستمرّ أيام قبل أن يحصل على التقرير: «سآتي بنفسي. ولكن أخبرني إن كان حادثًا أم لعبة قذرة».

أجاب الطبيب: «آه، بالطبع لعبة قذرة، لا بل وقذرة جدًّا، ولكن ربّما ليس بالطريقة التي تتخيّلها».

«ما معنى ذلك؟»

«لنقل أنّها قصّة معقّدة وشائكة. تعالَ وسأخبرك بكل شيء. أظنّك ستجد أنّني تفوّقت على نفسي في هذه القضيّة يا خليفة. فعلاً تفوّقت على نفسي».

تنهّد الضابط ساخطًا وقال لأنوَر إنّه سيكون في المستشفى خلال عشرين دقيقة ثمّ أقفل الخط.

دخل محمّد ساريا إلى المكتب.

قال خليفة متذمّرًا: «يا لذاك الطبيب اللعين».

«هل أنهى التشريح؟»

«الآن فقط. لا يمكن للرجل أن يتحرّك بشكل أبطأ لو كان سلحفاة. سوف أذهب لإحضار التقرير الآن، هل من جديد؟»

بينما مكث خليفة في مكتبه ينتظر اتصال أنوَر، أمضى ساريا الصباح في تتبّع المعلومات التي وجدها رئيسه في منزل الضحيّة في الليلة السابقة.

أجاب وهو يسير نحو مكتبه ويجلس: «ليس الكثير، فبنك مصر سيُرسل عبر الفاكس نسخًا من أوراقه خلال الفصول الأربعة الماضية كما ذهبت إلى شركة الهاتف لأخذ بيان مفصّل عن اتصالاته في الفترة نفسها. وتمكّنت من العثور على مدبّرة منزله».

«وهل عرفت منها شيئًا؟»

«أكثر ممّا تتخيّل عن أفضل الطرق لطبخ الملوخية، أمّا عن جانسن فلا شيء تقريبًا. كانت تأتي إلى منزله بضع ساعات مرتين في الأسبوع للتنظيف والتبضّع وكان يطبخ بنفسه. ويبدو أنّها لم تدخل القبو أبدًا، لم يكن يسمح لها بذلك».

سأل خليفة: «وماذا عن وصيّته؟ هل تحدّثتَ مع محاميه؟»

هزّ ساريا رأسه: «لا بدّ من وجود وصية لأنّ محاميه رآها. ولكنّه لم يحصل على نسخة منها، بل قال إنّ جانسن احتفظ بنسخة وأعطى الأخرى لصديق له يعيش في القاهرة».

تنهّد خليفة ثمّ وقف وأخذ سترته من على ظهر مقعده.

«حسنًا، ابدأ بالبحث في تاريخ جانسن. كم عاش في مصر، ما هو أصله، ماذا كان يفعل حين عاش في الإسكندرية، كلّ ما يمكنك معرفته. فثمّة خطب مع هذا الرجل، أو على الأقلّ أمر غريب، حدسي يخبرني بذلك».

ارتدى سترته وانطلق، ولكنّه توقّف حين وصل إلى الباب. استدار قائلاً: «بالمناسبة، هل عرفت من أين يأتي اسم أرمينيوس؟»

قال ساريا وقد بدا مسرورًا من نفسه: «نعم في الواقع، قمت ببحث على الإنترنت».

«وماذا وجدت؟»

«يبدو أنّه رجل ألماني قديم. بطل قوميّ على ما يبدو».

طقطق خليفة أصابعه موافقًا: «عرفت أنّني سمعت الاسم من قبل، جيّد يا محمّد».

خرج وراح يسير في الممرّ ويداه في جيبيه وهو يتساءل ما الذي يدفع شخصًا من هولندا إلى تسمية كلبه باسم بطل قوميّ ألماني.

لم يكن أنوَر في مكتبه حين وصل خليفة بعد خمس عشرة دقيقة. وبينما ذهبت ممرضة ترتدي زيّها الأخضر للبحث عنه، وقف الضابط يحدّق من النافذة إلى الأرض المحيطة بالمستشفى، حيث تجمّع عدد من العمّال يحفرون خندقًا بين الأعشاب، وكان صوت ضربات المعاول يصل إليه. تاقت رئتاه لسيجارة، لكنّه قاوم رغبته. فأنوَر كان من أشدّ المناهضين للتدخين وهو يفضّل بالطبع عدم سماع إحدى محاضرات الطبيب الذي سيقول له: «إن أردت أن تقتل نفسك افعل ذلك بعيدًا عني». ألهى نفسه بعضّ أصابعه ثمّ فتح النافذة، وانحنى يتأمّل ولدًا يلاحق فراشة في موقف السيارات التابع للمستشفى.

كان ثمّة خطب في تلك القضيّة. حاول أن يُقنع نفسه أنّه يتخيّل الأشياء ويبالغ في تحليل الوقائع، ولكن عبثًا. فكلّ عنصر من عناصر القضيّة، مهما كان صغيرًا، وكلّ جزء من أجزاء الصورة – عصا الرجل الميت، كرهه لليهود، المنزل المجاور لمعبد

الكرنـك، القبعـة الغريبـة ذات الريـش - كلّها ضاعفت شـعوره بعدم الارتياح. وما بدأ كمجرّد شكّ طفيف تحوّل الآن إلى إحساس بالذعر يقلّص أعماق معدته.

صحيح أنّ معدّل الأدرينالين يرتفع لديه دائمًا في بداية كلّ قضيّة، بسبب الجهد الـذي يبذلـه عقلـه الثائـر وهو يناضل للسـيطرة على جميع عناصر المشـكلة وتصنيفها وتنظيمها، ولكنّ هذه القضيّة مختلفة لأنّ ما يثير اضطرابه الآن ليس التحقيق الجاري، بل تحقيقًا سابقًا تمّ منذ سنوات خلت، عند بداية مسيرته المهنية. كانت جريمة قتل، أولـى الجرائـم التـي عمـل عليهـا، ولكنّهـا كانـت قضيّـة رهيبـة وعنيفة. شـليغل، ذاك كان اسـمها، حنّـا شـليغل. إسـرائيليّة، يهوديّـة. كانت قضيّة مخيفـة. والآن، فجأة ومن لا شـيء... يبدأ بسـماع أصداء. لم يجد شـيئًا ملموسًـا يمكنه التثبّت منه، بل مجرّد مصادفات وومضات خاطفة من الماضي. عصًا، معادٍ لليهود، الكرنك، ريش - ظلّت الكلمات ترنّ في أذنيه وكأنّها مانترا تحفر جمجمته.

تمتم وهو يعضّ ظفر إبهامه: «هذا جنون. كان ذلك منذ خمسة عشر عامًا، بحقّ الله. لقد انتهى!»

مع ذلك، شـعر بأنّ الأمر لم ينتهِ أبدًا، بل على العكس، انتابه شـعور مزعج أنّ شيئًا قد بدأ للتوّ.

قال: «اللعنة عليك جانسن، اللعنة عليك لأنّك متّ بهذا الشكل».

أتـى صـوت مـن خلفـه يقـول: «وهـذا رأيي أيضًـا. مع أنّه لو لـم يمت، ما كنت حصلت على فرصة حلّ هذه القضيّة لأجلك».

اسـتدار خليفـة منزعجًـا لمقاطعـة أفكاره. كان أنوَر يقـف عند الباب وهو يحمل فنجانًا يتصاعد منه البخار.

«لم أسمعك».

قال الطبيب: «لا يفاجئني ذلك، فقد كنتَ على مسافة أميال من هنا».

ارتشـف شـرابه ورفع الفنجان يحدّق إلى السـائل الأصفر الباهت الموجود في داخله.

قـال مبتسـمًا: «يانسـون، الأفضـل في الأقصر، أعدّه لي أحـد الممرضين. مهدّئ ممتاز ينبغي بك تجربته».

غمـز خليفـة، ثـمّ توجّـه نحـو مكتبـه، وجلس واضعًـا الفنجان في إحـدى زوايا المكتب قبل أن يبدأ بالبحث بين كومة الأوراق المكدّسة أمامه.

«ولكن، أين وضعتها؟ كانت معي للتوّ... آه، ها هي!»

استند إلى ظهر الكرسي وهو يحمل مستندًا مطبوعًا.

قال وهو يقرأ العنوان: «تقرير نتائج تشريح جثّة السيّد بيت جانسن. آخر انتصارات أنوَر!»

نظر إلى خليفة مبتسمًا بينما مدّ هذا الأخير يده إلى جيبه بحثًا عن سجائره في حركة لا إراديّة، ولكنّه توقّف في منتصفها ووضع يده على حاجب النافذة.

قال: «هيّا، أخبرني ماذا يقول».

قال أنوَر وهو يستريح في جلسته: «بكل سرور. بادئ ذي بدء، أستطيع القول إنّ صاحبنا قد قُتل».

انحنى خليفة قليلاً إلى الأمام.

«يمكننا القول أيضًا إنّني واثق من أنّني أعرف هويّة القاتل. أشتبه أنّه قام بفعلته دفاعًا عن نفسه، مع أنّ هذا لا يقلّص من فظاعة الجريمة، ولا بأنّ جانسن قد مات ميتةً بشعة ومؤلمة جدًّا».

توقّف لإحداث تأثير دراماتيكيّ وفكّر خليفة أنّه تمرّن على هذا المشهد من دون شكّ.

«ولكن قبل أن أكشف لك اسم القاتل، أعتقد أنّه من المفيد لنا تذكّر الظروف الدقيقة التي اكتُشفت فيها جثّة جانسن».

فتح خليفة فمه ليقول إنّه يتذكّر الظروف تمامًا، ولكنّه تراجع لأنّ التجربة أثبتت له مرارًا أنّ أنوَر لن يكشف له المعلومات إلاّ على طريقته وأنّ أيّ تذمّر من جانب خليفة لن يغيّر شيئًا.

فاستسلم قائلاً وهو يلوّح بيده مرهقًا: «خذ وقتك».

«شكرًا. لن يخيب أملك».

أخذ الطبيب رشفة أخرى، طويلة وبطيئة، من شرابه ثمّ أعاد الفنجان إلى مكانه.

«إذًا، المشهد. تمّ العثور على جثّة صاحبنا، كما تذكر، وهو ممدّد على وجهه فوق التراب، مع وتد حديديّ مثير للاشمئزاز مغروز في عينه اليسرى. وبالإضافة إلى الصدمة القويّة التي تلقّتها العظام الوجنيّة والإسفينيّة والدمعيّة، والجزء الأيسر من الدماغ بأكمله – بصراحة، بدا مخّه أشبه بباذنجانة مسحوقة – عانى أيضًا من جرح كبير في الجزء الأيمن من الجمجمة، فوق الأذن، سبّبه عامل آخر غير الوتد. هذا بالإضافة إلى جروح طفيفة في كفّه اليسرى» – رفع الطبيب يده لتوضيح المكان –

«وركبته اليسرى، إضافة إلى بقعة تغيّر لونها وتورّمت حول قاعدة الإبهام اليمنى، تحت المفصل المصليّ تمامًا. أنت لن تلاحظ ذلك على الأرجح لأنّ تلك اليد كانت تحت الجسد. وثمّة أيضًا آثار من الوحل الجاف تحت أظافر أصابع تلك اليد».

شرب آخر جرعة من اليانسون ثمّ تجشأ قليلاً ووضع الفنجان جانبًا.

تابع قائلاً: «على بعد ثلاثة أمتار من الجثّة، وُجدت آثار اضطراب على سطح أرض الصحراء وكأنّ المكان شهد صراعًا من نوعٍ ما، فضلاً عن صخرة صغيرة تحمل آثار دماء على طرفها. وعلى بعد مائتيّ متر، وُجدت حقيبة المتوفّى وعصاه قرب قسم من جدار طينيّ مرسوم، من الواضح أنّه كان يفكّكه. من أجل ذلك، يبدو أنّه كان يستخرج الأحجار بالمطرقة والإزميل ثمّ يحفّها بيده، ومن هنا آثار التراب تحت أظافره».

أسند مرفقيه على الطاولة ثمّ جمع يديه أمامه قائلاً: «والسؤال الآن، كيف ترتبط جميع هذه الأجزاء المختلفة ببعضها؟»

مجدّدًا، بحثت يدا خليفة عن السجائر وكأنّهما مستقلّتان عن باقي جسده. إلاّ أنّه حوّلهما في اللحظة الأخيرة وأقحمهما في جيبَي سرواله.

«أخبرني».

أجاب أنوَر: «بالتأكيد سأفعل. فلننظر إلى كلّ جزء من أجزاء الصورة على حدة. أوّلاً، الوتد المعدنيّ. كانت الإصابات التي تسبّب بها مميتة بالتأكيد، ولكنّه لم يكن سبب الوفاة. أو بالأحرى لكان جانسن مات على أي حال حتّى لو لم يقع عليه».

ضاقت عينا خليفة وثار اهتمامه على الرغم من نفسه.

«تابع».

«والجرح الذي أصاب جانب رأسه هو أشبه بسمكة رنكَة حمراء وهو ناتج بالتأكيد عن الحجر الملوّث بالدم. ولكنّه لا يهدّد الحياة أبدًا، حتّى بالنسبة إلى رجل كبير السنّ وضعيف مثل جانسن. فهو لم يتسبب بأيّ تلف في الجمجمة أو برضّة عميقة هامة بل كان مجرّد جرح سطحي».

«إذًا إن لم يمت بسبب الضربة التي تلقّاها على رأسه، ولا بسبب الوتد الذي سحق دماغه، كيف مات؟»

وضع أنوَر يده فوق صدره مجيبًا: «احتشاء عضلة القلب».

«ماذا؟»

«ذبحة قلبيّة. لقد أصيب الرجل بجلطة كبيرة في الشريان التاجي أدّت إلى توقّف

القلب. وعلى الأرجح، توفّي قبل أن يقع على الوتد».

تقدّم خليفة خطوة إلى الأمام.

«إذًا ما الذي تعنيه؟ ضربه شخص بحجر على رأسه فتوقّف قلبه؟»

ابتسم الطبيب مستمتعًا باللعبة.

«لم يضربه أحد بحجر على رأسه. كان الجرح حادثًا».

«ولكنّك قلت إنّه قُتل!»

«بالفعل».

«كيف إذًا؟»

«بالسمّ».

صفق خليفة يده على الحائط غاضبًا.

«اللعنة يا أنوَر، ما الذي تتحدّث عنه؟»

«ما قلته بالضبط. إنّ قاتل بيت جانسن قد سمّمه، والسمّ أدّى مباشرة أو على نحو غير مباشر إلى ذبحة قلبيّة قتلت الرجل المسكين. لا يمكنني الإيضاح أكثر من ذلك، ما الذي لم تفهمه بالضبط؟»

صرّ خليفة على أسنانه مصمّمًا على عدم السماح لنبرة الطبيب الفوقيّة باستفزازه.

سأل وهو يحاول السيطرة على صوته: «ومن هو بالضبط ذاك القاتل الغامض. قلت إنّك تعرفه».

ضحك أنوَر قائلاً: «أعرفه بالتأكيد».

توقّف مجدّدًا لإحداث الأثر الدراماتيكي ثمّ انحنى إلى الأمام ومدّ كفّه فاتحًا إيّاها نحو الأعلى. جمع قبضته ثمّ مدّ الإصبع الأوّل بحركة سريعة وكوّره على نفسه.

أعلن قائلاً: «اسم الشرير هو السيّد عقرب».

ثمّ كرّر حركة إصبعه الغريبة فيما قال خليفة مذهولاً: «عقرب، أنت تعني...»

ابتسم الطبيب: «بالضبط، لقد أصيب صاحبنا بلدغة عقرب».

وكوّر إصبعه مرّة أخيرة يقلّد حركة ذنب العقرب، ثمّ انهار يضحك في كرسيّه.

قال: «أخبرتك أنّها قصّة شائكة. انتظر حتّى أخبر الصبيان بها. قصّة مسمّم ملقاتة! أو ربّما ينبغي أن أسمّيها عقصة مسمّم ملقاتة؟» وانفجر ضاحكًا.

قال خليفة غاضبًا وهو يبتسم على الرغم منه: «مضحك جدًّا. أفترض أنّ التورّم تحت إبهامه كان –»

تابع أنوَر وهو يحاول التقاط نفَسه: «موضِع اللدغة، بالضبط. ونظرًا إلى لون الجلد وامتداد الورم، كانت لدغة حادّة جدًّا. لا بدّ أنّه عقرب راشد. لدغته مؤلمة على نحو لا يصدَّق».

وقف وهو لا يزال يضحك ثمّ توجّه نحو مغسلة في زاوية الغرفة وفتح صنبور الماء البارد وصبّ لنفسه كوبًا.

«أظنّ أنّ الأمور حدثت بالشكل التالي. ذهب جانسن إلى ملقاتة لاستخراج بعض الأحجار الطينيّة المزخرفة. فكّك أحدها بمطرقته وإزميله ثمّ أدخل يده في الفجوة لإخراجها وهنا تلقّى لدغة من السيّد عقرب. ونظرًا إلى شدّة الألم، تجاهل حقيبته وعصاه وتوجّه مترنّحًا نحو سيّارته طلبًا للمساعدة. وبعدما سار مسافة من الأمتار، تسبّبت الإصابة بذبحة قلبيّة كبيرة فسقط على ركبتيه وخدش يده وركبته كما جرح رأسه بالحجر، مع أنّه من الممكن أن يكون قد أصيب بالذبحة بعد السقوط. وفي الحالتين تقلّب على الأرض لبعض الوقت ثمّ تمكّن من النهوض وترنّح سائرًا بضعة أمتار أخرى ليسقط هذه المرّة فوق الوتد الذي اقتلع عينه. وداعًا سيّد جانسن».

راجع خليفة سلسلة الأحداث في رأسه وانزعج من السهولة التي حلّ بها أنوَر القضيّة. ولكنّه ارتاح مع ذلك. مع غيابِ قاتلٍ، ليس هناك من ضرورة لإجراء تحقيق جنائيّ، ومع أنّ الآثار الموجودة في قبو جانسن تحتاج إلى الفحص، وبالتالي ليس هناك من ضرورة للبحث عميقًا في ماضي الرجل. وهذا جيّد لأنّ خليفة شعر في الواقع بالرعب ممّا يمكن أن يجده في ذاك الماضي.

قال وهو يطلق تنهيدة عميقة: «حسنًا، هذا يوضح المسألة على الأقلّ».

قال أنوَر وهو يفرغ كوب الماء في فمه ويعود إلى مكتبه لإعطاء التقرير لخليفة: «بالطبع، كلّ شيء موجود هنا، بالإضافة إلى بعض الملاحظات التي قد تكون ذات أهميّة».

تصفّح خليفة التقرير وسأله: «أيّ نوع من الملاحظات؟»

«مجرّد حقائق طبيّة عامة. فقد كان يعاني من سرطان بروستات متقدّم جدًّا، وما كان ليعيش على الأرجح أكثر من بضعة أشهر. وكان ثمّة نسيج ندبي قديم وكثيف حول ركبته اليسرى، ولهذا السبب يستعمل العصا على الأرجح. كما أنّه كذب حول سنّه، أو على الأقلّ في بطاقة الهويّة».

نظر إليه خليفة متسائلاً.

«في الواقع لست خبيرًا في هذه الأمور ولكن استنادًا إلى البطاقة فهو من مواليد

عام 1925، أي أنّه في سنّ الثمانين تقريبًا. ولكنّ وضع أسنانه ولثّته يجعلني أراهن على أنّه أكبر بعشر سنوات على الأقلّ. ومع أنّ هذا لا يغيّر شيئًا، إلاّ أنّني أشرت إليه في التقرير».

فكّر خليفة للحظة ثمّ هزّ رأسه ودسّ التقرير في جيب سترته متوجّهًا نحو الباب.

قال وهو يلتفت إلى الخلف: «عمل ممتاز يا أنوَر. أكره قول ذلك، ولكنّك أثرت إعجابي».

كان قد بلغ الباب، وعلى وشك الخروج إلى الممرّ حين ناداه أنوَر قائلاً: «ثمّة أمر واحد غريب».

استدار خليفة.

«لم أتكبّد عناء ذكره في التقرير، إذ لا علاقة له بالقضيّة، ولكنّ صاحبنا كان يعاني من اتحاد أصابع القدم».

عاد الضابط خطوة نحو المكتب، وبدا الارتباك على وجهه.

«ما معنى ذلك؟»

«أساسًا هو اندماج خَلقي لأصابع القدم مع بعضها. إنّها حالة نادرة، نقول بالتعبير العادي إنّ قدم الرجل أشبه بقدم -»

«ضفدع».

وشحب وجه خليفة.

سأله أنوَر: «هل أنت بخير؟ تبدو وكأنّك رأيت شبحًا».

همس المحقّق: «فعلاً، واسمه حنّا شليغل، لقد قمت بعمل رهيب، رهيب حقًّا».

القدس

كان بعض الظهيرة قد حلّ قبل أن تتمكن ليلى أخيرًا من العودة إلى القدس. كان كامل قد أوصلها إلى آخر طريق نابلس ثمّ انطلق مجدّدًا بتحيّة من رأسه، واختفى عند المنعطف المؤدّي إلى شارع السلطان سليمان. كان رذاذ المطر الخفيف قد بدأ يتساقط ناعمًا وباردًا مثل وشاح كبير، يرطّب شعرها وسترتها، ويحطّ بهدوء على الأسطح والأرصفة. ومع أنّ بقعًا من السماء الزرقاء كانت تبدو فوق جبل المَشارِف شرقًا، إلاّ أنّ السماء فوقها كانت رماديّة ومثقلة بالغيوم.

اشـترت نصـف دزينـة مـن أرغفة الخبز من فرن علـى الطريق ثمّ اتجهت صعودًا وتجاوزت مدخل قبر الحديقة وفندق القدس وصفًّا من الفلسـطينيين المرهقين الذين يجدّدون رخص الإقامة خارج الباب الرمادي المعدني الدوّار لمكتب وزارة الداخلية الإسرائيليّة، ثمّ انعطفت ودخلت بابًا ضيّقًا بين فرن ومحل للبقالة، مقابل سور المدرسة التوراتيّة العالي. جلس في الداخل رجل عجوز يرتدي بذلة رماديّة رثّة وكفّية وقد اتّكأ على عصاه، يحدّق إلى المطر.

حيّته قائلةً: «السلام عليكم، فتحي».

رفـع العجـوز رأسـه وحـدّق إليهـا بعينيـن نصـف مغمضتين ثـمّ رفع يـدًا ملتهبة المفاصل لتحيّتها.

قال بصوتٍ قطّعه السعال: «كنّا قلقين عليكِ، اعتقدنا أنّكِ اعتُقلتِ».

ضحكـت ليلـى وقالـت: «لا يجـرؤ الإسـرائيليون علـى اعتقالـي. كيـف حـال عِطاف؟»

رفـع العجـوز كتفيـه وهـو يربّت بأصابعه المتجعدة على قبضـة العصا وقال: «لا بأس. كان ظهرها يؤلمها اليوم لذا لازمت السرير. تريدين بعض الشاي؟»

هزّت ليلى رأسها قائلةً: «أحتاج إلى حمّام ومن ثمّ يتعيّن عليّ إنهاء بعض العمل. ربّما لاحقًا. قُل لعطاف أن تخبرني إن احتاجت إلى شراء أيّ شيء».

تابعت طريقها، وعبرت المدخل ثمّ صعدت مجموعتين من الدرجات الحجريّة نحو شقّتها التي احتلّت الطابق العلوي من المبنى. كان منزلاً بسيطًا، سقفه عاليًا وباردًا، يضمّ غرفتيّ نوم، تحتوي إحداهما أيضًا على مكتبها، فضلاً عن غرفة معيشة كبيرة وفي القسم الخلفي، مطبخ صغير وحمّام وسلّم إسمنتي ضيّق يؤدي إلى سطح الشقّة المطلّ على باب العامود والمدينة القديمة ذات الأبنية العشوائيّة. عاشت في تلك الشقّة خمس سنوات تقريبًا بعد أن استأجرتها من رجل أعمال محليّ يعيش أبواه، فتحي وعطاف، في الطابق الأرضي ويهتمّان بالمبنى. في الحقيقة كان المبلغ الذي تكسـبه من عملها كصحفيّة مستقلّة يسمح لها باستئجار شقّة في منطقة أرقى - كحيّ الشيخ جرّاح مثلاً، بأبنيتـه الجميلـة ومنازلـه المرتبـة. ولكنّها قررت العيش هنا في قلب القدس الشـرقيّة، في وسـط الصخب والضجيج والفقر. وكانت رسـالتها واضحة: أنا لسـت من أولئك الصحفيين الذين يأخذون منكم ما يريدون ثمّ يرجعون إلى أمان الهيلتون أو غير ذلك من الأماكن. أنا واحدة منكم، فلسطينيّة. كانت لفتة صغيرة ولكنّها ضرورية. فقد كان عليها دومًا أن تُثبت نفسها وتحافظ على صورتها.

وضعت أشياءها على الأريكة، التي كانت تشكّل مع طاولة الطعام الصغيرة والتلفزيون وزوج من المقاعد ذات الأذرع كلّ أساس غرفة المعيشة، ثمّ تناولت زجاجة إفيان من البراد، وتوجّهت نحو مكتبها. كان زرّ الضوء يومض في المجيب الآلي، فتناولت جرعة من الماء ثمّ عبرت الغرفة وجلست إلى مكتبها بعد أن ألقت نظرة كعادتها على صورة والدها الكبيرة المعلّقة في إطار فوقها على الجدار، وكان يرتدي معطفه الأبيض ويضع مسماعه في أذنيه. كانت هذه الصورة هي المفضّلة لديها والوحيدة التي احتفظت بها بعد وفاته. شعرت بغصّة قبل أن تنظر إلى الأسفل مجدّدًا وتضغط زرّ التشغيل.

وجدت بانتظارها إحدى عشرة رسالة. واحدة من الغارديان تسأل عن المقال الذي يتناول العملاء الفلسطينيين، وواحدة من توم روبرتس، وهو شاب يعمل في القنصلية البريطانيّة يحاول منذ ستّة أشهر التقرّب منها عبثًا، وأخرى من صديقتها نهى تسألها ما إذا كانت ترغب بتناول العصير معها في فندق القدس، فضلاً عن رسالة من سام روجرسون، أحد العاملين في رويترز، يخبرها باحتلال جماعة محاربي داوود لمنزل في القدس القديمة، وهو خبر سبق وعرفت عنه في رام الله. أمّا بقيّة الرسائل فكانت إمّا إهانات أو تهديدات بالقتل. «أنتِ تشيرين اشمئزازي أيّتها الحقيرة الكاذبة». «استمتعي بيومك يا ليلى لأنّه سيكون الأخير». «نحن نراقبك، ويومًا ما سوف تطلقين النار على نفسك». «الموت للعرب! إسرائيل! إسرائيل!»

كان واضحًا من اللهجات أنّ معظم الاتصالات كانت كالعادة إمّا من إسرائيليين أو من أميركيين. ومع أنّها كانت تغيّر رقم هاتفها بانتظام، إلاّ أنّهم كانوا يعثرون على الرقم الجديد خلال يوم تقريبًا، فتستمّر الاتصالات من دون توقّف. منذ سنوات، في بداية رحلتها المهنية، أزعجتها هذه الاتصالات كثيرًا. أمّا الآن فقد اعتادت عليها ولم تعد تخشاها، بل كانت تتوتّر أكثر بسبب الناشرين الذين يتشاجرون على مقالاتها. ولا تشعر بضعفها إلاّ ليلاً، حين يُضاعف السكون من وحدتها، فيتسرّب إلى نفسها الخوف ممّا كانت متورطة فيه، كالسمّ الذي يجري في الجسد. وكان هذا الخوف يجعل لياليها رهيبة أحيانًا، رهيبة حقًّا.

استمعت للرسائل، ثمّ محتها عن الشريط. وضعت هاتفها المحمول في وحدة الشحن ثمّ أجرت اتصالين سريعين، أحدهما مع نهى لترتيب موعد معها ذاك المساء، والآخر للحصول على تفاصيل عن احتلال المنزل من قبَل اليهود في المدينة القديمة. كانت قد كتبت عدّة مقالات في السنوات الأخيرة عن شايالاي دافيد، وكانت نيويورك

ريفيو قد طلبت منها مؤخرًا إعداد بحث معمّق عن قائد المجموعة، المستوطن المقاتل باروخ هار-زيون، سوفياتي المولد. وسيشكّل هذا الاحتلال قصّة مناسبة، ما جعلها تتساءل ما إذا كان يتحتّم عليها التوجّه مباشرةً إلى المدينة القديمة. قررت أخيرًا أنّ ساعتين من التأخير لن تحدثا أيّ فرق، فأنهت شرب الماء ثمّ دخلت الحمّام وخلعت ملابسها.

أخذت حمّامًا ساخنًا طويلاً، وغسلت جسدها النحيل جيّدًا بالصابون، ثمّ أرجعت رأسها إلى الوراء وتركت الماء يتدفّق فوق وجهها وشعرها مستمتعة بالماء الدافئ وهو يغسل عنها آثار الغبار والعرق. فتحت الماء البارد في الثواني الثلاثين الأخيرة ثمّ ارتدت ثوب الاستحمام، وتوجّهت إلى مكتبها حيث جلست وشغّلت حاسوبها المحمول.

عملت لساعتين، أنهت خلالهما مقالاً كانت قد بدأت به سابقًا عن سوء التغذية بين الأطفال الفلسطينيين ثمّ باشرت بمقدمة مقال العملاء، وكانت تعود أحيانًا إلى ملاحظاتها ولكنّها اعتمدت معظم الوقت على ذاكرتها، بينما تراقصت أصابعها فوق لوح المفاتيح تترجم الصور والأصوات التي تعتمل في رأسها إلى كلمات فوق الشاشة من دون جهد يُذكر.

في الواقع، من الغريب أن تكتب بهذه السهولة، نظرًا إلى أنّ الصحافة لم تكن خيارها المهنيّ الأوّل أو الثاني. ففي سنّ المراهقة، قبل أن يُقتل والدها، كانت ترغب بأنّ تصبح طبيبة مثله لتعمل في مخيّمات اللاجئين في غزّة والضفّة الغربيّة. ولاحقًا، حين كانت تدرس في جامعة بير زيت، التي قرأت فيها التاريخ العربي المعاصر، داعبتها فكرة دخول معترك السياسة. ولكنّها قررت في النهاية أنّ الصحافة هي التي ستتيح لها فرصة تنفيذ ما بدأت تراه مهمّةَ حياتها.

بعد تخرّجها، حصلت على وظيفة في الجريدة الفلسطينيّة الأيام. وكان رئيس تحريرها رجلاً أحدب الظهر يدخّن على نحو متواصل ويُدعى نزار سليمان، أخذها تحت جناحه متحمّلاً موجة من الاحتجاجات لأنّ تاريخ عائلتها كان معروفًا. تناول مقالها الأوّل مخيّمات تلقين الفلسطينيين مبادئ النضال، التي كان يتمّ فيها تعليم أطفال لا يتجاوز عمرهم ست سنوات أغاني مناهضة لإسرائيل وفنّ صنع كوكتيل المولوتوف (كثير من الفازلين حول الإطار، ذاك كان السرّ، لكي يلتصق البترول المشتعل بالهدف)، وأعادت كتابته ست عشرة مرّة قبل أن يوافق سليمان مكرهًا على نشره. حينها شعرت بيأس كبير حتّى إنّها فكرت بالتخلّي فعلاً عن مهنتها. ولكنّه رفض

السماح لها بذلك قائلاً: «إن استسلمت الآن سأطردك من الخدمة!» وأعادت كتابة مقالها الثاني، عن إبعاد إسرائيل للقبائل البدوية من موطنها في النَقَب، خمس مرّات فقط. أمّا مقالها الثالث، عن الفلسطينيين الذين أجبرهم العوز على العمل في بناء المستوطنات الإسرائيليّة، فنُشر في ثلاث جرائد مختلفة وحصلت بفضله على أوّل جوائزها الصحفيّة.

بعد ذلك راح نجمها يسطع بشكل متزايد. فخلفيّتها الهجينة – أم إنكليزيّة وأب فلسطيني – ومعرفتها الوثيقة بالعالم الفلسطيني، ناهيك عن إتقانها للعربيّة والعبريّة والإنكليزيّة والفرنسيّة، أتاحت لها توسيع آفاقها وحصلت على عرضين للعمل في الغارديان ونيويورك تايمز، ولكنّها رفضتهما. عملت أربع سنوات في جريدة الأيام ثمّ راحت تعمل كصحفيّة مستقلّة وتكتب عن كلّ شيء من اللجوء إلى التعذيب في أقسام الأمن الإسرائيليّة إلى مشاريع زراعة السبانخ في الجليل الأدنى. هكذا اتسعت شهرتها، اعتمادًا على نظرتك للأمر، إمّا كصحفيّة شغوفة أو كمنحازة ضدّ الإسرائيليين.

وكانت تهمة الانحياز واحدة من التهم التي يوجهها لها دومًا نقّادها الكثُر: أنّها لا تروي سوى جزء من القصّة، وتحكي عن عذاب الفلسطينيين فيما تتجاهل عذاب المدنيين الإسرائيليين وتتحدّث عن فظاعة مخيّمات اللاجئين من دون أن تذكر شيئًا عن الأبرياء الذين يتحوّلون إلى أشلاء بفعل التفجيرات. ولكنّ هذه التهم لم تكن عادلة تمامًا. فقد كتبت كثيرًا من المقالات عن الإصابات بين المدنيين الإسرائيليين، وعن الفساد والتعدي على حقوق الإنسان داخل السلطة الفلسطينية. ولكن في الواقع، لا يمكن الحديث بموضوعيّة عن هذا الصراع. فمهما حاولت المحافظة على التوازن في موقفك، سينتهي بك الأمر أن تكون مناصرًا. وعلى كل حال، نظرًا إلى خلفيّتها، لم يكن ممكنًا أن تراعي الحساسيّة الإسرائيليّة.

طبعت نحو ألف كلمة من مقال العملاء، ثمّ أرسلت مقال سوء التغذية عبر البريد الإلكتروني إلى مكاتب جريدة الأهرام في القاهرة وأطفأت حاسوبها. لم تكن قد حصلت على حاجتها من النوم في الأيام السابقة، وكانت تشعر بالنعاس. ولكنّ سنوات من العمل في المراسلة، بدوامها غير المنتظم والمهل القصيرة لإنجاز العمل، قد عوّدتها على التعب، كما أنّها كانت ترغب بالذهاب إلى المدينة القديمة للتحقّق من حادثة الاحتلال. هكذا ارتدت بعض الملابس وتناولت دفتر الملاحظات والكاميرا وهي تقضم تفاحة، ثمّ عبرت الشقّة وفتحت الباب الأمامي.

كان فتحي قد صعد السلّم للتوّ وهو يتنفس بصعوبة، يمسك العصا بإحدى يديه

فيما يحمل باليد الأخرى مغلّفًا.

«وصلتك هذه الرسالة صباحًا، ولكنني نسيت إخبارك. أنا آسف».

أعطاها المغلّف الذي لم يكن يحمل إشارة بريديّة أو عنوانًا، بل كان اسمها مكتوبًا عليه بخط أحمر قانٍ، وكانت الأحرف واضحة ومستقيمة، وكأنّها صفّ من الجنود الذين يقفون منتظرين التعليمات.

سألته: «من أحضره؟»

أجاب العجوز وهو يستدير لنزول السلّم: «أحد الأولاد، ولكنّني لم أرَه من قبل. أتى وسأل إن كنت تعيشين هنا، ثمّ أعطاني إيّاه وركض عائدًا».

«فلسطينيّ؟»

«بالطبع فلسطينيّ، منذ متى يتجوّل أولاد اليهود في هذا الجزء من المدينة؟»

لوّح بيده وكأنّه يقول «ما هذا السؤال السخيف؟» ثمّ تابع طريقه.

قلّبت ليلى المغلّف بيدها وتفحّصته بحثًا عن أسلاك أو محتويات أخرى خطرة. وحين تأكّدت أنّه آمن، عادت إلى منزلها ووضعته على مكتبها ثمّ فتحته بحذر وأخرجت منه ورقتَين مرفقتَين معًا. كانت الأولى تحمل كتابة بالخط القوطيّ الملتفّ الذي استُعمل للكتابة على المغلّف، أمّا الأخرى فكانت نسخة بمقاس A4 لما بدا وكأنّه وثيقة قديمة. حدّقت قليلاً إليها ثمّ أعادت انتباهها إلى الملاحظة المرفقة بها والتي كانت مكتوبة باللغة الإنكليزيّة.

آنسة مدني،

لطالما أعجبت بعملك الصحفيّ وأودّ أن أعرض عليك اقتراحًا. أجريتِ منذ فترة مقابلة مع الزعيم المعروف بالملثّم. وأنا أملك معلومات لا تقدّر بثمن لهذا الرجل في نضاله ضدّ المحتلّ الصهيوني، وأرغب كثيرًا بالاتصال به. أعتقد أنّه يمكنك مساعدتي في ذلك، وبالمقابل يمكنني أن أقدّم لك ما من شأنه أن يشكّل بالنسبة إليك أكبر سبق صحفيّ في حياتك المهنيّة الناجحة أساسًا.

نظرًا إلى دقّة الوضع، سوف تقدّرين رغبتي بالتزام جانب الحذر في هذه المسألة. لن أكشف المزيد في هذه المرحلة. أرجو أن تفكري بعرضي وأن تبلغيني ردّك إن أمكن عبر صديقنا المشترك. سوف أتصل بك في القريب العاجل.

ملاحظـة: لإثـارة اهتمامـك وحسـب، سـأعطيكِ إشـارة صغيـرة. إنّ المعلومـات التـي أتحـدّث عنهـا هي علـى صلة وثيقة بالمسـتند المرفق. وإن كنتِ تتمتعين بنصف المهارة التي أظنّ أنّك تملكينها، لا أظنّ أنّك ستحتاجين إلى وقت طويل قبل أن تكتشفي معنى عرضي.

لم يكن ثمّة توقيع.

Zbxnufgmhiuynzupnzmimindoygzikdmong
uukxpgpnzpogouzhdzqohidpcpdngbuuhmzdzi
konugdmonumnhodgpdnohmuumyhhuhpnxou
ndnzyoxdmzkzmziaomhpguinufzggunzznhdz
qohguzhpxlgupdgqhhzuonzznhondhdnimofdv
uminzufzomvguuxxzgufdpfdguhdqnnhzloupu
goygzodioophdoxopmunzzocoxdpuzooghuuonz
nopoofododozuapoodnuopzhzxnnmuidzkdmp
oumdnloipbyumzquyhggpnzznhoguzmznonh
udolpnddnugxuikzoohnddnugxumbounddnu
ghuzodazhughhddmznpfugzrzvdximppupofuu
zanumzoomppn

GR

أعـادت قـراءة الرسـالة عـدّة مـرّات ثـمّ نظرت مجـدّدًا إلى النسـخة المرفقة بها. بـدت لهـا أنّهـا نسـخة عن رسـالة قديمة جـدًّا كما يبدو من الكتابـة. عرفت أنّ الكتابة اسـتعملت الحـروف الرومانيّـة، ولكنّهـا لـم تتمكّن من تبيّـن أوّلها من آخرها، لأنّها لم تكتـب بكلمـات وجمـل مستقلّة، بـل بدت أنّها تتألّف من سلسـة واحدة من الأحرف التي لا تنتمي إلى أيّ لغة تعرفها.

وفي آخر الرسالة، بدا الحرفان GR جانبًا، ولكنّهما لم يكونا أكثر وضوحًا بالنسبة إليها من بقية النصّ.

حدّقـت إليهـا بارتيـاك لفتـرة من الوقت ثمّ عادت إلى الرسـالة الإنكليزيّة. كانت المقابلة التي ورد ذكرها قد نُشرت منذ أكثر من عام. وقد أثارت كثيرًا من الاهتمام وقتها لأنّها كانت المناسـبة الوحيدة التي كشـف فيها المناضل الفلسـطيني الملثّم النقاب عن السريّة التي أحاط بها نفسه ووافق على التكلّم علنًا. وكانت سلطات الأمن الفلسطينيّة قـد أبـدت اهتمامًا خاصًا بالمسـألة، وحجـزت دفتر ملاحظاتها وحاسـوبها وأخضعتها لتحقيـق طويـل. ولكنّهـا لـم تتمكّن من إعطائهم معلومات ذات فائدة – كما شـرحت

في المقال، تمّت المقابلة في مكان سريّ وعُصبت عيناها خلالها - وهي تشكّ الآن في أنّ الرسالة الغريبة والنسخة لم تكونا خدعة ناجحة من قبل الشين بيت باكتشاف ما إذا كانت تعرف المزيد عن الملثم. وبالطبع لم تكن تلك المرّة الأولى التي حاولوا فيها الإيقاع بها أو تكذيبها. فمنذ بضع سنوات أتاها رجل ادّعى بأنّه ناشط فلسطيني وسألها ما إذا كان يمكن استعمال مركزها الصحفي للمساعدة في تمرير الأسلحة عبر معبر إيريتز إلى غزّة - وكانت الخدعة واضحة إلى حدّ أنّها انفجرت ضاحكة وأجابت بالعبريّة أنّه يسرّها ذلك شرط أن يدعوها عامي عايالون إلى العشاء في ما بعد.

هكذا فكرت بأنّ الرسالة هي بالتأكيد خدعة تقوم بها جهات الأمن الإسرائيليّة. وإلاّ فهي مزحة محكمة. وفي الحالتين لا تستحقّ إضاعة الوقت. ألقت نظرة أخيرة على الوثيقة المصوّرة، ثمّ رمتها هي والرسالة في سلّة المهملات وغادرت الشقّة.

الأقصر

«أنتَ حالم يا خليفة! لطالما كنت كذلك، وستبقى! حالم أحمق!»

ضرب رئيس الضبّاط، عبد بن حسّاني مكتبه بقبضته البدينة، ثمّ وقف وسار ببطء نحو النافذة يحدّق غاضبًا إلى البرج الأوّل لمعبد الأقصر. هناك تجمّع حشد من السوّاح حول مسلّة رمسيس الثاني، يصغون لدليلهم.

كان رجلاً بدينًا، عريض المنكبَين، حاجباه كثيفين وأنفه أفطس، وكان معروفًا بسوء مزاجه وغروره. تجلّى غضبه، كما هي الحال الآن، بصوته العالي ووجهه الأحمر والشريان الصغير الذي راح ينبض تحت عينه اليمنى، أمّا غروره فبدا في الشعر المستعار المسرّح بعناية الذي غطّى قمّة رأسه الأصلع وكأنّه مجموعة متشابكة من أعشاب النيل. وكانت الضربة التي وجّهها إلى مكتبه قد أزاحت بقعة الشعر قليلاً فادّعى أنّه يحكّ جبينه وأعادها بعناية إلى مكانها منحنيًا بعض الشيء إلى اليسار للنظر في مرآة معلّقة أمامه على الجدار.

قال غاضبًا: «أنت أحمق سخيف! حبًّا بالله يا رجل، كان ذلك منذ عشرين عامًا».

«خمسة عشر».

«خمسة عشر، عشرين، لا يهمّ. مضى زمن طويل لتفكّر بالأمر الآن. أنت تمضي وقتًا طويلاً مقحِمًا رأسك في الماضي. عليك أن تخرج لتنفس الهواء من وقت إلى آخر».

استدار نحو خليفة محدّقًا إليه بتعبير كان ليبدو أكثر جديّة لولا الشعر المستعار

الذي بدا وكأنّ سنجابًا يستريح على رأسه. وفي ظروف أخرى كان خليفة سيجاهد لمنع نفسه من الضحك. أمّا اليوم، فبالكاد لاحظ كتلة الشعر أثناء محاولته التركيز على ما يريد قوله.

«ولكن سيّدي–»

صرخ حسّاني وهو يسير إلى الأمام ليقف كاتفًا ذراعيه تحت صورة للرئيس حسني مبارك، وهي وضعيّة كان يعتمدها دائمًا حين يرغب بإلقاء محاضرة: «الحاضر! نحن نعمل في الحاضر يا خليفة. هنا، الآن. ثمّة جرائم تُرتكب كلّ يوم، وفي كلّ ساعة من النهار، وهي التي ينبغي بنا التركيز عليها، وليس ما حدث منذ عقد أو أكثر. لا بل ومسألة حُلّت في زمنها!»

انعقد حاجباه للحظة وكأنّه ليس مقتنعًا تمامًا بجملته الأخيرة. ولكنّ شكّه لم يدم سوى للحظة ثمّ مرّ على الفور، فتنهّد ورفع إصبعه نحو خليفة الذي كان جالسًا على كرسي منخفض أمام مكتبه.

«لطالما كانت تلك مشكلتك، وقد قلتها مرارًا – العجز التام عن التركيز على الحاضر. أنت تمضي وقتًا طويلاً تتجوّل في المتاحف، هذا هو السبب. توت عنخ أمون، أنتينابون–»

صحّح له خليفة قائلاً: «أخناتون».

«ها أنت مجدّدًا! من يهتمّ باسمه الصحيح! الماضي مضى، انتهى، لا علاقة لنا به. اليوم هو المهم».

كان افتتان خليفة بالتاريخ القديم موضع خلاف دائم بين الرجلين، إضافة إلى كونه واحدًا من رجال الشرطة القلائل في القسم الذين لا يُرهِبهم حسّاني. ولم يفهم خليفة أبدًا السبب الذي يجعل الرئيس يستخف بالتاريخ إلى هذا الحدّ، لا بل ويبغضه، مع أنّه يشكّ في أنّ السبب هو جهله به وعدم قدرته على المشاركة حين يتخذ الحديث هذا المنحى.

في جميع الأحوال، كان حسّاني يثير هذه النقطة كلّما أراد الشجار مع خليفة، وكأنّ عمل المحقّق والاهتمام بتاريخ بلاده أمران لا ينسجمان.

راح حسّاني يصرخ بغضب متصاعد: «ألن يفرحوا بذلك! اللصوص والمحتالون والقوّادون. ألن يفرحوا إن أمضينا وقتنا نبحث في قضايا انتهت منذ خمسة عشر عامًا وتركناهم وشأنهم ليواصلوا السرقة والاحتيال و...» توقّف للحظة بحثًا عن الكلمة المناسبة، ثمّ صرخ أخيرًا: «والقوادة! آه نعم، سيسرّون بذلك! وسنبدو نحن كالأغبياء».

كان الشريان ينبض قرب عينه بشدة أكبر وكأنّه دودة خضراء منتفخة تتلوّى تحت بشرته. أخرج خليفة سجائره ثمّ انحنى إلى الأمام، وأشعل إحداها وراح يحدّق إلى الأرض.

قال بهدوء وهو يسحب نفسًا جائعًا إلى النيكوتين، والتركيز والوضوح اللذين يعطيهما له: «ربّما حدث خطأ في تنفيذ العدالة. ليس أكيدًا ولكنّه ممكن بالتأكيد. وحتّى إن مضت عليه خمس عشرة سنة أو ثلاثون، من واجبنا البحث فيه».

صرخ حسّاني: «ولكن ما هو دليلك؟ أعلم أنّك لست من الأشخاص الذين يسمحون للوقائع بالوقوف في وجه نظريّة تآمر جيّدة، ولكنّني أحتاج إلى أكثر من ربّما وممكن».

«كما سبق وقلت، لا شيء مؤكّد-»

«تعني لا شيء على الإطلاق!»

«ثمّة نقاط تشابه».

«ثمّة نقاط تشابه بين زوجتي وثور الماء، ولكنّ هذا لا يعني أنّها تجلس في حوض خاص بها تأكل أوراق النخيل طيلة اليوم!»

تابع خليفة وهو يرفع صوته أعلى من صوت رئيسه رافضًا الاستسلام: «نقاط تشابه كثيرة لا يمكن أن تكون مجرّد مصادفة. إنّ جانسن متورّط في قتل حنّا شليغل. أعرف ذلك. أعرف ذلك!»

كان يفكر في صوت مرتفع، فوضع يدًا على ركبته وسحب نفسًا عميقًا من سيجارته محاولاً تهدئة نفسه، قال محاولاً إبقاء صوته منخفضًا وهادئًا: «اسمع، لقد قُتلت حنّا شليغل في الكرنك، وجانسن يعيش قرب الكرنك».

قال حسّاني ساخرًا: «وكذلك آلاف الأشخاص الآخرين. كما أنّ خمسة آلاف شخص يزورون المكان كلّ يوم. هل تعني أنّهم جميعًا متورّطون في الجريمة؟»

تجاهل خليفة السؤال وتابع قائلاً: «رمز عنخ والزهور التي تزخرف قبضة عصا جانسن تناسب الآثار التي وُجدت على وجه شليغل وجمجمتها. ولم يتمّ حينها تفسير سبب تلك الآثار كما يجب».

لوّح حسّاني بيده بلا اكتراث: «آلاف الأشياء تحمل زخرفةً من هذا النوع، لا بل عشرات الآلاف. هذا دليل ضعيف يا خليفة، ضعيف جدًّا».

تجاهل المحقّق رئيسه مجدّدًا وتابع: «كانت شليغل يهوديّة إسرائيليّة، وجانسن يكره اليهود».

«حبًّا بالله يا خليفة بعدما فعله الإسـرائيليون بالفلسـطينيين، أصبح جميع من في مصر يكره اليهود. ماذا نفعل؟ هل نفتح تحقيقًا مع جميع أبناء الشعب؟»

رفض خليفة التراجع وتابع: «قال الحارس في الكرنك يرى شخصًا يسرع هاربًا من مسـرح الجريمة وأنّ شـيئًا غريبًا كان على رأسـه. وكأنّه طائر صغير غريب- هكذا وصفـه. وحيـن كنـت في منزل جانسـن وجدت قبعة تلائم هـذا الوصف معلّقة خلف باب القبو. قبعة ذات ريش يخرج منها».

انفجر حسّاني في نوبة من الضحك: «كم هذا مضحك! على ما أذكر، كان ذاك الحارس شـبه أعمى. كان بالكاد قادرًا على رؤية يده أمام وجهه، فما بالك بشـخص على بعد خمسين مترًا؟ أنت تتعلّق بالأوهام يا خليفة! أو بالأحرى بالريش. طائر صغير غريب؟ أنت تفقد عقلك يا رجل!»

أخـذ خليفـة نفسًـا أخيـرًا من سـيجارته ثمّ انحنى إلى الأمـام وأطفأها في منفضة على طرف المكتب.

«ثمّة أمر أخير».

صـرخ حسّـاني وهـو يصفـق بيديـه: «أخبرنـي أرجـوك، لـم أضحـك كذلك منذ سنوات».

اسـتند خليفة مجدّدًا إلى ظهر مقعده: «قبل أن تموت شـليغل تمكّنت من قول كلمتين: ثوث، وهو اسم إله الكتابة والحكمة المصري-»

قال حسّاني: «أجل، أجل، أعرف!»

«وتزفارديا، وهي كلمة عبريّة تعني ضفدع».

ضاقت عينا حسّاني: «إذًا؟»

«يعاني جانسن من حالة وراثيّة جعلت أصابع قدمه متحدة مثل الضفدع».

تحدّث بسـرعة محاولاً إخراج الكلمات قبل موجة السـخرية المتوقعة. ولكنّه فوجـئ بحسّـاني الـذي لـم يقل شـيئًا، بل سـار نحـو النافذة ووقف ينظـر منها مديرًا ظهـره إلـى خليفـة ويـداه مقبوضتان إلى جانبيه وكأنّـه يحمل زوجًا من الحقائب غير المرئيّة.

تابـع خليفـة محـاولاً اسـتغلال الصمت لصالحه: «أعرف أنّ أيًـا من هذه الأمور لا يعنـي الكثيـر بحـدّ ذاتـه، ولكـن إن جمعتهـا معًـا لا بـدّ لك من التوقّـف والتفكير. فالمصادفـات كثيـرة. وحتّـى إن كانـت مصادفة، ما زالت لدينا مسـألة الآثار الموجودة في قبو الرجل. كان جانسن محتالاً، أعرف ذلك. حدسي يخبرني بذلك. الأمر يحتاج إلى البحث».

كانت قبضتا حسّاني مشدودتين إلى حدّ أنّ عقد أصابعه بدت بيضاء اللون. وبعد صمتٍ طويل، استدار نحو خليفة.

قال ببطء، وبدا الغضب الذي يحاول السيطرة عليه أكثر تهديدًا من الصراخ: «لن نضيع مزيدًا من الوقت على هذا الموضوع، هل تفهم؟ الرجل مات، مهما يكن ما تورّط فيه أو فعله فقد انتهى. ليس ثمّة ما يمكننا فعله».

نظر إليه خليفة غير مصدّق.

«وماذا عن محمّد جمال؟ ذاك الرجل البريء قد يكون اتّهم خطأً».

«جمال مات أيضًا، لم يعد بإمكاننا فعل شيء».

«ولكنّ عائلته لا تزال حيّة. نحن ندين لها-»

«لقد اعتُبر جمال مذنبًا في قاعة المحكمة. لقد اعترف علنًا أنّه سرق المرأة العجوز».

«ولكنّه لم يعترف أنّه قتلها، بل أنكر ذلك دومًا».

«لقد انتحر، حبًّا بالله! أيّ اعتراف إضافي تريد؟»

تقدّم حسّاني خطوة أخرى إلى الأمام: «كان الرجل مذنبًا يا خليفة! كان يعرف ذلك ونحن نعرف ذلك أيضًا. جميعنا كان يعرف!»

اتّسعت عيناه من شدّة الغضب ولكن بدا فيهما شيء آخر أيضًا. مسحة من اليأس، لا بل الخوف، نظرة لم يرَها خليفة من قبل. أشعل سيجارة أخرى وقال: «أنا لا».

«ماذا؟ ماذا قلت؟»

«أنا لم أعتقد أنّ جمال كان مذنبًا. كانت لديّ شكوك حينها، وهي الآن أقوى من قبل. ربّما قام محمّد جمال بسرقة المرأة ولكنّه لم يقتلها. عرفت حينها ولكنّني لم أجرؤ على قول ذلك، وأنا أخجل من نفسي. وأعتقد أنّنا جميعًا عرفنا ذلك- أنت، أنا، الرئيس محفوظ -»

تقدّم حسّاني إلى الأمام ووجّه ضربة بقبضته إلى طرف المكتب طارت على أثرها كومة من الأوراق على الأرض.

«هذا يكفي يا خليفة! هذا يكفي، هل تسمع؟»

كان جسده يرتجف بأكمله، بينما تجمّعت رغوة على زاويتي فمه. تابع قائلاً: «مشاكلك النفسيّة هي مشاكلك وحدك، أمّا أنا فلديّ قسم شرطة لأديره ولن أعيد فتح قضيّة مضى عليها خمسة عشر عامًا لأنّ أحمق يعاني من أزمة ضمير. أنت لا تملك أيّ دليل يُثبت أنّ محمّد جمال لم يقتل حنّا شليغل، إلاّ في ذهنك، والذي لا

يبدو في حالة استقرار بعد حديثك عن الريش والضفادع. لطالما عرفت أنّك لست مناسبًا لهذه الوظيفة يا خليفة، وهذا يؤكّد ظنّي. إن كنت عاجزًا عن تحمّل مشاكل هذه الوظيفة، اتركها واعمل في الآثار أو في أيّ مهنة تحبّها ودعني أتابع عملي في القبض على المجرمين، المجرمين الحقيقيين لا الخياليين».

مدّ يده لحكّ رأسه بعنف، ناسيًا أمر الشعر المستعار الذي انزلق من مكانه وحطّ على جبينه. فنزعه وهو يزمجر غضبًا ورماه عبر الغرفة، ثمّ جلس على مكتبه وهو يتنفّس بثقل.

قال بصوت بدا فجأة منهكًا وهادئًا: «اترك هذه المسألة يا خليفة، هل تفهمني؟ افعل ذلك لمصلحة الجميع. محمّد جمال قتل حنّا شليغل، جانسن مات إثر حادث، ولا علاقة بين الاثنين، لن أعيد فتح القضيّة».

ارتفعت عيناه ثمّ انخفضتا مجدّدًا، رافضًا النظر في عيني خليفة.

«والآن ثمّة خواجاية في قصر الشتاء تعتقد أنّ جواهرها قد سُرقت وأريدك أن تذهب للنظر في الأمر. انس أمر جانسن وقم بعمل ضابط الشرطة الصحيح لمرّة في حياتك».

بعثر مجموعة من الأوراق أمامه، وبدا فكّه مشدودًا. أدرك خليفة أنّه لا فائدة من متابعة الجدال، فوقف وسار نحو الباب.

قال حسّاني: «المفاتيح، ولا أريدك التجوّل حول منزل جانسن من خلف ظهري».

استدار خليفة وأخرج مفاتيح جانسن من جيبه ثمّ رماها لحسّاني الذي التقطها بإحدى يديه.

«خليفة، لا تتجاوزني في هذه القضيّة، هل تفهم؟ ليس في هذه القضيّة».

توقّف المحقّق، ثمّ فتح الباب وخرج إلى الممرّ.

القدس

لا يمكن أن تمرّ ليلى عبر باب العامود المؤدية إلى المدينة القديمة، بقنطرتها ذات البرجين وأرضها المسودة بالسُخام وأفواج المتسوّلين وباعة الفاكهة، من دون أن تتذكّر المرّة الأولى التي زارتها مع والديها حين كانت في الخامسة من عمرها.

يومها قال لها والدها بفخر وهو ينحني لمداعبة شعرها الأسود المتدلّي إلى

خصرها: «انظري يا ليلى، هذه هي القدس! أجمل مدن العالم، مدينتنا. انظري كيف تلمع أحجارها تحت شمس الصباح، تنشقي رائحة الصعتر والخبز الطازج، أصغي إلى صوت المؤذّن وباعة التمر هندي. تذكّري هذه الأشياء يا ليلى واحتفظي بها في داخلك. لأنّه إذا دخلها الإسرائيليون سيخرجوننا منها وستصبح القدس مجرّد مكان نقرأ عنه في كتب التاريخ».

أحاطت ليلى عنق والدها بذراعها وقالت: «لن أسمح لهم بذلك، بابا! سأحاربهم. أنا لا أخاف منهم».

يومها ضحك والدها واحتضنها بقوّة إلى صدره المسطّح والصلب كالرخام.

«أيّتها المحاربة الصغيرة! ليلى التي لا تُقهر! كم أنا فخور بابنتي!»

مشى الثلاثة حول المدينة من الخارج وتبعوا خطّ الأسوار التي بدت لها في ذلك الوقت ضخمة جدًّا ومخيفة، وكأنّها موجة عظيمة من الأحجار، ثمّ عبروا باب العامود ودخلوا متاهة الشوارع خلفها. شربوا يومها الكوكا كولا في مقهىً صغير على الرصيف، فيما دخّن والدها الشيشة وهو يتحدّث بحماسة مع مجموعة من الرجال المتقدّمين بالسنّ، قبل أن يسيروا في طريق الواد نحو الحرم الشريف، ويتوقّف من حين إلى آخر ليشير لهما إلى فرن أكل فيه الكعك في طفولته، وساحة لعب فيها بالكرة، وشجرة تين قديمة اعتاد على قطف ثمارها.

«ثمارها لا تؤكل، فهي قاسية ومُرّة. كنّا نقطفها لنرميها على بعضنا، وقد أصبت بضربة منها على أنفي مرّة. كان يمكن أن تسمعا صوت الطقطقة! يومها ملأ الدم المكان!»

انفجر ضاحكًا وهو يتذكّر الحادثة، وضحكت ليلى أيضًا مع أنّ الحادثة أرعبتها، لا سيّما فكرة تعرّض والدها للأذى. كانت تحبّه كثيرًا وأرادت إسعاده كما رغبت أن تريه أنّها ليست ضعيفة أو خائفة، بل قويّة مثله – شجاعة، فلسطينيّة حقيقيّة. وانتقلوا من شجرة التين إلى متاهة من الشوارع الضيّقة ليصلوا إلى شارع كانت أبنيته تشكّل نفقًا مقوّسًا فوق رؤوسهم. ثمّة مجموعة من الجنود الإسرائيليين يقفون عند المدخل وراحوا يحدّقون إليهم بارتياب وهم يعبرون الشارع.

قال والدها متنهّدًا: «هل تريان كيف ينظرون إلينا، وكأنّنا لصوص في بيتهم».

أمسك بيدها، وقادها نحو باب خشبيّ منخفض يعلوه حاجب منقوش بزخرفة معقّدة من العنب وأوراق الكرمة. وثمّة لوحة نحاسيّة تشير إلى أنّ المكان هو بيشيفا ألدر كوهين، إضافة إلى ميزوزا١ معلّقة على الحاجب إلى اليمين.

قال بصوت حزين وهو يمدّ يده ويلمس الباب: «هذا منزلنا، منزلنا الجميل».

كانت عائلته- عائلتها- قد هربت خلال أحداث حزيران 1967 وغادرت المدينة مع بعض المقتنيات القليلة ولجأت إلى مخيّم عقبة جبر خارج أريحا، على بعد أربعين كيلومترًا. كان يُفترض بهروبهم أن يكون مؤقتًا، وقد عادوا فور توقّف القتال. ولكنّ الإسرائيليين كانوا قد احتلّوا المنزل ولم تُجدِ أي احتجاجات لاستعادة المنزل من أسياد المدينة الجدد. هكذا عاشوا لاجئين منذ ذلك الحين.

قال والدها وهو يمرّر يده بحنان فوق عقد الباب الخشبيّ ويلمس الحاجب المنقوش: «هنا وُلدت، وهنا وُلد أبي وجدّي ووالده أيضًا. أربعة عشر جيلاً، ثلاثمائة عام، كلّها ضاعت هكذا».

طقطق أصابعه في الهواء. وحين نظرت إليه رأت دموعًا تفيض من عينيه البنّيتين الكبيرتين.

قالت وهي تحتضنه محاولةً أن تنقل كلّ قوّتها وحبّها إلى جسده النحيل والقويّ: «لا بأس يا بابا، سوف تستعيده يومًا ما، وسنأتي جميعنا للعيش معًا. سيكون كلّ شيء على ما يرام».

انحنى ومرّر وجهه فوق شعرها الأسود الطويل قائلاً: «ليت هذا يحدث يا حبيبتي ليلى، ولكن لا تنتهي جميع القصص نهايات سعيدة، لا سيّما مع شعبنا. سوف تتعلّمين ذلك حين تكبرين».

عبرت هذه الذكريات وغيرها رأسها وهي تمرّ الآن عبر البوابة الداكنة وتسير في طريق الواد المنحدر.

يزدحم هذا الجزء من المدينة عادةً بالمتاجر الملوّنة لباعة الأزهار والفاكهة والتوابل، وحشود التجّار الذين يتدافعون جيئةً وذهابًا، والأولاد الذين يجرّون عربات خشبيّة محمّلة بالأطعمة أو النفايات. أمّا اليوم فكان المكان هادئًا على غير عادة، نتيجة لاحتلال محاربي داوود منزلاً جديدًا في المدينة من دون شكّ. كان ثمّة رجلان عجوزان يجلسان تحت مظلّة معدنية قديمة لمقهىً خالٍ. إلى يسارهما، جلست مزارعة القرفصاء أمام باب منزل وقد جمعت أمامها هرمًا من الليمون الحامض، فيما دفنت وجهها بين يديها السمراوين المتجعّدتين. في ما عدا ذلك، كان الأشخاص الوحيدون المتواجدون هم من العسكريين الإسرائيليين ورجال الشرطة: ثلاثة مجنّدين شباب متمركزين خلف متراس من أكياس الرمل، رجال من وحدة شرطة الحدود يتسكّعون بالجوار بقبعاتهم الخضراء أمام أحد المقاهي، دوريّة من رجال الشرطة تقف داخل البوابة تمامًا وقد اختفت ستراتهم الزرقاء في الظلال بحيث بدت رؤوسهم وأذرعهم

وسيقانهم معلّقة في فجوة خالية حيث يجب أن تكون صدورهم.

أبرزت ليلى بطاقة الصحافة لأحدهم، وكان فتاة جميلة يمكنها أن تكون عارضة أزياء لو لم تكن عنصر شرطة، وسألتها إن كانت تستطيع المرور للذهاب إلى المنزل المحتلّ.

نظرت الفتاة إلى البطاقة باستياء وقالت لها: «الطريق مقطوع على بعد مسافة من هنا. اسألي هناك».

هزّت ليلى رأسها وواصلت طريقها عبر المدينة مجتازة الفندق النمساوي، طريق الآلام، الشارع الذي يضمّ شجرة التين التي حدّثها عنها والدها - يبدو أنّ حجمها بالكاد تغيّر منذ ذلك الوقت. في أثناء تقدّمها، كانت تسمع صراخًا وكان حضور الشرطة والعسكريين يتزايد. بدأت بالمرور بين مجموعة من الشباب الفلسطينيين، بعضهم يرتدون عصابات الرأس السوداء والبيضاء لحركة فتح وآخرون يحملون العلم الفلسطينيّ الأحمر والأخضر والأسود والأبيض، ثمّ تحوّلت الجماعات إلى حشد والحشد إلى جمهور، وكان صدى صراخهم يتردّد في الشارع الضيّق، فيما راحت غابة من القبضات المشدودة تضرب الهواء. كان الجنود الإسرائيليون يملأون الشارع ويمنعون موجة الاحتجاج من التمدّد عبر المدينة، وكانت وجوههم الخالية من التعابير تتضارب مع وجوه المحتجّين التي قلّصها الغضب والتحدي. كان الرماد وورق الكرتون المتفحّم يلطّخان الأرض التي أُشعل عليها احتجاجًا، بينما تدلّت كاميرات المراقبة الإسرائيليّة من الحاملات المثبّتة على الجدران مثل جثث الحيوانات الميتة، مسحوقة العدسات.

شقّت ليلى طريقها عبر الحشد الذي كان يزداد كثافة مع كلّ خطوة، حتّى بدا لها أنّها لا تتمكّن من الوصول أبدًا لولا أن تعرّف عليها شاب أجرت معه مقابلة منذ شهرين من أجل مقال كان تعدّه عن حركة شباب فتح. فحيّاها ونصّب نفسه مرافقًا لها وراح يُفسح لها طريقًا بين الأجساد المتراصّة إلى أن وصلت إلى الحواجز التي أقامها الإسرائيليون عبر الشارع. رأت مجموعة صغيرة من جماعة السلام الآن الإسرائيليّة بين المحتجّين الفلسطينيين، وبينهم امرأة عجوز ترتدي قبعة صوفيّة، نادتها.

«أتمنى أن تكتبي عن هؤلاء الأنذال، ليلى! سوف يتسببون بحرب!»

صرخ رجل بقربها: «هذا ما يريدون فعله بالضبط. سيقتلوننا جميعًا! فليخرج المستوطنون! نريد السلام! السلام الآن!»

انحنى إلى الأمام ولوّح بقبضته نحو صفٍّ من شرطة الحدود المحمّل بالأسلحة الثقيلة والمصطفّ أمام الطرف المقابل من الحاجز. وراءهم، كانت مجموعة من

الصحفيين والعاملين في التلفزيون، وكثير منهم يعتمرون الخوذ ويرتدون السترات الواقية من الرصاص، يتمركزون خارج المنزل المحتلّ. كما ارتفع حاجز آخر على مسافة أبعد في الشارع في وجه حشد من اليهود الحريديين والإسرائيليين المنتمين إلى الجناح اليميني، المجتمعين دعمًا للمستوطنين. كان أحدهم يحمل لافتة كُتب عليها كاهان على حقّ! وأخرى تقول العرب مغتصبو الأرض اليهوديّة.

أبرزت ليلى بطاقتها الصحفيّة لأحد الجنود عند الحاجز، وبعد استشارة رئيسه سمح لها بالعبور، فشقّت طريقها بين جمهرة الصحفيين، لتنتهي بقرب رجل ضخم ملتحٍ، يضع نظّارة ويعتمر خوذة بلاستيكيّة.

قال ساخرًا بصوت كان يُسمع بالكاد بين صراخ الحشود: «أخيرًا شرّفتنا ليلى المدني العظيمة بحضورها. كنت أتساءل متى ستظهرين».

كان أونز شينكر مراسلاً سياسيًّا لجيروزاليم بوست. في أوّل مرّة التقته، رمت في وجهه كوبًا من الماء بسبب ملاحظة قالها مستخفًّا بالنساء الفلسطينيّات، وهذا ما كانت عليه علاقتهما منذ ذلك الحين. حافظا على مودّة جليديّة، ولكنّ المحبّة كانت مفقودة من الطرفين.

قالت له بصوت لاذع: «اخرج من تحت القبعة، شينكر».

«ستتمنين لو أنّك تملكين مثلها حين يبدأ أصحابك العرب برمي الأحجار والزجاجات».

وتأكيدًا لكلامه، طارت نحوهم زجاجة منطلقة من بين المحتجّين الفلسطينيين وتحطّمت على الرصيف على بعد أمتار إلى يمينه.

صرخ قائلاً: «أرأيتِ، ولكنّني أعتقد أنّهم لن يرموا شيئًا عليكِ، أليس كذلك. فهم يريدون إيذاء الصحفيين الحقيقيين!»

فتحت ليلى فمها لتردّ على الإهانة ولكنّها عدلت عن رأيها واكتفت برميه بنظرة حادّة قبل أن تواصل طريقها. كان جيرولد كيسيل من محطة سي أن أن يجاهد للتحدّث إلى الكاميرا وسط تلك الفوضى. إلى يسارها، كانت شرطة الحدود الإسرائيليّة قد رفعت الحواجز لإجبار المحتجّين الفلسطينيين على التراجع. كان الصراخ يعلو على نحو متزايد، فيما أطلقت قنبلة مسيلة للدموع وتمّ رمي مزيد من الزجاجات.

وقفت ليلى للحظة بلا حراك محاولة استيعاب المشهد، ثمّ أنزلت كاميرتها عن كتفها وبدأت بأخذ الصور لرسمي المينورا على جانبي الباب الأمامي - رمز محاربي داوود التقليدي - والعلم الإسرائيلي المتدلّي على واجهة المبنى والجنود المتمركزين على الأسطح من الجانبين ليمنعوا على الأرجح سكان المنطقة من اقتحام المنزل من

الأعلى. وما إن استدارت إلى اليمين لتصوير المحتجّين المؤيّدين للمستوطنين، حتّى شعرت فجأة بأنّ الحشد حولها يزداد كثافة ويندفع إلى الأمام.

فُتح باب المنزل المحتلّ. ساد الصمت للحظة ثمّ خرج باروخ هار-زيون بقامته المربّعة إلى الشارع يرافقه حارسه صاحب العضلات والرأس الحليق، آفي شتاينر. هلّل المؤيّدون للمستوطنين وراحوا ينشدون «هاتكيفا»، النشيد الوطني الإسرائيلي. فأخذ الفلسطينيون ومؤيّدو السلام، الذين أُجبروا على التراجع لمائة متر تقريبًا وأصبحوا عاجزين عن رؤية ما يحدث بالضبط، يطرقون على الحواجز ويرفعون صوتهم بنشيدهم الخاص «موطني، موطني». دفع شتاينر حشود الصحفيين بغضب محاولاً إبعادهم، فيما راحت كاميرات الصحفيين تومض لأخذ الصور.

التقت عينا هار-زيون للحظة وجيزة بعيني ليلى ثمّ تحوّلتا عنها. أمطره الصحفيون بالأسئلة ولكنّه تجاهلها وراح يدير وجهه يمنةً ويسرى، فيما ظهرت ابتسامة شاحبة على زاويتي فمه، قبل أن يرفع يده اليمنى ببطء معلنًا رغبته بالصمت. توقّفت الأسئلة وتقدّمت جمهرة الصحفيين خطوة إلى الأمام، حاملةً نحوه آلات التسجيل. علّقت ليلى كاميرتها على كتفها مجدّدًا وأخرجت دفتر الملاحظات.

قال هار-زيون بلكنة إنكليزيّة ثقيلة، وبصوت أجشّ ومنخفض أشبه بتدحرج الصخور: «ثمّة مثل عبريّ قديم يقول، *Hamechadesh betuvo bechol yom tamid ma'aseh bereishit*. الله يجدّد العالم كلّ يوم. في الأمس كانت هذه الأرض بين أيدي أعدائنا، وها قد عادت اليوم إلى أصحاب الحقّ، الشعب اليهودي. إنّه يوم عظيم، يوم تاريخيّ لن يُنسى أبدًا. وصدّقوني أيّها السيدات والسادة، سوف ترون أيامًا كثيرة مثلها».

الأقصر

حتّى بعد مرور خمسة عشر عامًا، لا يزال خليفة يتذكّر قضيّة شليغل وكأنّها حدثت بالأمس.

تمّ العثور على جثّتها من قبَل رجل يعيش في المنطقة يُدعى محمّد ابراهيم جمال، في فناء خونسو، وهو مبنىً مظلم قليلاً ما يشهد زوّارًا، يقع في الزاوية الجنوبيّة الغربيّة من مجمّع معبد الكرنك. كانت المرأة تبلغ ستين عامًا، إسرائيليّة، يهوديّة، عزباء، أصيبت حسب تقرير التشريح بسلسلة من الضربات العنيفة في رأسها ووجهها بواسطة أداة غير حادّة من نوع لم يتمّ تحديده. وبالإضافة إلى تحطّم عظم الفك والكسور التي أصابت الجمجمة في ثلاثة أماكن مختلفة، خلّف سلاح الجريمة آثارًا

غريبة على بشرتها – رموز عنخ، مرسومةً بزهور صغيرة تزخرف على الأرجح سطح السلاح.

وعلى الرغم من تلك الإصابات الخطيرة، أكّد جمال أنّ شليغل كانت لا تزال حيّة حين عثر عليها. كانت مغطاة بالدمّ ومشتّتة، ولكنّه أصرّ على أنّها همست بكلمتين، ثوث وتسفارديا، كرّرتهما عدّة مرات قبل أن تغرق في الكوما التي لم تخرج منها أبدًا. ولم يكن ثمّة شهود آخرون يدعمون قوله أو شهود على الجريمة، باستثناء حارس عجوز للمعبد ادّعى أنّه سمع صراخًا مكتومًا من داخل المعبد ورأى شخصًا يركض بعيدًا عن مسرح الجريمة، وهو يعرج بشدّة وكان ثمّة «شيء على رأسه، وكأنّه طائر صغير غريب». وبما أنّ الرجل كان عجوزًا وشبه أعمى، وكان معروفًا أنّه يشرب أثناء الخدمة، لم يأخذ أحد شهادته على محمل الجدّ.

كان رئيس شرطة الأقصر في ذلك الحين هو رئيس الضباط إيهاب علي محفوظ، الذي تولّى القضيّة شخصيًّا، يعاونه نائبه الضابط عبد بن حسّاني. كما تمّ تعيين خليفة ضمن فريق التحقيق، وكان قد أُرسل للتوّ إلى الأقصر من بلدته الأمّ، الجيزة. كان يبلغ حينها الرابعة والعشرين من عمره، وكانت تلك قضيّته الجنائيّة الأولى.

منذ بداية التحقيق، تمّ التركيز على دافعَين محتملَين للقتل. كان الدافع البديهيّ الأوّل، والذي أيّده محفوظ، هو القتل لأنّ محفظة المرأة وساعتها كانتا مفقودتين. أمّا الدافع الثاني، الأقلّ احتمالاً مع أنّه لا يمكن استبعاده، فهو أن تكون قد قُتلت في اعتداء أصوليّ. فقبل شهر واحد من الحادثة تمّ إطلاق النار على تسعة إسرائيليين في باص سياحيّ على الطريق السريع بين القاهرة والإسماعيليّة.

فلدى خليفة، الأقلّ خبرة والأصغر سنًّا بين أعضاء الفريق، شكوك منذ البداية بكلا السيناريوين. فلو كانت السرقة هي الدافع، لماذا لم يأخذ المعتدي نجمة داوود الذهبيّة المعلّقة بسلسلة حول عنق المرأة؟ ولو كانوا أصوليين، لماذا لم يتبنوا الحادثة، كما يفعلون مع كلّ اعتداء من هذا النوع؟

وثمّة عناصر أخرى محيّرة في القضيّة. فقد وصلت شليغل إلى مصر في اليوم السابق قادمةً من تل أبيب بمفردها، وأتت مباشرةً إلى الأقصر وحجزت غرفة في مينا بالاس، وهو فندق غير مكلِف يقع على كورنيش النيل. واستنادًا إلى إفادة عامل الاستقبال في الفندق، لازمت غرفتها منذ وصولها حتّى الساعة الثالثة والنصف من بعد ظهيرة اليوم الذي قُتلت فيه، حين طلبت سيّارة أجرة لأخذها إلى الكرنك. ولم تكن تحمل سوى حقيبة صغيرة لليلة واحدة كما أنّ بطاقة عودتها إلى الأراضي المحتلّة كانت محجوزة في الليلة نفسها. مهما يكن سبب مجيئها إلى الأقصر، من الواضح

أنّها لم تكن في عطلة.

ويبدو أنّها أجرت اتصالاً واحدًا على الأقلّ من هاتف غرفة نومها ليلة وصولها؛ سمعتها عاملة التنظيف حين دخلت لإحضار المناشف والصابون. وتمّ العثور على سكين مطبخ كبيرة في الحقيبة قرب جثّتها، مسنونة حديثًا، وكأنّها كانت تتوقّع ارتكاب عمل عنيف ضدّ شخص ما أو دفاعًا عن نفسها ضدّ أحد المعتدين.

وكلّما فكّر خليفة بالقضيّة، ازداد اقتناعًا أنّ لا علاقة لها لا بالسرقة ولا بالتطرّف. كان واثقًا بأنّ المفتاح يكمن في الاتصال الهاتفي. إلى من تحدّثت شليغل؟ وما الذي قيل؟ ومع أنّه طلب كشفًا بالمخابرات الهاتفيّة للفندق، إلاّ أنّ سوء الحظ شاء أن تتعطّل الآلة تلك الليلة. وقبل أن يتسنّى له الوقت لأن يطلب كشفًا من شركة الهاتف المصريّة بمخابرات المبنى بأكمله، اتّخذ التحقيق منحىً غير متوقّع، إذ تمّ العثور على ساعة شليغل في منزل محمّد جمال.

كان جمال معروفًا لدى شرطة الأقصر، كمجرم صغير قديم، يملك لائحة طويلة من السوابق، من الاعتداء والضرب – وهي تهمة كلّفته ثلاث سنوات في الوادي الجديد – إلى سرقة السيارات وتجارة الحشيش (ستّة أشهر في أبو زعبل). وحين وقعت الجريمة، كان يعمل كدليل سياحيّ غير مرخّص، وادّعى أنّه تاب منذ عدّة سنوات، وهو ادّعاء تجاهله الرئيس محفوظ تمامًا: «المجرم مجرم دومًا، وشيطان مثل جمال لا يتحوّل إلى ملاك بين ليلة وضحاها».

كان خليفة حاضرًا أثناء استجواب جمال. كانت جلسة بشعة وعنيفة، تصرّف أثناءها محفوظ وحسّاني مع المتهم من دون رحمة. في البداية أنكر معرفته بالساعة. وبعد عشرين دقيقة تعرّض أثناءها للصفع واللكم أقرّ بأنّه أخذ الساعة. كان عليه ديون وعائلته على وشك أن تطرد من المنزل وابنته مريضة. ولكنّه أنكر بشدّة أن يكون قد قتل شليغل أو سرق محفظتها، وواصل الإنكار خلال يومين من الاستجواب الذي ازداد عنفًا. وبانتهاء الاستجواب، كان يبول دمًّا وكانت عيناه متورّمتين إلى حدّ أنّه أصبح بالكاد يستطيع الرؤية. مع ذلك أصرّ على براءته.

كان خليفة حاضرًا أثناء كلّ ذلك، وعلى الرغم من اشمئزازه إلاّ أنّه خاف أن يتحدّث، وخشيَ أن يفقد مهنته التي كانت في بدايتها. والأسوأ أنّه كان واثقًا من البداية أنّ جمال يقول الحقيقة. فغضبه اليائس وهو يصرخ أنّه لم يقتل المرأة، ورفضه الاستسلام حتّى تحت لكمات حسّاني العنيفة، أقنعا خليفة أنّه عثر فعلاً على شليغل بعد تعرّضها للاعتداء. قد يكون الرجل لصًّا ولكنّه ليس قاتلاً بالتأكيد.

مع ذلك، ظلّ محفوظ على موقفه. ولم يقل خليفة شيئًا لا خلال التحقيق ولا حين أُرسل جمال للمحاكمة أو حين حُكم عليه بعشرين عامًا من الأشغال الشاقّة في مقالع تورا، ولا حتّى بعد أربعة أشهر من إدانته، حين شنق نفسه بحبل غسيل علّقه بقضبان الزنزانة.

في السنوات التالية، حاول تبرير هذا الصمت لنفسه، محتجًّا بأنّ جمال كان شخصًا نذلاً، مخالفًا للقانون وأنّه استحقّ الإدانة، عادلة كانت أم لا. ولكنّ الحقيقة هي أنّ جبنه سمح بعقاب رجل بريء على جريمة لم يرتكبها وأنّ امرأة قُتلت من دون معاقبة قاتلها. وقد عاد هذا الشعور لملاحقته الآن بلا هوادة.

القدس

كان باروخ هار-زيون بالنسبة إلى مؤيّديه الذين يتزايدون عددًا مع الوقت داوودَ الجديد، المحارب الذي اختير لإيصال شعبة إلى الأرض الموعودة. كان قويًّا، شجاعًا، مخلصًا، خلّفت المعارك ندبًا على جسده، كان باختصار الشتاركر - البطل اليهوديّ الذي يعتني بنفسه وشعبه، ولا يتردّد في استعمال جميع الوسائل لتحقيق ذلك.

وُلد باسم بوريس زيغوسكي، في قرية صغيرة جنوب أوكرانيا، وأتى إلى الأراضي المحتلّة عام 1970 وكان حينها في سنّ السادسة عشرة، بعد أن هرب هو شقيقه الأصغر من الاتحاد السوفياتي واجتازا نصف أوروبا سيرًا على الأقدام إلى أن وصلا إلى السفارة الإسرائيليّة في فيينا وطالبا بحقّهما بالهجرة كيهود. كانت الرحلة بالنسبة إلى هار-زيون رحلة دينيّة أيضًا، إلى الأرض الأسطورية التي لم تكن تشكّل مجرّد ملجأ من أبناء بلده الأمّ المعادين للساميّة، بل مجرّد تجلٍّ فعليّ لعهد الشعب المختار.

هكذا كرّس بقيّة حياته للدفاع عن تلك الأرض وتوسيعها، أوّلاً كجندي في الجيش الإسرائيلي، الذي خدم فيه بتميّز في نخبة فيلق سايريت ماتكال. وبعد أن تعرّض لاحقًا لحروق رهيبة حين مرّت سيّارة الهامفي التي كان يقودها فوق حقل ألغام جنوب لبنان، عمل في المخابرات العسكريّة وترأس وحدة مخصّصة لتجنيد وإدارة مخبرين فلسطينيين. وكان إخلاصه المطلق للقضيّة الإسرائيليّة هو الذي يوجّهه، إخلاص تجلّى في أعماله البطوليّة جدًّا - حاز مرّتين على ميدالية فالور، التي تعادل لدى الإسرائيليين صليب فيكتوريا - وعنيفة جدًّا. ففي عام 1982 تلقّى توبيخًا رسميًّا لإقدامه على صبّ البنزين على فتاة لبنانيّة شابة قبل أن يأمر رجاله بإحراقها ما لم تكشف لهم مخبأ أسلحة (وقد فعلت). وخلال عمله في المخابرات العسكريّة أُرسل

إلى المحكمة العسكريّة بعدما اتُّهم بأنّه سمح باستعمال التهديد بالاغتصاب كوسيلة لإجبار النساء الفلسطينيّات على التعامل معهم (تمّ إسقاط جميع التهم بعد وفاة الشاهد الرئيس في حادث سيّارة غامض). وكانت تلك بداية جبل الجليد. لاحقته حكايات العنف والقسوة والترهيب في كلّ مكان – وعوضًا عن أن يزعجه ذلك بدا أنّه مصدر فخرٍ له أكثر من جميع جوائز البسالة التي نالها. وقد نُقل عنه أنّه قال مرّة «من الجميل أن يثير المرء الإعجاب، ولكن من الأفضل بكثير أن يثير الخوف».

كان معارضًا شرسًا لاتفاقات السلام التي تمّت في أوسلو – ولأيّ اتفاق سلام يشتمل عن التنازل عن إنشٍ واحد من أرض إسرائيل التوراتيّة – فترك منصبه في المخابرات العسكرية في أواخر التسعينيّات ودخل معترك السياسة متحالفًا مع منظمة المستوطنين غوش إمونيم، قبل أن ينفصل عنها ليؤسس منظمة قتاليّة أكثر تحت اسم شيالاي دافيد. وقد رُفضت في البداية حملة هذه المنظمة للاستيلاء على الأرض العربيّة والاستيطان فيها على أنّها أعمال جنونيّة. ولكن مع ظهور الملثّم وجماعة الإخوان الفلسطينيين، راحت رسالة المنظمة – القائلة إنّ الإسرائيليّين لن يأمنوا خطر العمليات التفجيريّة ما لم يستوطن اليهود كامل أرض إيريتز إزراييل ويتمّ إخراج جميع الفلسطينيين عبر الحدود إلى الأردن – تكتسب شعبيّة متزايدة. وأصبحت تجمّعاته تجتذب حشودًا متعاظمة، وحفلات العشاء التي يقيمها لجمع التبرعات تحضرها شخصيّات أكثر بروزًا. وفي انتخابات عام 2000، فاز بمقعد في الكنيست، ويدور الحديث في بعض الأوساط حوله جديًّا كزعيم إسرائيليّ مستقبليّ. وقد علّق السياسي الإسرائيلي المعتدل يهودا ميلان قائلاً في إحدى المرّات «إن أصبح باروخ هار–زيون يومًا رئيسًا للوزراء ستكون نهاية هذه البلاد». فردّ عليه هار–زيون: «إن أصبح باروخ هار–زيون يومًا رئيسًا للوزراء ستكون نهاية يوتزيم مثل يهودا ميلان».

عبرت هذه المعلومات ذهن ليلى وهي تحدّق إلى الرجل الواقف أمامها، بيديه المكسوتين بقفازين، وشعره الأشيب ووجهه المربّع، الشاحب والملتحي، وكأنّه مكعّب غرانيت نبتت عليه الطحالب. حولها كان الصحفيون يصرخون بالأسئلة مجدّدًا ويلوّحون بآلات التسجيل.

«سيّد هار–زيون، هل تعترف أنّك تخالف القانون باحتلالك هذا المنزل؟»

«هل تعتقد بإمكانيّة إجراء أي تسوية بين الفلسطينيين والإسرائيليين؟»

«هل يمكنك التعليق على الادعاءات أنّ أعمالك مدعومة ضمنًا من قبَل رئيس الوزراء شارون؟»

«هل صحيح أنّك ترغب بتدمير قبّة الصخرة وإعادة بناء المعبد القديم مكانها؟»

ردّ هار-زيون على الأسئلة واحدًا تلو الآخر، ويداه متصلّبتان إلى جانبيه، مكرّرًا بصوته الأجشّ المنخفض أنّ هذا العمل ليس احتلالاً ولا استيطانًا بل تحريرًا واستعادة للأرض التي تنتمي إلى الشعب اليهودي بحقٍّ إلهيّ، وواصل ترداد ذلك لعشرين دقيقة قبل أن يشير إلى أنّه لم يعد لديه ما يقوله ويستدير عائدًا إلى الداخل. عندها تقدّمت ليلى خطوة إلى الأمام وصرخت قائلةً: «خلال السنوات الثلاث الأخيرة، قام أفراد شيالاي دافيد بتسميم الآبار وتدمير معدّات الريّ الفلسطينيّة وقطع أشجار البساتين الفلسطينيّة. كما تمّ سجن ثلاثة أعضاء في منظمتكم بجريمة قتل مدنيين فلسطينيين، بمن فيهم صبيّ بسنّ الحادية عشرة ضُرب حتّى الموت بقبضة معوَل. وقد تحدّثت أنت نفسك باستحسان عن أعمال باروخ غولدشتاين وييغال عمير. ألست حقًّا مجرّد ملثّم إسرائيلي، سيّد هار-زيون؟»

جمد هار-زيون في مكانه ثمّ استدار ببطء نحو جمهرة الصحفيين، باحثًا عن وجه ليلى لينظر في عينيها. كانت نظرته قاسية وغاضبة، مع أنّه كان ثمّة شيء آخر وراءها، يشبه التسلية، وكأنّ الاثنين يلعبان لعبة خاصة لا يعرفها سواهما.

قال وهو يلفظ اسمها وكأنّ طعمه مرّ في فمه: «اشرحي لي، آنسة مدني، لماذا يسمّى العربيّ الذي يقتل عشرين مدنيًّا ضحيّة، بينما يُعتبر اليهوديّ الذي يدافع عن نفسه وعائلته مجرمًا؟»

نظرت ليلى في عينيه رافضة أن تبدو خائفة.

«إذًا أنت تدعم القتل غير التحريضيّ للمدنيين الفلسطينيين؟»

«أنا أدعم حقّ شعبي للعيش بسلام وأمان على الأرض التي أعطاهم إيّاها الربّ».

«حتّى لو اشتمل ذلك على أعمال إرهابيّة منهجيّة؟»

قلّص العبوس وجه هار-زيون. وراح بقيّة الصحفيين يحدّقون إليهما وقد خيّم عليهم الصمت فجأةً وهم مستغرقون في مشاهدة تلك المعركة الخاصّة.

قال: «ثمّة مجموعة واحدة من الإرهابيين في هذه المنطقة، وهي ليست يهوديّة. مع أنّك لن تعرفي ذلك من خلال عملك».

«ألا تعتبر قتل طفل عملاً إرهابيًّا؟»

«أعتبره تراجيديا حرب، آنسة مدني. ولكن لسنا نحن من بدأ الحرب».

توقّف للحظة وعيناه تنهشانها.

«مع أنّنا نحن من سينهيها بالتأكيد».
نظر في عينيها ثمّ استدار على عقبَيه داخلاً المنزل.
قال أحد أتباعه وهو يدخل: «حقيرة، تستحقّ رصاصة في رأسها».
ابتسم هار-زيون قائلاً: «ربّما ولكن ليس الآن، حتّى هي يمكن الاستفادة منها».

الأقصر

كان خليفة يحبّ زيارة معبد الكرنك، لا سيّما في آخر النهار، حين تقلّ الحشود وتغلّف الشمس الغاربة المجمّع بأكمله بشعاع ذهبيّ ضبابيّ. كان القدماء يسمّونه إيبوت-إيسوت، أي المكان الأكثر تقديرًا، وهو يفهم السبب في الواقع، لأنّ المكان يمتاز بشيء سحريّ، وكأنّه مدينة مهجورة معلّقة بين الأرض والسماء. ووجوده هناك يريحه دائمًا، يهدّئ أعصابه ويسكّنها وكأنّه انتقل إلى مكان وزمان مختلفين، تاركًا كلّ همومه خلفه.

ولكنّ اليوم كان مختلفًا. اليوم لم تؤثّر فيه تماثيل المعبد وجدرانه المكسوّة بالكتابات الهيروغليفيّة. لا بل بالكاد لاحظها، إذ كان مستغرقًا في أفكاره وهو يعبر البوابة الأولى والثانية ويدخل قاعة الأعمدة من دون أن يلقي نظرة حوله.

كانت الساعة الخامسة مساءً تقريبًا، وكان قد أمضى معظم فترة بعض الظهيرة في قصر الشتاء، بناءً على أوامر رئيسه حسّاني، يبحث مع سائحة إنكليزيّة متقدّمة في السنّ في موضوع سرقة مجوهراتها. فأمضى هو وساريا ثلاث ساعات في مقابلة جميع الموظفين قبل أن تتذكّر المرأة أخيرًا أنّها لم تحضر معها المجوهرات أساسًا: «قالت لي ابنتي أن أتركها في المنزل خوفًا من أن تُسرق. أنت تعرف، في الدول العربيّة...»

بعد أن سجّل ذلك، عاد إلى القسم حيث جلس إلى مكتبه وحيدًا يدخّن ويفكّر بجانسن وحنّا شليغل واجتماعه مع الرئيس حسّاني، وراجع القصّة مرارًا وتكرارًا في ذهنه.

وبعد ساعة، نهض وقصد غرفة السجلاّت في القبو بحثًا عن الملاحظات المتعلّقة بقضيّة شليغل، وهو يعرف أنّ عليه نسيان الأمر، ولكنّه عجز عن إيقاف نفسه. إلاّ أنّ لغزًا آخر كان بانتظاره هنا، لأنّ الملاحظات كانت مفقودة. والآنسة زفولي، العانس العجوز، المسؤولة عن حفظ القضايا القديمة للقسم منذ زمن بعيد، بحثت عنها طويلاً ولكن من دون جدوى. لقد اختفى الملف.

تمتمت قائلةً: «لا أفهم، في الواقع أنا لا أفهم سبب اختفائه».

غـادر القبـو وهـو أكثـر انزعاجًـا من قبل، ومن دون أن يفكّر أوقف سـيّارة أجرة وتوجّـه نحـو الكرنـك. ربّما كان يسـعى إلى توضيح أفكاره، لأنّـه المكان الذي قُتلت فيه حنّا شليغل وهو بالتالي النقطة المركزيّة لجميع شكوكه وهمومه.

عبر القاعة بأعمدتها الممتدّة على شكل البردي والتي ترتفع فوقه مثل الأشجار الباسـقة، ثـمّ خـرج منهـا عبر باب في الجدار الجنوبـي. كان وقت الإقفال قد اقترب، وبدأت الشرطة السياحية بإخراج الزوّار نحو المدخل الرئيس. اقترب أحدهم من خليفة يشير له بإصبعه ولكنّ الضابط أخرج بطاقته فسُمح له بمتابعة طريقه.

لماذا أصرّ حسّاني على منعه من إعادة فتح قضيّة شليغل؟ لم يبارح السؤال ذهنه. لماذا بدا الرئيس عصبيًّا بهذا الشكل؟ كان ثمّة خطب في ذلك، أمر خطير. ومحاولة اكتشافه ستجلب له المشاكل، لا بل وكثيرًا من المشاكل. مع ذلك لم يستطع التخلّي عن الفكرة.

تمتم وهو يطفئ سـيجارة كليوباترا تحت نعل حذائه ويشـعل واحدة أخرى على الفور: «اللعنة».

توجّـه نحـو الزاويـة الجنوبيّـة الشـرقيّة لسـور المعبد، متّبعًا طريقًـا بين صفّ من الأحجـار الرمليّـة المكسـوّة بالكتابـات الهيروغليفيّة، وكأنّها قطـع من أحجية ضخمة، قبل أن يصل أخيرًا إلى مبنىً طويل مستطيل الشكل يقع على مسافة من بقيّة المجمّع، فناء خونسـو. أبطأ سـيره قليلاً وهو يمرّ بالجدران الكبيرة بأحجارها الرمليّة، ثمّ دخل من باب جانبي وقد بدأ قلبه ينبض بعنف فجأة.

كان الداخل باردًا ومعتمًا، والصمت والسـكون يخيّمان تمامًا، فيما تسـلّل شـعاع مـن الشـمس مـن بـاب مقابـل، وكأنّه نهر من الذهب الذائب. إلى يسـاره امتدّت باحة ذات أعمـدة، فيمـا امتـدّت باحـة أخرى إلى اليميـن، ووراءها باب منخفض يؤدي إلى ضريح المعبد الأساسـي. وكان يقف هو نفسـه في قاعة أعمدة ضيّقة، ارتفعت أمامه ثمانية منها على شكل البردي، أربعة من كلّ جانب. وقرب العامود الثالث إلى اليسار، وُجدت جثّة حنّا شليغل.

انتظـر حتّـى يتعـوّد نظـره علـى الظلمة ثمّ تقدّم إلى الأمام. ومـع أنّه زار الكرنك مرّات عديدة في السـنوات السـابقة، إلاّ أنّه تجنّب عمدًا هذا الجزء، وكان يتوقّع وهو يعبـر القاعـة الآن رؤيـة بقـع مـن الدم اللـزج تلوّث الأرض وخطًّا أبيض يحدّد شـكل الجثّة، غير أنّه لم يكن ثمّة ما يشير إلى أنّ حادثة عنيفة قد وقعت هنا، لا بقع دماء، لا خطوط ولا أيّ ذكرى من أي نوع، باستثناء الأحجار نفسها التي بدت بأنّها تملك معرفة بدائيّة. بدت وكأنّها تقول: «لقد شهدنا على كثير من الأمور، منها الحسن ومنها

السيئ. ولكنّنا لن نتحدّث عنها».

وصل إلى العامود المعنيّ وقرفص وهو يتذكّر اللحظة التي رأى فيها للمرّة الأولى جثّة القتيلة. لسبب ما لم تؤثّر به حالة الجثّة بقدر ما شغلته التفاصيل الخارجيّة: سروال المرأة الداخليّ الأخضر، الذي كشفت عنه تنورتها التي ارتفعت حتّى الخصر، خطّ من النمل الذي كان يسير فوق قدمها اليمنى الحافية، نُدب ناتئ ظهر على بطنها وكأنّه خطّ رسمَه ثمِلٌ بقلم الرصاص، والأهمّ من كلّ هذا الوشم الغريب على ذراعها اليسرى، مثلّث وخمسة أرقام، رُسمت بحبر أسود مائل إلى الأزرق شاحب اللون، وكأنّها شرايين في قطعة من الجبن. قال الرئيس محفوظ إنّه وشم يهودي، على علاقة بالدين أو شيء من هذا القبيل، مثل العلامات التي تجدها على اللحم لتعرف مصدره. يومها صدمه التشبيه، وكأنّ الضحيّة كانت مجرّد جثّة حيوان في مسلخ جزّار. كان تشبيهًا فظيعًا. مرّر يده على الأرض، فأصدر كفّه صوتًا جافًّا فوق الأحجار الرمليّة المغبّرة، ثمّ وقف مجدّدًا ورفع عينيه نحو الجدار خلف العامود، الذي يحمل عليه نقشًا قديمًا يصوّر الفرعون رمسيس الحادي عشر يطهّره حوروس وثوث، وقد تجلّى هذا الأخير بصورة جسد بشريّ يعلوه رأس طائر.

ثوث وتسفارديا، هاتان كانتا الكلمتين اللتين لفظتهما شليغل مع آخر أنفاسها. كان واثقًا بأنّ كلمة تسفارديا تشير إلى قدم جانسن المشوّهة، ولكن ماذا عن ثوث؟ هل كانت تهذي ببساطة وتقول ما تراه فوقها؟ فقد كان الطائر ثوث هو آخر صورة وقعت عليها عيناها. أم أنّ لكلامها معنىً آخر أكثر عمقًا؟

أخذ نفسًا من سيجارته وفرك عنقه وهو يحاول أن يسترجع في ذهنه كلّ ما يمكن أن يتذكره عن ثوث لأنّه استنادًا إلى علم الأساطير المصري، كان هو الذي أعطى الكلمات السحريّة التي مكّنت إيزيس من إعادة زوجها وشقيقها المقتول أوزيريس إلى الحياة. ماذا أيضًا؟ كان الكاتب والمبعوث، هو الذي اخترع الهيروغليفيّة وكتب قوانين مصر المقدّسة، وهو الذي يسجّل الحكم الأبدي على قلب الميت. وقد اقترن على نحو وثيق بالقمر – غالبًا ما يُرسم مع قرص قمريّ فوق رأسه – ويقع مركز عبادته الرئيس في هيرموبوليس في وسط مصر، حيث كان يُعرف من بين ألقاب أخرى بأنّه «قلب را»، «منظّم الوقت». كان مركبه الفضيّ هو الذي ينقل أرواح الموتى عبر سماء الليل. وكان زوج سيشات، «سيّدة الكتب».

كان ثمّة عديد من الروابط المحتملة في كلّ هذه المعلومات، وطرق كثيرة لكي يترجم خليفة ذكر شليغل لثوث إلى اتهام لجانسن. فقد كان جانسن ذكيًّا وكثير القراءة في النهاية. وكان يتحدّث لغات كثيرة ويملك مكتبة كبيرة. وإن كان للمصريين القدماء

أي اهتمام بعلم الآثار، لكان ثوث على الأرجح هو المبجّل في هذا المجال.

ولكن على الرغم من أوجه التشابه تلك، ظلّ خليفة يشعر بوجود حلقة مفقودة، وبأنّه لم يفهم المعنى العميق لما أرادت شليغل قوله. كانت تعني شيئًا معيّنًا، ولكنه لا يفهمه.

أنهى سيجارته، وأطفأ عقبها قرب حذائه. راح يفكّر، قد يكون حسّاني على حقّ، وأنا أتخيّل الأشياء وأحاول اختراع رابط بينها. وحتّى لو لم أكن أتخيّل، ماذا يمكنني أن أفعل؟ إجراء تحقيق من وراء الرئيس والمخاطرة بمهنتي بأكملها؟ ولأجل ماذا؟ فالقضيّة انتهت، وشليغل لم تكن في النهاية سوى عجوز-

تردّد صدى خطوات آتية من طرف المعبد. فكّر في البداية أنّه أحد الحرّاس، ولكن مع اقتراب الخطوات أدرك أنّها ليست خطوات رجل. مرّت خمس ثوانٍ، ومن ثمّ عشر، ثمّ دخلت امرأة ترتدي جلابيّة سوداء القاعة من مدخلها الجنوبي، وفي يدها باقة من الأزهار البريّة، وكان ثمّة وشاح أسود يتدلّى فوق رأسها ويخبّئ وجهها. كانت الشمس قد غربت ولم تلاحظ المرأة خليفة، الذي تراجع واختبأ في ظلّ أحد الأعمدة. أتت إلى البقعة التي ماتت فيها حنّا شليغل ثمّ نزعت الوشاح عن رأسها وانحنت لوضع الأزهار على الأرض. تقدّم خليفة قائلاً: «مرحبًا يا نور».

استدارت فزعة.

قال وهو يرفع يده مشيرًا إلى أنّه لا يقصد الأذى: «لا تخافي أرجوكِ، لم أقصد إخافتك».

وقفت متراجعةً إلى الخلف وهي تحدّق إليه بارتياب، ثمّ بدأت ملامح الانزعاج تظهر على وجهها ببطء حين تعرّفت عليه.

همست قائلةً: «خليفة». ثمّ أضافت بعد توقّف وجيز: «الرجل الذي قتل زوجي. أحد الرجال».

تغيّرت منذ آخر مرّة رآها، في قاعة المحكمة يوم صدور الحكم على محمّد جمال. كانت حينها شابة وجميلة، ولكنّها أصبحت الآن شخصًا مختلفًا، منهكة، متعبة، وجهها المجعّد أشبه بالخشب القديم.

سألته قائلةً: «هل كنت تراقبني؟»

«لم أكن أراقبك، بل كنت...»

توقّف عاجزًا عن شرح السبب الذي دفعه للمجيء إلى المعبد. حدّقت إليه ثمّ خفضت نظرها وانحنت مجدّدًا نحو الأزهار، ترتبها حول قاعدة العامود. ظهر طائر بلشون أبيض في الباحة الخارجيّة، وراح ينقر الغبار.

قالت بعد فترة من الزمن، وكأنّها تتحدّث إلى نفسها، وهي تقطع أعناق الأزهار بأصابعها المجعّدة: «أنا آتي إلى هنا من وقت إلى آخر، فمحمّد لا يملك قبرًا مناسبًا. لقد طمروه في حفرة خارج السجن، والمكان بعيد عليّ في القاهرة لذا أنا آتي إلى هنا، ولا أعرف لماذا. أفترض... أنّه المكان الذي مات فيه هو أيضًا، نوعًا ما».

كانت نبرتها عاديّة ولا تحمل اتهامًا واضحًا، وهذا ما جعل خليفة يشعر بعذاب أكبر. استدار منزعجًا وهو يقلّب قطعة نقود معدنيّة في جيبه.

تابعت: «أنا أضع الأزهار أيضًا للمرأة العجوز. فالخطأ لم يكن خطأها، أليس كذلك؟ هي لم تتّهم محمّد».

رتّبت الأزهار ثمّ وقفت للمغادرة، فتقدّم خليفة خطوة أخرى باتجاهها.

سألها وقد شعر فجأة بأنّه لا يرغب بانتهاء المقابلة سريعًا: «الأطفال؟»

هزّت كتفيها قائلةً: «حصل منصور على عمل كميكانيكي. عبد في آخر سنة في المدرسة، وفاطمة تزوّجت وثمة طفل على الطريق. زوجها يعمل في مصنع لقصب السكّر».

«وماذا عنك؟ هل-»

«تزوّجت مجدّدًا؟ محمّد هو زوجي. ربّما لم يكن رجلاً صالحًا، ولكنّه يظلّ زوجي».

تابع الطائر الأبيض طريقه نحو المدخل وأتى يتنقّل في القاعة، يلتفت هنا وهناك، وساقاه النحيلتان ترتفعان وتهبطان وكأنّه راقص باليه ماهر. اقترب لمسافة متر من المرأة ثمّ ابتعد عنها مجدّدًا.

قالت بهدوء: «ليس هو من ارتكب الجريمة، لقد أخذ الساعة، وهذا عمل سيئ، سيئ جدًّا. ولكنّه لم يقتل العجوز ولم يأخذ المحفظة».

تمتم خليفة محدّقًا إلى الأرض: «أعلم، أنا... آسف».

تبعت الطائر بعينيها وهو يحيك طريقه بين الأعمدة.

همست: «أنت الرجل الوحيد الصالح بينهم، الوحيد الذي اعتقدت أنّه قد يساعده. ولكنّك...»

تنهّدت واستدارت عائدة، ومشت بضع خطوات قبل أن تلتفت نحوه مجدّدًا: «المال ساعدنا. لم يرجعه إلينا ولكنّه ساعدنا. أشكرك على ذلك».

نظر خليفة إليها مرتبكًا.

«أنا لم... أيّ مال؟»

«المال الذي كنت ترسله. أعرف أنّه منك. كنت الوحيد الجيّد بينهم».

«ولكنّني لم... أيّ مال؟ لا أعرف عمّا تتحدّثين».

كان نظرها موجّهًا خلف كتفه، نحو شبكة الظلال التي كانت تزداد كثافة في الجزء الخلفيّ من القاعة، وبدت عيناها جافتين وفارغتين، وكأنّ الأمل قد جفّ منهما.

«كلّ عام قبل عيد الأضحى، كان المال يأتي بالبريد. لم يكن يحمل أي ملاحظة أو اسم أو أيّ شيء. مجرّد ثلاثة آلاف جنيه مصري، بأوراق ماليّة من فئة المائة جنيه. دائمًا من فئة المائة جنيه. بدأ يصلني بعد أسبوع من انتحار محمّد، واستمرّ منذ ذلك الحين، كلّ عام. هكذا تمكّنت من تعليم الأولاد والبقاء على قيد الحياة. أعرف أنّك أنت من كان يرسله. أنت رجل طيّب على الرغم من كلّ شيء».

نظرت إليه ثمّ استدارت خارجةً من المعبد.

القدس

في طريق العودة من المدينة القديمة توقّفت ليلى في فندق القدس لشرب العصير وتناول طعام خفيف مع صديقتها نهى.

كان البناء جميلاً، من الطراز العثماني، يقع قرب الطرف السفلي لطريق نابلس، يملكه ويديره فلسطينيّ، داخله باردًا وأرضه حجريّة، تعلو شرفته الأماميّة كرمة عنب. لطالما شكّل الفندق جزءًا من حياتها. فيه التقت بنزار سليمان، رئيس تحرير جريدة الأيام، الذي أعطاها وظيفتها الأولى. وفيه حصلت على بعض عناصر أفضل قصّة لها. وفيه بالطبع، التقى أبواها للمرّة الأولى، وفيه حملت بها أمّها على حدّ قولها.

قالت لها لاحقًا: «كانت ليلة عاصفة جدًّا. رعد وبرق ومطر لم أشهد مثلها يومًا. بدا العالم كلّه يومها وكأنّه يتمزّق. أعتقد أنّك هكذا لهذا السبب».

«كيف هكذا، ماما؟»

ابتسمت أمّها ولكن من دون أن تقول المزيد.

كان أبواها زوجين غير متشابهين بشيء، فتاة إنكليزيّة مرحة من عائلة متوسطة تعيش في كامبردج وطبيب جادّ منطوٍ على نفسه، يكبرها بعشر سنوات ويخصّص كلّ دقيقة من وقته للعناية بأبناء وطنه.

التقيا عام 1972، في احتفال زفاف صديق مشترك. كانت أليكساندرا بايل، كما كان اسم أم ليلى حينها، قد أنهت دراستها الجامعيّة للتوّ وتعمل كأستاذة متطوّعة في مدرسة القدس الشرقيّة للبنات، غير واثقة بعد ممّا ترغب بفعله في حياتها. وكان محمّد فيصل المدني يعيش في قطاع غزّة ويدير عيادة طبيّة في مخيّم جباليا للاجئين،

يعمل أربع عشرة ساعة في اليوم، سبعة أيام في الأسبوع، مكرّسًا نفسه لخدمة سكان المخيّم.

قالت والدة ليلى وهي تتذكّر لاحقًا: «عيناه هما ما شدّني إليه. كانتا داكنتين وحزينتين جدًّا، وكأنّه ينظر في بئر من الماء الأسود».

على الرغم من ذلك، وربّما بسبب خلفيّتيهما المختلفتين جدًّا، انسجما على الفور وافتُتن والدها بجمال المرأة الشابة وذكائها، بينما سُحرت أمّها بذكاء الرجل وهدوئه، وقوّته. بدآ يخرجان معًا على الفور تقريبًا، وصُدم أبوا أليكساندرا حين تزوّج الشابان بعد ستّة أشهر. استمتعا بليلة عسل واحدة في فندق القدس قبل أن يؤسّسا منزلاً في مدينة غزّة المكتظّة بالسكان. وُلدت ليلى في 6 تشرين الأوّل 1973، يوم اندلاع حرب رمضان.

توقّع والدها وهو يحمل بفخر الطفلة التي ساعد بنفسه على ولادتها: «يومًا ما ستقوم هذه الطفلة بأشياء عظيمة. سيكون مستقبلها ومستقبل شعبنا مرتبطين ارتباطًا وثيقًا. ويومًا ما سوف يعرف كلّ فلسطيني اسم ليلى المدني».

أحبّت والدها منذ البداية. أحبّته بإخلاص قويّ إلى حدّ مؤلم. فبينما كانت ذكرياتها الأخرى عن طفولتها مجزّأة وغير واضحة، ومضات ضبابيّة من الأشخاص والأماكن والأصوات، احتفظ شعورها نحو أبيها ببريق ووضوح تام. بالطبع، أحبّت أمّها أيضًا، بشعرها الأحمر المجعّد وعينيها الضاحكتين والطريقة التي تنطلق فيها فجأة بأغنية أو رقصة، مثيرةً ضحك الصغيرة ليلى. ولكنّ حبّها لأمّها كان لطيفًا، دافئًا، بسيطًا، وكأنّه شعاع شمس ربيعيّة أو لمسة حنان. أمّا حبّها لأبيها فكان أكثر شراسة وبدائيّة، شعلة عاطفة بيضاء حارّة، تغمرها وتلتهمها. كانت العاطفة التي تُعرِّف وجودها والتي تنطفئ إلى جانبها جميع العواطف الأخرى.

كان رجلاً طيّبًا جدًّا، شديد الوسامة والصبر والذكاء والقوّة. كان موجودًا دائمًا إلى جانبها حين احتاجت إليه ليمدّها بالهدوء والاطمئنان. حين كانت الدبّابات الإسرائيليّة تتجوّل في الشوارع ليلاً، كانت تركض إليه فيحتضنها ويمسّد شعرها الحريريّ المموّج، مدندنًا تهويدة عربيّة قديمة بصوته العميق. وحين كان الأولاد الآخرون يضايقونها بسبب بشرتها البيضاء وعينيها الخضراوين ويصفونها بالهجينة، كان يجلسها على ركبتيه ويمسح دموعها شارحًا لها أنّ زملاءها يغارون منها بسبب جمالها وذكائها.

«أنتِ أجمل فتاة في العالم يا صغيرتي ليلى. لا تنسي ذلك أبدًا. وأنا أسعد رجل في العالم لأنّك ابنتي».

حين كبرت، ازدادت مشاعرها نحو أبيها قوّة. كانت تحبّه في البداية لأنّه ببساطة والدها، الشخص الموجود دائمًا الذي يغنّي ويقرأ لها القصص ويصنع لها دمىً رائعة من قطع القماش والخشب. ولكن مع مرور الوقت واتساع آفاقها بدأت تقدّره على مستوىً أعلى، ليس كمجرّد أبٍ بل كإنسان: رجل شجاع محبٌ للآخرين، كرّس حياته لمساعدتهم. كانت تزوره في عيادته المؤلّفة من غرفة واحدة بيضاء الجدران، ذات أرض إسمنتيّة عارية، فتجلس في الفناء الخارجيّ فيما يتوافد المرضى واحدًا تلو الآخر لرؤية «الدكتور»، وتفكّر كم هو مميّز وذكيّ وماهر في علاج الناس. كتبت عنه في يوميّاتها: «إنّه أفضل رجل في العالم لأنّه يساعد الناس دائمًا ولا يخاف أبدًا، وماهر في صنع الأشياء. كما أعطى السيّدة فالوجي العجوز أدوية مجانيّة لأنّها لا تملك المال، وهذا جيّد».

وإن كان حبّها له ينمو ويزداد عمقًا كلّما كبرت في السنّ، ويبدو لها أنّه كلّ يوم يجلب معه ناحية جديدة لتقدّرها وتحترمها في أبيها، تضاعفت أيضًا رغبتها في حمايته. فبحدسها الطفوليّ شعرت باكرًا أنّ والدها لم يكن رجلاً سعيدًا على الرغم من ابتسامته العريضة التي تُبرز أسنانه البيضاء والطريقة التي يضحك ويمزح معها، وأنّ ضغوط العمل لم تكن هي التي تُثقل كاهله وتنهكه وتجعله يشيب قبل أوانه، بل كان المسؤول عن ذلك هو اليأس من زوال الاحتلال وشعور العجز والعار وهو يراقب وطنه يُسلب شيئًا فشيئًا من تحت قدميه من دون أن يتمكّن من فعل شيء حيال ذلك.

قالت لها أمّها مرّة: «والدك رجل فخور ويؤلمه كثيرًا أن يرى شعبه يتعذّب هكذا. هذا يحزنه جدًّا».

ومنذ اللحظة التي أصبحت تعي فيها ألمه، قرّرت أن تساعده. حين كانت طفلة، كانت تلاعبه وترسم له وتكتب قصصًا يقوم فيها أطبّاء وسيمون بإنقاذ أميرات جميلات من أيدي الجنود الإسرائيليين الماكرين الذين يحملون بنادق أم 16 (تلك كانت طبيعة الطفولة الفلسطينيّة التي عرفت نوع البنادق التي يحملها الإسرائيليون قبل أن تعرف موقع بلدهم على الخريطة). لاحقًا، في سنوات المراهقة، بدأت تساعده في عيادته، تحضّر الشاي وتُدخل المرضى وتوصل الرسائل وتقوم ببعض الأعمال الطبيّة الأساسيّة.

سألته مرّة وهي تتناول الغداء مع أبويها: «لماذا أصبحت طبيبًا؟»

فكّر طويلاً قبل أن يجيب: «لأنّها أفضل طريقة وجدتها لخدمة شعبي».

«ولكن ألم ترغب أبدًا بمحاربة الإسرائيليين؟ بقتلهم؟»

أخذ بيدها قائلاً: «إن هدّد الإسرائيليون من أحبّهم، عندها سأحاربهم. سأحارب بكل قوّتي حتّى آخر نقطة من دمي. ولكنّني لا أظنّ أنّ العنف هو السبيل يا ليلى، مهما كنت أكره ما فعله الإسرائيليون. أنا أرغب بإنقاذ الأرواح، لا إزهاقها».

كان ذلك بعد ظهيرة يوم ذكرى ميلادها الخامسة عشرة. لاحقًا في تلك الليلة نفسها رأت الشخص الأحبّ إلى قلبها في العالم، أفضل الناس الذين عرفتهم، يُجرّ من سيّارته ويُضرب حتّى الموت بعصا بايسبول.

بالطبع، أُقيم الغداء في فندق القدس.

حين وصلت ليلى، كانت صديقتها نهى بانتظارها، جالسةً إلى طاولة على الشرفة الأماميّة، ووجهها مدفون في نسخة من جريدة هيرلد تريبون. كانت امرأة بدينة أكبر من ليلى بقليل، تضع نظّارة وترتدي قميصًا ضيّقة كُتب عليها الحقّ الفلسطينيّ بالعودة: لا عودة، لا سلام. أتت ليلى من خلفها وانحنت تطبع قبلة على خدّها. نظرت إليها نهى وشدّت على يدها ثمّ أشارت لها لتجلس وأعطتها الجريدة.

«هل قرأت هذا؟»

أشارت إلى عنوان يقول: الولايات المتحدة تدين شحن أسلحة فلسطينيّة. وكان ثمّة عنوان آخر بقربه: الكونغرس يوافق على بيع أسلحة بقيمة مليار دولار إلى إسرائيل.

«يا لهم من شعب منافق! وكأنّها مزحة ثقيلة. شراب؟».

وافقت ليلى فلوّحت نهى للنادل سامي.

سألتها مشيرة باتجاه المدينة القديمة: «إذًا، كيف يبدو الوضع هناك؟».

هزّت ليلى كتفيها قائلةً: «متوتر، كما تتوقّعين. أقام هار-زيون مؤتمرًا صحفيًّا قال فيه هراءه المعتاد وكيف أنّ كلّ من ينتقد إسرائيل يكره اليهود ويعادي الساميّة. إنّه ماهر في الكلام».

قالت نهى ساخرةً وهي تشعل سيجارة مارلبورو: «كذلك كان هيتلر. هل سيطردونهم؟».

قالت ليلى غاضبة: «أكيد، وسوف يرقص شارون مع البولشوي. بالطبع لن يفعلوا».

سُمع ضحك من طاولة أخرى اجتمع حولها رجال ونساء ذوو ملامح اسكندينافية، على الأرجح عاملون في منظّمة غير حكوميّة أو من صغار الدبلوماسيين، يتناولون الطعام. في الخارج، ارتفع ضجيج محرّك جيب إسرائيلي يمرّ ببطء، وكأنّه إحدى

الزواحف المسلّحة العملاقة. وصل سامي يحمل زجاجتي شراب وصحنًا من الزيتون.

سألهما وهو يضع الزجاجتين والصحن على الطاولة ويشعل شمعة في وسطها: «هل سمعتما عن القنبلة؟»

قال نهى: «ربّاه، ليس واحدة أخرى. أين؟».

«حيفا. أذيع عنها الآن في نشرة الأخبار».

«الملثّم؟»

«يبدو كذلك. قتيلان».

هزّت ليلى رأسها قائلةً: «سوف تندلع حرب عالميّة ثالثة بينه وبين هار-زيون».

تناولت نهى رشفة طويلة من شرابها، ثمّ قالت وهي تضع الزجاجة وتأخذ نفسًا من السيجارة: «أتعرفين ما أظنّ، أظنّ أنّهما يعملان معًا. انظري ما يحدث: كلّما قتل الملثّم مزيدًا من الناس، تضاعف الدعم الذي يحصل عليه هار-زيون. وكلّما ازداد دعم الناس لهار-زيون، تضاعفت حجّة الملثّم للقتل. إنّهما يساعدان بعضهما».

ضحكت ليلى قائلةً: «هل تعرفين، ربّما كنتِ على حقّ. قد أكتب مقالاً عن ذلك».

«تذكّري إذًا من أين حصلتِ على هذه المعلومات يا فتاة. أنا أعرفكم أنتم الصحفيون، سوف تحقّقين أكبر سبق صحفي وتدّعين أنّك أنت وراءه».

ضحكت ليلى مجدّدًا، ولكنّ عينيها اتجهتا نحو فكرة أخرى. «أكبر سبق صحفي في حياتك المهنيّة». أين سمعت هذه الجملة مؤخرًا؟ فكّرت للحظات قبل أن تتذكّر أنّها قرأتها في الرسالة التي وصلتها هذا اليوم. كيف ورد ذكرها؟ أنا أملك معلومات من شأنها أن تساعد الملثّم في نضاله ضدّ المحتلّ الصهيوني، وأرغب كثيرًا بالاتصال به. أعتقد أنّه يمكنك مساعدتي في ذلك، وبالمقابل يمكنني أن أقدّم لك ما من شأنه أن يشكّل بالنسبة إليك أكبر سبق صحفيّ في حياتك المهنيّة. شيء من هذا القبيل. اعتبرت الأمر أنّه مضايقة أو خدعة من الشين بيت، ولا تزال تجده التفسير الأكثر احتمالاً. ولكن الآن، بعد مرور ساعتين على ذلك...

سألت ليلى فجأة: «هل يعني لك الحرفان GR شيئًا؟»

«عفوًا».

«هل يعني لك الحرفان GR شيئًا؟»

فكّرت صديقتها قليلاً ثمّ قالت: «غريغ ريكمان؟ الشاب في منظّمة أنقذوا

الأطفال، ذاك المعجب بك؟»

هـزّت ليلـى رأسـها: «هـو غيـر معجب بـي. والحرفان يتعلّقان بشـخص عجوز، شخص من الماضي».

بـدا الارتبـاك علـى وجـه نهى، فقالت ليلى بعد قليل وهي ترفع شـرابها: «انسـي الأمر، ليس بذي أهميّة. كيف كان يومك؟»

كانـت صديقتهـا تعمـل فـي منظّمة تراقـب مصادرة الإسـرائيليين للأراضي حول القـدس، فانطلقـت تحكـي قصّـة طويلة عن مُزارع عجوز قام الجيش الإسـرائيلي للتوّ بجـرف كـرم الزيتـون الـذي يملكه. حاولت ليلـى الإصغاء ولكنّ ذهنها كان مشـغولاً بموضـوع آخـر. الرسـالة، الملثّـم، أبوهـا، الغـداء الأخير الـذي تناولوه هنـا في فندق القـدس. كان يومًـا سـعيدًا جـدًّا، هي وأبواها وحسـب، ضحكوا معًـا وتحدّثوا وحكوا القصص، وبعد بضع ساعات قُتل.

صرخت يومها وشعرها ملوّث بدمائه: «ربّاه، بابا! ربّاه، بابا حبيبي!»

ومن تلك اللحظة تغيّر مجرى حياتها.

القدس

كان معهم حاخام في المنزل، شاب نحيل وقوي البنية، أميركيّ الولادة والمنشأ، شـأنه شـأن كثير من المسـتوطنين، لحيته خفيفة ويضع نظارة ذات عدسـتين سـميكتين تجعل عينيه تبدوان أكبر حجمًا وكأنّهما تملآن نصف وجهه. مع حلول الليل، جمعهم فـي الطابـق السـفلي، في غرفة المعيشـة، وبـدأ يلقي عليهم محاضرة تبشـيريّة. واختار اقتباس الآية 8 من الفصل السـابع عشـر من سِـفر التكوين: «وَأُعْطِي لَكَ وَلِنَسْـلِكَ مِنْ بَعْدِكَ أَرْضَ غُرْبَتِكَ، كُلَّ أَرْضِ كَنْعَانَ مُلْكًا أَبَدِيًّا. وَأَكُونُ إِلهَهُمْ».

جلس هار-زيون يصغي مع الآخرين وهو يهزّ رأسـه مبتسـمًا بينما أخذ الحاخام يؤكّد لهم أنّهم كانوا ينفّذون مشيئة الله وأنّ الأجيال القادمة سوف تنظر إلى إنجازهم بنفس الفخر والامتنان اللذين يشعرون بهما هم أنفسهم تجاه الأبطال اليهود القدماء. كان يحـبّ الاسـتماع إلـى التـوراة وهـي تُناقَش بهذه الطريقة، وأن يشـعر بأنّه جزء من تاريـخ الشـعب اليهـودي الغنـيّ. فحين كان صبيًّا، بعد وفاة أمّـه وإصابة أبيه بالجنون، كان يمضي ساعات هو وشقيقه بينجامين في الميتم الحكوميّ يعيشان جميع القصص القديمة ويحلمان أن يزورا يومًا ما أرض الأنبياء ويدافعان عنها ضدّ أعداء إسرائيل كما فعل يشـوع وداوود ويهودا المكابي العظيم. كانت تلك القصص تفصلهما عن الواقع فيلجآن إليها هربًا من البرد والجوع والذلّ التي كانت خبزهما اليوميّ.

قـال لهمـا والدهمـا مـرّة: «إنّ التوراة والمشـنة والتلمود هي الحقيقة وكلّ شـيء آخر ليس سوى وهم».

كان أبوهمـا رجـلاً وَرِعًـا جـدًّا، بمعنى أنّه كان يختفي بين كتبه عوضًا عن العمل لتأمين حاجات عائلته. وأمّهما هي التي حافظت على تماسك العائلة، إذ كانت تخيط الملابـس ليـلاً لكـي تؤمّـن لهم ما يكفي مـن المال لأجل المـأكل والملبس والتدفئة. ولكـنّ الأمّ ماتـت، وعوضًـا عـن أن يتحمّـل الأب مسـؤوليّة المنـزل، انعـزل أكثر في قراءاتـه. فـكان يجلـس أيامًـا يقـرأ ويتمتـم بينه وبين نفسـه وينفجر مـن وقت إلى آخر بصرخات من الفرح قائلاً إنّه رأى مينورا عظيمة في السماء وأنّ يوم الخلاص أصبح قريبًا. إلى أن تمّ أخذه بعيدًا في أحد الأيام ووُضع هو وشقيقه في ميتم. وكان مجرّد ذكر انتمائهما لليهوديّة يؤدي بهما إلى عقاب عنيف بالجَلد.

أجل، فكّر هار-زيون، يمكنك أن تكون وَرِعًا جدًّا. فهو لم يكن يحقد على من يكرّسون حياتهم للهالاخاه، الحاخامات والماتميديم والتلميد حاخاميم. كان يحسدهم نوعًـا مـا بسـبب قدرتهـم علـى الابتعاد عن العالـم الدنيويّ وتكريس أنفسـهم للإيمان والروحانيّـات. ولكنّـه لـم يكـن يصلح لذلـك. إنّه يهوديّ فروم، ولكنّـه يحبّ العمل. لذلك هرب هو وشقيقه من الميتم وقدما إلى إسرائيل. لذلك التحق بالجيش وحارب العرب. لذلك كان يجلس هنا الآن. لأنّ تجاربه السابقة علّمته أنّ الإيمان وحده ليس كافيًا. يتعيّن عليك أيضًا أن تقف وتدافع عن نفسك في العالم الحقيقيّ، وأن تتشبّث بالتوراة بكلّ قواك. ولكن احرص دومًا على أن تمسك باليد الأخرى بندقيّة.

أنهـى الحاخـام عظته وتفرّقت المجموعة، فتوجّهت النسـاء إلى المطبخ لتحضير الطعـام بينمـا قـام الرجـال بحراسـة المنزل أو بدراسـة التلمود. توجّـه هار-زيون إلى السطح، وتلقّى اتصالين عبر هاتفه المحمول، أحدهما من متبرّع في أميركا يهنّئه على الاحتـلال والآخـر مـن أحـد المسـؤولين في الحكومـة قال له إنّه مزعج سـافل ولكنّ الحكومة لن تقوم بأي خطوة لطردهم شرط عدم ارتكاب عنف صريح.

قـال لـه الرجـل: «فـي أوقات كهذه ينبغي علينـا التضامن، باروخ. مع أنّ الضغط الدوليّ سيكون كبيرًا، لا سيّما من أوروبا والأمم المتحدة.

أجـاب هار-زيـون: «تبًّـا لهـم، لن يفعلوا شـيئًا. فهـم لم يفعلوا شـيئًا يومًا، إنّهم مجرّد جبناء».

أقفـل الخـطّ ووقـف يحـدّق لفتـرة من الزمن إلى الشـرق باتجاه جبل سـكوبس والجامعة العبريّة، يراقب باصًا عربيًّا ينزل ببطء على طريق بن عدايا المنحدر، والدخّان يتصاعد منه، قبل أن يدخل مجدّدًا وينزل السـلّم متجهًا إلى إحدى الغرف في الطابق

الثاني. حين وصل، أضاء النور وأغلق الباب خلفه.

قرّر أن يغادر هو وآفي لاحقًا في تلك الليلة ما إن تهدأ الأوضاع في الخارج. سوف يتسلّلان عندها من دون مشاكل. هكذا كانت تتمّ الأمور في حالات كهذه: يتواجد في البداية لتنظيم العمل وتأمين أقصى قدر من الدعاية وما إن يضمن الاحتلال حتّى يسلّم المكان إلى شخص آخر يدير أعمال الاستيطان الفعليّة وإزالة جميع الإشارات إلى الملاّك السابقين واستبدالها بهويّة يهوديّة جديدة. كان لديه عمل أهمّ بانتظاره: مقابلات، اجتماعات، عمله في الكنيست، الملثّم.

أقفل الباب بالمفتاح وتحقّق من أنّ النوافذ مغلقة جيّدًا، ثمّ بدأ يخلع ملابسه ببطء وتصلّب. حين أصبح عاريًا تمامًا، تقدّم نحو مرآة مكسورة وضبابيّة على الحائط المقابل. كانت بشرة جسده، ابتداءً من العنق، عبارة عن رُقع حمراء، بنيّة وورديّة، ملساء وبلا شعر، أقرب إلى البلاستيك منها إلى الجلد الحقيقيّ. حرّك عينيه من الأعلى إلى الأسفل، وبدا على وجهه شيء من المفاجأة وكأنّه لا يزال غير مصدّق أنّه يبدو هكذا حتّى بعد مرور ثلاثة عشر عامًا وخضوعه لعشرات العمليات الجراحية.

حقل ألغام جنوب لبنان، تلك كانت النتيجة. مرّت فوقه سيّارة الهامفي التي كانوا يركبونها، فانفجرت وغلّف الدخان كلّ من فيها. كان مصيره الموت المحتّم لولا أن اندفع آفي، الذي كان يركب سيّارة خلفهم، وسحبه من النار.

حين أحضروه إلى المستشفى قال أطباء الجيش: «لا أمل له بالنجاة، إنّه ميت».

ولكنّه لم يمت بل تشبّث بالحياة بإصرار وشراسة وكأنّه معلّق بأصابعه فوق هاوية. عانى ألمًا مبرحًا، استمرّ لأسابيع وأشهر. مقارنةً به كانت جميع الآلام الأخرى متعة خالصة، إذ كان يمزّقه خليّةً خليّة، ذرّةً ذرّة، إلى أن شعر أنّه لم يتبقّ منه سوى الألم. مع ذلك، تمسّك بالحياة تدعمه قناعة عنيدة أنّ الله يريده أن يحيا. وكذلك الغضب، ليس بسبب ما حدث له، مع أنّه كان سيئًا، بل بسبب شقيقه الأصغر الحبيب بينجامين الذي كان معه في الهامفي والتهمته النيران. يا لبينجامين الشجاع الحبيب.

حدّق إلى المرآة مشمئزًا ومدهوشًا في الوقت نفسه بسبب الفرق بين بشرة رأسه ووجهه التي نجت بأعجوبة من أضرار الحريق، والبشرة الملوّنة الشاحبة والملساء التي تكسو بقيّة جسده. ثمّ تناول مرهمًا عن الطاولة إلى جانبه وعصر بعضًا منه في يده وراح يفرك رقع الجلد التي تغلّف ذراعيه وصدره.

كان عليه القيام بذلك خمس مرات في اليوم لإبقاء الجلد مرنًا كما أوصاه الأطباء. رطب ومرن. وإلاّ سيشتدّ حوله كأنّه سترة ضيّقة، ويتمزّق إثر أي حركة

فجائيّة أو تمدّديّة. لهذا السبب اضطر إلى ترك وظيفته في الجيش والعمل في مكتب في المخابرات العسكريّة، لكي يتمكّن من تأدية هذا الطقس اليومي. ذلك أنّ تفويت مرّة واحدة قد يتسبّب بتمزّق في القطب.

دهن سائل اللوز الأبيض على كتفيه وصدره ومعدته وتابع إلى جميع أنحاء جسده المشوّه. حين كان يتلقّى العلاج سأله الأطباء: «ألديك أطفال؟» وحين أجاب بالنفي، هزّوا رؤوسهم بأسف. لم يعد ثمّة أمل الآن فقد أصبح عاجزًا عن الإنجاب. لم يقتلوا أخاه وحسب بل قتلوا أطفاله أيضًا، مستقبله، المستقبل الذي طالما حلم به هو وزوجته ميريام.

بينجامين، أطفاله، جسده، ومنذ ثلاث سنوات تركته ميريام أيضًا بسبب السرطان؛ لقد خسر كلّ أحبّائه ولم يبقَ له سوى إيمانه وحقده وهذا البلد، إسرائيل. تلك هي عائلته الآن، بالإضافة إلى انتقامه. صرخة التحدي ضدّ العرب والغويم وكلّ من يكرهون اليهود. وسيفعل كلّ ما بوسعه للبقاء على قيد الحياة.

أنهى تدليك نفسه ثمّ وضع المرهم جانبًا وحدّق إلى المرآة. قد تكون مكسوًّا بالندوب ولكنّك ما زلت قويًّا. قد نكون مكسوّين بالندوب ولكنّنا ما زلنا أقوياء. *Và avarecha mè varakhecha umekalelecha*. سأبارك من يباركك ومن يلعنك ألعنه.

هزّ رأسه ثمّ استدار وبدأ يلبس ثيابه مجدّدًا.

القدس

كان ثمّة كثير من الاحتمالات التي كانت لتنقذ حياة والدها: لو أنّهم لم يذهبوا إلى القدس في ذكرى ميلادها الخامسة عشرة، لو أنّهم عادوا في ساعة أبكر، لو أنّهم لم يسلكوا طريق المخيّم، لو أنّ الجندي الإسرائيلي كان ملقىً في مكان آخر.

والأهمّ من ذلك كلّه، لو أنّ والدها لم يكن رجلاً بهذه الطيبة. فهذا ما قتله؛ حبّه للآخرين وعجزه عن مقاومة مساعدتهم. كان شخص آخر ليدير ظهره ويتابع حياته، ولكنّ أباها لم يكن كذلك، ولهذا قُتل.

وجدوا الجنديّ على قارعة الطريق في ضواحي مخيّم جباليا في ساعة متأخرة من تلك الليلة. كانوا عائدين من غداء ذكرى ميلادها في فندق القدس، وانحرفوا عن الطريق الرئيس لمعبر إيريتز - غزّة لإحضار شيء من عيادة والدها في وسط المخيّم. كشفت أنوار السيّارة عن شكل رجل مستلقٍ في الظلام فأبطأ والدها من سرعته وتبيّن أنّه شاب نصف عارٍ وغائب عن الوعي، أصيب بضربات قويّة على وجهه الذي تشوّه

جدًّا. توقّف والدها ثمّ ترجّل من السيّارة وتوجّه إليه.

سألته أمّها: «أهو حيّ؟»

أجاب بهزّة من رأسه.

«إسرائيليّ؟»

هزّ رأسه مرّة أخرى.

«ربّاه!»

كانت الانتفاضة الأولى في أوجها والعداء للإسرائيليين حادًّا، لا سيّما في قطاع غزّة الذي اندلعت فيه الانتفاضة في كانون الأوّل الفائت. لم يكن واضحًا متى وكيف انتهى الأمر بالجنديّ على قارعة الطريق، ولكنّ الواضح أنّ مساعدته في هذا الوقت وهذا المكان هي عمل بالغ الخطورة. فالفلسطينيون الذين يساعدون الإسرائيليين كانوا يُنبذون أكثر من الإسرائيليين أنفسهم.

قالت ليلى: «اتركه، اليهود لا يأبهون بنا، لماذا نساعدهم؟»

هزّ أبوها رأسه قائلاً : «أنا طبيب يا ليلى، لا يمكنني أن أترك شخصًا يموت على الطريق كالكلاب، أيًّا يكن».

هكذا حملوا الجنديّ إلى السيّارة وأخذوه إلى العيادة. هناك قام أبوها بما في وسعه لتنظيف جراحه وتضميدها. حين استعاد وعيه بدأ يئنّ وينتحب.

قال الوالد: «أمسكي يده يا ليلى رجاءً وحاولي طمأنته».

نفّذت أوامر أبيها. كانت تلك المرّة الأولى التي تلمس فيها إسرائيليًّا.

لاحقًا، حين عالجوا جراحه قدر الإمكان، لفّوه ببطّانيّة وقادوه بالسيّارة إلى خارج المخيّم، بنيّة تركه عند إحدى نقاط التفتيش الإسرائيليّة المنتشرة على الطريق الرئيس. ولكن ما إن ساروا مائة متر حتّى ظهرت سيّارتان فجأة وأجبرتهما على التوقّف إلى جانب الطريق.

همست أمّ ليلى: «يا إلهي، ساعدنا».

من كان الرجال، إلى أي فصيل كانوا ينتمون، كيف عرفوا بما فعل والدها وبتلك السرعة، هذا ما لم تكتشفه ليلى أبدًا. كلّ ما تذكره أنّ مجموعة من الأشخاص أحاطوا بالسيّارة فجأة، وكانت وجوههم مخبّأة بالكفافي. ثمّ سُمع صوت رصاص حين قتلوا الإسرائيليّ عبر النافذة المفتوحة قبل أن يجرّوا أباها إلى الشارع وهم يصرخون «خائن! عميل!». حاولت أمّها أن تتبعهم، ولكنّهم صفقوا باب السيّارة على رأسها فغابت عن الوعي. ضربوا والدها بوحشيّة وبلا هوادة، فيما تجمّع حشد يراقب وكثير منهم من مرضاه ولكنّ أحدًا لم يحاول المساعدة أو الاعتراض. ثمّ كبّلوا يديه خلف ظهره

وجرّوه إلى باحة رمليّة تحيط بالمخيّم. لحقت بهم وهي تبكي وتصرخ وتتوسّل إليهم للإبقاء على حياة والدها، ولكن بلا جدوى. دفعوه إلى حفرة ثمّ ظهرت عصا بايسبول من حيث لا يدري أحد وسُحقت على رأس أبيها دافعة وجهه في التراب. ثلاث ضربات كانت كافية لتفتح جمجمته قبل أن يختفي الرجال فجأة كما ظهروا ويتركوها تحتضن جثّة أبيها المحطّمة بين ذراعيها ويمتزج شعرها بدمه، فيما أخذ صدى عواء الكلاب البريّة يتردّد في البعيد. «ربّاه، بابا! يا إلهي، بابا حبيبي!»

لم تحكِ ليلى أحداث تلك الليلة لأحد ولا حتّى لأمّها. وفي اليوم التالي بعد الجنازة، تناولت مقصًّا وقصّت شعرها، عاجزة عن تحمّل إحساس الدم الذي كان ملتصقًا بشعرها والذي لازمها على الرغم من غسله عدّة مرّات. بعد يومين من الحادثة، حزمت هي وأمّها حقائبهما وغادرتا فلسطين نهائيًّا عائدتين إلى بريطانيا للعيش مع جدّيها اللذين يملكان منزلاً كبيرًا في قرية في ضواحي كامبريدج. عاشت هناك أربع سنوات قبل أن تعلن رغبتها بالعودة مثيرة رعب أمّها التي صرخت حين عرفت بالأمر: «ولكن لماذا يا ليلى؟ بعد كلّ ما حدث؟ بعدما فعلوه؟ كيف يمكنك ذلك؟»

عجزت عن الشرح باستثناء قولها إنّها بحاجة إلى وضع الأمور في نصابها. ونوعًا ما، هذا ما كانت تقوم به منذ ذلك الحين.

الأقصر

لم يتذكّر خليفة أن لديه ضيوفًا على العشاء إلاّ حين وصل إلى منزله ذاك المساء.

قالت زوجته زينب حين دخل البيت وهي تمرّ من أمامه حاملة صينيّة عليها طبقين من الطُرشي والبابا غنّوج وتختفي في غرفة المعيشة في منزلهم الصغير: «سيصلون في أي لحظة، أين كنت كلّ هذا الوقت؟»

أجاب خليفة وهو يشعل سيجارة: «في الكرنك، عمل».

سمع قرقعة أطباقٍ ثمّ عادت زينب وأخرجت السيجارة من فمه لتطبع قبلة سريعة فوق شفتيه وتعيد السيجارة مجدّدًا. كانت ترتدي قفطانًا قطنيًّا مطرّزًا، فيما جمعت شعرها الأسود اللامع في ضفيرة طويلة تتدلّى حتّى خصرها.

قال: «تبدين جميلة».

قالت له مبتسمة: «وأنت تبدو رهيبًا. لمَ لا تحلق ذقنك بينما أنهي تحضير العشاء مع بطّة؟ وحاول عدم إيقاظ الصغير، فقد نام للتوّ».

قبّلته مجدّدًا على خدّه واختفت في المطبخ.

ناداها: «أين علي؟»

«عند أحد أصدقائه. وارتدِ قميصًا نظيفة لو سمحت، فقبّة قميصك متسخة!»

دخل الحمّام وبدأ يفكّ أزرار قميصه وهو يحدّق إلى صورته المنعكسة في المرآة. زينب على حقّ، فهو يبدو رهيبًا بالفعل. كانت عيناه باهتتين ومنتفختين وعظام خدّيه نافرة مثل أضلع قردٍ نحيل وبشرته رماديّة شاحبة كسطح مياه راكدة. رمى سيجارته من النافذة ثمّ فتح المياه الباردة وانحنى يغسل وجهه قبل أن يستقيم مجدّدًا لينظر في عينيه.

سأل صورته: «ماذا ستفعل؟ ماذا ستفعل؟»

حدّق إلى نفسه للحظات ثمّ هزّ رأسه وكأنّه رأى ما لا يعجبه. حلق ذقنه بسرعة وعاد إلى غرفة النوم ليضع بعض العطر على وجهه ويغيّر قميصه. كان يغلق آخر أزراره وينحني لتقبيل الصغير يوسف النائم في مهده، حين قُرع جرس الباب.

«ها قد وصلنا!»

ارتفع صوت عديله حسني من خارج الشقّة فتنهّد خليفة.

همس للطفل وهو يمرّر أنفه فوق جبينه الأملس الناعم: «افعل ما تشاء في حياتك ولكن عدني ألاّ تصبح كزوج خالتك».

قال الصوت مجدّدًا: «هيّا أنتما الاثنان! ماذا تفعلان في الداخل؟ أم أنّه لا ينبغي أن أسأل!»

سُمعت ضحكة خشنة حين بدأت سماح، زوجة حسني وشقيقة زينب الكبرى، تضحك من مزحة زوجها التي كان يطلقها دائمًا حين يتأخّر سكان المنزل عن فتح الباب له ولو جزءًا من الثانية.

تمتم خليفة وهو يتوجّه للاستقبال الضيوف: «فليكن الله بعوننا».

كان الحاضرون ستّة: خليفة، زينب، سماح، حسني، واثنان من أصدقاء زينب أتيا من القاهرة – نوال، وهي امرأة قصيرة القدّ، قويّة البنية تدرّس الأدب العربي في جامعة القاهرة وتوفيق، تاجر مشربيّة، يلقّبه الجميع بالجاحظ بسبب عينيه الكبيرتين. تناولوا العشاء حول طاولة صغيرة في غرفة المعيشة، وكانت بطّة ابنة خليفة، تقدّم لهم الطعام، وتحبّ فعل ذلك لأنّه يجعلها تشعر بأنّها أكبر سنًّا. كانت ترتدي قفطانًا مطرّزًا مثل أمّها بينما تدلّى شعرها في ضفيرة سوداء طويلة فوق ظهرها.

قالت سماح حين مرّت الفتاة وهي تحمل طبقًا من مرق الدجاج: «أنتِ تبدين أجمل في كلّ مرّة أراكِ فيها يا بطّة، كما أنّني أحبّ القفطان الذي ترتدينه. اشتريت مثله لأمل، بثلاث مائة جنيه، هل تصدّقين!»

كانت أمل، على عكس بطّة، بدينة وكسولة، وهو اختلاف فعلت أمّها ما في وسعها لإخفائه بالحرص على أن ترتدي الفتاة ملابس أغلى ثمنًا من ملابس بطة.

قالت نوال لزينب وهي تبتسم: «تبدو تمامًا مثلك حين كنتِ بسنّها. أنا أكيدة أنّ جميع الصبيان يجرون وراءك يا بطّة، أليس كذلك؟»

قال توفيق وهو يضحك: «لو كنت أصغر سنًّا لجريت وراءك!»

ضحكت بطّة بخجل وهي تغادر الغرفة.

قال حسني وهو يرتشف حساءه: «حان الوقت لتبدآ بالبحث عن زوج لها».

صرخت زينب قائلةً: «حبًّا بالله! لا تزال في الرابعة عشرة!»

«ليس الوقت مبكرًا على التفكير بهذه الأمور. فالتفكير المسبق هو سرّ النجاح. انظرا دائمًا إلى المستقبل. خذا مثالاً على ذلك زيوت الطعام».

كان حسني يعمل في تجارة الزيوت الغذائيّة ولا يفوّت فرصة لتوجيه الحديث في هذا المنحى: «حين أعددنا إطلاق زيت دوّار الشمس، تمّ ذلك بعد ثمانية عشر شهرًا من التحضيرات. وما كانت النتيجة؟ زيادة بنسبة ثمانية بالمائة في المبيعات وجائزة أفضل زيت منزلي. لا يمكن تحقيق هذا النجاح من دون التفكير المسبق».

أخذ رشفة أخرى من حسائه وأضاف: «كما حصلنا على تنويه بفضل زيت الجوز، والناس يتهافتون على شرائه!»

حاول الجميع رسم درجة ملائمة من الإعجاب على وجوههم وهم ينهون حساءهم قبل أن ينتقلوا إلى الطبق الرئيسي: طُرلي بلحم الغنم المقدّم مع البازلاء والبامية والأرز والبطاطس. انتقلوا للحديث عن أصدقاء مشتركين، ومن ثمّ آخر مباراة كرة قدم جرت في القاهرة بين الزمالك والأهلي، قبل أن يفتحوا موضوع السياسة وينخرط حسني ونوال في جدال حامٍ حول حرب أميركا ضدّ الإرهاب.

صرخ حسني: «ماذا تعنين؟ لم يكن يجب عليهم اتخاذ أيّ إجراء بعد الحادي عشر من أيلول وتركهم ينجون بفعلتهم؟»

«ما أعنيه أنّه قبل أن يبدأوا بقصف الدول الأخرى، فليهتموا بشؤونهم الداخليّة. لماذا يُعتبر الإرهاب الذي يُرتكب بحقّ أميركا اجتياحًا، بينما يبرّر للأميركيين على أنّه سياسة خارجيّة؟» جلس خليفة صامتًا خلال النقاش مشغولاً بطعامه، يطلق تعليقًا من وقت إلى آخر ولكنّه غارق في أفكاره معظم الوقت. الجثّة في ملقاتة، مجموعة جانسن الأثريّة، اجتماعه بحسّاني، اللقاء الغريب في الكرنك - تراقصت كلّ هذه الأفكار في رأسه وكأنّها صور منعكسة في قاعة محاطة بالمرايا. وخلفها كلّها، ثمّة صورة واحدة لا تتغيّر، حتّى مع تغيّر المشاهد التي أمامها، صورة الوشم الغريب

علـى ذراع المـرأة الميتـة، مثلّث وخمسـة أرقام. مثـل العلامات التي تُدمغ على اللحم للإشارة إلى مصدره.

«مزيد من اللحم؟»

تردّد صوت زينب في أذنه. كانت تحمل طبق الطُرلي.

«ماذا؟ آه، كلاّ شكرًا».

«إذًا، ما رأيك به يا يوسف».

كان توفيق ينظر إليه منتظرًا الإجابة.

قال خليفة: «عفوًا؟»

علّقت نوال وهي تضحك: «إنّه على بعد أميال، ربّما يفكّر في القبور والكتابات الهيروغليفيّة».

قال توفيق: «الملثّم، ما رأيك بالتفجيرات الاستشهاديّة؟»

تناول خليفة رشفة من العصير ثمّ أرجع كرسيّه إلى الخلف وأشعل سيجارة.

«أظنّ أنّه لا يحقّ لأحد قتل مدنيين أبرياء بدمٍ بارد».

قالت نوال: «ولكنّ الإسرائيليين يقتلون الفلسطينيين بدمٍ بارد ولا أحد يتذمّر من ذلك. انظر ماذا حدث منذ يومين، لقد قُتل طفلان من قبل مروحيّة إسرائيليّة».

أجـاب خليفـة: «ولكـنّ هـذا ليس مبرّرًا. ما الفائدة من الانتقام عبر قتل مزيد من الأطفال؟»

قال توفيق: «ولكن ماذا يفعلون للدفاع عن أنفسهم؟ إنّهم يواجهون أقوى جيش فـي الشـرق الأوسـط رابـع أقـوى جيش فـي العالم. كيـف يُفترض بهـم المقاومة؟ أنا أوافقـك أنّهـا طريقـة رهيبـة ولكن هذا مـا يفعله الناس حين يُعامَلون بوحشـيّة منهجيّة لخمسين عامًا».

قالت زينب: «وكأنّ السلطة الفلسطينيّة تملك سجلاً عظيمًا مع حقوق الإنسان. وكأنّنا نملك نحن أنفسنا سجلاً عظيمًا».

قال توفيق: «هذا ليس صلب الموضوع. الفكرة أنّ الناس لا يحزمون متفجرات حول خصورهم ويفجّرون أنفسهم لمجرّد المتعة. إنّهم يفعلون ذلك بسبب اليأس».

قال خليفة وهو يشـعل سـيجارة لنوال : «أنا لا أدافع عن الإسـرائيليين، برأيي... كما قالت زينب، هذه التفجيرات لا تساعد على حلّ الأزمة».

سأله توفيق قائلاً: «هل تعني أنّك لا تشعر بشيء من المتعة حين تسمع بانفجار آخر؟ أنّ جزءًا منك لا يقول: يستحقون ذلك؟»

حدّق خليفة إلى الطاولة وقد تصاعد الدخان من طرف سيجارته. وقبل أن يجيب، قالت سماح: «أنا سأخبركم بما أشعر، وهذا بعض البودينغ! هل أشمّ رائحة حلوى أمّ علي يا زينب؟ لمَ لا أساعد بطّة في تقديم العشاء؟ إنّها حفلة عشاء رائعة حقًّا!»

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل حين خلدوا أخيرًا إلى النوم. استغرقت زينب في النوم على الفور تقريبًا. أمّا خليفة فظلّ يتقلّب في فراشه وهو يصغي إلى تنفّس يوسف الصغير في المهد بقربه ويراقب أضواء السيّارات المارّة التي تسلّط على السقف ويسمع ضربات قلبه.

نهض بعد عشرين دقيقة وتوجّه إلى الردهة وضغط على زرّ كهربائي، فبدأت المياه تخرّ في نافورة صغيرة في وسط الردهة. ضغط على زرّ آخر فأضاء إطارًا من المصابيح الملونة المثبّتة حول الحوض البلاستيكي للنافورة، ثمّ جلس على الأرض واستند إلى الجدار يفرك عينيه. كان قد بنى النافورة بنفسه ليضفي بعض الألوان إلى منزلهم الصغير. ومع أنّها لم تكن أعظم عمل فنّي في العالم – فالماء لا يُضخّ كما يجب والأحجار المحيطة بالنافورة غير متراصّة – ولكنّه لا يزال يشعر بالاسترخاء كلّما نظر إليها وأصغى إلى خرير المياه وتأمّل الأضواء.

جلس صامتًا لبعض الوقت ثمّ مال إلى اليمين، وشغّل مسجلة صغيرة موضوعة على طاولة خشبيّة. فارتفع صوت أمّ كلثوم الرخيم يغني عن الحبّ والخسارة:

رجعوني عينيك لأيامي اللي راحوا
علموني أندم على الماضي وجراحه
اللي شفته قبل ما تشوفك عينيّ
عمري ضايع يحسبوه إزاي عليّ
أنت عمري اللي ابتدا بنورك صباحه
ولا شاف القلب قبلك فرحة واحدة
ولا داق في الدنيا غير طعم الجراح

شعر بحركة خلفه ثمّ ظهرت زينب ترتدي إحدى قمصانه التي ظهرت منها ساقاها الطويلتان. انحنت وقبّلت جبينه ثمّ جلست قربه على الأرض واتّكأت على كتفه فيما تدلّى شعرها الأسود على صدره وكأنه شلاّل أسود.

قالت له: «أنت لم تستمتع بالأمسية، أليس كذلك؟»
اعترض قائلاً: «بلا، كانت...»
قالت: «مملّة، رأيت ذلك في عينيك. أنا أعرفك جيّدًا».
مرّر يده على شعرها.
قال: «أنا آسف، كان ذهني مشغولاً».
«بالعمل؟»
هزّ رأسه وهو يحيط كتفيها بذراعه.
«هل تريد التحدّث؟»
هزّ كتفيه من دون أن يقول شيئًا، فيما تابعت أمّ كلثوم غناءها:

إنت أغلى من أيامي
إنت أغلى من أحلامي
خدني لحنانك خدني
عن الهموم وابعدني

قالت زينب وهي تمرّر إصبعها ذهابًا وإيابًا فوق ندب صغير على يده خلّفته عضّة كلب من أيام الطفولة: «هل تعرف بما يذكرني ذلك؟ باليوم الذي ذهبنا فيه إلى جبل السلسلة. حين التقطت تلك السمكة للغداء وذهبنا نسبح في النيل. هل تتذكّر؟»

ابتسم خليفة قائلاً: «وكيف أنسى؟ يومها علقت رجلك في أعشاب البحر واعتقدتِ بأنّ تمساحًا هاجمكِ».

«وانزلقت في الوحل وأتلفت بنطالك الجديد. لم أسمع في حياتي تلك الشتائم!»

ضحك وقبّل خدّها فأحاطت خصره بذراعيها وسألته قائلةً: «ما خطبك؟ ما الذي يزعجك؟»

تنهّد قائلاً: «لا شيء، مجرّد مشاكل في العمل».

«أخبرني بها، ربّما أمكنني المساعدة».

جلس صامتًا لبعض الوقت يحدّق إلى مياه النافورة ثمّ أسند رأسه على الجدار وراح يتبع بنظره شقًّا في السقف.

قال بهدوء: «لقد قمت بعمل رهيب يا زينب، ولا أعرف كيف أصلحه. أو على

الأقلّ أعرف ولكنّني خائف».

همست وهي ترفع يدها لتربّت على وجهه: «أنت لا تفعل شيئًا سيئًا، أنت رجل صالح. أنا أعلم ذلك، وأطفالنا يعلمون، والله يعلم أيضًا».

«أنت مخطئة. أنا رجل ضعيف وخائف، خذلتك وخذلت نفسي».

رفع يديه وأخذ يفرك رقبته. تبع ذلك صمت طويل خرقه خرير الماء ثمّ بدأ يتحدّث، ببطء في البداية، ازداد سرعة وهو يفرغ القصّة كاملة من داخله: جانسن، حنّا شليغل، محمّد جمال، اللقاء في الكرنك، كلّ شيء. استمعت إليه زينب من دون أن تقول شيئًا وهي تمسّد بلطف وجهه وعنقه.

قال حين انتهى: «خفت أن أقول شيئًا حينها. كنت شابًا وجديدًا في القسم ولم أشأ إحداث المشاكل. تركتهم يتهمون بريئًا لأنّني لم أملك الشجاعة للاعتراض. والآن... لا أزال خائفًا. أخاف ممّا سيحدث لو بدأت أنقّب وأعيد فتح القضيّة. ثمّة أمور سيئة يا زينب، أنا أشعر بذلك. ولا أعلم ما إذا كان الأمر يستحق أن أخاطر بعملي لأجل...»

توقّف وهو يهزّ برأسه.

«لأجل ماذا؟ رجل مثل محمّد جمال؟»

«هذا أجل، و... كما قال الرئيس حسّاني، جانسن قد مات. وما سنكتشفه لن يشكّل فرقًا».

نظرت في عينيه ثمّ قالت: «ثمّة شيء آخر، أستطيع رؤية ذلك والشعور به. بماذا تفكّر يا يوسف؟»

«لا شيء يا زينب، لا شيء. مجرّد...»

شدّ ركبتيه إلى صدره وانحنى إلى الأمام وأسند جبينه على ركبتيه.

همس قائلاً: «كانت إسرائيليّة، يهوديّة. انظري ماذا يفعلون. هل يستحق الأمر؟ هل يستحق شخص مثلها العناء؟»

خرجت الكلمات منه من دون تفكير. ولكن ما إن قالها حتّى أدرك أنّ هذا ما كان يزعجه طيلة الوقت، ليس الآن فحسب، بل منذ خمسة عشر عامًا، حين جلس يشاهد الرئيس حسّاني والرئيس محفوظ وهما يضربان محمّد جمال. إنّ التحدّث لا يعني وضع منصبه على المحكّ لأجل مجرم فحسب، بل أيضًا لأجل امرأة تنتمي إلى دولة نشأ على احتقارها. وهذا التعصّب هو ما أخجله، لأنّه طالما حاول أن يكون رجلاً متسامحًا يحكم على الناس وفقًا لما هم عليه وليس على أساس خلفيّتهم أو جنسيّتهم أو معتقدهم. ولكنّ ذلك لم يكن سهلاً، فقد تعلّم منذ نعومة أظفاره بأنّ إسرائيل هي

مصدر الشرّ وأنّ اليهود يحاولون السيطرة على العالم وأنّهم شعب قاسٍ، متعجرف وطمّاع، ارتكب فظاعات كثيرة ضدّ إخوانهم المسلمين.

كان والده معتادًا على القول: «جميعهم ماكرون. يخرجون الناس من أرضهم ويسرقونها. يقتلون النساء والأطفال ويسعون لتدمير الأمّة. احذرهم يا يوسف، احذر اليهود دائمًا».

وحين كبر واتسعت خبرته، بدأ يدرك أنّ الحياة ليست كلّها أبيض وأسود كما تعلّم. فاليهود لا يدعمون جميعهم القمع ضدّ الفلسطينيين، والإسرائيلي ليس وحشًا بالضرورة. فاليهود أنفسهم عانوا كثيرًا كشعب. مع ذلك، لم يتمكّن من التخلص تمامًا من الأفكار التي تشرّبها في طفولته.

وكلّما اتخذت أحاديث الأصدقاء والزملاء هذا المنحى، كان يحاول أخذ موقف معتدل كما فعل هذا المساء. ولكن في أعماقه التي لا يعرفها سواه، ظلّ التعصّب القديم موجودًا، مثل بقعة داكنة لم يتمكّن من إزالتها تمامًا. ولم يكن فخورًا بذلك، فهو يعرف أنّها تنقص من قدره كإنسان، إلاّ أنّه لم يتمكّن من التخلص منها وكأنّها أصبحت جزءًا منه. لقد أملت عليه أفعاله منذ خمسة عشر عامًا، ولا تزال.

قال بهدوء: «حين سألني توفيق هذا المساء إن كنت أشعر باللذّة حين تنفجر قنبلة في الأراضي المحتلّة، إن كان جزء مني يقول يستحقون ذلك؟ في الواقع يا زينب أنا أفعل. لا يجدر بي قول ذلك ولكنّني أشعر باللذة غصبًا عني».

هزّ رأسه وهو يشعر بالخجل لأنّه يخبرها بهذه الأمور، لأنّه يكشف لها ذاته السريّة.

«في هذه الحالة، أشعر بأنّني شخصان، أحدهما يدرك وجود ظلم رهيب في تطبيق العدالة، امرأة قتلت وأُصدر الحكم على رجل بريء، ومن واجبي أن أحاول اكتشاف الحقيقة. ولكن ثمّة شخصًا آخر يقول فليذهبوا إلى الجحيم. من يكترث ليهوديّة عجوز ضُربت حتّى الموت؟ لماذا أعرّض نفسي لجميع تلك المشاكل؟ أنا أكره نفسي بسبب ذلك ولكنّني لا أستطيع التخلّص من تلك الأفكار».

تراجعت زينب إلى الخلف وهي تحدّق إليه وقد ضاقت عيناها اللوزيتان وغاب وجهها في الظلال وكأنّه اكتسى بوشاح رقيق.

قالت بهدوء: «جميعنا نملك أفكارًا سيئة، ولكنّ الأفعال هي الأهم».

«ولكن تلك هي المشكلة، زينب. لا أعرف إن كنت قادرًا على فعل شيء. أشعر وكأنّ أفكاري تمنعني من الحركة. الموضوع أسهل بالنسبة إليك فأنت تنتمين إلى عائلة ذكيّة ومثقّفة، والداك سافرا وتعرّفا على العالم. لم تنشئي وسط تلك الأفكار

المسبقة. ولكن لو قيل لك منذ الصغر إنّ اليهود والإسرائيليين أشرار وأنّ من واجبنا كمسلمين أن نكرههم، وأنّنا إن لم نقتلهم سيقتلوننا، لما كان من السهل عليك أن تغيّري فكرتك عنهم».

مدّ يده إلى رأسه وقال: «هنا، أعرف أنّها أفكار خاطئة، وهنا أيضًا». وكان يشير إلى قلبه. ثمّ أضاف وهو يشير إلى معدته: «ولكن هنا، في أعماقي، لا أستطيع أن أمنع نفسي من كرههم. وكأنّني أعجز عن السيطرة على عواطفي. هذا مخيف».

مدّت يدها إلى رأسه وراحت تداعب شعره وعنقه. كان يشعر بساقها الدافئة قرب ساقه. حلّ صمت طويل.

قالت زينب وهي تدلّك عضلات عنقه وكتفيه: «هل تتذكر جدّتي جميلة؟»

ابتسم خليفة. ثمّة فجوة اجتماعيّة كبيرة تفصل بين عائلة زينب التي تتعاطى الأعمال وتعيش في حيّ ثريّ في القاهرة وبين عائلته من الفلاّحين التي كانت تقطن في أحد أحياء الجيزة الفقيرة. كانت الجدّة جميلة الشخص الوحيد الذي كان يتكبّد العناء لجعله يشعر بأنّه شخص مرحّب به في العائلة. كانت تُجلسه دائمًا بقربها حين يزوران منزل العائلة وتسأله الكثير عن تاريخ مصر، وهو موضوع كانت واسعة الاضطلاع فيه. وحين ماتت منذ بضع سنوات شعر بحزن عميق وكأنّه فقد أمّه.

«بالطبع أذكرها».

«ثمّة ما قالته لي مرّة منذ سنوات بعيدة حين كنت طفلة. لا أذكر السياق ولكنّني لم أنسَ كلامها. اذهبي دائمًا نحو ما يخيفك يا زينب. واسعي دائمًا إلى ما لا تفهمينه، لأنّك هكذا تكبرين وتصبحين شخصًا أفضل. أنا لم أتدخل يومًا بعملك يا يوسف ولكنّني أظنّ أنّ هذا ما يتعيّن عليك فعله الآن».

تنهّد قائلاً: «ولكن كيف؟ لا يمكنني أن أقوم بتحقيق من وراء الرئيس حسّاني».

أمسكت بيده ورفعتها إلى شفتيها ثمّ قبّلت أصابعه قائلةً: «لا أعرف يا يوسف. كلّ ما أعرفه أنّ هذه القضيّة أُرسلت لاختبارك وأنّ عليك مواجهتها».

«ولكنّها قد تسبّب كثيرًا من المشاكل».

«سنواجهها معًا، كما نفعل دومًا».

نظر إليها، كانت جميلة جدًّا، وقويّة جدًّا.

قال: «ما من رجل يرغب بزوجة أفضل».

«وما من امرأة ترغب بزوج أفضل. أحبّك يا يوسف».

حدّقا إلى بعضهما، ثمّ مال أحدهما نحو الآخر وقبّلا بعضهما قبلة ناعمة راحت

تزداد شغفًا.

همست في أذنه: «هل تذكر ماذا فعلنا ذاك اليوم في جبل السلسلة بعدما وقعت في الوحل واضطررت إلى خلع بنطالك لغسله؟»

لم يُجب بل نهض وحملها بين ذراعيه إلى غرفة النوم وصوت أمّ كلثوم يصدح خلفهما.

القدس

كانا شخصين، أو هذا ما ميّزته على الأقلّ. أتيا من خلفي وأمسكا بذراعَي وثبّت أحدهما رأسي لكيّ لا أتمكن من الالتفات والنظر إلى وجهيهما. لم يؤذياني، بل كانا هادئين. ولكن كان من الواضح وهما يدفعاني إلى داخل السيّارة ويلقيان بطّانيّة فوق رأسي أنّهما لن يسمحا بالمقاومة.

سارت بنا السيّارة لساعتين أو أكثر – فبعد بضع دقائق لم أعد قادرة على تمييز الوقت والاتجاه. توجّهنا صعودًا في البداية، ومن ثمّ نزولاً، ما أوحى بأنّنا كنّا متوجّهين نحو الجنوب الشرقي خارج القدس باتجاه أريحا وساحل البحر الميت، مع أنّه من الممكن والمرجّح أنّها مناورة لكي أفقد الحسّ بالمكان ولضمان ألاّ يتبعنا أحد.

بعد نصف ساعة توقّفنا وصعد معنا شخص ثالث في المقعد الأمامي. اشتممت رائحة سجائر، من نوع فريد على ما أظنّ ولكنّني لست أكيدة.

الغريب أنّني لم أكن خائفة. فبعد أن أمضيت حياتي في المنطقة، أصبحت فطرتي تخبرني بالحالات التي سأتعرّض فيها للأذى، ولم تكن تلك إحداها. مهما يكن سبب اختطافي، لم تكن ثمّة نية لاستخدام العنف ضدّي، ما دمت أفعل ما أؤمر به.

خلال الدقائق العشرين الأخيرة، كنّا نسير في طريق مليء بالحفر، ومن ثمّ في قرية أو مستوطنة – مخيّم لاجئين؟ – لأنّني كنت أسمع أصواتًا وموسيقى من وقت إلى آخر وكانت السيّارة تنحرف إلى الأمام والخلف وكأنّها تسير في سلسلة من الممرات الضيّقة.

توقّفنا أخيرًا، وكانت البطّانيّة لا تزال تغطي رأسي، ثمّ أُدخلت بسرعة إلى أحد المباني. تمّ اقتيادي عبر السلّم إلى غرفة ثمّ أُجلست على كرسي خشبي. وقع نظري من تحت البطّانيّة على بلاط الأرض الأبيض والأزرق قبل أن توضع فوق رأسي نظّارة غوص التي كانت عدستاها مغطتين بشريط لاصق لمنعي من رؤية شيء. شعرت بوجود شخص خلفي بدا من صوت تنفسه أنّه امرأة، كما سمعت أصواتًا من داخل المنزل، ولكنّها كانت منخفضة وغير واضحة. وأعتقد أنّني التقطت كلمتين

باللغة العربيّة المصريّة، المختلفة بعض الشيء عن اللهجة الفلسطينيّة، مع أنّني كنت مربكة جدًّا وغير واثقة من ذلك.

لم أسمعه يدخل أو يجلس. بل عرفت بوصوله من خلال رائحة عطر ما بعد الحلاقة التي اشتممتها فجأة – مانيو (كان لديّ صديق معتاد على استعماله). ومع أنّني لم أتمكّن من رؤيته، إلاّ أنّني شعرت بأنّه رجل طويل ونحيل، شديد السيطرة على نفسه. تقدّمت المرأة من خلفي بضع خطوات ووضعت دفترًا وقلمًا بين يدي. تبع ذلك صمت طويل كنت أشعر خلاله بتنفسه الهادئ، وبعينيه عليّ.

قال بصوت بطيء وواثق، صوت مثقّف لا يخون سنّه أو أصله: «يمكنك أن تبدأي المقابلة، لديك ثلاثون دقيقة».

«ومع من يُفترض بي إجراء المقابلة بالضبط؟»

«أفضّل عدم كشف اسمي الحقيقي، وهو لن يعني لك شيئًا على كل حال. اسمي الحركي مناسب أكثر».

«وما هو؟»

سمعتُ زفيرًا خفيفًا وكأنّ الرجل أمامي يبتسم.

«يمكنك مناداتي الملثّم. لديك الآن تسع وعشرون دقيقة ونصف».

تثاءبت ليلى ووضعت المجلّة جانبًا ثمّ نهضت وتوجّهت إلى مطبخها الصغير. كانت الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل، وباستثناء شخير فتحي المتصاعد من أعماق المبنى، كان الصمت يخيّم على العالم. أعدّت لنفسها فنجانًا من القهوة السوداء القويّة وعادت إلى غرفة المعيشة وبدأت ترتشف فنجانها.

كانت قد وصلت إلى البيت منذ نصف ساعة بعد لقائها مع نهى. أخذت حمّامًا باردًا لكي تعيد الصفاء إلى رأسها، وشربت عدّة أكواب من المياه ثمّ عادت إلى مكتبها وأخرجت من سلّة المهملات الرسالة الغامضة تلك التي كُتبت بالحبر الأحمر مع النسخة المرفقة بها.

آنسة مدني،

لطالما أعجبت بعملك الصحفيّ وأردت أن أعرض عليك اقتراحًا. أجريتِ منذ فترة مقابلة مع الزعيم المعروف بالملثّم...

تفحّصت النسـخة مجدّدًا ثمّ توجّهت نحو الخزانة التي احتفظت فيها بأرشـيفها وبحثت عن المقابلة التي أشارت إليها الرسالة. كانت قد نُشرت في أوبزيرفير ماغازين تحت عنوان الملثّم يكشف النقاب عن وجهه - مقابلة حصريّة مع الرجل الأكثر إثارة للخوف في الشرق الأوسط. أخرجتها وذهبت لتقرأها في غرفة المعيشة.

وصفه البعض أنّه صلاح الدين الجديد، شيطان متجسّد في جسم إنسان، الرجل الذي جعل حماس والجهاد الإسلامي يبدوان وكأنّهما صديقتا إسرائيل المقرّبتان. منذ أن أطلقت جماعة الإخوان الفلسطينيون أوّل عمليّة استشهاديّة منذ ثلاث سنوات، قتلت فيها خمسة أشخاص في فندق ناتانيا، تبنّى مسؤوليّة أكثر من أربعمائة قتيل، معظمهم من المدنيين. وبينما أبدت جماعات فلسـطينيّة أخرى بعض الرغبة على الأقلّ بوقف إطلاق النار والدخول في المفاوضات، واصل الملثّم حملته بلا هوادة.

كانت حملته تستقطب سياسة منطقة مستقطبة أصلاً، وتقضي على أي آمال بعمليّة سلام فعليّة دافعة بالإسرائيليين والفلسطينيين مباشرةً نحو الحرب.

وتُظهر اسـتطلاعات الرأي أنّ كلّ عمليّة تفجيريّة، تدفع الرأي العام الإسـرائيلي، الذي زادته نشـاطات الجماعات الفلسـطينيّة المتطرّفة الأخرى قسـوة، أكثر نحو اليمين ليدعم سياسيين يمينيين أمثال باروخ هار-زيون. في الوقت نفسه، فإنّ ازدياد الأعمال الانتقاميّة الإسرائيليّة حدّة واعتباطيّة أدّى بدوره إلى ارتفاع مفاجئ في تأييد المنظمات النضاليّة أمثال الإخوان الفلسـطينيون. وقد قال السياسـي الفلسـطيني المعتدل صائب مرصودي في ذلك، وهو رجل أمضى حياته كناشط فلسطيني، كما سجن خمس سنوات بتهمة المساعدة في تهريب الأسلحة إلى غزّة، وهذا ما يعطي ثقلاً خاصًا للنقد الذي يوجّهه إلى الملثّم: «إنّها حلقة مفرغة. المتطرّفون يدعمون ويشـجّعون بعضهم بعضًا. فحين يقتل الملثّم خمسة إسرائيليين، يقتل الإسرائيليون عشرة فلسطينيين، فيقتل الملثّم خمسة عشر إسرائيليًّا، وهكذا دواليك. إنّنا نعيش حتّى رؤوسنا في بركة من الدم».

وما ميّز الإخوان ليس مجرّد انتظام هجماتهم وشراستها، بل إنّه على الرغم من الجهود المضنية التي بذلتها قوى الأمن الإسرائيليّة وعدد آخر من الدول، بما في ذلك السـلطة الفلسـطينيّة نفسـها لم يُعرف شـيء عن المنظمة أو الرجل الذي يتزعّمها. أين مركزها، من ينتمي إليها، كيف يتم تجنيد الاستشهاديين وتمويل العمليات؛ كلّها مسائل بقيـت ملفوفـة بالغمـوض. لم يتمكّن أحـد من المخبرين الموثوقين على اختراقها ولم يتمّ اعتقال أحد من أعضائها. إنّها تتمتّع بمستوى من التنظيم والسريّة لم يسبق له مثيل في العمل السياسي الفلسطيني، دفع عددًا كبيرًا من الخبراء إلى الظنّ أنّ المسؤول عن العمليات هو جهاز أمن تابع لدولة معيّنة.

وقد علّق خبير في الأمن الإسرائيلي على الموضوع قائلاً: «ببساطة، الفلسطينيون ليسوا بهذه البراعة، ثمّة دومًا مخبرون. والطريقة التي تعمل بها منظمة الإخوان محترفة جدًّا ولا نراها لدى خليّة فلسطينيّة. لا بدّ أن يكون الداعم جهة خارجيّة».

على الرغم من ذلك، لم يتمكّن أحد من اكتشاف حقيقة الملثّم. وها أنا أجلس أمامه الآن، صلاح الدين الجديد، الشيطان المتجسدّ في جسم إنسان، أخطر رجل في الشرق الأوسط. سألني ما إذا كنت أرغب ببعض الشاي والبسكويت.

سمعَت في الخارج صوت صندوق سيّارة يُغلق. فركت عينيها ثمّ نهضت وتوجّهت نحو النافذة تنظر إلى الشارع في الأسفل. رأت رجلين يحمّلان الخبز الطازج في صندوق سيّارة فان، وعلى مسافة أبعد في أسفل التلّ، ثمّة مجموعة من الفلسطينيين الذين بدأوا يصطفّون خارج مكتب وزارة الداخليّة الإسرائيليّة على أمل تجديد رخص إقامتهم. وعلى مسافة قصيرة وراءهم، رأت سيّارة بي أم بيضاء متوقّفة إلى الجهة الأخرى من الطريق أمام مدخل قبر الحديقة، وقد بدت لوحة رقمها الإسرائيليّة الصفراء وبدا في الداخل شخص يجلس بلا حراك خلف المقود. كانت قد رأت هذه السيّارة نفسها متوقّفة هناك عدّة مرات من قبل، ومع أنّ التفسير المنطقي لوجودها هو أنّها قد تكون سيّارة تابعة للشين بيت تراقب عن كثب الفلسطينيين المصطفّين أمامها، إلاّ أنّها لم تتمكّن من إبعاد الشكّ بأنّ السائق يحدّق مباشرةً بنافذة شقّتها. نظرت إليها مستغربة أكثر منها منزعجة، ثمّ هزّت رأسها وعادت إلى الأريكة وتناولت المقال مجدّدًا.

قرأت بسرعة ما تبقّى منه، وكان عبارة عن سلسلة من الأقوال المفصلة التي يبرّر فيها الملثّم حملة العنف التي يقودها ويتعهّد بالاستمرار إلى أن يُصبح تراب فلسطين أحمر اللون من دماء أطفال اليهود – قبل أن تبطئ لقراءة الفقرات الأخيرة التي كانت تسبّب لها دومًا القشعريرة.

ثمّ انتهت المقابلة فجأة كما بدأت. رُفعتُ لأقف على قدمي ثمّ تمّ اقتيادي إلى الأسفل مجدّدًا، ونظّارة الغطس لا تزال حول رأسي. حين وصلت إلى الطابق السفلي سمعت صوته من الأعلى.

«سوف يسأل كثيرون ما إذا كانت هذه المقابلة حصلت فعلاً، آنسة مدني. لإسكات المشكّكين، أرجو أن تبلغي أجهزة الأمن الإسرائيليّة أنّ أحد استشهاديينا سوف يقوم الليلة عند الساعة 9:05 مساءً بالضبط بتفجير نفسه باسم فلسطين الحرّة. رافقتك السلامة».

بعد ساعتين، تُركتُ على قارعة الطريق جنوب بيت لحم تمامًا. أخبرت السلطات الإسرائيليّة بما حدث. وفي الليلة نفسها، في الوقت المحدّد، انفجرت قنبلة في ساحة هاجر غرب القدس، قُتل فيها ثمانية أشخاص وجُرح تسعون. وقد كشفت العمليّة الكثير عن عدميّة ذاك الرجل المعروف بالملثّم أكثر من أي عمليّة أخرى، ذاك أنّ القتلى والجرحى كانوا يحضرون تجمّعًا سلميًّا لجمعيّة غوش شالوم.

قال صائب مرصودي: «لقد آذى شعبي بقدر ما آذاه قيام دولة إسرائيل. وربّما أكثر، لأنّنا كنّا نُعتبر في الماضي ضحايا، أمّا الآن وبفضله، أصبحنا نُعتبر قتلة».

أفترض أنّ الملثّم سيعتبر هذا القول مجاملة.

وضعت المقال جانبًا وتناولت الرسالة الغريبة من جديد لتقرأها مرّة أخيرة مقطّبة الجبين. لا بدّ من وجود شيء ما فيها، شيء... مثير. ولكنّها كانت متعبة جدًّا للتفكير بها، فتركت المقال والرسالة على مكتبها وذهبت إلى السرير، لتستغرق في النوم ما إن ألقت برأسها على الوسادة. كان الحرفان GR يتردّدان في ذهنها وكأنّهما أصداء رعد بعيد في ليلة شتاء مظلمة.

مصر، شبه جزيرة سيناء،
قرب الحدود مع الأراضي المحتلّة

إنّه لغز. كان هذا كلّ ما يمكن للرجل العجوز قوله. مثل كثير من الأشياء في الصحراء. أضواء حيث لا ينبغي أن توجد أضواء، خيالات تروح وتجيء في الظلام، غرفة مؤثّثة ومرتبة وسط البريّة. لم يسبق له رؤية شيء كهذا خلال سبعين عامًا. إنّه لغز كبير.

بدأ منذ عام، وكان يبحث عن إحدى معزاته في أحد الوديان المتعرّجة قليلة العمق الممتدّة على طول الحدود مع الأراضي المحتلّة. كان الليل قد خيّم على المكان وكان على وشك التوقّف عن البحث، بعد أن وصل إلى أعلى تلّ. فلاحظ ضوءًا شاحبًا يلمع في الأسفل داخل محطّة مهجورة للجيش على الحدود. لم يكن ثمّة جنود في هذا الجزء من الصحراء منذ عقود، ولم يكن فيها أناس على الإطلاق باستثناء بعض البدو العابرين مثله، لأنّ المكان مهجور وقاحل، حتّى بالنسبة إلى المعتادين على قسوة الصحراء. ولكنّه يرى الآن ضوءًا حيث لم يكن ثمّة ضوء من قبل، وأشخاصًا أيضًا، يمكن رؤيتهم داخل المبنى الحجريّ المنخفض.

زحف إلى الأسفل، وقد نسي معزاته، واقترب من المبنى ثمّ وقف على رؤوس

أصابعه يحدّق من النافذة. كان داخل المنزل مضاءً بقنديل وفيه رجلان، أحدهما يدخّن سيجارًا يتدلّى من زاوية فمه ويمتدّ فوق خدّه الأيمن ندب طويل، بينما وضع على رأسه قلنسوة كتلك التي يرتديها اليهود. أمّا الثاني فكان أصغر سنًّا، وسيمًا، شعره غزيرًا أسود، تغطي كتفيه كفيّة. كانا منحنيين فوق طاولة مخيّم متداعية يحدّقان إلى خريطة ويتحدّثان معًا بلغة لم يفهمها، بينما رسمت أصابعهما خطوطًا فوق الورقة المجعّدة. كان إلى يمينهم أريكتان مريحتان وُضعتا جنبًا إلى جنب أمام الجدار، وفوق طاولة أخرى رأى تُرمسًا وطبقًا نصف ممتلئ بالشطائر.

راقبهما لبضع دقائق ثمّ ابتعد خوفًا من افتضاح أمره. لفّ الشال حول جسده اتقاء للبرد واختبأ خلف صخرة ليرى ما سيحدث. سمع بعد قليل صراخًا غاضبًا ثمّ خرج الرجل الأصغر سنًّا وبوّل على الجدار.

بقي هناك طيلة الليل، يراقب ويصغي إلى أن انطفأ المصباح في ساعة باردة قبل طلوع الفجر، وخرج الرجلان مبتعدَين عن المبنى. عدّ حتّى الخمسين ثمّ تبعهما مختبئًا بين الصخور ومحافظًا على مسافة تفصله عنهما، إلى أن وصل إلى صخرة مرتفعة اختبأ خلفها في الوقت المناسب ليرى مروحيّة كبيرة تحلّق في الهواء وتغطيه بغيمة خانقة من الغبار. حلّقت في الهواء للحظة ثمّ انطلقت في السماء الرماديّة شرقًا.

بعد ذلك رأى الرجلين الغامضين مرات عديدة. كانا يظهران أحيانًا مرّة أو حتّى مرتين في الأسبوع، وفي بعض الأحيان يمضي شهران بين الزيارات. ولكنّهما كانا يأتيان دائمًا في الليل ويغادران قبل طلوع الصباح، وكأنّهما يخشيان من أن يفضحهما ضوء الشمس. روى لأهله من البدو ما رآه، ولكنّهم ضحكوا عليه وقالوا إنّه أصيب بضربة شمس. فلم يتحدّث مجدّدًا عن ذلك، وقد أسعده أن يكتشف سرًّا لا يعرفه أحد.

قالت له جدّته يومًا حين كان طفلاً، قبل أن يأتي اليهود وتقع الحرب: «سوف تشارك يومًا ما في أحداث عظيمة، أحداث سوف تغيّر العالم».

وقد أحسّ وهو جالس خلف صخرته يحدّق إلى ضوء القنديل الشاحب ويصغي إلى أصوات الرجلين بأنّ هذا بالتأكيد ما كانت تعنيه. وكان سعيدًا لأنّه طالما شعر في أعماقه بأنّ حياته لن تقتصر على مجرّد رعي قطيع من الماعز في الصحراء.

القسم الثاني

بعد أسبوع

القدس

سارا إلى مقدّمة الموكب، يدًا بيد، وهما يغنّيان مع الآخرين وكلّ منهم يحمل شمعة مشتعلة بحيث بدا المساء وكأنّه يومض بآلاف النجوم المتمايلة. كان شعرها البنّي الطويل مجموعًا في كعكة غير مرتبة فوق رأسها، وكانت ترتدي فستانًا ربيعيًّا رقيقًا من القطن الأصفر يُبرز خطوط جسدها الشاب الرشيق. أمّا هو فكان أطول منها وأعرض، كدبّ يقف قرب غزالة، وجهه ضخمًا وحادّ الملامح، وكأنّه نحت في الخشب، قبيح ووسيم في آن. كان ينظر إليها طيلة الوقت يهزّ برأسه وكأنّه لا يصدّق بأنّه مع امرأة بهذا الجمال وتلك الرقّة والنعومة. قرأت أفكاره وضحكت قائلةً: «أنا هي المحظوظة، آرييه-ياري. سوف أكون أسعد زوجة في العالم».

وصلا إلى باحة مكشوفة، فتوقّف الموكب وانتشر المدعوّون ليأخذوا أماكنهم أمام مسرح مؤقّت ستُلقى منه الخطابات تحت لافتة كُتب عليها السلام. أمسكا بيدي بعضهما وهما يصغيان ويصفّقان ويضحكان وينظران إلى بعضهما، وأعينهما مليئة بالحبّ والأمل.

تركها بعد قليل قائلاً إنّه يرغب بإحضار شراب. عوضًا عن ذلك، قصد محلّ أزهار لم يُغلق بعد واشترى لها زنبقة بيضاء، هي المفضلة لديها. كان في طريق العودة، مبتسمًا وهو يتخيّل فرحتها حين يُخرج الزهرة من خلف ظهره، وهنا سمع الانفجار. في البداية لم يكن واثقًا من مصدر الصوت، ثمّ رأى الدخان وبدأ يهرول ومن ثمّ يركض وقد تقلّصت معدته منذرة بالشؤم.

كانت الساحة مليئة بالجثث وأشلاء الجثث وأناس يصرخون. أخذ يتجوّل في المكان وهو يصرخ باسمها، وقد تلوّثت قدماه بالدماء، ورنين الهواتف المحمولة يتردّد في أذنيه، إلى أن وجدها أخيرًا تحت شجرة سروّ محطّمة، ثوبها ممزّق وجسدها عارٍ تقريبًا. كانت ساقاها مقطوعتين وممدّدتين قربها. انحنى يحتضنها بين ذراعيه فيما تدفّق دمها البارد على قميصه وسرواله وقال بصوت خنقته فظاعة المأساة: «آه، حبيبتي، آه يا حبيبتي الجميلة غاليا».

تمكّنت من رفع ذراعها ووضعت يدها المتقرّحة حول عنقه دافعةً وجهه نحوها. قبّلته بفمها الممزّق الدامي وهمست في أذنه كلمات لم يسمعها سواه، كلمات لن

تفارقه أبدًا. ثمّ سقط رأسها إلى الخلف وفارقت الحياة.

حدّق إلى جسدها الممزّق حائرًا، خاويًا، وحيدًا كما لم يكن يومًا، أمّا الزنبقة في يده فأصبحت حمراء اللون. كان الليل الذي يلفّهما يضجّ بعويل صفّارات الإنذار وكأنّ الهواء نفسه يصرخ يأسًا.

«آرييه!»

كان صوت صفّارات الإنذار يملأ المكان.

«آرييه!»

أضواء، صراخ، أناس يركضون.

«بن-روي، أيّها الأحمق، ماذا تفعل؟»

قفز آرييه بن-روي صاحيًا وصدم رأسه بنافذة السيّارة. كانت القارورة الفضّية قد انزلقت من يده وسكبت ما بقي فيها من شراب على سروال الجينز الذي يرتديه. وكانت الصفّارات تدوّي وسماعتاه على وشك الانفجار.

«اذهب يا رجل! اذهب بحقّ الله!»

جلس للحظة ذاهلاً، معلّقًا بين الماضي والحاضر، ثمّ أدرك ما يحدث، ففتح حُجيرة القفّازات وأخرج منها مسدّسه وترجّل من سيّارة الأجرة. كان يمتدّ أمامه الطريق المنحدر المؤدّي إلى باب ستّنا مريم. هناك كانت سيّارة مرسيدس سوداء تحاول الالتفاف بجنون. خلفه، وصلت كتيبة من سيارات الشرطة ثمّ توقفت وأغلقت الطريق أمام أيّ من يحاول الهروب من المدينة القديمة، وسلّطت أضواءها على مدافن المسلمين القديمة الممتدّة على جانبي المنحدر. راح يركض بعد أن نزع الكفية عن رأسه ورماها جانبًا.

كانوا يخطّطون للعملية منذ أكثر من شهر. فقد قال لهم أحد المخبرين إنّه سيتمّ تسليم شحنة مخدرات كبيرة لتجّار المدينة القديمة. لم يعطِهم تاريخًا محدّدًا، بل مجردّ زمان ومكان: منتصف الليل، عند باب ستّنا مريم. أخذوا يراقبون المكان منذ ذلك الحين متنكّرين بزيّ مشرّدين، جامعي نفايات، سائحين وعشّاق. وقد أمضى بن-روي الليالي الثلاث الماضية في سيّارة أجرة متوقّفة عند أعلى التلّ المؤدّي إلى الباب متنكّرًا كسائق عربي، ينتظر ويراقب وهو يعبّ من شرابه. وها قد حان الموعد أخيرًا ولكنّه فوّته وهو نائم.

تمتم وهو يعدو إلى أعلى التلّ والسيّارة أمامه تزمجر وكأنّها حيوان محبوس: «اللعنة، اللعنة!»

إلى يمينه، كان ثمّة رُماة يتقدّمون خلسة بين شجيرات مقبرة اليوسفيّة. إلى الأمام،

داخل باب ستّنا مريم، رأى ثلاثة رجال منبطحين على وجوههم ومحاطين برجال الشرطة.

قال صوت عبر السماعات: «أتلف الإطارات! أطلق النار عليها!»

سقط بن-روي على ركبتيه ورفع مسدّسه. كانت يداه ترتجفان من أثر الشراب، وقبل أن يجد الوقت لتثبيتهما انطلقت ثلاث رصاصات من حوله، اثنتين منها من المقبرة وواحدة من الجدار الذي يعلو البوابة. فانفجر إطارا المرسيدس الأماميان معًا لتندفع السيّارة وتصطدم بأحد الجدران. حلّ الصمت للحظة ثمّ فُتحت الأبواب وخرج منها ثلاثة فلسطينيين وقد رفعوا أذرعهم فوق رؤوسهم.

قال صوت كبّرته السماعات: «انبطحوا على الأرض! أغمضوا عيونكم!»

نفّذ الرجال الأوامر، فركعوا على ركبهم ثمّ انبطحوا على بطونهم. خرجت مجموعة من رجال الشرطة من الظلال وتوجّهوا نحوهم فانتزعوا منهم أسلحتهم وكبّلوا أيديهم وراحوا يفتشونهم.

تردّد صوت عبر السماعات قائلاً: «حسنًا، يا شباب لقد قبضنا عليهم. أحسنتم».

ظلّ بن-روي راكعًا وهو يتنفس بصعوبة، ثمّ نهض متنهّدًا وأقفل زرّ الأمان في المسدّس وتابع صعوده للتلّ متوجّهًا نحو المرسيدس المحطّمة، بينما راحت أصابعه تعبث بمينورا فضّية صغيرة تتدلّى من سلسلة حول عنقه.

كان ثمّة رجل نحيل وقوي البنية منحنٍ بالقرب من أحد المقبوض عليهم، ويده تقبض بشدّة على عنق الرجل، قال له عند وصوله: «لطيف منك أن تنضمّ إلينا».

تمتم بن-روي مشيرًا إلى السماعتين: «الراديو اللعين، لم أسمع شيئًا».

«نعم، صحيح».

رماه الرجل بنظرة متشكّكة ثمّ رفع المقبوض عليهم ليقف على قدميه واقتاده بعيدًا نحو سيّارة فان للشرطة مركونة في الجوار. فكّر بن-روي أن يتبعه ويدافع عن نفسه، ولكنّه أحجم عن ذلك. فما الفائدة؟ ما الفائدة من أيّ شيء هذه الأيام؟ كان كلّه إضاعة للوقت. فليفكّر فيلدمان بما يشاء، لم يعد يأبه.

وقف يشاهد ضبّاطًا يضعون قفّازات مطاطية ويرتدون سترات بيضاء يتجمّعون حول المرسيدس ثمّ استدار ونزع سماعتيه عائدًا نحو سيّارته وحيدًا، عاجزًا عن مشاركتهم الشعور العامّ بالرضى. تذكّر حين طُرد من الصف مرّة في طفولته لأنّه بال في سرواله وانتابه الآن الشعور نفسه بالعزلة والغربة والارتباك والعار. لطالما

شعر بالعار. العار بأن يكون هكذا، العار بأنّه فشل، بأنّه ذهب لشراء الزنبق، بأنّه ما زال حيًّا.

وصل إلى السيّارة وألقى نظرة بائسة من فوق كتفه، ثمّ صعد فيها وشغّل المحرّك وتوجّه نزولاً لينحرف في طريق أوفيل. إلى يساره، انحدر نبع وادي كيدرون المظلّل بالأشجار نحو الأسفل، بينما امتدّ إلى يساره جدار بارتفاع ثلاثة أمتار على طول الطريق، وارتفع فوقه منحدر المقبرة الإسلاميّة نحو خط أسوار المدينة القديمة المغمورة بالأنوار. ضاعف سرعته مجتازًا ثلاث مائة متر قبل أن يبطئ السرعة مجدّدًا، ويرفع إحدى يديه عن المقود ليُخرج بالأخرى قارورته المعدنيّة. كانت معظم محتوياتها قد سُكبت، ولكنّها لا تزال تحتوي على أثر للشراب في قعرها، فأبطأ سرعته أكثر ورفع القارورة إلى فمه، ثمّ أرجع رأسه إلى الخلف وأفرغ ما بقي فيها. تقلّصت ملامحه بسبب السائل الناري الذي تدفّق عبر حنجرته وبسبب اشمئزازه من نفسه.

تمتم قائلاً: «كم تثير اشمئزازي. بائس، بائس».

عبّ الشراب حتّى آخر نقطة ثمّ رمى القارورة من وراء كتفه إلى المقعد الخلفي وضاعف السرعة مجدّدًا وهو يدير المقود فجأة لكي يصحّح وجهة السيّارة التي بدأت تنحرف بالاتجاه المعاكس مثيرة غضب سائق شاحنة أطلقت بوقها احتجاجًا.

صرخ وهو يطلق بوق سيارته هو أيضًا: «عليك اللعنة! عليكم اللعنة جميعًا!»

مرّت الشاحنة إلى يساره. في الوقت نفسه بدا له أنّ شيئًا ما سقط من أعلى السدّ إلى يمينه. حدث ذلك بسرعة البرق وبسبب ارتباكه الناتج عن الشراب والإرهاق، فكّر للوهلة الأولى بأنّ حيوانًا كبيرًا قفز من المقبرة. أبطأ من سرعته ونظر في المرآة، وسار خمسين مترًا قبل أن يُدرك أنّه رأى في الواقع رجلاً يقفز من فوق السدّ على الرصيف، حيث يقرفص الآن ممسكًا بركبته التي بدا أنّها تأذّت. جاهد بن-روي مجددًا لتحليل المعلومات وسار خمسين مترًا إضافية قبل أن يخطر له أنّ الرجل قد يكون أحد المهرّبين الذي أفلت من قبضة الشرطة. انحرف إلى جانب الطريق وأمسك بجهاز اللاسلكي.

صرخ قائلاً: «ما زال ثمّة واحد هنا! هل تسمعني؟ ثمّة واحد هنا! طريق أوفيل، عند أعلى طريق كيدرون. أحتاج إلى الدعم. أكرّر أحتاج إلى الدعم».

سُمع صوت أبحّ من الآلة يؤكّد تلقّي الرسالة. وضع اللاسلكي في جيبه، وأخذ مسدّسه ثمّ ترجّل من السيّارة. كان الفلسطيني الذي أدرك انكشاف أمره يعرج هاربًا قبل أن ينحرف في ممرّ يؤدي إلى وادي كيدرون. انطلق بن-روي في أثره، متفاديًا شاحنة ممتلئة بالباذنجان آتية من جهة وسيّارتي أجرة آتيتين من الجهة الأخرى. منذ

عام مضى، كان ليتصرّف برشاقة أكبر في هذه الحالات. أمّا الآن فقد أصبح زائد الوزن ومفتقرًا إلى اللياقة وكل ما يفكّر فيه هو السبب الذي يدفعه إلى تحمّل هذا العناء.

حثّ نفسه قائلاً وقد بدأت رئتاه تؤلمانه: «هيّا، هيّا أسرع أيّها البدين!»

وصل إلى آخر الطريق ورأى طريدته تعرج تحته. رفع مسدّسه، ولكنّ الرجل كان بعيدًا جدًّا فاستأنف الركض نحو الأسفل، فيما خرجت أنفاسه قصيرة ومؤلمة. من الواضح أنّ الفلسطيني يعاني من ركبته ولو كان بن-روي أكثر لياقة لما تمكّن من الفرار منه. كان ثمّة أربعون مترًا بينهما حين وصلا إلى قعر الوادي وبدأت الأرض تستوي تحتهما وتمتد على طول صف من القبور الصخريّة القديمة المنحوتة في المنحدرات السفليّة من جبل الزيتون.

ظهر خط من الأضواء الزرقاء إلى الأمام، ما منع الطريدة من الفرار في ذاك الاتجاه وأجبر الرجل على تسلّق حائط منخفض قرب الطريق والهرب بالاتجاه المعاكس على طول قعر الوادي. كان الآن تحت بن-روي، إلى يمينه، فصعد التحرّي على الجدار وقفز فوق المنحدر العشبي باتجاهه. عندها انحرف الرجل يسارًا وأخذ يتسلّق منحدرًا صخريًّا يمتدّ بجانب قبر زكريا ذي السقف هرمي الشكل. تبعه بن-روي وهو يتعثّر فوق الأرض الرمليّة وقد أدمت الصخور والأشواك يديه، وكان يقحّ ويلهث. كان قد أوشك على استنفاد طاقاته الجسديّة، وفي منتصف الطريق استسلم تمامًا مثل سيّارة نفد وقودها، فجلس عاجزًا يراقب الفلسطيني وهو يتابع طريقه صعودًا ويختفي فوقه.

زمجر غاضبًا: «تبًّا، تبًّا، تبًّا، تبًّا!»

جلس لفترة في مكانه يتنفس الهواء بعمق وغضب ثمّ بدأ يصعد مجدّدًا على يديه وقدميه لينهار عند أسفل شجرة أكاسيا. وفجأة انفجر ضاحكًا.

«يا إلهي، بن-روي، بإمكان جدّتي أن تركض بسرعة أكبر!»

كان فيلدمان، الشرطي الذي تحدّث معه من قبل يقف فوقه ومعه أربعة رجال شرطة، اثنان منهم يمسكان بالفلسطيني مكبّلاً. مدّ يده لبن-روي الذي أبعدها قائلاً: «اذهب إلى الجحيم، فيلدمان».

جاهد للوقوف على قدميه ومشى خطوة إلى الأمام فأصبح في مواجهة الفلسطيني. كان الرجل أصغر ممّا توقّع. بدأ الورم والاسوداد يغزوان عينه اليسرى، فيما كانت شفته مشقوقة. أشار فيلدمان لرجال الشرطة الذين يمسكونه فشدّدوا من قبضتهم.

قال وهو يغمز بن-روي: «هيّا، أنت تعرف أنّك تريد ذلك. نحن لم نرَ شيئًا».

نظر بن-روي إلى فيلدمان ومن ثمّ إلى الفلسطيني. كم يودّ سحق وجه هذا

الصغيـر اللعيـن، ليُظهـر لـه رأيه به، وبجميع أبناء جنسـه. تقدّم نصف خطوة وقد شـدّ قبضته، ولكنّ صدى صوت ناعم تردّد في أذنه، قريبًا وبعيدًا جدًّا في آن واحد، رافقته صورة عابرة لوجه امرأة جميلة رماديّة العينين. لم تدم سوى لجزء من الثانية ثمّ اختفت مـع الصـوت. حدّق إلى الفلسـطيني وهو يتنفـس بثقل ثمّ لمس المينورا المعلّقة حول عنقه واستدار وبدأ ينزل المنحدر.

خلفه، هزّ فيلدمان رأسه متمتمًا: «يا لآرييه المسكين».

مصر – بين الأقصر وإدفو

انحرف خليفة من خلف الشـاحنة وتجاوزها مطلقًا بوق سـيارته أثناء ذلك. إلى يسـاره بدت سلسـلة بعيدة من التلال الصفراء المتموّجة وكأنّها قصور من الرمل. إلى اليمين، خلف مساحة ملونة بحقول قصب السكر والموز، شقّ النيل طريقه ببطء نحو الشمال، في صفحة سوداء ناعمة شبيهة بالمعدن المصقول. أشعل سيجارة ثمّ ضاعف السـرعة وأدار الراديو. ارتفع صوت شـعبان عبد الرحيم وهو يغني أغنيته الشـهيرة «أنا بكره إسـرائيل». استـمع إليها خليفة للحظة ثمّ بدّل المحطة. مرّ بلافتة تشـير إلى أنّه على بعد ستين كيلومترًا من إدفو.

مـرّ أكثـر مـن أسـبوع منذ أن تمّ العثور علـى الجثّة في ملقاتة، ومنذ ذلك الوقت لم يتمكن من اكتشاف معلومات جديدة عن جانسن الغامض. بالطبع، كان عليه القيام بأبحاثه سرًّا من وراء الرئيس حسّاني. فكان يصل إلى المكتب باكرًا ويتأخّر في العودة، ويجـري بعـض الاتصالات السـريعة وقت الغداء مدّعيًـا أنّها على علاقة بالقضايا التي يعملـون عليهـا. ولكـن حتّـى من دون هذه القيود، يشـكّ في أنّه كان ليكتشِـف المزيد في هذا الموضوع. فكل ما يرتبط بحياة جانسن، من هوسه بالتدابير الأمنيّة في الفيلا إلى غياب أي معلومات عن ماضيه، بدا موجّهًا للحفاظ على خصوصيّة تلك الحياة، لا بل سرّيتها. كانت محاطة بأسوار لا يمكن اختراقها.

فقـد تقـدّم بطلـب للحصـول على الجنسـية المصرية وتمّ منحه إيّاها في تشـرين الأوّل 1945. عـرف خليفـة تلـك المعلومات من صديق قديم في وزارة الداخليّة. بعد ذلـك عـاش فـي الإسـكندريّة، يديـر محلاً ناجحًا لتجليد الكتب من منزله في شـارع أميـن فخـري، قبـل أن ينتقـل إلى الأقصر في آذار 1972 ويشـتري الفيلا الأولى، وبعد سـبعة أشـهر، الفندق (الذي غيّر اسـمه من فندق أهلاً وسـهلاً إلى مينّا-را). وأظهرت كشـوف الحسـابات المصرفيّـة أنّـه إن لـم يكن ثريًّا فهو على الأقـلّ مرتاح ماديًّا، بينما أشارت التقارير الطبيّة إلى أنّه كان يعاني من البواسير والتهاب المفاصل والتهاب في

إصبع القدم والخناق، فضلاً عن سرطان البروستات الذي تمّ تشخيصه في كانون الثاني 2005 وكان في مرحلة متقدّمة. أمّا العرج فكان نتيجة حادث سيّارة وقع عام 1982 وحطّم ركبته اليمنى.

حصل على بعض المعلومات العشوائيّة الأخرى - كان جانسن يستعمل بانتظام مكتبة علم الآثار المصريّة في شيكاغو هاوس وكان يهوى العمل الجنائني ولم يملك سجلاً لدى الشرطة - ولكن هذا كلّ شيء. أمّا متى أتى إلى مصر للمرّة الأولى، لماذا ومن أين، وما هي علاقته بحنّا شليغل، كلّها ظلّت محاطة بالغموض. بدا أنّ كثيرًا من الناس يعرفونه، ولكنّ أحدًا لا يعرف بالفعل شيئًا عنه وكأنّه لا يملك ماضيًا، وكأنّه ما من شيء تحت السطح. وحتّى ما قالته كارلا شاو عن أصله الهولندي لم يتم إثباته. فقد أبلغته السفارة الهولنديّة بأنّ اسم جانسن شائع جدًّا في بلادهم وأنّه من دون تاريخ أو مكان ولادة يستحيل تعقّبه.

ثمّة معلومة واحدة قد تكون مثيرة للاهتمام حصل عليها من فاتورة هاتف الميت. لم يكن جانسن يجري اتصالات كثيرة، ومعظمها كانت تجري في فندق مينّا-را. كان ثمّة رقم واحد في القاهرة تكرّر في الفاتورة تسع مرات في الأشهر الثلاثة الأخيرة. استعلم خليفة من مؤسسة تيليكوم المصريّة للاتصالات معتقدًا أنّه ربّما لأحد الأصدقاء الذين ذكرتهم كارلا شاو أثناء المقابلة منذ أسبوع. ولكنّ هذا البحث لم يؤدِّ إلى شيء لأنّ الرقم لم يكن لعنوان خاص بل لهاتف عمومي في حيّ المهدي في المدينة.

باختصار لم يُحرز أيّ تقدّم، ولهذا السبب كان في السيّارة الآن.

ضاعف سرعته وهو يجتاز القرى الصغيرة والتلال والنهر الذي كان يقترب أحيانًا من الطريق وينحرف أحيانًا أخرى بعيدًا عنها وكأنّه يخشى السيارات المسرعة. كانت الشمس ترتفع إلى يساره في السماء وحرارتها المشتدّة تجعل الأرض الرطبة المكسوة بالمزروعات تلمع ويتصاعد منها البخار وكأنّها قالب حلوى خرج للتوّ من الفرن.

وصل إلى إدفو بعد ثلاثين دقيقة، وعبر النيل فوق جسر البلدة ثمّ شقّ طريقه وعبر شوارعها المغبرّة قبل أن يواصل طريقه جنوبًا على الضفّة الغربيّة للنهر هذه المرّة. توقّف بعد ستة كيلومترات ليسأل عن الاتجاه. وبعد كيلومترين انحرف يسارًا عن الطريق الرئيس ليسير في طريق رملي عبر حقول البصل والملفوف، قبل أن يصل أخيرًا أمام منزل جميل أبيض اللون مبني إلى ضفّة النهر. كان ذاك منزل إيهاب علي محفوظ، رئيس خليفة السابق، الرجل الذي تولّى التحقيق في قضيّة شليغل. ركن السيّارة وأوقف عمل المحرّك.

كان المجيء إلى هنا يشكّل رهانًا كبيرًا بالنسبة إلى خليفة. فعلى الرغم من

تقاعـد محفـوظ منـذ ثـلاث سـنوات، إلاّ أنّه لا يزال يملك نفوذًا واسـعًا. ولو أزعجته الزيارة، يسـتطيع بكلمة واحدة أن ينقل خليفة إلى مركز شـرطة منفي وسـط الصحراء الغربيّة أو أن يطرده من عمله أساسًا. ولكنّه لو أراد يستطيع أن يعيد فتح القضية رسميًّا، لا سـيّما وأنّ خليفة بلغ في تحقيقاته نقطة لم يعد يسـتطيع العمل فيها سـرًّا. لم يكن أمام خليفة من خيار سوى المخاطرة. فالرئيس حسّاني لم يكن سيساعده. ولو تجاوزه إلى من هو أعلى منه مرتبة، سيدخل في إجراءات بيروقراطيّة تستغرق شهورًا. بيد أنّ محفوظ يملك النفوذ اللازم لتحريك القضيّة على الفور. والسؤال، هل سيكون مستعدًّا لاستعمال ذاك النفوذ؟ فخليفة لا يذكر أنّ هذا الرجل يحبّ الاعتراف بأخطائه.

طـرق بأصابعـه بعصبيّـة على المقود ثـمّ تناول تقريرًا كتبه بخط يده يحتوي على مـا توصـل إليـه حتّى الآن، قبل أن يترجّل وسـار نحـو الباب وقرع الجرس. بعد قليل سـمع صوت خطىً تقترب. فتحت الباب امرأة متوسـطة السـنّ، داكنة البشـرة، ترتدي ثوبًا أسود وطرحة. قدّر خليفة أنّها مدبّرة المنزل على الأرجح.

حيّاها قائلاً: «صباح الخير، أتيت لرؤية حضرة المقدَّم».

قالت المرأة: «القائد محفوظ لا يستطيع مقابلة أحد الآن». وشدّدت على كلمة «قائد» وهي الرتبة التي تقاعد بها محفوظ.

«أودّ رؤيته لبضع دقائق إن أمكن. فقد أتيت من الأقصر لأمر هام».

«لديك موعد؟»

أقرّ خليفة أنّه لا يملك موعدًا.

«إذًا لن تستطيع مقابلته».

بدأت بإغلاق الباب ولكنّ خليفة خطى خطوة إلى الداخل.

قـال بحـزم: «أخبريـه رجاءً أنّ الضابط يوسـف خليفـة يرغب برؤيته. قولي له إنّ الأمر هامّ».

حدّقت إليه غاضبةً ثمّ أمرته بأن يلازم مكانه واختفت داخل المنزل.

اتكأ خليفة على حاجب الباب وأشعل سيجارة وراح يسحب منها أنفاسًا عميقة. على الرغم من مواجهاته المعتادة مع حسّاني، إلاّ أنّه لم يكن شخصًا يحبّ المواجهات بطبعه، ولا يسـهل عليه التصرّف في حالات كهذه. وجد نفسـه يتذكّر حادثة من أيام الجامعـة حيـن عـارض أحد الأسـاتذة أمام الصـف بأكمله وأخبره بأنّـه مخطئ. يومها تقلّصت معدته خوفًا وهو يرفع يده للتحدّث. وهو يشعر بالخوف نفسه الآن – خوف الرجل المسـكين الذي صعد السـلّم بصعوبة ويخشـى أن يعيده شـيء ما إلى المكان الذي أتى منه.

أخذ نفسًا آخر ثمّ استدار يحدّق إلى السهول التي عبرها للتوّ، وأخذ يراقب في البعيد رجلاً نصف عارٍ ينكش الأرض بالتوريا، جسده يرتفع وينخفض بوتيرة بطيئة ودقيقة، كدقات الساعة.

قال لنفسه: «ماذا أفعل؟ ماذا أفعل هنا بحقّ الله؟»

عادت المرأة بعد دقيقتين. كان يتوقّع أن تقول له إنّ محفوظ لا يرغب برؤيته، ولكنّها طلبت منه إطفاء سيجارته ورمته بنظرة تقول «أنا لست موافقة على ذلك»، ثمّ قادته إلى داخل المنزل الأبرد جوًّا.

شرحت له قائلةً وهما يعبران سلسلة من الغرف متجهين إلى الجزء الخلفي من المبنى: «القائد ليس على ما يرام. لقد خرج من المستشفى منذ أسبوعين، وأمر الطبيب بعدم إزعاجه».

وصلا إلى غرفة جلوس كبيرة تنيرها الشمس، أرضها مكسوّة بالبلاط وتتدلّى من سقفها ثريا مزخرفة. كانت تطلّ عبر أبواب زجاجيّة على حديقة مليئة بالأزهار.

قالت: «إنّه هناك، سوف أحضر بعض الشاي. والتدخين ممنوع».

نظرت شزرًا إلى خليفة للتأكّد بأنّ الرسالة قد وصلت ثمّ استدارت عائدةً على أعقابها.

وقف يحدّق لبعض الوقت إلى صورة كبيرة لمحفوظ وهو يسلّم على الرئيس مبارك، ثمّ عبر الأبواب وخرج إلى الحديقة. أمامه، خلف مرجة محاطة بأحواض مرتبة من الورود الورديّة والصفراء، امتدّت مصطبة خشبيّة صغيرة فوق النهر. جلس عليها رجل مديرًا له ظهره تحت مظلّة مخططة باللونين الأخضر والأبيض. تمتم بدعاء سريع ثمّ سار فوق العشب وأحنى رأسه حين وصل تحت المظلّة.

قال صوت خشن: «كنت أتساءل متى ستأتي. أنا أنتظرك منذ أكثر من أسبوع».

كان محفوظ متمدّدًا فوق الوسائد، وقد وضع إحدى يديه على ذراع المقعد بينما أمسك باليد الأخرى قناع أكسجين بلاستيكي تدلّى منه أنبوب صغير يؤدي إلى أسطوانة معدنيّة موضوعة قربه على الأرض. صُدم خليفة للتغيير الذي رآه في الرجل. ففي المرّة الأخيرة التي قابله فيها، منذ أكثر من خمس سنوات، كان رجلاً ضخمًا عريض المنكبين، قويّ البنية والعضلات، مثل مصارع من الوزن الثقيل (كانوا يسمّونه ثور إدفو). أمّا الآن فبالكاد عرفه، بجسده الذي تقلّص إلى ما يشبه شريطًا من الجلد البالي ووجهِه الأجوف وأطرافه النحيلة. كان قد خسر معظم شعره وأسنانه بينما أصبحت عيناه، اللتان كانتا في ذاكرة خليفة لامعتين وشرستين، بلون الماء الراكد وتحت جلاّبته البيضاء بدا انتفاخ يشير إلى كيس تصريف البول.

مازحه ساخرًا وهو يشاهد التعبير الذي علا وجه خليفة: «لم يتبقَّ مني الكثير. المثانة، الأمعاء، إحدى الرئتين - كلّها ذهبت. أشعر وكأنّني حقيبة فارغة».

بدأ يقحّ، فرفع قناع الأكسجين إلى وجهه وضغط على زرّ في مقدّمته وشهق.

تمتم خليفة: «أنا آسف، لم أكن أعلم».

رفع محفوظ كتفيه بضعف وهو يسحب الأكسجين ويحدّق إلى مجموعة من أزهار ورد النيل وهي تطوف ببطء فوق سطح النهر. مرّت دقيقة تقريبًا قبل أن يستقّر تنفسه ويتمكّن من نزع القناع عن وجهه. أشار إلى خليفة للجلوس على كرسي بقربه.

قال: «لديّ شهر تقريبًا، اثنان على الأكثر. ومع المورفين، بالكاد أستطيع احتمال الألم».

لم يعرف خليفة ما يقول.

كرّر: «أنا آسف»

ابتسم محفوظ قائلاً بمرح: «إنّه عقاب، ما تزرع تحصد».

قبل أن يتمكن خليفة من سؤاله عن معنى كلامه ظهرت مدبرة المنزل وهي تحمل صينية وضعت عليها فنجانين من الشاي. وضعتها على طاولة خشبيّة منخفضة ثمّ رتبت وسائد مستخدمها ورمت خليفة بنظرة حادّة قبل أن تنصرف مجدّدًا.

قال محفوظ: «هل أزعجتك أمّ محمّد؟ لا تأخذ الأمر على محمل شخصي، إنّها هكذا مع الجميع».

مال إلى جانبه ومدّ يدًا مرتعشة نحو فنجان الشاي. لم يتمكن من بلوغه فأعطاه إيّاه خليفة.

سأله محاولاً فتح حديث معه: «ماذا عن السيدة محفوظ؟»

«توفيت العام الماضي».

ذُهل خليفة، فهو لم يتوقّع أيًا من هذا. ارتشف محفوظ الشاي وهو يحدّق إليه من فوق الفنجان.

قال بصوت ضعيف: «أنت تظنّ أنّه لم يكن يجدر بك المجيء، أليس كذلك؟ تظن أنّ هذا العجوز يعاني بما فيه الكفاية ولا حاجة إلى زيادة مشاكله».

هزّ خليفة كتفيه وهو يحدّق من خلال الصفائح الخشبيّة إلى المياه الموحلة المتدفقة تحتها.

تمتم بعد صمت وجيز: «قلت إنّك كنت تتوقّع مجيئي».

«اتصل بي حسّاني وأخبرني بما يحدث، قال إنّك تحوم حول قضيّة شليغل. وإن

كنت خليفة الذي أتذكّره، لا بدّ أن تأتي في النهاية».

ابتسم لنفسه بتعبير من الألم لا المرح، ثمّ بدأ يقحّ مجدّدًا والفنجان يهتزّ بيده، ملوّثًا الجلاّبية برذاذ من الشاي. أشار لخليفة ليأخذ الكوب من يده ثمّ رفع القناع وأخذ نفسًا آخر طويلاً وبطيئًا من الأكسجين. استدار الضابط يحدق إلى النهر. كان المشهد رائعًا – المياه الزرقاء الداكنة، همس حقول القصب، فلوكا وحيدة تنزلق فوق الماء على الضفّة المقابلة، شراعها منتفخ في السماء وكأنّه خدّ يرتاح على وسادة.

لاحظ محفوظ اتّجاه نظره فنزع القناع قائلاً: «عزائي الوحيد أنّني سأموت أمام منظر جميل على الأقلّ».

أعاد وضع القناع واستند إلى الخلف يسحب الأكسجين وكأنّه سمكة خارج الماء تصارع للبقاء على قيد الحياة. أخذ خليفة رشفة من فنجانه وبدأ يبحث عن سجائره ثمّ تذكر ما قالته مدبرة المنزل فوضع يديه على حضنه. كان في الحديقة طائر يرفرف فوق أحد أحواض الورود.

أخيرًا استعاد محفوظ تنفسه الطبيعي ونزع القناع. مال خليفة إلى الأمام وأعطاه التقرير.

«أريدك أن تلقي نظرة على هذا التقرير، سيّدي».

تناول محفوظ التقرير ثمّ عدّل وضعيّته وقرأه ببطء وهو يقلّب الصفحات بيدين مرتعشتين. حين انتهى وضعه جانبًا وأسند رأسه على الوسائد.

«طالما شككت في ذلك».

كان صوته منخفضًا جدًّا حتّى إنّ خليفة ظنّ أنّه أخطأ السمع.

«عفوًا، سيّدي؟»

«أنّ جانسن هو من قتل المرأة العجوز، لطالما شككت في ذلك».

جلس خليفة يحدّق إليه مذهولاً.

قال محفوظ وهو يضحك بضعف: «لم تكن تتوقّع ذلك، صحيح؟»

التفت ينظر نحو الضفّة المقابلة للنهر. هناك، تجمّع قطيع من ثيران الماء التي انحنت فوق النهر لتشرب، وكانت عظام ظهورها تتأرجح يمينًا ويسارًا. مدّ خليفة يده لفرك عنقه محاولاً استجماع أفكاره. أحسّ وكأنّ موجة قويّة ضربته وأربكته.

سأله مغمغمًا: «كنت تعرف؟»

«لم أكن متأكّدًا ولكنّ الدلائل كانت تشير إلى ذلك الاتجاه. القبعة، العصا، منزله الواقع قرب الكرنك. ومسألة قدمه مثيرة للاهتمام أيضًا، لم أكن على علم بها».

تجمّع بعض اللعاب على زاوية فمه فمسحه بكمّ الجلاّبيّة.

«في الواقع كنت أعرف جانسن. لم أكن على صلة وثيقة به ولكن كنت أعرفه. فكلانا يحبّ الحدائق وينتمي إلى جمعيّة البستنة. اعتدنا على الذهاب إلى الاجتماعات نفسها. كان رجلاً رذيلاً وباردًا ولكنّه بارع مع الورود».

تابع وهو لا يزال يحاول مسح بقعة اللعاب: «حين رأيت الآثار على جثّة شليغل وسمعت ما قاله الحارس عن الطائر، بدا لي الأمر مصادفة غريبة، لا سيّما مع موقف جانسن من اليهود وسكنه قرب مسرح الجريمة. إنّها تفاصيل ثانويّة بالطبع ولكن لو تابعنا التحقيق، أنا واثق أنّنا كنّا قبضنا عليه».

خفض ذراعه مجدّدًا وهو يتنفس بصعوبة. سُمع صوت ارتطام جسم بالماء حين حطّت إوزّتان وسط النهر فاردتا أجنحتهما الجميلة. لاحظ خليفة أنّ يديه كانتا ترتجفان.

سأل حائرًا: «ولكن لماذا؟ ما دمت تظنّ أنّ جانسن مذنب، لماذا أدنت جمال؟»

أجاب محفوظ وهو يحدّق إلى الإوزّتين: «لأنّني أُمرت بذلك». ثمّ أضاف بعد صمت وجيز: «كانت أوامر الحكيم».

راود خليفة مجدّدًا ذلك الإحساس أنّ موجة عظيمة ضربته ليتدحرج مرارًا ويخرج كلّ ما حوله عن السيطرة. كان فاروق الحكيم حتّى وفاته العام الماضي رئيس جهاز أمن الدولة.

قال محفوظ بصوت متعب: «لطالما عرفت أنّ هذه القضيّة ستلاحقني، فهذا ما يحدث دائمًا. والآن أشعر بالراحة نوعًا ما لأنّني احتفظت به طويلاً ومن الأفضل إخراجه إلى العلن ومواجهته».

انطلق صوت بوق مرتفع إلى يمينهما خلف التواء في النهر، ثمّ لاح مركب بضائع كبير محمّل بالأحجار الرمليّة وقد شقّت مقدّمته ثلمًا عميقًا في صفحة الماء، مثل إزميل يُطرق فوق سطح خشب أملس داكن. وصل إليهما وتجاوزهما قبل أن يتكلّم محفوظ من جديد.

تنهّد قائلاً بصوت أصبح أقرب إلى الهمس: «عرفت من البداية أنّها ستكون قضيّة صعبة. فهذا ما يحدث حين تدخل السياسة على الخط. قُتلت شليغل بعد أقلّ من شهر من مذبحة الإسماعيليّة، هل تذكر؟ حينها تمّ ذبح سبعة سيّاح إسرائيليين في باص. وحين قُتلت تلك المرأة الإسرائيليّة أصبح موقفنا سيئًا، لا سيّما مع الأميركيين. كانوا على وشك التوقيع على برنامج لمنحنا قرضًا كبيرًا، مليار دولار. وأنت تعرف كيف

هم مع إسرائيل. لكانت قضيّة شليغل نسفت الاتفاق من أساسه. صدّقني، شعر عدد كبير من الأشخاص بالقلق في القاهرة وقد تولّى الحكيم الموضوع شخصيًّا، ومورِس علينا ضغط كبير من أجل إدانة سريعة».

توقّف لالتقاط أنفاسه. كان خليفة يطرق أصابعه على ركبتيه محاولاً استيعاب ما يسمع. افترض في البداية أنّ الأمر يقتصر على سوء تنفيذ عرضي للعدالة. ويبدو له الآن أنّه متورّط في موضوع أكثر تعقيدًا وخطورة.

«ولكن إن كنت تعرف أنّ جانسن مذنب، لماذا طلب منك الحكيم إدانة شخص آخر؟»

لوّح محفوظ بيده قائلاً: «ليست لديّ فكرة. لم أعرف السبب حينها، ولا أعرفه الآن. أخبرت الحكيم عن جانسن ولكنّه قال إن نتركه خارج الموضوع وأنّ جرّه في القضيّة سوف يزيد الأمور تعقيدًا. سوف يضاعف غضب اليهود، ذاك كان رأيه، لو حقّقنا مع جانسن سيزداد اليهود غضبًا. وطلب مني إلباس التهمة لشخص آخر فأدنّا جمال عوضًا عنه».

كان أزيز نفسه يزداد تدريجيًّا، فرفع قناع الأكسجين وأخذ سلسلة أخرى من الأنفاس التي راح معها صدره يرتفع ويهبط ويداه ترتجفان بلا توقّف. اجتاحت خليفة رعشة من الاشمئزاز حين لاحظ أنّ الكيس تحت الجلاّبيّة ينتفخ ببطء إثر البول الذي تدفّق فيه عبر الصمّام في بطنه. سُمع صوت بوق آخر قبل أن يختفي المركب شمالاً خلف التواء آخر في النهر. نزع محفوظ القناع عن وجهه وقال بصعوبة: «لقد غيّرت تلك القضيّة مسار حياتي. حصلت على ترقية، ونُشر اسمي في الصحف، وتلقّيت برقية تهنئة من مبارك. ولكنّها لم تساوِ شيئًا أمام شعور الذنب. ليس بسبب جمال، فالرجل كان نذلاً ويستحق المصير الذي آل إليه، ولكن بسبب زوجته وأطفاله...»

توقّف ورفع يده النحيلة ومرّرها فوق عينيه. فعادت إلى ذهن خليفة ذكر لقائه بزوجة جمال. كان المال يأتي بالبريد. لم يكن يحمل أي ملاحظة أو اسمًا أو أيّ شيء. مجرّد ثلاثة آلاف جنيه مصري، بأوراق ماليّة من فئة المائة جنيه.

قال بهدوء: «أنت من كان يرسل لهم المال».

رفع محفوظ نظره إليه متفاجئًا ثمّ خفض رأسه مجددًا.

«كان هذا أقلّ ما يمكنني فعله، مساعدة تلك العائلة على البقاء على قيد الحياة وتعليم الأطفال. كان مجرّد عمل صغير».

هزّ خليفة رأسه ثمّ وقف وسار حتّى طرف المصطبة يحدّق إلى سرب من الأسماك التي تسبح في مياه النهر.

«هل كان حسّاني يعلم؟»

هزّ محفوظ رأسه قائلاً: «ليس في ذلك الوقت، بل أخبرته لاحقًا بعدما شنق جمال نفسه. كان يحاول حمايتي، لا تحكم عليه بقسوة».

«وماذا عن ملف القضيّة؟ ليس موجودًا في غرفة السجلاّت».

«لقد أحرقه حسّاني، اعتقدنا أنّه التدبير الأنسب. هكذا ننسى القضيّة برمّتها ونتركها في الماضي». ثمّ ضحك بمرارة مضيفًا: «ولكن تلك هي المشكلة مع الماضي، فهو لا يمضي بالفعل بل يبقى معلّقًا هنا وكأنّه علقة تمتصّ دمك. مهما فعلت أو قلت لا يمكنك التخلّص منه أبدًا. لقد حاولت ذلك صدّقني، ولكنّه ظلّ يستنزفني، مثل علقة لعينة».

أشار بضعف نحو فنجان الشاي وبأنّ حلقه جافّ. فتقدّم خليفة وأعطاه الفنجان ولكنّه لم يتمكن من حمله بثبات فاضطرّ خليفة إلى إمساكه بينما انحنى هو وارتشف منه. بعد أن انتهى استند من جديد وبدا خائرًا وعاجزًا وكأنّه دمية من قماش.

همس قائلاً: «كنتُ رجل شرطة جيّدًا، مهما يكن رأيك بي. وهبت أربعين عامًا من عمري لهذا العمل ولم أعد أذكر عدد القضايا التي حللتها. سرقة قطار أسوان، جرائم قتل الجزيرة، جرجس وَهدي، هل تذكره؟ جرجس الجزار، مجرم بتنايا. تولّيت عددًا كبيرًا من القضايا الناجحة ولكن هذه هي القضيّة الوحيدة التي عاشت معي طيلة حياتي. تركتُ مجرمًا يفرّ بفعلته».

بدأ يتعب الآن بسرعة ويخرج نفسه قصيرًا وحادًّا فيما كانت أطرافه ترتعش. تناول قناع الأكسجين وأخذ عددًا من الأنفاس، وقد تقلّص وجهه ألمًا.

تمتم قائلاً وهو يضع القناع جانبًا: «أعد فتح القضيّة، هذا ما تريد أليس كذلك؟ سوف أتحدّث مع حسّاني وكل من يلزم التحدّث معه. لن يؤثّر ذلك فعلاً على أحد، فقد مات الحكيم وجانسن وجمال، ولكنّك سوف تكتشف الحقيقة على الأقلّ. حان الوقت لذلك».

سُمع صوت خطىً مع اقتراب مدبرة المنزل وهي تحمل صينية طبيّة صغيرة.

سأله خليفة: «وماذا عنك؟»

قحّ محفوظ قائلاً: «ماذا عني؟ سوف أموت خلال بضعة أسابيع. وسأرحل على الأقلّ وأنا أعرف أنّني فعلت الشيء الصحيح في النهاية».

رفع قناع الأكسجين وأخذ نفسًا آخر ثمّ استجمع ما بقي فيه من قوّة وأمسك بذراع خليفة هامسًا: «اكتشف الحقيقة. لأجلي، ولأجل زوجة جمال ولأجل الله إن أردت. ولكن كُن حذرًا، فقد كان جانسن رجلاً خطيرًا، يملك أصدقاء في مراكز عالية

وأسرارًا قذرة. سوف أحاول حمايتك ولكن كُن حذرًا».

نظر بعينين تائهتين نحو خليفة ثمّ أغمضهما. حدّق إليه الضابط للحظة قبل أن يحرّر يده ويبتعد متجاوزًا مدبرة المنزل ليعود أدراجه عبر المرجة الخضراء. قبل نصف ساعة كان يصلّي لكي يسمح له محفوظ بإعادة فتح القضيّة. وبعد ما سمعه للتوّ، أصبح يتمنّى لو أنّه لم يفعل.

القدس

لا تذكر ليلى متى أصبحت للمرة الأولى عضوًا في نادي الجالية الأميركيّة للفطور، ولكنّ اجتماعاته الصباحيّة يوم الجمعة كانت موعدًا ثابتًا في مواعيدها الأسبوعيّة. لم يكن ناديًا بالمعنى الدقيق للكلمة، بل أقرب إلى اجتماع للأصدقاء في فندق الجالية الأميركيّة في القدس الشرقيّة لتناول القهوة والكرواسان، بحيث تناقش مجموعة من الصحفيين والمساعدين وصغار الدبلوماسيين – كلّ من يصدف تواجده في المدينة في ذلك الوقت – مواضيع الساعة. ويمتدّ الفطور عمومًا حتّى الغداء، والغداء حتّى موعد الشاي، وبضع مرات في السنة، الشاي حتّى العشاء، الذي تزداد فيه الجدالات سخونة. ففي إحدى المرات قام رئيس مكتب واشنطن بوست بكسر زجاجة شراب على رأس الملحق الثقافي الدانمركي.

وصلت ليلى بعدما تجاوزت الساعة العاشرة بقليل. أبطأت سيرها لإسقاط رسالة في صندوق بريد الفندق ثمّ تابعت طريقها عبر الردهة الحجرية الباردة لتخرج منها إلى الباحة الخلفية المركزيّة المشمسة، بنافورتها الجارية وأحواض الأزهار والطاولات المعدنيّة التي تعلوها مظلاّت قشديّة اللون. كان بعض أعضاء «النادي» المنتظمين قد سبقوها – صديقتها نهى، أونز شينكر من جيروزاليم بوست، سام روجرسون من رويترز، توم روبرتس، الشاب الموظف في القنصلية البريطانيّة الذي يحاول دائمًا التقرّب منها – بالإضافة إلى وجهين جديدين لا تعرفهما، وجلس الجميع تحت شجرة ليمون مزهرة. كانوا غارقين في مناقشة عميقة.

سحبت كرسيًّا وصبّت لنفسها فنجانًا من القهوة السوداء من ركوة موضوعة قربهم على الطاولة. نظر إليها روبرتس وابتسم بعصبيّة ثمّ أشاح بنظره مجدّدًا.

كان روجرسون يقول وهو يمسح رأسه الأصلع بيده: «المسألة برمّتها مجردّ مزحة. إنّها خارطة طريق لا تؤدي إلى أيّ مكان. وما لم تعِ إسرائيل القضيّة المركزيّة، وهي أنّها ألحقت ظلمًا بالفلسطينيين ويتعيّن عليها تقديم تنازلات كبيرة لتعويض ذلك، لن يتوقّف سفك الدماء».

قال شينكر وهو ينفخ دخان سيجارة نوبليس: «سأقول لك ما هي القضيّة المركزيّة اللعينة. العرب ليسوا مهتمين في النهاية بمحادثات سلام، ولا جدوى من تقديم أي تنازلات إن كان كلّ ما يريدونه هو محو إسرائيل عن الخارطة».

قالت نهى: «هذا هراء».

«حقًّا؟ هل تعنين أنّ الملثّم يرغب فجأة بالتفاوض؟ وأنّ حماس ستعترف بحقّ إسرائيل في الوجود؟»

قالت امرأة بدينة وقصيرة تدعى ديبورا زيلون، مساعدة في أسوشيايتد برس: «ولكنّ هؤلاء لا يمثلون الشعب الفلسطيني يا أونز».

«ومن يمثلهم إذًا؟ عباس؟ قريع؟ أشخاص لا يثق بهم معظم الشعب الفلسطيني؟ عرفات، الرجل الذي قُدّم له السلام على طبق من فضّة في كامب دايفيد-»

صرخت نهى قائلةً: «ليس مجدّدًا!»

صرخ شينكر وهو يلوّح بسيجارته نحوها: «عرض عليه باراك سبعًا وتسعين بالمائة من الضفّة الغربيّة لتكون دولته الخاصة، ولكنّه رفض!»

قالت نهى وهي تحملق به: «ما عُرض عليه كان كما تعلم مجموعة من الكانتونات المحاطة بمستوطنات إسرائيليّة غير شرعيّة وبلا حدود دوليّة. هذا بالإضافة إلى جزء من الصحراء استعملتموه مطمرًا للنفايات السامة خلال السنوات العشرين الماضية. كان يستحيل أن يقبل بذلك، لكان مصيره الإعدام».

ضحك شينكر ساخرًا وهو يطفئ سيجارته في المنفضة. أتى نادل يحمل مزيدًا من القهوة وصينيّة كبيرة من الكرواسان، تبعه بعد قليل رجل متقدّم في السنّ يرتدي سترة من التويد ويضع نظارة نصفيّة، سحب كرسيًّا وانضم إلى المجموعة. قدمته نهى على أنّه الأستاذ فيصل بيكال من جامعة القدس، فحيّاهم بيدٍ شوهها التهاب المفاصل.

قال روجرسن متابعًا الحديث: «مع أنّني أكره قول ذلك، إلاّ أنّني أوافق شينكر على رأيه الأخير. لقد أخطأ عرفات. عباس وقريع يتصرفان بشكل صحيح ولكنّهما لا يملكان ما يكفي من المكانة لعقد صفقة فعليّة ونيل تأييد الشعب بأكمله. يحتاج الفلسطينيون إلى زعيم جديد».

قالت نهى ساخرة: «ألا ينطبق ذلك على الإسرائيليين أيضًا؟»

أجاب روجرسن وهو يتناول تفاحة من طبق في وسط الطاولة ويبدأ بتقشيرها بسكينه: «بالطبع، فشارون كارثة كبيرة. ولكنّ هذا لا يغيّر واقع أنّ الأشخاص الموجودين لديكم في السلطة حاليًّا لن يتمكنوا من حلّ الأمور، ليس بشكل دائم».

قالت ديبورا زيلون: «من إذًا؟ لا يملك دحلان ورجوب قاعدة سلطة، وعريقات

ليس بارعًا في حشد حماسة الشعب، أمّا البرغوثي فهو في السجن. ما من أشخاص آخرين».

تناول الأستاذ بيكال قطعة كرواسان قسمها إلى نصفين، وضع أحدهما على طرف الطاولة بينما بدأ بأكل الأوّل.

قال بهدوء وبصوت رقيق ومرتجف قليلاً، وهو يمسح الفُتات عن شفتيه: «هناك صائب مرصودي».

سأل روجرسن: «أتظنّ ذلك؟»

أمال الرجل العجوز رأسه قائلاً: «لمَ لا؟ إنّه شابّ ذكي والشعب يحبّه كما أنّ تاريخه يساعده على ذلك. فهو ناشط سياسي أبًا عن جدّ، زعيم الانتفاضة الأولى، كما يتمتع بما يكفي من البراغماتيّة ليعلم أنّه لا فلسطين حرّة من دون مفاوضات وتسوية».

قال شينكر: «ولكنّ يديه ملوّثتان بالدم اليهودي».

تنهّد بيكال مجيبًا: «في هذا الجزء من العالم ما من شخص إلاّ ويداه ملوّثتان بدماء شخص آخر يا سيّد شينكر. والمهم هو حاضره وليس ماضيه. صحيح أنّ مرصودي هرّب أسلحة إلى غزّة، وصحيح أنّ تلك الأسلحة استعملت من دون شكّ في قتل الإسرائيليين، ربّما الإسرائيليين أنفسهم الذين طردوا عائلته من أرضها وسجنوا أباه وقتلوا أخاه. ولكنّ ذلك مضى الآن وهو اليوم واحد من الفلسطينيين القلائل الذين يملكون الشجاعة لرفض العنف كسلاح للمقاومة. أعتقد أنّ بإمكانه تحقيق شيء».

قالت نهى: «هذا إن بقي على قيد الحياة، فحماس تتوق إلى قطع رأسه».

قال روجرسن الذي تمكن من نزع قشرة التفاحة في لولب واحد: «على هذا الأساس يا أونز يجب أن يكون صديقك المفضّل».

ارتشف شينكر قهوته وأشعل سيجارة نوبليس أخرى وقال: «كلّ منهم أسوأ من الآخر، لا يمكن الوثوق بأيّ منهم».

ضحكت ديبورا زيلون قائلةً: «أصغوا إلى صوت العقل والأمل!»

انتقل الحديث إلى مواضيع أخرى، وتمّ تبادل الآراء بين الحاضرين. كانت الأصوات ترتفع وتنخفض، وتنكسر وتيرتها من وقت إلى آخر بانفجار مفاجئ من الضحك أو الصراخ الذي كان يصدر عادةً عن أونز شينكر. إذ بدا أنّ نقاشه يتراوح بين موقفين لا ثالث لهما، إمّا غاضب أو غاضب جدًّا. دلف أشخاص آخرون إلى الباحة وانضموا إلى المجموعة التي راح عدد أفرادها يزداد إلى أن فاق العشرين، وما كان جدالاً واحدًا تجزّأ تدريجيًّا إلى سلسلة من الأحاديث بين مجموعات أصغر.

أتـى تـوم روبرتـس وجلس بقرب ليلى قائلاً: «مرحبًا، ليلى». وتباطأ لسـانه قليلاً عند حرف اللام الأوّل من اسمها، وهي مشكلة يملكها منذ الطفولة، حين كان يعاني من التأتأة، كما شرح لها مرّة. «كيف حالك؟»

أجابت: «بخير، أعتذر لأنّني لم أعاود الاتصال بك. كنت...»

لوّح بيده مشـيرًا أنّ الأمر غير مهم. كان يكبرها سـنًّا، في أواسـط الأربعينيات. طويل ونحيل، مولع بالكتب، يضع نظارة مسـتديرة ويتصرف بحياء وقلّة ثقة بالنفس. لم يكن غير جذّاب، ولا جذّابًا أيضًا. كان عاديًّا، ولسبب ما كان يذكرها بالزرافة.

«أنـتِ هادئـة جـدًّا اليـوم»، وتأتأ قليلاً عند حرف الجيـم هذه المرّة. «عادةً تردّين لشينكر الصاع صاعين».

ابتسمت وأجابت: «لست في مزاج مناسب اليوم».

«ذهنك مشغول؟»

«يمكنك قول ذلك».

كان أسـبوعها حافـلاً. ففـي اليـوم التالـي للقائها مع نهى كتبـت مقالين ونصف، جيّدين حتّى بالنسـبة إلى معاييرها، تضمّنا لمحة من ألفي كلمة عن باروخ هار-زيون لمجلّة نيويورك ريفيو (ونُشرت في اليوم نفسه). ذهبت بعد ذلك إلى غزّة لكتابة مقال مصوّر عن العنف المنزلي - وهي مشـكلة متعاظمة ونادرًا ما يُعترف بها في الشـارع الفلسـطيني - وبالـكاد حصلـت علـى الوقـت للكتابـة قبـل أن ترسـلها الغارديـان إلى ليماسـول لتغطية مؤتمر عن برامج المسـاعدات الفلسـطينيّة. عادت في سـاعة متأخرة أمس وأمضت نصف الليل في تفريغ الأشـرطة التسـجيليّة، ولم تذهب إلى السـرير إلاّ في الرابعة صباحًا لبضع ساعات من النوم المضطرب.

لم يكن التعب هو الذي يزعجها الآن، بل تلك الرسـالة اللعينة التي لم تتمكن من نسيانها. فقد شغلت فكرها طيلة الأسبوع. أنا أملك معلومات لا تقدّر بثمن لهذا الرجـل فـي نضالـه ضـدّ المحتلّ الصهيونـي... وبالمقابل يمكنني أن أقـدّم لك ما من شـأنه أن يشـكّل بالنسـبة إليك أكبر سـبق صحفيّ في حياتك المهنيّة الناجحة أساسًا... إنّ المعلومات التي أتحدّث عنها هي على صلة وثيقة بالمسـتند المرفق. كلّما فكرت فيها ازدادت قناعة أنّ تقديرها الأوّل كان خاطئًا وأنّ الرسالة لم تكن مزحة ولا محاولة للإيقاع بها، بل مقالة حقيقيّة. ولم تكن تملك دليلاً حسيًّا على ذلك بل مجرّد حدس، كذلك الذي يخبرها أنّ قصّة ما تستحق المتابعة أو أنّ إحدى الشخصيّات التي تقابلها جديرة بالثقة.

فـي الوقـت القليـل الـذي تبقّـى لهـا بيـن كتابة المقـالات والسـفر قامت ببعض

المحاولات لاكتشاف هوية الصبي الذي سلّم الرسالة ولكنّها لم تتوصّل لشيء. أوحت لها بنية الجملة الافتتاحيّة أنّ كاتب الرسالة لا يتكلّم الإنكليزيّة أساسًا ولكنّ هذا كلّ ما توصلت إليه بخصوص هويته (ولسبب ما كانت واثقة بأنّه رجل). أيًّا يكن، قالت الرسالة أنّه سيتصل بها قريبًا، ولكنّها حتّى الآن لم تسمع منه شيئًا.

أمّا بالنسبة إلى الوثيقة المصوّرة، فقد عرضتها على أحد معارفها في الجامعة العبريّة. فقال إنّها قد تكون رمزًا من نوعٍ ما، مع أنّه لم يكن يملك فكرة عن كيفيّة تفكيكه. وحين أجرت بحثًا على الإنترنت عن الحرفين GR، حصلت على عدد هائل من النتائج. مرّت على النتائج الثلاثين الأولى ثمّ توقّفت حين شعرت بأنّها مضيعة للوقت. أحست أنّها أمام طريق مسدود.

«هل يمكنني المساعدة؟»

كان توم روبرتس ينظر إليها منتظرًا الإجابة.

أضاف وهو يسجّل نظرة الارتباك في وجهها: «قلتِ إنّ لديك أمورًا تشغل بالك. أتساءل ما إذا كنت أستطيع المساعدة».

قالت وهي تنهي قهوتها: «أشكّ في ذلك، إلاّ إذا كنت بارعًا في تفكيك الرموز».

«في الواقع لست سيئًا في هذا المجال، أنا هاوٍ نوعًا ما. ما هو السياق؟»

رفعت حاجبيها متسائلة.

«أهو رسالة، وثيقة رسميّة؟»

أجابت ليلى: «أعتقد أنّها رسالة قديمة، ربّما من القرون الوسطى أو أقدم من ذلك. لم أتمكن من معرفة أوّلها من آخرها، إنّها عبارة عن سلسلة طويلة من الأحرف مذيّلة بما يشبه التوقيع في الأسفل، GR».

لوى شفتيه مفكرًا ثمّ هزّ رأسه مشيرًا أنّ الحرفين لا يعنيان له شيئًا.

قال بعد توقّف قصير: «أنا اليوم في عطلة، يمكنني إلقاء نظرة عليها إن أردتِ».

تردّدت لمعرفتها أنّه منجذب إليها ولا ترغب بتعقيد الأمور.

أضاف قبل أن تتمكن من رفض عرضه: «أنا لا أتوقّع أمورًا أخرى، أقسم بشرف الكشافة. أعتقد أنّني بعد ستّة أشهر فهمت الرسالة».

نظرت إليه للحظة ثمّ ابتسمت ووضعت يدها فوق يده قائلةً: «أنا آسفة يا توم، لا بدّ أنّك تظنّني حقيرة فعلاً».

قال وهو يغمزها مبتسمًا: «لأكون صادقًا، هذا جزء من جاذبيّتك».

شدّت على يده وقالت: «سيكون عظيمًا لو ألقيت نظرة عليها، ولكن لديّ شرطًا واحدًا، أن تسمح لي بإعداد الغداء لك».

قال مبتسمًا: «ليتك تملكين رمزًا للتفكيك كلّ يوم. متى يناسبك مجيئي؟»

قالت ليلى وهي تدفع كرسيها وتنهض واقفة: «ما من وقت أفضل من الآن. أظنّ أنّني حصلت على جرعة كافية من شينكر لهذا الأسبوع».

تناول روبرتس سترته ثمّ ودّعا الموجودين. ألقت نهى نظرة متسائلة على ليلى التي أجابتها بهزّة خفيفة من رأسها وكأنّها تقول: «ليس الأمر كما تظنّين». وبينما كانا يعبران ردهة الفندق، ارتفع صوت أونز شينكر خلفهما.

«يهودا ميلان هو آخر شخص يمكنه إنقاذ هذا البلد! بطل حرب أم لا، الرجل ليس سوى عائق لعين».

ارتفع صوت سام روجرسون وهو يصرخ قائلاً: «ما بالك يا أونز؟ ألأنّه قائلاً يعقد صفقة واقعيّة مع الفلسطينيين؟ أناس أمثالك هم العائق!»

«أنت معادٍ للساميّة، روجرسون».

«تبًّا لك! زوجتي يهوديّة، كيف أكون معاديًا للساميّة؟»

«تبًّا لك أنت، روجرسون!»

«لا، تبًّا لك شينكر! تبًّا لك ولعقلك الفاشستي النتن!»

سُمع صوت كراسٍ تجرّ وأطباق تتحطّم، ثمّ ارتفع خليط من الأصوات التي تطلب من الرجلين الجلوس والتوقف عن التصرف كالحمقى. في ذلك الوقت، كانت ليلى وتوم روبرتس قد عبرا ردهة الفندق ومدخله الذي تعلوه قنطرة مكسوّة بنبات البوغينفيليا، فيما راحت أصوات زملائهما في نادي الإفطار تخبو خلفهما شيئًا فشيئًا.

تل أبيب، فندق الشيراتون

«حين يسألني الناس لماذا أعارض عمليةّ السلام المزعومة، لماذا أؤمن بدولة إسرائيل قويّة يحكمها اليهود، لليهود، من دون وجود عربي بيننا، أشعر برغبة بإخبارهم قصّة جدّتي».

استند هار-زيون على ظهر كرسيّه مبتعدًا عن مكبّر الصوت وتناول رشفة من الماء وهو يحدّق إلى ضيوف حفلة الغداء الجالسين أمامه. كان حشدًا جيّدًا، معظمهم من رجال الأعمال وبينهم كثير من الأميركيين. مائة ضيف، مائتا دولار للرأس الواحد،

كان هـذا كثيـر مـن المـال بالنسـبة إلى شـايالاي دافيد. وكان هذا قبـل الوعود بإعطاء هبات خاصة، ما سيؤدي إلى مضاعفة المجموع. لنقل خمسين ألف دولار، كثير من المال.

على الرغم من ذلك، لم يكن يسـتمتع بوقته. فهو لا يسـتمتع أبدًا في مناسـبات كهـذه. البـذلات والأحاديـث المهذبـة والمصافحـات السـعيدة، لم يُخلـق لها. يفضّل أن يكـون فـي سـاحة معركـة كلّ يـوم أو أمام حشـد من العرب الذيـن يعترضون على احتلال منزل آخر من قبل محاربي داوود. فهو يفضّل الحركة. نظر لا إراديًّا إلى المقعد الموضوع إلى يمينه الذي اعتادت أن تجلس عليه زوجته ميريام قبل أن يقضي عليها السـرطان. وعوضًا عن زوجته الأنيقة قصيرة القامة، كان يحتلّ المقعد حاخام عجوز يرتدي شترايمل كبيرًا مزيّنًا بالفرو. حدّق إليه للحظة كأنّه ارتبك لوجوده، ثمّ هزّ رأسه وانحنى نحو مكبّر الصوت ليواصل حديثه.

«ماتت جدّتي، أمّ أمّي، حين كنت لا أزال في العاشـرة من عمري، ولـم أعرفها جيّـدًا بالتالـي. ولكـن حتّـى في السـنوات القليلة التي عرفتها فيهـا، أدركت أنّها كانت امرأة مميّزة. كانت تعدّ طعامًا لذيذًا - بورشـت، سـمك غيفيلتيه، نايدلز. جدّة يهوديّة مثاليّة!»

تردّدت أصداء موجة من الضحك في أرجاء القاعة.

«إلاّ أنّها كانت بارعة في مجالات أخرى أيضًا. كانت تعرف التوراة أكثر من أيّ حاخام عرفتُه - من بعد إذنك».

استدار نحو الحاخام الجالس بقربه الذي ابتسم بشهامة. فانطلقت موجة ضحك أخرى.

«وكانت تغني أفضل من أيّ حازان استمعت إليه. حتّى اليوم، حين أغلق عيني يمكنني سماعها وهي تنشد الكيروفا، كان صوتها رائعًا كصوت عندليب. لو كانت هنا الآن لكانت فتنتكم بصوتها، أكثر منّي بالتأكيد!»

ضحـك الحضـور مـرّة ثالثة وارتفعت بعض الأصوات التي تقول «غير صحيح!» رفع هار-زيون كوبه وتناول رشفة أخرى من الماء.

«كانت امرأة قويّة أيضًا، شجاعة. ينبغي أن تكون كذلك لتتمكن من البقاء على قيد الحياة عامين في غروس-روزن».

هذه المرّة لم يُسمع صراخ ولا ضحك بل تسمّرت الأعين عليه.

تابـع وهـو يضـع رأسـه على الطاولة: «أحببـت جدّتي كثيرًا، فقـد علّمتني الكثير وروت لي قصصًا رائعة وابتكرت لي ألعابًا ممتعة. ولكنّ شيئًا واحدًا لديها كان يسبّب

لي الحزن. فطيلة الوقت الذي عرفتها فيه لم تحتضنّي مرّة واحدة كما تفعل الجدّات. لا سيّما الجدّات اليهوديّات».

هدأ الحضور تمامًا متسائلين إلام تهدف تلك القصّة. كان هار-زيون يشعر بالحكاك في بشرته المشدودة وكأنّه يرتدي سترة ضيّقة مملوءة بالفلفل. مرّر إصبعه حول قبّته محاولاً إرخاءها قليلاً.

«في البداية، لم ألاحظ ذلك. ولكن حين أصبحت أكبر سنًّا بدأ الأمر يؤثّر بي. ظننت أنّ جدّتي لا تحبّني أو أنّني ارتكبت خطأً ما. أردت أن أسألها لماذا لا تحتضنني، ولكنّني شعرت أنّها لا ترغب بالتحدّث عن ذلك، فعدلت عن رأيي. كان الأمر يسبّب لي الحزن والإرباك».

صدر من خلفه صوت سُعال من حارسه آفي. بدا الصوت عاليًا في الصمت الذي خيّم على القاعة.

«لم أعرف حلّ ذلك اللغز الغريب إلاّ بعد وفاة جدّتي. فحين كانت فتاةً شابة، كانت تعيش في شتيتل جنوب روسيا. هناك، كان القوزاقيّون يأتون كلّ سبت ليلاً بعدما يغادرون أماكن السهر. فيحبس اليهود أنفسهم في منازلهم، ولكنّ القوزاقيّين يخلعون الأبواب ويجرّون الناس إلى الشارع، يضربونهم وحتّى يقتلونهم. كان الأمر رياضة ممتعة بالنسبة إليهم. ففي النهاية لم يكن هؤلاء سوى يهود قذرين».

حملقت مئات العين بهار-زيون، فيما جلس الحاخام بقربه يحدّق إلى ركبتيه ويهزّ رأسه بحزن يمينًا ويسارًا.

«وفي إحدى المرّات أخذ القوزاقيّون جدّتي. كانت حينها في الخامسة عشرة من عمرها، فتاة جميلة، شعرها طويلاً وعيناها برّاقتين. لا حاجة لإخباركم بما فعلوا بها في الشارع أمام الجميع. كانوا خمسة. وأرادوا أن يتركوا لها تذكارًا قبل أن يرحلوا، فشوّهوا جسدها».

سرت همهمات رعب في القاعة. إحدى النساء الجالسات على طاولة أمامه رفعت منديلها إلى فمها، فيما همس الحاخام: «يا إلهي».

تابع هار-زيون بهدوء: «لهذا السبب لم تحتضنني جدّتي أبدًا، لأنّها عرفت أنّني سألاحظ ذلك، وكانت تشعر بالخجل. لم تردني أن أعرف ألمها وأن أحزن لأجلها».

توقّف ليسمح لكلماته بإحداث التأثير اللازم. كانت لديه قصص كثيرة في هذا السياق، عن تجاربه الخاصة - المضايقات، الضرب، الفترة التي أمضاها في الميتم وما فعله به الأولاد الآخرون. بدا أنّ كلّ يوم من طفولته ملوّن بالخوف والمذلّة. ولكنّه

فضّل عدم التحدّث عن ذلك. فهو لم يبح بتلك التفاصيل لأحد، ولا حتّى لزوجته ميريام. كانت فظّة ومؤلمة جدًّا، أسوأ من الحروق التي شوّهت جسده وجعلته أشبه بالشمع الذائب. لذا روى قصّة جدّته عوضًا عن ذلك. صحيح أنّها مؤلمة ولكنّها لا تجعله ينهار أمامهم. لا تكشف داخله الذي كان مليئًا بالألم والرعب. كان يشعر أحيانًا وكأنّه غارق في الظلام.

أخذ رشفة ثالثة من الماء وقحّ ليجلي حنجرته ثمّ ختم خطابه وهو يتعهّد أنّ الذي حدث لجدّته لن يحصل مجددًا لأيّ يهودي وأنّه سيفعل ما بوسعه ليدافع عن شعبه ويبقي إسرائيل قويّة.

حين انتهى وقف الحضور يصفّقون. فحيّاهم ثمّ عاد للجلوس، غير قادر على السيطرة على الحكاك الذي يغزو جلده. تقدّم آفي خطوة لمساعدته على دفع كرسيّه، فيما ربّت الحاخام على ذراعه قائلاً: «أنت رجل طيّب، باروخ».

ابتسم هار-زيون بصمت. تساءل ما إذا كان فعلاً كذلك؟ طيّب وسيئ، صحيح وخاطئ - لم يعد لتلك الكلمات أيّ معنى بالنسبة إليه. لم يعد يؤمن سوى بالله وبالصراع على البقاء. هذا ما كان يفعله طيلة حياته، هذا ما كان شعبه يفعله طيلة حياته. استدار بتصلّب ليحدّق إلى المينورا ذات السبعة فروع المرسومة على لوحة خلف طاولته وهو يفكر بليلى مدني والملثّم وكل الباقي قبل أن يستدير مجدّدًا ويبتسم لأحد المصوّرين.

القدس

كانت الساعة مبكرة من بعد الظهيرة حين عبر آرييه بن-روي باب الخليل بسيّارته البيضاء القديمة من نوع بي أم متوجّهًا إلى المدينة القديمة وتوقّف عند الحاجز الحديدي الإلكتروني أمام مخفر شرطة داوود، وهو عبارة عن مبنى من طابقَين من الحجر الأبيض المصفرّ، رفرف خارجه علما إسرائيل والشرطة الإسرائيليّة، بينما ارتفع على سطحه عامود الراديو الطويل وكأنّه شجرة جُرّدت من أوراقها. تعرّف عليه الحارس ففتح الحاجز وأدخله عبر النفق الذي يمرّ وسط المبنى ويؤدي إلى المجمّع الخلفي المحاط بالأسوار، ليركن سيّارته هناك قرب شاحنة بيضاء. رأى خلفه اثنين من الرجال المتخصّصين بتفكيك القنابل يصلحان ذراع رجل آلي، وإلى يمينه كان ثمّة حصان يتمّ ترويضه داخل باحة مسوّرة ومحاطة بشجيرات الدّفل المزهرة.

كان يشعر بالتعب، كعادته معظم الأيام، فقال إنّ عليه أن يغيّر نمط حياته. ولكنّه يقول ذلك دائمًا ولا ينفّذ. فهذا هو الشيء الوحيد الذي يساعده على تخفيف الألم

والنسيان، وإلاّ لكانت حياته لا تُطاق.

جلس في مكانه للحظة وهو يتمنّى لو أنّه في شقّته، بعيدًا عن العالم ووحيدًا مع أفكاره، ثمّ خرج من السيّارة وسار ببطء عائدًا عبر النفق قبل أن يدخل من باب منخفض ويصعد عددًا من الدرجات الحجريّة نحو الطابق الأوّل. كان مكتبه يقع في منتصف ممرّ أبيض الجدران، وكان عبارة عن غرفة صغيرة مزدحمة بالأثاث، مع حاسوب موضوع على طاولة في الزاوية وفوق المكتب إطار فيه صورة له حين كان أصغر سنًّا وأكثر لياقة وهو يتسلّم وسام البسالة. كان قد حصل عليه منذ ثلاث سنوات لإنقاذه حياة فتاة فلسطينيّة من منزل يحترق، وخاطر بحياته وهو يركل الباب الأمامي ويصعد السلّم بين اللهب ثمّ يحملها وينقذها عبر أسطح المنازل. شعر بالفخر حينها، ولكنّه يعتقد الآن أنّه كان مجرّد أحمق وأنّه كان يجدر به أن يتركها تحترق لا بل ويتمنّى لو أنّ المنزل كان يضمّ المزيد منهم.

كان المكتب خاليًا حين وصل فأغلق الباب خلفه وجلس إلى مكتبه قبل أن يرفع قارورته عن خصره ويتناول جرعة كبيرة من الشراب. وبعد رشفة أخرى بدأ الصفاء يعود إلى ذهنه ومزاجه يتحسّن وأحسّ أنّه أصبح جاهزًا للبدء بالعمل.

فجأة فُتح الباب.

قال وهو يخفي القارورة تحت المكتب محاولاً إغلاقها: «ألا تقرع الباب أبدًا يا فيلدمان؟»

لاحظ فيلدمان ما كان يفعله فهزّ رأسه قائلاً: «حبًّا بالله، حتّى إنّه ليس وقت الغداء».

تجاهله بن-روي ودسّ قارورته في جيب الجينز.

«ماذا تعني؟»

«بدأنا بمقابلات تمهيديّة مع الرجال الذين اعتقلناهم الليلة الماضية. ظننت أنّك قد ترغب بتولّي الرجل الذي قبضت عليه».

ابتسم فيلدمان قليلاً وهو يقول: «الذي قبضت عليه»، مذكّرًا بن-روي بمطاردته الفاشلة عبر وادي كيدرون. حقير.

«أين هو؟»

«الغرفة الثالثة. هل تظنّ أنّك تستطيع التعامل معه بمفردك؟»

تجاهل بن-روي السؤال الساخر ثمّ نهض وتناول ملفًّا عن مكتبه وتوجّه نحو الخارج. وضع فيلدمان يده على ذراعه وهو يمرّ من أمامه.

«تمالك نفسك يا رجل. لا يمكنك الاستمرار على هذا النحو».

حلّ صمت قصير ثمّ سحب فيلدمان يده قائلاً: «اسمع، آرييه، أعرف أنّك -»
«أنت لا تعرف شيئًا، فيلدمان. هل تفهم؟ لا تعرف شيئًا».

حدّق بن-روي إلى زميله ثمّ خرج من المكتب وسار عبر الممرّ مقاومًا الرغبة بأخذ جرعة أخرى من الشراب. يبدو أنّه لا يحصل هذه الأيام سوى على الشفقة والتوبيخ، وهو يستطيع تحمّل هذا الأخير ولكن ليس الشفقة، فهي تشعره بأنّه فقد رجولته. كم يتمنّى لو أنّه بقي معها في الساحة تلك الليلة.

نزل السلّم عائدًا عبر النفق. كانت غرف المقابلات خلف باب في الجدار المقابل ولكن عوضًا عن التوجّه مباشرةً إليها، استدار إلى اليسار عائدًا نحو المجمّع، ومن ثمّ إلى اليمين، نحو مبنى زجاجي حديث ملحق بالجزء الخلفي من المخفر، وعبر ردهة باردة خفيفة الإضاءة ليدخل قاعة مراقبة كبيرة تضمّ صفّين من شاشات التلفزيون الملوّنة على أحد جدرانها. كانت كلّ شاشة تنقل صورة مختلفة من المدينة القديمة - الحائط الغربي، باب العامود، الحرم الشريف، الكاردو - مرتبطة بواحدة من شاشات الأمان الثلاثمائة الموزّعة عند كلّ ناصية شارع. كانت الصور تتغيّر باستمرار مع انتقال النظام من كاميرا إلى أخرى، فيما كانت تتحوّل إحداها من وقت إلى آخر إلى اللون البرتقالي لتظهر فيها كلمتا: الكاميرا مطفأة.

كان أمام الشاشات مكتبا مراقبة على شكل نصفي دائرة، أحدهما يدخل في الآخر وكأنّهما فاصلتان معكوستان، ويجلس إليهما ضبّاط يرتدون الزيّ الرسمي. تقدّم بن-روي نحو أحد المكتبين وربّت على كتف فتاة طويلة شقراء الشعر.

قال: «أحتاج إلى بعض المعلومات من الليلة الماضية، داخل باب ستّنا مريم، من نحو الساعة الثانية عشرة إلاّ ربعًا. هزّت الفتاة رأسها وبعد أن أخبرت أحد زملائها أنّها ستترك مكانها لبضع دقائق، قادت بن-روي إلى غرفة جانبيّة وأجلسته أمام حاسوب ثمّ انحنت من فوق كتفه وراحت تضغط على أيقونات مختلفة إلى أن وصلت إلى المعلومات التي يريدها، عن عملية الليلة السابقة.

جلس وشاهد كيف تمّت العملية، وكان يطلب من الفتاة إعادة الشريط أو تقريب الصورة أو اختيار كاميرا مختلفة، وتابع الشاب الفلسطيني الذي طارده من اللحظة التي وصل فيها إلى البوابة مع زملائه الثلاثة وظهور المرسيدس المحمّلة بالمخدّرات حتّى مجيء الشرطة وهروب الرجل من دون أن يلحظه أحد من فوق بوابة في الحرم الشريف ليتسلّق بعدها أسوار المدينة القديمة ويعبر المقبرة الإسلاميّة تحتها، حيث قفز من قبر إلى آخر حتّى وصوله إلى طريق أوفيل.

«حسنًا هذا يكفي. هل يمكنني الحصول على نسخة؟»

اختفت الفتاة الشقراء ثمّ عادت بعد دقيقتين وهي تحمل قرصًا مدمجًا. دسّه في الملف الذي يحمله ثمّ غادر مركز المراقبة وعاد إلى المبنى الأساسي.

كانت غرفة المقابلات الثالثة في القبو، وهي ذات جدران بيضاء وأرض حجريّة ومصباح طويل واحد في السقف. كان الرجل الفلسطيني يجلس إلى طاولة خشبيّة قديمة، مكبّل اليدين وعينه اليسرى متورّمة. سحب بن-روي كرسيًّا وجلس أمامه.

تمتم الرجل وهو يحدّق إلى الطاولة: «أريد محاميًا».

قال المحقّق وهو يفتح ملفه ويضع القرص المدمج جانبًا ثمّ يخرج صفحة مطبوعة تتضمّن محضر الضبط الذي أعدّه في الليلة الماضية: «سوف تحتاج فعلاً إلى محامٍ».

قال وهو يقرأ تفاصيل الشخصيّة في مطلع التقرير: «هاني الحجار هاني جمال، يا له من اسم سخيف».

وضع الورقة جانبًا ثمّ قال: «انظر إليّ».

نظر إليه الشاب بعينين يملأهما الخوف وهو يعضّ شفتيه. بدا صغير الحجم قرب بن-روي، وكأنّه طفل أمام أستاذه.

«سوف تخبرني الحقيقة أليس كذلك يا هاني؟ أريد الحقيقة عن كلّ سؤال».

هزّ الشاب رأسه قليلاً وكانت ساقاه مشدودتين وكأنّهّ يتوقّع هجومًا من تحت الطاولة. حدّق إليه بن-روي مستمتعًا بخوفه ومن دون أن يرفع عينيه، مدّ يده اليسرى ومرّر القرص المدمج عبر الطاولة.

«هذا لك».

حدّق الشاب مرتبكًا وخائفًا.

«كلّ ما حدث الليلة الماضية مسجّل هنا وتعترف به المحكمة. لذا لا تكذب، هل تفهم؟ لا أريد أن أسمع أيّ هراء عن أنّه صدف وجودك هناك وأنّك لم تتاجر بالمخدّرات في حياتك، وإلاّ سأؤذيك. سوف أؤذيك فعلاً».

مدّ يده وأمسك برسغ الشاب وراح يشدّ عليه بقوّة ثمّ حرّره من قبضته وعاد إلى الجلوس قائلاً: «والآن ابدأ بالكلام أيّها النذل».

الأقصر

حين عاد خليفة من إدفو، كان محفوظ قد تحدّث مع الرئيس حسّاني وأخبره بما حدث.

تلقّى النبأ بشكل جيّد، أفضل مما توقّع خليفة بالتأكيد. تمتم في البداية ببعض

العبارات المستاءة وألقى عليه رمقاته المعتادة، ولكنّ الصراخ والضرب على المكتب اللذين كان خليفة يستعدّ لهما خلال رحلة العودة لم يحدثا. على العكس، بدا الرئيس خنوعًا حيال المسألة ككل وقبل بإعادة فتح القضيّة معبّرًا بالكاد عن انزعاجه، وكأنّه لم يعد يملك لا القوّة ولا الرغبة بالمقاومة. لا بل لمح خليفة ارتياحًا عابرًا في عينيه وكأنّه يضع أخيرًا حملاً أثقل كاهله ولم يرغب يومًا بحمله.

قال حسّاني وهو يحدّق إلى نافذة مكتبه، وشعره المستعار ملتصقٌ برأسه وكأنّه كومة من غزل البنات البنيّ اللون: «لنوضح أمرًا هامًا، سوف تكون وحدك في هذه القضيّة، فأنا لا أملك رجالاً إضافيين لتكريسهم لهذا العمل، مفهوم؟»

«حاضر، سيّدي».

«سوف أولي لساريا قضيّة أخرى. وحتّى انتهاء هذا الموضوع، سوف يعمل في مكتب مختلف».

«حاضر، سيّدي».

«ولا أريدك أن تتحدّث عن ذلك في القسم. احتفظ به لنفسك وإن سألك أحدهم اكتفِ بالإجابة أنّ دليلاً جديدًا قد ظهر وأنّك تبحث فيه. لا تعط أي تفاصيل».

«حاضر، سيّدي».

سُمع صوت عربة يجرّها حصان تمرّ في الشارع، وسائقها يصفّر للمارة ويدعوهم للصعود. حدّق حسّاني للحظة ثمّ استدار وعاد إلى مكتبه.

سأل قائلاً: «إذًا، ماذا ستفعل؟»

هزّ خليفة كتفيه وهو يسحب نفسًا من سيجارته ثمّ قال: «سوف أحاول معرفة المزيد عن خلفيّة جانسن على ما أعتقد. سوف أرى ما إذا كان بإمكاني إيجاد شيء يربطه بشليغل، دافع ما لقتلها. كلّ ما عثرنا عليه حتّى الآن يدخل في إطار المصادفة».

هزّ حسّاني رأسه وهو يفتح درج مكتبه ثمّ يُخرج مفاتيح جانسن ويرميها لخليفة.

«سوف تحتاج إليها».

التقط خليفة المفاتيح ووضعها في جيبه.

«سوف أحتاج أيضًا إلى الاتصال بالإسرائيليين لأرى ما إذا كانوا يعرفون شيئًا عن المرأة».

بدا الانزعاج على وجه حسّاني ولكنّه لم يقل شيئًا بل نظر في عيني خليفة للحظات ثمّ ابتعد ببطء عن مكتبه ونهض مجدّدًا متوجّهًا نحو خزانة ملفات في

الزاويـة. انحنـى وفتـح الـدرج السـفلي مخرجًا منه ملفًـا رقيقًا أحمر اللـون. عاد نحو مكتبـه وأعطـى الملـف لخليفـة. كان قـد كُتب على الصفحة الأولـى «2345/ 1 - حنّا شليغل. 10 آذار 1990».

«أعتقد أنّ المعلومات الموجودة فيه لم تعد تفيد الآن، ولكن لا أحد يعلم».

حدّق خليفة إلى الملف قائلاً: «قال محفوظ إنّك حرقته».

أجاب حسّاني غاضبًا: «لست الوحيد الذي يملك ضميرًا كما تعلم».

نظـر مجـدّدًا فـي عينـي خليفة ثمّ صرفه بإشـارة من يده، قبل أن يصرخ في إثره: «وأريد أن أعرف كلّ المستجدات، كلّها!».

القدس

بعد انتهاء الغداء الخيري وتأكّد آفي شـتاينر من عودة هار-زيون إلى مكتبه في مبنى الكنيست في ديريخ روبين، استقلّ باصًا إلى روميما للتحقّق من صندوق بريده. كانـت عينـاه تحومـان بتشـكّك حـول الركاب الآخرين، ليس خوفًـا من احتمال وجود استشهاديّ بينهم - كم سيكون الأمر مثيرًا للسخرية لو انتهى به الأمر في باص واحد مع أحد رجال الملثّم! - بل خوفًا من أن يكون مراقبًا. كانت فرصة ضعيفة، فالموضوع برمته كان سـرًّا عميقًا ومعظم المتورّطين فيه لا يعرفون حتّى بأنّهم متورّطون، ولكنّ الحذر واجب. لهذا السبب يثق به هار-زيون ويلقّبه ها-نيشير، أي النسر، لأنّه حريص جـدًّا ويـرى كلّ شـيء. كان يلقّبـه أيضًـا ها-ني-يمان، أي الوفـي. فقد كان ليفعل أيّ شيء لأجل هار-زيون، أيّ شيء. فالرجل بمقام أبيه.

ترجّـل مـن البـاص عنـد آخر شـارع يافا، ثمّ نظر حوله بريبة قبـل أن يرتقي التلّ نحو قلب روميما، الذي يضمّ ضاحية سكنيّة فقيرة ذات شقق حجريّة صفراء تتخلّلها أشجار الصنوبر والسرو، ثمّ استدار فجأة وسار في الطريق المعاكس ليتأكد بأنّ أحدًا لا يتبعه، قبل أن يدخل أخيرًا محلاً عُلّقت على بابه لافتة كُتب عليها بقول، قرطاسيّة، صناديق بريد خاصة.

لـم يكـن يتحقّـق من بريده بانتظام. فالانتظام يعني الروتين، والروتين يثير الريبة. كان فـي بعـض الأحيـان يعـود بعد يومين من زيارته الأخيرة ويغيب أحيانًا أسـبوعًا أو أسبوعين أو حتّى شهرًا قبل أن يعود مجددًا. فالحذر واجب.

كانت الصناديق معلّقة على جدار في الجزء الخلفي من المتجر، بعيدًا عن أعيُن المالكة، وهي امرأة سفارديّة عجوز يبدو بأنّها لم تبارح مقعدها خلف المكتب الخشبي المنخفض خلال السنوات الثلاث الأخيرة التي كان يزور المحلّ فيها. ألقى نظرة أخيرة

حوله ثمّ أخرج مفتاحًا وفتح الصندوق رقم 13 ليُخرج منه مغلفًا واحدًا دسّه في جيب سترته ثمّ أقفل الصندوق مجدّدًا وخرج. مكث في المحل لأقلّ من دقيقة.

عاد يسير في الشارع في خط متعرّج لبعض الوقت قبل أن يفتح المغلّف. كان في داخله ورقة واحدة كُتب عليها بأحرف كبيرة لتمويه خط اليدّ اسمٌ وعنوان. حفظهما عن ظهر قلب ثمّ مزّق الورقة إلى قطع صغيرة مزجها في يده ورماها في أربع حاويات مختلفة ليعود بعدها إلى شارع يافا ويستقلّ باصًا عائدًا إلى البلدة، وقد غمره الرضى لمعرفة أنّ ما يفعله كان لمصلحة شعبه وبلده.

القدس

كانت الساعة قد بلغت الخامسة مساءً وكان توم روبرتس لا يزال منحنيًا فوق مكتب ليلى محاطًا بقطع صغيرة من الأوراق ولم يتوصل على ما يبدو لأي خيط يساعده على حلّ رموز الوثيقة على الرغم من الساعات الستّ التي أمضاها في البحث.

كانا قد عادا من فندق الجالية الأميركيّة معًا، وبعد أن أعدّت له ليلى فنجانًا من القهوة، أعطته الوثيقة المصوّرة بعد أن فصلتها عن الرسالة (فشأنها شأن معظم الصحفيين كانت تعتمد قاعدة عدم كشف معلومات أكثر مما ينبغي).

سألها وهو يحدّق إلى الوثيقة ويقلّب ربطة عنقه بين أصابعه: «ولا تملكين فكرة عن مصدرها؟»

«إطلاقًا، فقد وصلتني عبر البريد. لا أعرف عنها أكثر مما تعرف».

قلب الورقة وحدّق إلى الصفحة الخلفيّة البيضاء ثمّ قلبها مجدّدًا وهو يزم عينيه خلف النظارة. بيده الأخرى أخذ يحكّ بقعة صغيرة من الإكزيما على الجزء الخلفي من عنقه، فوق قبّة قميصه تمامًا.

«من الصعب التأكدّ من دون فحص الوثيقة الأصليّة، ولكنّني أظنّ أنّها ترجع إلى القرون الوسطى، أوائل القرون الوسطى، من أحد أشكال الكتابات القديمة».

لاحظ النظرة المتشكّكة على وجه ليلى فأضاف: «لقد درست تلك الفترة من أجل رسالة الدكتوراه، فالمرء يطوّر حدسًا لهذه الأمور».

ابتسمت قائلةً: «لم أكن أعرف أنّك دكتور روبرتس».

«أنا لا أتحدّث عن هذه الأمور. فالقضاء اللاتيني في بدايات القرون الوسطى ليس موضوعًا مشوّقًا للحديث».

ضحكت والتقت أعينهما للحظة قبل أن يبعد عينيه عنها مربكًا.

تابع قائلاً: «على كل حال، إن افترضنا بأنّ النص يرجع إلى بدايات القرون الوسطى لن يكون من الصعب اكتشاف معناه. فالكتابات الرمزيّة كانت بدائيّة في تلك الأيام، ولم تكن آلات حلّ الألغاز متوفرة. لنرَ ماذا يمكننا أن نفعل».

قادته ليلى إلى مكتبها فخلع سترته وأرخى ربطة عنقه وبدأ العمل عبر نقل سلسلة الأحرف إلى ورقة منفصلة بحيث يتمكن من قراءتها بوضوح.

«لا نعرف ما هي اللغة التي كُتب بها النص، مع أنّها إن كانت من القرون الوسطى، فهي على أغلب الظنّ إمّا لاتينيّة أو يونانيّة. لنترك الآن هذه النقطة جانبًا ونركّز على الحساب».

رفعت حاجبيها متسائلة: «وما معنى ذلك؟»

«هي أساسًا الطريقة التي استُعملت لكتابة الرسالة بالرموز. فكما سبق وقلت لم يكن علم الرموز متطوّرًا في أوائل القرون الوسطى، على الأقلّ ليس في أوروبا. كان العرب حينها متقدّمين عليهم بأشواط، كما كانت حالهم في كثير من المجالات في ذلك الزمن. على كل حال، من المحتمل كثيرًا أن يكون الحساب هنا بسيطًا، ويعتمد إمّا على شيفرة الاستبدال أو النقل».

رفعت ليلى حاجبيها من جديد وقالت: «توم، تحدّث إليّ بلغة أفهمها».

ابتسم قائلاً: «عفوًا، من عيوبي الكثيرة أنّني أفترض دائمًا بأنّ الناس مهتمّون بنفس الأمور التي تثير اهتمامي. شيفرة الاستبدال هي حين تبتكرين ألفباء جديدة باستبدال الأحرف المعروفة بأحرف أو رموز أخرى».

كتب أحرف الألفباء على ورقة ثمّ كتب تحتها ألفباء أخرى بُعثرت فيها الأحرف بحيث حلّ حرف «ز» محل حرف «ي»، «ب» محل «أ»، «س» محل «ب»، إلخ.

«ثمّ تكتبين الرسالة الأصليّة عبر استبدال كلّ حرف منها بالحرف الذي يقابله في الألفباء الجديدة. هكذا تُكتب كلمة قطّ مثلاً: شم، أو ليلى: كزكب. أمّا النقل فيقوم على إعادة ترتيب أحرف النص الأصلي استنادًا إلى نظام محدّد مسبقًا. هل توضّحت الصورة؟»

ضحكت ليلى قائلةً: «قليلاً».

قال وهو يضع الرسالة التي نقلها أمامه ويحدّق إليها بينما راح يطرق بقلمه على نظارته: «هذا يكفي في الوقت الحاضر. نحن نحتاج الآن إلى اكتشاف النظام الحسابي ومن ثمّ معرفة المفتاح أو الصيغة التي استعملت لكتابة الشيفرة. قد تكون المسألة مقتصرة على تحويل قيصري بسيط، أو تكون أكثر تعقيدًا. وفي هذه الحالة سيتعيّن علينا تحليل التواتر».

لـم تتكبّـد هـذه المـرّة عناء طلب أي تفسـير، بل هزّت رأسـها بمرح وهي تربّت على كتفه قبل أن تغادر الغرفة متوجهة نحو المطبخ لإعداد غداء خفيف من الفليفلة المحشية والجبن والسلطة. تناولا الغداء بعد ساعة، ولم يكن قد أحرز أيّ تقدّم.

قال وهو ينزع نظارته ويفرك عينيه: «أنا واثق بأنّها شـيفرة اسـتبدال عاديّة تعتمد على ألفباء واحدة، وليست نقلاً، ولكنّني أعجز عن حلّها لسوء الحظ. تبدو أكثر تعقيدًا مما ظننت».

تحدّثـا عـن عملـه فـي القنصليّـة ومهنتها في الصحافة، وعـن الوضع الحالي في الشـرق الأوسـط، مجردّ ثرثرة. سـألها عن صورة والدها المعلّقة فوق المكتب ولكنّها غيّرت الموضوع بسرعة، غير راغبة بخوض حديث شخصي وكشف شيء عن نفسها. بعد أربعين دقيقة عاد إلى المكتب وراح يعمل مجدّدًا على الوثيقة الغامضة.

والآن مرّت أربع ساعات، وأعلنت ساعة المدينة القديمة الخامسة مساءً من دون أن يتوصل إلى شـيء. تنهّد بعمق واسـتند إلى ظهر كرسـيّه وقد عقد يديه خلف عنقه وبدا المكتب أمامه شبه مكسوّ بقطع الأوراق.

هزّ رأسه متمتمًا: «ربّاه!»

كانـت ليلـى قـد أمضـت بعد الظهيـرة مكوّرة على الأريكة تعمـل على مقال عن مؤتمر المساعدات الفلسطينيّة الذي حضرته في ليماسول، فنهضت ووقفت بقربه.

«دع عنك توم، لا بأس».

قال وهو ينزع نظارته ويلمع عدستيها بطرف ربطة عنقه: «لا أفهم، شيفرات تلك الفترة هي مجرّد لعبة أطفال».

مازحته قائلةً: «ربّما ليست شيفرة استبدال عاديّة تعتمد على ألفباء واحدة»، من دون أن تفهم العبارة فعلاً بل لمجرّد إضفاء شيء من المرح.

لم يقل شـيئًا بل أنهى تنظيف العدسـتين ثمّ أمسـك الورقة التي نقل عليها النص بعيدًا عنه وحدّق إليها بينما راح يهزّ ركبته من الأعلى إلى الأسفل تحت الطاولة.

تمتم لنفسـه: «لا بدّ أنّها شـيفرة بسـيطة، أعلم أنّها شـيفرة بسـيطة ولكنّني أعجز عن رؤيتها».

رمـى الورقـة علـى الطاولة، ثـمّ انحنى، وأخذ مجموعة أخرى من الأوراق وراح يقلّبها وهو يطرق بقلم الرصاص على ذراع الكرسي. انشغل يحدّق إلى إحدى الأوراق لدقيقـة تقريبًـا وكانـت عينـاه تروحـان وتجيئان فوق سـطر من الأحـرف المبعثرة، قبل أن يضعهـا جانبًـا مـن جديـد ليعود إليها بعد قليل ويحـدّق إليها بتمعّن أكبر. أصبحت طَرقـات القلـم أكثـر بـطءًا ثمّ توقّفت وتوقّف معها عن هزّ ركبته. أمسـك الورقة بعيدًا

عنه وهو يعض شفته السفلى، ثمّ وضعها أمامه على الطاولة وتناول صفحة بيضاء من كومة أوراق على الأرض وبدأ يكتب ببطء في البداية ومن ثمّ بسرعة أكبر، وكانت عيناه تتنقّلان بين الورقة التي يحملها وتلك التي يكتب عليها. بعد ثلاثين ثانية، بدأ يقهقه.

سألته: «ماذا؟»

«ليلى المدني، أنتِ عبقريّة!»

انحنت من فوق كتفه محاولةً أن تقرأ ما كان يكتب.

«هل نجحت في حلّها؟»

«كلاّ يا ليلى، أنتِ من نجح في حلّها. كنتِ على حقّ، فهي ليست شيفرة استبدال، أو على الأقلّ ليست شيفرة استبدال وحسب. من كتبها استعمل الاستبدال والنقل. فمن السهل حلّ كلّ من النظامين على حدة، ولكنّهما يجعلان النص أكثر إرباكًا معًا، لا سيّما وأنّ الرسالة الأصليّة مكتوبة بلاتينيّة القرون الوسطى، كما ظننت».

واصل الكتابة وهو يتحدّث ثمّ استند وأراها ما كتب.

G. esclarmondae suae sorori sd

temporis tam paucum est ut mea inventio huius magnae rei post maris transitum sit narranda. nunc satis est dicere per fortunam solam eam esse inventam; nec umquam inventa esset nisi nostri labores latebram caecam illuminavissent. quam ad re mitto ut in C. tuta restet. hic autem tanta est stultitia et fatuitas ut necessario peritura sit; quod grave damnum esset nam res est antiquissima ac potentissima ac gratissima. ante finem anni jerusalem exibo. cura ut ualeas. Frater tuus.

GR

شرح قائلاً: «في البداية كتبوا الرسالة مستعملين شيفرة التحويل القيصريّة البسيطة».

تناول صفحة بيضاء أخرى وكتب عليها الألفباء كما سبق وفعل من دون الحرفين J و W (لم يكونا مستعملين في ألفباء أوائل القرون الوسطى، كما شرح لها). ثمّ كتب تحتها ألفباء أخرى بعد أن نقل جميع الأحرف مسافة خمسة أحرف إلى اليمين.

«وهذا ما أعطاه - أفترض أنّه رجل - المستوى الأوّلي للكتابة الرمزيّة. هكذا تغيّرت الكلمتان الأوليان من G. esclarmondae إلى b. znxfumgihyuz».

بدا متحمّسًا وسعيدًا بنفسه وكأنّه عالم يشرح اختراعًا جديدًا.

«ولكنّه بعد ذلك، وهذا ما أربكني نقل الحرفين الأوّل والثاني من الرسالة المشفرة، والثالث والرابع، والخامس والسادس، وهكذا دواليك حتّى آخر النص. هكذا حلّت b محلّ z, n محلّ x, f محلّ u، إلخ. إنّها نقل بأبسط أشكاله ولكن بما أنّه لم يُستعمل بمفرده بدت الرسالة مربِكة نوعًا ما. وحين قلتِ إنّهم لم يستعملوا الاستبدال ربّما، بدأت أشكّ في أنّ شيئًا ما قد فاتني».

نظر إليها مبتسمًا وبدا حماسه معديًا، فانحنت وطبعت قبلة على خدّه. قال ضاحكًا: «يا لروعة فكّ الرموز!» سألته وهي تتناول النصّ الذي كتبه: «إذًا، ماذا يعني؟ أم أنّ الترجمة لم تكن جزءًا من الصفقة؟»

زمّ حاجبيه ساخرًا وقال: «في الواقع أنا أطلب عادةً مبلغًا إضافيًّا على هذه الخدمة، ولكن بالنسبة إليك...»

ضحكت وأعادت إليه الورقة قائلةً: «هيّا د. روبرتس، أطلب ما تريد».

أخذ منها الورقة.

«في الحقيقة لغتي اللاتينيّة ليست جيّدة. فأنا لم أستعملها منذ وقت طويل».

«أؤكد لك أنّها أفضل من لاتينيّتي. تفضّل».

استند إلى ظهر كرسيّه وعدّل نظارته وبدأ يترجم ببطء ويتوقّف من وقت إلى آخر للتفكير في كلمة غير مألوفة مضيفًا بعض التعليقات بين السطور مثل «أظنّ أنّه يعني» أو «أنا أعيد صياغة الجملة هنا» أو «قد أكون مخطئًا». أمّا ليلى فتناولت ورقة بيضاء وانحنت بقربه فوق المكتب تدوّن ما يقول.

بدأ قائلاً: «ج.، إلى شقيقته إسكلارموند، تحيّاتي. Sd تعني salutem disit أي مرحبًا. الوقت قصير، لذا سأروي لكِ كيف وصلني هذا الشيء العظيم بعد عودتي من وراء البحار. يكفي القول إنّه تمّ العثور عليه صدفة، وربّما ما كنّا لنجده لو أنّ عملنا لم يكشف بالصدفة مخبأه السرّي. أُرسِله لكِ الآن وأنا على يقين أنّه سيكون بأمان في C. لدينا هنا كثير من الجهل والفوضويّة بحيث إنّه سيدمَّر بكلّ تأكيد، وتلك ستكون خسارة مؤلمة لأنّه شيء قديم يمتاز بكثير من القوّة والجمال. سوف أغادر القدس قبل نهاية العام. أتمنّى أن تكوني بصحة جيّدة. شقيقك، ج. ر.».

أنهت ليلى كتابة الترجمة ثمّ جلست على طرف المكتب وقرأتها. مهما يكن ما توقّعته من هذه الوثيقة، إلاّ أنّها لم تكن تتوقّع ذلك. كانت أشبه بلغز.

سألته: «هل لديك فكرة عن معنى ذلك؟»

تناول روبرتس الورقة منها وقرأها ثمّ قال بعد صمت طويل: «إنّها غير عاديّة بالتأكيد. ولو أخذنا بالاعتبار عبارتي القدس ووراء البحار أعتقد أنّها كُتبت خلال

الحروب الصليبيّة، مع أنّها مجرّد ظنون».

سألته: «ومتى كان ذلك بالضبط؟ فتاريخ الصليبيين ليس من مجالات خبرتي».

أجاب وهو يحكّ عنقه: «لا أعرف أنا أيضًا، لنرَ. خلال الحملة الصليبيّة الأولى تمّ الاستيلاء على القدس من العرب عام 1099. في ما بعد قامت دولة صليبيّة في الأراضي المقدّسة خلال المائتي عام التالية حتّى نهاية القرن الثالث عشر على ما أظنّ، مع أنّ صلاح الدين استرجع القدس عام» - توقّف للحظة مفكرًا - «1187 على ما أظنّ. أجل 1187، بعد معركة حطّين. بذلك تكون هذه الرسالة قد كُتبت قبل هذا التاريخ، بين عامي 1099 و1187، هذا ما أظنّ. مع أنّ ما قلته قد يكون مجرّد هراء».

وضع الترجمة على المكتب ثمّ نزع نظارته وبدأ يلمع العدستين مجدّدًا.

أضاف: «للمناسبة، كانت مملكة الصليبيين تُسمى outremer، أي ما وراء البحار».

حدّقت ليلى إلى الرسالة الغامضة وقالت: «أنت تظنّ إذًا أنّ من كتب هذه الرسالة كان صليبيًّا؟»

«حسنًا، ليس محاربًا صليبيًّا بالتأكيد، فمعظمهم كانوا أمّيين. ولكنّ معرفة هذا المدعو ج. ر. للاتينيّة وكونه متعلّمًا بما يكفي لكتابتها بالرموز، توحي أنّه إمّا نبيل أو كاتب أو من رجال الدين».

أمسك بنظارته يتفحّصهما ثمّ وضعهما من جديد.

«إسكلارموند هو اسم فرنسي من القرون الوسطى، ولم يكن يُستعمل على حدّ علمي إلاّ في منطقة لانغدوك، ومن المرجح بالتالي أن يكون ج. ر. من تلك المنطقة هو الآخر. أمّا من يكون وما هو ذاك الشيء القديم الذي عثر عليه، فلا فكرة لديّ. الأمر مثير للاهتمام من دون شكّ».

سألته ليلى وهي تشير إلى حرف في النص: «وماذا عن C؟»

«يُفترض أنّه اختصار لاسم المكان، ولكن...»، هزّ كتفيه وكأنّه يقول «من يعلم؟»

«وهل الرسالة حقيقيّة؟ ليست مزوّرة؟»

هزّ كتفيه مجدّدًا من دون تعليق.

«لا يمكنني معرفة ذلك يا ليلى من دون الرسالة الأصليّة. وحتّى لو كانت موجودة، ليس ذاك من مجال اختصاصي. يتعيّن عليك عرضها على خبير، خبير في الكتابات القديمة أو ما شابه ذلك».

ابتسم معتذرًا وأضاف: «أعتقد أنّ فائدتي بدأت تنفد بسرعة».

قالت وهي تمدّ يدها وتشدّ على كتفه: «على الإطلاق، كنتَ رائعًا».

نظّفا المكتب من جميع الأوراق ورمياها في سلّة المهملات ثمّ عادا إلى غرفة الجلوس. فكرت ليلى في أن تقدّم له شرابًا ولكنّها غيّرت رأيها. وبدا أنّه شعر بتردّدها لأنّه قال إنّ الوقت قد حان للذهاب.

قالت وهي تفتح له الباب: «أعجز عن التعبير لك عن امتناني يا توم، لقد ساعدتني كثيرًا».

ابتسم قائلاً: «لقد استمتعت بذلك حقًّا، كان تحدّيًا ممتعًا. كما كان الغداء ممتازًا».

خرج نحو السلّم.

«ليلى، أعلم أنّني قلت أنا لا أتوقّع أمورًا أخرى، وقد علمت ذلك، ولكنّني أتساءل... لا أريد إزعاجك، ولكن هلاّ...»

بدا متوترًا وهو يتعثّر بكلماته. تقدّمت ليلى وقبّلته على خدّه.

قالت مبتسمة: «أحبّ الخروج معك للعشاء، هل يمكنني الاتصال بك؟»

ابتسم قائلاً: «بالطبع، هذا عظيم. سوف أنتظر اتصالك».

نزل السلّم فرحًا بينما أغلقت الباب واستندت إليه. كانت تكذب بالطبع، فهي لا تنوي الاتصال به. ليس قريبًا على كل حال. كلّ ما تريده الآن هو اكتشاف المزيد عن الرسالة الغامضة. تمتمت وهي تنظر إلى الترجمة التي تحملها في يدها والتي لم تعد تشغل ذهن توم روبرتس الآن: «من أنت يا ج. ر.؟ من أنت بحقّ الله؟ ماذا وجدت؟ ومن أرسلك إليّ؟»

القدس

في المساء، قاد بن-روي سيّارته عائدًا إلى شقّته الوضيعة، الوحيدة، المؤلّفة من غرفة نوم واحدة في روميما. استحمّ ووضع بعض العطر ثمّ توجّه سيرًا على الأقدام إلى شقّة أخته شافا لتناول عشاء السبت.

كان مساءً معتدلاً، سماؤه زرقاء صافية ونسيم خفيف يهبّ من الشمال. كانت الشوارع هادئة وساكنة على غير عادتها، بعد أن آوى الناس إلى بيوتهم ككلّ يوم سبت. مرّ بمجموعة من اليهود الحريديين العائدين بسرعة إلى منزلهم من الكنيس، وكانت خصل شعرهم الجانبيّة تهتزّ صعودًا ونزولاً. كما مرّ بصفّ من الجنديّات اللواتي يضحكن ويدخنّ السجائر، وأسلحتهنّ تتمايل فوق سيقانهنّ الرشيقة المكسوّة بالرداء

كاكي اللون. باستثناء ذلك كانت المدينة خالية، وكان يحبّ هذا الفراغ والسكون. كان يجد فيه نقاءً، وكأنّ كلّ ما حدث من قبل قد انمحى وخلّف مدينة جديدة وبداية جديدة. تمنّى لو أنّ هذا السكون يدوم إلى الأبد.

كانت شقّة شافا تقع قريبًا من المدينة الجديدة، في شارع ها-معلوت، وهو شارع مظلّل بالأشجار يقع في قلب القدس الغربيّة. حين وصل إلى المبنى أصفر اللون تناول جرعة من الشراب من قارورته قبل أن يضغط على زرّ الهاتف الداخلي قرب الباب الزجاجي. سمع بعد قليل صوت ابنها شيم.

«خالي آرييه؟»

أجاب بلكنة أميركيّة: «كلاّ، أنا الرجل العنكبوت».

ساد الصمت حين راح الصبيّ يفكر في ذلك قبل أن ينفجر ضاحكًا: «أنت لست الرجل العنكبوت، أنت خالي آرييه! تعالَ بسرعة!»

سمع أزيزًا قبل أن يُفتح الباب. عبر بن-روي البهو مبتسمًا ثمّ استقلّ المصعد إلى الطابق الرابع وتناول أثناء ذلك حبّة من سكاكر النعناع.

كان يستمتع بأمسيات السبت عند شقيقته. كانت تلك واحدة من المناسبات الاجتماعيّة القليلة التي يستطيع تحمّلها هذه الأيام - هو وشافا وزوجها شيمون ولداهما شيم وإيزير. أمّا العنصر الديني فلم يعد يعني له شيئًا الآن. فبعد موت غاليا بدا أنّ إيمانه الذي كان يشكّل جزءًا مركزيًّا من وجوده قد انهار إلى حدّ أنّه مضى عليه ما يقرب من عام منذ أن زار لآخر مرّة شول، حتّى في عيد الفصح وروش هاشانا ويوم كيبور، وذلك للمرّة الأولى في حياته.

كلاّ في الواقع، لم يكن الدين هو الذي يجعل أمسيات يوم السبت مميّزة بالنسبة إليه، ولا حتّى التواجد مع العائلة، مع أنّ هذا مهمّ بالطبع. كانت المتعة التي يجدها في الواقع بسيطة، وتتمثّل بالتواجد مع أشخاص سعداء وقادرين على الضحك، يرَون العالم مليئًا بالنور والأمل وليس كتلة من الألم والارتباك كما هو بالنسبة إليه. كانوا عائلة سعيدة، دافئة، حميمة. وتواجده معهم يساعده، إن لم يكن على النسيان، على الأقلّ على عدم التفكير كثيرًا.

فُتح باب المصعد وخرج إلى المدخل. ركض نحوه شيم البالغ الرابعة من عمره وشقيقه الأكبر إيزير.

«هل قبضت على قتلة اليوم يا خالي آرييه؟»

«هل تحمل مسدسك معك؟»

«هل ستأخذنا للسباحة الأسبوع القادم؟»

«إلى حديقة الحيوانات! إلى حديقة الحيوانات!»

ضمّ الطفلين وحملهما إلى الشقّة ثمّ أغلق الباب خلفه بقدمه. كان صهره شيمون رجلاً بدينًا وقصير القامة ذا شعر أجعد، يصعب التصديق أنّه مظلّي حائز على أوسمة. خرج من المطبخ وهو يرتدي إزارًا حول خصره ورائحة الدجاج المشوي تفوح خلفه.

قال وهو يضغط على كتف بن-روي: «هل أنت بخير؟»

هزّ بن-روي رأسه وهو يضع الطفلين على الأرض. ركضا نحو غرفتهما وهما يضحكان ويقلّدان أصوات الرصاص.

«أين شافا؟»

«تُشعل الشموع مع سارة».

قطّب التحرّي جبينه، فهو لم يتوقع وجود شخص آخر.

شرح له شيمون قائلاً: «إنّها إحدى صديقاتها. كانت تزورنا اليوم فدعوناها على العشاء».

استرق النظر إلى الممرّ ثمّ خفض صوته وقال: «جميلة حقًّا، وعزباء!»

غمزه واختفى في المطبخ لإحضار الشراب. تجوّل بن-روي في الممرّ نحو غرفة الجلوس واسترق نظرة إلى غرفة الطعام أثناء مروره. كانت شقيقته، وهي امرأة طويلة القامة عريضة الردفين ذات شعر قصير، منحنية فوق الطاولة تبارك شموع السبت. إلى جانبها كانت تقف امرأة أخرى أقصر قامة وأكثر رشاقة، ذات شعر بنّي يتدلّى حتّى خصرها تقريبًا، ترتدي التشينو تحت قميص بيضاء وتنتعل صندلاً. رأته فابتسمت. نظر بن-روي في عينيها للحظة ثمّ تابع سيره إلى غرفة المعيشة من دون أن يردّ لها الابتسامة، وتناهى إليه صوت أخته وهي تتلو مباركة السبت التقليديّة.

"Baruch ata Adonai, eloheinu melech ha'olam, asher kid'shanu
b'mitz'votav v'tzivanu l'hadlich ner shel Shabbat"

انضمّ إليه شيمون بعد قليل وقدّم إليه كأسًا كبيرة من الشراب. ثمّ أتت المرأتان واحتضنته شافا قائلة وهي تقبّله على خدّه: «كم أحبّ هذا العطر. أقدّم لك سارة».

ابتعدت مشيرة إلى صديقتها التي ابتسمت ومدّت يدها قائلةً: «أخبرتني شافا الكثير عنك».

سلّم بن-روي عليها متمتمًا بتحيّة ولم يبذل الكثير من الجهد ليكون مهذّبًا. شعر بأنّ وجود المرأة يسبّب له الاضطراب، كان يحبّ الجلوس مع عائلته من دون غرباء. هكذا يكون على سجيّته ولا يحتاج إلى بذل مجهود. الآن وبوجود شخص غريب

ضاعت حميميّة الأمسية وأُفسدت حتّى قبل أن تبدأ. بدأ يتمنّى لو أنّه لم يأتِ.

قالت شقيقته ممازحة وهي تشير برأسها إلى ناحية بن-روي: «لا تقلقي، إنّه مثال عن الصابرا. انتظري حتّى التحلية لتريه على حقيقته».

ابتسمت المرأة الشابة من دون قول شيء. أمّا بن-روي، فعبّ شرابه في جرعتين طويلتين.

تبادلوا المزاح لبضع دقائق، ثمّ استأذنت شافا، وعادت إلى المطبخ لإلقاء نظرة على العشاء. تبعها بن-روي بحجّة ملء كأسه.

سألته حين أصبحا بمفردهما: «إذًا، ما رأيك؟»

«ماذا تعنين، رأيي بماذا؟»

«بسارة أيّها الأحمق. أليست جميلة؟»

هزّ بن-روي كتفيه وهو يصبّ كأسًا أخرى من الشراب من زجاجة على الطاولة.

«لم ألاحظ».

أجابت شقيقته وهي تضحك وتفتح الفرن للتحقّق من الدجاجة الكبيرة التي كانت تُشوى بداخله: «صحيح».

تقدّم بن-روي ورفع غطاء قدر، واشتمّ محتواها التي كانت تغلي على الفرن. حساء نايدلاخ الدجاج، المفضّل لديه.

قالت شافا وهي تضيف الزبدة إلى الدجاج: «إنّها فتاة طيّبة. مرحة، ذكيّة، لطيفة وعزباء».

قال بن-روي وهو يغمس ملعقة في القدر يرتشف بعض الحساء: «هذا ما قاله لي شيمون». ضربته شافا على يده وأعادت الغطاء.

«أعلم ما تفكر فيه، آرييه. أنا لا أحاول التدخّل بحياتك-»

«بل تفعلين، اللعنة!»

«صندوق الزيداكا! أنت تعلم أنّنا لا نشتم في هذا المنزل».

تمتم بن-روي معتذرًا ثمّ أخرج من جيبه قطعة نقديّة معدنيّة من فئة خمس شيكلات وأسقطها في صندوق الصدقة المعلّق على حاجب النافذة.

كرّرت شافا: «أنا لا أحاول التدخّل بحياتك، أنّ أعتقد وحسب-»

«ماذا؟ أنّ الوقت قد حان لأتعرّف على شخص آخر؟»

ابتسمت شافا ثمّ تقدّمت وأحاطت عنقه بذراعيها قائلة: «آرييه، أرجوك، ابتهج

قليلاً. لا أحتمل رؤيتك هكذا، لا أحد منّا يحتمل ذلك. أنت حزين جدًّا ومعذّب، ما كانت غاليا لتريد ذلك. أنا أعلم، كانت لتريدك أن تبدأ حياةً جديدة، أن تكون سعيدًا».

تركها بن-روي تحتضنه قليلاً ثمّ دفعها وتناول جرعة من شرابه.

«أختي، دعيني أتعامل مع هذا الموضوع بطريقتي. أحتاج إلى الوقت، هذا كلّ ما في الأمر».

«لا يمكنك أن تحزن عليها طيلة حياتك، آرييه. عليك أن تتابع حياتك. في أعماقك، أنت تعرف ذلك».

أنهى شرابه وشعر بشيء يتسلّق بداخله.

«سوف أحزن عليها ما طاب لي ذلك، شافا. تبًّا، هذا شأني وحدي».

هذه المرّة لم يعتذر على الشتيمة ولم يُسقط قطعة نقديّة في الصندوق. بل أعاد ملء كأسه وتوجّه نحو باب المطبخ. فأمسكته شقيقته بذراعه.

«حاول على الأقلّ أن تكون مهذّبًا، آرييه. أرجوك، حاول على الأقلّ أن تكون لطيفًا».

نظر إليها، كانت عيناها دامعتين ومتوسلتين، فهزّ رأسه وسار في الممرّ.

تجمّعوا بعد عشرين دقيقة في غرفة الطعام. ارتدى الرجلان والولدان اليرمولك وتلى شيمون الكيدوش أمام كأس من الشراب، تناول كلّ منهم رشفة قبل أن يبدأوا بالطعام. وأصرّ إيزير وشيم على الجلوس إلى جانبَي بن-روي.

قال إيزير: «أنت مقبوض عليك خالي آرييه. نحن حرّاسك».

كان مزاج بن-روي قد تحسّن قليلاً بفعل الشراب.

قال: «حسنًا، ولكن تذكّرا، إن كنتما حارسَين جيّدين يتعيّن عليكما مراقبتي طيلة الوقت، طيلة الوقت. وهذا يعني ألاّ تتناولا أيّ طعام لكي لا تغفلان عني».

فوافق الولدان واستدارا في مقعديهما للتحديق إليه. تمكنا من الاستمرار في اللعبة أثناء تقديم الحساء ثمّ فقدا اهتمامهما بها. أشار شيمون لبن-روي الذي نهض لإحضار زجاجة شراب.

قالت سارة مبتسمة: «يا لكما من حارسَين، ها قد فرّ خالكما حتّى من دون أن تلاحظا ذلك».

قال إيزير وهو يرتشف الحساء: «لم يهرب، ثمّة حرّاس آخرون ولكنّهم غير مرئيين».

ضحك الجميع والتقت عينا بن-روي بعيني سارة لجزء من الثانية قبل أن يشيح نظره عنها مجدّدًا. عاد إلى الطاولة وسأل وهو يصبّ الشراب: «إذًا، ماذا تفعلين؟»

قالت شافا: «إنّها مدرّسة». قال شيمون: «منذ متى أصبحت بكماء؟ دعيها تجيب بنفسها».

قالت شافا: «أنا آسفة، أخبريه ماذا تفعلين يا سارة».

هزّت سارة كتفيها قائلةً: «أنا مدرّسة».

ابتسم بن-روي على الرغم منه.

«أين؟»

«في سيلوان».

«سيلوان؟»

«إنّه مشروع خاصّ، تجريبي».

رفع بن-روي حاجبيه متسائلاً.

شرحت له قائلةً: «نعلّم الأطفال الإسرائيليين والفلسطينيين معًا في مدرسة واحدة. نحاول أن ندمجهم ونكسر الحواجز».

حدّق إليها بن-روي للحظة ثمّ خفض عينيه واختفت ابتسامته. تناول شيمون قطعة هالاّ ومرّرها فوق طبق الحساء الفارغ.

سألها: «هل حصلت على التمويل الذي طلبته؟»

هزّت سارة رأسها قائلةً: «تدبّروا المال لأجل المستوطنين، أمّا للتعليم... فنحن عاجزون في الوقت الحاضر حتّى عن شراء دفاتر وأقلام تلوين».

كان بن-روي يتناول حبّة نايدل من طبقه.

تمتم قائلاً: «لا أفهم ما الجدوى».

«من كتب التلوين؟»

«من محاولة دمج الأطفال العرب والإسرائيليين».

نظرت إليه بعينين وامضتين: «لا تظنّ أنّ الأمر يستحقّ المحاولة؟»

لوّح بن-روي بملعقته من دون اكتراث قائلاً: «عالمان مختلفان، قيم مختلفة. لا جدوى من الاعتقاد أنّ بإمكانهم التعايش، هذا تفكير ساذج».

ردّت قائلةً: «في الواقع، حقّقنا نجاحًا هامًا. الأطفال يلعبون معًا ويتشاركون التجارب ويكوّنون الصداقات. من المذهل كم يمكن أن يكونوا منفتحين».

قال بن-روي: «خلال عامين سيذبحون بعضهم، هكذا تجري الأمور. لا جدوى

من محاولة الادعاء أنّ الواقع يختلف».

بدت للحظة أنّها سوف تجادله. ولكنّها اكتفت بالابتسام قائلةً: «إنّنا نحاول على كل حال. لا أحد يعلم، قد يكون ذلك مفيدًا. وهو بالتأكيد أفضل من تشجيعهم على كره بعضهم».

حلّ صمت قصير مزعج قطعه شيم الذي راح يروي لهم كيف عثروا على جرذ في حمّامات حوض السباحة المحلي وكيف قتله عامل الإنقاذ بالمكنسة.

قال بن-روي وهو ينهي حساءه ويلقي نظرة عبر الطاولة نحو سارة: «لقد أحسن فعلاً، إنّها الطريقة الوحيدة للتعامل مع الحيوانات المؤذية، سحقها».

لم يقل الكثير بقية الوجبة، بل تناول طعامه بصمت تقريبًا بينما تحدّث الآخرون عن الحالة السياسية الراهنة بشكل أساسي. بعد انتهاء العشاء أنشدوا ترنيمتي زينيروت، وشارك بن-روي من دون حماسة قبل أن يتوجّه إلى غرفة الجلوس لتناول القهوة وعند الساعة العاشرة قال إنّ عليه الذهاب.

قالت سارة وهي تنهض: «أنا أيضًا. كانت سهرة لطيفة يا شافا، شكرًا لكِ».

ودّعا الزوجين وشعر بن-روي بالانزعاج لأنّه لم يتمكن من المغادرة بمفرده. نزلا في المصعد في صمت مربك. حين وصلا إلى الشارع سأل سارة من أيّ طريق ستذهب.

أجابت: «إلى اليمين، وأنت؟»

هو أيضًا كان يريد سلك الطريق نفسه.

تمتم: «إلى اليسار».

بعد صمت قصير قالت: «حسنًا، تشرفت بلقائك».

ابتسمت ومدّت يدها، فنظر إليها وهزّ رأسه قبل أن يستدير ويسير مبتعدًا وبعد أن ابتعد بضعة أمتار قالت له: «أنا آسفة على ما حدث، آرييه. أخبرتني شافا. أنا آسفة جدًّا، لا بدّ أنّ ما حدث كان رهيبًا».

أبطأ سيره وأراد لو يصرخ قائلاً لها: «أنتِ لستِ آسفة، أنتِ امرأة حقيرة تحبّ العرب. لقد قتلوا المرأة الوحيدة التي أحببتها، وها أنتِ تلعبين مع أطفالهم. إنّكِ جاهلة حمقاء لعينة».

ولكنّه لم يقل شيئًا، بل اكتفى برفع يده مودعًا وتابع سيره مسرعًا إلى آخر الشارع قبل أن يختفي عند الزاوية في ها-ميليخ جورج.

لاحقًا، بعد أن أمضى ثلاث ساعات وحيدًا في أحد مشارب شارع يافا، عاد بن-روي إلى منزله وشغّل إسطوانة لشلومو أرتزي ثمّ انهار على أريكته ورأسه يدور.

ثمّة شابّة روسيّة شقراء هناك، فكّر بإحضارها معه للتخلّص من بعض الغضب والوحدة ولكنّه صرفها عنه وواصل السهر وحيدًا وهو يحدّق إلى نفسه في مرايا القاعة، حيث ظهر وجهه الضخم حادّ الملامح مشطورًا بفعل الخط العامودي الذي يجمع لوحين من المرايا، فبدا وكأنّ جمجمته قد انقسمت إلى نصفين يفصل بينهما خط أسود طويل.

تمدّد على الأريكة وأغمض عينيه، ولكنّ موجة من الغثيان اجتاحته ففتحهما على الفور وراح نظره يجول في الغرفة محاولاً التركيز على شيء ما. حدّق إلى آلة التسجيل، بشقّ في سقف الغرفة، إلى كتاب لبايتا غور، قبل أن تنحدر عيناه نحو صفّ من الصور الموضوعة في أطُر على رفٍّ مقابل. أخذ أنفاسًا عميقة وهو يمرّر نظره عليها ويستعمل الصور لتثبيت نفسه، وكأنّ عينيه كانتا يديه والصورَ قضبان حديديّة تعينه على الوقوف: هو وشقيقته معلّقان رأسًا على عقب بغصن شجرة مشمش في مزرعة العائلة، جدّه، إزيكييل بن-روي، روسي جدّي ذو لحية كثيفة هاجر إلى فلسطين أيام الحكم العثماني عام 1882، وجعل عائلته من أقدم العائلات اليهوديّة التي استوطنت في المنطقة، صورة له عند تخرّجه من كليّة الشرطة، هو وآل باتشينو، الذي ألهمه فيلمه سيربيكو أن يصبح شرطيًّا. وبالطبع، في نهاية الصف، صورة أكبر من جميع الصور له ولغاليا وهما يضحكان للكاميرا، وبدا بحر الجليل خلفهما، في جينوسار، ليلة ذكرى ميلاده الثلاثين، حين أعطته قارورة الجيب الفضيّة وقلادة المينورا التي لا يزال يضعها حول عنقه.

حدّق إلى الصورة بينما راحت أصابع يده اليسرى تداعب القلادة، ثمّ نهض وتوجّه مترنحًا إلى غرفته. كان ثمّة مقال مصوّر معلّق على الجدار قرب سريره ويبلغ مقاسه ثلاثة أضعاف المقال الأصلي، وقد أحاطت دوائر من الحبر الأحمر ببعض الكلمات والجمل - أريحا وسهل البحر الميت؛ مانيو؛ رجل طويل ونحيل؛ أساليبها متطوّرة جدًّا بالنسبة إلى خلية فلسطينيّة متمردة؛ لا بدّ أن يكون الداعم جهة خارجيّة. استند إلى الجدار ووضع يديه من جهتي المقال ثمّ راحت عيناه تتجوّلان فوق النص وتقرآنه حتّى النهاية، كما فعل آلاف المرات في السنة الماضية، قبل أنّ يتهاوى فوق السرير حيث تمدّد وهو يحدّق إلى زجاجة العطر الموضوعة على الطاولة المجاورة.

غمغم من دون تركيز: «مريب، مريب».

ثمّ أغلق عينيه وغرق في النوم وهو يشخر بصوت عالٍ، وكانت يده اليمنى مشدودة في شبه قبضة وكأنّه يتمسك بحبل منطاد.

القدس

كان الحلم نفسه الذي يراودها دائمًا، كلّ ليلة. كانت في زنزانة تحت الأرض، صغيرة جدًّا وضيّقة، ظلامها دامس، أرضها موحلة ورطبة وجدرانها إسمنتية. كان ثمّة شيء معها لا تدري ما هو، ربّما ثعبان أو جرذ أو عقرب كبير، شيء خطير ومؤذٍ. وكانت عارية، تضغط جسدها النحيل في إحدى زوايا الزنزانة محاولة الابتعاد عن طريقه خوفًا من الاحتكاك به أو الإصابة بعضّته. أثناء ذلك، سمعت قعقعة آلات بعيدة وكأنّها عجلات تدور ببطء، ثمّ بدأت الجدران تطبق على بعضها وتقرّبها من ذاك المخلوق. راحت تصرخ وهي تنادي أباها وتصرّ على أنّها ليست خائنة وأنّها فلسطينية جيّدة. ولكنّ الجدران ظلّت تقترب إلى أن شعرت بالمخلوق يتحرّك قرب جسدها ثمّ يمشي على جلدها ويصعد إلى الأعلى. حاولت أن تبقى ساكنة وأن تقطع نفَسها ولكنّها شعرت باشمئزاز فظيع فانتفضت غضبًا عنها. عندها راح المخلوق ينهشها ويلدغها وهو يمزّقها ويقتحم جسدها.

صرخت: «لا! أرجوك يا إلهي، لا!»

استيقظت وهي تلوّح بيديها ورجليها وظلّت ترتجف لعدّة ثوانٍ ثمّ انهارت على السرير وهي تسمع رنينًا بعيدًا في أذنيها. بدأ تنفسها يعود إلى طبيعته وجسدها يسترخي تدريجيًّا ولكنّ الرنين تواصل. حين صفا ذهنها أدركت فجأة أنّ الرنين صادر عن الهاتف. ألقت نظرة على ساعتها، كانت الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، ثمّ نزلت عن السرير وهي تفرك عينيها وتوجهت إلى المكتب لترفع السماعة.

«ليلى؟»

كان توم روبرتس.

أجابت بصوت ناعس ومنزعج: «إنّها الواحدة والنصف».

«ماذا؟ آه، ليلى! أنا آسف، لم أدرك أنّ الوقت متأخر. أردت فقط أن أخبرك... انسي الأمر، سوف أتّصل بك غدًا».

بدا متحمسًا.

«ماذا أردت أن تخبرني؟»

«لا يهم، سوف أتّصل بك غدًا».

«لقد استيقظت الآن، توم. ماذا تريد؟»

كانت لا تزال أجواء الكابوس تسيطر عليها فبدا صوتها حادًّا ومتشكّكًا. كان لديها شعور أنّه سيقول لها شيئًا مربكًا، كأن يخبرها أنّه مغرم بها أو شيئًا من هذا القبيل.

«كنت أقلّب الأمور في رأسي منذ أن غادرت مساء هذا اليوم...»

قالت لنفسها، «يا إلهي».

«وأعتقد أنّني أملك فكرة عمّن يكون ج. ر.»

استغرقت بعض الوقت لتستوعب ما يقول ثمّ استيقظت تمامًا بشكل مفاجئ. مالت إلى الأمام وأضاءت مصباحًا وراحت تخرج قلمًا وورقة.

«تابع».

«لا أعلم لماذا لم يخطر ذلك ببالي من قبل عند الإشارة إلى القدس والمخابئ السريّة. لا شكّ بأنّها مصادفة مذهلة. على كل حال، أعتقد أنّه قد يكون شخصًا يدعى ويليام دو رولينكور». عبست وجمد قلمها فوق الصفحة.

«الحرفان هما ج. ر.، توم وليس و. ر.»

قال: «أعلم، وربّما لهذا السبب لم يخطر ببالي على الفور. ففي اللغة اللاتينيّة في القرون الوسطى كان اسم ويليام يُكتب جييلموس، بحرف الجيم».

كتبت الاسم مع خطٍّ تحته.

«من يكون؟»

قال روبرتس: «هذا هو الجزء المذهل. فحسب ما أتذكر - وكما قلت لك هذا المساء أنا لست خبيرًا بتلك المرحلة - هو الرجل الذي بنى كنيسة القيامة، أو بالأحرى أعاد بناءها. كانت الكنيسة الأصليّة بيزنطيّة على ما أعتقد، أو ربّما رومانيّة، لا أذكر. على كل حال، هذا غير مهم. الفكرة أنّه أثناء الحقبة الصليبيّة، أُعيد بناء الكنيسة بالكامل، وبينما كانوا يحفرون الأساسات يُفترض أنّ ويليام دو رولينكور عثر على كنز مذهل».

«أيّ كنز؟»

«لا أدري ولا أظنّ أنّ أحدًا يعلم. فالقصّة تظهر في أحد كتب التاريخ الصليبيّة. ويليام أوف تير على ما أظنّ، مع أنّني قد أكون مخطئًا. ولكنّها تبدو مصادفة غريبة. شخصان يملكان الأحرف الأولى نفسها، في القدس وفي الفترة الزمنيّة نفسها، يعثران على شيء غامض. غريب».

دوّنت ليلى بعض الملاحظات ثمّ تناولت الترجمة التي قاما بها مساء ذاك اليوم وقرأتها.

«ليلى؟»

«نعم أنا معك، ولكنّني أقرأ الرسالة مجددًا».

أنهت القراءة ووضعت الورقة ثمّ مرّرت أصابعها في شعرها القصير.

«هذا خارج عن مجال اختصاصي، توم. لو كان على علاقة بالسياسة، لديّ دفتر عناوين مليء بالمعارف. أمّا تاريخ القرون الوسطى... فلا أعرف شيئًا عنه. لم يُثر اهتمامي أبدًا».

قال بعد صمت قصير: «إن أردتِ يمكننا-»

علمت ما كان يرغب بقوله فقاطعته على الفور.

«أفضّل أن أبحث بمفردي، توم. أنا آسفة ولكن هذه هي الطريقة التي أعمل بها. لا تعتبر الأمر شخصيًا».

بدت قاسية وباردة. وتحت ظروف أخرى كانت لتعتذر، فقد قدّم لها خدمة عظيمة، ولكنّها لم تكن بمزاج جيّد الليلة.

تمتم وقد فاجأته فظاظتها: «بالطبع، بالطبع. أنا أفهمك تمامًا، فأنا أعمل بالطريقة نفسها».

«أحتاج إلى مساعِد، توم. شخص يوجّهني ويكون خبيرًا في هذه الأمور. هل يمكنك مساعدتي؟»

سمعته يتنفس من الطرف الآخر.

أضافت: «أرجوك؟»

ساد صمت آخر.

أخيرًا قال وبدا صوته مجروحًا بعض الشيء: «ثمّة شاب في كنيسة القيامة، أحد الكهنة الروم الأرثوذكس، الأبّ سيرجيوس على ما أظنّ. إنّه رجل ضخم وبدين، يعرف كلّ شيء عن تاريخ الكنيسة. لقد ألّف كتبًا في ذلك، ومن الممكن أن يشكّل نقطة انطلاق جيّدة».

قالت: «شكرًا يا توم، أنا مدينة لك».

شعرت بأنّه بحاجة إلى أكثر من ذلك، بأنّه ينتظر منها كلمة لطيفة تعطيه بعض الاطمئنان. ولكنّها لم تكن في مزاج مناسب. كلّ ما كان يشغل بالها هو ويليام دو رولينكور.

قالت مجدّدًا: «شكرًا لك، سوف أتّصل بك».

وضعت السماعة وجلست تحدّق إلى الاسم لبعض الوقت ثمّ وصلت حاسوبها المحمول بخطّ الهاتف، ودخلت موقع غوغل وبدأت بالبحث.

الأقصر

كانت حقول الموز لا تزال غارقة تحت ضباب الصباح الباكر حين وصل خليفة إلى فيلاّ جانسن في الكرنك. فتح البوابة وسار على الطريق المرصوف بالحصى نحو البناء المؤلّف من طابق واحد، بشرفته الخشبيّة ونوافذه المغلقة.

كان قد أمضى عصر ومساء اليوم الفائت وهو يراجع ملف شليغل ويدوّن الملاحظات ويستعيد تفاصيل القضيّة. ولكن كما توقّع حسّاني، لم يجد شيئًا هامًا. فقد احتوى الملف على بعض التفاصيل المنسيّة، كصور لجثّة شليغل، إفادات شهود رأوها قبل وفاتها، نسخ عن المراسلات مع السفارة الإسرائيليّة لترتيب نقل الجثّة إلى الأراضي المحتلّة، ولكنّ شيئًا من تلك المعلومات لم يكن جديدًا بالفعل. حاول إعادة الاتصال بالشاهدَين الأساسيّين – الخادمة التي سمعت شليغل تتحدّث عبر الهاتف في غرفة الفندق، وحارس الكرنك الذي رأى شخصًا يُسرع هاربًا من مسرح الجريمة – ولكن بعد البحث تبيّن له بأنّ الحارس قد مات وأنّ الخادمة تزوّجت وانتقلت من المنطقة من دون أن تترك عنوانًا. كان عليه أن يبدأ فعلاً من الصفر.

وصل إلى باب الفيلا وفتحه بعد أن جرّب عددًا من المفاتيح، ثمّ خطا إلى الداخل المعتم والبارد وأضاء أحد المصابيح. كان كلّ شيء كما تركه في زيارته السابقة – الأرائك، الأوراق، اللوحة الزيتيّة لقمّة الجبل، النظافة الطاغية نفسها والهوس بالأمان. وجد عددًا من الرسائل عند قدميه على الأرض فانحنى للمّها وألقى نظرة على المغلّفات. كانت الرسائل الخمس الأولى عبارة عن فواتير أو نشرات، أمّا المغلّف السادس فكان يحمل كتابة بخطّ اليد وطابعًا بريديًّا من الأقصر. فتحه وأخرج منه منشورًا يعلن عن برنامج سيُذاع في اليوم التالي: «جور اليهود». كان المتحدّث هو الشيخ عمر عبد الكريم، وهو رجل دين محلي معروف بآرائه التحريضيّة المعارضة للغرب. قرأ خليفة المنشور مستغربًا من إرسال شيء كهذا إلى شخص مثل جانسن ثمّ دسّه في جيبه وأغلق الباب خلفه ليبدأ جولته في المنزل. كان يبحث عن ثغرة، نافذة توصله إلى عالم جانسن السرّي. شيء، أيّ شيء، يكشف له المزيد عن مالك الفيلا الغامض أو يخترق الجدار الذي بناه حول نفسه.

بدأ بحثه في غرفة الجلوس، واثقًا من وجود مفاتيح لقصّة جانسن هنا، من دون أن يعرف كيفيّة قراءتها. اللوحة الزيتيّة الكبيرة مثلاً، من الواضح أنّها تقول شيئًا عن مالكها، عن حياته الخاصة، ولكن ماذا؟ أنّه كان يحبّ الجبال ببساطة؟ أم أنّها رسالة أكثر دقّة؟ أنّها منظر طبيعي من بلده الأمّ ربّما (ولكن ألا يُفترض أن تكون هولندا مسطحة)؟ شعر بأنّ جميع المعلومات التي يحتاج إليها في بحثه كانت موجودة هنا

أمامه ولكنّها مشفّرة، ولا يملك أدنى فكرة عن كيفيّة حلّ رموزها.

أمضى نصف ساعة يتجوّل في الغرفة ثمّ انتقل إلى غرف النوم ومن بعدها المكتب الذي أمضى فيه فترة طويلة يتفحّص رفوف كتب جانسن ويسحب منها كتبًا بشكل عشوائي ويتصفّحها: *Die Sudlichen Raume des Tempels von Luxor* للكاتب هـ. برونر؛ *The complete Woks of Josephus* ترجمة ويليام ويستون؛ *Cathares et Tempeliers* لريموند ريزنيكوف؛ *From Solon to Socrates* لفيكتور إيرنبيرغ؛ *The Basilica of the Holy Sepulchre* للكاتب ج. س. ب. فريمان-غرينفيل. كما في زيارته الأولى، فاجأه التنوّع الذي طغى على قراءات جانسن وذكاء الرجل الواضح واتّساع معرفته. ثمّة كتب عن كلّ شيء، من تاريخ مصر القديم إلى محاكم التفتيش الإسبانيّة، من الحروب الصليبيّة إلى تقاليد الدفن لدى شعوب الأزتيك، من القدس أيام البيزنطيين إلى فنّ زراعة الورود. كانت مجموعة غنيّة تنمّ عن ثقافة رفيعة، وشعر خليفة مجدّدًا بأنّها تتناقض مع الحياة الخارجيّة للرجل الذي امتلكها.

تمتم قائلاً لنفسه: «من كنت يا جانسن؟ من كنت ولماذا كنت هنا؟»

حوّل اهتمامه من المكتبة إلى المكتب ومنه إلى خزانتي الملفات. كانت الأولى تحتوي على ملفات بلاستيكيّة مليئة بالوثائق التجاريّة والمصرفيّة والقانونيّة وأوراق التأمين، ولم تبدُ أكثر أهميّة للتحقق منها في زيارته الماضية للمنزل. أمّا الثانية، بصفوف شرائح الصور الفوتوغرافيّة السلبيّة التي تحتويها، فبدت أكثر إثارة للاهتمام، لا سيّما وأنّها تضمّ أماكن يعرفها خليفة ويحبّها ويتوق دومًا إلى زيارتها. الجيزة، سقارة، الأقصر، أبو سنبل - جميع المواقع الأثريّة الكبرى كانت هناك، مصوّرة بيديّ خبير ومعنونة بعناية، كما هي الحال بالنسبة إلى المواقع الأثريّة العديدة الأقلّ أهميّة التي لا يهتمّ بزيارتها سوى قلّة من السيّاح: الجدران الطينيّة العظيمة في الكاب، العامود الحجري لأخناتون في تونا الجبل، قبر دجيحوتيحوتيب في دير البرشة. وبعض الواقع - جبل دوشا، كور، قصر دوش - كانت غامضة إلى حدّ أنّ خليفة لم يسمع بها حتّى.

إحدى الصور السلبية لفتت انتباهه على نحو خاص لأنّها الوحيدة التي كانت تصوّر جانسن نفسه. كان أكثر شبابًا هنا، شعره مسرّحًا بعناية وظهره مستقيمًا، يقف في ما بدا وكأنّه قبر سيتي الأوّل في وادي الملوك، أمام صورة للملك مع حورس وأوزيريس. كان ثمّة شيء مخيف نوعًا ما في الصورة، في الطريقة التي يحدّق بها إلى الكاميرا. كانت نظرته قاسية ومتعجرفة، تعابيره تتراوح بين الابتسام والسخرية.

قال خليفة لنفسه: «كنتَ سيّئًا، هذا واضح في وجهك وفي عينيك. لقد قمتَ

بأمور سيّئة وقاسية».

حدّق إلى الصورة لفترة طويلة ثمّ أعادها إلى مكانها وتصفّح بسرعة بقيّة المجموعة من دون أن يتكبّد عناء تفحّص كلّ شريحة، بل كان يكتفي بحمل كلّ صفّ أمام الضوء ويلقي عليه نظرة سريعة مركزًا على ستّ أو سبع صور قبل أن ينتقل إلى الصفّ التالي.

وكان ليُغفل على الأرجح مدخل القبر لو أنّه كان في إطار بلاستيكي عادي مثل بقيّة الشرائح، فحين وصل إليه كانت المجموعة قد أوشكت على الانتهاء وكان يلقي نظرة خاطفة على كلّ صفٍّ. ولكنّ الصورة تناقضت مع بقيّة الصور المحيطة بها نظرًا لإطارها البنّي القديم المصنوع من الكرتون، فأثارت اهتمام خليفة الذي سحبها ونظر إليها عن كثب.

كانت بين سلسلة من الصور عن أبواب قبور من المملكة الوسطى والجديدة في دير البحري في الطرف الشرقي لمدينة الموتى في طيبة. ومع أنّها بالأسود والأبيض خلافًا لبقيّة الصور الملوّنة المجاورة لها، وليست بالوضوح نفسه، إلاّ أنّه افترض في الأساس أنّ موضوعها هو نفسه. ولكن حين حملها أمام الضوء بدأ يشكّ بذلك، ليس لأنّه لم يتعرّف على الباب فحسب - فخلال السنوات الخمس عشرة التي أمضاها في الأقصر استكشف جميع القبور التي يمكن زيارتها في الجوار - بل لأنّ الجدار المظلم والمنيع للصخرة المسطحة تمامًا والتي فُتح باب في قاعدتها لم يكن يشبه أيّ بناء أثري رآه في منطقة الأقصر.

قلّبها محتارًا على أمل إيجاد ملصق يشرح عنها مثل جميع الصور الأخرى في المجموعة ولكنّه لم يجد شيئًا، وهذا ما أثار غضبه لأنّه شعر بأنّ الصورة هامّة لسبب لم يستطع تفسيره. حدّق إليها لفترة أطول وسألها قائلاً: «ماذا تحاولين إخباري؟ قبر من أنتِ؟» ثمّ دسّها في جيبه الداخلي مع المنشور وتابع بحثه في المنزل.

وصل إلى القبو أخيرًا، وكما فعل في زيارته الأولى، نزل السلّم المظلم القديم وأضاء المصباح ثمّ راح يحدّق إلى الطاولات والرفوف المملوءة بالقطع الأثريّة المسروقة. كان قد مضى عليه حتّى الآن أكثر من ثلاث ساعات في المنزل، وظلّ لتسعين دقيقة أخرى يتفحّص محتويات القبو وقد أذهله مجددًا حجم وتنوّع المجموعة التي عثر فيها على كثير من القطع التي تثير اهتمامه ولكنّ أيًّا منها لم يكشف المزيد عن جامعها.

انتهت جولته أمام الخزنة الحديديّة المكعّبة في زاوية الغرفة، بأرقامها وقبضتها النحاسيّة. انحنى أمامها وحرّك الأرقام إلى الأمام والخلف وهو يسمع قرقعة القطع

المعدنيّة وهي تدور. كان يستحيل عليه فتح الباب، وعلى الرغم من أنّه تعلّم من خلال احتكاكه الطويل بالمجرمين كيف يفتح قفلاً بسيطًا، إلاّ أنّ هذه الخزنة كانت تفوق مهاراته البدائيّة. كان يحتاج إمّا إلى الأرقام السريّة التي رافقت على الأرجح صاحب الخزنة إلى القبر، أو...

لازم مكانه لبعض الوقت ثمّ ضحك ساخرًا قبل أن يعود إلى غرفة الجلوس ويرفع سماعة الهاتف ويطلب رقمًا. رنّ الهاتف ستّ مرّات قبل أن يجيبه صوت أجش.

«عزيز؟ أنا المحقّق خليفة. لا، لا، ليس لاتصالي علاقة بهذا الموضوع. أنا أحتاج إلى خدمة».

«إن كان في الأمر خدعة...»

«الموضوع-»

«لأنّني أصبحت مستقيمًا الآن. هل تفهم؟ لقد تبت. كلّ هذه الأمور... أصبحت من الماضي، كنت شخصًا آخر حينها».

فتح عزيز إبراهيم عبد الشكور، المعروف بالشبح نظرًا لقدرته على عبور أكثر الأبواب حصانةً، حقيبة العدّة وأخرج منها وسادة صغيرة وضعها على الأرض أمام الخزنة وركع عليها. كان رجلاً قصيرًا وممتلئًا، ذا أنف ضخم، أخذ عدّة أنفاس بطيئة وعميقة وكأنّه على وشك البدء بالتأمّل ثمّ مدّ يده ومرّرها برفق فوق سطح الخزنة وجوانبها وكأنّه يهدّئ حيوانًا ثائرًا ويكسب ثقته.

أكدّ له خليفة: «هذا الموضوع بيننا وحدنا، لا أحد سوف يعلم به».

تمتم عزيز: «هذا أفضل»، وانحنى إلى الأمام وضغط أذنه على باب الخزنة وهو يحرّك الأرقام ويصغي.

«أعدك -»

«هس!»

تابع تحريك الأرقام لدقيقة تقريبًا وعلامات التركيز تعلو وجهه، فيما بدأت بقعتا العرق تحت إبطيه تتسعان وتنتشران، قبل أن يستقيم مجدّدًا.

سأله خليفة: «هل يمكنك فتحها؟»

تجاهله عزيز وتابع البحث في حقيبته.

تمتم وهو يُخرج سمّاعة ومصباحًا صغيرًا ومطرقة صغيرة كتلك التي يستعملها علماء الآثار لكسر الصخور: «غلاف سميك، نظام فتح من نوع موسر، أقفال قابلة

للكسر، ثلاثة وربّما أربعة، رافعة مزدوجة. آه، أنتِ سيّدة جميلة!»

«هل يمكنك-»

«بالطبع يمكنني أن أفتحها! يمكنني فتح أيّ شيء».

ابتسم وبدأ يطرق حول القفل بالمطرقة، وقد أغلق عينيه مركزًا على عمله.

كان عزيز عبد الشكور بالنسبة إلى الجميع، وإليه هو نفسه، أمهر من يفتح الخزائن في مصر العليا. إنّه الرجل الذي فتح مرّتين الباب الرئيس لمكاتب بنك مصر الوطني في الأقصر وخزنة الأميركان إكسبرس في أسوان والتي يُفترض أنّها من أكثر الخزائن مناعة. لقد كان أسطورة بين المجرمين ورجال الشرطة على السواء. التقى به خليفة للمرّة الأولى عام 1992 بعد أن سرق خزنة شيراتون الأقصر، والتقيا عدّة مرّات منذ ذلك الحين، كان آخرها منذ عامين حين قبض عليه الضابط بتهمة سرقة محلّ مجوهرات في المنطقة. وبعد تلك الحادثة، كتب خليفة رسالة للقاضي يوصي فيها بإصدار حكم مخفف تعاطفًا مع المتّهم، لأنّ ابن عزيز الأصغر كان قد أصيب مؤخرًا باللوكيميا. فوصل خبر تلك الرسالة إلى عزيز. وبذاك القانون الأخلاقي الغريب الذي يسمح لرجل ما بالعيش من السرقة والحرص في الوقت نفسه على تسديد ديونه، اتّصل عزيز بخليفة وقال له إنّه في حال احتاج إلى أي خدمة، ما عليه إلاّ أن يطلب. ولهذا السبب كان هنا اليوم.

وضع المطرقة جانبًا ثمّ تناول السماعة وراح ينقّل القرص المسطح فوق باب الخزنة بإحدى يديه ويحرّك بالأخرى الأرقام بلطف إلى الأمام والخلف، بينما أمسك مصباحه بفمه وأغمض عينيه وهو يُصغي إلى حركة الأقفال في الداخل. أدرك خليفة أنّ عزيز كان يكذب حين قال له إنّه تاب، من الواضح أنّه لا يزال مجرمًا ناشطًا. ولكنّه في هذه اللحظة يحتاج إلى خبرته ولن يجادله في هذا الأمر.

كان عزيز يهمس بابتسامة باهتة: «أنتِ فتاة طيّبة، لا تكوني صعبة. أنتِ سيّدة صغيرة لطيفة». في النهاية استغرقه الأمر أقلّ من عشرين دقيقة لإيجاد الأرقام السريّة، وبدا الرضى واضحًا على وجهه حين طقّ آخر قفل وانفرجت شفتاه عن ابتسامة عريضة وأسنان بنيّة قبل أن ينحني ليطبع قبلة على سطح الخزنة وتخلّف شفتاه أثرًا رطبًا فوق المعدن الرمادي المخضرّ. «الشبح يضرب مجدّدًا!» هذا ما قاله وهو يضحك ويفتح باب الخزنة بضعة سنتمترات قبل أن يبدأ بجمع عدّته.

صعدا إلى الطابق العلوي وقاده خليفة نحو الخارج.

قال له وهو يغادر: «ابتعد عن المشاكل».

ضحك الرجل وتابع طريقه نحو البوابة الأماميّة. ثمّ توقّف وغمزه قبل أن يختفي

بين أشجار النخيل والميموزا.

راقبه خليفة وهو يذهب ثمّ استدار عائدًا إلى القبو حيث انحنى أمام الخزنة وفتح الباب. لم يكن فيها سوى ثلاثة أشياء: ظرف ورقي بنّي رسميّ المظهر تبيّن أنّه يحتوي على وصيّة الميت، مسدّس من نوع لم يرَه خليفة من قبل، ذو ماسورة ناتئة من سلاح قديم على شكل L، وفي الجزء الخلفي من الخزنة، قطعة مستطيلة الشكل ملفوفة بقماش أسود. تبيّن أنّ هذا الشيء الأخير ثقيل الوزن على نحو غير متوقّع، وبعد أن أزال خليفة القماش وجد نفسه يحدّق إلى سبيكة ذهب كبيرة. بدا على سطحها اللامع ختم على شكل نسر مفرود الجناحين يحمل بقائمتيه الصليب النازي المعقوف، فأطلق خليفة صفيرًا منخفضًا.

«بماذا كنت متورّطًا أيّها السيّد جانسن؟ بماذا كنت متورّطًا بحقّ الله؟»

مخيّم قلنديا للاجئين

لم تكن الدعوة إلى الاستشهاد حين تلقّاها يونس أبو جيش تمامًا كما تخيّلها.

كان يصلّي منذ أشهر لكي يُطلب منه التضحية بنفسه لأجل ربّه وشعبه، ويتخيّل في ذهنه عملية اختيار طويلة يتمّ خلالها اختبار شجاعته وإيمانه تكرارًا ويثبِتهما بنجاح. إلاّ أنّه تلقّى مخابرة هاتفيّة واحدة موجزة تُبلغه أنّه قد تمّ اختياره من قبل الملثّم ليكون شهيدًا، وتطلب منه التفكير جيّدًا ما إذا كان يشعر أنّه مستعدّ لنيل هذا الشرف. في حال العكس، لم يكن يتعيّن عليه فعل شيء، ولن يتمّ الاتصال به مجدّدًا. أمّا إن قبل، فيتوجّب عليه ارتداء قميصه التي تحمل صورة قبّة الصخرة - كيف عرفوا بحقّ الله أنّه يملك قميصًا على صدرها صورة قبّة الصخرة؟ - والتوجّه ظهر اليوم التالي إلى معبر قلنديا على طريق القدس-رام الله ويمكث هناك لمدّة ثلاثين دقيقة بالضبط تحت اللافتة التي تحمل إعلانًا لصحون ماستر اللاقطة. في ما بعد، عليه أن يبدأ بإعداد نفسه بالصلاة وقراءة القرآن من دون أن يُعلِم أحدًا بذلك، ولا حتّى أفراد عائلته المقرّبين. وسوف تصله تعليمات مفصّلة لاحقًا.

كان هذا كلّ شيء. لم يزوّد بأيّ تفسير عن كيفيّة أو سبب اختياره أو الشخص الذي اختاره، ولا إشارة إلى ما ستكون مهمته. لا بل إنّ دقّة المتصل وبرودته وأسلوبه الشبيه بأسلوب رجال الأعمال أشعرته بالخوف، وبعد أن انتهى الاتصال جلس لوقتٍ طويل وهو يرتجف شاحب الوجه والسماعة لا تزال مضغوطة على أذنه. تساءل، هل يمكنني فعل ذلك؟ هل أنا قويّ بما يكفي؟ هل أستحقّ هذا الشرف؟ فالخيال شيء والتنفيذ شيء آخر. شعر بأنّ الخوف والشكّ يغمرانه.

ولكنّ اضطرابه بدأ يزول تدريجيًّا ويُفسح المجال للتسليم ومن ثمّ التصميم لينتابه أخيرًا شعور عارم بالنشوة والفخر. لقد تمّ اختياره! هو، يونس أبو جيش صباح، بطل شعبه وأداة الله لتنفيذ انتقامه. راح يتخيّل فخر عائلته وفرحة كلّ فلسطيني. إنّه المجد الذي يتمنّاه كلّ إنسان.

صرخ مسرورًا وهو يضع السماعة ثمّ اندفع إلى الخارج حيث جلست أمّه تقشّر البطاطس. فانحنى أمامها وأحاط خصرها بذراعيه قائلاً وهو يضحك: «سيكون كلّ شيء على ما يرام، سيكون كلّ شيء على ما يرام. الله معنا. الله أكبر».

القدس

كان النهار قد انتصف قبل أن يستيقظ بن-روي أخيرًا وينهض من سريره مترنّحًا وهو يقحّ ويشتم. أخذ حمّامًا باردًا ثمّ تناول فنجانًا من القهوة قبل أن يرتدي ملابسه ويتعطّر ويستقلّ الباص نحو المقبرة اليهوديّة في جبل الزيتون، متوقّفًا في طريقه لشراء زنبقة بيضاء واحدة.

كان يزورها مرّة واحدة في اليوم على الأقلّ. ويُضاعف زياراته أحيانًا حين يصبح شعوره بالوحدة حادًّا. حين كان طفلاً كان يعتقد أنّ زيارة المقابر لا يقوم بها سوى العجائز، وذلك لتمضية الوقت إن كانوا لا يملكون شيئًا أفضل يفعلونه وحين يكون الفرح والأمل قد أصبحا خلفهم. ولكن ها هو الآن، لم يبلغ حتّى الرابعة والثلاثين، وقد أصبحت الزيارة محور يومه، لا بل محور وجوده.

ترجّل من الباص على طريق أريحا ودخل المقبرة عبر بوابة في زاويتها اليسرى، ثمّ سار صعودًا عبر صفٍّ من القبور المسطحة مستطيلة الشكل التي تكسو سفح التلّ المدرّج وكأنّها سلّم مجزّأ واسع. إلى يساره، كانت القبب الذهبيّة السبعة لكنيسة السيّدة مريم المجدليّة تلمع تحت أشعة شمس الظهيرة، أمامه أطلّت الواجهة المقنطرة البشعة لفندق الإنتركونتيننتال من قمّة التلّ. أمّا خلفه، عبر وادي كيدرون، فبدت قبّة الصخرة أمام أبنية المدينة القديمة التي تجمّعت قرب بعضها وكأنّها ألعاب أطفال.

كان قبرها في منتصف السفح، عند الطرف الجنوبي للمقبرة، وكان عبارة عن مسطح حجري بسيط يحمل اسمها وتاريخي ميلادها ووفاتها - وُلدت في 21 كانون الأوّل 1976، توفيت في 12 آذار 2004 - وكان في الأسفل مقطع من نشيد سليمان: «أنا وردة شارون، زنبقة الوديان».

وقف يحدّق إلى الحجر ويلتقط أنفاسه بعد رحلة الصعود، ثمّ انحنى ووضع الزهرة فوق تلك الجملة وبقربها حجر صغير لمّه في طريقه إلى المقبرة، وهي عادة

يهوديّـة. انحنـى وقبّـل القبر ومرّر يده فوق سـطحه الأصفر الدافئ فيما تمهّلت شـفتاه فوق أحرف اسمها المحفورة على الحجر. تنهّد ووقف من جديد.

مـن الغريـب أنّـه لـم يتمكن أبدًا من البـكاء عليها. على الرغم من حدّة ألمه، لم يتمكّـن مـن ذرف الدمـوع. كان يبكي على أشـياء أقلّ أهميّـة - برامج تلفزيونيّة، أغانٍ رخيصة، روايات مؤثّرة - ولكنّه لم يشعر إزاء موتها سوى بالفراغ. أمّا الدموع فكانت تتراكم في داخله إلى حدّ أنّه يعجز أحيانًا عن التنفس، وكأنّه رجل يغرق ولكنّه يتمكّن من إبقاء فمه فوق الماء.

جمع يديه وجزء منه يشـعر أنّ عليه أن يتلو صلاةً ما. ولكنّه صرف الفكرة عن ذهنـه، فهـو لـم يعـد يجد الراحة فـي الإيمان. كان إيمانه فارغًا وكأنّه جرس مكسـور. أقحم يديه في جيبه واستدار يحدّق إلى المدينة القديمة وهو يتمتم بأغنية يهوديّة شعبيّة علّمه إيّاها جدّه عن صبيّ فقير يقع في حبّ ابنة حاخام غنيّة.

كان قد قبض عليها، هكذا التقيا. وكأنّها رواية رومانسيّة رخيصة، ولكن هذا ما حدث. كانت مع مجموعة تحتجّ على بناء مستوطنات إسـرائيليّة في ضواحي المدينة وكان من بين رجال الشرطة الذين أُرسلوا للتصدّي للمحتجين. حدث اشتباك وركلته على قدمه، فكبّل يديها وقادها إلى سـيّارة فان للشـرطة. حدثت الأمور بسـرعة كبيرة حتّـى إنّـه لـم يلاحـظ كم كانت جميلـة. ولكن لاحقًا، في خليّـة الاعتقال في المخفر حيـن كان يأخـذ تفاصيـل عنهـا وهي تحتج على الظلم الذي ترتكبه إسـرائيل باحتلال الضفّـة الغربيّـة، راحـت عينـاه تتجوّلان على شـعرها البنّي بخصله المتمـرّدة وذراعيها النحيلتين المسـمرّتين تحت أشـعة الشـمس وعينيها الرماديّتين، الغاضبتين واللطيفتين في آن، اللتين تضجّان ذكاءً ومرحًا، ما جعله يعرف أنّها شخص طيّب، طيّب ولطيف وأنّ صوتها العالي وسلوكها المتمرّد لم يكونا سوى واجهة.

كان بإمكانه إدانتها - لا بل كان عليه ذلك - ولكنّه تركها تخرج بكفالة. وحين لـم تُظهـر امتنانهـا لذلـك، بـل علـى العكس بدت غاضبـة، وكأنّ تسـاهله قلّل من أثر احتجاجها، ازداد انجذابه إليها أكثر من مظهرها الخارجي.

لم يشـعر يومًا بالثقة بنفسـه أمام النسـاء، نظرًا إلى جسـده الضخم ووجهه حاد الملامح وكبير الأنف، واسـتغرقه الأمر ثلاثة أيام ليجد الشـجاعة للاتصال بها. حين فعل أخيرًا ظنّته صديقًا يمزح معها، وحين أدركت أنّه يقول الحقيقة قالت له أن يذهب إلى الجحيم وأقفلت الخطّ في وجهه. اتّصل بها في اليوم التالي وكرّر اتصاله يومًا بعد يوم، بحيث كان اهتمامه وشـعوره بالذلّ يتضاعفان بشـكل متسـاوٍ في كلّ مرّة ترفضه فيها، إلى أن وافقت أخيرًا مكرهة على تناول شراب معه «فقط للتخلّص منك».

حتّى عندها كان من المستبعد أن يحصل شيء بينهما لولا السباغيتي. فحتّى تلك اللحظة من لقائهما جاهدا لإقامة أيّ شكل من أشكال التواصل، وكانت أحاديثهما قصيرة وغير مريحة، تتخلّلها فترات صمت مربكة بينما كان صوتاهما يرتفعان أحيانًا وهي تُلقي عليه خطبًا عن طريقة معاملة حكومتهما للفلسطينيين فيما أجابها أنّ الفلسطينيين يستحقون كلّ ما هم فيه. وكانا على وشك مغادرة المطعم، وقد أقرّا أنّ شيئًا لا يجمع بينهما، حين اصطدم به نادل يحمل طبق باستا مليئًا بالصلصة التي انسكبت على قميصه البيضاء. انفجرت ضاحكة فنظر إليها غاضبًا ولكنّه بدأ يقهقه هو أيضًا أمام سخافة الموقف. وفي تلك اللحظة بالذات وُلد شيء بينهما، وكأنّ شرارة اشتعلت وأزالت العتمة. أقرضه النادل قميصًا أضفت مزيدًا من المرح على الجوّ بسبب الجملة المضحكة والمربكة التي كُتبت عليها. ثمّ عادا إلى طاولتهما بعد أن قبلا بتناول كوبين من الشراب تعويضًا عن الحادثة. بدآ يتحدّثان وكأنّهما التقيا للتوّ وتجنّبا هذه المرّة السياسة ليتحدّثا عوضًا عنها عن نفسيهما وحياتيهما واهتماماتهما وعائلتيهما.

كانت تعمل محرّرة في دار نشر تعاوني صغير متخصص في الشعر وكتب الأطفال، وتكرّس ثلاث أمسيات في الأسبوع للعمل التطوّعي مع المنظمة الإسرائيليّة لحقوق الإنسان. كانت ابنة أحد أبطال الحرب الذين حازوا على أكبر عدد من الأوسمة في البلاد، وهو الآن عضو في الكنيست وينتمي إلى حزب العمّال. نشأت في كيبوتز في الطرف الشمالي من الجليل وهي أصغر شقيقتيها، وهما متزوجتان الآن ولديهما أطفالاً.

قالت: «أمّان يهوديّتان مثاليتان، وأنا الشاة السوداء».

قال بن-روي: «أنا أيضًا. فجميع الرجال في عائلتي مزارعون. لقد شعر أبي بالرعب حين قلت إنّني أرغب أن أصبح شرطيًّا، مع أنّه سيشعر برعب أكبر لو رآني الآن».

وغمز مشيرًا إلى القميص، فضحكت.

سألته: «إذًا ما الذي جعلك ترغب أن تكون أداة للنظام الفاشي؟»

«آل باتشينو، صدّقي أو لا تصدقي».

«آل باتشينو؟»

«في الواقع، أحد أفلامه».

رفعت يدها قائلةً: «دعني أحزر». وبعد صمت قصير أضافت: «سيربيكو».

اتسعت عيناه وسألها مندهشًا: «كيف عرفتِ؟»

«إنّه من أفلامي المفضّلة».

«أنتِ الشخص الوحيد الذي التقيت به وقد شاهد الفيلم! أحبّ ذاك الفيلم. لا أزال أذكر المرّة الأولى التي شاهدته فيها وكنت في الرابعة عشرة، فكّرت يومها أنّني أريد أن أكون هكذا، تمامًا مثل آل باتشينو، أنفّذ العدالة وأحدث فرقًا. أتعلمين، لقد التقيت به مرّة بعدما تخرجت من كليّة الشرطة. ولديّ صورة معه، إنّه نحيل القامة».

تناول رشفة من شرابه، والتقت أعينهما للحظة كانت كافية ليُدركا أنّ شيئًا ما يتحرّك فيهما. وكان يتذكر لاحقًا تلك اللحظة، ذاك اللقاء الأوّل للنظرات والاعتراف العابر غير الأكيد بالمشاعر المشتركة، أنّها أجمل لحظات حياته.

بقيا في المطعم لثلاث ساعات تقريبًا يتحدّثان ويغوصان أكثر واحدهما في الآخر، قبل أن تقترح عليه الذهاب إلى مطعم صغير تعرفه في الشارع الأرمني في المدينة القديمة، تناولا فيه السجق وخاغوغي ديريف. في ما بعد، تجوّلا في الشوارع الخالية يتبادلان النظرات المرتبكة من دون قول الكثير، فمرّا في الشارع اليهودي ثمّ عادا عبر موريستان ومنه إلى البوابة الجديدة ليتناولا هناك فنجانًا أخيرًا من القهوة في مقهى ليلي ويقدّم لها زنبقة بيضاء أخذها من إناء للزهور على إحدى الطاولات.

قالت له وهي تضم الزهرة إلى صدرها: «شكرًا إنّها جميلة».

خرجا وودّعا بعضهما وكان القمر فوقهما بدرًا وكأنّه برتقالة في حوض من المياه السوداء العميقة. شعر برغبة ملحّة بالانحناء وتقبيلها ولكنّه تراجع غير راغب بإفساد اللحظة. إلاّ أنّ هذه الأفكار لم تكن تدور في رأسها، بل أبعدت يده الممدودة لمصافحتها وأمسكت بكتفيه ثمّ وقفت على رؤوس أصابعها وقبلته بشغف.

قالت وهي تبتعد عنه بعينيها اللامعتين: «آسفة، لم استطع أن أقاوم، أظنّ عطرك هو السبب».

«لم أظنّ أنّ جاذبيّتي هي السبب».

قبّلته مجددًا بلطف وبطء أكبر هذه المرّة.

«أنت شاب جدًّا برأيي».

«إذًا ربّما حان الوقت لإجراء فحص لعينيك».

ابتسمت ومدّت يدها تلمس ذقنه الضخم وأنفه وخدّيه. ظلاّ كذلك للحظة طويلة يحدّقان إلى بعضهما ثمّ افترقا بعد أن اتفقا على اللقاء بعد يومين. وبينما كان يسير مبتعدًا نادته قائلة: «افتح عينيك، آرييه. انظر إلى ما يحدث في هذا البلد. أريدك أن تدرك أنّه يسمّمنا جميعًا. وما لم نقم بشيء لتغيير ذلك لن يكون لنا مستقبل. افتح عينيك أرجوك».

خلال الأسابيع والأشهر التالية، مع ازدياد علاقتهما عمقًا وامتلاء قلبه بحبّها،

فعل كما قالت وبدأ يرى أمورًا لم يرغب أبدًا برؤيتها ويطرح أسئلة لم يرغب بطرحها من قبل. وقد سبّبت له تلك الصحوة الكثير من الألم والإرباك والتردّد. مع ذلك تبعها لأنّه أحبّها ووثق بها وعرف أنّها كانت تساعده لكي يُصبح شخصًا أفضل.

على الرغم من ذلك، وبعد كلّ ما فعلته، قتلوها. الشعب نفسه الذي قاتلت للدفاع عنه وناصرت قضيّته بكلّ هذا الشغف، فجّر ساقيها وشوّه وجهها، ذاك الوجه الجميل اللطيف المرح. وبدا لبن-روي وهو واقف وحده في المقبرة يحدّق إلى قبرها أنّ المستقبل الذي حلما به، مستقبل السلام والتفاهم والأمل والنور، لم يكن سوى سراب. وكمسافر عطشان في الصحراء يشاهد واحة تاق للوصول إليها تتبخّر أمام عينيه، مجرّد خدعة ضوء، تمنّى لو أنّه أبقى عينيه مغلقتين ولم يتبع ذاك الوهم من الأساس.

أنهى أمنيته بينما كانت أصابعه تداعب المينورا الفضيّة المعلّقة على صدره، ذاك التذكار الصغير منها الذي لا يفارقه، ثمّ انحنى وقبّل القبر مرّة أخرى قبل أن يبدأ رحلة العودة.

حين وصل إلى أسفل التلّ التقى رجلاً يقف وحده مرتديًا يرمولك وتاليّت قرب قبرين منفردين. كان ظهر الرجل موجّهًا إليه ولم يدرك إلاّ بعد أن تجاوزه أنّه كان باروخ هار-زيون. التفت هذا الأخير نحوه والتقت أعينهما للحظة وجيزة، فهزّا رأسيهما بتحيّةٍ معرفة صغيرة قبل أن يستدير بن-روي ويتابع طريقه نحو البوابة في آخر المقبرة. هناك وجد حارس هار-زيون، آفي شتاينر، مستندًا إلى جدار. فتكرّر لقاء الأعين الوجيز وتحيّة المعرفة ثمّ خرج بن-روي إلى الطريق عائدًا إلى المدينة القديمة، وكان يتساءل أين يمكنه تناول شراب قبل أن يتوجّه إلى المخفر ليبدأ مناوبته.

القدس

عبرت ليلى الباحة المرصوفة الممتدّة أمام كنيسة القيامة وتوقّفت قليلاً لتأمّل المدخل ذو المُقنطر بأعمدته الرخاميّة الطويلة، المستقيمة والمتعرّجة كالأشجار، قبل أن تدخل الكنيسة المعتمة. ثمّة ثلاث نساء عجائز منحنيات أمام حجز الزيت، يرسمن إشارة الصليب بأياديهنّ وينحنين لتقبيل سطح الحجر الرملي وردي اللون. إلى يمينها رأت عددًا من الدرجات التي تؤدي إلى كنيسة صغيرة ذهبيّة خفيفة الإضاءة، الموقع التقليدي لصلب المسيح. تناهى إليها من أعماق المبنى أصداء ترنيم يختلط بترنيمة أخرى تنشد في مكان آخر في الكنيسة بحيث بدا قلب المبنى وكأنّه ينبض بخليط منخفض من الأصوات. مرّت بقربها مجموعة مسرعة من المتطوعين الأرمن يقودهم كاهن يرتدي عباءة طويلة ويضع قلنسوة.

تجوّلت للحظة عند المدخل تحاول التأقلم مع الإضاءة الخفيفة واشتمام رائحة البخور المسكيّة قبل أن تستدير يسارًا وتسير في القاعة المستديرة المقبّبة التي تحتلّ الطرف الغربي للكنيسة. رأت كاهنًا أرثوذكسيًّا شابًا يكنس الأرض، فاقتربت منه وسألته أين يمكنها إيجاد الأب سيرجيوس، الشخص الذي ذكره توم روبرتس الليلة الماضية.

أجاب الرجل بإنكليزيّة مبسطة: «إنّه طعام»، وقلّد حركة الأكل بيده. «يعود عشر ساعة».

«الليلة؟»

قطّب الكاهن حاجبيه مرتبكًا ثمّ ابتسم فجأة وقال: «كلاّ، عشرة ساعة. عشرة...»

«دقائق؟»

«نعم، نعم. دقائق. عشر دقائق».

شكرته ليلى وتركته يتابع عمله لتتجوّل قرب أحد أعمدة الغرانيت الضخمة التي تدعم قبّة القاعة ثمّ جلست على مقعد بقربه. راحت تتأمل أمامها الضريح المزخرف المزيّن بالأيقونات الذي يشكّل مكان دفن المسيح. خلفه بدا الكاثوليكون، وهو جزء المخصص للمرتلين والذي يحتلّ القسم المركزي من المبنى ويمتدّ شرقًا، تحيط به من الجانبين ممرّات وأروقة وأبواب ومزارات عسليّة اللون، اسودّت جدرانها وأصبحت ملساء عبر قرون من التعرّض لدخان الشموع ولمسات المتعبّدين.

نظرت حولها لبعض الوقت محاولةً استيعاب الهندسة المترفة والمختلطة، وأفواج السيّاح والحجاج ثمّ فتحت حقيبتها وأخرجت منها دفتر ملاحظاتها الذي قلّبت صفحاته حتّى وصلت إلى الملاحظات التي دوّنتها في الليلة الفائتة.

كان بحثها على الإنترنت قد أدّى إلى عدّة آلاف من الصفحات عن ويليام دو رولينكور، معظمها لا علاقة له بالرجل المقصود. وتبيّن لها بعدما ألقت نظرة على مائة موقع منها تقريبًا أنّ الرجل أثار قدرًا عظيمًا من التكهنات الخيالية من دون أن يثبت عنه شيء مؤكد. وبدا أنّ كلّ ما عُرف عنه مستمدّ من مقاطع موجزة وردت في كتب التاريخ في القرون الوسطى، وقد تُرجمت في عدد من المواقع.

كان أقصرها من كتاب ويليام أوف تير *Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum* (تاريخ الإنجازات التي تمّت ما وراء البحار)، الذي كُتب نحو عام 1170، وسجّل كيف أنّه «بعدما احتلّ الصليبيون المدينة وجدوا الكنيسة (كنيسة القيامة) صغيرة جدًّا، فأضافوا إليها مبنىً عاليًا ومنيعًا. في البداية تولّى ويليام

دو رولينكور العمل، إلى أن وقع خلاف بينه وبين الملك بالدوين ولاقى مصيرًا محزنًا. كما تمّ بناء برج للجرس». ويظهر المقطع الثاني، الأطول والأكثر تفصيلاً، في كتاب تحت عنوان *Massaoth Schel Rabbi Benjamin* (رحلة الحاخام بينجامين)، وكاتبه يهودي من مدينة طُليطلة الإسبانيّة زار الأراضي المقدّسة عام 1169 كجزء من رحلة امتدّت لعشر سنوات حول البحر الأبيض المتوسط والشرق الأدنى:

ثمّة قصّة رويت أيضًا عن الفرنسي غيوم دو رولينكار، الذي بنى تلك الكنيسة المعروفة لدى المسيحيين بكنيسة القيامة. إذ يُقال إنّه خلال ذاك العمل العظيم، حين كان يتمّ حفر الخنادق ووضع حجر الأساس، كما يحدث عادةً، عثر غيوم على مكان سرّي أخفي فيه كنز فائق القوّة والجمال لا يشبهه أيّ كنز عُرف من قبل. ونظرًا إلى حكمة الرجل وعدم موافقته على طريقة معاملة اليهود، لم يتحدّث عمّا وجد بل أخفاه لأنّ طبيعته كانت ستثير كثيرًا من الطمع والحسد بين المسيحيين. مع ذلك وصلت أخبار الكنز إلى الملك بادوين الذي أمر أن يُسلّم إليه. وحين رفض غيوم ذلك، اقتُلعت عيناه وألقي في بئر عميقة مات فيها بعد أربعة أيّام، لأنّه كان رجلاً قوّي البنية والروح. وقليلون يعرفون تلك القصّة التي رواها لي سيمون اليهودي الذي سمعها من جدّه.

وحيكت حول تلك المقاطع شبكة كاملة من النظريّات والافتراضات، بعضها عادي وبعضها الآخر عبثيّ تمامًا. إذ ادّعى أحد المواقع مثلاً، والذي يضمّ مجموعة من الأناشيد الغريغوريّة، أنّ ويليام اكتشف جسد المسيح المحنّط، مقوّضًا بذلك كامل العقيدة المسيحيّة. فيما تحدّث موقع آخر، تزيّنه رموز فلكيّة غامضة ويحمل عنوان حرّاس البوابة الكونيّة، بكلّ جديّة عن أنّ رولينكور قد عثر على بوابة بين المجرّات تتيح له الوصول إلى أبعاد أكبر للمكان والزمان، لينضمّ من خلالها إلى نادي المسافرين في الزمن والذي يضمّ توت عنخ أمون وكونفوشيوس والملك آرثر. وكان ثمّة الكثير من الأقاويل في هذا المجال تربط دو رولينكور بكلّ شيء، من الماسونيين إلى الكأس المقدّسة، ومن فرسان الهيكل إلى مثلّث بيرمودا. ولكنّ ليلى لم تجد أيّ تفسير واقعي لمعنى المقطعين بالتحديد ولم يتمّ إيجاد أيّ دليل مستقلّ ينفي صحّة القصّة أو يؤكد أنّ شخصًا يدعى ويليام دو رولينكور قد وُجد فعلاً.

بدت المسألة بأكملها واهية، ولكن على الرغم من قلّة الأدلّة، وعلى الرغم من شكوكها بأنّها تُجرّ إلى مطاردة خرقاء، إلاّ أنّها كلّما قرأت أكثر ازدادت تعلّقًا

بالموضوع. وحتّى مع معرفتها المحدودة بتاريخ القرون الوسطى، أدركت أنّه في حال كانت النسخة التي بين يديها هي لرسالة حقيقيّة، لا بدّ أن يكون الأصل وثيقة تاريخيّة قيّمة في غاية الأهميّة تُثبت أنّ دو رولينكور لم يكن شخصًا حقيقيًّا فحسب، بل وأنّه عثر فعلاً على كنز ثمين تحت الكنيسة.

ولكنّ ما أثار حماستها على المستوى المهني، ولا يزال، لم يكن مجرّد كشف النقاب عن لغز يرجع إلى تسعمائة عام، مهما يكن غامضًا، بل العلاقة بين ذاك اللغز والأحداث الحاليّة. أنا أملك معلومات لا تقدّر بثمن لهذا الرجل في نضاله ضدّ المحتلّ الصهيوني... إنّ المعلومات التي أتحدّث عنها هي على صلة وثيقة بالمستند المرفق. كيف يمكن لقصّة ويليام دو رولينكور أن تساعد رجلاً كالملثّم؟ وما العلاقة التي يمكن أن تربط أسطورة من القرون الوسطى بفلسطين المعاصرة؟ ما هو الرابط بين الماضي والحاضر؟ تلك كانت الأسئلة التي تشغل بالها الآن. إنّه أمر هامّ، حدسها يخبرها بذلك، ولكنّها بحاجة إلى المزيد من المعلومات والوقائع، مزيد من القطع لاكتمال الأحجية.

«ها هو».

نظرت إلى الأعلى، كان الكاهن الأرثوذكسي الشاب واقفًا وهو لا يزال يحمل مكنسته.

«الأب سيرجيوس، أتى».

أشار من فوق كتفها نحو الكاثوليكون، فالتفتت لترى رجلاً بدينًا جدًّا يرتدي ثوبًا أسود، وقد جمع شعره الرمادي الطويل خلف عنقه. كان يثبّت سلّمًا في الزاوية بين جدار وعامود. شكرت ليلى الكاهن ثمّ نهضت وتوجّهت نحو الرجل، لتمرّ في طريقها تحت ثريّا نحاسيّة ضخمة قبل أن تصل إليه وقد تسلّق الدرجة الأولى من السلّم.

«أب سيرجيوس؟»

نظر نحوها.

«أدعى ليلى المدني، أنا صحفيّة. أخبرني صديق لي أنّك تستطيع مساعدتي في قصّة أجري بحثًا حولها».

حدّق إليها الكاهن للحظة بعينين برّاقتين ثمّ نزل عن السلّم. كان وجهه السمين مرحًا، ظهرت فيه التجاعيد وغطّت نصفه السفلي لحية رماديّة مشعثة. لاحظت أنّه يرتدي تحت ثوبه جرابين وينتعل صندلاً ويرتدي سروالاً أرجوانيًّا فضفاضًا.

أضافت: «على ما يبدو، أنت تعرف كلّ شيء عن تاريخ هذه الكنيسة».

ابتسم قائلاً: «صديقك يبالغ من دون شكّ، فلا أحد يعلم كلّ شيء عن كنيسة

القيامة. أنا هنا منذ ثلاثين عامًا ولا أزال في بداية الطريق. هذا المكان... مليء بالتحديات».

كان صوته عميقًا ورنّانًا، يتحدّث الإنكليزيّة بطلاقة. وكانت رائحته حلوة، إمّا من العطر أو من رائحة البخور في ثوبه.

سألها: «ماذا تريدين أن تعرفي؟»

«أنا أجري بحثًا عن شخص يُدعى ويليام دو رولينكور».

اتسعت ابتسامته وراحت أصابعه تتخلّل خصل شعر لحيته.

«ويليام دو رولينكور؟ لماذا تسألين عنه».

هزّت ليلى كتفيها مجيبة: «إنّها مجرّد قصّة أجري بحثًا حولها، ألغاز القدس».

«هذا ليس من مقالاتك المعتادة». لاحظ الارتباك الذي بدا على وجهها فبدأ يضحك.

«آه، أنا أعلم من تكونين، آنسة مدني. نحن لسنا منقطعين عن العالم هنا. لقد قرأت كثيرًا من مقالاتك على مرّ السنوات. إنّها... صريحة جدًّا. أنتِ لا تتغاضين عن أيّ شيء يقوم به الإسرائيليون، ولكنّني لا أذكر أنّك أبديت يومًا اهتمامًا بتاريخ القرون الوسطى».

أجابته محاولةً عدم كشف الكثير من المعلومات وإبقاء أسبابها مبهمة: «إنّه مجرّد موضوع عابر سأعود إلى ضرب إسرائيل حالما أنتهي».

انفجر الكاهن ضاحكًا وعيناه تلمعان مرحًا وكأنّه يدرك تمامًا أنّها لا تخبره الحقيقة إلاّ أنّ الأمر لم يزعجه إطلاقًا.

قال وهو يُفلت لحيته ويضع يده على بطنه المنتفخ: «في هذه الحالة يتعيّن علينا مساعدتك لتنهي مقالك بأسرع ما يمكن، لا يمكننا أن نترك الإسرائيليين وشأنهم. ولكن هل تمانعين لو طلبت منك شيئًا بالمقابل؟»

«وما هو؟»

«أن تمسكي بالسلّم بينما أحاول التخلّص من هذه الطيور اللعينة».

أشار نحو الأعلى إلى حيث تحلّق حمامتان بيضاوان وترتطمان تكرارًا بزجاج نوافذ الكنيسة العالية.

«أريد فتح إحداها لكي تخرجا وإلاّ أمطرتا السيّاح بالأوساخ».

تأكيدًا لكلامه، سقطت كتلة كبيرة شبيهة بالطلاء وحطت على الثريّا النحاسيّة. استدار الأب سيرجيوس وبدأ يصعد السلّم من جديد.

«احرصي على تثبيته جيّدًا، فهو ينزلق أحيانًا».

تقدّمت وثبّتت السلّم بقدمها، فيما بدأ يصعد برشاقة لا تتناسب مع حجمه ووزنه. حين وصل إلى الدرجة الرابعة مال وتناول عصًا خشبيّة طويلة مستندة إلى الجدار. فأمسكها بإحدى يديه بينما استعمل اليد الأخرى لتثبيت نفسه وتابع صعوده. كان ثوبه المتمايل يكشف عن مشهد واضح لساقيه ومؤخرته المكسوة بالسروال. دخلت مجموعة من السيّاح وتحلّقت حول الأومفالوس، وهو الحوض الرخامي المزركش المنحوت وسط الأرض والذي يشكّل بالنسبة إلى التقاليد اليونانيّة الأرثوذكسيّة مركز العالم.

قال الأب سيرجيوس حين بلغ أعلى السلّم: «إنّه يجذب جميع أنواع الناس، ويليام دو رولينكور هذا. في العام الماضي أتانا عالم إيطالي أراد مسح الكنيسة كلّها بواسطة... ماذا تسمى تلك الآلة لقياس الإشعاعات؟»

«عدّاد غيجير؟»

«تمامًا. كان على قناعة أنّ ويليام اكتشف بقايا سفينة فضائيّة من الفضاء الخارجي وأنّها لا تزال مدفونة في مكان ما تحت الأرض. رجل مجنون».

بدأ يرفع العصا وهو يمسك بالسلّم بيده اليسرى محاولاً أن يطال أقرب نافذة على ارتفاع ثلاثة أمتار فوقه.

«ثمّ أتت مجموعة من الأميركيين يظنّون أنّه وجد بوابة إلى عالم آخر».

قالت ليلى مبتسمة: «حرّاس البوابة الكونيّة».

«سمعت عنهم؟»

«رأيت موقعهم الإلكتروني».

«مجانين. حتّى إنّ رجلاً يهوديًا عجوزًا يأتي كلّ يوم لأنّه يعتقد أنّ دو رولينكور وجد الوصايا العشر أو شيئًا من هذا القبيل. إنّه اليهودي الوحيد الذي رأيته هنا. يقف خارج الضريح ويصلّي وكأنّه حائط المبكى. يا للعجوز الأحمق المسكين. كلّ يوم».

كان جسده قد أصبح ممدّدًا تمامًا، يترنّح فوق الدرجة ما قبل الأخيرة ويحاول فتح النافذة بالعصا. انزلقت العصا ثلاث مرات قبل أن يوجّهها تمامًا نحو المزلاج ويفتح النافذة. وكان جسده قد مال كثيرًا أثناء هذه العمليّة إلى حدّ أن ليلى خشيت أن يسقط فوقها تمامًا. إلاّ أنّه تمكن من تثبيت نفسه وأمسك بالسلّم منتظرًا إلى أن رأت الحمامتان النافذة وخرجتا منها. عندها رفع العصا مجدّدًا واستعمل الصنارة المثبّتة بطرفها ليغلق النافذة وينزل إلى الأرض وهو يلهث.

قال وهو يضع العصا على الأرض وينفض ثوبه: «نحتاج إلى سلّم أكبر، هذا ما أقوله لهم دائمًا. ولكنّ الكاثوليك يقولون إنّنا لا نحتاج إليه ويرى السريان أنّنا لا نستطيع شراءه، أمّا الأرمن والأقباط فهم مختلفون عمّا إذا كان ينبغي أن يكون خشبيًّا أم معدنيًّا، وهكذا لا نتمكن من إنجاز شيء. صدقيني، مقارنةً ببعض الأشخاص الموجودين في هذا المكان يُعتبر الساعون خلف كنز دو رولينكور أكثر حكمة وعقلانيّة. هل ترغبين بفنجان من الشاي؟»

رفضت العرض، وتركا السلّم والعصا ثمّ عادا نحو القاعة المستديرة. ثمّة امرأتان، إحداهما عجوز والأخرى شابة ترتديان ملابس سوداء راكعتان داخل الضريح وهما تحملان الشموع وتصليان. أمّا الكاهن اليوناني الشاب فاختفى.

قال الأب سيرجيوس وهو يشير لها لتجلس على المقعد الذي كانت تحتلّه سابقًا ويجلس بقربها: «إذًا، لقد وفيتِ بنصيبك من الصفقة والآن تريدين أن تعرفي عن ويليام دو رولينكور. لا أعتقد أنّ لديّ الكثير لأقوله ولكن اسأليني على كل حال، سأحاول مساعدتكِ قدر الإمكان». أخرجت ليلى دفترها وقلمها ثمّ وضعت ساقًا فوق الأخرى ووضعت الدفتر فوق ركبتها بعد أن فتحته على صفحة جديدة.

قالت: «أوّل ما أريد السؤال عنه هو المصادر، فبعد البحث الذي أجريته على الإنترنت تبيّن أنّ دو رولينكور لم يُذكر إلاّ من قِبَل كاتبين من القرون الوسطى هما دو رولينكور و...»

تصفحت ملاحظاتها محاولة إيجاد اسم المسافر اليهودي.

قال الأب سيرجيوس: «بينجامين أوف توديلا».

«بالضبط. هل قرأت النصّين؟»

«لا أتذكرهما عن ظهر قلب ولكنّني قرأتهما منذ مدّة».

انحنت ليلى وأخرجت من حقيبتها صفحة مغضّنة.

«طبعتهما الليلة الماضية».

أعطته الورقة فحملها باتجاه الضوء وقرأها. بعد أن انتهى أعادها إليها.

قالت: «حسب ما فهمت فإنّ بالدوين أو بادوين كما يسميه بينجامين، كان ملك القدس بين عامي 1100 و1118».

هزّ الأب سيرجيوس رأسه موافقًا.

«وهذا يعني أنّ بينجامين وويليام أوف تير أرّخا القصّة بعد ستّين أو سبعين عامًا من وقوع الأحداث».

فكر قليلاً ثمّ هزّ رأسه من جديد: «صحيح».

«إذًا هل توجد نصوص أخرى؟ نصوص تاريخيّة تذكر دو رولينكور وتزوّدنا بمعلومات إضافيّة تؤيّد القصّة؟»

جمع الكاهن يديه فوق بطنه فبدتا وكأنّهما سرطانان ورديان كبيران يتشمّسان فوق صخرة ضخمة.

«لم أسمع عن مراجع أخرى. من المؤكد أنّ أيًّا من المؤرخين الصليبيين الأوائل لم يذكره. إيكيهارد أوف أورا، ألبرت أوف آخن، و... ما كان اسم ذاك المؤرخ الآخر؟... فالشير أوف شارتر، أحد منهم لم يذكره. يبدو أنّ ويليام أوف تير وبينجامين أوف توديلا هما الوحيدان اللذان تطرقا لذكره».

قالت ليلى: «وبينجامين هو الوحيد الذي يذكر شيئًا عن الكنز السري. إذ يكتفي ويليام أوف تير بالحديث عن خلاف ما بين دو رولينكور والملك بالدوين».

«أعتقد أنّهما سمعا على الأرجح روايات مختلفة للقصّة. فغالبًا ما يحدث ذلك مع مؤرخي القرون الوسطى، لا سيّما إن كانوا يكتبون بعد وقوع الحدث ويصفونه عن راوٍ ثانٍ أو ثالث. فتكون مصادره مختلفة وكذلك تفاصيل الأحداث».

«إذًا أي رواية هي الموثوقة أكثر؟»

رفع حاجبيه وقال: «من الصعب التأكد، مع أنّني أرجح أن تكون رواية بينجامين أوف توديلا هي الأصحّ. فقد كان يمرّ عبر الأراضي المقدّسة ولم يعش فيها على عكس ويليام أوف تير. ولكنّ التفاصيل الإضافيّة توحي أنّه سمع رواية أكثر اكتمالاً للقصّة. أمّا قصّة ويليام فتبدو وكأنّها تكرار لإشاعة قديمة».

دوّنت ليلى ملاحظة في دفترها.

«وهل تظنّ أنّ الرواية صحيحة؟»

هزّ الأب سيرجيوس كتفيه قائلاً: «من يعلم؟ صحيح أنّه لا توجد دلائل حسيّة تدعم ذلك، ولكن لا سبب أيضًا لدحضها. فقد كان بينجامين مؤرّخًا شديد الدقة ولم يروِ أساطير أو قصصًا من نسج الخيال أو أيّ شيء من هذا القبيل. كان يتحقّق دومًا من مصادره وأنا أثق به».

دخلت فجأة مجموعة من السيّاح اليابانيين الذين توجّهوا نحو القاعة المستديرة وراحوا يأخذون صورًا للقبّة والضريح.

قالت: «وهذا ما يقودنا إلى سؤال بديهي، إن كانت قصّة بينجامين حقيقيّة، علام عثر ويليام؟ ما كان ذاك...» نظرت إلى الورقة المطبوعة وتابعت: «ذاك الكنز فائق القوّة والجمال، الذي لا يشبهه أيّ كنز عُرف من قبل؟»

ابتسم الأب سيرجيوس ورفع يديه نحو خصلة الشعر المتدليّة من الجزء الخلفي

من رأسه.

«كما قلتِ سؤالاً بديهيًّا وأخشى أنّه لا يمكنني الإجابة عنه. مع أنّني أظنّ أنّها لم تكن سفينة فضائيّة».

ضحك وهو يحاول ترتيب شعره. خرجت أمامهما المرأتان من الضريح بعد أن انتهتا من الصلاة وبدأ السيّاح اليابانيون بالدخول واحدًا تلو الآخر فيما كان قلب الضريح لا يستقبل أكثر من أربعة منهم. كان الترتيل الذي سمعته ليلى حين دخلت قد اختفى ولم يخلّف سوى أصداء ثرثرة وكأنّ أحجار الكنيسة تهمس لبعضها.

قال الأب سيرجيوس بعد أن انتهى من ترتيب العقدة وأعاد يديه إلى بطنه: «كلاّ، لا أملك فكرة عمّا وجده ويليام دو رولينكور أكثر من آلاف الأشخاص الآخرين الذين توقعوا حول هذا الموضوع خلال الأعوام التسعمائة الأخيرة. قد تكون آثارًا مقدّسة أو رفات قديس أو كنزًا يعود إلى البازيليك البيزنطيّة، لا نعلم بكل بساطة».

كانت ليلى تطرق القلم على ساقها.

«وتقول إنّه ما من دليل حسيّ، لا شيء في الكنيسة نفسها؟»

هز رأسه نافيًا: «إن كان ويليام دو رولينكور قد مرّ من هنا، فلم يترك أثرًا».

رفعت القلم، وحكّت حاجبها ثمّ سألته: «ماذا يوجد تحتنا؟ ماذا كان يوجد هنا حين كان دو رولينكور يقوم بأشغاله؟»

حدّق إلى السقف المقبّب لبعض الوقت بينما كان يفرك أصابعه فوق بطنه ثمّ نهض وأشار إلى ليلى كي تتبعه، وسار عبر مدخل القاعة المستديرة المقبّبة إلى حيث أشرفا على مشهد واضح للضريح ومدخل الكنيسة الرئيس.

قال: «سأقودك في جولة سريعة لأعطيك فكرة عن تاريخ المكان».

مدّ يديه وكأنّه يحتوي المبنى المحيط بهما.

«في زمن المسيح، كانت هذه المنطقة تقع على حدّ علمنا خارج جدران المدينة التي كانت على بعد مائة متر تقريبًا نحو الجنوب». وأشار برأسه نحو الاتجاه.

«استنادًا إلى الكتاب المقدّس والمسيحيين الأوائل، فإنّ الجلجلة تقع هناك». وأشار نحو الكنيسة الصغيرة المرتفعة التي عبرتها ليلى في طريقها إلى الداخل. ثمّ أشار نحو الضريح قائلاً: «أمّا هناك، فكان يقع مقلع مهجور كان أثرياء اليهود يقتطعون منه قبورًا لأنفسهم». خرج آخر السيّاح اليابانيون من الضريح وتوجّهوا نحو الكاثوليكون، وهم يواصلون أخذ الصور.

«وخلال مائة عام بعد ذلك، شكّل هذا المكان مقصدًا للحجاج والمصلّين المسيحيين الأوائل. ولكن في عام 135م، قام الأمبراطور هادريان بتسويته وبنى فوقه

معبدًا جونو، جوبيتير ومينيرفا. ظلّ المعبد قائمًا لمائتي عام إلى أن أتى قسطنطين العظيم، أوّل أمبراطور مسيحي، فهدم معبد هادريان وبنى كنيسة رائعة مكانه تضمّ جميع المواقع المقدّسة».

أشار من جديد نحو الكنيسة الصغيرة والضريح.

«ثمّ دمرت كنيسة قسطنطين بدورها خلال الاجتياح الفارسي عام 614 وأعيد بناؤها بعد عامين، ثمّ دمرها زلزال وأعيد بناؤها، ثمّ دمرها الخليفة الفاطمي الحكيم وأعيد بناؤها ودمرت عدّة مرات قبل أن يأتي الصليبيون أخيرًا ويشيّدوا البناء الذي نراه اليوم والذي انتهى العمل فيه عام 1149. وشهد هذا البناء نفسُه كثيرًا من التعديلات في السنوات اللاحقة. على سبيل المثال، ترجع قبّة القاعة المستديرة والضريح إلى القرن التاسع عشر أساسًا».

كانت ليلى تدوّن المعلومات بسرعة في دفترها محاولةً متابعته.

تابع قائلاً: «ما أحاول قوله إنّ الكنيسة تخفي تحتها أثار ما يفوق ألف عام من البناء وإعادة البناء وصولاً إلى حجر الأساس الأصلي. من يعلم ماذا وجد دو رولينكور حين بدأ بالحفر؟ فاليهود، والرومان، والمسيحيّون الأوائل، والبيزنطيّون، والفرس، والمسلمون - قد يكون أيّ منهم دفن شيئًا هنا وعثر عليه ويليام لاحقًا. وبالطبع كان قبلهم الكنعانيّون، وجيبوسيت، والمصريّون، والأشوريّون، والبابليّون، واليونان. جميعهم مرّوا في القدس في مرحلة ما. والواقع أنّنا لا نعرف ببساطة ماذا كان يوجد تحت الكنيسة أو من تركه هناك وأشكّ في أنّنا سنعلم. وهذا بالطبع جزء من جاذبيّة القصّة».

جلس صامتًا يعبث بزرّ في ثوبه. مرّ راهبان قبطيّان مسرعان يرتديان القلنسوة السوداء المميّزة. أنهت ليلى الكتابة وحدّقت إلى ملاحظاتها مربكة ومحبطة على السواء.

تمتمت قائلةً: «إنّني كمن يحاول جمع قطع أحجية نصفها مفقود ومن دون أن يعرف ما هي الصورة الكاملة. لا بل ويقوم بذلك معصوب العينين».

ابتسم الأب سيرجيوس وقال: «ذاك هو التاريخ، أحجية هائلة».

سمعا خلفهما صوتًا خفيفًا لعصًا تطرق على الأرض، وارتفع الصوت تدريجيًّا إلى أن مرّ بقربهما عجوز ودخل القاعة المستديرة حتّى وصل إلى الضريح. كان ظهره منحنيًا وبشرة وجهه متهدلّة ومكسوّة ببقع الشيخوخة. وقف أمام الضريح وأخرج اليرمولك وكتابًا أسود صغيرًا ثمّ بدأ يصلّي وهو يميل بتصلّب من الأمام إلى الخلف متكئًا بثقل على عصاه.

قال الأب سيرجيوس بصوت منخفض: «هذا هو الرجل الذي أخبرتك عنه. يأتي كلّ يوم بانتظام كالساعة مقتنعًا أنّ دو رولينكور وجد الوصايا العشر أو تابوت العهد أو سيف الملك داوود – نسيت أيًّا منها، شيء يهودي قديم. وهذا ما يفعله هذا النوع من القصص، إرضاء حاجة داخليّة، أمل لا يمكن تحقيقه في العالم الواقعي».

راقبا الرجل لبعض الوقت ثمّ نظرت ليلى إلى دفترها وراحت تقلّب الصفحات.

«يقول بينجامين أنّ دو رولينكور لم يكن موافقًا على طريقة معاملة اليهود. ما معنى ذلك؟»

ابتسم الأب سيرجيوس بحزن وراح يحدّق إلى القبّة التي تعلوهما.

قال متنهّدًا: «لقد أساء الصليبيون معاملة اليهود. ذبحوا الآلاف منهم ممن كانوا يعبرون أوروبا، عشرات الآلاف. وحين استولوا على القدس، اقتادوا سكان المدينة اليهود بأكملهم إلى الكنيس الرئيس وأحرقوهم فيه. رجال، نساء، أطفال، لم يميّزوا بينهم». هزّ رأسه قبل أن يضيف: «وفعلوا الشيء نفسه مع المسلمين. يقال إنّ المساجد كانت تسبح بالدماء. وربّما تظنّين أنّ عيش هذه التجربة الفظيعة ينبغي أن يقرّب بين الديانتين، ولكن انظري إلى ما يحدث اليوم...» رفع يده وأخذ يفرك صدغيه: «أراضي الله المقدّسة تشهد كلّ هذا العذاب، لطالما كانت كذلك».

واصل فرك صدغيه للحظة، ثمّ خفض يده، واستدار نحو ليلى.

«حان الوقت لأبدأ بالتحضير لقداس الظهيرة».

قالت ليلى: «بالطبع، أشكرك على الوقت الذي خصصته لي».

«لست واثقًا أنّني ساعدتك».

«بل ساعدتني كثيرًا».

أعادت دفترها إلى الحقيبة ثمّ حملتها على كتفها.

قال: «تابعي الكتابة، سوف تحدث فرقًا».

ابتسمت ورفعت يدها مودّعة ثمّ استدارت ذاهبة.

نداها قائلاً: «ثمّة أمر مثير للاهتمام لأجل مقالك. يبدو بأنّ هيتلر كان مهووسًا بويليام دو رولينكور. كان لديه فريق من الأكاديميين يجرون أبحاثًا حول القصّة ويحاولون معرفة ما وجده وما حلّ به. وكان على قناعة بأنّه عثر على سلاح سرّي يمكنه استعماله ضدّ اليهود، حسبما تزعم الروايات. كما سبق وقلت، يجذب دو رولينكور جميع أنواع الأشخاص غريبي الأطوار. أتمنى لكِ حظًا سعيدًا آنسة مدني».

حيّاها بهزّة من رأسه ثمّ جمع يديه خلف ظهره وسار عبر الكاثوليكون.

«ألـو؟ ألـو؟ نعـم، أنا المفتش يوسـف خليفة من الشـرطة المصريّـة. أعتقد أنّني تحدّثت إليك... خليفة. كلاّ، خليفة. تمامًا. أنا أحاول إيجاد شخص يساعدني بالقضيّة التـي أعمـل عليهـا وتتعلّق بمواطنة إسـرائيليّة. ماذا؟ كلاّ، قضيّـة أعمل... هل تتحدّث الإنكليزيّة؟ ماذا؟... نعم، حسنًا، سوف أنتظر، شكرًا، شكرًا».

ثبّت خليفة سماعة الهاتف بين رأسه وكتفه وأخرج سيجارة من العلبة الموضوعة أمامه، وقد بدا عليه الإحباط. كان قد أمضى سـاعة تقريبًا يحاول تعقّب شـخص في الشـرطة الإسـرائيليّة يمكن أن يزوّده بتفاصيل عن حنّا شـليغل. ولكنّه حوّل من قسـم إلى قسـم ومن مكتب إلى مكتب ومن شـخص إلى شـخص آخر قبل أن ينتهي حيث بدأ، في المركز الرئيسي للشرطة الوطنيّة في القدس، مع امرأة يبدو أنّها تتحدّث بالكاد الإنكليزيّة، فما بالك بالعربيّة. كان لديه شعور أنّهم لا يأخذونه على محمل الجدّ لأنّه مصري وليس أميركيًّا أو أوروبيًّا. أشـعل سـيجارته وأخذ منها نفسًـا وهو يصغي إلى الصمت في الطرف الآخر.

قال معتقدًا أنّ الخطّ قد قُطع: «ألو؟ ألو؟»

عادت الحرارة إلى الخطّ، إذ قالت المرأة بصوت حادّ وكأنّها تتحدّث مع صبيّ مشاغب: «طلبت منك الانتظار، أرجو أن تنتظر».

عاد الصمت مجدّدًا. تمتم خليفة وهو يصرّ أسـنانه على مرشـح السـيجارة وقد تصلّب فكّه: «اللعنة، أنا أحاول مساعدتكم، أحاول مساعدتكم أيّتها المرأة!»

أخذ نفسًـا آخر ثمّ اسـتند إلى ظهر كرسـيّه يتأمل الملصق القديم لهرم جوسـر المدرّج المعلّق على الجدار المقابل ثمّ حوّل نظره إلى مكتبه الذي صفّ فوقه الأشياء التي أحضرها من منزل جانسـن – الصورة السـلبيّة، المنشـور، الوصيّة والمسـدّس. لم يكن ينقص سـوى السـبيكة الذهبيّة التي أعطاها لشـخص يدعى السـيّد محمّد حسون، خبيـر سبائك فـي بنـك مصـر، وعده بأن يحـاول معرفـة المزيد عن النسـر والصليب المعقوف المختومين على سطحها.

بالنسبة إلى ممتلكات جانسن، كانت الوصيّة واضحة بشأنها. إذ ضمّت إرشادات مفصلة من أجل بيع ممتلكات المتوفى وتوريث عدد من الأشخاص والمنظمات، بما في ذلك موظفي فندق مينّا–را، مدبرة منزل جانسن، جمعيّة البستنة المصرية، متحف الأقصر ومستشفى بروك البيطري للأحصنة والحمير. وكان ذكر هذه المؤسسة الأخيرة في الوصية مثيرًا للاستغراب.

وكانـت الحصـة الأكبـر مـن الميـراث – وتشـمل مجمل أملاك جانسـن – تعود

لأنطون وإينغا غراتز «لدعمهما لقضايا عزيزة على قلوبنا». وكانت كارلا شـاو، مديرة مينّا-را، قـد ذكـرت صديقين لجانسـن، أحدهما يدعى أنطون، فافتـرض خليفة بأنّهما الشخصان المقصودان. والمثير للاهتمام أنّ عنوان آل غراتز المذكور في الوصيّة، 16 شارع عرابي، كان في المعادي في القاهرة. والهاتف العمومي الذي وجد رقمه تكرارًا فـي فاتـورة هاتـف جانسـن يقـع في الحي نفسـه. وبعـد التحقّق من موقعـه بدقة لدى مؤسسة الهاتف المصرية، اكتشف خليفة أنّه يقع في الشارع المقابل للشقة التي يسكن فيها السيّد والسيّدة غراتز، ما يوحي بأنّهما الشخصان اللذان كان جانسن يتحدّث إليهما بانتظام. وبعد مزيد من البحث تبيّن أنّ آل غراتز لا يملكان رقم هاتف خاص - ولهذا السبب استعملا الهاتف العمومي - فاضطر خليفة إلى الاتصال بجيرانهما وطلب منهم أن يتركوا ملاحظة تحت باب منزلهما تطلب منهما الاتصال على الفور بشرطة الأقصر. ولكنّه لم يسمع حتّى الآن شيئًا عنهما.

أمّا بالنسبة إلى بقية الأغراض، فتبيّن أنّ المسدّس، استنادًا إلى السيّد صلاح، خبير الأسلحة في القسم، هو من عيار تسعة ملليمتر والذر ب 38 نصف أوتوماتيكي - وهو نموذج نادر هذه الأيام على ما يبدو، على الرغم من أنّه مطلوب بين جامعي الأسلحة، استنادًا إلى صلاح، لأنّه كان سلاح الجنب الرسمي للعسكريين الألمان خلال الحرب العالميّة الثانية. وكان المسدّس نظيفًا ومزيّتًا وفي حالة ممتازة صالحة للاستعمال كما أنّ خزّانـه المؤلـف مـن ثمانـي رصاصـات كان ممتلئًـا. وعلى غرار بقيـة نواحي عالم جانسن، أثارت المعلومات من الأسئلة أكثر مما حلّت.

لم يكن لديه الوقت لمعرفة شـيء عن الغرضين الأخيرين، المنشـور والصورة. انحنى إلى الأمام وتناول هذه الأخيرة ثمّ حملها نحو الضوء وهو ينفخ دخان سيجارته والهاتف لا يزال مثبّتًا إلى أذنه بيده اليسرى. لم تعنِ له شيئًا صورة باب القبر المظلم الضيّـق الواقـع عنـد أسـفل جدار صخري عامـودي. وبعد التحديق إليهـا للحظة وهو يتسـاءل مـا إذا كانـت علـى علاقة بالقضيّة، وضعها وتناول المنشـور وراح يقرأه ببطء مذهولاً وهو يتسـاءل عن السـبب الذي يجعل شـخصًا كجانسن يهتم بأصولي كالشيخ عمر عبد الكريم. وبينما هو يدوّن ملاحظةً عن اللقاء الذي يعلن عنه المنشور، سمع صوتًا على الخطّ.

«هل تحدّثت مع السفارة الإسرائيليّة في القاهرة؟»

أجاب خليفة وهو يطفئ سـيجارته في المنفضة محاولاً السـيطرة على أعصابه: «السفارة الإسرائيليّة في القاهرة هي التي أعطتني رقمكم».

طُلب منه الانتظار مجدّدًا ولكنّ الصوت عاد بعد خمس عشـرة ثانية ليسـأل إن

كان خليفة يعرف آخر عنوان معروف للضحيّة أو «مكان إقامتها قبل الوفاة»، ما اعتبره الشيء نفسه. فتناول ملف قضيّة شليغل وراح يتصفّحه.

قرأ وهو يحاول تهجئة الكلمات غير المألوفة: «46 شارع أوهور هار شيم، الطابق الرابع». وكرّره مرّتين قبل أن تتعرّف عليه المرأة.

قالت: «أور ها-شايم. إنّه في المدينة القديمة. عليك التحدّث مع مخفر شرطة دايفيد».

وأعطته رقم الهاتف.

«هلاّ أعطيتني اسم شخص هناك؟»

«اطلب قسم التحقيقات، سيساعدونك».

ألحّ عليها خليفة وهو مدرك أنّه من دون اسم معيّن سوف ينتهي بالتحدّث مع إحدى السكرتيرات: «أريد اسمًا لو سمحت، شخصًا أتحدّث معه مباشرةً. أيّ شخص رجاءً».

أطلقت المرأة تنهيدة منزعجة من دون أن تحاول أن تبذل جهدًا لإخفاء انزعاجها منه، ثمّ طلبت منه الانتظار مرّة ثالثة قبل أن تعود لتعطيه اسمًا دوّنه خليفة أمامه.

«أهو تحرّي؟»

قالت باختصار قبل أن تقفل الخطّ: «إنّه تحرّي».

وضع السمّاعة وأشعل سيجارة أخرى وهو يتمتم غاضبًا. إنّ أسوأ شكوكه عن الإسرائيليين قد تحقّقت. أخذ نفسين عميقين ثمّ رفع السماعة مجدّدًا وطلب الرقم الذي أعطته إيّاه المرأة. رنّ الهاتف سبع مرات قبل أن يجيب أحدهم.

قال: «مرحبًا، أنا المفتّش يوسف خليفة من الشرطة المصرية. هل يمكنني التحدّث إلى...»

حدّق إلى الورقة أمامه: «التحرّي آر-يي-يه بن-رو-وي».

القدس

كان الهاتف يرنّ حين دخل بن-روي مكتبه، وقد أثقل رأسه الشراب الذي تناوله في طريقه إلى المخفر، هذا من دون ذكر الكآبة الرهيبة التي كانت تنتابه كلّما زار قبر غاليا. رفع السماعة وهو يشتم أيًّا يكن على الطرف الآخر من الخطّ.

«كين».

«التحرّي بن-رو-وي؟» صحّح الإسرائيلي عابسًا: «بن-روي». من يكون هذا الأحمق؟

«عذرًا، أنا المفتّش يوسف خليفة من الشرطة المصرية. حصلت على اسمك من المركز الرئيسي للشرطة المركزيّة».

لم يقل بن-روي شيئًا.

«ألو؟»

«كين».

«هل تتحدّث الإنكليزيّة، سيّد بن-روي؟»

«*Ata medaber Ivrit*؟»

«عفوًا؟»

«هل تتحدّث العبريّة؟»

«كلاّ، في الواقع».

«إذًا يبدو أنّني مضطر إلى التحدّث بالإنكليزيّة. ماذا تريد؟»

نفخ خليفة دخان سيجارته. لم يتحدّث مع الرجل لأكثر من خمس عشرة ثانية ويشعر منذ الآن بأنّه لا يحبّه.

قال وهو يحاول التحدّث بنبرة متمدّنة: «أنا أحقّق في قضيّة تتعلّق بمواطنة إسرائيليّة، جريمة قتل».

نقل بن-روي السماعة إلى يده اليسرى واستعمل اليمنى لإخراج القارورة من جيبه.

«إذًا؟»

«الضحيّة هي امرأة تدعى حنّا شليغل. قتلت عام 1990».

ضحك بن-روي ساخرًا: «وهل بدأت التحقيق في القضيّة الآن؟»

«كلاّ، كلاّ، لقد أسأت فهمي، لقد حقّقنا في القضية في وقتها وتمّت إدانة رجل. ولكنّ أدلّة جديدة ظهرت ونحن نعيد البحث فيها».

فتح بن-روي غطاء القارورة وتناول جرعة منها.

«أدنتم شخصًا بريئًا».

كان اتهامًا أكثر منه سؤالاً، تقليلاً من الكفاءة المهنيّة. فصرّ خليفة على أسنانه وهو يجيب: «هذا ما أحاول اكتشافه».

تناول بن-روي جرعة أخرى.

«إذًا ماذا تريد منّي؟»

«أنا أحاول الحصول...كيف أقولها؟... بعض المعلومات عن خلفيّة الضحيّة،

مهنتها، عائلتها، أصدقائها، اهتماماتها. أيّ شيء قد يساعد على إيجاد دافع للقتل».

«و؟»

«عفوًا؟»

«لماذا تتصل بي؟»

«آه، حسنًا، كانت الضحيّة تعيش في -» نظر خليفة مجدّدًا إلى الملف - «شارع أور ها-شايم. رقم 46، الشقة 4. وقيل لي إنّ هذا العنوان يندرج ضمن... كيف أقولها؟... مسؤوليّة مخفركم».

جلس بن-روي وراح يفرك صدغيه بيده الخالية. حبًّا بالله! هذا آخر ما يحتاج إليه، التورط في تحقيق مشترَك مع مجرّد هواة، معظمهم هواة. ما كان يجدر به رفع السماعة.

قال بفظاظة: «أنا مشغول الآن، هل يمكنك الاتصال لاحقًا؟»

«اليوم؟»

«الأسبوع المقبل».

أجاب خليفة وقد شعر برغبته بالتخلّص منه ورفض ذلك: «أخشى أنّني لا أستطيع الانتظار حتّى ذلك الحين. ربّما يمكن لأحد زملائك مساعدتي». أراد أن يقول شخص أكثر احترافًا وأكثر فخرًا بعمله. «أو ربّما يمكنني التحدّث إلى رئيسك».

ازداد وجه بن-روي عبوسًا. يا للعربي الحقير! أبعد السماعة عن أذنه بنيّة إقفال الخطّ في وجهه ولكنّه شعر بأنّه لن يتخلص منه بهذه السهولة. لمَ لا يترك الهاتف يرنّ.

تعالى صوت خليفة عبر الخطّ: «سيّد بن-روي».

أجاب بن-روي وهو يتناول جرع أخيرة من القارورة قبل أن يعيد إغلاقها: «نعم، نعم، حسنًا، أعطني الاسم والعنوان مجدّدًا».

تناول قلمًا وبدأ يكتب التفاصيل الذي يكرّرها خليفة.

«ومتى قُتلت؟»

«في 10 آذار 1990. يمكنني أن أرسل لك الملاحظات المتعلّقة بالقضيّة إن أردت».

قال بن-روي: «انسَ الأمر». كان مدركًا أنّ مزيدًا من المعلومات يعني مزيدًا من العمل ولم يكن مستعدًّا لأكثر من اتصالين وربّما زيارة سريعة لعنوان المرأة السابق. وإن لم يكن هذا كافيًا فإنّها مشكلة العربي، هو الذي أخطأ في النهاية.

تابع خليفة: «ثمّة أمر أودّ أن تعرفه. إنّ المشتبه به الرئيس في هذه القضيّة هو شخص يُدعى جانسن. وأي علاقة قد تجدها بين هذا الرجل وحنّا شليغل ستكون مفيدة جدًّا. أعني –»

«أجل، أجل، فهمت. بيت هانسن».

صحّح خليفة من دون أن يخفي الانزعاج في صوته: «جانسن. ج...ا...ن...س...ن، هل فهمت؟»

كانت يد بن–روي مشدودة في قبضة وهو يجيب مزمجرًا: «فهمت».

تناول خليفة نفسًا غاضبًا من سيجارته وأنهاها قبل أن يطفئها في المنفضة.

«سوف تحتاج إلى معلومات للاتصال بي».

أجاب بن–روي بخشونة: «أظنّ ذلك؟»

أعطاه خليفة إيّاها ثمّ سأله: «وماذا عنك؟»

فأعطاه بن–روي عنوانه الإلكتروني.

«وماذا عن الهاتف المحمول؟»

قال الإسرائيلي وهو يحدّق إلى محموله: «لا أملك واحدًا».

كان خليفة يعرف تمامًا أنّه يكذب ولكنّه لم يرَ جدوى من الإصرار، فاكتفى بالقول إنّه سيقدّر لو يتعامل بن–روي مع المسألة بأسرع ما يمكن.

تمتم الإسرائيلي: «بالتأكيد». حلّ الصمت وبدا أنّ الخطّ بينهما امتلأ بالكره المتبادل، ثمّ قال بن–روي أنّ لديه عملاً يقوم به إن كان هذا كلّ شيء. شكره خليفة وبدأ الرجلان بخفض السماعتين.

«سؤال واحد!»

تردّد صوت خليفة عبر الخطّ فأجاب بن–روي بضيق: «ماذا؟»

كان خليفة يتصفح الملف بسرعة.

«ثمّة ما لا أفهمه. كانت الضحيّة تحمل على ذراعها... وشمًا».

وصل خليفة إلى صورة بالأبيض والأسود لذراع المرأة الميتة أخرجها من الملف وحملها أمامه.

«رقم. أربعة- ستّة- تسعة- ستّة-ستّة، مع مثلّث أمامه. أهو من الطقوس اليهوديّة؟»

جلس بن–روي من جديد في كرسيه وهو يهزّ رأسه. يا للعربي الجاهل المعادي للساميّة.

«إنّه رقم مخيّم اعتقال. كان النازيون يشمون السجناء اليهود على أذرعهم. وبما أنّ معظمكم لا يصدّق أنّ هذا الأمر قد حدث، فهذا لن يساعدك كثيرًا. هل ترغب بمعرفة أيّ شيء آخر؟»

كان خليفة يحدّق إلى الصورة أمامه.

كرّر بن-روي بصوت أعلى: «أيّ شيء آخر؟»

«كلاّ، لا شيء».

«إذًا سأكون على اتصال بك».

أُقفل الخطّ ولكنّ خليفة ظلّ يحدّق إلى الصورة لوقت طويل، وعيناه مثبّتتان على الأرقام الخمسة المحفورة التي تعلو ذراع المرأة وكأنّها صفّ من الحشرات التي خرجت من التلّة المثلّثة، ثمّ وضعها جانبًا وتناول مسدّس جانسن. نظر إليه هو الآخر لبعض الوقت، مقطّب الجبين، قبل أن يضعه ويتناول ورقة كتب عليها «نازي» و«معتقل»، ووضع تحت كلّ منهما خطين أسودين.

القدس

«إنّ الحرب الدائرة بين الفلسطينيين والإسرائيليين - وهي حرب من دون شكّ - تُخاض على عدّة مستويات وتستعمل فيها أسلحة عديدة. أوّلها هو بالطبع المواجهة الجسديّة: الحجارة مقابل البنادق، كوكتيل المولوتوف مقابل دبابات الميركافا، ألغام السيّارات والهجمات الاستشهاديّة مقابل الأباتشي والأف 16.

«غير أنّه ثمّة عناصر أخرى في هذا الصراع ربّما كانت أقلّ وضوحًا ولكنّها لا تقلّ أهميّة. الدبلوماسيّة، الدين، البروباغاندا، الاقتصاد، الذكاء، الثقافة - جميعها مجالات تشهد صراعًا مستمرًا بين شعبي والمحتلّ الإسرائيلي يوميًّا. وأودّ التركيز في هذا المقال على أحد مسارح الاحتكاك الأكثر أهميّة والتي تحتلّ قلب هذا الصراع: الآثار».

توقّفت ليلى، وراحت أصابعها تطوف فوق لوح المفاتيح وتراجع بعينيها ما كتبته للتوّ. أخذت تقرأ الكلمات بصوت عالٍ للتأكد من سلاستها ومن معناها. أضافت جملة أخرى، «فبالنسبة إلى الإسرائيليين، شكّل علم الآثار، لا سيّما اكتشاف أدلّة تدعم وجود دولة إسرائيل التوراتيّة على الأراضي التي يحتلّونها الآن، منذ البداية عنصرًا أساسيًّا في حربهم ضدّ الفلسطينيين». ثمّ تنهّدت ودفعت كرسيّها عن المكتب قبل أن تنهض متوجهة إلى المطبخ لإعداد بعض القهوة.

كانت تقلّب في ذهنها المقال الذي تكتبه لمجلّة بالستاين-إزرايل جورنال طيلة

الأسبوع الماضي، منذ لقائها بالشاب يونس أبو جيش في مخيّم قلنديا للاجئين. كان موضوعًا جيّدًا وكانت تتوقّع إنهاءه خلال ساعتين أو أقلّ نظرًا لسرعتها في الكتابة ولكونها أعدّت الموضوع في رأسها مسبقًا.

غير أنّ العمل استغرق حتّى الآن ضعف هذا الوقت، منذ عودتها من لقائها مع الأب سيرجيوس، ومع أنّ المساء قد حلّ، إلاّ أنّها لم تكتب سوى جزءٍ من الألفي كلمة التي تنوي كتابتها. لو أنّ الموضوع كان مختلفًا لربّما استطاعت التركيز بشكل أفضل. ولكنّ مراجع الآثار والتاريخ كانت تذكرها على الدوام بويليام دو رولينكور. وكلّما كتبت بضع كلمات كان ذهنها يتشتتّ على الفور ويجذبها بعيدًا عن عملها ليعيدها إلى دو رولينكور والكنز الغامض الذي يُفترض أن يكون قد وجده مدفونًا تحت كنيسة القيامة. كانت تتساءل باستمرار عن ماهية ذاك الكنز وعلاقته بالملثّم والشخص الغامض الذي أرسل لها القصّة في الأساس. ماذا؟ كيف؟ من؟ كانت الأسئلة تتردّد في رأسها وكأنّها جرس يرن بلا توقّف ويشتّت انتباهها.

أعدّت قهوتها على الطريقة الفلسطينيّة، فغلت الماء في ركوة معدنيّة وأضافت إليها البن والسكر ثمّ صعدت إلى السطح وراحت تحدّق شرقًا إلى السماء التي بدأت تجتاحها الظلمة محاولةً إعادة الصفاء إلى ذهنها. كانت أضواء الجامعة العبريّة على قمّة جبل المَشارِف قد أنيرت، وكانت حادّة وباردة وكأنّ التلّة مكسوة بصفحة لمّاعة من الجليد. إلى اليمين، على جبل الزيتون، بدت كنيسة الصعود محاطة بهالة من الضوء أكثر دفئًا. ابتسمت وهي تتذكر كيف كانت تتسابق مع والدها على الطريق المنحدر من الكنيسة حتّى البازيليك في الأسفل، وكان يتحدّاها أنّها لن تهزمه. ولكنّها كانت تفعل، وعلى الرغم من أنّها كانت تعلم أنّه كان يتركها تفوز ويتخلّف عنها عمدًا، إلاّ أنّ تلك المعرفة لم تخفّف نشوة إحساسها بالفوز وهي تعبر خطّ النهاية المتفق عليه وترفع ذراعيها النحيلتين وهي تهتف فرحًا قبل أن تطلب جائزتها لاهثةً.

كانت تلك الذكرى، شأنها شان كثير من ذكرياتها عنه، تثير فيها مشاعر متناقضة. فهي صورة مفعمة بالسعادة ولكنّها أيضًا رمز للكآبة. ففي النهاية هي ما زالت تخوض ذاك السباق بشكل من الأشكال. فوالدها، منذ وفاته، هو دائمًا خلفها، يلاحقها، يحثّها، لا يتراجع أبدًا مهما أسرعت. والفرق الآن هو أنّه في الماضي تواجدت مسافة محدّدة، نهاية واضحة أمامها ومكافأة على مجهودها، أمّا اليوم... ماذا؟ لا شيء. ما من توقعات بالفوز أو الفرح، ما من متعة على الإطلاق. مجرّد عدو متواصل، جريٌ من فراغ إلى فراغ. وذكرى والدها خلفها على الدوام، جمجمته المحطمة ويداه المكبلّتان خلف ظهره وكأنّه حيوان مقيّد في مسلخ. كانت حاضرة دومًا، تحثّها على الاستمرار.

مسـحت بذراعهـا الدمـوع التـي تجمّعت في عينيها ثمّ حدّقـت إلى آخر خطوط الضوء وهي تذوب تدريجيًّا في سماء الليل. هبّ نسيم داعب وجهها فأغلقت عينيها مستمتعةً بهواء الليل العذب. ظلّت كذلك لوقت طويل تتمنّى لو أنّها تستطيع التحليق فوق أسطح البيوت والطيران بعيدًا عن هذا الواقع المرّ وترك كلّ شيء خلفها. ثمّ أنهت شـرب قهوتها متنهّدةً ونزلت عائدةً إلى مكتبها لتجلس أمام حاسـوبها وتقرأ ما كتبته. أضافت جملتين أخريين، وحين أدركت أنّها مضيعة للوقت وأنّ ذهنها مشـغول جدًّا، أغلقت الملف الذي تعمل عليه ووضعت ملاحظاتها جانبًا ثمّ دخلت شبكة الإنترنت. فتحت صفحة غوغل وطبعت «ويليام دو رولينكور» في حقل الموضوع.

أمضـت السـاعات الخمـس التاليـة وهـي تقـرأ كلّ صفحة تتعلّق بـه وتبحث عن معلومات جديدة قد تكون أغفلتها في بحثها الأوّل الليلة الفائتة. ويليام دو رولينكور والـكأس المقدّسـة، ويليـام دو رولينكـور والروزيكروشـيّون، ويليـام دو رولينكـور ومخطوطات أتلانتيس الضائعة، ويليام دو رولينكور ومؤامرة الفاتيكان للاستيلاء على العالم؛ تصفحتها جميعًا وبدا كلّ عنوان أغرب من السابق. لا بل كان الموضوع أكثر غرابة مما لو كانت تبحث عن مقالات عن غرباء الأطوار في العهد الجديد أو تاريخ المعتزلة الجدد. إلاّ أنّها لم تجد شيئًا جديدًا تضيفه إلى الوقائع التي لديها.

وحيـن انتهـت مـن الاطلاع على جميع المقـالات المتعلقة بويليام دو رولينكور، بدأت بالبحث في أشكال أخرى للاسم: غييلموس دو رولينكور، غيوم أوف رولينكار، إسـكلارموند دو رولينكـور، دو رولينكـور يهـود، دو رولينكـور فرنسـا، دو رولينكـور لانغدوك، دو رولينكور C. مع ذلك لم تجد شيئًا. أحيانًا لم يأتِ البحث بأي نتيجة وفي أحيان أخرى كان يعطيها عشرات النتائج جميعها لا صلة لها بالموضوع أو يعطيها نتائج سبق أن قرأتها تحت عنوان آخر.

إلاّ أنّ بحثًـا واحـدًا بـدا مفيـدًا أو علـى الأقـلّ مثيرًا للاهتمام، وهـو «غييلموس رولينكور هيتلر»، الذي طبعته استنادًا إلى جملة الأب سـيرجيوس ذاك الصباح. وهنا أيضًا وجدت أكثر من نظريّة جنونيّة، تقترح إحداها أنّ دو رولينكور اكتشـف سـلاحًا سـريًّا يمكنـه القضـاء علـى كامل الشـعب اليهودي فـي العالم. ولأسـباب بديهيّة، كان هيتلـر متحمّسًـا لوضـع يديـه على ذاك السـلاح (والكاتب أيضًا، نظـرًا إلى نبرة المقال المعاديـة للسـاميّة). غيـر أنّـه كان ثمّـة عدد من المقالات الأكثر واقعيّة والتي أشـارت أنّ دو رولينكـور اعتُبـر مثـالاً عن هَـوَس الديكتاتور الموثّق بالآثار والغموض. وكانت معظم المراجع موجزة وتفتقر إلى التفاصيل المؤيدة لذلك، ولكنّ أحدها، وهو مقال كتبه فرنسـي يدعى جان ميشـال دوبون، احتوى على ملاحظة هامشـيّة مثيرة للتسـاؤل

اقتبسها من يوميات شخص يدعى ديتريش إيكارت، وهو أيديولوجي نازي والشخص الذي أهدى إليه هيتلر على ما يبدو ماين كامبف:

13 تشرين الثاني 1938

جمعيّة ثول. العشاء، فيفيلسبورغ. المعنويات عالية بعد أحداث 10-9، وكان و.ف.س. يُطلق التعليقات الساخرة عن «تبديد آمال اليهود». قال د.ه. أنّها ستكون أكثر من مبدّدة إن نجح موضوع رولينكور، تلا ذلك مناقشة طويلة عن الكاثار... الطيور، الشراب. اعتذارات من ف.ك. وو.ج.

وبعد بعض الأبحاث الإضافيّة، تبيّن بأنّ فيفيلسبورغ هو قصر شمال غرب ألمانيا، مقرّ قدّيسي هيملر؛ جمعيّة ثول هي رهبنة شبه سريّة كرّست نفسها للترويج لأسطورة أريان؛ أحداث 10-9 تشير إلى التدمير الجماعي للأملاك اليهوديّة والذي سميّ لاحقًا «كريستالناخت»؛ والكاثار هو اسم وقعت عليه عدّة مرات في مقالات أخرى، يشير إلى طائفة من المهرطقين المسيحيين ازدهرت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر (والمثير للاهتمام أنّها كانت ناشطة على نحو خاص في منطقة لانغدوك في فرنسا). أمّا الأحرف و.ف.س.، ف.ك. وو.ج. فتبيّن بحسب أبحاثها أنّها تنتمي إلى وولف رام فون سيفرس، فريدريخ كرون وولتر جانكون، وهم أكاديميون وأعضاء منتظمون في جمعيّة ثول.

كانت كلّ تلك المعلومات مثيرة للاهتمام. ولكن لسوء الحظ، فإنّ الجزء الوحيد من المقطع الذي أرادت فعلاً إيجاد معلومات عنه، وتحديدًا صاحب الحرفين د.ه. ومعنى «إن نجح موضوع رولينكور»، لم تجد شيئًا عنه. ولم يكن ثمّة عنوان للاتصال بجان ميشال دوبون. وبعد نصف ساعة من البحث غير المجدي في محاولة لتوضيح المسألة، قرّرت أنّ هذا الموضوع أيضًا هو طريق مسدود آخر واستسلمت.

قالت وهي تضرب بقدمها قائمة المكتب: «تبًّا! علامَ يفترض بي أن أبحث؟»

كان الليل قد انتصف تقريبًا. حدّقت إلى الشاشة وقد غشى عينيها التعب ومدّت يدها لإطفاء حاسوبها المحمول بعد أن استسلمت لفكرة أنّها لن تجد مزيدًا من المعلومات هذه الليلة. إلاّ أنّها بدافع من اليأس والتعب أكثر منه إيمانًا بالتوصل إلى أي نتيجة، طبعت مجموعة أخيرة من الكلمات العشوائيّة في حقل الموضوع، وكانت أوّل ما خطر ببالها من دون تفكير، إذ طرقت لوح المفاتيح آليًّا وكأنّ أصابعها هي التي قامت بالمبادرة وليس عقلها: «رولينكور فرنسا كنز نازيون سرّي يهود». توقفت

للحظة تحدّق إلى ما كتبته ثمّ قامت بتبديل «رولينكور» بكلمة «ويليام» من دون سبب منطقي وضغطت على أيقونة البحث.

كان أوّل عنوان في اللائحة:

جمعيّة التاريخ في كليّة سان جون... الأستاذ ماغنوس توبينغ، بعنوانه المثير «ويليام الصغير وسرّ كاستيلومبر: حكاية عن النازيين، كنز...»

www.joh.cam.ac.uk/historysoc/lent.html

كان الموقع ينتمي، كما يشير العنوان لجمعيّة التاريخ في كليّة سان جون، كامبردج، ويتألّف أساسًا من تقرير مطوّل عن أحداث ونشاطات الفصل السابق، ومعظمها لا علاقة له بدراسة التاريخ. إلاّ أنّ الفقرة الأخيرة من التقرير تشير إلى التالي:

أمّا الحديث الأخير في هذا الفصل الحافل بالأحاديث - لا، الفيّاض بالأحاديث! - فألقاه أستاذنا العزيز جدًّا ماغنوس توبينع، بعنوانه المثير «ويليام الصغير وسرّ كاستيلومبر: حكاية عن النازيين، الكنز، الكاثار، ومحاكم التفتيش». ففي تلك المحاضرة التنويريّة والمنوّعة، شرح الأستاذ توبينغ كيف كشف بحثه في سجلاّت محاكم التفتيش في القرن السادس عشر علاقة غير متوقعة بين كنز الكاثار الأسطوري و«سرّ كاستيلومبر» المزعوم، وهذا الأخير هو قصر يقع في منطقة لانغدوك في فرنسا تفيد أسطورة القرون الوسطى أنّه يخبئ كنزًا غامضًا لا يقدّر بثمن. ومن هذه النقطة انطلق بنا في رحلة مذهلة إلى عالم الطقوس اليهوديّة الغامضة وعلماء الآثار النازيين وفظائع محاكم التفتيش الكاثوليكيّة (كان ويليام الصغير مستجوِبًا شديد القسوة). ولم يكن تأثيرها العام مشابهًا للمحاضرات التاريخيّة المعتادة بل كانت أقرب إلى رواية تاريخيّة تشويقيّة رائعة. كانت أمسية لا تُنسى حقًّا، لا سيّما حين قضى محاضرنا المحترم على زجاجة كاملة من الشراب! آه، فليندم كلّ من تخلّف عن الحضور!

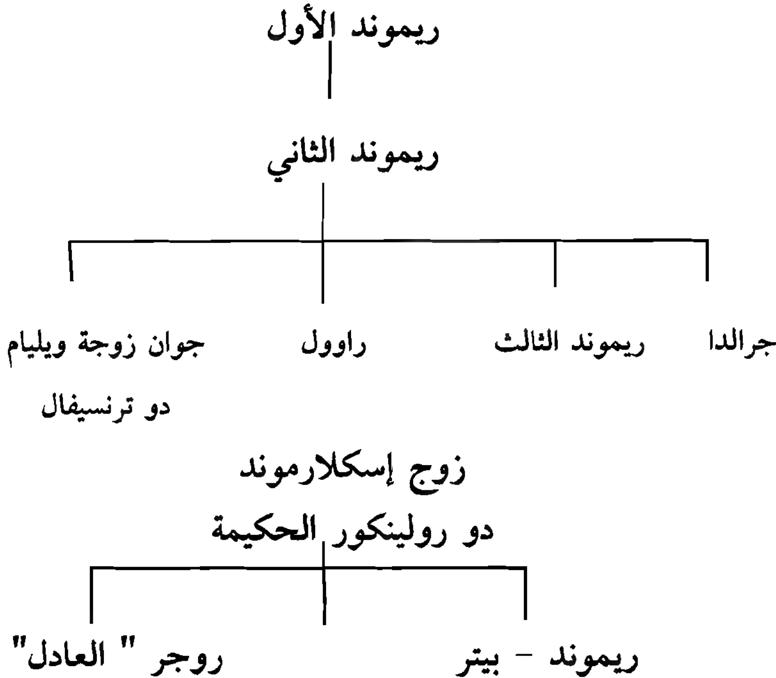
كان ردّ فعل ليلى الأوّلي عند قراءة ذاك النص شعورًا بالتسلية إزاء الأسلوب الصبياني الرنّان رافقه إحساس بالخيبة لأنّ ويليام المذكور هنا لا علاقة له على الإطلاق بذاك الذي تبحث عنه، خلافًا لما توقّعت في البداية. وبسبب تعبها وإرهاقها، بعد تمضية أمسية كاملة من البحث في مستنقع من الأحداث التاريخيّة، لم تبدأ بالربط بين التقرير والبحث التي تقوم به إلاّ بعد قراءتها الثانية. ولم تلاحظ كلمة «كاستيلومبر» إلاّ بعد أن قرأت النص للمرّة الثالثة.

كاستيلومبر. لانغدوك. C.

جلست في مكانها للحظة تحدّق إلى الاسم وتستوعبه ثمّ بدأت تبحث بجنون بين كومة الأوراق على مكتبها لتخرج ترجمة الرسالة المشفرة وتحملها تحت المصباح، وعيناها تراجعان النص بسرعة. أرسله لكِ الآن وأنا على يقين أنّه سيكون بأمان في C.

همست: «يا إلهي».

قرأت التقرير مرّة أخرى بتمعّن، وهي تدوّن الملاحظات ثمّ سجلت الموقع في المفضّلة وبحثت مجدّدًا في غوغل على اسم «كاستيلومبر». حصلت على ستّ نتائج فنقرت على النتيجة الأولى: «شجرة عائلة كونتات كاستيلومبر». ظلّت الشاشة بيضاء للحظة طويلة، ثمّ بدأت شجرة العائلة تظهر ببطء، وكانت أقرب إلى شجيرة عائليّة لأنّها لا تضمّ أكثر من عشرة أسماء تتدلّى من فروعها وكأنّها أوراق ذابلة. وكان الاسم الذي لفت نظرها يقع في الوسط تمامًا.



حدّقت إليها للحظة وهي تقرأ وتعيد القراءة، ثمّ أطلقت صرخةً من السرور وطرقت بقبضتها على المكتب.

«وجدتها!»

قرية قيرام، بين الأقصر وقوس

«إنّ الفلسطينيين هم إخواننا في الدين، لا تنسوا ذلك. عذابهم لا يعنيهم وحدهم، إنّه عذابنا نحن أيضًا. بيوتهم التي تُهدم هي بيوتنا، نساؤهم اللواتي يغتصبن هن نساؤنا، أولادهم الذين يذبحون هم أولادنا».

تردّد صوت الشيخ عمر عبد الكريم الحادّ والمتّقد في أرجاء مسجد القرية، الذي كان عبارة عن غرفة واحدة ذات جدران مطلية باللون الأبيض وسقف مقبّب زيّنته دائرة من القطع الزجاجيّة الملونة التي تخلّلتها أشعة شمس الصباح بحيث بدت القاعة مغمورة بضوء خفيف من الأزرق والأخضر والرمادي. تربّع على الأرض المكسوّة بالسجاد عدّة عشرات من الرجال، معظمهم من الفلاّحين الشباب، يرتدون الجلاّبيات ويضعون العمامات، يحدّقون إلى المتحدّث الواقف على المنبر، أيديهم مشدودة في أحضانهم وأعينهم تلمع بالغضب والاستنكار. وقف خليفة عند المدخل في الجزء الخلفي من القاعة، لا هو في الداخل ولا في الخارج، ويداه في جيبه.

تابع الشيخ بصوت عالٍ وهو يهزّ إصبعه النحيل في الهواء: «إنّ واجبنا كمسلمين مقاومة اليهود بكلّ ما أوتينا من قوّة، فهم شعب جاهل، طمّاع، كاذب وقاتل. إنّهم أعداء الإسلام. أليس اليهود هم الذين نبذوا النبي محمّد ﷺ حين أتى إلى يثرب؟ ألم يلعنهم القرآن الكريم بسبب مكرهم وعدم وفائهم؟ ألا تكشف بروتوكولات صهيون بكلّ وضوح رغبتهم بالسيطرة على العالم وتحويلنا جميعًا إلى عبيد لهم؟»

كان رجلاً عجوزًا محدَودب الظهر وكثيف اللحية، يرتدي قفطانًا داكن اللون وقلنسوة محبوكة بسيطة، ويضع نظارة بلاستيكيّة رخيصة على عينيه. كان قد مُنع منذ وقت طويل من إلقاء الخطب في الأقصر نفسها – ليس بسبب معاداته للساميّة بقدر ما هو نتيجة لهجماته الصريحة على الفساد الحكومي، بحسب ظنّ خليفة – فحصر نشاطاته في القرى الصغيرة، يتنقّل من قرية إلى قرية ويعرض صنفه الخاص به من الأصوليّة.

كان يصرخ الآن وهو يقول: «لا يمكننا عقد صلح مع الصهاينة. هل تتحدّثون مع الكوبرا السامّة؟ هل تصادقون ثورًا هائجًا؟ عوضًا عن ذلك ينبغي أن يُلعَنوا ويُخرَجوا ويُمسَحوا عن وجه الأرض لأنّهم طاعون. هذا واجبنا كمسلمين.

صدرت همسات مؤيدة من الحاضرين، وكان أحدهم صبيًّا لم يتجاوز الرابعة أو

الخامسة عشرة، كما يبدو من بقع الشعر الأملس التي ظهرت فوق ذقنه وشفته العليا، رفع قبضته في الهواء وصرخ: «الموت لليهود!» وراح بقية الحاضرين يردّدون صرخته إلى أن أخذت القاعة بأكملها تضج بأصواتهم: «الموت! الموت! الموت!» وقف خليفة يحدّق إليهم مشدود الفكّ ثمّ هزّ رأسه وعاد لانتعال حذائه الذي تركه هناك بقرب أحذية المصلّين المرتبة في صفوف وكأنّها سيّارات مركونة في موقف. وقف لمزيد من الوقت يستمع إلى الشيخ الذي بدأ يدعو الحاضرين إلى الجهاد ضدّ الإسرائيليين وجميع من يدعمهم ثمّ غادر المكان وخرج تحت شمس الصباح الساطعة.

شعر بالاشمئزاز لما سمعه للتوّ. كيف لا وهو يرفض استعمال تعاليم الرسول لحثّ الناس على العنف والحقد واستعمال آيات القرآن كتبرير للتعصّب والأفكار المسبقة وعدم التسامح. كلّ خليّة وذرّة من جسده ترفض ذلك.

ولكن... ولكن...

ألم يكن جزء منه موافقًا على ذلك؟ حين يسمع أخبارًا عن فلسطيني آخر قتله الإسرائيليون أو عائلة أخرى أُخرجت من منزلها أو بستان آخر قُطّعت أشجاره، ألا يرغب جزء منه برفع قبضته في الهواء والدعوة إلى الانتقام والترديد «الموت، الموت، الموت!» مع إخوانه المسلمين؟

تنهّد وأشعل سيجارةً ثمّ جلس القرفصاء في مساحة صغيرة ظليلة قرب مدخل المسجد. لم يشعر يومًا بهذا الإرباك حيال انتمائه وما يؤمن به وما ينبغي أن يؤمن به. وحتّى في أكثر لحظات حياته بؤسًا – الفقر الذي عاشه في شبابه، موت أبويه وشقيقه الأكبر، اضطراره إلى ترك دراسته في جامعة القاهرة – كان لديه يقين داخلي، نواة متينة يعتمد عليها. أمّا الآن، فإنّ كلّ منعطف جديد في هذا التحقيق، كلّ طريق يقوده إليه – يهود، إسرائيليون، أصوليون – يبدو أنّه يحدث شقوقًا أكبر في ذاته. اذهب نحو ما يخيفك. هذا ما قالته له زينب. اسعَ إلى ما لا تفهمه، لأنّك هكذا تكبر وتصبح شخصًا أفضل. ولكنّه لا يشعر بأنّه كان يكبر، بل على العكس، لديه انطباع بأنّ كلّ ما بداخله ينهار ويتجزأ وكأنّه مرآة محطمة ويتحوّل إلى أجزاء مبعثرة ومتناقضة. وحتّى حين يتمّ إقفال القضيّة في النهاية، يشكّ أنّه سيكون قادرًا على جمع شتات نفسه ليعود كما كان في السابق.

سحب نفسًا من سيجارته، وأخذ يتأمل الشارع الممتدّ أمام المسجد. كانت القرية تقع على بعد عشرين كيلومترًا فقط شمالي الأقصر، إلاّ أنّها تشكّل عالمًا آخر، ببيوتها الطينيّة المتداعية وحظائر الحيوانات المصنوعة من الأغصان. كان البناء القائم خلفه هو المبنى الوحيد الذي بدا أنّه يتمتع بالمتانة أو الاستمراريّة. وبدا بملابسه المدنيّة

وبشـرته الفاتحة وشـعره الأملس متنافرًا مع السـكان الصعيديين بملابسـهم التقليديّة، وهذا ما ضاعف شعوره بالغربة والانزعاج.

تمتم بكآبة: «تبًّا!»

مرّت عشرون دقيقة أخرى قبل أن تنتهي الخطبة أخيرًا ويبدأ المصلّون بالخروج إلى الشـرفة الأماميّة وهم يتدافعون محاولين اسـتعادة أحذيتهم. نهض خليفة ثمّ خلع حـذاءه مجـددًا وراح يشـقّ طريقـه بين الحشـد متوجّهًا إلى داخل المسـجد ومتجاهلاً نظرات الارتياب التي كان يرميه بها الأهالي.

كان الشـيخ قـد نـزل عـن منبره ويقـف الآن في نهاية القاعـة، متكئًا على عصاه، يسـير وهـو يتحـدّث مع مجموعـة صغيرة من الأتباع. كان خليفـة يعرف جيّدًا مخاطر مواجهته بهذا الشكل. فمنذ بضع سنوات قام مؤيدوه بضرب اثنين من رجال الشرطة المتنكريـن الذيـن حاولـوا دخـول أحـد اجتماعاته. ولكـنّ الحلّ البديـل كان المجيء بشـاحنة مليئة برجال الشـرطة والقبض على الرجل العجوز وأخذه إلى الحجز، وهذا عمل استفزازي من شأنه أن يفجّر أعمال شغب فعليّة نظرًا إلى شعبيّة الشيخ والطبيعة الاسـتقلاليّة الشرسـة لتلك القرى. ففضّل خليفة الخيار الأقلّ اسـتفزازًا، حتّى وإن كان يشكّل تهديدًا شخصيًّا له.

وقف عند المدخل لبعض الوقت ثمّ بدأ يسـير بقدميه العاريتين فوق السـجادة، وأصبح على مقربة من المجموعة قبل أن يلاحظ أحد وجوده. صمت الرجال والتفتوا نحوه.

«شيخ عمر؟»

نظر إليه العجوز، وحدّق إليه من خلال نظارته.

«أنا الضابط يوسف خليفة من شرطة الأقصر».

تحلّـق الأتبـاع حـول زعيمهم والارتياب بادٍ في أعينيهم. حدّق إليه الشـيخ الذي كان جسده أشبه بالشجرة المائلة.

سأله بتعبير أقرب إلى التسلية منه إلى القلق: «هل جئت للقبض عليّ؟»

«أنا هنا للتحدّث معك عن شخص يدعى جانسن».

صـدر صـوت حـادّ عن أحد أعضـاء المجموعة، وكان رجلاً ضخم الجثّة، علت وجنتيه بقع مبعثرة من النمش.

قال غاضبًا: «أيّها الحقير! هذا شيخ! كيف تجرؤ على إهانته بهذا الشكل!»

تقدّم الرجل نصف خطوة إلى الأمام والشـرر يتطاير من عينيه. كان خليفة يعلم أنّه من الأفضل له عدم الدخول في عراك معه، مع أنّ التراجع سيكون إقرارًا بالضعف.

فظلّ ثابتًا في مكانه ورفع في الوقت نفسه يديه ليظهر لهم أنّه لا يسعى إلى المشاكل. بعد صمت قصير ومتوتر مدّ يده ببطء إلى جيبه وأخرج المغلّف الذي يحتوي على المنشور ثمّ قدّمه للشيخ.

«أنتَ أرسلت هذا للسيّد جانسن».

حلّ صمت مضطرب آخر ثمّ أشار الشيخ برأسه للرجل ذي النمش لكي يعطيه المغلّف. قلّبه بيده ونظر إلى العنوان المدوّن على واجهته.

رفع نظره إلى خليفة قائلاً: «هذا ليس خطّي».

كان يلعب معه لعبة القطّ والفأر ويتحدّى خليفة لملاحقته.

قال الضابط: «أنا لست مهتمًا بالشخص الذي كتب العنوان، ما يهمّني هو سبب إرساله».

تناول رجل آخر، بدين وقصير القامة، رأسه ملفوف بشال أبيض، المغلّف من الشيخ وأعاده إلى خليفة.

«ألم تسمع؟ هذا ليس خطّ يده! كيف له أن يعلم سبب إرساله».

قال خليفة وهو يتناول المغلّف ويعيده إلى جيبه: «لأنّ منشورًا يعلن عن أحد اجتماعاته لن يُرسل إلى كافر مثل جانسن من دون موافقته، كما يعلم تمامًا».

كانت نبرته أكثر حدّة ممّا أراد، وأكثر استفزازًا، وهذا ما لم يعجب الأتباع. فراحوا يتمتمون محتجّين من جديد وأخذ احتجاجهم المنخفض يتحوّل إلى صراخ وهم يتحلّقون حول خليفة ويصرخون في وجهه، وبدا غضبهم وكأنّه يغذي نفسه. فأخذ الشيخ يضرب عصاه بحزم على طرف المنبر مصدرًا صوتًا أشبه بصوت الرصاص.

قال: «كفى!»

توقّف الهياج فجأة مثلما بدأ وتراجع الرجال إلى الخلف ثمّ ابتعدوا جانبًا وأصبح خليفة في مواجهة الشيخ. حلّ صمت طويل، لم يعكّره سوى صوت حمار يسير في الخارج ثمّ لوّح الشيخ لأتباعه قائلاً: «دعونا وحدنا».

بدأ الرجل ذو النمش بالاعتراض ولكنّ الشيخ كرّر الأمر فخرج الرجال من المسجد مستائين وهم يتمتمون في ما بينهم. ما إن خرجوا، حتّى تناول العجوز قرآنه عن المنبر وتوجّه نحو أحد الجدران ليجلس فوق وسادة على الأرض.

قال وهو يضع الكتاب والعصا على السجادة بقربه ويتربّع: «أنتَ إمّا غبي جدًّا أو شجاع جدًّا لتأتي إلى هنا بهذا الشكل. ربّما الاثنان معًا، مع أنّني أظنّك غبي أكثر منك شجاعًا، ومتعجرف أيضًا كجميع رجال الشرطة».

تناول القرآن مجددًا وبدأ يقلّب صفحاته. أتى خليفة وقرفص أمامه وهو يشيح

عـن وجهـه ذبابـة طارت فوق رأسـه وراحت تحلّق فوقهمـا في الهواء. كان الحمار لا يزال يسير في الخارج.

سأله العجوز وهو يقلّب الصفحات: «لم تعجبك خطبتي؟»

هزّ خليفة كتفيه من دون تعليق.

«أجب عن سؤالي رجاءً».

أجـاب الضابـط وقـد بـدا صوتـه أكثـر حزمًـا ممـا أراد: «كلاّ. وجدتهـا... غير إسلاميّة».

ابتسم الشيخ قائلاً: «أنت تحبّ اليهود؟»

«لم آتِ إلى هنا لكي-»

رفع الشـيخ يده مقاطعًا. انتاب خليفة إحسـاس غير مريح أنّه على الرغم من أنّ عيني الشيخ مثبتتان على الكتاب في حضنه إلاّ أنّ العجوز كان في الوقت نفسه يحدّق إليه مباشرةً، ليس إلى شكله الخارجي بل إلى كلّ ما بداخله، أفكاره وأحاسيسه. عدّل جلسته قليلاً.

«هل أنتَ مسلم؟»

تمتم خليفة بنفاد صبر بالإيجاب.

«ومع ذلك أنت تحبّ اليهود».

«لا أعتقد أنّ الأمرين متناقضان».

«إذًا أنت تحبّ اليهود فعلاً».

«أنا لا... هذا ليس...»

أشـاح الضابـط الذبـاب مرتبـكًا ومنزعجًا لأنّه يجرّ إلـى الحديث على الرغم من تصميمه على العكس. تابع الشـيخ تقليب الصفحات وكانت الأوراق المصفرّة تصدر هسيسًـا بين أصابعه. وصل أخيرًا إلى السـورة التي بدا أنّه يبحث عنها. فوضع إصبعه على النص وأدار الكتاب نحو خليفة.

«اقرأ هذه الآية، من فضلك».

«هذا ليس ما-»

«إنّها مجرّد آية واحدة. من فضلك اقرأ».

تناول خليفة الكتاب على مضض وقد أدرك أنّه إن كان يريد معلومات من العجوز لا خيار أمامه سـوى اللعب وفقًا لقوانينه. كانت الآية في منتصف الصفحة تقريبًا من الآية الخامسة - سورة المائدة. نظر الضابط إليها وهو يعض على شفته.

راح يقرأ بسرعة ومن دون ترتيل وكأنّ يحاول الانتهاء بأسرع ما يمكن والابتعاد عمّا يقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

هزّ الشيخ رأسه موافقًا: «هل تسمع؟ هذا ما يقوله كتاب الله. إنّه واضح ولا التباس فيه. إنّ مصادقة اليهود وكلّ من ينتمي إلى دين آخر، والتعاطف معهم والشعور حيالهم بأيّ شيء غير الحقد والكره والنفور هو اعتراض على أمر الله عزّ وجلّ».

مدّ يده المرتجفة واستعاد الكتاب. أراد الضابط الجدال معه وإخباره أنّ هذا ليس الإسلام الذي عرفه وأحبّه وذكر آيات أخرى تتحدّث بشكلٍ جيّد عن أهل الكتاب. ولكنّ ذهنه أصبح خاليًا ولم يتمكن من إيجاد الكلمات التي أرادها. لاحظ الشيخ نظرته المرتبكة فابتسم بمكر.

قال وهو يغلق القرآن ويمرّر يده بلطف على غلافه: «أن تكون مسلمًا يعني أن تخضع لإرادة الله، هذا هو معنى الإسلام. إن لم تخضع له لن تكون مسلمًا. عليك الاختيار إمّا الأبيض أو الأسود، إمّا النور أو الظلام، ما من حلّ وسط».

قبّل الكتاب ووضعه في حضنه.

«والآن قلت إنّك ترغب بالتحدّث عن السيّد جانسن».

مسح خليفة جبينه المتصبّب عرقًا بكمّ قميصه وهو يناضل لاستجماع أفكاره. فبعد ما قيل للتوّ بدا التحقيق بعيدًا وكأنّه جزء من واقع آخر.

تمتم بينما كانت الذبابة لا تزال تحوم حوله وأزيزها المزعج يملأ رأسه: «لقد توفي السيّد جانسن منذ أسبوعين ونحن نحقّق ببعض الأمور... الشاذة في نمط حياته. وجدت المنشور في منزله وبدا من غير المعتاد أن يُرسل لرجل مثله. فهو ليس من نوع أتباعك المعتادين».

لم يقل الشيخ شيئًا بل انحنى إلى الأمام وبدأ يدلّك كاحله وهو يحدّق إلى القبّة التي تعلو القاعة بزجاجها الملوّن.

حثّه خليفة قائلاً: «إذًا، لماذا أرسلته إليه؟»

واصل العجوز تدليك قدمه النحيلة وكانت أصابعه تضغط على بشرته المتشقّقة.

«من باب اللياقة».

«اللياقة؟»

«كان السيّد جانسن في غاية... الكرم. وبدا من اللائق أن نشعره بأنّنا نفكر فيه».

كان ذهن خليفة قد بدأ يصفو وتفاصيل القضيّة تعود إليه. في الوقت نفسه، طارت الذبابة بعيدًا وراحت ترتطم بنافذة صغيرة في الجهة المقابلة من القاعة.

«أيّ نوع من الكرم؟»

«لقد أعطانا هبةً، تبرّع بها لأحد مشاريعنا».

«أيّ مشروع؟»

ترك الشيخ كاحله ووضع يديه في حضنه محوّلاً عينيه إلى الأسفل إلى أن أصبح يحدّق مباشرةً إلى خليفة.

«لمساعدة شعبنا الذي يعاني تحت الاحتلال الصهيوني».

قالها بنبرة اتهاميّة بعض الشيء وكأنّ عدم إقرار خليفة بكرهه لليهود يعني أنّه وقف بصفّ أعداء الإسلام.

«مساعدتهم كيف؟»

كان الشيخ لا يزال يحدّق إليه.

«نجمع المال ونرسله إلى فلسطين لأجل المأكل والملبس والكتب الدراسيّة. أعمال خيريّة، لا شيء غير قانوني».

«وكان جانسن مساهمًا؟»

«اتّصل بنا منذ ستّة أسابيع، أو شهرين وأعطانا هبةً».

«هكذا، من لا شيء».

هزّ الشيخ كتفيه قائلاً: «نحن فوجئنا أيضًا من أن يأتي إلينا كافرٌ هكذا. كان قد تحدّث مع أحد الرجال في الأقصر وقال إنّه يرغب بمساعدتنا. وسأله كيف يمكنه التحدّث إليّ. عادةً أنا لا أختلط بهؤلاء الأشخاص ولكنّه كان يعرض علينا مبلغًا كبيرًا من المال. خمسون ألف جنيه مصري».

أطلق خليفة صفيرًا منخفضًا. ماذا كان يقصد جانسن بإعطاء هذا القدر من المال لرجل كهذا الشيخ؟

«وهل قابلته؟»

هزّ العجوز رأسه وهو يمدّ يده المجعّدة لحكّ ذقنه.

«وماذا حدث؟»

«لا شيء. تحدّثنا وقال إنّه سمع عن عملنا مع الفلسطينيين وأعجب به ويرغب

بمساعدتنا. ثمّ أعطاني المال على الفور، نقدًا. كيف لي أن أرفض؟»

كانت ساقا خليفة قد بدأتا تؤلمانه بسبب وضعيّته، فنهض واقفًا.

«ولكن لماذا أتى إليك؟ ثمّة عشرات من المنظمات التي تجمع المال للفلسطينيين وهي مؤسسات خيريّة شرعيّة. لماذا يلجأ إلى -».

ابتسم الشيخ قائلاً: «رجل مثلي؟»

«بالضبط. لا بدّ من أنّ جانسن كان يعرف المخاطر التي يشتمل عليها ذلك وأنّ تواجده معك قد يجلب له المشاكل. مع ذلك يأتي من دون سبب ويعطيك كلّ هذا المال من دون أن يطلب شيئًا بالمقابل».

واصل خليفة تمديد جسده وهو يدلّك ركبتيه ثمّ توقّف وقد خطرت له فكرة مفاجئة.

«هل أراد شيئًا بالمقابل؟»

لم يقل الشيخ شيئًا بل اكتفى بالتحديق إليه وابتسامة باهتة لا تزال ظاهرةً حول زاويتي فمه، كالتموّجات التي تخلّفها موجة متراجعة على الرمال. قرفص خليفة أمامه مجدّدًا.

كرّر قائلاً: «هل أراد شيئًا؟»

لم يجب الشيخ. فبدأ نبض الضابط يزداد سرعة.

«أراد شيئًا، أليس كذلك؟ ماذا؟ ماذا أراد؟»

أحنى الشيخ رأسه يمينًا ومن ثمّ يسارًا، وأصدرت فقرات عنقه صوتًا كصوت مفتاح يدور في القفل، من دون أن تبتعد عيناه عن وجه خليفة.

«مساعدتي للاتصال بالملثّم».

اتسعت عينا خليفة ذهولاً.

«هل أنت جاد؟»

«ولماذا أكذب؟ هذا ما طلبه منّي».

نهض خليفة وهو يهزّ رأسه. كلّما شعر بأنّه يقترب من جانسن تظهر معلومة جديدة تبعده عن الرجل أكثر من السابق وكأنّه صيّاد كلّما اقترب من طريدته تهرب منه مجدّدًا.

«لماذا؟ لماذا أراد الاتصال به؟»

هزّ الشيخ كتفيه: «قال إنّ لديه شيئًا يمكن أن يساعده، سلاح يمكنه استعماله ضدّ اليهود. شيئًا من شأنه أن يسبّب لهم أذىً عظيمًا».

سُمع في الخارج صوت رنين حادّ وكأنّ شخصًا يطرق فوق قطعة من المعدن. إلاّ أنّ خليفة بالكاد لاحظ الصوت.

«أيّ نوع من الأسلحة؟»

رفع الشيخ يديه قائلاً: «لم يشأ أن يقول. قال لي إنّه يُحتضر وأنّ حياته أصبحت قصيرة ويريد أن ينتقل هذا الشيء لشخص يُحسن استعماله لإيذاء اليهود. هذا ما قاله، شخص يستعمله لإيذاء اليهود».

توقف الرنين في الخارج للحظة ثمّ تجدّد بصوت أعلى وأخذ يتردّد داخل المسجد.

«وهل ساعدته؟»

قال الشيخ ساخرًا: «ماذا؟ وهل تظنّني أملك عنوان الملثّم أو رقم هاتفه؟ إنّني أرفع السمّاعة وأتّصل به؟ يعجبني الرجل أيّها الضابط وأفرح في كلّ مرّة يقضي بها على إسرائيلي، ولو التقيت به يومًا سوف أحتضنه وأعتبره أخًا لي. ولكنّني لا أملك أدنى فكرة عن هويته أو مكانه، شأني شأنك».

خلع نظارته، وبدأ يلمّعها بحاشية قفطانه وهو يمرّر القماش بلطف حول العدستين. في الخارج، توقف الطرق مجددًا ليغمر المسجد بصمت فاتر.

أنهى العجوز تلميع نظارته ثمّ قال أخيرًا: «أعطيته أسماء بعض الأشخاص الذين أعرفهم في غزّة. كان هذا أقلّ ما يمكنني فعله بعد التبرّع الذي قام به».

«وهل اتّصل بهم؟»

«لا أعرف، ولا أريد أن أعرف. أنا لم أتعاطَ معه بعد ذاك اللقاء الأوّل. وفي حال تريد أن تسأل، لن أخون ثقة أصدقائي الفلسطينيين بإعطائك أسماءهم».

حدّق في خليفة ثمّ مدّ ساقيه، وتناول عصاه بيد وقرآنه باليد الأخرى، وبدأ يناضل للوقوف على قدميه. توقّف في منتصف الطريق وبدا واضحًا من أنّه يعاني من الألم. نهض خليفة وأمسك العجوز بمرفقه وساعده لمتابعة الوقوف، وقد غلب احترامه لسنّه على نفوره من آرائه. حين وقف الشيخ، نفض قفطانه وبدأ يعرج عبر القاعة.

استدار عند الباب قائلاً: «تذكر أيّها الضابط: هنالك النور والظلام، الإسلام والفراغ، لا حلّ وسط، لا تسوية. لقد حان الوقت لتختار».

نظر في عيني خليفة ثمّ غادر المسجد، وبدا أنّ المقابلة قد انتهت.

معبر قلنديا، بين القدس ورام الله

ذهب يونس أبو جيش كما طُلب منه إلى معبر قلنديا عند الظهيرة مرتديًا قميص قبّة الصخرة ووقف تحت لافتة إعلانات كبيرة لصحون ماستر اللاقطة.

خلال الساعات الأربع والعشرين الماضية، منذ أنّ تلقّى الاتصال من مندوب الملثّم، تراوح مزاجه بين الرعب والنشوة. في لحظة، يرتجف جسده بأكمله وكأنّه يتجلّد وقد صعقه هَول ما دعي من أجله، وفي اللحظة التالية تجتاحه موجة هائلة من الفرح، كما شعر في المرّة الأولى التي زار فيها البحر طفلاً وتقلّب بين أمواجه الدافئة وهو يقفز ويضحك مفكرًا أنّه أجمل شعور في العالم كلّه.

والآن وهو يقف محدّقًا إلى صفوف السيّارات التي تتقاطر نحو الحاجز الإسرائيلي إلى الأمام، لم يكن يشعر لا بالخوف ولا بالنشوة، ولا بأيّ شعور على الإطلاق. مجرّد قناعة خالية من العواطف وقبول فولاذي بأنّ هذا ما يتحتّم عليه فعله وأنّ هذا هو القدر المرسوم له. ففي النهاية ما الذي ينتظره هنا؟ مجرّد حياة من الخنوع والمرارة وهو يشاهد الإسرائيليين يقضمون يومًا بعد يوم المزيد من أرض أجداده ويخسر جزءًا آخر من احترامه لنفسه. دورة متواصلة من الذلّ والعار والندم.

لا، لا يمكنه احتمال ذلك فهو يتألّم منذ وقت طويل وهذه هي الطريقة الوحيدة، السبيل الوحيد لإثبات قوّته وكرامته، والتأثير على الأحداث عوضًا عن البقاء تحت رحمتها. وإن أدّى به إلى الموت... ما الفرق، فحياته ليست سوى مقبرة حيّة.

بقي تحت اللافتة لثلاثين دقيقة بالضبط، كما قيل له، وتحقّق عدّة مرات من ساعته حرصًا على المكوث للوقت المحدّد. ثمّ هزّ رأسه وكأنّه يقول: «ها قد أعطيتكم الجواب»، واستدار عائدًا إلى مخيّم اللاجئين الذي يقطن فيه والذي بدت مساكنه أشبه بنباتات من الفطر الرمادي القبيح.

الأقصر

عاد خليفة من لقائه مع الشيخ عمر ليجد السيّد محمّد حسون، الموظف في بنك مصر الذي عهد إليه بسبيكة جانسن الذهبيّة، جالسًا ينتظره في مكتبه. كان رجلاً ممتلئًا، بدا في غاية الأناقة بشعره المسرّح بعناية ونظارته وحذائه الأسود اللامع. أطلق صرخة مكتومة حين فتح الضابط باب المكتب فجأة، فضمّ حقيبة السمسونايت الفضيّة إلى صدره وكأنّه يتوقع التعرّض لمحاولة سلب. استرخى حين أدرك أنّه ليس ضحيّة هجوم، مع أنّ عِرقًا نابضًا قرب عينه اليسرى أوحى أنّه ليس مرتاحًا تمامًا.

قال وهو يرف بعينيه: «لقد أخفتني. أحضرت لك... أنت تعلم...»

طرق بأصابعه على الحقيبة.

اعتـذر خليفـة لأنـه أخافـه وأضاف: «مـع أنّني لا أظنّ أنّ أحـدًا يتعرّض لك في قسم للشرطة».

حدّق إليه المصرفي غير موافق وقال: «لقد تعرّضت للسلب في أماكن ومن قبل أشخاص لا يخطرون ببالك، بمن فيهم، ويحزنني قول ذلك، والد زوجتي. حين يتعلّق الأمر بالذهب، الحرص واجب». حدّق إلى عيني خليفة للحظة مشدّدًا على أهميّة تلك الرسالة ثمّ نهض من كرسيّه وتوجه إلى مكتب خليفة ووضع الحقيبة.

«علـى كل حـال، لقـد ألقيـت نظـرة عليها. إنّهـا مثيرة جدًّا للاهتمـام. هل لديك الوقت؟»

«بالطبع».

«إذًا إن كنت لا تمانع...»

أشار إلى الباب فاستدار خليفة وأغلقه.

«و...» قحّ المصرفي بعصبيّة وهو يغمز نحو القفل، «فقط من باب الحيطة».

استدار خليفة من جديد وأقفل الباب.

«هل تريدني أن أغلق النوافذ أيضًا؟»

كان السـؤال مـن بـاب المـزاح ولكنّ حسـون وافقـه قائلاً إنّها فكـرة جيّدة على الأرجح في هذه الظروف. هزّ خليفة رأسه ساخطًا وتوجه نحو النافذة مغلقًا مصراعيها الحديديين لتغرق الغرفة بشبه ظلمة.

«حسنًا؟»

قال حسون: «هذا أفضل بكثير، فالحرص واجب».

انحنـى إلـى الأمـام وأضاء مصباح المكتب وهو يلقي نظرة مرتابة حوله وكأنّه لا يـزال غيـر مقتنـع تمامًـا أنّهمـا بمفردهما. ثمّ فتح الحقيبة وأخـرج القطعة التي لا تزال ملفوفة بالقماش الأسود الذي وجدت فيه ووضعها على الطاولة تحت الضوء. اقترب خليفة وأشعل سيجارةً وراح ينفث دخانًا رماديًا كثيفًا مائلاً إلى الزرقة.

«إذًا، ماذا وجدت؟»

قال المصرفي وهو ينزع القماش وعدستا نظارته تلمعان أمام اللون الأصفر الذي يعكسه سطح السبيكة: «الكثير في الواقع. فبعد ثلاثين عامًا من العمل، لا يزال الذهب يأتيني بالمفاجآت، إنّها قطعة غير اعتياديّة».

راح يلمـس السـبيكة بتقديـر ثمّ اسـتقام ومـدّ يده إلى الحقيبة مـن جديد ليُخرج

تقريرًا مطبوعًا من أحد الجيوب في الغطاء.

بدأ يشرح قائلاً: «التفاصيل الأساسيّة بديهيّة جدًّا سبيكة عاديّة شبه منحرفة، عشرون سنتمترًا بتسعة بخمسة، تسعة-تسعة-خمسة أجزاء ذهب على ألف، أي ما يعادل أربعة وعشرين قيراطًا تقريبًا، وربّما أكثر بقليل».

«وماذا عن قيمتها؟»

«في الواقع تتراوح قيمتها اعتمادًا على السوق ولكن بالأسعار الحالية فإنّها تعادل نحو خمسمائة وعشرين ألف جنيه مصري أي ما يعادل مائة وأربعين ألف دولار.

قحّ خليفة وكان دخان السيجارة أمامه أشبه بستارة ممزّقة ترفرف في الهواء.

«أبدًا! غير ممكن!»

هزّ حسون كتفيه قائلاً: «إنّها من الذهب، والذهب ثمين، لا سيّما إن كان من هذه النوعيّة».

مدّ يده يربّت على السبيكة راضيًا وكأنّه يهنّئ حيوانًا أليفًا أدّى حركة مميّزة. انحنى خليفة وأخذ يحدّق إلى السبيكة مستندًا بيديه على طرفي المكتب.

أشار برأسه إلى النسر والصليب المعقوف على سطح السبيكة قائلاً: «وماذا عن الختم؟ هل عرفت شيئًا عنه؟»

«بالتأكيد، ومن هنا تبدأ الأمور المثيرة». مدّ يديه ثمّ جمع أصابعه معًا وطقطق براجمه وكأنّه عازف بيانو على وشك البدء بالعزف.

قال: «لم يسبق لي أن رأيت ختمًا مثله من قبل، لذا تحتّم عليّ إجراء بعض الأبحاث ولن أزعجك بكلّ التفاصيل».

قال ذلك بشيء من الكآبة وكأنّ إزعاج خليفة بالتفاصيل كان سيعطيه متعة عظيمة. شعر خليفة بذلك ولم يقل شيئًا إذ كان يرغب بالوصول إلى المفيد.

تابع المصرفي بعدما توقف لفترة من الزمن وأدرك أنّ خليفة لن يدعوه إلى الاستفاضة في الشرح: «على كل حال، يبدو أنّ النسر والصليب المعقوف كانا علامة دار صكّ العملة في الدولة البروسيّة، والتي كانت حتّى نهاية الحرب العالميّة الثانية دار صكّ العملة الوطنيّة في ألمانيا، ومركزها برلين».

حدّق خليفة إلى السبيكة وخطوط الدخان تتصاعد من زاويتي فمه.

«لم يكن من الصعب اكتشاف ذلك. لم يحتج الأمر سوى إلى تصفّح بعض المراجع واتصالين هاتفيين. ولكنّ القصّة تصبح أكثر تعقيدًا هنا».

تناول السبيكة بيديه، وقلّبها ببعض الجهد، ثمّ أشار إلى صفّ من الأرقام الصغيرة

بالكاد الملحوظة والمحفورة على المعدن في الزاوية العلوية اليسرى للجهة السفلية من السبيكة. أطلق خليفة صوتًا من الدهشة، فقد فاتته الأرقام تمامًا حين تفحص السبيكة في المرّة الأولى.

سأله بتردّد: «رقم متسلسل؟»

«بالضبط. بعض السبائك تحمل رقمًا متسلسلاً وبعضها لا. ولكن حين يوجد الرقم فإنّه يسمح لك بتتبّع تاريخ السبيكة – متى تمّ صبّها وأين، وما إلى ذلك».

«وماذا عن هذا الرقم؟»

«آه، هذا الرقم يخبرنا بالكثير. أجل، أجل، كثير من المعلومات. ولكنّ اكتشافها لم يكن سهلاً. فالأرقام لا تشكّل جزءًا من نظام عالمي معروف بل تشير إلى سجّل في مؤسسةٍ ما صُكّت فيها السبيكة. لقد أمضيت نصف نهار أمس ومعظم هذا الصباح على الهاتف في اتّصال إلى ألمانيا محاولاً تعقّب الرقم. فأرشيف دار صكّ العملة في الدولة البروسيّة إمّا دمّر أو بُعثر بعد عام 1945، ولا يملك بونديسبانك أي سجلاّت. في الحقيقة أوشكت على الاستسلام إلى أن اقترح عليّ أحدهم في متحف بونديسبانك الاتّصال بـ...»

توقف للحظة وهو يراجع تقريره ثمّ تابع قائلاً: «مؤسسة ديغوسّا في دوسيلدورف. فقد كانت إحدى أبرز شركات صكّ الذهب في ألمانيا وعملت كثيرًا في عهد النازيين. إلاّ أنّها لم تعد تعمل في هذا المجال الآن بالطبع، فقد تعدّدت اهتماماتها –»

قاطعه خليفة بنفاد صبر: «نعم، نعم، ولكن ماذا وجدت؟»

«حسنًا، قام أمين الأرشيف في ديغوسّا – وهو رجل لطيف، شديد التهذيب» – وشدّد قليلاً على كلمته الأخيرة وكأنّه يوحي أنّ أمين أرشيف ديغوسّا ما كان يقاطع أحدًا كما فعل خليفة للتوّ – «بمراجعة سجلاّتهم وتمكن من إيجاد رقم متسلسل مماثل. يا لهم من شعب عمليّ، هؤلاء الألمان».

«وماذا قال؟» كان وجه خليفة يحوم فوق السبيكة مباشرةً فيما تصاعد خطّ طويل من الدخان من طرف سيجارته.

«حسنًا، يبدو أنّ السبيكة هي واحدة من خمسين سبيكة أخرى متشابهة صكّتها ديغوسّا عام 1944، آذار 1944 تحديدًا. وقد سُلّمت لدار الصكّ التابعة للدولة في السابع عشر من ذاك الشهر ومنها إلى الرايخسبانك، الذي كان يدير بونديسبانك في السابق».

«وبعد ذلك؟»

«يبدو أنّ معظمها قد ذوّب وأعيد صكّه في نهاية الحرب».

«معظمها؟»

«حسنًا، يبدو أنّ هذه إحدى السبائك الناجية. واستنادًا إلى الرجل في ديغوسّا، كذلك هي حال اثنتين أخريين على الأقلّ».

توقف لإحداث بعض التأثير تمامًا مثل ممثّل على وشك أن يبدأ بمناجاة نفسه.

«تمّ العثور عليها في بوينوس آيرس، عام 1966 من قبل رجال المخابرات الإسرائيليين، في منزل رجل يدعى...» تفحص تقريره مجدّدًا: «يوليوس شيختمان. وهو ضابط سابق في الجيش النازي هرب إلى الأرجنتين في نهاية الحرب وعاش فيها تحت اسم مستعار. تعقّبه الإسرائيليون وأحضروه إلى إسرائيل هو والسبيكتين اللتين يُحتفظ بهما اليوم في مصرف القدس المركزي».

«وماذا عن شيختمان؟»

توقف مجدّدًا لإحداث الأثر المسرحي، ورفع كتفيه قبل أن يضيف: «شنقه الإسرائيليون».

صدر صوت قعقعة في الخارج مع مرور بائع كاز تحت النافذة بعربة يجرّها حمار وهو يطرق الأسطوانات المعدنيّة لتنبيه الناس إلى وجوده. كانت سيجارة خليفة قد احترقت، فأطفأها في المنفضة، وأشعل واحدة أخرى وهو يفرك عينيه بإبهامه وسبّابته. كلّ ما في هذه القضيّة، كلّ معلومة جديدة تزيد الموضوع تعقيدًا وحيرةً. شعر وكأنّه يسبح تحت الماء ويحاول بجنون الصعود إلى السطح ولكنّه يسقط أعمق مع كلّ محاولة لتحريك ذراعيه.

حلّ صمت طويل.

سأله: «هل من شيء آخر؟» كان صوته مشوبًا بالقلق وكأنّه يتساءل كم منعطفًا جديدًا سيتّخذ هذا التحقيق.

هزّ حسون كتفيه قائلاً: «ليس بالفعل. ثمّة بعض التفاصيل التقنيّة عن التكوين الفعلي للذهب، ولكنّها لا تهمك على الأرجح».

مرّر يده فوق السبيكة من جديد يمسح عنها رماد السيجارة الذي حطّ على سطحها اللامع ثمّ لفها بالقماش الأسود.

«هل تريد الاحتفاظ بها هنا؟»

سحب خليفة نفسًا من سيجارته.

«هل يمكنك الاحتفاظ بها في المصرف؟»

«بكلّ سرور».

أعاد حسون السبيكة إلى الحقيبة وأقفلها ثمّ توجه نحو النافذة وفتحها لتبهره

شـمس العصر السـاطعة. تناهت إليه من الأسـفل أصوات امتزجت بضجيج بائع الكاز المبتعد.

قال حسون وقد بدا صوته فجأة ضعيفًا ومفكرًا: «في الواقع، كان ثمّة أمر واحد، غريب ومزعج حقًّا، أفسد رونقها». رفع قدمه اليمنى خلف ساقه اليسرى وحفّ سطح حذائه على قصبة سـاقه، ثمّ تابع قائلاً: «كما سـبق وقلت، يتيح لنا الرقم المتسلسـل تتبّع تاريخ ومكان صكّ السبيكة. غير أنّه يعطينا في بعض الحالات معلومات إضافيّة: اسـم الشـخص المشـرف على عمليّة الصكّ، الشخص الموجود في دار الصكّ والذي فـوّض بصكّهـا، ومـا إلى ذلك. تفاصيل صغيرة». بدّل سـاقيه وراح يحفّ حذاءه على قصبة سـاقه اليمنى. «ولـم تشـتمل ملفات ديغوسّـا على أيّ من ذلك، إلاّ أنّها سـجّلت مصدر الذهب الأساسي».

أنهى تلميع حذائه، واستدار نحو خليفة ببطء فيما راحت يده تربّت بعصبيّة على عتبة النافذة. رفع المحقّق حاجبيه متسائلاً.

«يبـدو أنّـه أتـى من أوشـفيتز. سـبيكتك أيّهـا المحقّق مصنوعة علـى ما يبدو من الذهب المستخلص من أسنان الموتى اليهود».

بعدما رحل المصرفي، جلس خليفة يحدّق إلى سـقف المكتب وقد رفع سـاقيه فوق زاوية مكتبه، وكان دخان السـيجارة يلتف فوق رأسـه كالعمامة. كان عليه إحراز تقـدّم فـي القضيّـة، فحسّـاني يلاحقـه طالبًا تقريـرًا عمّا توصّـل إليه وصديق جانسـن فـي القاهـرة لـم يتصـل بـه حتّـى الآن وعليـه ملاحقته. كمـا أنّه مضطـر على الأرجح إلـى الاتّصـال بـذاك الإسـرائيلي اللعيـن ليرى ما إذا كان قد بـدأ بإجراء البحث اللازم بخصوص ماضي شليغل. كان لديه الكثير من العمل ولكنّه يكتفي بالجلوس والتحديق إلى السقف وهو يفكر في حشوات الذهب والأسنان المخلوعة وصفّ الأرقام الملوّنة الموشومة على ذراع حنّا شليغل.

أرجـع رأسـه إلـى الخلـف ونفخ عددًا من حلقات الدخان الكسـولة التي راحت تلاحق بعضها نحو الأعلى لتتبدّد عند السـقف وتتحوّل إلى غيمة من الضباب. مرّت خمس دقائق ومن ثمّ عشـر، وكانت السـاعة المعلّقة على الحائط تدق الثواني وكأنّها قلب آلي نابض. ثمّ نهض وكأنّه توصل إلى قرار وتناول سترته وغادر القسم.

حين أصبح في الشارع استدار يمينًا ومن ثمّ يسارًا وراح يشقّ طريقه بين حشود الناس حتّى وصل إلى قلب سوق البلدة، فتجاوز المقاهي ومتاجر بيع التذكارات ومحال التوابل التي تكوّمت لديها بتلات الخبيّزة والزعفران الأحمر المسحوق، قبل أن يدلف

أخيرًا إلى مقهى إنترنت ساطع الإضاءة اصطفّ على جداره الخلفي عدد من الحواسب الإلكترونيّة. هزّ رأسه تحيّة للمالك، الذي كان فتى ذا شعر مكسوّ بالجيل وحزامه مثبّتًا بإبزيم على شكل دراجة نارية. أشار له ليجلس إلى أبعد حاسوب إلى اليسار بقرب فتاة أوروبيّة بدت كتفاها محروقتين بأشعة الشمس. جلس هناك وبعد قليل من التردّد فتح صفحة ياهو! وطبع عبارة «معتقل نازي». غير أنّه أجفل في البداية، تمامًا مثل طفل يقرّب يده من النار خائفًا ولكنّه توّاق في الوقت نفسه لمعرفة ملمسها.

القدس- المدينة القديمة

«ماذا فعلنا لهم لكي يأتوا إلى هنا ويخبرونا كيف ندير بلادنا؟ ألا يُسمح لنا حتّى بالدفاع عن أنفسنا؟ ميشوغينا! جميعهم! ميشوغينا!»

طوى العجوز نسخته من جريدة يديعوت أحرانوت بغضب وقد لوى شفتيه الرقيقتين استنكارًا.

تناول بن-روي جرعة من شرابه، وأخذ يحدّق إلى ما سبّب كلّ هذا الغضب للرجل. كانت على الصفحة الأمامية قصّة عن مجموعة من ناشطي السلام الأوروبيين الذين أتوا إلى إسرائيل للاعتراض على الجدار الأمني الذي تبنيه الحكومة بين الأراضي المحتلّة والضفّة الغربيّة والممتدّ على مسافة ثلاثمائة كيلومتر. وأظهرت الصورة المرفقة بالمقال ممثلاً بريطانيًا لم يسمع عنه بن-روي من قبل يمسك بأيدي مجموعة من الفلسطينيين أمام جرّافة للجيش الإسرائيلي ويحملون لافتة كُتب عليها المشاهير يدينون جدار التمييز العنصري.

صرخ العجوز وهو يجعّد الجريدة: «نازيون! هكذا يسموننا. هل ترى؟ قُتل شقيقي في بوغنفالد ويسمونني نازي! عار عليهم! هؤلاء الغويم الأنذال!»

رمى الجريدة جانبًا، واستند إلى ظهر كرسيّه وهو يهزّ رأسه. للحظة، فكر بن-روي أن يقول شيئًا ويخبر العجوز كم يكره هؤلاء الأجانب فاعلي الخير الذين يأتون إلى هنا لينوحوا ويدينوا قبل أن يعودوا إلى بيوتهم الآمنة في بلادهم الآمنة ويهنّئوا أنفسهم لكونهم أناسًا رائعين ومتعاطفين، بينما يقوم الفلسطينيون المساكين المقموعون بتفجير النساء والأطفال من خلفهم.

إلاّ أنّه لم يقل شيئًا لأنّه خشي لو بدأ بالكلام، أن يغلب عليه غضبه ويملأه بسواد أعمى فيبدأ بالصراخ والغضب وضرب الطاولة بقبضته بلا وعي في مكان عام. هكذا فضّل التزام الصمت.

مدّ يده، وأمسك المينورا المعلّقة حول عنقه، وشدّ عليها وكأنّه يحاول إعادة إحياء

شيء بداخله ثمّ وقف وترك عشرين شيكلاً على الطاولة قبل أن يخرج ليرى ما يمكنه أن يجد عن المرأة المقتولة من أجل ذاك المصري اللعين.

كان شارع أور ها-شايم أكثر فقرًا من محيطه. شارع مظلم وكئيب يمتدّ في نهاية الحي اليهودي قرب القسم الأرمني، أرضه المنحدرة مهّدتها الأقدام التي تدوسها بلا توقف، وأبنيتها العالية بدت وكأنّها ستطبق على المارة. كان المبنى رقم ستّة وأربعين في منتصف الشارع تقريبًا، بناء بناءً حجريًّا قاتمًا قُسّم الجزء العلوي منه إلى أربع شقق تدلّت حبال الغسيل الخالية من نوافذها، وكان القبو يحتوي على ييشيفا مزدحمة ذات مدخل خاص بها. حين وصل بن-روي، راجع الورقة التي دوّن عليها التفاصيل التي أعطاه إيّاها المصري عصر اليوم الفائت ثمّ توجه إلى الباب الرئيسي وضغط على زرّ الهاتف الداخلي التابع للشقّة الرابعة.

كان بإمكانه المجيء في وقت أبكر - فلم يكن لديه ما يقوم به خلال الساعات الأربع والعشرين الماضية - ولكنّ نبرة المصري لم تعجبه ولم يشعر بالرغبة بمساعدته. حتّى إنّه كان يفكر في إهمال الموضوع لمدّة أطول لا سيّما بعد ما حدث مساء أمس. فعلى الرغم من أن بن-روي أكّد عليه ألاّ يرسل شيئًا إلاّ أنّ ذاك المزعج أرسل له عبر الفاكس لائحة طويلة من الملاحظات ما أدّى إلى تعطل آلة الفاكس التي راحت تصفر وتحتجّ مثل طفلٍ باكٍ إلى أن انفجر غاضبًا فنزعها من المقبس ورماها عبر الغرفة.

كلاّ، لم يشعر بأي رغبة في مساعدته. إلاّ أنّه قرّر في النهاية الانتهاء من المسألة قبل أن يعاود خيديفا أو أيًّا يكن اسمه الاتصال والإلحاح عليه، كما يتوقع أن يفعل. وها هو هنا الآن.

ضغط على الزرّ مجدّدًا وهو ينظر من خلال نافذة القبة إلى صفوف الحريديين الشباب المنحنين فوق كتب التلمود وجدائلهم تدلّى من جانبي وجوههم الشاحبة وهم يقرأون من خلف نظاراتهم (سمع مرّة أنّ القدس تحتوي على أعلى نسبة من بائعي النظارات في العالم). عبس قليلاً ولوى فمه وهو يتذكر أنّه كان يسمّيهم طيور البطريق. ضغط على الزرّ للمرّة الثالثة لتأتيه الإجابة أخيرًا.

«شالوم؟»

أطلّت امرأة من النافذة وبدا وجهها الممتلئ محاطًا بشعر الشيتل المستعار التقليدي الذي تضعه النساء اليهوديات الأرثوذكس. أخبرها من يكون وماذا يريد.

قالت المرأة: «انتقلنا إلى هنا للتوّ والأشخاص الذين كانوا قبلنا لم يمكثوا سوى لعامين».

«وقبلهم؟»

هزّت المرأة كتفيها واستدارت تصرخ بشيء ما لشخص خلفها.

نظرت نحوه مجدّدًا وقالت: «تحدّث إلى السيّدة واينبيرغ في الشقّة رقم اثنين. فهي تعيش هنا منذ ثلاثين عامًا وتعرف كلّ شيء عن الجميع».

دلّت نبرتها بوضوح أنّها تعتبر السيّدة واينبيرغ عجوزًا حشريّة. شكرها ثمّ بحث في لائحة الهاتف الداخلي وضغط على زرّ الشقّة رقم اثنين. لم يكد يرفع إصبعه حتّى فُتح الباب الأمامي وأطلّت سيّدة عجوز نحيلة، أطول بقليل من طفل صغير، ترتدي معطف منزل مغضنًا وتنتعل شبشبًا رخيصًا. كانت أصابع يديها ملتوية من أثر التهاب المفاصل.

سألها وهو يخرج بطاقته: «سيّدة واينبيرغ؟ أنا التحري بن-روي من-»

صدرت عنها شهقة صغيرة، ثمّ رفعت يدها إلى حنجرتها قائلةً: «ربّاه! ماذا حدث؟ إنّه صموئيل، أليس كذلك؟ أخبرني ماذا حدث له!»

طمأنها أنّ شيئًا لم يحدث لصموئيل، أيًّا يكن الرجل، وأنّه لا يرغب سوى بطرح بعض الأسئلة عن امرأة كانت تعيش في إحدى الشقّق. للحظة، لم يبدُ أنّها صدّقته بل ظلّ صدرها يرتفع وينخفض وقد تبلّلت عيناها بدموع الخوف. هدأت تدريجيًّا ثمّ دعته بحركة من يدها لدخول الشقّة التي كانت في الطابق الأرضي إلى يمين المدخل.

شرحت له وهما يدخلان: «صموئيل هو حفيدي، إنّه أفضل شاب في العالم. لقد أخذوه إلى غزّة للخدمة العسكرية، ليكن الله بعوننا. وكلّما سمعت الأنباء، أو رنّ الهاتف... أعجز عن النوم من شدّة القلق. فهو مجرّد طفل، جميعهم مجرّد أطفال».

اصطحبته إلى غرفة معيشة صغيرة، مزدحمة بالأثاث ومعتمة، تحتوي على خزانة خشبيّة كبيرة وأريكتين موضوعتين أمام تلفزيون قديم بالأبيض والأسود، يعلوه قفص يحتوي على ببغاء أصفر اللون. كانت الصور تملأ المكان، فضلاً عن رائحة شيء حلو ولكنّه كريه، لم يستطع بن-روي تحديده. قد يكون قذارة العصفور أو شيئًا يُطهى على النار. ولكنّه حاول عدم التفكير فيه. تناهى إليه من الشقّة صوت الراديو على إذاعة الجيش الإسرائيلي.

قادته المرأة إلى إحدى الأريكتين ثمّ اختفت للحظة وأوقفت عمل الراديو قبل أن تعود بكوب من عصير الليمون الذي قدّمته له. لم يطلبه ولكنّه قبله على كل حال وأخذ منه رشفة من باب اللياقة ثمّ وضعه على طاولة صغيرة قرب الأريكة. جلست على الأريكة الأخرى، وتناولت صنّارتيها اللتين تدلّى منهما خيطان صوفيّان أحدهما أبيض والآخر أزرق، حملت الصنّارتين أمام وجهها تقريبًا وراحت يداها تعملان ببراعة

مذهلة بالنسبة إلى سنّها ويديها المتعبتين. بدا أنّها تصنع يرمولك، إذ كانت قد أنهت جزءًا منه، فابتسم بن-روي وهو يتذكر قصّة قديمة عن جدّته، أمّ أبيه، التي قامت خلال حرب 1967 بحياكة قلنسوات حمراء اللون لجميع الرجال في شركة المدافع التي يملكها ابنها، أكثر من خمسين قلنسوة. فأُطلق على الشركة لقب اليرمولكات الناريّة، ولا تزال تحمله حتّى هذا اليوم على حدّ علمه.

«إذًا، ماذا تريد أن تسأل؟»

«نعم؟»

«قلت إنّك تريد أن تطرح عليّ بعض الأسئلة عن الشقّة الرابعة».

«نعم، بالطبع».

نظر إلى الورقة التي لا يزال يحملها وحاول استجماع أفكاره.

«أهي عن المرأة غولدشتاين؟ لأنّني لم أقلها مرّة بل قلتها مئات المرات - ستكون نهايتها سيئة. مكثت هنا ثلاث سنوات، وحين رحلت صفّق المبنى بأكمله فرحًا. أذكر مرّة، كان يوم جمعة، ليلة شابات حبًّا بالله-»

قال بن-روي مقاطعًا: «أسأل عن امرأة تدعى حنّا شليغل».

تباطأت حركة الصنّارتين ثمّ توقفت.

«آه».

«قالت المرأة في الأعلى إنّك ربّما عرفتها».

حدّقت إلى القطعة التي تحيكها للحظة ثمّ وضعتها في حجرها، واستندت إلى ظهر كرسيّها.

تنهّدت قائلةً: «قصّتها فظيعة، فظيعة جدًّا. فقد قُتلت، قتلها العرب في الأهرامات بدمٍ بارد. كم هذا رهيب».

جمعت يديها معًا، وبدت براجمها المتورمة المشوّهة.

«كانت سيّدة هادئة، عاشت في عزلة اختيارية، ولكنّها كانت تلقي التحيّة كلّ صباح. كان لديها...» حرّرت أصابعها، وأخذت تربّت بيدها على ذراعها اليسرى قبل أن تتابع: «أنت تعلم... الأرقام. أوشفيتز».

انطلق الببغاء لينشد فجأة أغنية قصيرة ثمّ صمت وراح ينقر مخالبه. تناول بن-روي رشفة أخرى من العصير.

قال: «إنّ الشرطة المصريّة تعيد التحقيق في القضيّة، وترغب بالحصول على بعض التفاصيل الشخصيّة عن السيّدة شليغل. مهنتها، عائلتها، وما إلى ذلك. الأمور

الأساسيّة وحسب».

رفعت المرأة حاجبيها الرقيقين، ثمّ استأنفت الحياكة بوتيرة أبطأ من قبل، فيما راحت قطعة الصوف الدائريّة تنتشر تحت أصابعها وكأنّها زهرة غريبة تتفتّح.

قالت: «أنا لم أعرفها جيّدًا، لم نكن صديقتين بل كنّا نحيي بعضنا من وقت إلى آخر. كانت تحبّ البقاء بحالها ومعظم الوقت لا تشعر بوجودها. ليست كالسيّدة غولدشتاين، دائمًا تشعر بوجودها. فالأصوات التي كنّا نسمعها! أوي فاي!»

تقلّص وجهها اشمئزازًا. راح بن-روي يبحث في جيوبه عن قلم ثمّ لاحظ أنّه نسي إحضار قلم معه. كان ثمّة قلم في مزهريّة زجاجيّة في المكتبة، ولكنّه لم يرغب بطلبه خشية أن يبدو غير محترف. فكّر أنّه سيدوّن بعض الملاحظات حين يعود إلى المخفر.

تابعت المرأة قائلةً: «كانت تعيش هنا حين وصلنا، وكان ذلك عام 1969. أتينا من تلّ أبيب أنا وتيدي في آب 1969. لطالما أراد العيش هنا، أمّا أنا فلم أكن واثقة من ذلك. حين رأيت المكان للمرّة الأولى قلت لنفسي كلوغ إيز مير! ماذا نفعل في مكان كهذا؟ كان الردم في كلّ مكان بسبب العرب ونصف المباني منهارة. الآن، بالطبع، لا أرغب بالعيش في مكان آخر. ها هو هناك». رفعت صنّارتيها مشيرة إلى صورة موضوعة على رفّ وسط المكتبة لرجل قصير ممتلئ يرتدي التاليّت ويقف أمام الحائط الغربي. «بقينا متزوجين أربعين عامًا، ليس كأولاد هذه الأيام، أربعون عامًا. كم أشتاق إليه!»

رفعت رسغها لتمسح عينيها، ونظر بن-روي إلى الأرض مربكًا.

«على كل حال كانت هنا حينها، يبدو أنّها انتقلت مباشرةً بعد التحرير».

تحرّك بن-روي في كرسيّه وسألها: «وقبل ذلك؟»

هزّت المرأة كتفيها وهي تحدّق إلى عملها: «أذكر أنّها ذكرت أنّها عاشت في ميا شاريم، ولكنّني غير واثقة. كانت من فرنسا أساسًا، قبل الحرب، فقد كانت تستعمل كلمات فرنسيّة وهي تتحدّث مع نفسها حين تنزل السلّم».

«وقلتِ إنّها كانت في أوشفيتز؟»

«حسنًا، هذا ما أخبرني به د. تاوبر. أنت تعلم، د. تاوبر من الرقم ستّة عشر».

لم يكن بن-روي يعلم على الإطلاق ولكنّه لم يقل شيئًا.

«رأيت الوشم بضع مرات، فعرفت أنّها كانت في المعتقلات. إلاّ أنّها لم تذكر ذلك إطلاقًا، فقد كانت كتومة جدًّا. غير أنّني في أحد الأيام كنت أتحدّث مع د. تاوبر – رجل لطيف توفي منذ أربع أو خمس سنوات، رحمه الله – وقال تعرفين تلك

السيّدة التي تعيش في الأعلى، السيّدة شليغل، قلت أجل، فقال احزري ماذا؟ - كان كما تعلم بارعًا في إخبار القصص - قال احزري ماذا؟ أتينا معًا على القارب نفسه عام 1946 من أوروبا. حاول البريطانيون إحراقهم في حيفا على ما يبدو ولكنّهم قفزوا في البحر، وسبحوا أكثر من ميل ليلاً إلى أن وصلوا إلى الشاطئ. ثمّ عاشا عشرين عامًا في الشارع نفسه! يا لها من مصادفة».

سُمع صوت أقدام في الطابق الأعلى وكأنّ شخصًا ما يركض، فنظرت المرأة إلى السقف.

«د. تاوبر هو الذي أخبرك أنّها كانت في أوشفيتز؟»

«نعم؟»

«حنّا شليغل».

بدا عليها الإرباك للحظة ثمّ أدركت ما كانت تتحدّث عنه.

«آه، أجل، أجل. قال إنّهما تحدّثا على القارب. أخبرتك أنّهما أتيا على القارب نفسه، أليس كذلك؟ مكثا على متنه أسبوعين، بين ستّمائة شخص، مكوّمين كالسردين. هل تتخيّل؟ تخرج حيًّا من المعتقلات ثمّ تجتاز محنة كهذه! قال إنّها كانت جميلة. شابة جدًّا وجميلة جدًّا وقويّة. لم يقل أخوها شيئًا طيلة الرحلة على ما يبدو، بل اكتفى بالجلوس يحدّق إلى البحر مصدومًا».

لم يذكر بن-روي أنّ الضابط المصري ذكر وجود شقيق. عضّ شفته للحظة، ثمّ تغلّب على غروره، وذهب لإحضار قلم من المزهريّة وهو يرفع حاجبيه للسيّدة واينبيرغ وكأنّه يقول: «هل تمانعين؟» ولكنّها كانت تائهة في أفكارها ولم تلاحظ على ما يبدو أنّه قام من مكانه.

كانت تقول: «يا للمسكينين. لا يمكن أن يكونا قد تجاوزا الخامسة عشرة أو السادسة عشرة حينها، ومع ذلك اجتازا تجربة كهذه. أيّ عالم هذا؟ أيّ عالم هذا الذي تحدث فيه مثل تلك الأمور لمن في سنهما؟ أو لأيّ شخص كان؟»

عاد بن-روي ليجلس في مقعده وهو يخربش بالقلم على راحة يده ليبدأ الحبر بالتحرّك.

سألها: «ألا يزال الشقيق حيًّا؟»

هزّت العجوز كتفيها قائلةً: «بحسب د. تاوبر، أصيب... أنت تعلم». ورفعت يدها وراحت تربّت على جانب رأسها بحركة توحي بأنّه أصيب بالجنون. «وماذا تتوقّع؟ بعد أن عُذّب وحقن بهذا الشكل وكأنّه حيوان».

نظر إليها بن-روي وقد بدت يده مكسوة بخطوط متقاطعة من الحبر.

«ماذا تعنين؟»

«حسنًا، كانا توأم، أليس كذلك؟ ألم أخبرك؟ بالطبع فعلت. السيّدة شليغل وشقيقها، وتعرف ماذا يفعلون بالتوائم في المعتقلات، التجارب. لا بدّ أنّك سمعت عنها».

تقلّص حلق بن-روي. لقد سمع بالفعل كيف كان الأطباء النازيون يستعملون التوائم كحيوانات اختبار بشريّة ويخضعونهم لأبشع أنواع التجارب الجينية.

تمتم قائلاً: «ربّاه!»

«لا عجب إذًا أن يصاب الفتى المسكين بشيء من...» وربّتت مجدّدًا على جانب رأسها ثمّ أضافت: «ولكنّ الفتاة كانت قويّة. هذا ما قاله د. تاوبر. نحيلة كعود من الكبريت ولكنّها قويّة من الداخل كالحديد. لقد اعتنت بشقيقها ولم تبتعد عنه أبدًا».

نظرت إلى بن-روي.

«هل تعرف ماذا قالت حين كانوا على متن المركب. سوف أعثر عليهم. هذا ما قاله لي د. تاوبر. لم تبكِ ولم تتذمّر بل قالت: حتّى لو استغرقني ذلك بقيّة حياتي، سوف أعثر على الأشخاص الذين فعلوا بنا ذلك. وحين أجدهم سوف أقتلهم. ستّة عشر عامًا حبًّا بالله. لا يجب أن يشعر فتى في هذه السن بهذه الأشياء. إسحاق، ذاك كان اسم شقيقها، إسحاق شليغل».

توقفت عن الحياكة، ثمّ تنهّدت، ووضعت صنّارتيها جانبًا، ونهضت تسير مترنحةً نحو قفص الطائر لتربّت على قضبانه بظفرها. قفز الطائر نحوها وهو يرفرف بجناحيه. راحت تداعبه قائلةً: «أيّها الجميل، أيّها الطائر الجميل».

كان بن-روي قد بسط الورقة على فخذه، وراح يدوّن الملاحظات في جميع الأماكن الفارغة المتوفرة.

كرّر السؤال الذي طرحه منذ لحظات: «هل تعلمين ما إذا كان شقيقها لا يزال حيًّا؟»

قالت وهي تمرّر إصبعها على قضبان القفص التي راحت تصدر إيقاعًا منتظمًا: «لا أدري، فأنا لم أرَه أبدًا».

«هل كان يعيش معها؟»

«آه كلاّ، كان مريضًا جدًّا وآخر ما سمعته عنه أنّه كان في كفار شاول. هذا ما قاله لي د. تاوبر».

كانت كفار شاول عيادة نفسيّة تقع شمال غرب المدينة. دوّن بن-روي الملاحظة.

«كانـت معتـادة علـى زيارتـه كلّ يوم على مـا يبدو، مع أنّها لم تتحدّث عنه أبدًا، ليـس معـي علـى الأقـلّ. لا أدري إن كان لا يـزال حيًّا، لا أحد منا يزداد شـبابًا، أليس كذلك؟»

كان الببغاء قد قفز على أرجوحة في زاوية القفص وراح يتأرجح عليها. فأخذت المرأة تصفّر له من دون نغم.

«قلتِ إنّهما فرنسيّا الأصل؟»

«حسنًا، هذا ما أخبرَتني به. كانت المرّة الوحيدة التي تحدّثنا فيها فعلاً خلال عشرين عامًا، هل تصدّق؟ إذ دخلت حاملةً الكثير من المشـتريات، لا بدّ أنّه كان الفصح لأنّها كانت تحمل كيسًا مليئًا بعلب الماتزا، فرحنا نتحدّث، هناك في المدخل. لا أذكر كيف وصلنا إلى الموضوع ولكنّها قالت بالتأكيد إنّها ولدت في فرنسـا، كما ذكرت شـيئًا عن مزرعة وقصر قديم. أو أنّني أتخيّل ذلك؟ في الحقيقة لا أتذكر التفاصيل، مع أنّني لا أزل أذكر علب الماتزا بوضوح وكأنّها أمامي الآن. غريب ما يتذكره المرء أليس كذلك؟»

صفّرت من جديد للببغاء، وأدخلت إحدى يديها في جيب المعطف.

سألها بن-روي: «هل كانت لديها عائلة على حدّ علمك؟ زوج، أولاد، أهل؟»

كانت يدها تعبث في الجيب باحثةً عن شيء ما.

أجابت: «إن كانت تملك أفراد عائلة آخرين، فأنا لم أرَهم أبدًا. كانت المسكينة تعيش بمفردها من دون عائلة أو أصدقاء، وحيدة تمامًا. أمّا أنا فكان لديّ تيدي على الأقـلّ، رحمـه اللـه. عشـنا معًـا أربعـة وأربعين عامًا مـن دون أن نزعـج بعضنا بكلمة واحدة. ما زلت أستيقظ وأنا أعتقد أنّني سأجده هنا».

لوت عنقها إلى أحد الجانبين كي تحدّق إلى جيبها ويدها لا تزال تبحث فيه.

سألها بن-روي: «وماذا عن عملها؟ هل للسيّدة شليغل وظيفة؟»

«أعتقـد أنّهـا كانـت تعمـل في ياد فاشـيم، في الملفات أو شـيء من هذا القبيل. كانت معتادة على الذهاب في الصباح الباكر والعودة في ساعة متأخرة من بعد الظهيرة وهي تحمل بين ذراعيها كومة من الأوراق والملفات والله أعلم ماذا أيضًا. فقد وقعت منها مرّة في البهو وساعدتها في لمّها. شيء عن داشاو مع ختم ياد فاشيم عليها. الله أعلم لماذا تحضر أشياء كهذه إلى منزلها بعد كلّ ما مرّت به. آه!»

أخرجـت يدهـا وهـي تحمـل بـذرة أو حبّة صغيرة بين إبهامها وسـبّابتها وراحت تلوّح بها أمام القفص وكأنّها تقول «انظر ماذا لديّ!» ثمّ أمسكت رسغها باليد الأخرى لتثبيـت ذراعهـا وأدخلـت البـذرة بين القطبـان. فأطلق الببغاء صوتًا مسـرورًا وقفز عن أرجوحته.

حدّق بن-روي إلى ملاحظاته وهو يتساءل ماذا يتعيّن عليه أن يسأل أيضًا. فرأى الاسم الذي أعطاه إيّاه المصري.

«هل يعني لك اسم بيت جانسن شيئًا؟»

فكرت المرأة للحظة ثمّ أجابت: «عرفت مرّة شخصًا يدعى رينيه جانسن. كان يعيش في الشارع المجاور لنا في تل أبيب. كان لديه ورك اصطناعي وابن في البحريّة».

«ولكنّني أسأل عن بيت جانسن».

«لا أعرفه».

هزّ بن-روي رأسه، ثمّ نظر إلى ساعته. سألها بضعة أسئلة أخرى - هل كان للسيّدة شليغل أعداء تعرفهم؟ اهتمامات غير اعتياديّة؟ هل يعرفها أيّ من الجيران الآخرين؟ - ولكنّ المرأة لم تعطِهِ معلومات إضافية هامّة، فشعر أنّه قام بكل ما في وسعه. طوى الورقة، وأعاد القلم إلى المزهريّة وقال إنّه لا يريد أن يسبّب لها المزيد من الإزعاج. غير أنّ العجوز أجبرته على إنهاء عصير الليمون - «قلّة الشرب تسبّب التجفاف!» - ثمّ رافقته إلى باب الشقّة ومنه إلى مدخل المبنى.

قالت وهي تفتح البوابة: «أتعرف، لا أدري حتّى أين دُفنت. كنّا جيرانًا لإحدى وعشرين سنةً ولا أعرف حتّى أين يقع قبرها. هلاّ أخبرتني إن عرفت؟ أودّ أن أتلو لها كيدّوش في الپارتسايت لتلك المسكينة».

غمغم بن-روي بإجابة، ثمّ شكرها وخرج إلى الشارع. مشى خطوتين ثمّ استدار مجدّدًا ليسألها: «سؤال أخير. هل تعرفينِ ما حدث لممتلكات السيّدة شليغل؟»

رفعت العجوز حاجبيها وكأنّها فوجئت بسؤاله.

«لقد احترقت بالطبع».

«احترقت؟»

«في الحريق. لا بدّ أنّك سمعت عن الحريق».

حدّق بن-روي إلى المرأة.

«في اليوم الذي تلا وفاتها، أو ربّما بعد يومين؟ صعد بعض الأولاد العرب على الأنابيب الممدّدة في خلفية المبنى ثمّ سكبوا الكاز على كلّ شيء وأحرقوه. يومها دمّر كلّ شيء. ولو لم يُطلق السيّد ستيرن جرس الإنذار لاحترق المبنى بأكمله». هزّت رأسها مضيفة: «يا للمسكينة، خرجت حيّة من المعتقل لتنتهي حياتها هكذا، مقتولة ومنزلها مدمّرًا. أيّ عالم هذا الذي نعيش فيه؟ أناس يُقتلون وأطفال وأولاد يرسلون إلى الجيش، أيّ عالم هذا!؟»

أطلقت تنهيدة عميقة، ثمّ رفعت يدها مودّعة قبل أن تغلق الباب وتترك بن-روي واقفًا في الشارع وقد جعل العبوس وجهه وكأنّه سفح تلّ صخري مثلّم.

القدس

تبًّا لكاستيلومبر. كانت ليلى في غاية السرور بالأمس بما توصلت إليه وكانت مقتنعة أنّه المفتاح الذي سيقودها إلى حلّ لغز ويليام دو رولينكور. ولكن بعد يوم كامل من البحث والتنقيب شعرت أنّها أكثر إرباكًا ممّا كانت حين سمعت بذاك المكان اللعين.

فقد اتّصلت بكامبردج أوّلاً، على أمل التحدّث مع البروفيسور ماغنوس توبينغ، ليخبرها موظف الجامعة غير المحترف أنّ البروفيسور لا يملك لا هاتفًا (فالرنين يزعجه، مدام) ولا بريدًا إلكترونيًّا (يفضّل آلته الكاتبة، مدام).

تخيّلته أكاديميًّا عجوزًا يدخّن الغليون في مكتب مغلق مليء بالكتب غير آبه على الإطلاق بالعالم الخارجي. فسألته: «إذًا كيف لي أن أتّصل به؟»

أجاب العامل وقد بدا أنّه يُدخل كلمة «مدام» المهذبة والمتعالية على السواء في كلّ جملة: «حسنًا، مدام، يمكنك أن تراسليه. مع أنّني لا أظنّه بارعًا في الإجابة عن الرسائل، أو يمكنك ببساطة أن تطرقي بابه، وهي عمومًا أفضل الطرق للحديث معه».

«أنا أتّصل من القدس».

«آه، حسنًا، إذًا أعتقد أنّها مشكلة، أليس كذلك، مدام؟»

حين أُغلق في وجهها هذا الباب، عادت إلى الإنترنت. ولكن، على عكس ويليام دو رولينكور، بالكاد وجدت شيئًا عن كاستيلومبر، ولم تتمكن خلال نصف نهار من البحث الدقيق من إيجاد أي نتائج إضافية غير النتائج الستّ الموجزة التي توصلت إليها الليلة السابقة (وكانت النتيجة السادسة عن شركة كاستيلومبر للخزف في آنتويرب). أمّا الخمس الباقية، فكانت إحداها تضمّ الشجرة العائليّة التي وجدت فيها اسم إسكلارموند دو رولينكور، والثانية ترجمة سيئة لمقال أكاديمي فرنسي عن عادة التروبادور في لانغدوك في القرن الثاني عشر، والثالثة موقعًا مخصّصًا لتاريخ القبّالا والاعتزال اليهودي، والرابعة ملاحظة هامشيّة في مقال عن طالب يهودي من القرون الوسطى يدعى راشي، والخامسة مذكورة بشكل عابر في قسم «الآثار المسكونة» لموقع تحت عنوان «فرنسا الخفيّة».

حصلت من هذه المواقع على معلومات متنوّعة أعطتها ومضات عشوائيّة عن لغز أكبر.

ولكنّها لم تجد فيها ما كانت تأمل. بل على العكس، عوضًا عن توضيح لغز ويليام دو رولينكور، أدّى اسم كاستيلومبر إلى زيادته غموضًا وإضافة مزيد من الزوايا المربكة إلى صورة أشبه بلوحة غامضة للفنان براك؛ مجموعة من العناصر المنفصلة التي تشير جميعها إلى معنىً معيّن من دون أن تجتمع في شكل واضح ومعروف.

انحنت لتتأمل الملاحظات التي دوّنتها وهي تتساءل ماذا ستفعل وإلى أين سيؤدي بها ذلك.

كاستيلومبر

«قصر الظلال». مقرّ كونتات كاستيلومبر. قصر دمّر في حملة الكاثار الصليبيّة عام 1243 – لم يبقَ منه سوى قليل من الآثار (أشباح!) قسم أريدج، قرية كاستيلومبر على بعد 3 كيلومترات.

إسكلارموند دو رولينكور. «إسكلارموند الحكيمة» «سيّدة كاستيلومبر البيضاء». تزوّجت ريموند أوف كاستيلومبر الثالث عام 1097. لا توجد معلومات مفصلة عن حياتها. عُرفت بالذكاء والجمال والإحسان...

شخصيّة شعبيّة في تقاليد التروبادور.

بونا دونّا إسكلارموندا.

كونتيسّا كاستيلومبرس.

إسكلارموندا لا بلانكا.

(اللايدي إسكلارموند الطيبة| كونتيسة كاستيلومبر | كانت جميلة وحكيمة| إسكلارموند البيضاء). جوفر روديل (1125–48) اللغة الأوكسيتانيّة.

C. مركز تعليم هام اشتهر بالتسامح الديني. كثير من الطلاب اليهود. قبّالة.

«لو بريفات دي كاستيلومبرس» – سرّ كاستيلومبر. مراجع في تروبادور. إسكلارموند «الحامية». لا أحد يعرف ما كان السرّ بالضبط.

ما أثار غضبها هو أنّها كانت تعرف أنّها أحرزت تقدّمًا هامًا. فالصلات كانت وثيقة وأوجه التشابه واضحة لتُعتبر مجرّد صدفة. لم تكن تملك أدنى شكّ في أنّ إسكلارموند البيضاء تلك هي نفسها إسكلارموند التي وجّه إليها ويليام دو رولينكور رسالته المشفرة، وأنّ «C» وقصر كاستيلومبر هما واحد. وفي هذه الحال من الطبيعي الاعتبار أنّ الشيء القديم الذي يمتاز بقوّة وجمال عظيمين والذي تحدّث عنه ويليام

يرتبط بشكل ما «بسرّ كاستيلومبر» الغامض.

غير أنّها لم تتمكّن من اكتشاف أي معلومات إضافية. فقد اتّصلت بخبيرين في الجامعة العبريّة، بمن فيهم بروفيسور القبّالا غيرشوم شوليم، الذي أضاف مزيدًا من الغموض إلى الصورة. فقد أخبرها أنّ كاستيلومبر لم يجذب الطلاب اليهود فحسب، بل كان منذ القرن الثاني عشر على ما يبدو مزارًا يهوديًّا خاصًا. أمّا لماذا وما علاقة ذلك بويليام دو رولينكور أو كنز الكاثار فظلّا سؤالين غامضين. وكأنّها قفزت فوق هوّة لتنزلق في وادٍ صخري.

قرأت ملاحظاتها مرارًا وتكرارًا ثمّ تناولت الصفحة التي طبعتها في الليلة الماضية من موقع جمعيّة التاريخ في كليّة سان جون وأعادت قراءة المقطع التالي: ففي تلك المحاضرة التنويريّة والمنوعة، شرح الأستاذ توبينغ كيف كشف بحثه في سجلاّت محاكم التفتيش في القرن السادس عشر علاقة غير متوقعة بين كنز الكاثار الأسطوري و«سرّ كاستيلومبر» المزعوم. كلّما فكرت فيه ازدادت اقتناعًا أنّ توبينغ هو المفتاح، وأنّها إن لم تتحدّث إليه مباشرةً لن تكتشف شيئًا حتّى وإن بحثت على الإنترنت إلى الأبد وسألت جميع الخبراء في هذا المجال. ولكن استنادًا إلى موظف الجامعة، فإنّ الطريقة الوحيدة للتحدّث مع توبينغ هي أنّ تستقلّ طائرة وتسافر إلى بريطانيا.

تمتمت: «مستحيل. مستحيل تمامًا».

ولكن حتّى وهي تقول ذلك كانت تضع الصفحة جانبًا وتتصفّح دفتر العناوين بحثًا عن رقم صديقها سليم في وكالة السفر.

القدس

جلس بن-روي في مكتبه يحدّق إلى التقرير الذي طبعه على شاشة الحاسوب أمامه والذي احتلّ ثلاثة أرباع الصفحة. قال لنفسه إنّه قام بما يُتوقّع منه منطقيًّا. فقد قابل العجوز في أور ها-شايم واتّصل بعيادة كفار شاو للسؤال عن شقيق شليغل التوأم (لا يزال حيًّا على ما يبدو وإن كان بحالة من الاضطراب العقلي الشديد). حتّى إنّه اتّصل بياد فاشيم للتأكد من أنّ شليغل كانت موظفة هناك فعلاً (بدوام جزئي في قسم الأرشيف). حسنًا، كان بإمكانه ملاحقة الموضوع أكثر ولكن لماذا؟ لم يطلب خيديفا سوى «بعض المعلومات عن تاريخها» وهذا ما قام به. سيطبع سطرين إضافيين ليملأ التقرير الصفحة قبل أن يرسله ويغسل يديه من القضيّة بأكملها.

باستثناء... باستثناء...

ذاك الحريق اللعين، لم يتمكن من نسيانه. كان آخر ما قالته المرأة عن أنّ

ممتلكات حنّا شليغل قد دُمّرت في حريق مفتعل. ومنذ ذلك الحين وهو يفكر - على الرغم من محاولاته نسيان الموضوع - ما الذي يدفع مجموعة من الأولاد العرب للمخاطرة بدخول الحيّ اليهودي وتسلّق الأنابيب لمجرّد إضرام النار في شقّة امرأة عجوز؟ هذا غير منطقي بكل بساطة. لقد تعامل من قبل مع لصوص ومخرّبين عرب، ولكنّ ما حدث غريب.

الحدس. هذا ما كان يقوله القائد ليفي العجوز: «الحدس يا آرييه هو الذي يصنع الفرق بين التحرّي الجيّد والتحرّي العظيم. فالتحرّي الجيّد ينظر إلى الأدلّة ويستعمل المنطق ليكتشف وجود خطب ما. أمّا التحرّي العظيم فيشعر بوجود الخطب حتّى قبل أن يرى الأدلّة. إنّها فطرة، حدس».

وكان يشعر بهذا الحدس طيلة الوقت، حاسة سادسة تخبره أنّ الأمور ليست كما تبدو. شعر به في قضيّة الاحتيال ريهيفوت، حين قال له الجميع إنّه على خطأ إلى أن استعاد خبير الحاسوب تلك الملفات الضائعة، وثبتت صحة شكوكه. كما شعر به في جريمة قتل المستوطن شابيرو، حين كانت جميع الأدلّة موجهة ضدّ الشاب العربي فيما ظلّ مقتنعًا أنّ الشاب بريء. فقد استنفدت تلك القضيّة قواه ولكنّه ظلّ يبحث إلى أنّ وجد الساطور في غرفة الحاخام وظهرت الحقيقة. يومها قال له القائد ليفي وهو يمنحه وسامًا على عمله: «أنا فخور بك يا آرييه، أنت تحرّي عظيم. وسوف تصبح أعظم ما دمت تصغي إلى حدسك».

ولكنّه بالطبع توقف عن الإصغاء في العام الماضي. حتّى إنّه لم يعد يشعر بأي حدس على الإطلاق. كان يقوم بعمله ولكنّ حماسه القديم، شغفه بأن يصل إلى حقيقة الأمور، ورغبته بأن يكون مثل ألباتشينو في الفيلم، كلّها اختفت ولم يعد يأبه بعد الآن. صح، خطأ، حقيقة، أكاذيب، عدالة، ظلم - لم تعد مهمة، لم يعد يكترث أبدًا.

حتّى الآن، لأنّه يشعر الآن بأقوى حدس اختبره خلال حياته العمليّة. لم يكن يريد أن يشعر به وكان غاضبًا لهذا الإحساس ولكنّه ظلّ موجودًا. أولاد، حريق مفتعل، امرأة مقتولة، الحيّ اليهودي. كان ثمّة خطب، وخطب كبير.

«تبًّا لك خيديفا، تبًّا لك».

فكر لبضع دقائق أخرى وكان يرغب بشدّة أن يغسل يديه من الموضوع برمّته وعدم التورّط به أكثر من ذلك. إلاّ أنّه لم يتمكن من منع نفسه، فرفع السمّاعة وطلب رقمًا.

«فيلدمان؟ أريد إيجاد ملف عن قضيّة حريق مفتعل وقع منذ خمسة عشر عامًا... هذا ليس من شأنك، فقط أخبرني أين أبحث».

استغرقه الأمر قرابة ساعتين لتعقّب الملف الذي انتهى لسبب غامض في قسم الأرشيف في موريا، وهو أحد مخافر الشرطة في المدينة. طلب أن يُرسل له على الدراجة، وها هو يجلس الآن وقد رفع قدميه فوق طرف المكتب يقرأه ويتناول رشفة من قارورته من وقت إلى آخر.

ما أثار استغرابه وزاد من حدّة شكوكه هو زمن الحريق. فقد أخبرته السيّدة واينبيرغ أنّ الحادث وقع بعد يوم أو يومين من وفاة حنّا شليغل. ولكن استنادًا إلى التقرير، حدث ذلك يوم الوفاة بعد ساعات وحسب. وهي مصادفة غريبة قد لا تثير شكوك المحقّقين.

ولكن لسوء الحظ، لم يكن ثمّة ما يفسّر هذا التزامن الغريب في بقية الملف. كان فيه إفادات من جيران شليغل، بمن فيهم السيّدة واينبيرغ، فضلاً عن صور للشقّة المحروقة ومحاضر توقيف للأولاد الثلاثة العرب الذين افتعلوا الحريق. أُدين اثنان منهم وسُجنا لمدّة ثمانية عشر شهرًا في سجن الأحداث، بينما أُطلق سراح الثالث، وهو أصغرهم ويُشار له في محضر الضبط باسم «آني» وحسب، من دون تهمة نظرًا لسنّه الذي لم يكن يتجاوز السابعة في ذلك الوقت ولنقص الأدلّة ضدّه.

لماذا اختاروا حرق تلك الشقّة بالذات في ذلك اليوم وذلك الوقت بالتحديد، وما العلاقة بين الحادث وقتل حنّا شليغل - سؤالان ظلّا من دون إجابة. كلّ ما قاله الأولاد إنّهم فعلوا ذلك تحدّيًا، ومن الواضح أنّ محقّق الشرطة اكتفى باعترافهم بذنبهم ولم يبذل جهدًا للقيام بمزيد من البحث.

راجع بن-روي التقرير مرّتين ثمّ أرجع رأسه إلى الخلف، وأفرغ بقيّة الشراب في فمه. ثمّة خطب كبير، وكبير جدًّا في هذه القضيّة. والسؤال هو ماذا يمكنه أن يفعل؟ فقد وقع الحريق منذ عقد ونصف من الزمن واختفت جميع الأدلّة ولا بدّ أنّ مفتعليه قد انتقلوا من المنطقة أو غيّروا أسماءهم أو ربّما الاثنان معًا. قد يُمضي شهورًا وهو يحاول الوصول إلى الحقيقة، ومن أجل ماذا؟ عربي لجوج يكره اليهود؟

تمتم غاضبًا: «زوبي! تبًّا. ما الجدوى؟ حدس أم لا».

أغلق الملف ورماه على المكتب ثمّ تناول الهاتف وطلب رقم أرشيف موريا ليخبرهم أنّه انتهى من الملف. إلاّ أنّ نظره وقع على سطر مكتوب على الجزء الخلفي من الملف، بقلم رصاص باهت لم يلاحظه من قبل. تناول الملف وأخذ يقرأ بصعوبة: «آني - هاني الحجّار هاني جمال. مواليد 11/ 2/ 1983. مخيّم الأعمري».

حدّق إلى الملاحظة وقد ضاقت عيناه ثمّ مال إلى اليسار ببطء وتردّد وبحث بين كومة من الأوراق ليخرج ملف قضيّة الفلسطيني الذي طارده بعد عمليّة القبض

على تجّار المخدرات في المدينة القديمة. فتحه وحدّق إلى اسم الرجل في محضر الضبط.

الاسم: هاني الحجّار هاني جمال.
السنّ: 22
تاريخ الولادة: 11 شباط 1983.
العنوان: 14، جينّا لاين، مخيّم الأعمري، رام الله.

«شالوم، الأرشيف».
تـردّد الصـوت فـي أذنه وراحت عيناه تتنقّـلان من جديد بين الملاحظة ومحضر الضبط.
كرّر الصوت: «الأرشيف».
أجاب: «نعم، أنا بن-روي من مخفر دايفيد».
«أهلاً. هل انتهيت من الملف؟»
عضّ بن-روي على شفته بقوّة ثمّ قال بعد قليل: «كلاّ، أعتقد أنّني سأحتاج إليه لمزيد من الوقت».

الأقصر

كان الوقت متأخرًا حين خرج خليفة من مقهى الإنترنت، وعيناه ضبابيّتان وفمه جاف من كثرة التدخين. تجوّل عائدًا عبر السوق بأضوائها الساطعة والموسيقى القويّة والحشـود المتدافعـة ثـمّ وصـل إلـى كورنيش النيـل وتوقّف في طريقه لشـراء زجاجة سبرايت قبل أن ينزل عددًا من الدرجات الحجريّة القديمة حتّى وصل إلى ضفّة النيل الذي كانت مياهه الداكنة تتدّفق عند قدميه.

الغريـب أنّـه بعـد كلّ مـا رآه وقـرأه، بعـد كلّ الصور والإحصاءات والشـهادات والوصف، كلّ ما أمكنه التفكير فيه كان عائلته. زينب، بطّة، علي، الصغير يوسـف - نقـاط الارتـكاز الأربـع فـي عالمه، نوره، حياته. كيف سيشـعر لو أنهم تعرّضوا لشـيء مماثـل؟ الجـوع والتعذيـب والمـوت... مـاذا يحلّ به وكيف يعيش مـع عذاب كهذا؟ صحيـح أنّـه خسـر أحبّـاء لـه مـن قبل، أباه، أمّه، شـقيقه علي الذي يحمل ابنه اسـمه، ولكن ليس بتلك الطريقة البشعة والمليئة بالحقد...

تنهّد وشرب ما بقي من العصير وعادت إلى ذهنه جميع الأوقات الجميلة التي

أمضوها معًا كعائلة سعيدة. النهار الذي أبحروا فيه عبر النهر في الفلوكا في ذكرى ميلاد بطّة الثالثة عشرة، وتوقفوا للتنزّه في جزيرة صغيرة مهجورة قبل العودة إلى الأقصر عند المغيب، وقد وقفت بطّة عند مقدّمة المركب وشعرها الأسود يتطاير في الهواء. اليوم الذي زاروا فيه سوق الجِمال في القاهرة، قبل أن يولد يوسف، حين بكت بطّة لأنّ الجمال بدت جميعها حزينة جدًّا. ذكرى ميلاده الفائت، التاسعة والثلاثين، حين أعدّت له زوجته وأولاده حفلة مفاجئة وتنكروا بزيّ المصريين القدماء وراحوا يهلّلون ويصرخون حين دخل من باب المنزل.

ضحك بصوتٍ عالٍ وهو يتذكر ذلك النهار - كان الصغير يوسف يضع على رأسه غطاء نيميس ورقي، فيما تنكرت زينب بزيّ الملكة نفرتيتي - وتردّد صوت ضحكته بين الزوارق المصفوفة على ضفّة النهر قبل أن يشهق وتدمع عيناه وكأنّه يفتحهما تحت الماء. هؤلاء الأشخاص عزيزون جدًّا ولكنّه لا يُمضي معهم الكثير من الوقت ولا يؤمّن لهم كلّ ما يحلم به بسبب راتبه المحدود الذي لم يتغيّر خلال السنوات الخمس الماضية وهو أقلّ ممّا يكسبه حسني في شهر واحد. ماذا لو خسرهم فجأة - كيف له أن يتحمّل ذلك؟ لا سيّما حين يفكر أنّ في إمكانه تقديم الكثير لهم، أكثر بكثير ممّا فعل حتّى الآن.

همس لنفسه، سوف أبذل مزيدًا من الجهد وأمضي وقتًا أطول في المنزل وأكون أبًا وزوجًا أفضل.

همس له صوت آخر، فقط حين تنتهي هذه القضيّة. فقط حين أعرف الحقيقة عن بيت جانسن وحنّا شليغل وأملك جميع الأجوبة.

حدّق إلى النهر، وكان الماء يتدفّق عند قدميه فيما بدت الأضواء الخضراء لمنارات جامعَين مجاورين وكأنّهما يحدّقان إليه به في الظلام. رمى عبوة العصير الفارغة في النهر ثمّ استدار وصعد الدرجات عائدًا إلى الكورنيش.

القدس

كان هاني الحجّار هاني جمال قد نُقل في اليوم الفائت إلى زنزانة في زيون، أكبر مركز شرطة محليّة في القدس، وكان على بن-روي أن يقابله هناك بعد أن اتّصل مسبقًا للحصول على الإذن.

تقع أبنية المخفر القاتمة في طرف ما كان في ما مضى المجمّع الروسي. كانت نوافذها الحديديّة داكنة اللون تغطّي جدرانها بقع من نبات اللبلاب. وبالإضافة إلى أنّه ضمّ المجرمين العاديين، لطالما شكّل مركز تحقيق رئيسي مع الفلسطينيين المشتبه بهم

بالعمل ضدّ الكيان الإسـرائيلي، فاكتسـب بذلك سـمعة سـيّئة عن العنف وسوء معاملة السـجناء. كان الفلسـطينيون يسـمونه الموسـكوبيّة، نسـبةً إلى كلمة موسكو، ويلفظون اسمه بمزيج من الخوف والتهديد.

ولطالما انتاب بن-روي شعور سلبي حيال المكان؛ فقد رفض ترقية منذ عامين لأنّها تتضمّن نقله إلى هنا. وحين دخله الآن عبر باب في الجزء الخلفي من المخفر متجاوزًا مجموعة من النساء العربيّات جئن يسألن عن أحبّاء لهن محتجزين فيه، شعر بتقلّص في معدته، وكأنّها حيوان خائف تكوّر على نفسه.

عرّف عن نفسه إلى أحد الرقباء ووقّع على ورقتين قبل أن يتمّ اصطحابه عبر متاهة من الممرات المعتمة خفيفة الإضاءة وصولاً إلى القبو. أُدخل إلى غرفة مقابلات صغيرة تحتـوي علـى طاولـة وكرسـيين وملصق لزهرة توليب حمـراء زاهية على أحد الجدران بدت في غير مكانها. تناهت إليه أصوات مكتومة من أماكن أخرى من المخفر - رنين هاتف، صراخ، صوت مسموع بالكاد قد يكون ضحكًا أو نحيبًا - فانتابه شعور مزعج أنّهـا لـم تكـن أصواتًـا خارجيّة بل أصداء لكلّ من شـاء سـوء حظّـه أن يتواجد في هذا المكان. انتظر رحيل الرقيب قبل أن يجلس ويتناول جرعة طويلة مهدّئة من قارورته.

مـرّت خمـس دقائـق ثـمّ فُتح بـاب الغرفة من جديد ودخل شـرطي آخر بصحبة الرجل الذي أوقفه بن-روي منذ بضع ليالٍ. لسـبب ما لـم يكن يرتدي سـوى قميص قطنية وسروالاً قصيرًا كبير الحجم من دون بنطال. اقتاده الشرطي إلى الطاولة وأجلسه ثمّ كبّل يده اليسرى بقائمة الكرسي بحيث أصبح السجين في وضعيّة غير طبيعيّة وهو منحنٍ إلى اليسار.

قال: «ناديني حين تنتهي، سأكون في الممر، ثالث غرفة إلى اليمين».

خرج وصفق الباب خلفه تاركًا بن-روي بمفرده مع الفلسطيني.

بالإضافـة إلـى الكدمـة التي تلقّاها علـى عينه ليلة اعتقاله، بدت على وجهه الآن كدمة أخرى فوق خدّه الأيسـر. كان ذقنه غير محلوق وتفوح منه رائحة كريهة ملأت الغرفـة ببـطء. نظـر إلـى بن-روي ومن ثـمّ إلى الأرض وتحرّك فـي مقعده بحيث بدا واضحًـا أنّـه غيـر مرتاح بالوضعيّـة التي أُجبر على الجلوس فيها. أخرج بن-روي لبانًا من جيبه ووضعه في فمه.

«ماذا حدث لسروالك؟»

هزّ الفلسطيني كتفيه من دون أن يجيب.

«هل سرقه أحدهم؟»

لم يجب الفلسطيني فكرّر بن-روي السؤال.

أجال الرجل بصوت لاذع موجهًا نظره إلى بن-روي ومن ثمّ إلى الأرض: «لم يسرقه أحد».

«إذًا ماذا حدث له؟»

لوى الشاب رسغه في الأصفاد ثمّ تمتم بعد صمت وجيز وقد احمّر وجهه: «احتجت إلى دخول الحمّام. أخبرت الحارس ولكنّه لم يسمح لي بالخروج... أعطاني الرجال الآخرون هذا ولكن أحدًا منهم لم يكن يملك سروالاً جديدًا. هل أنت سعيد الآن؟»

نظر إليه مجددًا، وقد امتلأت عيناه بالذلّ والحقد. حدّق إليه بن-روي، نظر إلى وجهه المحمّر وسرواله القصير ويده المكبّلة، وكان صوت مضغه للّبان يتردّد في الغرفة وكأنّه صوت أقدام تغوص في الوحل. مرّت نصف دقيقة ثمّ نهض وهو يئنّ منزعجًا. حذّر الرجل أنّه إن حاول القيام بشيء ما سينال كدمة أخرى أسوأ من الأولى ثمّ غادر الغرفة. عاد بعد لحظة وبيده مجموعة من المفاتيح فانحنى وفكّ الأصفاد. اعتدل الفلسطيني في جلسته، وأخذ يفرك رسغه، أمّا بن-روي فجلس أمامه وفتح ملف الحريق المفتعل الذي أحضره معه.

قال وهو يحدّق إلى التقرير: «لديّ بعض الأسئلة، والقواعد هي نفسها: إن لم تكن صادقًا سأؤذيك، هل هذا واضح؟»

كان الفلسطيني لا يزال يدلّك رسغه فرفع بن-روي نظره إليه.

«واضح؟»

هزّ الفلسطيني رأسه.

«حسنًا. في العاشر من آذار سنة 1990 ذهبت أنت وشابان آخران إلى الحيّ اليهودي وأضرمتم النار في شقّة هناك. هل تذكر؟»

تمتم هاني جمال بالإيجاب. فانحنى بن-روي إلى الأمام وسأله: «لماذا؟»

في النهاية لم يستطع الحصول على كثير من المعلومات. كان الفلسطيني عصبيًّا ومراوغًا، على قناعة أنّ بن-روي يحاول الإيقاع به ليعترف بذنبه. ولكنّ المشكلة الحقيقيّة أنّه لم يكن يعرف الكثير على ما يبدو. فابن خاله مجدي، أحد اللذين أدينا في الحادث هو الذي ورّطه ووعد بإعطائه عشرين دولارًا إن نفّذ ما يطلب منه. وهو لم يصعد إلى الشقّة يومها بل انتظر في المدخل في الأسفل بينما صعد الآخران

وأضرما النار في شقّة العجوز، وإن كانا يعرفان شيئًا عنها فهو لا يملك أدنى فكرة. ولم تجدِ نفعًا محاولات بن-روي في حثّه أو استدراجه للكلام وأدرك أنّه لن يحصل على المزيد فقرّر أن يقفل التحقيق.

تصفح الملف الموضوع أمامه وهو يسأل: «مجدي هذا... ألا يزال يعيش في مخيّم الأعمري؟ رقم 2، شارع الدين؟»

التزم الفلسطيني الصمت وهو يحدّق إلى قدميه.

«هيّا، لا تراوغ».

قال الشاب: «أنا لست مخبرًا».

«أنا لم أطلب منك أن تكون مخبرًا أيّها الأحمق. لديّ العنوان هنا أمامي، لم أطلب منك سوى تأكيده».

رفع الفلسطيني نظره وبدت عيناه مليئتين بعدم الثقة والتردّد ثمّ هزّ رأسه بضعف. دوّن بن-روي ملاحظة ثمّ أغلق الملف ونهض لينادي الشرطي. حين استدار إلى الغرفة رأى الفلسطيني ملتفتًا في مقعده يحدّق إليه.

«لماذا فككتها؟»

أشار الرجل إلى الأصفاد المفتوحة الموضوعة على الطاولة. لم يجب بن-روي بل توجه نحو الطاولة وتناول ملفه.

«لِمَ فعلت ذلك؟»

في الخارج تردّد صوت أقدام تدنو في الممر.

«هل تشعر بالأسف لأجلي؟»

أجاب بن-روي غاضبًا وقد أزعجه السؤال: «كلاّ، أنا لا أشعر بأيّ أسف لأجلك».

حدّق إليه بن-روي وكانت أصابعه تضغط على الملف بين يديه. لماذا نزع الأصفاد؟ لم يجد جوابًا. كان ثمّة صوت في رأسه - صوتها، وصوته أيضًا حين كان شخصًا مختلفًا. آرييه الذي اعتقد أنّه ضاع إلى الأبد.

أجاب بفظاظة: «لأنّني لا أريدك أن تكرّر فعلتك أمامي. أنا لم آتِ إلى هنا لأشتمّ رائحة قذارتك».

خرج من الباب وحيّا الشرطي الذي وصل للتوّ بهزّة من رأسه، ثمّ سار في الممر وأسئلة الفلسطيني لا تزال تسبّب له اضطرابًا أكبر من المقابلة التي لم تكن سوى مضيعة للوقت.

مصر، شبه جزيرة سيناء،
قريبًا من الحدود مع إسرائيل

حدّق الرجل إلى النجوم وهو يلفّ شراريب كفيّته حول أصابعه.

«هل تعلم ما كان يقوله أبي؟ إنّ الأراضي المقدّسة هي مرآة للعالم بأكمله. حين تتعذّب، يتعذّب العالم. وحين تكون في سلام، عندها ينتشر الأمل في كلّ مكان».

وقف إلى جانبه شخص آخر أكبر سنًّا يحدّق هو الآخر إلى السماء وقد تدلّى سيجار من بين أسنانه، وراح طرفه المشتعل يتراوح بين الأحمر والبرتقالي الملتهب وهو يدّخنه ببطء.

«ألا يزال والدك حيًّا؟»

هزّ الشاب رأسه نافيًا: «توفي عام أربعة وثمانين، في كيتزيوت. ماذا عن أبيك؟» هزّ مدّخن السيجار رأسه نافيًا هو الآخر: «عام سبعة وستّين، في هضاب الجولان، برصاصة في بطنه».

ساد الصمت بينهما، وغرق كلّ منهما بأفكاره وسط ظلام وسكون الصحراء، الذي لم يعكّره سوى صرير نافذة صدئة خلفهما بدا أشبه بصوت حشرة ليليّة عملاقة. ظهر شهاب فوقهما وعَبَرَ السماء قبل أن يختفي مجدّدًا. لاحت في الظلال أشكال صخور غريبة وكأنّها مخالب ارتفعت من بئر مظلمة وعميقة. ومن مكان ما حولهما انطلق طائر فجأة في الهواء وهو ينعب بصوت عالٍ.

سأل الشاب وهو يرفع يده ليفرك عينيه: «هل تظنّ فعلاً أنّ الأمر سينجح؟ هل تعتقد حقًّا أنّ بإمكاننا إقناعهم؟»

هزّ رفيقه كتفيه من دون أن يقول شيئًا.

«أخشى في بعض الأحيان أن يكون الأوان قد فات. ربّما منذ عشر سنوات أو حتّى خمس لنجحنا في ذلك، أمّا الآن، بعد كلّ ما حدث...»

تنهّد وخفض رأسه إلى صدره يائسًا. نظر إليه مدخّن السيجار، ثمّ تقدّم، ووضع يده على كتفه.

«لطالما كان البيع هو الجزء الأصعب. لم يكن هذا» - وأشار إلى المبنى خلفهما - «سوى الخطوة الأولى. وبعد أن قمنا بهذه الخطوة الآن يتعيّن علينا الاستمرار. لا بدّ من ذلك. لأجل أبيك، لأجل ابنتي، ولأجل شعبينا».

نظر الشاب إليه وبدا وجهه شاحبًا ومهمومًا للحظة ثمّ أضاءته فجأة ابتسامة غير متوقّعة.

«من كان ليفكر في ذلك؟ أنا وأنت نلتقي هنا كالعاشقين!»

ابتسم مدخّن السيجار هو الآخر.

«إن كان هـذا ممكنًـا بالنسـبة إلينـا، فهو ممكـن لأيٍّ كان. ما رأيك بالذهاب إلى القدس مرّة بعد، فقط للتأكد؟»

وافق الشاب بهزّة من رأسه ثمّ استدارا وعادا إلى المبنى وذراع كلّ منهما تحيط بكتفي الآخر.

القدس

«إلى أين تريدني أن أوصلك؟»

حدّق السائق إلى بن-روي بارتياب.

«مخيّم الأعمري، شارع الدين».

هزّ السائق رأسه غير موافق وأصابعه تطرق بعصبيّة على مقود سيّارة البيجو.

«ولكنّك إسرائيلي. هذا خطر».

قـال بـن-روي غاضبًـا، إذ لم يكن مزاجه مناسـبًا للمناقشـة: «أحتاج إلى سـيّارة لا إلـى محاضـرة. إمـا أن توصلنـي إلـى هناك أو أعثر على شـخص آخر. الخيار لك، أسرع».

عـضّ السـائق علـى شـفته، تتنازعـه الرغبة بعدم تـرك الزبون والقلـق من إيصال إسـرائيلي فـي سـيّارته. فـي النهايـة ربـح الاقتصـاد فانحنى إلـى الأمـام وفتـح بـاب الراكب.

تمتم غاضبًا: «إن كنت تريد الذهاب إلى الأعمري سآخذك إلى الأعمري. هذا شأنك».

استقلّ بن-روي السيّارة، وانطلقا بصمت في طريق ديريخ ها-شالوم، ومنه إلى طريق القدس-رام الله ثمّ أسرع السائق شمالاً خارج المدينة، متجاوزًا ضاحية بيسغات زيئيـف الجديـدة إلى يمينه بمنازلها صفراء اللون المتشـابهة وكأنّها جيش كبير. حدّق إليهـا بـن-روي مـن خـلال النافذة المفتوحة والهواء يبعثر شعره، وكان وجهه الخالي من التعابير يُخفي عدم الارتياح الذي شعر به.

كان السـائق على حقّ فمن الخطر على شـخص مثله أن يتجاوز الخطّ. شـرطي إسـرائيلي بمفرده في منطقة تحت سـيطرة السـلطة الفلسـطينيّة، في المناخ السياسـي الحالـي خطـر جـدًّا. كان البديـل إمـا إشـراك الحكومـة الفلسـطينيّة فـي الموضوع أو الدخول بعمليّة عسـكريّة كاملة بالسـيّارات المسـلّحة، وكلاهما سيؤخره أيامًا. وحدسه

لا يحتمل التأجيل. أراد أن يعرف أسباب الحريق المفتعل، احتاج إلى معرفة ذلك. وإن حالفه الحظ، سيتمكن من الدخول والخروج من دون أن يلاحظه أحد. وإلاّ... مدّ يده ليتلمّس مسدّسه من فوق السترة.

وصلا إلى معبر قلنديا وتوقفا مع صفّ السيّارات لعشرين دقيقة قبل أن يُسمح لهما بالمرور وتسرع السيّارة مجدّدًا في هذا الجانب الفلسطيني من الطريق الذي كانت تملؤه الحفر. كانت مساكنه قديمة، رخيصة ومتهالكة، وكأنّهما لم يعبرا مجرّد حاجز بين منطقتين في البلد نفسه بل حدود عالم مختلف تمامًا وأكثر فقرًا. بعد ثلاثة كيلومترات، عبرا معبرًا آخر، فلسطيني هذه المرّة، مؤلّف من مجرّد برميلين للزيت موضوعين على الطريق يقف عندهما شرطي واحد يعتمر قبّعة حمراء وقد علت وجهه ملامح الضجر. انعطفا بعد ذلك يسارًا وتركا الطريق الرئيسي ليسلكا طريقًا جانبيًّا منحدرًا نحو مجموعة رماديّة كئيبة من الأبنية الإسمنتيّة المكوّمة فوق بعضها بعضًا وكأنّها تلّ من العظام التي بيّضتها الشمس.

أبطأ السائق سرعته وتوقف.

قال له بفظاظة: «أهلاً بك في الأعمري».

توقفا للحظة يتأمّلان المشهد ثمّ تابع السائق نحو الأسفل وتوقف قليلاً ليسأل عن الاتجاه صبيًّا أغبر الشعر قبل أن يدخلا المخيّم. راحت أبنيته الرماديّة المتداعية تحيط بهما فيما رماهم السكان - رجال كبار السنّ يضعون الكفيّة ومجموعة من الشباب متجمّعون في نواصي الشارع - بنظرات مرتابة وهما يعبران، والسيّارة تهتزّ فوق الحفر. كانت أسلاك الكهرباء المتداخلة تتدلّى من الأعلى، فيما غطّت الجدرانَ كتابات عربيّة متعدّدة الألوان - حماس، الملثّم، الموت لإسرائيل، عاشت الانتفاضة - وتوّزعت هنا وهناك صفوف من الصور لشهداء محلّيين.

قال بن-روي لنفسه وهو يقاوم الرغبة بأن يطلب من السائق العودة به من حيث أتى: «اللعنة، ماذا أفعل في هذا المكان؟ لا بدّ بأنّني مجنون».

كلّما دخلا أكثر ازدادت الشوارع ضيقًا وشعر بن-روي بانزعاج أكبر، إلى أن توقفا بعد بضع دقائق بدت وكأنّها دهور أمام زقاق مليء بالنفايات.

قال السائق: «الدين. أيّ رقم تريد؟»

«اثنان».

مال الرجل من النافذة، وحدّق إلى الزقاق ثمّ قال مشيرًا إلى باب من الفولاذ الثقيل، الأوّل إلى اليسار، كُتب فوقه رقم عربي كبير باللون الأبيض: «هناك، هل تريد منّي الانتظار؟»

تمتم بن-روي وهو يترجّل من السيّارة: «أجل».

نظـر حولـه بعصبيّـة وهو يتخيّل أعينًا تحدّق إليـه وأصواتًا تهمس، ثمّ ربّت على مسدّسه مجدّدًا، وتحقّق من أنّ هاتفه المحمول قيد العمل قبل أن يبدأ بالسير متفاديًا عبوات الطلاء الفارغة وأكياس النفايات. كان الباب الذي أشـار إليه السـائق مشـقوقًا وصوت تلفزيون يتصاعد من خلفه. تقدّم وطرقه.

«ادخل، الباب مفتوح».

تناهى إليه صوت امرأة عجوز. تردّد لأنّه لم يفهم ماذا يُقال له.

«ادخل!»

ظـلّ متـردّدًا، فقـد ظـنّ أنّ الصوت يطلب منـه الدخول ولكنّه لم يكن واثقًا. بعد صمت قصير سُمع صوت آخر، ذكوري هذه المرة وأكثر شبابًا.

«لا، لا، استنّي عندك يا أمي. أنا رايح».

سُمع صوت شبيه بصوت درّاجة تسير فوق الإسمنت ثمّ فُتح الباب. كان أمامه شاب - في أواخر العشرينيات أو أوائل الثلاثينيات، نحيل جدًّا، يرتدي الجينز وقميصًا قطنيّة حمراء لمانشستر يونايتد - يجلس على كرسي متحرّك. رأى بن-روي من خلفه غرفة كبيرة خالية من الأثاث أرضها مكسوّة بالبلاط، وعُلّقت بعض الصور على جدارها - صور، آيات قرآنيّة - وبدا له من باب في آخرها مطبخ صغير مكتظّ. كانت المرأة العجوز خارج مرمى نظره في مكان ما إلى اليمين.

نادت قائلةً: «مين عندك».

أجاب الشاب وهو يحدّق ببن-روي: «يهودي».

«يهودي! شو بدو؟»

أجابها: «ما بعرف». ثمّ سأل بن-روي: «ماذا تريد؟»

أخـرج التحـرّي بطاقتـه، وأبرزهـا له قائلاً: «شـرطة القدس. أبحث عن شـخص يدعى مجدي».

ضاقت عينا الشاب بارتياب.

«أنا مجدي».

«مجدي الصوفي، ابن خالة هاني جمال؟»

ارتفع صوت العجوز مجددًا بقلق وإصرار: «شو بدو؟»

لوّح الشاب بيده مشيرًا لها لكي تهدأ.

«نعم، أنا هو».

نظر بن-روي إلى الكرسي المتحرّك وسأله: «منذ متى...؟» اشتعل الغضب في عينـي الشـاب وهـو يجيب: «منذ عامين، منذ أن كُسـر ظهري جـرّاء الإصابة برصاصة مطاطيّة، رصاصة مطاطيّة إسرائيليّة. والآن، ماذا تريد منّي؟»

تلفت بن-روي بانزعاج وأجاب: «أريد أن أطرح عليك بعض الأسئلة».

قال له الشاب ساخرًا: «هذه منطقة فلسطينيّة. أنت لا تملك سلطةً هنا».

نظـر بـن-روي إلى الشـاب قائلاً: «إذًا هـل تريدني أن أحضر الجيش وأن أجرّك إلـى القـدس. ظننـت أنّه من الأسـهل لنا هكذا، بإبقـاء الموضوع بيننا. تخبرني ما أريد أن أعرف ثمّ أذهب ولا تسمع عنّي مجدّدًا. الخيار لك».

حدّق إليه الشاب بكراهية وانعدام ثقة، ثمّ رضخ وتراجع إلى داخل الغرفة. تبعه بن-روي وأغلق الباب خلفه وقد ارتاح لابتعاده عن الشارع.

«شو بدو، مجدي؟ شو عم يعمل؟»

كانت المرأة العجوز جالسةً على أريكة إلى يمينه تضع منديلاً على رأسها وترتدي عبـاءة مطـرّزة، فيمـا راحـت يداهـا تفتركان فـي حجرها. توجّه مجـدي نحوها ولمس ذراعها وهو يتحدّث لها بسرعة باللغة العربيّة يشرح ما يحدث ويطمئنها.

قال وهو يلتف بكرسيه ليواجه بن-روي: «لديها تجارب سيئة مع الإسرائيليين. لدينا جميعًا تجارب سيئة مع الإسرائيليين».

حدّق الثلاثة إلى بعضهم وكان الصوت الوحيد هو ذاك المتصاعد من التلفزيون. أشـار الشـاب علـى مضـض لبـن-روي لكـي يجلس على سـرير نقّـال موضوع بقرب الجدار المجاور للباب. جلس وهو ينظر إلى المرأة العجوز، ولكنّه وجد حدّة نظرتها غيـر مريحـة، فحـوّل نظره إلى الجدار فوقها الذي عُلّقت عليه وثيقتان قانونيّتان قديمتا العهـد فـي إطـار. فكّـر أنهـا لا بدّ أن تكونا صكّي ملكيّـة، فقد رآها من قبل في منازل فلسطينيّة أخرى. كانت وسيلة محزنة للتذكير بجرأة بالأراضي التي كانوا يملكونها وما زالوا يأملون استعادتها.

سأل الشاب وهو يُخرج علبة سجائر مالبورو من كيس معلّق قرب كرسيه ويضع واحدة بين أسنانه: «هل الموضوع يتعلّق بهاني وقضيّة المخدرات؟»

هزّ بن-روي رأسه نافيًا.

«ماذا إذًا؟»

«جئت بخصوص شيء فعلته عام 1990. شقّة أحرقتها في المدينة القديمة».

ضحك الشـاب سـاخرًا ومتفاجئًا: «كان هذا منذ خمسـة عشـر عامًا! لقد قضيت عقوبتي».

«أعرف ذلك».

«إذًا؟»

«أريدك أن تخبرني لماذا قمت بذلك، لمَ أضرمت النار في الشقّة».

أطلق الشاب ضحكة ساخرةً أخرى، ثمّ أشعل سيجارته وسار نحو التلفزيون ليتناول منفضة عن سطحه، وضعها على ركبته، وعاد إلى جانب المرأة العجوز.

«لقد ضاعت رحلتك سدىً يا رجل. أخبرتهم كلّ شيء حينها».

«إذًا أخبرني مجدّدًا».

«كنت ولدًا وكان الأمر ممتعًا لنا. هذا كلّ شيء».

«إن أردتم إحراق منزل إسرائيلي، فثمّة أهداف أسهل من ذاك الواقع وسط الحيّ اليهودي تمامًا».

لوّح مجدي بيده بلا اكتراث: «كان تحدّيًا، هذا هو الموضوع. أنت تضيع وقتك».

«لمَ تلك الشقّة بالذات؟». لم يُجب.

كرّر بن-روي سؤاله: «لمَ تلك الشقّة بالذات؟».

«تبًّا! لا أعرف. كانت تلك هي الشقّة التي اخترناها من دون سبب معيّن. لقد أخبرتهم بذلك».

«هل تعرف أنّ المرأة صاحبة الشقّة قُتلت في اليوم نفسه؟»

تمتم الشاب بشيء ما.

«ماذا؟».

«اكتشفنا هذا لاحقًا. لم نكن نعرف حينها».

نظر نحو التلفزيون، ثمّ التفت نحو بن-روي من جديد، وكأنّ فكرة خطرت فجأة بباله.

«اسمع! إن كنت تحاول اتهامي-»

«أنا لا أحاول اتهامك بأيّ شيء».

«لأنّني أعرفكم أيّها-»

«أنا لا أحاول اتهامك بشيء! المرأة قُتلت في مصر ولا يمكن أن تكون متورّطًا في الجريمة».

تمتم الشاب بشيء ما ثمّ سحب من سيجارته نفسًا غاضبًا قبل أن يربّت على طرفها في المنفضة فوق ركبته.

أضاف بن-روي بعد صمت وجيز: «ولكنّك تكذب عليّ بخصوص الحريق. كلانا يعرف ذلك. لا يمكن أن تُقتل امرأة ثمّ تُحرق شقّتها بعد ساعتين وتكون مصادفة. ثمّة سبب آخر يا مجدي، وأريد أن أعرفه الآن».

تمتمت العجوز تسأل عمّا يحدث فأجابها الشاب بصوت منخفض ثمّ نظر إلى المحقّق.

«كما قلت لهم حينها: فعلنا ذلك تحدّيًا، هل تفهم؟ هذا كلّ شيء. ما من سبب آخر، وإن كنت لا تصدّقني خذني واتهمني».

حدّق إلى التحرّي متحدّيًا، ثمّ حوّل نظره إلى شاشة التلفزيون التي تعرض رجلين يتشاجران ويتدحرجان في ما بدا وكأنّه حوض كبير من النفط الأسود. نظر بن-روي إلى ملاحظاته، ثمّ حوّل نظره إلى المرأة، ومنها إلى صكي الملكيّة المعلّقين فوقها. كان يعرف أنّ الشاب لا يقول الحقيقة. كان هذا واضحًا في تصلّب كتفيه والأنفاس القصيرة والعصبيّة التي يأخذها من سيجارته. وكان يعرف تمامًا أنّه مهما حاول فهو لا يملك دليلاً على أنّ الشاب يكذب. ولن ينفع توقيفه واستجوابه كما ينبغي أو استعمال العنف معه. فقد التزم بقصّته عام 1990 وها هو يلتزم بها الآن. ولن يتمكن من الحصول على المزيد منه. إلاّ...

نهض بن-روي ببطء وتوجه نحو التلفزيون وأوقفه عن العمل، ولم يكن فخورًا بما ينوي فعله، ولكن كان هذا الحلّ الوحيد.

«يمكنني أنّ أصعّب الأمور على ابن خالتك».

بدا الخوف على وجه الشاب.

«تنتظره أساسًا ستتان، لمجرّد مشاركته في تلك العمليّة. ولو تضاعفت المدّة بتهمة التموين، ستصل إلى خمس أو ستّ سنوات، وربّما أكثر. هل تعتقد أنّه سيحتمل هذا؟»

«أيّها اللعين».

صرّ بن-روي على أسنانه. لم يكن يرتاح لهذا النوع من الألعاب أبدًا، حتّى بعد موت غاليا حين أصبح إيذاء الفلسطينيين يبدو له محور وجوده. ولكن بعدما بدأ الآن بالحيلة عليه المتابعة.

واصل قائلاً: «ستّ سنوات في أشكلون. ستّ سنوات بين المغتصبين والمجرمين، وهم طيّبون مقارنةً مع الحرّاس. هذا طويل يا مجدي، لا أعتقد أنّ هاني سوف يحتمل. إذًا، هل ستخبرني لماذا أحرقتم الشقّة؟».

رأت المرأة النظرة المعذبة على وجه ابنها وراحت تسأله بقلق عمّا يجري.

فأجابها الشاب من دون أن تبارح عيناه بن-روي، وبدا أنّ جسده يضغط على الحزام الذي يثبّته في الكرسي.

كرّر قائلاً: «أيّها الإسرائيلي القذر اللعين». لم يقل التحرّي شيئًا.

«أيّها النذل الحقير».

كانت سيجارته قد أشرفت على الانتهاء فأطفأها في المنفضة بيد مرتجفة، وراح يسحقها وقد برزت عضلات ساعده. حدّق إليها وهو يهزّ رأسه بمرارة وكأنّه يحدّق إلى انعكاس ذاته. ثمّ توجه نحو التلفزيون ليضع المنفضة على سطحه من جديد ويعود إلى جوار العجوز.

سأل بعد صمت طويل: «لن تسجل ذلك في التقارير؟».

هزّ بن-روي رأسه نافيًا.

«وهاني؟ هل ستتركه وشأنه؟ لن تؤذيه؟»

«أعدك».

أطلق الشاب ضحكة خفيفة ساخرة ثمّ نظر إلى بن-روي ومنه إلى الأرض.

تمتم بصوت مسموع بالكاد: «لقد دُفع لي».

تقدّم بن-روي نصف خطوة.

«من قبل من؟».

«عمّي. كان يعمل مع رجل في القاهرة. تصدير فاكهة - برتقال، ليمون، وما إلى ذلك. وفي أحد الأيام اتّصل هذا الرجل وقال إنّه يريد خدمة، يريد إحراق تلك الشقّة. وقال إنّه سيدفع جيّدًا، خمسمائة دولار. ولكن ينبغي القيام بذلك بسرعة من دون طرح أسئلة. فاتّصل بي عمّي».

«هل تعرف من كان هذا الرجل؟».

هزّ مجدي رأسه نافيًا: «لم أتحدّث إليه أبدًا، عمّي هو الذي رتّب كلّ شيء».

ثمّ فرك عينيه وأضاف: «غاد، غيتس، شيء من هذا القبيل. لم يكن اسمًا مصريًا».

دوّن بن-روي ملاحظة في دفتره.

«وماذا عن عمّك؟ أين هو؟».

«مات منذ أربع سنوات». سُمع في الخارج صوت قعقعة كأنّ أحدهم ركل عبوة طلاء فارغة. غير أنّ بن-روي كان غارقًا تمامًا في حديثه ليلاحظ الأمر.

«إذًا، اتّصل غاد، غيتس هذا من القاهرة وعرض عليكم خمسمائة دولار لإحراق شقّة تلك العجوز-»

«لم نعرف من كان صاحب الشقّة. أعطانا العنوان وحسب».

«ولم يقل السبب؟ من دون تفسير؟».

هزّ الشاب رأسه نافيًا.

«ألم تجدوا الأمر غريبًا؟».

«بالطبع وجدناه غريبًا. ولكن ماذا نفعل؟ نرفض؟ كنّا بحاجة إلى المال».

حدّق إليه بن-روي ثمّ عاد وجلس على السرير.

«حسنًا، طلب منكم إحراق الشقّة. ماذا حدث بعدها؟».

هزّ الشاب كتفيه قائلاً: «كما قلت لهم حينها، ذهبنا إلى الحي اليهودي. كان ثمّة زقاق خلف المبنى، مكث فيه هاني للمراقبة بينما صعدنا نحن إلى الشقّة وكسرنا النافذة الخلفية لدخولها ثمّ صببنا الكاز على كلّ شيء وأضرمنا النار. رآنا شخص ما ونحن نتسلّق الأنابيب فلاحقنا واعتقلنا. هذا ما حدث، كما أخبرتهم حينها».

«ماذا كان يوجد هناك؟».

«ماذا تعني؟».

«ماذا كان يوجد في الشقّة؟».

«كيف لي أن أتذكر؟ كان هذا منذ خمسة عشر عامًا!».

«لا بدّ أنّك تتذكر شيئًا».

«لا أعرف! أثاث، طاولة، تلفزيون... الأشياء العاديّة الموجودة لدى الجميع».

سحب سيجارة مالبورو أخرى، وضعها بين شفتيه وأشعلها. سُمع ضجيج آخر في الخارج وبعض الهمس.

«كان فيها الكثير من الأوراق».

«أوراق؟».

«لهذا السبب اشتعل المكان بسرعة. كانت الأوراق تملأ المكان».

«جرائد؟».

«كلاّ، كلاّ. ملفات ونسخ. أكوام منها في كلّ مكان. وكأنّه...»

توقف محاولاً إيجاد الكلمة المناسبة. فتذكر بن-روي ما قالته واينبيرغ على أنّ شليغل تعود إلى المنزل بأكوام من الأوراق من ياد فاشيم.

«أرشيف؟».

«أجل، وكأنّه أرشيف. بالكاد يمكنك التنقّل بسبب الأوراق. وعلى أحد الجدران في غرفة المعيشة كانت تلك الصورة الضخمة المكبّرة، ذاك...» أشار بيديه وهو يتابع:

«الرجـل الـذي يرتـدي زيًّا. كانت بالأسـود والأبيض، وكأنّهـا التقطت منذ زمن طويل وكانت الصورة الوحيدة في المكان».

سُـمع مزيـد مـن الأصوات في الخـارج، ووقع أقدام. بدا وكأنّ حشـدًا يمرّ عبر الزقاق.

سـأل بـن-روي، وهـو غافـل عـن الأصـوات: «ولـم تتعـرّف علـى الرجـل فـي الصورة؟»

«لم أرَه أبدًا من قبل. كما قلت كانت الصورة قديمة بالأبيض والأسود. لا أعتقد أنّه من عائلتها».

نظر إليه التحرّي متسائلاً: «وكيف عرفت؟».

« لا أدري، مجـرّد... لـم يبـدُ لـي أنّـه من العائلة. كانت صورتـه الكبيرة المعلّقة على الجدار أشبه» – أخذ نفسًا آخر من سيجارته – «أشبه بالصور التي تعلّق بمخافر الشـرطة للأشـخاص المطلوبين. هذا ما كانت تشبه، صورة شـخص مطلوب. كانت غريبة».

وضـع السـيجارة فـي فمـه ثمّ توجه مجدّدًا نحو التلفزيـون، وتناول المنفضة، ثمّ وضعها فوق ركبته، وتابع طريقه نحو المطبخ. سُمع صوت أنابيب تُفتح ومياه تجري من الصنبور. عاد بعد قليل وقد وضع كوبًا من الماء بين فخذيه.

«هذا كلّ ما أعرفه. ليس لديّ المزيد».

عاد إلى جوار المرأة، وأدار الكرسي. طرح بن-روي بضعة أسئلة إضافيّة ولكن كان واضحًا أنّ الشـاب يقول الحقيقة. بعد دقيقتين أدرك أنّه لن يحصل على المزيد، فأغلق دفتره ونهض.

تمتم قائلاً: «حسنًا، هذا كلّ شيء».

لم يشعر أنّ الوداع مناسب لأنّ الزيارة لم تكن زيارة اجتماعيّة تمامًا، فأعاد دفتره إلى جيبه، واكتفى بتحيّتهما بهزّة من رأسه، ثمّ توجه نحو الباب.

قالت المرأة خلفه: «إحنا مش كلاب».

استدار: «ما كان ذلك؟».

نظر إليه مجدي وهو يسحب نفسًا من سيجارته.

كرّر بن-روي سؤاله: «ماذا قالت؟».

نفث الشاب دائرة من الدخان مجيبًا: «قالت إنّنا لسنا كلابًا».

كانت المرأة تحدّق إلى التحرّي بملامح غير خائفة ولا متحدّية بل منهكة وفي

غاية الحزن. فتح فمه ليجيبها ويخبرها عن غاليا وكيف ذبحوها وفجروا ساقيها، أولئك الأشخاص أنفسهم الذين كانت صورهم معلّقة على جدران المخيّم وكأنّهم أبطال. ولكنّه لم يجد ما يقوله ولم يتمكن أبدًا من التعبير عن شدّة وحدته وحقده، فاكتفى بهزّ رأسه ثمّ استدار نحو الباب وفتحه.

«الموت لليهودي! الموت لليهودي!»

لم يجد بن-روي الوقت للتصرّف ففي لحظة كان يقف عند الباب وفي اللحظة الأخرى أمسكت عشرات الأيدي بمعطفه وقميصه وشعره وجرّته إلى الخارج في الزقاق. أخرج أحدهم مسدّسًا وأطلق النار في الهواء قرب أذنه فصمّ الصوت أذنيه. وقع نظره خلف الحشد على الصبيّ الفلسطيني الذي سأله السائق منذ قليل عن الاتجاه، كان يضحك ويصفق بيده فوق رأسه. شعر بحبل يلتف حول عنقه ويشتدّ، فيما ارتطم شيء بمعدته - عصا بايسبول أو عارضة خشبيّة - فانثنى على نفسه من قوّة الضربة.

فكّر وقد خنقه الرعب مع أنّه كان في الوقت نفسه وكأنّه منفصل عمّا يحدث كمن يشاهد فيلمًا عن الاعتداء ولا يتعرّض له شخصيًّا: «أنا ميت، ربّاه، لقد قضي عليّ».

حاول رفع ذراعيه لحماية رأسه من اللكمات، ولكنّهم شدّوا يديه بعيدًا خلف ظهره وراح البصاق يتساقط عليه من جميع الاتجاهات، يسيل على خدّيه وذقنه حارًا ولزجًا. ثمّ شعر بأنّه يُقذف عبر الزقاق بقوّة.

وفجأة توقف الهجوم كما بدأ. في لحظة كان يُلكم ويُجرّ وفي اللحظة التالية تفرّق الحشد وتراجعوا عنه نحو جدران الزقاق وتركوه محنيًّا، وصوت عالٍ يضجّ في أذنيه. اعتقد في البداية أنّ الصوت كان ناجمًا عن اللكمات التي تلقّاها، ولكن حين بدأت حواسه تنجلي أدرك أنّه صوت امرأة تصرخ. بقي في مكانه يقحّ خائفًا من أن تؤدي حركة واحدة منه إلى تجدّد الهجوم، ثمّ استقام ببطء والحبل لا يزال يتدلّى من عنقه، كأنّه ربطة عنق مضحكة.

كان مجدي جالسًا عند باب منزله، شاحب الوجه، يداه تقبضان بشدّة على دولابي كرسيه المتحرّك. أمّا أمّه فوقفت في الخارج بجسدها النحيل الأحدب، تلوّح بيديها، وتصرخ على الحشد وتلومهم. ومع أنّها كانت أقصر الموجودين في الزقاق، إلاّ أنّ الرجال بدوا خائفين بوجودها غير قادرين على النظر في وجهها الغاضب. واصلت الصراخ لدقيقة وهي تومئ بيديها ثمّ تقدّمت نحو بن-روي خطوةً.

«كيفَك؟»

نظر حوله بفزع، والدم يتدفق في صدغيه وجسده يرتجف بأكمله، لا يفهم ما تقول.

ناداه مجدي: «هل أنت بخير؟»

على الرغم من شراسة الهجوم، إلاّ أنّه كان سليمًا، باستثناء بعض الإصابات السطحيّة - بعض الكدمات، شقّ في شفته، والحبل الذي شدّ عنقه. حاول الكلام، ولكنّ الكلمات لم تخرج من حنجرته فاكتفى بهزّة صغيرة من رأسه وبدا وكأنّه دمية خشبيّة مكسورة العنق. انحنت المرأة العجوز لتلّم مسدّسه الذي سقط أثناء الاعتداء، ثمّ تقدّمت نحوه ببطء وناولته إيّاه قبل أن ترفع ذراعها النحيلة وتمسح ذقنه الملوّث بالدم بطرف كمّها.

قالت بصوت منخفض: «إحنا مش كلاب، مش كلاب».

نظر في عينيها للحظة ثمّ استدار يعرج عبر الزقاق وهو ينزع الحبل عن رقبته ويعيد المسدّس إلى خصره. وظلّ همس الحشد يتناهى إليه وكأنّه هبّة ريح غاضبة.

في آخر الزقاق، كان سائق الأجرة يقف قرب سيّارته وهو يرتجف.

قال غاضبًا: «قلت لك إنّ مجيئك إلى هنا خطر على حياتك. قلت لك-»

همس بن-روي: «لا أكترث البتّة بما قلته!» ثمّ فتح الباب ورمى نفسه في السيّارة وهو يخرج قارورته من جيبه وقال: «أخرجني من هذا المكان اللعين وحسب. أخرجني من هنا».

الأراضي المحتلّة - مطار بن-غوريون

كان سليم، صديق ليلى في وكالة السفر، قد حجز لها تذكرة في رحلة الظهيرة إلى هيثرو لندن. وثمّة رحلة أخرى في ساعة أبكر إلى المنطقة نفسها مع شركة العال، ولكنّها أكثر كلفة. كما وأنّها كانت قد اتّخذت قرارًا بعدم استعمال شركات الطيران الإسرائيليّة، فاختارت الرحلة المتأخّرة الأقلّ كلفة. أوصلها سائقها كامل إلى مطار بن-غوريون عند الساعة الثامنة والنصف صباحًا، وأنزلها في موقف السيّارات الرئيس أمام منحوتة المينورا الضخمة لسالفادور دالي. كان في مزاج أكثر فظاظة من العادة، وهكذا بعدما تأكد من أنّ ليلى وحقيبتها أصبحتا خارج السيّارة، مال وصفق باب الراكب قبل أن ينطلق مسرعًا من دون كلمة وداع.

فتمتمت وهو يختفي عند الزاوية: «تبًّا لك أنت أيضًا».

تحقّقت من جواز سفرها ومن التذاكر، وكما تفعل في كلّ مرّة تأتي فيها إلى المطار، وقفت تحدّق بالمينورا السرياليّة، بفروعها المائلة وسطحها النحاسي الذي

جعلها تبدو وكأنّها تذوب ببطء. كانت رمزًا يحمل معانيَ سيئة بالنسبة إليها لكونه شعار محاربي داوود الذي يرسمونه كلّما استولوا على ممتلكات عربيّة. في الوقت نفسه، كانت تشعر بأنّها تفتنها على الرغم منها، بانحناءاتها والطريقة التي ترفع بها أذرعها إلى الأعلى وكأنّها تحاول معانقة السماء. لم تقرأ سوى في العام الماضي عن أهميّتها الأيقونيّة بالنسبة إلى الشعب اليهودي، وكيف أنّها في العهود القديمة قبل أن يستولي عليها الرومان عام 70 م. كانت أكثر الأشياء قداسة في الهيكل. وبينما هي تنظر إلى منحوتة دالي الآن، والإهداء المكتوب عليها «لشعب إسرائيل، الشعب المختار»، شعرت على السواء بالنفور وبارتباط غير مفهوم. تمامًا مثل شعورها إزاء هار-زيون نفسه، كما فكرت دومًا. تأملتها لبعض الوقت ثمّ تناولت حقيبتها وتوجهت إلى قاعة المسافرين.

لطالما شكّل خروجها من الأراضي المحتلّة مسألة معقّدة. فغالبًا ما كانت تلحق بطائرتها في آخر لحظة، لا بل وفوّتتها مرّتين، لأنّ موظفي الأمن الإسرائيليين كانوا يصرّون على تفتيش حقيبتها تفتيشًا دقيقًا وإخضاعها للائحةٍ طويلة من الأسئلة عن المكان الذي تقصده وسبب ذهابها إليه ومن ستلتقي فيه ومتى ستعود. كانوا يسألونها عن رحلتها بالتفصيل بالإضافة إلى أسئلة إضافيّة لمزيد من الاحتياط عن عائلتها، وأصدقائها، وزملائها، وحياتها الخاصة والمهنيّة. قالت مرّة بنبرة لاذعة للموظف الذي يسألها: «أصبح لديك ما يكفي لكتابة قصّة حياتي». ولكن عوضًا عن تسريع الأمور، أدّت ملاحظتها إلى تكثيف الاستجواب.

كان هذا ينطبق على كلّ فلسطيني يستعمل المطار. ولكنّها كانت تظنّ أنّها تُعامل أسوأ من غيرها بسبب سمعتها كصحفيّة. قالت لها نهى مرّة ممازحة: «لديهم كلّ التفاصيل عنك في الملف، وحين تحجزين تذكرة تنطلق إشارة على شاشة تقول: عاجل، حوّلوا حياة هذا الشخص إلى جحيم».

كانت تقوم بكلّ ما في وسعها لتسهيل الأمور، فتصل قبل نصف ساعة من المدّة المخصصة للتفتيش ولا تأخذ معها سوى الأغراض الضروريّة - لا دليل هاتف ولا كتب معادية لإسرائيل وبالتأكيد لا أدوات كهربائية باستثناء الهاتف المحمول. ولكنّ الأمور بقيت دائمًا على حالها. هكذا كانت اليوم أوّل المسافرين الواصلين وآخر من صعد على متن الطائرة، بعد أن تمّ فحص هاتفها فحصًا دقيقًا من قبل خبير متفجرات تمكّن عن غير قصد من محو جميع الأرقام المسجلة فيه. (أرادت أن تصرخ في وجههم: «لماذا؟ الإسرائيليون هم الوحيدون الذين يزرعون متفجرات في الهواتف المحمولة!»)

حين استقرّت أخيرًا في مقعدها – طلبت مقعدًا قرب نافذة أو ممرّ ولكنّها حصلت حتمًا على مقعد في الوسط – وأخذت تتصفح الكتاب الذي اشترته في اليوم السابق عن تاريخ الكاثار، لم تشعر بارتياح كبير لكونها اجتازت الإجراءات. فمغادرة الأراضي المحتلّة صعبة، إلاّ أنّها أسهل بكثير من العودة إلى هذا المكان اللعين.

الأقصر

أطفأ خليفة سيجارته، وأنهى فنجان الشاي قبل أن يستلقي في مقعده منهكًا. كان في مكتبه منذ الساعة الخامسة ذاك الصباح، وها قد أصبحت الساعة الثانية تقريبًا. تسع ساعات وهو يرطم رأسه بجدار أصمّ.

في البداية أرسل بالفاكس صورًا لجانسن إلى الأنتربول والشرطة الألمانيّة على أمل إيجاد معلومات عنه لديهم، ولكن من دون جدوى. ثمّ تجوّل حول الأقصر لساعتين والتقى بعض أشهر تجّار الآثار، محاولاً إيجاد رابط بين جانسن وتجارة الآثار المسروقة، ولكنّ بحثه هذا أيضًا باء بالفشل. مهما كان الهدف من جمع تلك القطع الأثريّة، من الواضح أنّ العجوز لم يكن يحاول بيعها. بعدها عاد إلى مكتبه، وأمضى بقيّة ساعات الصباح يراجع كلّ ما توصل إليه خلال الأسبوعين الفائتين، ويدوّن جميع ما بدا أنّه عناصر أساسيّة في القضيّة على بطاقات صغيرة – ثوث، الملثّم، النازيون، فاروق الحكيم، كلّ شيء – ثمّ بدأ يحاول ترتيب البطاقات في شكل منطقي، وكأنّها أجزاء نصّ مبعثرة، ولكنّه لم يتوصل لشيء.

أشعل سيجارةً أخرى ثمّ غادر مكتبه مكتئبًا. نزل السلالم وخرج من المحطة ليسير في شارع المعطوف ويتنشق بعض الهواء النقي. كان ثمّة كشك صغير للمشروبات عند زاوية شارع الكرنك، فدخله واشترى كوبًا من الكركديه، وقرفص أمام جدار القسم يرتشف شرابه. مرّ من أمامه صبيّ على دراجة يحمل على رأسه صينيّة صُفّ عليها العيش البلدي.

في الواقع، كانت الخيارات تنفد منه. فاروق الحكيم ميت الآن ولا يستطيع التحدّث إليه، ومع أنّه ما زال يملك بعض الخيوط الصغيرة لملاحقتها، إلاّ أنّ التحقيق يرتكز الآن على عاملين أساسيين: التحدّث مع صديقي جانسن في القاهرة، والحصول على بعض المعلومات المفيدة من ذاك التحرّي الإسرائيلي المريع. كان السيد والسيدة غراتز ما زالا يرفضان الاتّصال به. هما في المنزل بالتأكيد لأنّ جيرانهما أكّدوا بأنّهما سمعوا أصواتهما في الشقّة، ولكن لسبب ما يمتنعان عن الاتّصال. وبما أنّ خليفة لا يستطيع حاليًّا السفر إلى القاهرة ليطرق بابهما شخصيًّا، وجد أنّ الأمل ضعيف

للحصول على شيء منهما حاليًا.

لم يبقَ له إذًا إلاّ بن-روي. بن-روي الفظّ، الكسول، غير الكفء. سبق واتّصل خليفة بمكتبه أربع مرّات هذا الصباح، وكان المجيب الآلي يردّ في كلّ مرّة فيترك رسالة جافة يسأل ما إذا كان الإسرائيلي قد توصل لشيء عن حنّا شليغل. ولكنّه لم يجب حتّى الآن، ما زاد من شكوك خليفة أنّه لم يأخذ الموضوع على محمل الجدّ.

تنهّد غاضبًا، ثمّ أنهى شرابه، وأغمض عينيه تاركًا أشعة الشمس تلوّح وجهه. كانت دافئة ومريحة لم تلهبها بعد حرارة الصيف.

تمتم وهو يسحب نفسًا من سيجارته: «تبًّا لك يا بن-روي، اللعنة عليك».

«كلّ شيء على ما يرام إذًا!»

فتح عينيه مجددًا ليرى محمّد ساريا واقفًا أمامه.

قال له: «أتعرف، أظنّها المرّة الأولى التي أسمعك تشتم فيها».

«إنّها المرّة الأولى التي أضطرّ إلى التعامل فيها مع الإسرائيليين الأنذال». أطفأ سيجارته على الأرض، ثمّ نهض وأعاد كوبه للبائع، قبل أن يشبك ذراعه بذراع ساريا ويسيرا عائدين إلى القسم معًا.

قال خليفة: «سمعت أنّك تعمل مع إبراهيم فتحي الآن».

كان فتحي ضابطًا آخر في القسم وكان من الضبّاط المفضلين لدى حسّاني لأنّه لا يقوم سوى بما يؤمر به.

«هل ثمّة ما يثير الاهتمام؟»

أجاب ساريا: «تاجرا موز يتلاعبان بالوزن في البيّاضيّة وقضيّة غامضة لسارق دجاج متسلسل في بيرم. لم تكن الأمور بهذه الإثارة حين كنت أعمل معك».

ابتسم خليفة، فقد كان يشعر بشيء من القلق من أن يستمتع ساريا بالعمل مع فتحي، بحيث ينفّذ الأوامر حرفيًّا، ولكنّ ما سمعه الآن أشعره بالراحة وبأنّه أقلّ عزلة. كم افتقد لمساعده في الأيام الماضية.

مرّا بين الحارسين الواقفين على باب القسم وبدآ بصعود السلّم.

سأله ساريا: «ولكن أخبرني حقًّا كيف تسير الأمور؟ لا يبدو أنّها على خير ما يرام؟».

هزّ خليفة كتفيه من دون أن يقول شيئًا.

«هل أستطيع القيام بشيء لأجلك؟ بعض الاتّصالات؟».

ابتسم خليفة وربّت على ذراع مساعده: «شكرًا محمّد، ولكن من الأفضل أن

أتولّى هذا الموضوع بنفسي. لست مضغوطًا، بل مربكًا وحسب، كالعادة».

وصلا إلى أعلى السلّم. كان مكتب فتحي الذي يعمل فيه ساريا في آخر الممر إلى اليمين، أمّا خليفة فكان مكتبه إلى اليسار.

قال وهو يترك ذراع ساريا: «لا تنسَ أن تخبرني ماذا سيحدث مع تاجرَي الموز». ثمّ غمزه واستدار عائدًا إلى مكتبه، إلاّ أنّه التفت إليه بعد خطوتين.

«مهلاً، محمّد! ثمّة أمر واحد».

انضمّ إليه ساريا وتوجها إلى مكتب خليفة. كان الهاتف يرنّ حين دخلا.

سأله ساريا: «ألا تريد أن تجيب؟»

لوّح خليفة بيده بلا اكتراث: «لا بدّ أنّه حسّاني، يتصل ليرى ماذا حدث معي، فلينتظر».

توجّه نحو المكتب متجاهلاً الهاتف وبدأ يبحث بين كومة الأوراق المكدّسة على سطحه إلى أن سحب الصورة السلبيّة التي أخذها من منزل جانسن.

«ليس الموضوع بذي أهميّة على الأرجح ولكنّني أتساءل إن كنت تعرف أين يقع هذا القبر. بصراحة، إنّه اهتمام شخصي أكثر منه عمل، لذا لا تُضع عليه كثيرًا من الوقت».

أخذ ساريا الصورة وحملها نحو الضوء. تواصل الرنين بإلحاح ملأ الغرفة.

أضاف خليفة وهو يرمي الهاتف بنظرة منزعجة: «ومن الأفضل ألاّ تذكر شيئًا عن الموضوع أمام فتحي. لا أظنّه سيكون سعيدًا إن عرف أنّك تعمل لغيره».

القدس

«هيّا أيّها العربي الأحمق، أين أنت؟»

جلس بن-روي أمام مكتبه وراح يطرق أصابعه على سطحه بنفاذ صبر وهو يحمل سمّاعة الهاتف إلى أذنه. كان أساسًا في مزاج مريع بعد ما حدث له في المخيّم وتعكّر مزاجه أكثر بعدما استمع إلى الرسائل الأربع التي تركها المصري على المجيب الآلي. «أيّها التحرّي بن-روي، هل لك أن تتّصل بي رجاءً». «أيّها التحرّي بن-روي، توقّعت أن تعاود الاتّصال بي». «أيّها التحرّي بن-روي، هل لك أن تخبرني كيف تسير التحقيقات». «أيّها التحرّي بن-روي، هل بدأت البحث في المسألة التي كلّمتك عنها؟»

لقد خاطر بحياته لأجل الرجل وكل ما حصل عليه بالمقابل هي تلك الرسائل الجافة! ما كان يجدر به أن يعاود الاتّصال به قبل بضعة أيام ليعلّمه أصول اللياقة.

في الواقع هذا ما سيفعله. سيغلق الخطّ ويتركه ينتظر.

فُتح الخطّ: «صباح الخير».

«خيديفا؟»

حلّ صمت قصير.

«خليفة. خ-ليبي-فة. لا بدّ أنّك التحرّي بن-روي».

أجاب الإسرائيلي وهو يقاوم الرغبة بشتمه: «أجل، إنّه أنا».

عند الطرف الآخر من الخطّ، أشعل خليفة سيجارةً وراح يسحب الدخان بقوّة من الفيلتر وقد شعر بنفور أكبر من الرجل من المرّة السابقة التي تحدّثا فيها لأنّ نبرته تجعله يشعر بأنّه مربك وغير كفوء.

قال محاولاً تأكيد نفسه: «كنت آمل أن أسمع منك شيئًا قبل الآن».

قال بن-روي غاضبًا: «هذا أنت تسمع منّي الآن. لم أتمكن من التحدّث إليك قبل ذلك».

غرقا في الصمت وقد شعر كلّ منهما أنّه لو كان البادئ بالخطوة التالية ستكون إشارة ضعف. فكّر خليفة وهو يسحب نفسًا من سيجارته أنّه لا يجب أن يبدو محتاجًا إليه، فيما تناول بن-روي جرعة أخرى من الشراب وهو يقول إنّه لا يجب أن يبدو مهتمًا.

كان المصري هو الذي استسلم أوّلاً.

«إذًا؟ هل وجدت شيئًا؟»

لم ينجح تمامًا بأن يبدو قليل الاكتراث.

هزّ بن-روي رأسه راضيًا وشعر أنّه ربح تلك المعركة ثمّ أجابه أنّه وجد شيئًا، عدّة أشياء. صمت للحظة ورفع ساقيه فوق زاوية المكتب مستمتعًا وهو يتخيّل خليفة يشدّ قبضتيه بنفاد صبر ثمّ انطلق يخبره.

بدأ بجميع الأمور الشخصيّة المتعلّقة بحنّا شليغل: فرنسا، أوشفيتز، وظيفتها في أرشيف ياد فاشيم، شقيقها التوأم، كلّ ما أخبرته به السيّدة واينبيرغ في اليوم الفائت. وتردّد في الهاتف الصوت الناعم الذي كان يحدثه القلم فوق الورق حين راح خليفة يدوّن الملاحظات. وراح يطرح عليه أسئلة متواصلة - أين في فرنسا؟ أرشيف ماذا؟ هل تحدّثت إلى شقيقها؟ - وكان يحصل على إجابات ازدادت جفافًا وقصرًا لأنّ بن-روي لا يحبّ أن يقاطعه أحد ولأنّه كان يعرف في أعماقه أنّه لم يغطِّ الموضوع كما ينبغي، فبدا قليل الكفاءة حين عجز عن إعطاء الأجوبة المناسبة.

قال بصوت لاذع حين أُجبر مرّة أخرى على الإقرار إنّه لم يتابع المسألة جيّدًا: «تبًّا، لا أعرف! لم يكن لديّ سوى يومين».

ابتسم خليفة في الطرف الآخر وشعر بالسعادة لأنّه وجد ما ينتقده، وكان كلّ سؤال لا يحصل على إجابة يجعل كفّة الميزان تميل لجانبه أكثر.

قال خليفة بنبرة متعاطفة ومتكبرة في آن: «أفهم تمامًا، يومان هما مدّة قصيرة، لا سيّما إن كانت لديك أمور أخرى تقوم بها».

تمتم بن-روي في سرّه بشتيمة.

انتقل إلى موضوع الحريق وشعر بثقة أكبر هنا لأنّه كان يعلم أنّه قام بعمل جيّد. أخبره بما حدث ببطء، مبتدئًا بما قالته السيّدة واينبيرغ ثمّ روى ما حدث خطوةً خطوة – هاني جمال، رحلته إلى الأعمري، إقرار مجدي أنّ شخصًا ما دفع لهم لإحراق الشقة، وصف داخل الشقّة. قاطعه خليفة بأسئلة عديدة هنا أيضًا، ولكنّ بن-روي كان يملك الأجوبة، فاضطرّ المصري إلى الاعتراف غصبًا عنه أنّ التحرّي قام بعمل ممتاز كان ليسرّ به هو نفسه.

قال لنفسه: «ربّما ليس أحمق كما ظننت. فظّ، عصبي، ولكنه ليس أحمق».

كان الإسرائيلي قد نظّم روايته بحيث أبقى المعلومة الأخيرة الأساسيّة، التي تكشف مدبّر الحريق المفتعل إلى النهاية. كان خليفة عندها مستغرقًا بما سمعه إلى حدّ أنّه لم يكلّف نفسه عناء طرح مزيد من الأسئلة. كان يصغي وحسب ويدوّن المعلومات. وحين ذكر الإسرائيلي أخيرًا الاسم الذي أعطاه إيّاه الشاب الفلسطيني – غاد، غيتز – أطلق صفيرًا منخفضًا.

سأله بن-روي محاولاً إخفاء اهتمامه: «تعرفه؟»

«ربّما، وربّما لا. كان لدى بيت جانسن صديق مقرّب يُدعى أنطون غراتز يعيش هو الآخر في القاهرة. لا شكّ بأنّها مصادفة غريبة».

صمت وهو يفكّر لماذا يريد غراتز تدمير شقّة حنّا شليغل، ثمّ هزّ رأسه واستند إلى ظهر كرسيّه يحدّق إلى الملاحظات التي دوّنها للتوّ.

قال بعد صمت طويل: «أنا مهتم بحادثة المركب، حين أتت السيّدة شليغل إلى إسرائيل. حين قالت...» مرّر قلمه فوق الملاحظات يبحث عن الجملة.

قال بن-روي: «سوف أعثر عليهم حتّى لو استغرقني ذلك بقيّة حياتي، سوف أعثر على الأشخاص الذين فعلوا بنا ذلك. وحين أجدهم سوف أقتلهم».

«بالضبط. عمّن كانت تتحدّث؟»

أجاب الإسرائيلي بجفاف: «عمّن فعلوا ما فعلوه بها في أوشفيتز، على ما أظنّ.

الأطبّاء، العلماء. بحسب ما قالته المرأة واينبيرغ، أمضت وقتًا مريعًا هناك».

سحب خليفة نفسًا عميقًا من سيجارته. قبل البحث الذي قام به على الإنترنت عصر أمس، لم يكن يعرف شيئًا عن أوشفيتز سوى الاسم. حتّى الآن يصعب عليه تصديق أنّ مكانًا كهذا كان موجودًا. غرف الغاز، الأفران، الاختبارات الطبيّة... أخذ نفسًا عميقًا آخر وهو يتذكر الندبة التي رآها على بطن حنّا شليغل، سميكة ومتعرّجة وكأنّها حيوان زاحف. أكانت من مخلّفات المعتقل؟

«هل تظن أنّ جانسن كان أحد هؤلاء الأطبّاء؟ هل كان متورّطًا في هذه التجارب بشكلٍ ما؟».

كان يعرف أنّه احتمال بعيد، قد يفسر بعض أجزاء اللغز ولكنّه سيترك فيه كثيرًا من الغموض. نفى بن-روي الاحتمال على الفور.

«جميع أطبّاء أوشفيتز إمّا أعدموا أو سجنوا عند انتهاء الحرب. هرب مينغيل إلى جنوب أميركا ولكنّه مات منذ ثلاثين عامًا وأيًّا يكن ما تورّط به السيّد جانسن، لا أظنّه كان متورّطًا في تجارب طبيّة نازيّة».

هزّ خليفة رأسه بشيء من الخيبة ولكنّه لم يفاجأ كثيرًا. استرخى في كرسيّه ونفث شريطًا متعرّجًا من الدخان ثمّ راجع ملاحظاته مرّة أخرى. كانت تحوي معلومات جيّدة هذه المرّة. لم تزد إرباكه بل أضافت قطعًا هامًا إلى الأحجية. معاناة شليغل في الحرب، الأرشيف الذي جمعته في شقّتها، شقيقها التوأم، والحريق المفتعل. ولو أضافها إلى ما توصل إليه هو فإنّها تشكّل خيوطًا جديدة هامة. للمرّة الأولى منذ أن بدأ التحقيق شعر بشيء من التفاؤل وأنّه على الرغم من الغموض الذي ما زال يكتنف جوانب تلك القضيّة، إلاّ أنّه بدأ بالتقدّم والاقتراب من الحلّ.

غير أنّ الطريق ما زال طويلاً وما زال بحاجة إلى المزيد؛ مزيد من الوقائع والمعلومات. بعضها يمكنه التوصل إليه بنفسه، فقد سبق وقرّر أنّ خطوته التالية هي السفر إلى القاهرة لمواجهة السيّد غراتز الغامض. غير أنّه ثمّة خيوط أخرى لا يمكنه متابعتها بنفسه، على الأقلّ ليس بسهولة. وبالتالي شاء أم أبى، ما زال بحاجة إلى بن-روي. وكانت الفكرة تزعجه لأنّه أعجب بالعمل الذي قام به الإسرائيلي، مع أنّه لم يجده سهل الانقياد كشخص.

بن-روي من جهته كان يفكّر بالمشكلة نفسها، وإن في اتجاه معاكس: كيف له أن يقرّ برغبته أن يتابع العمل في هذه القضيّة من دون أن يبدو متلهفًا لذلك. حسنًا، قد لا يكون المصري قليل الكفاءة كما توقّع في البداية، فبعض أسئلته وتعليقاته كانت ذكيّة جدًّا. إلاّ أنّه لا يزال شخصًا مزعجًا ولجوجًا ولن يركع عند قدميه طالبًا منه أيّ شيء.

حلّ من جديد صمت طويل ثقيل تردّد فيه كلا الرجلين للقيام بالخطوة الأولى وقول ما يدور في ذهنه خوفًا من منح الآخر امتيازًا يتفوّق به عليه. هذه المرّة كان بن-روي هو البادئ.

قال بفظاظة وبسرعة وكأنّه يتجرّع شرابًا لا يستسيغه: «سوف أرى ماذا يمكنني أن أعرف بعد».

قال خليفة بارتياح وبشيء من المفاجأة: «حسنًا». ثمّ جلس مجدّدًا خلف مكتبه وأطفأ سيجارته في المنفضة مضيفًا: «سوف أرسل لك بالفاكس صورة عن جانسن وتقريرًا عمّا توصلت إليه حتّى الآن».

«أجل، افعل. ويُستحسن أن أعطيك رقم هاتفي المحمول».

تذكر خليفة أنّ الإسرائيلي قال إنّه لا يملك هاتفًا محمولاً. ولكن نظرًا إلى المساعدة غير المتوقعة التي قدّمها، لم يشأ إثارته فاكتفى بتناول قلم وسجّل الرقم. حلّ صمت آخر لم يعرف فيه أيّ منهما كيف ينهي المكالمة.

قال بن-روي أخيرًا: «سأكون على اتصال إذًا».

قال خليفة: «نعم، سأنتظر اتصالك».

وشرع بإقفال الخطّ ثمّ رفع السمّاعة مجدّدًا.

«بن-روي؟»

«نعم؟»

«ثمّة أمر... قد يكون هامًا وقد لا يكون».

«نعم؟»

توقف خليفة للحظة.

«بيت جانسن... يبدو أنّه كان يحاول الاتصال بالملثّم. قال إنّ لديه ما يمكن أن يساعده في حربه ضدّ إسرائيل. فكرت في إخبارك ذلك».

بعد أن أقفل بن-روي الخطّ، جلس لبضع دقائق يحدّق إلى الفراغ وأصابعه تداعب المينورا المتدلّية من عنقه، ثمّ نهض وتوجّه نحو خزانة معدنيّة في زاوية المكتب. أخرج مجموعة من المفاتيح من جيبه ثمّ فتحها وانحنى ليخرج منها ملفًا ورقيًّا مليئًا بالأوراق. ركل الباب لإغلاقه، وعاد إلى مكتبه ثمّ جلس وفتح الملف. كان على زاويته اليمنى العليا صورة لامرأة شابة ذات شعر أسود قصير وألصقت في أسفل الصورة ورقة صغيرة كُتب عليها اسم ليلى المدني.

كامبردج، بريطانيا

كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة حين وصلت ليلى أخيرًا إلى كامبردج، وكانت أمسيةً دافئة، هواؤها عابقًا بعبير أزهار الكرز. أتت من لندن بالقطار، وفي ظروف أخرى كانت لتقطع مسافة الميل والنصف التي تفصل المحطة عن وسط البلدة سيرًا على الأقدام. فقد مضت عليها سنوات منذ أن زارت هذه البقعة من العالم وكانت ترغب برؤية المشاهد القديمة مجددًا، التي اعتادت عليها حين كانت تعيش مع جدّيها بعد أن هربت هي وأمّها من فلسطين. ولكنّ الوقت لم يكن يسمح لها بذلك فقد كانت متلهفة لإيجاد البروفيسور توبينغ غريب الأطوار.

هكذا خرجت من المحطة واستقلّت سيّارة أجرة وبعد عشر دقائق كانت تعبر بوابة سان جون المقوّسة. أخبرها البواب أنّ مكتب البروفيسور توبينغ يقع عند السلّم «أيه» الباحة الثانية، فشكرته ودخلت الكليّة لتعبر باحةً كبيرةً صامتة، بنباتاتها المشذّبة وأبنيتها التي يعلوها القرميد الأحمر وكنيستها المزخرفة ذات النوافذ المقوّسة، ثمّ وصلت إلى الباحة الثانية.

كان السلّم أيه يقع في الزاوية اليسرى وقد عُلّق عند أوّله لوح يحمل أسماء جميع من يملكون غرفًا أعلاه. كانت الإشارة تحت اسم البروفيسور توبينغ تشير إلى أنّه في الخارج، ما سبّب لها الرعب - هل اجتزت كلّ هذه المسافة عبثًا؟ - قبل أن ترى طالبًا يهبط السلّم وهو يرتدي قميص رُكبي باللونين الأبيض والأحمر. وحين سألته عن مكان البروفيسور، أكّد لها أنّه في مكتبه بالتأكيد.

قال: «سمعتُه يصرخ. لا تأخذي ما كُتب على اللوحة بعين الاعتبار، فقد عشت تحته لعامين ولم يُشر أبدًا إلى أنّه في الداخل».

شعرت بالراحة مع أنّها لم تطمئن تمامًا، إذ لا يبدو أنّ البروفيسور من الأشخاص الذين يرحّبون بالزيارات غير المتوقعة. بدأت تصعد السلّم الخشبي الذي راح يُحدث صريرًا تحت قدميها، حتّى وصلت إلى أعلى المبنى لتجد بابًا كُتب على الجدار المجاور له بروفيسور م. توبينغ.

تردّدت وهي تتخيّل كما فعلت في الليلة الماضية أكاديميًّا عجوزًا يضع نظارة سميكة ويرتدي سترة من التويد وقد برزت شعيرات من أذنيه ثمّ تقدّمت وقرعت الباب. لم يجب أحد، فقرعت مجدّدًا.

«ليس الآن!»

«بروفيسور توبينغ؟»

«ليس الآن!»

كانت نبرته غاضبة، فتساءلت ما إذا كان يجدر بها الذهاب لشرب فنجان من القهوة والعودة لاحقًا حين يكون في مزاج أفضل. ولكنّها لم تقطع كلّ هذه المسافة للتجوّل في المدينة، فصرّت على أسنانها ثمّ رفعت يدها وطرقت للمرّة الثانية على الباب الخشبي بإصرار أكبر.

«سوف أقدّر لو تعطيني دقيقة من وقتك، بروفيسور توبينغ».

حلّ صمت قصير، وكأنّه الهدوء الذي يسبق العاصفة ثمّ سُمع صوت أقدام تقترب بسرعة. فُتح باب داخلي ومن ثمّ الباب الخارجي الذي طرقته.

«ألا تفهمين الإنكليزيّة؟ قلت ليس الآن! ما خطبك بحقّ الله؟» فوجئت ليلى كثيرًا لتتمكن من الإجابة. فعوضًا عن البروفيسور العجوز الذي كانت تتوقّعه، وجدت نفسها أمام رجل طويل، وسيم، داكن الشعر، بدا في أوائل أو أواسط الأربعينيات. كان يرتدي سروال بيرمودا وقميصًا كتانية. لم تدم مفاجأتها سوى للحظة، ثمّ استجمعت نفسها وانطلقت في هجوم معاكس.

«تبًّا لك أيّها الأحمق المتكبّر! لقد أتيت من القدس لأنّك لا تملك هاتفًا مثل أيّ كائن بشري طبيعي، على الأقلّ أظهر لي بعض الاحترام».

توقّعت أن يُصفق الباب في وجهها ولكنّ البروفيسور اكتفى بالتحديق إليها وقد بدا في عينيه شيء من الإعجاب ثمّ قوّس حاجبيه واستدار عائدًا إلى غرفته. ظلّت في مكانها غير واثقة ممّا ينبغي أن تفعل.

ناداها قائلاً من خلف كتفه: «حسنًا، ادخلي. قد أكون أحمق متكبّرًا ولكنّني أعرف متى أتراجع بلباقة. وأغلقي الباب خلفك، البابين. لا أريد أن يشكّل ذلك سابقةً لغيرك».

كانت متفاجئة جدًّا لتناقشه ففعلت ما قاله لها وتبعته إلى المكتب.

كانت الفوضى تعمّ المكان. أوراق وكتب في كلّ مكان - على الأرض، على سطح الموقد، على حاجب النافذة، على المكتب - وكأنّ الغرفة قد ضربها إعصار عنيف. كانت الفوضى كبيرة إلى حدّ أنّها لم تلاحظ على الفور أنّ التلّتين الشبيهتين بالكرسيين الموضوعتين تحت النافذة كانتا كذلك في الواقع - مقعدان بذراعين تعلوهما كومة من الملابس ومجلّدات عن تاريخ كامبردج في القرون الوسطى. شقّ توبينغ طريقه نحوهما وبدأ يفسح مكانًا لها لتجلس.

«لا أظنّ أنّني سمعت اسمك».

أجابت: «ليلى، ليلى المدني».

«وأنتِ...؟»

«صحفيّة».

قال وهو يشير لها إلى المقعد الذي اختفت عنه الكتب والملابس المتسخة: «لم أظنّ أنّك أكاديميّة، فأنتِ أكثر جاذبيّة من أن تكوني كذلك».

كانت نبرته عاديّة جدًّا ولم تسبّب لها ملاحظته الإزعاج. جلست بينما راح يفسح لنفسه مكانًا على الكرسي الآخر.

سألها: «قهوة؟» وأشار إلى ممرّ صغير في زاوية الغرفة بدا منه مطبخ مزدحم، فرفضت العرض.

«شراب؟»

«الوقت مبكر قليلاً بالنسبة إليّ».

فوجئ بعض الشيء بجوابها وكأنّ فكرة وجود علاقة بين الشراب والوقت من النهار لم تطرأ له أبدًا. لم يصرّ بل أنهى إزالة الأغراض عن المقعد ثمّ توجّه إلى المطبخ وأحضر زجاجة عصير من البرّاد فتحها بطرف الطاولة.

ناداها قائلاً: «وهل أتيت فعلاً من القدس أم أنّك تحاولين إشعاري بالذنب؟»

أكّدت له أنّها كانت تقول الحقيقة.

قال وهو يعود ليجلس أمامها: «أفترض أنّه عليّ الشعور بالإطراء. فنصف تلامذتي لا يتكبّدون عناء المجيء من الجهة الأخرى من الكليّة».

تناول جرعة من عصيره ثمّ مدّ قدميه وراح يحدّق إليها.

«إذًا؟»

حدّقا إلى بعضهما بعضًا للحظة - كان بالفعل وسيمًا جدًّا - ثمّ انحنت وبدأت تبحث في حقيبتها.

قالت: «أردت سؤالك عن محاضرة ألقيتها منذ بضعة أسابيع، ويليام الصغير وسرّ كاستيلومبر». استقامت بعد أن أخرجت دفترًا وقلمًا والصفحة التي طبعتها من موقع جمعيّة التاريخ في كليّة سان جون. أضافت: «كنت أحاول البحث في موضوع كاستيلومبر لأجل مقال أكتبه، ولكنّني لم أتوصل لشيء. تمكنت من الحصول على بعض المعلومات المبهمة على الإنترنت ولكن...، حسنًا، من الوصف الذي قرأته عن محاضرتك بدا لي أنّك تستطيع إعطائي بعض المعلومات الأكثر تفصيلاً».

رفع حاجبيه متفاجئًا: «وهل عبرت كلّ هذه المسافة لأجل ذلك؟».

«حسنًا، بالتأكيد كان الهاتف أو البريد الإلكتروني ليسهّل الأمور».

ارتسمت على وجهه شبه ابتسامة وهو يقرّ بذلك ثمّ أخذ جرعة أخرى من العصير.

قال: «لا بدّ لي من الإشارة أنّ المحاضرة كانت أقرب إلى الترفيه منها إلى محاضرة أكاديميّة جادة. الهويّة الثقافيّة في لانغدوك في القرون الوسطى، هذا هو مجال اهتمامي، وأنا متخصّص في سجلاّت التفتيش في القرن الثالث عشر، لذا فإنّ كلّ ما يتعلّق بالأسرار والكنز المدفون والغموض الذي يلف علماء الآثار النازيين أعتبره نوعًا من الترفيه». حدّق إلى زجاجته ثمّ أضاف: «مع أنّه كان مثيرًا للاهتمام، مثيرًا جدًّا وربّما على قدر من الأهميّة».

حلّ صمت قصير بدا فيه أنّ البروفيسور غارق في أفكاره ثمّ مدّ يده قائلاً: «إلامَ توصلتِ حتّى الآن؟».

نزعت الورقة التي دوّنت عليها ملاحظاتها في اليوم السابق وأعطته إيّاها ليقرأها.

«بصراحة، لست واثقًا أنّ لديّ الكثير لأضيفه. كما قلت لكِ، هذا ليس ضمن اختصاصي، وحتّى إن كان كذلك...» هزّ كتفيه وأعاد لها الصفحة. ولا بدّ أنّه لاحظ نظرة الخيبة على وجهها لأنّه أضاف على الفور: «مع ذلك، أستطيع إعطاءك بعض المعلومات الإضافيّة. هذا أقلّ ما يمكنني فعله بعد أن قمتِ بهذه الرحلة. وأنتِ تحكمين ما إذا كانت ذات فائدة أم لا».

نهض متوجّهًا إلى مكتبه، وبدأ يبحث بين كومة كبيرة من الأوراق.

سألها: «هل سبق أن ذهبت إلى هناك؟ إلى كاستيلومبر؟»

أجابته أنّها لم تذهب.

«يستحقّ الزيارة. صحيح أنّه لا يحتوي على الكثير، نافذة خشبيّة، بعض الجدران المتداعية، كلّ ما فيه قديم جدًّا، إلاّ أنّ جوّه كئيب على نحو غريب. قصر الظلال، هذا ما يعنيه الاسم، وهو يلائمه تمامًا».

أخرج مجموعة من الأوراق.

«إنّها أوراق المحاضرة».

راح يتصفحها وهو مائل فوق طرف المكتب، فأدّت هذه الحركة إلى انهيار كومة الأوراق وسقوطها على الأرض، إلاّ أنّه تجاهلها.

«حسنًا، فلنبدأ من البداية. انطلاقًا من المصادر المعاصرة، وهي ضئيلة جدًّا لا بل شبه معدومة – مجرّد شجرتين عائليتين غير مكتملتين، بعض صكوك الملكيّة، وصايا، وما إلى ذلك – لم يكن ثمّة ما هو غير عادي بخصوص كاستيلومبر، حتّى

القرن الحادي عشر على الأقلّ. كان مجرّد عقار صغير عادي في لانغدوك. فقد امتلك أسياده الأرض والبناء وتزوّجوا من بنات الطبقة الأرستقراطيّة المحليّة وأوصوا بأملاك للمؤسسات الدينيّة ودانوا بالولاء لكونتات فوا. كلّ هذا عادي جدًّا. ولكن، في وقت ما من عام 1100، تغيّرت الأمور فجأة، على نحو دراماتيكي تمامًا».

جلست ليلى على طرف مقعدها وقد بدأت الحماسة تدبّ فيها. فإن كان بحثها دقيقًا، وما من سبب يجعله غير ذلك، فإنّ عام 1100 هو الوقت الذي اكتشف فيه ويليام دو رولينكور كنزه الغامض تحت كنيسة القيامة وأرسله إلى شقيقته في كاستيلومبر.

تابع توبينغ: «المصادر شحيحة هنا أيضًا، بضع قصائد تروبادور، إشارتان عابرتان في كتب تاريخ معاصرة، والأهم من ذلك رسالتان صغيرتان كتبهما الأكاديمي اليهودي المعاصر راشي. إلاّ أنّها تتّفق جميعها على أنّه في أوائل القرن الثاني عشر بدأ كاستيلومبر يجتذب قدرًا متعاظمًا من الاهتمام. والسبب هي الإشاعات التي راحت تقول إنّ القصر يحوي كنزًا غير عادي لا يضاهيه أيّ كنز آخر من حيث القوّة والجمال».

شعرت ليلى مجدّدًا بموجة أقوى من الحماسة في جسدها. «القوّة والجمال» هي بالضبط الكلمات التي استعملها دو رولينكور في رسالته.

سألته محاولةً الحفاظ على استقرار نبرتها: «وهل نعلم ما هو؟».

هزّ توبينغ رأسه نافيًا: «على الإطلاق. وحتّى المصادر ليست واثقة تمامًا، فبعضها يكتفي بتسميته الكنز فيما يدعوه بعضهم الآخر سرًّا أو لغزًا، ما يشير إلى معنىً مجازي أو رمزي. ماهيّته غير واضحة في الواقع».

أنهى عصيره وقذف الزجاجة لتستقر في سلّة النفايات على بعد خمس أقدام محدثةً صوتًا عاليًا.

«مع أنّنا لا نعرف التفاصيل الدقيقة، إلاّ أنّه ثمّة أمران مؤكدان على الأقلّ. الأوّل أنّ الشيء أو السرّ الغامض هو على علاقة وثيقة بإسكلارموند أوف كاستيلومبر، زوجة الكونت ريموند الثالث، التي يبدو أنّها اعتبرت منذ البداية شخصيّة حارسة أو حامية والثاني، يبدو أنّ له معنىً عميقًا في الإيمان اليهودي. فمنذ عام 1104، راح زعماء الجماعات اليهوديّة الرئيسة في لانغدوك، في مدن تولوز وبيزييه وناربون وكارتاسون يزورون القصر استنادًا إلى راشي. وفي العام 1120 أخذ اليهود يتوافدون إليه من مناطق بعيدة كقرطبة وصقلية. وفي العام 1150، كان المكان قد تحوّل إلى مركز للحجاج اليهود ودراسة القبّالا. وعليّ الإشارة هنا أيضًا إلى مدى قلّة المصادر. ولكن مع ذلك، من الواضح أنّ شيئًا غير عادي كان يدور في كاستيلومبر خلال تلك الفترة».

كانت ليلى تجلس على طرف مقعدها تمامًا.

«تابع».

هزّ توبينغ رأسه: «لسوء الحظ، تصمت المصادر تمامًا بعد أواسط القرن الثاني عشر. وما نسمعه بعد ذلك عن كاستيلومبر، وهو أيضًا آخر ما يقال عنه، ورد في كتاب المؤرّخ غيوم بيليسون الذي يسجّل كيف أنّه عام 1243، خلال حرب الكاثار الصليبيّة، سويّ القصر بالأرض من قبل قوّات الكنيسة الكاثوليكيّة، وأعيد توزيع الأرض فيما دمّر منزل كاستيلومبر. أمّا عن الكنز أو السرّ الغامض أو أيًّا يكن، فلم نسمع شيئًا بعد ذلك الحين».

توقف للحظة ثمّ نظر إليها.

«أو على الأقلّ إلى أن وجدت أنا إشارة غريبة إليه منذ بضعة أشهر في سجلّ للتفتيش كنت أبحث فيه في المكتبة الوطنيّة في باريس. وهذا ما كان سبب تلك المحاضرة».

سُمع صوت الساعة في الخارج يعلن مرور نصف ساعة.

سألها: «هل تعرفين شيئًا عن الكاثار؟»

كانت قد قامت بقراءة سريعة لكتاب عن الموضوع خلال رحلتها أعطاها بالإضافة إلى المعلومات التي أخذتها عن الإنترنت معلومات أساسيّة عنهم.

أجابت: «قليلاً. أعرف أنّهم كانوا طائفة مسيحيّة مهرطقة ازدهرت في لانغدوك في القرنين الثاني والثالث عشر، يؤمنون أنّ» – نظرت إلى الملاحظات الموجزة التي دوّنتها في الطائرة – «العالم يحكمه إله للنور وإله للظلام وأنّ كلّ ما في العالم المادي هو من صنع إله الشرّ. وأنّ الكنيسة الكاثوليكيّة شنّت ضدّه حملة صليبيّة سميّت حملة الكاثار الصليبيّة. وأنّ معقلهم الأخير كان في قصر مونسيغور وأنّه قبل سقوط القصر يُفترض أنّهم هرّبوا كنزًا خياليًا من الجيش المحاصِر». نظرت إليه وأضافت: «أخشى أن يكون هذا كلّ شيء».

هزّ رأسه بنظرة إعجاب وقال: «هذا أكثر ممّا يعرفه معظم الناس أؤكّد لك».

حلّ صمت قصير حدّقا فيه إلى بعضهما بعضًا، ثمّ هزّ توبينغ رأسه، وعاد إلى المطبخ ليحضر زجاجة أخرى من العصير ناداها قائلاً: «هل أنت واثقة أنّك لا تريدين بعض العصير؟»

«حسنًا».

فتح زجاجتين، ثمّ عاد وأعطاها واحدةً. جلس أمامها، مدّ ساقيه الطويلتين بحيث أصبحت قدماه الحافيتان على بعد إنش من مقعدها.

قال متابعًا روايته: «لطالما شكّل كنز الكاثار موضوع تخمين، بعضه أكاديمي وبعضه الآخر مجرّد فنتازيا جنونيّة. تمحورت جميع الأفكار حول ماهيّته بالضبط، من أكياس الذهب إلى نصوص دينيّة كاثاريّة إلى الكأس المقدّسة. وفي الواقع، وكما هي الحال مع مسألة سرّ كاستيلومبر بأكملها، المصادر ليست واضحة».

تناول جرعة من العصير قبل أن يتابع: «نحن نعرف عن الكنز من خلال سلسلة من الشهادات التي أخذتها محاكم التفتيش من أشخاص ظلّوا على قيد الحياة بعد حصار مونسيغور. فبعد سقوط القصر في أيدي الصليبيين الكاثوليك في آذار 1244، رفض نحو مائتين من المدافعين الرجوع عن معتقدهم فتمّ إحراقهم. أمّا الباقون فمُنحوا حريّتهم شرط الإدلاء باعتراف كامل أمام ديوان التفتيش. وقد تمّ الاحتفاظ باثنين وعشرين اعترافًا، تفوق الأربعمائة صفحة، أربعة منها تذكر قصّة الكنز الغامض المهرّب».

بدأت ليلى برفع زجاجتها لتشرب لكنّها خفضتها مجدّدًا لتدوين ملاحظة عمّا قاله توبينغ: «وفي كانون الأوّل الماضي، عثرتُ على ما بدا جزءًا من شهادة الشاهد الثالث والعشرين. ورد فيها ذكر لكنز الكاثار ولكن مع بعض التفاصيل الإضافيّة».

بدا في غاية الاسترخاء وهو يقول ذلك، مستلقيًا على كرسيّه وزجاجة العصير تتدلّى من يده. مع ذلك شعرت ليلى بأنّه لم يكن أقلّ حماسة منها للقصّة من خلال بريق عينيه والتسارع الذي لمسته في سرده.

تابع قائلاً: «كان قد تمّ وضع الشهادة عن طريق الخطأ في سجلّ يحتوي على وثائق أحدث عهدًا. وكانت تسجّل استجواب شخص يدعى بيرينغير دوسا ظلّ على قيد الحياة بعد حصار مونسيغور وذلك من قبل محقّق يدعى غيوم لوبوتي – ويليام الصغير، أو الصغير ويلي كما أحبّ أن أدعوه. وفيها يذكر بيرينغير هذا كيف أنّه في فترة الميلاد عام 1243، أي قبل سقوط مونسيغور بثلاثة أشهر بين أيدي الجيش الكاثوليكي، تمكّن أربعة من قادة الكاثار» – راجع ملاحظاته – «أميل إيكار، بيتالي رولان، بيار ساباتييه ورجل يدعى أوغون، من الهروب من القصر تحت جنح الظلام وهم يحملون كنزًا هامًا. ولم يكن هذا بحدّ ذاته مهمًا جدًا، فالشهادات الأربع الأخرى التي تذكر الكنز تقول الشيء نفسه. ولكن ما يقوله لاحقًا مذهل فعلاً. فحين أصرّ المحقّق ويليام على مزيد من المعلومات عن هذا الكنز الغامض، قال بيرينغير» – نظر إلى ملاحظاته مجدّدًا – «Credo id Castelombrium unde venerit relatum esse et ibi sepultum esse ne quis invenire posset ومعناها: أعتقد أنّه أعيد إلى كاستيلومبر، حيث وجد، ودفن فيه في مكان لا يمكن لأحد إيجاده».

فتحت ليلى فمها ذاهلة: «إذًا هما واحد؟ كنز مونسيغور وسرّ كاستيلومبر!»

تناول توبينغ جرعة من عصيره وقال: «لا بدّ من الإقرار أنّها شهادة واحدة غير مؤيّدة في أي مراجع أخرى. من الممكن جدًّا أن تكون تلك محاولة من بيرينغير لإرباك المحقّقين وإعطائهم معلومات مزيّفة. إلاّ أنّها تبقى إشارة محيّرة ولا تثير العجب فعلاً، فكاستيلومبر يقع على مسافة تقلّ عن عشرة كيلومترات من مونسيغور، ومن الممكن أن يكون قد تمّ نوع من التبادل بين القصرين. كما أنّ الكاثار معروفون بعلاقتهم باليهود ومن الممكن بالتالي الافتراض أنّ المدافعين عن مونسيغور قد أمّنوا ملجأً للسرّ أو الكنز المحفوظ في كاستيلومبر ضدّ الغزاة الكاثوليك المعادين للساميّة. أمّا إن كان غزاة كاستيلومبر يدينون بعقيدة الكاثار...» هزّ كتفيه وتابع: «أشكّ في أن نعرف، مع أنّه نظرًا إلى تورّطهم مع اليهود وكون القصر قد دمّر من قبل الصليبيين فإنّ هذا ممكن. المهم أنّه ثمّة أساس متين للاعتقاد أنّ اللغزين اللذين كانا يبدوان منفصلين تمامًا هما في الواقع واحد».

لم تكن ليلى قد شربت شيئًا من عصيرها بعد، فرفعت الزجاجة وتناولت منها جرعة صغيرة محاولةً استيعاب ما سمعته وربطه بما تعرفه: يعثر ويليام دو رولينكور على شيء ما تحت كنيسة القيامة؛ يرسله إلى شقيقته إسكلارموند في كاستيلومبر؛ يصبح قصر كاستيلومبر مركزًا لعبادة يهوديّة غامضة؛ يُنقَل الشيء ليُحفظ في مونسيغور خلال الحملة الصليبيّة على الكاثار؛ حين يسقط مونسيغور يُعاد إلى كاستيلومبر ويُدفن هناك. بدا كلّ شيء مترابطًا ولكنّه على الرغم من ذلك لم يدفعها قُدمًا. ما زال ثمّة الكثير ممّا لا تعرفه، الكثير من الأسئلة. ما كان هذا الشيء الغامض؟ ما أهميّته لدى اليهود؟ ما علاقته بالملثّم؟ ماذا حلّ به؟ تناولت جرعة أخرى ثمّ رفعت قدمها اليسرى ووضعتها تحت ركبتها اليمنى وسألت: «تقول في تقريرك شيئًا عن علماء الآثار النازيين. ما دخلهم في هذا الموضوع؟»

ابتسم توبينغ قائلاً: «كنت أتساءل متى ستسألين عن ذلك. في الواقع إنّه الجزء الأكثر غرابة في القصّة كلّها».

نهض متوجهًا نحو النافذة وراح يحدّق إلى الباحة في الأسفل. كان الصمت يعمّ المكان باستثناء بعض الأنغام الموسيقيّة المتصاعدة من غرفة مجاورة.

قال بعد صمت قصير: «إنّ مخطوطات ديوان التفتيش هي موضوع دراسة غامض جدًّا ولا يثير اهتمام الكثيرين. فبعض السجلاّت الموجودة في المكتبة الوطنيّة لم تُفتح منذ سنوات، لا بل عقود. وقد وقعت على سجلّ لم يُفتح منذ أواسط القرن التاسع عشر».

راحت تربّت بالقلم على ركبتها متسائلةً إلى أين يريد الوصول.

تابع مديرًا ظهره لها: «استنادًا إلى سجلاّت المكتبة، فإنّ آخر مرّة تمّ فيها فحص السجلّ الذي عثرت فيه على شهادة بيرينغير دو سا كانت في بداية أيلول 1943، خلال الاحتلال الألماني لباريس، حين تفحصه عالم نازي يدعى ديتر هوث».

أيقظ الاسم في ذهن ليلى ذكرى بعيدة ولكنّها عجزت عن تمييزها بسبب كثرة المعلومات التي جمعتها في هذه الفترة.

«تابع».

«حسنًا، اعتقدت في البداية أنّ هوث هذا، الذي لم يسبق لي أن سمعت عنه على الرغم من ضيق هذا الميدان، قد فوّت مخطوطة بيرينغير لأنّه لم ينشر شيئًا عنه. على كل حال، ولمجرّد الفضول، سألت عنه صديقًا لي في تولوز، مختصًا نازيًّا، واحزري ماذا قال؟ بعد أقلّ من أسبوع من اطّلاع ديتر هوث على السجلّ، توجّه إلى لانغدوك ومكث في قرية كاستيلومبر الحديثة، ترافقه هذه المرّة وحدة من جنود العاصفة النازيين. وماذا كانوا يفعلون هناك برأيكِ؟»

هزّت ليلى رأسها بينما أخذ توبينغ جرعة من عصيره واتكأ على حاجب النافذة مبتسمًا.

«ينقّبون».

شهقت قائلةً: «هل أنت جاد؟»

«هذا ما قيل لي».

«وهل عثروا على شيء؟».

ابتسم مجددًا وقال: «هذا ما يبدو، مع أنّني لا أعرف على ماذا عثروا بالضبط. فكما سبق وقلت، لا يقع علماء الآثار النازيون ضمن مجال اختصاصي».

حدّق إليها ثمّ ابتعد عن النافذة، وتوجّه إلى المطبخ، وراح يبحث في إحدى الخزائن. جلست ليلى وارتشفت عصيرها وهي تفكر. لديها الكثير لتتبّعه هنا.

سألت بعد قليل: «من هو صديقك، هذا الذي يقيم في تولوز».

«لا أعتبره صديقًا بل مجرّد أحد المعارف. التقيته منذ عامين في جامعة تولوز. فهو يدير متجرًا للأثريّات قرب سان سيرنين. إنّه رجل غريب، ولكنّه يعرف كلّ شيء عن النازيين. اسمه جان ميشال دوبون».

بدا أنّ هذا الاسم أيضًا يوقظ ذكرى عميقة في رأس ليلى. أغلقت عينيها وراحت تحاول تذكّره. ديتر هوث، جان ميشال دوبون. ديتر هوث، جان ميشال دوبون. من أين تعرف هذين الشخصين؟

فجأة تذكرت. بالطبع! قرأتهما على شبكة الإنترنت في تلك الليلة، في مقال عن

علمـاء الآثـار النازييـن الذي يحتوي على ملاحظة هامشـيّة تضـمّ الحرفين د.ه. فتحت عينيها فجأةً وأخذت تتصفح ملاحظاتها ثمّ أخرجت صورةً عن المقال:

13 تشرين الثاني 1938

جمعيّـة ثـول. العشـاء، فيفيلسـبورغ. المعنويات عالية بعد أحـداث 10-9، وكان و.ف.س. يُطلـق التعليقـات السـاخرة عـن «تبديد آمال اليهود». قال د.ه. أنّها سـتكون أكثـر مـن مبـدّدة إن نجح موضـوع رولينكور، تلت ذلك مناقشـة طويلة عن الكاثار... الطيور، الشراب. اعتذارات من ف.ك. وو.ج.

همسـت ليلى: «يا إلهي، لقد عرف. دو رولينكور، كاسـتيلومبر، مونسـيغور. لقد ربط بينها».

سأل توبينغ: «ما كان ذلك؟».

تجاهلت السؤال.

«ماذا حلّ بديتر هوث هذا؟».

عاد توبينغ إلى الغرفة وهو يقضم تفاحةً.

«توفي على ما يبدو في نهاية الحرب بقذيفة روسـيّة. هذا أقلّ ما يسـتحقّ على كل حال».

تناول قضمة أخرى من تفاحته ثمّ اتكأ على باب المطبخ.

«ألا ترغبين بتناول شيء؟ أعرف مطعمًا يونانيًّا صغيرًا في شارع ترومبينغتون».

نظرت إليه قائلةً: «هل تحاول التودّد إليّ، بروفيسور توبينغ؟»

ابتسم مجيبًا: «بالتأكيد».

القدس

لفّ هار-زيون التيفيلا الجلديّة حول ذراعه اليسرى بعكس عقارب الساعة وصولاً إلى أصابعه المغطاة بالقفّاز، بحيث ثبّت العلبة التي تحتوي على النصوص المقدّسـة قرب قلبه بالضبط. أمّا ذراعه ويده اليمنى فبقيتا عاريتين - هكذا توصي التوراة. غير أنّه لم يشـعر بالراحة لفكرة كشـف بشـرته المشـوّهة، فحصل على إذن حاخامي بإبقاء تلك الأجزاء من جسده مكسوّةً.

علّق التيفيلا الثانية على جبينه، مثبّتًا العلبة بين عينيه، ثمّ أشار لآفي برأسه لكي ينتظره ووضع وشـاح الصلاة حول كتفيه قبل أن يبدأ بالسـير عبر الطريق المضاء نحو

الهاكوتيل ها-معرافي، الحائط الغربي، آخر آثار الهيكل القديم وأكثر الأماكن قداسة في العالم اليهودي.

كان قد مرّ عليه أكثر من أسبوع منذ أن أتى آخر مرّة. فقد كان يحبّ المجيء أكثر، كلّ يوم لو أمكن، ولكنّ التزاماته الباقية لا تسمح له بذلك. غير أنّه خصّص وقتًا لذلك الليلة، فبعض الأمور لا يمكن لشخص آخر القيام بها عنه.

اقترب من الجدار ووقف عند طرفه الأيسر ثمّ أخذ يحدّق إلى أحجاره الضخمة التي ترتفع نحو عشرين مترًا. كانت كلّ شقّ وزاوية بين أحجاره المنخفضة محشوّة بأوراق مطويّة كتبت عليها صلوات وأدعية الزوّار السابقين. في النهار، يزدحم المكان بالسيّاح الذين يرتدون اليرمولك واليهود الحريديين بأثوابهم وقبّعاتهم السوداء والصبيان الذين يؤدون مراسيم البار ميتزفا. أمّا الآن، فباستثناء حسيدي وحيد واقف إلى يمينه وهو يميل إلى الأمام والخلف، كان الجدار خاليًا تمامًا. ألقى نظرة سريعةً حوله ثمّ وضع كفّه على الحجر وخفض رأسه وبدأ يتلو الشيما.

«وكأنّها قصّة تتحوّل إلى واقع». هكذا وصف شقيقه بينجامين الحائط حين زاراه للمرّة الأولى. «وكأنّه خرج من كتاب أو أغنية». ظلّت الصورة مع هار-زيون وأخذت تزداد اتّساعًا وجمالاً مع الوقت بحيث أصبح يشعر الآن أنّه لا يقف أمام شيء بلا حياة من عالم منسي، بل أمام شيء حيّ وواقعي. كان يعتبره صوتًا، صوتًا عميقًا وقويًّا يغني له من الفراغ: ليس عن أشياء من الماضي وحسب - ملوك وأنبياء، التابوت والمينورا، موسى وداوود وسليمان وعزرا - بل، والأهم من ذلك، عن أشياء مستقبليّة: اجتماع شمل شعب الله المختار مجددًا، إعادة بناء الهيكل، إعادة صبّ المصباح المقدّس وملؤه بالنور. يسمّيه بعضهم حائط المبكى، أولئك الذين يأتون لكي ينتحبوا ويشدّوا شعرهم ويتحسّروا على قرون من النفي والضياع. ولكنّ الحائط لم يكن كذلك بالنسبة إلى هار-زيون بل كان حائط المغنى، لم يكن مكانًا للألم والتذكر بل للأمل والفرح والانتظار، شيئًا محسوسًا يذكّره بأنّ الله معهم وأنّهم ليسوا متروكين وبأنّهم شعبه المختار الذي فضّله على جميع الشعوب الأخرى. عليهم المعاناة، كما عانى الحائط، مهما أساء البشر أو الطبيعة معاملتهم.

تابع تلاوة صلاته التي خرجت كلماتها مع الهمهمة الموسيقيّة الناعمة لصوته قبل أن ينتهي ويحلّ الصمت. بعد قليل، وقف بقربه شخص طويل عريض المنكبين في الظلّ، عند أقصى الطرف الأيسر للجدار بحيث غرق وجهه في الظلام. كان الحسيدي قد رحل ولم يبقَ غيرهما.

قال هار-زيون بصوت منخفض ومسموع بالكاد: «تأخرت».

أخفى الرجل نفسه أكثر في الظلام وهو يتمتم باعتذار.

وضع هار-زيون يده في جيبه وأخرج ورقةً صغيرةً مطويّة دسّها في فجوة بين حجرين.

«جميع التفاصيل هنا. اسم الشاب والعنوان. اتبع التعليمات، و-»

سُمع صوت أقدام تقترب وأتى جندي شاب ليقف أمام الجدار على بعد بضعة أمتار إلى يمينهما. أشار هار-زيون بإصبعه إلى رفيقه ليعلمه أنّ المحادثة قد انتهت، ثمّ انحنى، وقبّل الجدار قبل أن يستدير من دون أن ينظر وراءه ويعود أدراجه نحو مرافقه آفي.

بعد خمس دقائق، وكان الجندي الشاب قد أنهى صلاته وابتعد، مدّ الرجل يده وسحب الورقة المطويّة من الشقّ ثمّ دسّها في جيب سرواله.

كامبريدج

نهضت ليلى عند الساعة الخامسة صباحًا. تركت توبينغ نائمًا وقامت بجمع أشيائها ثمّ خرجت من غرفة النوم على رؤوس أصابعها وغادرت المنزل.

لم تكن واثقة من السبب الذي دفعها إلى النوم معه. كان رفيقًا جيّدًا - ذكيًّا، ساحرًا، لبقًا - كما أنّها أمضت معه ليلة رائعة. على الرغم من ذلك، لم تشعر أبدًا أنّها منغمسة فعلاً في تلك التجربة، بل تركت نفسها تسترخي وتختفي بين ذراعيه. كانت تشعر بأنّ الجزء الأكبر منها ظلّ منفصلاً ومستغرقًا في أفكارها يحاول تقليب ما سمعته، ما كان يحدث في الشرق الأوسط، وكأنّ جسدها كان عربة مبرمجة لتسير آليًّا، فيما جلست هي، الربّان، في الداخل تركّز على أمر مختلف تمامًا.

أغلقت باب المنزل وخرجت إلى الشارع الخالي الذي امتدّت على جانبيه صفوف المنازل الفيكتوريّة من كلا الجانبين. كان العالم حولها رماديًا وساكنًا، إذ إنّ الصباح لم يكن قد طلع بعد، بل يتراوح الوقت بين الليل والنهار.

كانت قد اتصلت مساء أمس بجان ميشال دوبون، أحد معارف توبينغ في تولوز، وشرحت له أنّها مهتمّة بديتر هوث وأعمال التنقيب التي قام بها في كاستيلومبر. فاتّفقا على اللقاء في متجر الأثريات الذي يملكه عند الساعة الواحدة والنصف ظهرًا، وحجزت مكانًا في رحلة العاشرة صباحًا من هيثرو. خطر لها أنّ لديها من الوقت ما يتيح لها السير إلى غرانتشستر وإلقاء نظرة على المنزل القديم الذي عاشت فيه بعد وفاة والدها. فعلى الرغم من وفاة جدّيها منذ وقت طويل، إلاّ أنّ أمّها ما زالت تعيش فيه على حدّ علمها مع زوجها الثاني. كان محاميًا، أو ربّما مصرفيًّا؟ لا تذكر. فهي

لم تتحدّث إليها منذ زواجها الثاني منذ ستّ سنوات خلَت. لم تتمكّن من مسامحتها على ما اعتبرته خيانة رهيبة لذكرى والدها.

أجل، سيكون من الجميل رؤية المنزل القديم مجددًا، بسطحه المكسوّ بالعشب وحديقته المليئة بأشجار الخوخ والتفّاح، البعيد كلّ البعد عن غبار وهول فلسطين. وقد بدأت فعلاً بعبور الشارع الذي يمرّ حسبما تذكر عبر المروج التي تمتدّ حول الجانب الشرقي للبلدة. غير أنّها توقّفت بعد بضعة أمتار، وهزّت رأسها وكأنّها تقول «ما الجدوى؟»، ثمّ استدارت عائدة في الاتجاه المعاكس نحو المحطّة وقد فاضت عيناها بدموع الألم وهي تفكّر في مدى وحدتها في هذا العالم.

مصر- بين الأقصر والقاهرة

تناول خليفة رشفة من فنجان القهوة البلاستيكي وقضم قطعة من البسكويت ثمّ ألقى نظرة من نافذة الطائرة إلى العالم المصغّر الممتدّ تحته. كان منظرًا رائعًا - النيل، الأراضي الزراعيّة، والمساحة الصفراء التي تكوّن الصحراء الغربيّة - وفي ظروف أخرى لكان أمضى الرحلة بأكملها وهو يحدّق إليه مذهولاً. فتلك هي المرّة الثانية في حياته التي يركب فيها الطائرة، وبالطبع ما من طريقة لتقدير تلك المعجزة الطبيعيّة لمصر، هذا التجاور العجيب للحياة والعدم - كيميت وداشفيت كما سمّاها القدماء، الأرض السوداء والأرض الحمراء - أفضل من تأمّلها من الأعلى بهذا الشكل، وكأنّها خريطة مفتوحة أمامه.

غير أنّ ذهنه كان هذا الصباح مشغولاً بأمور أخرى، وبعد أن حدّق من النافذة لبعض الوقت أشاح بنظره من جديد لينهي قهوته ويعيد التركيز على العمل الذي بين يديه.

كان يريد السفر إلى القاهرة عصر اليوم السابق مباشرةً بعد حديثه مع بن-روي. ولكنّ الإجراءات البيروقراطيّة التي اضطر إلى اتباعها فوّتت عليه الرحلة الأخيرة إلى العاصمة. بالمقابل، وجد الوقت للقيام ببعض الأبحاث عن السيّد والسيّدة غراتز الغامضين وحصل على نتائج في غاية الأهميّة.

أوّلاً، تبيّن أنّ أنطون غراتز كان يدير شركة صغيرة لاستيراد الفاكهة والخضار. واستنادًا إلى بن-روي فإنّ غاد أو غيتز الذي أمر بتدمير شقّة حنّا شليغل في القدس كان يعمل هو أيضًا في تجارة الفاكهة. وكان خليفة يشكّ أنّ غيتز وغراتز هما واحد ولكنّ هذه المعلومة أكّدت ذلك.

كما اكتشف أيضًا نقاط شبه بين تاريخ الزوجين غراتز وصديقهما بيت جانسن.

فالزوجـان أجنبيّـان وقـد تقدّمـا هما أيضًا بطلب للجنسـيّة المصريّـة وحصلا عليها في تشرين الأوّل 1945. وشأنهما شأن جانسن، لا تتوفّر معلومات عنهما قبل هذا التاريخ. من أين أتيا أساسًا، متى وكيف، هل غراتز هي شهرتهما الحقيقية؛ جميعها أسئلة بقيت بلا إجابة. وكلّما بحث أكثر، تضاعف شعوره أنّ لديهما ما يخفيانه، مثل جانسن. وكلّما تعمّق في البحث، تضاعف شعوره أنّ الثلاثة كانوا يحاولون إخفاء الشيء نفسه.

ولكـنّ المعلومـة الأهـم التـي توصل إليهـا كانت تتعلّق بطلب الجنسـيّة الأصلي الذي تقدّم به كلّ من السـيّد والسـيّدة غراتز. ذلك أنّ تلك الأوراق ضاعت أو أتلفت ولـم يبقَ منها، اسـتنادًا إلى أحد معارف خليفة في وزارة الداخليّة، سـوى ملف إداري أساسـي يحتـوي علـى الإيصـال والموافقـة التي أتت لاحقًا علـى الطلبين. أمّا موظف الأمن المسؤول عن تلك الموافقة فلم يكن سوى فاروق الحكيم، الرجل الذي عمل بعد أربعة عقود ونصف على منع التحقيق مع جانسن في قضيّة مقتل شليغل. وكشف مزيد من البحث أنّ الحكيم عمل أيضًا على طلب الجنسيّة المتعلّق بجانسن، وهكذا وجـد للمـرّة الأولـى علاقـة واضحة بيـن الرجلين. والأهم أنّه مهما يكـن ما تورّط به جانسـن وآل غراتـز قبـل عـام 1945، ومهما يكـن ما كانوا يحاولون إخفاءه بيأس، فإنّ الحكيم عرف بأمره على الأرجح. ولكنّ هذا لا يشرح سبب سعيه إلى حماية جانسن عام 1990 لا بل يضاعف قناعة خليفة أنّ مفتاح جريمة شـليغل والتغطية لاحقًا على مرتكبها، ومفتاح كلّ ما قضّ مضجعه خلال الأسبوعين الفائتين كلها موجودة في تلك السنوات التي سبقت وصول جانسن إلى مصر.

والشـخصان الوحيـدان اللـذان يسـتطيعان الآن إلقـاء بعـض الضـوء علـى تلـك السنوات هما من كان في طريقه لرؤيتهما.

حيـن بـدأت الطائـرة هبوطهـا في مطـار القاهرة، وبدأت آثار سـقارة تبدو وكأنّها تحـت الميـاه العميقـة الصافيـة، أغلق خليفـة عينيه ودعا ألاّ تضيع رحلته سـدىً، وأن يعود إلى الأقصر تلك الليلة بفكرة واضحة عن هذا الموضوع.

كان الزوجان غراتز يعيشان في المعادي إحدى ضواحي القاهرة الواقعة جنوب المدينـة. كان حيًّـا هادئًا ومشـجّرًا يفضّله الدبلوماسـيّون والمغتربـون ورجال الأعمال الأثرياء، ذلك أنّ فيلله الفخمة وشـوارعه الواسـعة التي تظلّلها أشـجار الأوكاليبتوس كانت بعيدة عن الفقر الذي ساد معظم أحياء العاصمة المصريّة.

وصـل خليفـة بعـد الظهيـرة بعد أن اسـتقلّ المترو من وسـط المدينة. سـأل بائعَ فستق قرب المحطة عن شارع عرابي وبعد عشر دقائق كان يقف خارج المبنى الذي

يضمّ شقّة آل غراتز، وهو مبنى كبير وردي اللون بدت على جدرانه الخارجيّة وحدات التكييف. كان مزوّدًا بموقف للسيّارات تحت الأرض وبدا أمامه الهاتف العمومي الذي ظهر رقمه تكرارًا في فاتورة هاتف بيت جانسن.

وقف لبعض الوقت على الدرجات الأماميّة وقد أحزنه أنّه مهما كدّ وتعب، لن يتمكن أبدًا من العيش في مكان كهذا. ثمّ أطفأ سيجارته قبل انتهائها وعبر الباب الزجاجي ليستقلّ المصعد إلى الطابق الثالث. كانت شقّة آل غراتز تقع في منتصف ممرّ ساطع الإضاءة، وكان بابها الخشبي مزوّدًا بمقرعة نحاسيّة ثُبّت تحتها غطاء نحاسي لفتحة الرسائل.

توقف الضابط للحظة وهو يفكر في أنّ ما سيحدث إمّا سيُنجح التحقيق أو يفشله، ثمّ أخذ نفسًا عميقًا ومدّ يده لقرع الباب. ولكن قبل أن تلامس أصابعه المقرعة، خطرت له فكرة أخرى، فانحنى وقام بدفع غطاء فتحة البريد بلطف. رأى من خلال الفتحة المستطيلة ممرًّا معتمًا مكسوًّا بسجادة، مرتبًا ونظيفًا، توزّعت أبواب إلى جانبيه. من أحدها - وهو مطبخ على الأرجح نظرًا إلى قرقعة الصحون وزاوية البرّاد التي بدت من الممرّ - تناهى إليه صوت موسيقى وصوت أخفّ لشخص يتنقّل في الداخل. قرّب أذنه اليمنى من مكان الصندوق للتأكّد من أنّه لا يتخيّل الأمور ثمّ استقام بعد أن تأكّد بأنّه سمع حركة بالفعل وأمسك بالمقرعة وقرع الباب ثلاث مرّات.

عدّ للعشرة وحين لم تأتِه الإجابة كرّر الطرق أربع مرّات هذه المرّة. لم يجب أحد. رفع الغطاء مجدّدًا وهو يفكر أنّ أيًّا يكن الشخص الموجود في المطبخ فربّما كان متقدّمًا في السنّ أو عاجزًا ويحتاج إلى الوقت للوصول إلى الباب، ولكنّ الممرّ كان خاليًا.

نادى قائلاً: «مرحبًا! هل من أحد هنا؟ مرحبًا!»

لا شيء.

«سيّد غراتز! أنا الضابط يوسف خليفة من شرطة الأقصر. كنت أحاول الاتّصال بك خلال الأيام الثلاثة الماضية. أعلم أنّك في الداخل، افتح الباب رجاءً».

انتظر بضع ثوان ثمّ أضاف: «إن لم تفعل سأفترض أنّك تعيق تحقيق الشرطة عمدًا وأكون مضطرًا إلى اعتقالك».

كان يكذب ولكن بدا أنّه حصل على التأثير المطلوب. سمع شهقة خفيفة صادرة من المطبخ، ثمّ راحت امرأة عجوز بدينة وقصيرة تتقدّم ببطء وتردّد، افترض بأنّها السيّدة غراتز. مشت بضع خطوات في الممرّ وهي تتكئ على عصًا معدنيّة، وتحدّق برعب إلى فتحة البريد.

قالت بصوت ضعيف ومرتجف: «ماذا تريد منّا؟ ماذا فعلنا؟»

من الواضح أنّها لم تكن على ما يرام، فقد كانت ساقاها مضمّدتين وبشرة وجهها مشقّقة ورماديّة وكأنّها خزف جاف. شعر خليفة بالذنب للإزعاج الذي سبّبه لها.

قال وهو يتحدّث إليها بلطف بقدر ما سمح له الظرف: «ما من داعٍ للخوف، لن أؤذيكِ. لا أرغب سوى بطرح بعض الأسئلة عليك وعلى زوجك».

هزّت رأسها وسقطت خصلة من الشعر الأبيض وراحت تتمايل فوق وجهها.

«زوجي ليس هنا. لقد... خرج».

«إذًا هل لي بالتحدّث إليك، سيّدة غراتز، عن صديقكما بيت-»

صرخت متراجعة وهي ترفع عصاها وكأنّها تصدّ هجومًا: «لا! لم نفعل شيئًا، قلت لك لم نفعل شيئًا! نحن نحترم القانون وندفع الضرائب ماذا تريد منّا؟»

«كما قلت سيّدة غراتز أريد طرح بعض الأسئلة عن بيت جانسن، فاروق الحكيم-»

بدا أنّ خوفها تضاعف لدى ذكر هذا الاسم فراح جسدها يرتجف وكأنّ يدين غير مرئيّتين أمسكتا بكتفيها الضعيفتين وراحتا تهزّانها بعنف.

صرخت: «نحن لا نعرف شخصًا يدعى الحكيم! لا علاقة لنا به. لمَ لا تتركنا وشأننا؟ لماذا تفعل بنا هذا؟».

«فقط لو تسمحين لي-»

«كلاّ! لن أدعك تدخل في غياب زوجي. كلاّ! كلاّ!»

بدأت تتراجع وكانت تمسك العصا بيد وتتكئ باليد الأخرى على الجدار.

قال خليفة وقد انحنى الآن على ركبتيه واعيًا لسخافة إجراء حديث بهذا الشكل ولكن لم يكن لديه خيار آخر: «أرجوكِ سيّدة غراتز، أنا لا أسعى إلى إخافتك أو إيذائك ولكن أعتقد أنّك تملكين أنت وزوجك معلومات هامة تتعلّق بمقتل امرأة إسرائيليّة تدعى حنّا شليغل».

إن كان ذكر اسم الحكيم قد أثار ردّ فعل قوي لديها، فإنّه لم يكن شيئًا مقارنةً بنظرة الرعب التي اجتاحت الآن على وجهها. فقد استندت إلى الجدار ووضعت إحدى يديها على حنجرتها وكأنّها تناضل للتنفّس فيما راحت يدها الأخرى تطبق على قبضة العصا وتفلتها.

قالت بصعوبة: «لا نعلم شيئًا. أرجوك، نحن لا نعلم شيئًا».

«سيّدة غراتز-»

«لن أتحدّث إليك! ليس في غياب زوجي. لا يمكنك إجباري! لا يمكنك!»

بدأت تشهق وراح جسدها يهتزّ بتقلّصات عنيفة فيما سالت دموع من عينيها. بقي خليفة في مكانه ثمّ تنهّد، وخفض غطاء الصندوق قبل أن يقف ويحرّك ساقيه المتصلّبتين.

لم يكن هنالك من جدوى من الضغط عليها أكثر، فقد بدت منزعجة جدًّا. فمهما كانت تعرف عن حنّا شليغل - ومن الواضح أنّها كانت تعرف شيئًا بالتأكيد - لن تخبره به في وضعها الحالي. كان غيره ليركل الباب ويعتقلها ولكنّ خليفة لا يتصرّف بهذا الشكل. أشعل سيجارةً ثمّ انحنى مجدّدًا وفتح الغطاء. كانت العجوز لا تزال كما تركها.

«متى يعود زوجك سيّدة غراتز؟»

لم تجب.

«سيّدة غراتز؟»

تمتمت بشيء غير مفهوم.

«عفوًا؟»

«الساعة الخامسة».

نظر إلى ساعته، أي بعد أربع ساعات ونصف.

«هل سيكون هنا حينها؟»

هزّت رأسها بضعف.

قال بعد صمت قصير: «حسنًا، سوف أعود. أرجو أن تخبري زوجك بانتظاري».

أراد أن يضيف: «ولا أريد خدعًا»، ولكنّه لم يستطع أن يتخيّل ما الخدع التي قد يقومان بها، فسكت وأغلق الغطاء قبل أن ينهض ويعود أدراجه نحو المصعد. ولكن في منتصف الطريق سمع صوتًا ضعيفًا ويائسًا.

«لماذا تلاحقنا هكذا؟ إنّهم أعداؤك أنت أيضًا. لماذا تساعدهم؟ لماذا؟ لماذا؟».

أبطأ الخطى، وفكّر في العودة لسؤالها عمّا تعنيه ولكنه غيّر رأيه وتابع طريقه نحو المصعد، وضغط زرّ الطابق الأرضي. لم تجرِ الرياح كما اشتهى.

بعد أن رحل لازمت العجوز مكانها لوقت طويل ثمّ سارت ببطء في الممرّ نحو

غرفة المعيشة الواقعة في آخر الشقّة. كان ثمّة رجل قصير ذو شاربين قصيرين ووجه مجعّدًا وكأنّه قطعة فاكهة جافة ينتظر خلف الباب، كانت يداه متصلّبتين إلى جانبيه وكأنّه يقف في صفّ من الجنود. سارت نحوه ففتح ذراعيه واحتضنها بحنان.

قال بلطف وهو يتحدّث بالألمانيّة: «لا بأس عزيزتي، لا بأس. لقد فعلت ما في وسعك».

ضغطت خدّها على صدره وهي ترتجف وكأنّها طفل خائف وهمست: «إنّهم يعرفون، يعرفون كلّ شيء».

«أجل، هذا ما يبدو».

احتضنها بقوّة وهو يربّت على ظهرها ويحاول تهدئتها ثمّ أبعدها عنه وأعاد خصلة الشعر المتدليّة فوق وجهها إلى الكعكة التي تعلو رأسها.

قال بلطف: «لطالما عرفنا أنّ هذا اليوم سيأتي. كان من الخطأ الاعتقاد غير ذلك ولكنّنا أحسنّا فعلاً، هذا هو المهم. ألم نفعل؟»

وافقته بهزّة ضعيفة من رأسها.

«تلك هي فتاتي. تلك هي فتاتي الجميلة إنغا».

بحث في جيبه وأخرج منديلاً ليمسح الدموع عن عينيها وأعلى خدّيها.

«والآن، لمَ لا تذهبين وترتدين ثوبك بينما أرتّب الأمور هنا؟ لا جدوى من التأخّر، أليس كذلك؟ علينا أن نكون جاهزين حين يعودون».

تولوز، فرنسا

كان متجر جان ميشال دوبون للأثريّات يقع في شارع هادئ وسط تولوز، على بعد بضعة مئات من الأمتار عن بازيليك سان سيرنين الرائعة بقرميدها الأحمر والتي يبدو برجها من فوق أسطح المنازل وكأنّه منارة ترتفع فوق بحر من الأمواج البرتقاليّة.

كما تمّ الاتفاق، وصلت ليلى عند الواحدة والنصف ظهرًا. وبعد أن توقفت للحظة تتأمّل فيها واجهة المتجر المليئة بالتحف واللافتة الباهتة التي كُتب عليها: LA PETITE MAISON DES CURIOSITÉS، فتحت الباب الزجاجي ودخلت فرنّ جرس فوق رأسها بقوّة.

كانت تفوح في الداخل رائحة مواد الصقل والسيجار وكان المكان يغصّ بكلّ شيء، من الأثاث إلى الكتب، من اللوحات إلى الأواني الزجاجيّة، من الأطقم الصينيّة إلى التحف النحاسيّة، مع أنّ معظم المجموعة بدت أنّها ذات طبيعة عسكريّة. ثمّة

تماثيل لعرض الملابس أُلبست بذلات مطرّزة، ورفوف صفّت عليها القبعات والخوذ، بينما علّق على أحد الجدران دبّ محشو ولوح من نافذة زجاجيّة مصبوغة، فضلاً عن خزانة طويلة مليئة بمجموعة من الحربات والمسدّسات.

سألها أحدهم بالفرنسيّة: «هل ترغبين بشيء معيّن؟»

نظرت لترى رجلاً بدينًا يقف في آخر المتجر، يرتدي سروالاً مخمليًّا مضلّعًا وسترة فضفاضة تقليديّة، وكان الشيب قد خطّ شعره المتدلّي حتّى كتفيه ولحيته القصيرة. تدلّت من عنقه نظارة نصفيّة معلّقة بسلسلة ذهبيّة فيما أمسك سيجارًا مشتعلاً بين إصبعي يده اليمنى التي لطّخها النيكوتين. بدا بفكّه الثقيل وتعابيره الحزينة أشبه بكلب بوليسي ضخم.

«سيّد دوبون؟»

«نعم».

عرّفته ليلى بنفسها وهي تتحدّث بالفرنسيّة، فهزّ رأسه ووضع السيجار في زاوية فمه ثمّ تقدّم وصافحها قبل أن يصطحبها إلى الطابق الأوّل عبر سلّم خشبي ضيّق. وقف هناك للحظة، وأدخل رأسه عبر ستارة من الخرز ثمّ تكلّم مع شخص ما في الغرفة المجاورة – شرح لها قائلاً: «إنّها والدتي سوف تهتمّ بالمتجر بينما نتحدّث» – ثمّ تابع إلى الطابق الثاني ليفتح بابًا خشبيًّا ثقيلاً ويدخلها إلى المكتب الكبير الذي احتلّ الطابق الأعلى بأكمله. كانت رفوف الكتب تحتلّ جدارين، بينما وُضع أمام الجدار الثالث مكتب طويل وفوقه معدّات للحاسوب.

أمّا الجدار الرابع، الأبعد عنها، فكانت تحتلّه خزانة عرض ذات واجهة زجاجيّة كبيرة شبيهة بتلك التي رأتها في الأسفل.

سألها إن كانت ترغب بفنجان من القهوة وحين وافقت توجه نحو المكتب وانشغل بغلاّية كهربائيّة. وقفت ليلى عند الباب ثمّ بدأت تتجوّل في الغرفة بفضول، فتأمّلت رفوف الكتب أوّلاً – مزيج من كتيّبات تجّار الأثريّات وكتب عن تاريخ الرايخ الثالث – ثمّ انتقلت إلى الخزانة الزجاجيّة. في البداية، بدت أنّها تحتوي على مجموعة من الأغراض العسكريّة كتلك المعروضة في الأسفل، ثمّ أدركت بعد قليل برعشة خفيفة، أنّها تحتوي على مجموعة من الأدوات العسكريّة النازيّة – ميداليّات، حربات، صور. كان أحد الرفوف يعرض صفًّا من الصلبان الحديديّة مع شرائط حمراء، بيضاء، وسوداء، أمّا الرفّ الآخر فصفّت عليه خناجر حُفر على قبضتها الحرفان SS وعلى النصل، الجملة MEIN EHRE HEISST TREUE.

شرح دوبون من خلفها وهو يعطيها فنجان القهوة: «خناجر شرف. شرفي هو الولاء».

أخذت الفنجان وهي تسأل: «هل تبيع هذه الأشياء؟».

«لا، لا. هذا غير شرعي في فرنسا. إنّها مجرّد هواية خاصة. هل تستنكرينها؟».

هزّت كتفيها قائلةً: «ليست من الأشياء التي أرغب بالاحتفاظ بها في منزلي نظرًا لدلالاتها الأخلاقيّة».

ابتسم قائلاً: «أؤكد لك أنّ اهتمامي بها جمالي بحت. فأنا لا أتعاطف مع نشاطات الرايخ الثالث أكثر مما يتعاطف، لنقل، جامع التحف الرومانيّة مع ولع تلك الحضارة بالعبوديّة والصلب. إنّها الحرفة التي تجذبني لا الأيديولوجيّة، إضافة إلى السياق التاريخي. فهي في النهاية مصنوعات حرفيّة هامة، ولو عرفت أكثر عن تاريخها لوافقتني».

هزّت كتفيها مجددًا غير مقتنعة.

«أنت لا تصدّقينني؟ تعالي، دعيني أريك شيئًا».

قادها إلى آخر الخزانة حيث ثبّتت خزنة في الجدار. حرّك الأرقام وفتحها ليُخرج منها علبة مربّعة صغيرة ملفوفة بالجلد الأسود، فتحها وعرضها عليها. في داخلها المخملي، رأت صليبًا معدنيًّا أسود تعلوه زخرفة فضيّة رائعة على شكل أوراق السنديان والسيوف المتقاطعة، وبدا أنّ هذه الأخيرة مزيّنة بأحجار ألماس صغيرة.

شرح لها قائلاً: «صليب الفارس المزخرف بأوراق السنديان والسيوف والألماس. إنّه أعلى وسام شرف عسكري في ألمانيا النازيّة. لم يتمّ تقليد سوى سبعة وعشرين وسامًا منها وهذا أحدها، وهو الوحيد الذي قُلّد لأجل دور غير قتالي. إنّ قيمته تفوق قيمة بقيّة المجموعة بأكملها، لا بل تفوق كلّ ما في هذا المبنى. وربّما أكثر من قيمة المبنى نفسه». توقف للحظة ثمّ أضاف: «وأظنّ أنّ صاحبه هو سبب مجيئك إلى هنا اليوم».

نظرت إليه بعينين مذهولتين: «ليس... ديتر هوث».

هزّ رأسه.

سألته وهي تتقدّم وتحدّق إلى الوسام: «كيف حصلت عليه بحقّ الله؟»

أجاب وهو يلوّح بسيجاره: «إنّها قصّة طويلة ومملّة ولن أُضيع وقتك عليها. كلّ ما أردته هو أن أثبت لك أنّك بعد أن عرفت السياق أصبحت منجذبةً إليها على الرغم منك. وكون هوث نفسه رجلاً كريهًا ليس بالأمر الهام. فأنت مهتمة بقصّته ولهذا انجذبت إلى الشيء المادي الذي بقي من هذه القصّة. أمّا الاعتبارات الأخلاقيّة فلا تدخل ضمن المعادلة».

حمـل العلبـة بيـده لبعض الوقت، ثـمّ أعادها إلى الخزنة، وقاد ليلى نحو المقعد الجلدي. أمّا هو فتوجّه نحو أحد رفوف الكتب ومرّر إصبعه على المجلّدات المصفوفة فوقه.

سـألها وهـو يميـل رأسـه ليتفحّص عناويـن الكتب: «إذًا، مـاذا تريدين أن تعرفي بالضبط عن صديقنا د. هوث؟».

أجـاب ليلـى وهـي تضـع فنجانهـا وتبحـث فـي حقيبتهـا: «أيّ شـيء تعرفه عمّا كان يفعلـه فـي كاسـتيلومبر. فاسـتنادًا إلـى ماغنوس توبينغ قمت بأبحـاث كثيرة حول الموضوع».

أخرجت دفترًا وقلمًا وجلست مجدّدًا.

«أرغب بأن أسـألك أيضًا عن ملاحظة هامشـيّة عن مقال كتبته لشـبكة الإنترنت يربط بين هوث ورجل يدعى ويليام دو رولينكور».

هزّ دوبون رأسه، وظلّ يتتبّع بإصبعه عناوين الكتب إلى أن سحب أحدها أخيرًا ونفـخ الغبـار عـن غلافـه. راح يتصفّحـه ثمّ ناوله لليلى بعـد أن فتحه على صفحة في الوسط تقريبًا.

قـال وهـو يشـير إلى صورة بالأسـود والأبيض: «ديتر هـوث. إنّها إحدى الصور القليلة جدًّا المتوفرة له».

رأت رجلاً وسيمًا وطويلاً يحدّق إليها، خدّاه غائران وعيناه سوداوان وأنفه طويل ومعقوف. كان يرتدي بذلة ضابط نازي، مع الحرفين على القبّة.

سألته متفاجئة: «كان هوث في وحدات النخبة النازيّة SS؟»

أجاب دوبون: «في الأنينيربي، الذي يمكن اعتباره الفرع الدماغي فيها. كان عالمًا أثريًّا في الأساس، ولامعًا من دون شكّ، ترأّس القسم المصري في الأنينيربي».

تضاعفت دهشة ليلى: «كان عالمًا في الآثار المصريّة؟».

«علـى الأرجـح، مـن الأدقّ وصفـه بعالم آثار مصري. ولكـن أجل، كانت مصر هي حقل اختصاصه».

«إذًا لماذا كان ينقّب في جنوب فرنسا؟»

انفجر دوبون بضحكة عميقة بدت أشبه بصوت صادر عن محرّك سيّارة توشك على الإقلاع.

«سؤال جيّد. غير أنّ أحدًا لم يعطِه جوابًا مرضيًا حتّى الآن».

أخذ نفسًـا أخيرًا من سـيجاره، وأطفأه في منفضة على المكتب، ثمّ جلس فوق

مقعد بلا ظهر. تناهى إليها من الأعلى هديل حمام وحلّ بينهما صمت طويل.

قال الفرنسي أخيرًا: «لكي تفهمي مهنة هوث عليك أن تدركي مدى هوَس النازيين بالتاريخ. فبالنسبة إلى هيتلر، لم يكن يكفي أن يكون الرايخ الثالث قويًا عسكريًّا. فعلى غرار جميع الأنظمة التعسفيّة، أراد النازيون أن يبرّروا سلطتهم عبر تغليفها بهالة من الشرعيّة التاريخيّة.

أخرج من جيبه علبة مسطحة صغيرة سحب منها سيجارًا آخر وأشعله.

«من البداية كان لعلم الآثار وعلماء الآثار دور حيوي في تلك العمليّة. وقد أدرك هيملر بالتحديد دلالتها. ففي عام 1935 أسّس داس أنينيربي، جمعيّة الإرث السلفي، وهو قسم خاص داخل وحدات النخبة النازيّة SS مسؤول عن إيجاد مواد تدعم فكرة التفوّق التاريخي الألماني. وأرسلت حملات إلى مختلف أنحاء العالم؛ إيران، اليونان، مصر، وحتّى التيبيت».

«للتنقيب؟».

«جزئيًا، نعم. فقد كان هيملر مصمّمًا على اكتشاف دليل أنّ الثقافة الجرمانيّة الآريّة لم تكن تنحصر في شمال أوروبا بل كانت القوّة المتحركة الأولى خلف الحضارة المعاصرة بأكملها. ولكنّ الأنينيربي سرق أيضًا، نهب بشكل غير مسبوق. فقد شحنوا آلاف لا بل عشرات آلاف التحف إلى برلين لمضاعفة أمجاد الرايخ الثالث. فالنازيون لم يكونوا مهووسين بالماضي فحسب بل بكل ما بقي منه، لأنّهم إن سيطروا على بقاياه فإنّهم يسيطرون نوعًا ما على التاريخ نفسه».

«وماذا عن هوث؟ ما دوره في كل هذا؟»

«حسنًا، كما أخبرتك، كان عالم آثار لامع. كما كان مؤيّدًا شديد الحماسة والإخلاص للحزب النازي. وكان والده الصناعي لادويغ هوث، صديقًا مقرّبًا من غوبيلز. لذا كانت مسألة وقت قبل أن يُطلب من هوث الصغير - أو ربّما تطوّع، لست أكيدًا - لكي يستغلّ مواهبه لمصلحة الآلة النازيّة. ولم يكن قد تجاوز الثالثة والعشرين حين أُسّس الأنينيربي ولكنّ هيملر شخصيًّا عيّنه رئيسًا للقسم المصري، مع مذكّرة خاصة للتنقيب ونهب ما أمكنه من الآثار المصريّة القديمة».

سحب دوبون نفسًا من سيجاره وراح يلوّح بيده أمام وجهه لإبعاد دخان التبغ الرمادي.

«خلال السنوات الثلاث التالية، جاب هوث جميع أنحاء مصر وقام بأعمال تنقيب شرعيّة تحت غطاء البعثة الألمانيّة ولكنّه سرق في الواقع كلّ ما وقعت عليه يداه وهرّبه إلى ألمانيا. أنا أتحدّث هنا عن آلاف القطع الأثريّة. وثمة رسالة من هيملر

إلى هانز راينرت، وهو عالم آثار نازي آخر، يتذمّر فيها ممازحًا من أنّه بفضل هوث أصبح قصر فيفيلسبورغ، مقرّ وحدات النخبة النازيّة SS - يبدو أشبه بقصر في فيلم عن المومياءات لبوريس كارلوف».

سألته ليلى: «ولكن ما علاقة كلّ هذا بكاستيلومبر، لا أفهم؟».

قال دوبون: «هذه هي الفكرة، لا يبدو أنّه ثمّة علاقة. وهذا ما يجعل القصّة بهذا الغموض. فحتّى عام 1938، تركّز عمل هوث في مجال الآثار القديمة، ولم يبدِ أيّ اهتمام بالفروع التاريخيّة الأخرى، على الأقلّ ليس بالأشياء التي كانت تجذب أشخاصًا مثل هيملر - الكأس المقدّسة، أتلانتيس، هذا النوع من الهراء. قد يكون هوث لصًّا ولكنّه ليس حالمًا على عكس كثير من علماء الآثار النازيين.

«ولكن في تشرين الثاني من عام 1938 يقوم هذا الرجل الذي كانت أرض الفراعنة كلّ شيء بالنسبة إليه والذي كان يُعتبر أهم منقّب مصري من أبناء جيله والذي لم يُبدِ أيّ اهتمام بموضوع آخر سابقًا، بمغادرة مصر فجأة ويكرّس نفسه للتنقيب عن كنز مدفون لم يُذكر سوى في أساطير من القرون الوسطى. وهذا غريب، ليس تغيّر الاتجاه فحسب، بل التغيّر الكامل على صعيد الشخصيّة. وأنا متفاجئ لأنّه لم يثر اهتمامًا أكبر».

قطّبت ليلى جبينها وهي تربّت بقلمها على الدفتر.

«إذًا ما الذي حدث عام 1938؟ ما الذي سبّب هذا التغيّر المفاجئ في اهتماماته؟»

هزّ دوبون كتفيه: «يبدو أنّ أحدًا لا يعلم. فبين ليلة وضحاها انتقل هوث وفريقه من مصر التي كانوا ينقّبون فيها في موقع خارج الإسكندريّة، وعادوا إلى برلين لأجل اجتماع سرّي مع هيلر، وهو اجتماع اعتبر في غاية الأهميّة إلى حدّ أنّ هيملر أجّل موعد عشاء مع هيتلر لكي يحضره. وبعد بضعة أيام سافر هوث إلى القدس وأخذ مقاسات في كنيسة القيامة كما سأل عن ذهب مدفون يرجع إلى ثمانمائة عام».

قالت ليلى: «ويليام دو رولينكور».

هزّ الفرنسي رأسه موافقًا.

«ولكن لم تكن تلك سوى البداية. وخلال السنوات الخمس التالية تنقّل هوث بين أوروبا والمشرق يبحث عن جميع القصص الأسطوريّة التي سمع بها الناس. زار المكتبات واطّلع على المخطوطات الخاصة، وصنع الحفر في كلّ مكان من تركيا إلى جزر الكاناري قبل أن يتوجّه أخيرًا إلى كاستيلومبر في أيلول 1943، وهناك تنتهي تلك المرحلة على ما يبدو».

ألحّت قائلةً: «وما من إشارة إلى سبب ما كان يفعله؟ ما كان يبحث عنه؟»

هزّ دوبون رأسه نافيًا: «بالطبع، ربّما كان ينفّذ الأوامر بكلّ بساطة، يحاول إرضاء نزوة لدى هيملر. فقد كان نازيًّا متفانيًا بعد كلّ شيء وكان ليفعل كلّ ما يطلبه رؤساؤه. أو ربّما فقد عقله، فهو لن يكون أوّل أكاديمي يصاب بالجنون بسبب عمله».

«ولكنّك لا تظنّ ذلك».

«كلاّ، أعتقد أنّه وجد شيئًا بالفعل، شيئًا في غاية الأهميّة وذا دلالة كبيرة للآلة التاريخيّة النازيّة بأكملها، إلى حدّ أنّه كان مستعدًّا إلى قلب حياته رأسًا على عقب لملاحقته».

تأمّل طرف سيجاره ثمّ نظر إليها.

«ومهما يكن ما بحث عنه، أظنّه وجده في كاستيلومبر».

نظر في عينيها للحظة، ثمّ ابتسم ونزل عن كرسيّه متوجهًا نحو الغلاية الكهربائيّة ليشعلها مجدّدًا.

«من المحزن أنّني لا أستطيع إثبات ذلك. فمنذ البداية أحيطت أعمال التنقيب في كاستيلومبر بدرجة عالية من السرّية حتّى بالنسبة إلى المعايير النازيّة. كلّ ما نعرفه هو أنّ هوث وصل في أواسط أيلول 1943 وأحضر معه معدّات حفر ثقيلة ووحدة من الزونديركوماندو يانكون، وهي شعبة متخصّصة بالتنقيب عن الآثار ونهبها، ثمّ غادر بعد ثلاثة أسابيع مصطحبًا معه صندوقًا غامضًا».

انحنت ليلى إلى الأمام، وقد تسارع نفسها من شدّة الحماسة.

«وهل نعرف ما كان في داخله؟»

هزّ دوبون رأسه نافيًا: «كلاّ لسوء الحظّ. ولكنّنا نعرف أنّه أُخذ، لأنّه بعد ثلاثة أيام من مغادرة كاستيلومبر، انتقل هوث والصندوق إلى قصر فيفيلسبورغ شمال غرب ألمانيا حيث استقبلهما هاينريش هيملر والفوهرر نفسه».

«كلاّ؟».

قال دوبون وهو ينفخ دخان سيجاره: «الأمر غير اعتيادي بالتأكيد. إذ يصف أحد ضبّاط هيملر في مذكراته كيف أنّ هوث قُلّد عند وصوله بصليب الفارس الذي رأيته منذ قليل، وكيف ألقى هيتلر بعدها خطابًا أعلن فيه أنّ محتويات الصندوق كانت إشارة واضحة أنّ ما بدأه تيتوس كان مقدّرًا له هو، الفوهرر، أن ينهيه.

ضاقت عينا ليلى.

«ما معنى ذلك؟»

«في الواقع، لا تُعطي المذكرات تفاصيل عن ذلك. ولكنّ تيتوس هو الرجل الذي استولى عام 70 م. على الأراضي المقدّسة وطرد اليهود منها، وما فعله هيتلر هو نوع ما امتداد لذاك العمل. أمّا مدى علاقة ما اكتشـفه هوث بالحلّ الأخير...» لوّح بيديه وكأنّـه يقـول «لا أملـك فكرة على الإطلاق». «ولكن من الجوانب المثيرة للعجب في حملة هوث إلى عالم الأساطير في القرون الوسطى والتي امتدّت على خمس سنوات، هـو اهتمامـه المفاجـئ باليهوديّة والتاريخ اليهودي. حتّـى إنّه تعلّم قراءة العبريّة، وهذا غريب من قبل رجل معروف بعدائه الشرس لليهود».

سُمع خلفه صوت الغلاية التي بلغت درجة الغليان.

«أتريدين مزيدًا من القهوة؟»

هزّت ليلى رأسها نافية وتركته يحضّر النسكافيه لنفسه بينما راحت تحدّق بدفترها وتراجع كلّ ما سمعته محاولةً أن تجد له مكانًا في إطار ما اكتشفته خلال الأيام القليلة الماضية. كان خطاب هيتلر في فيفيلسبورغ قد لفتها على نحو خاص. فإن كان موضوع هذا اللغز يرتبط بشكل ما بطرد اليهود من الأرض المقدّسة وملاحقة النازيين لهم في ما بعد، فإنّ هذا يفسـر أمرًا يحيّرها منذ البداية - كيف يفيد شـخصًا مثل الملثّم. إلاّ أنّها لا تزال بعيدةً عن اكتشاف ماهية هذا الشيء.

سألته: «إذًا ما الذي حدث بعد أن وصل هوث إلى فيفيلسبورغ؟»

كان دوبون يصبّ الماء في فنجانه والسيجار يتدلّى من بين أسنانه.

«علـى حـدّ علمنـا ، لا شـيء. فقد اختفى الصنـدوق الغامض في أعماق القصر، وعاد هوث إلى برلين حيث تولّى وظيفة مكتبيّة إلى جانب الأنينيربي، وبدا أنّ المسألة الغريبة بأكملها انتهت على نحو مفاجئ».

حرّك محتويات الفنجان ثمّ أخرج السيجار من فمه وتناول رشفة.

«مع أنّه ثمّة أمر غريب، قد يكون على علاقة بتلك المسألة أو لا يكون. حدث ذلـك بعـد سنة مـن وصـول هوث إلى فيفيلسـبورغ، فـي أواخر عـام 1944. في تلك المرحلة كان ميزان الحرب يميل لصالح الحلفاء ضدّ النازيين. فالأميركيون والبريطانيون يتقدّمون نحو ألمانيا من الغرب، والروس من الشرق، ومع أنّ الفوهرر كان مصرًّا على أنّهم يستطيعون تدارك الوضع، إلاّ أنّ القيادة النازية العليا عرفت أنّ أيام الرايخ الثالث صـارت معـدودة. فبـدأوا ينقلون الذهب والكنوز المسـروقة من طريق جيوش الحلفاء المتقدّمة ويهرّبونها إمّا إلى الخارج أو يخفونها في أماكن سـرّية داخل ألمانيا، وعادةً في مناجم مهجورة».

تناول رشـفة أخرى من قهوته ثمّ عاد إلى مقعده يحمل الفنجان بيد والسـيجار

باليد الأخرى.

«وسط كلّ ذلك، في كانون الأوّل 1944، ظهر ديتر هوث فجأة في معتقل داشاو جنوب ألمانيا وأحضر معه، استنادًا إلى شهادة آمر المخيّم المنتدب هاينز ديتميرز، شاحنتين، احتوت إحداهما على صندوق خشبي كبير».

اتّسعت عينا ليلى ذهولاً: «الـ»

استبق دوبون السؤال: «ربّما، وربّما لا. ولكنّه شيء في غاية الأهميّة لكي يحضر هوث بنفسه، ولكن هل هو الصندوق نفسه الذي أحضره من كاستيلومبر...» هزّ كتفيه قبل أن يتابع: «كلّ ما نعرفه أنّه طلب فريق عمل من ستّة سجناء وغادر مجدّدًا. من الممكن أن يكون قد أخفى الصندوق في مكان قريب أو شحنه إلى الخارج. وربّما كان هدفه مختلفًا تمامًا، لا ندري بكل بساطة. في اليوم التالي عاد إلى مكتبه في برلين ولم يسمع أحد عن الصندوق مجددًا».

«وقتل في نهاية الحرب؟ أليس كذلك؟»

هزّ دوبون رأسه موافقًا: «كان يحاول هو ومجموعة أخرى من ضبّاط وحدات النخبة الخروج من برلين قبل أن تسقط بأيدي الروس، ولكنّهم أصيبوا بصاروخ وهم يحاولون التسلّل عبر جسر فايدن دامر. ولم يتبقَّ منه شيء، تشوّه رأسه وساقاه ولم يتعرفوا عليه سوى لأنّه كان يضع صليب الفارس ويحمل معه عددًا من الآثار التي كان معروفًا أنّه نهبها في مصر».

أخذ نفسًا أخيرًا من سيجاره قبل أن يطفئه في المنفضة.

«هذا أقلّ ما يستحقّ. كان رجلاً مذهلاً وعالمًا لامعًا ولكنّه إنسان سيّئ جدًّا. ولا شكّ في أنّها نهاية تراجيديّة بالنسبة إلى ذاك العقل العظيم».

تنهّد ثمّ رفع يديه وشبكهما خلف عنقه وراح يحدّق إلى السماء عبر النافذة. استرخت ليلى في كرسيّها، وفركت عينيها وقد شعرت فجأةً بالإنهاك. مهما يكن ما وجده ويليام دو رولينكور في القدس، مهما يكن ما أرسله إلى شقيقته في كاستيلومبر، مهما يكن ما نقل إلى مونسيغور وما عثر عليه ديتر هوث لاحقًا وحمله إلى ألمانيا، يبدو أنّه ضاع مجدّدًا. قريب جدًّا وبعيد جدًّا في آن.

كان دوبون يقول: «إن كان لديك الوقت يتعيّن عليك حقًّا زيارة سان سيرنين. فإنّ بعض أجزائها تعود إلى زمن الحملة الصليبيّة الأولى».

تمتمت ليلى بإجابة بعيدة ولكنّها لم تكن تصغي فعلاً. كلّ ما كانت تفكر فيه هو ماذا تفعل الآن.

القاهرة

بعد أن غادر خليفة مبنى شقّة آل غراتز، تجوّل في المعادي لبعض الوقت يتأمّل منازلها الفخمة، ثمّ توقف لدى أحد الباعة واشترى تمثالاً خشبيًّا لحورس، وهو يفكر في أنّه سيكون هديّة جميلة لزوجته زينب. كان الوقت ما زال طويلاً أمامه حتّى تحين الساعة الخامسة فعاد سيرًا على قدميه إلى محطة المترو واستقلّ القطار نحو وسط المدينة.

كلّما كان في القاهرة ووجد بعض الوقت، كان يزور متحف الآثار في ميدان التحرير، وهذا ما كان يفكر بفعله الآن، آملاً الاسترخاء قليلاً بين تلك المجموعة الرائعة من الآثار القديمة. كان صديقه القديم البروفيسور محمّد الحبيبي، المسؤول عن المتحف، يلقي محاضرةً في أوروبا. ومع أنّه كان يستمتع بالتجوّل في صالات المتحف برفقته، إلاّ أنّ المكان يظلّ فاتنًا حتّى من دونه. فيما كان القطار يسير شمالاً عبر الضواحي المغبرّة، شعر بموجة من الحماسة وهو يفكر بالزيارة التي تنتظره.

كانت تفصل بين المعادي وشارع السادات، المحطة الأقرب إلى المتحف، ثماني محطات. أمّا ما الذي دفعه إلى النزول قبل أربع محطات من المحطة المقصودة فلا يدري مطلقًا. ففي لحظة كان جالسًا في القطار يحدّق من النافذة إلى المناظر المتسارعة أمامه، ليجد نفسه في اللحظة التالية ومن دون أيّ إدراك واعٍ أنّه غادر القطار ليقف في الشارع الخالي خارج محطة مترو مار جرجس، يمسك تمثال حورس الخشبي بيده ويحدّق إلى الجدار الحجري الذي تقع خلفه مجموعة غير منتظمة من الأبنية والأديرة والكنائس – مصر القديمة.

مع أنّه يعرف معظم أجزاء العاصمة ككفّ يده، إلاّ أنّه لم يزر هذا الجزء أبدًا من قبل، وهو أمر يتنافر مع ولعه بالتاريخ، ذلك أنّ هذا الجزء هو الأقدم بأبنيته أو أجزاء أبنيته التي تعود إلى الحقبة الرومانيّة (لم توجد مدينة هنا في زمن المصريين القدماء بل كانت العاصمة تقع جنوبًا في ممفيس). وقف خليفة في مكانه لدقيقة وهو يحدّق حوله وكأنّه استيقظ من نوم طويل ليجد نفسه في مكان غير الذي نام فيه. ثمّ راح يتقدّم مدفوعًا بقوّة لم يتمكن من تفسيرها أو مقاومتها، فعبر الشارع ونزل الدرجات الحجريّة القديمة التي قادته إلى داخل أسوار المدينة، المحيطة بخلية المنازل.

كان الصمت والسكون يعمّان المكان على نحو غير اعتيادي وكان الهواء ثقيلاً ورطبًا. شعر وكأنّ القوانين الفيزيائيّة التي تحكم بقية المدينة عُلّقت في هذا الجزء منها. توقف وهو يتساءل ما الذي يفعله، إلاّ أنّ شعورًا غريبًا وفجائيًّا جعله يفكر في أنّ وجوده لم يكن مجرّد مصادفة وأنّه ثمّة هدف خفي له. ثمّ بدأ يتقدّم مجدّدًا وهو يتبع

شارعًا ضيّقًا مرصوفًا بدا أشبه بشقّ صنع في أحشاء الحيّ المتداخلة. ارتفعت الأبنية الحجريّة المتداعية إلى الجانبين، تتخلّلها أبواب خشبيّة سميكة، وكأنّها أفواه جلديّة، معظمها مقفل وبعضها مشقوق قليلاً متيحًا للمارة بإلقاء نظرة عابرة على العوالم السرّية خلفها – باحة مزيّنة بالأزهار، غرفة مليئة بالأمتعة، كنيسة قبطيّة معتمة أضيئت في داخلها الشموع.

وكانت تنفتح أمامه شوارع أخرى من وقت إلى آخر، يمينًا أو يسارًا، وكانت صامتةً وخالية تدعوه للانعطاف فيها وزيارة جزء آخر من الحيّ. تابع سيره عبر الشارع المرصوف المتعرّج إلى أن وصل إلى ساحة ارتفع في وسطها مبنىً مربّع من طابقين جدرانه حجريّة صفراء، نوافذه مقوّسة يحيط بسقفه المسطّح إفريز منقوش. وكان مكتوبًا على اللافتة في الخارج: كنيس بن عزرا – ملكيّة للمجتمع اليهودي في القاهرة.

لم تسبق له رؤية كنيس من قبل، فما بالك بدخوله. تردّد للحظة وقد شعر برغبة بالاستدارة والعودة من حيث أتى. ولكنّ الإحساس الذي راوده من قبل أنّ زيارته إلى هذا المكان ليست عبثًا أصبح قويًّا إلى حدّ أنّه غلب كلّ ما بقي لديه من شكوك. فشدّ قبضته على التمثال الخشبي، وسار نحو المبنى، وعبر مدخله المقنطر.

كان الداخل باردًا وخفيف الإضاءة، يعمّه الصمت. كانت أرضه رخاميّةً رماديّة وتدلّت من السقف مصابيح نحاسيّة فيما ارتفعت سلسلة من الأعمدة عبر القاعة الخشبيّة المنخفضة. رأى على الجدران رسومًا هندسيّة بالألوان الأخضر والذهبي والأحمر والأبيض، ورأى في آخر القاعة، خلف منبر رخامي مثمّن الأضلاع، خمس درجات تؤدي إلى ضريح خشبي مزخرف بدقّة، سطحه مزيّن بالعاج واللؤلؤ بينما نقشت على أبوابه كتابات عبريّة.

تردّد مجددًا وقلّص توتّر غريب معدته ثمّ بدأ يتقدّم ببطء إلى أن وصل إلى أسفل الدرجات المؤدية إلى الضريح. رأى زوجًا من المصابيح النحاسيّة غريبة الشكل يعادلان طولاً تقريبًا، وُضعا من الجانبين. كانت تمتاز بجذع عامودي طويل تتفرّع منه ستّة فروع مقوّسة نحو الداخل والخارج، ثلاثة من كلّ جانب، وكلّ منها متوّج بمصباح على شكل شعلة. على الرغم من جمال باقي محتويات المكان إلاّ أنّ هذين المصباحين كانا أكثر ما شدّ انتباهه. تقدّم نحو أحدهما ومدّ يده ليمسك الجذع الأملس.

«وتصنع مصباحًا من الذهب الخالص تتفرّع من جانبيه ستّة فروع وتكون كؤوسه وأعمدته وأزهاره قطعةً واحدةً».

استدار خليفة فزعًا. كان قد ظنّ أنّه وحده، وكان أكيدًا من ذلك. إلاّ أنّه رأى

الآن إلى يمينه رجلاً أخفته ظلمة القاعة بعض الشيء. كان يجلس على أحد المقاعد الخشبيّة الموزّعة على طول جدران الكنيس.

كان يرتدي ثوبًا كحليًّا ويعتمر قلنسوة بحيث بدا أنّه يمتزج مع الظلال، ولهذا السبب لم يلاحظه من قبل على الأرجح. بالإضافة إلى لحيته البيضاء الطويلة التي لامست صدره تقريبًا، كان يملك عينين زرقاوين برّاقتين على نحو لافت، بدت أنّهما تضيئان في الظلام كالنجوم في سماء الليل.

قال الغريب بصوته الناعم الموسيقي تقريبًا: «اسمها مينورا».

«عفوًا».

«المصباح الذي تمسكه يدعى مينورا».

أدرك خليفة أنّ يده لا تزال ممسكة بجذع المصباح، فسحبها مربكًا وكأنّه يفعل أمرًا غير مسموح به.

«أنا آسف، لم يكن يجدر بي...»

لوّح الغريب بيده مبتسمًا.

«جميل أن تكون مهتمًا بها. فمعظم الناس يمرّون من دون ملاحظتها. إن أردت يمكنك أن تلمسها، أنت ضيفي».

بقي في مكانه لبعض الوقت يحدّق إلى خليفة الذي لم تسبق له رؤية مثل هاتين العينين الزرقاوين، ثمّ نهض وسار نحوه بحركة سلسة وكأنّه يطوف. ومع أنّ شعره ولحيته كانا بيضاوين كالثلج، إلاّ أنّ بشرته بدت الآن تحت الضوء ناعمة ومشدودة وخالية من التجاعيد، وجسده بدا منتصبًا بحيث صعب عليه تقدير سنّه. كان ثمّة شيء محيّر فيه، غير مخيف بل... غريب. وكأنّه لا يعيش في الزمن الحاضر بل هو جزء من حلم.

سأله الضابط بصوت غريب وكأنّه يتحدّث من تحت الماء: «هل أنت... الحاخام هنا؟»

ابتسم الرجل مجددًا وتأمّل قليلاً تمثال حورس الذي يحمله خليفة بيده اليسرى ثمّ قال: «الحاخام؟ لا، لا. لا يوجد حاخام متفرّغ هنا منذ أكثر من ثلاثين عامًا. أنا أقوم فقط... بالعناية بالمكان. تمامًا كما كان والدي ووالده من قبله ووالد والده. نحن... موكلون بالعناية بالأشياء الموجودة هنا».

كانت نبرته عاديّة ولكنّ شيئًا في اختياره للكلمات وفي الطريقة التي ينظر بها إلى خليفة وكأنّه يخترقه، بدا وكأنّه يلمّح إلى معنىً أعمق، إلى مستوى من الفهم المتبادل الذي يتجاوز المعنى الصريح. وعلى الرغم من أنّه لم يكن يوافق أولئك الذين يؤمنون

بالأمور الخارقة، إلاّ أنّ إحساسًا مفاجئًا تولّد لديه بأنّ الرجل لا يعرف من يكون خليفة فحسب بل وأنّه مسؤول بشكل ما عن وجوده هنا اليوم. فهزّ رأسه مضطربًا وتراجع نصف خطوة إلى الخلف ثمّ عمّ صمت طويل.

سأل خليفة أخيرًا وهو يحاول فتح حديث للتخفيف من وطأة الصمت الذي لفّهما: «هل تعني شيئًا، كلمة مينورا؟»

حدّق إليه الغريب الذي كان يفوقه طولاً ثمّ استدار مبتسمًا نحو المصباح وكأنّه كان يتوقّع السؤال، وعكست عيناه الزرقاوان وهج المصابيح الصغيرة المثبّتة في المينورا.

قال بهدوء: «إنّها كلمة عبريّة تعني شمعدان. مصباح الربّ، رمز قوّة عظيمة بالنسبة إلى شعبي. الرمز، علامة العلامات». عوضًا عن تلطيف الجوّ، شعر خليفة بأنّ سؤاله زاده ثقلاً. على الرغم من ذلك، وعلى الرغم من نفسه كان منجذبًا لكلام الرجل وكأنّه يصغي إلى تعويذة.

تمتم قائلاً: «إنّها... جميلة» وراح نظره يصعد على جذع المصباح وفروعه المقوّسة الناعمة.

قال الرجل: «على طريقتها الخاصة. مع أنّها، على غرار جميع النسخ المقلّدة، ليست سوى ظلّ للأصل، المصباح الأوّل الحقيقي الذي صنعه الصائغ العظيم بيزاليل في الماضي السحيق، أيام موسى والخروج من مصر». راح يلامس بأصابعه ظاهر فروع المصباح المقوّسة ثمّ أضاف وعيناه تلمعان وكأنّهما فراشتان زرقاوان زاهيتان حطّتا على جانبي أنفه: «تلك كانت جميلة جدًّا. سبعة فروع، أعمدة على شكل أزهار، كؤوس كاللوز، سُبكت بأكملها من كتلة ذهب واحدة، كانت أجمل ما وقعت عليه عينا بشر. وُضعت في خيمة الصحراء وفي الهيكل الأوّل الذي بناه سليمان، وفي الهيكل الثاني أيضًا، إلى أن أتى الرومان وضاعت منّا. كان هذا منذ ألفي عام تقريبًا. أمّا إن كانت ستظهر مجدّدًا...» هزّ كتفيه متابعًا: «من يعلم. ربّما يومًا ما».

صمت للحظة وراح يحدّق إلى المصباح، وبدت في عينيه نظرة بعيدة وغريبة وكأنّه يتذكر أحداثًا من الماضي البعيد. ثمّ أنزل يده واستدار نحو خليفة.

قال: «في بابل، هذا ما تقوله لنا النبوءة. في بابل سيتمّ العثور على المينورا الحقيقيّة، في منزل آبنر. حين يحين الوقت المناسب».

مجدّدًا، انتاب الضابط شعور لم يستطع تفسيره بأنّ كلمات الرجل تحمل معاني أعمق، وأحسّ أنّه وإن كان لا يفهم تمامًا ما يُقال إلاّ أنّ ما يسمعه هو على جانب من الأهميّة. نظر في عيني الرجل قليلاً ثمّ أشاح عينيه عنه وراح يشمل داخل الكنيس

بنظره إلى أن وقعت عيناه على ساعة معلّقة عند المدخل.

«تبًّا!»

كان واثقًا أنّه لم يمكث هناك لأكثر من خمس عشرة دقيقة، أو عشرين على الأكثر. إلاّ أنّ الساعة تشير الآن إلى الخامسة تقريبًا، أي أنّ ثلاث ساعات مضت عليه في الكنيس. نظر إلى ساعته التي أشارت إلى الوقت نفسه. فهزّ رأسه مربكًا وقال إنّ عليه الذهاب.

«لم أنتبه إلى الوقت إطلاقًا».

ابتسم الرجل قائلاً: «يمكن للمينورا أن تحدث هذا المفعول أحيانًا. لديها قوّة غامضة جدًّا».

حدّق الرجلان إلى بعضهما بعضًا، وشعر خليفة للحظة أنّه يسقط من مكان مرتفع في حوض أزرق، ثمّ هزّ رأسه وابتعد عن المصباح وهمّ بالخروج من الكنيس.

ناداه الرجل بعد أن بلغ الباب: «هل لي بمعرفة اسمك؟»

استدار خليفة قائلاً: «يوسف». توقف للحظة ثمّ سأله من باب اللياقة وحسب: «وأنت؟»

ابتسم الرجل: «اسمي شومير ها-أور. تمامًا مثل أبي، وأبيه من قبله. آمل أن أراك مجددًا يا يوسف. في الواقع أعرف أنّنا سنلتقي مجدّدًا».

قبل أن يتمكن الضابط من سؤال الرجل عمّا يعنيه، لوّح له هذا الأخير وسار مبتعدًا في الظلال بتلك الحركة الغريبة الشبيهة بالطواف، ثمّ اختفى وكأنّه خرج من هذا العالم.

القدس

كان مركز كفار شاو للأمراض العقليّة عبارة عن مجمّع من الأبنية الحجريّة باللونين الأصفر والأبيض تظلّله الأشجار ويحيط به سور منخفض. وكان يقع على مرتفع في الطرف الشمالي الغربي للقدس، حيث تبدأ ضواحي المدينة بالتجزؤ والتوزّع على سفوح جبال الخليل المكسوة بشجر الصنوبر. قصده بن-روي في ساعة متأخرة من بعد الظهيرة وبعد ما أوقف سيّارته خارج البوابة الرئيسة، سار نحو موظف الأمن وأخبره أنّ لديه موعدًا لزيارة أحد المرضى. قام الحارس باتصال إلى جزء آخر من المجمّع وبعد ثلاث دقائق أتت امرأة بدينة متوسطة السنّ ترتدي ثوب الأطبّاء الأبيض وعرّفته عن نفسها أنّها الدكتورة غيلدا نيسيم ثمّ اصطحبته إلى داخل المستشفى.

كان المجيء إلى هنا بالنسبة إلى بن-روي، إن لم يكن بالضبط عملاً يائسًا، فهو

على الأقلّ آخر خيوط التحقيق المتوفرة لديه. فعلى الرغم من عمله طيلة الليلة السابقة ونهار هذا اليوم إلاّ أنّه فشل في إيجاد أيّ رابط بين بيت جانسن وحنّا شليغل. بالطبع، توصل إلى بعض التفاصيل الإضافيّة عن ماضي شـليغل: التاريخ الدقيق لاعتقالها في أوشـفيتز، كونها نُقلت هي وشـقيقها إلى المعتقل من ريسـبودو، وهو مركز نقل يقع جنوب فرنسا. ولكنّ المعلومات كانت مجزأة جدًّا ولم تسمح له بتكوين صورة واضحة عن حياة الضحيّة، فما بالك بشـرح السـبب الذي يجعل بيت جانسـن أو أيّ شـخص آخر يرغب في قتلها.

ولم يظهر له سوى بصيص أمل واحد إثر زيارته لمتحف ياد فاشيم، الذي كانت شليغل تعمل فيه بدوام جزئي كأمينة أرشيف. فاستنادًا إلى أحد زملائها السابقين، كان عملها يقوم أساسًا على حفظ الملفات والفهرسة والمساعدة في الأبحاث البسيطة، أمور عامة لا تخرج عن المألوف. إلاّ أنّها في الوقت نفسه، وهذا ما لفت انتباه بن-روي، كانـت تقـوم علـى مـا يبـدو ببحث خاص بها. أمّا ماهية هـذا البحث فلم يكن يعرفها الموظـف، إلاّ أنّـه كان يعتقـد أنّـه على علاقة ما بداشـاو لأنّه رأى شـليغل عدّة مرات تراجع سـجلاّت وشـهادات أشـخاص خرجوا أحياء من ذاك المعتقل بالذات وكانت جارة شـليغل، السـيّدة واينبيرغ قد ذكرت أنّها رأتها تحمل ملفات عن داشـاو كما أنّ مجدي، الشاب الذي أحرق منزلها، وصف شقّتها بأنّها مليئة بالأوراق والوثائق «وكأنّها أرشيف». وقد شعر التحرّي أنّه ثمّة معنى لكل هذا وأنّ «البحث الخاص» الذي كانت تجريه شليغل يرتبط بمقتلها وببيت جانسن. إلاّ أنّه عجز عن إيجاد الرابط واضطرّ في النهاية إلى الإقرار أنّ ذاك الخيط هامّ ولكنّه غامض جدًّا.

هكذا لم يبقَ أمامه سوى إسحاق شليغل، شقيق الضحيّة التوأم. واستنادًا إلى كلّ ما سمعه عنه حتّى الآن، فإنّ الرجل معتوه تمامًا.

قال وهما يسيران عبر أراضي المستشفى ويعبران طريقًا مرتفعًا بين مجموعة من الأبنية الحجريّة التي تتخلّلها مساحات مزروعة بالأزهار وشجر الصنوبر: «قيل لي إنّ السيّد شليغل مختلّ تمامًا».

ألقت عليه نظرةً مسـتاءة بعض الشـيء وقالت: «إنّه مضطرب جدًّا، إن كان هذا ما تعنيه. فقد كان يعاني أصلاً من اضطراب حاد ناتج عن صدمة إثر تجاربه في فترة الحرب، وحين توفيت شقيقته... حسنًا، أدّى ذلك إلى تفاقم وضعه. فقد كانا مقرّبين جدًّا. من هنا».

انعطفا يسارًا حول سور رأى خلفه رجلين بدينين يرتديان البيجاما ويلعبان تنس الطاولة، قبل أن يصلا إلى مبنىً حديث مؤلّف من طابق واحد عُلّقت خارجه لافتة كتب

عليها الجناح الشمالي، مركز الطبّ النفسي للعجزة. قادته عبر المدخل الزجاجي وسارا في ممر خالٍ خفيف الإضاءة. كان هواؤه يحمل رائحة سائل تنظيف خفيفة وخضار مسلوقة، والصمت يسود المكان باستثناء هدير المكيّفات وصوت صادر من غرفة ما لرجل ينتحب ويصرخ بشيء عن ساول وزيديكيا ويوم الحساب. نظر بن-روي إلى الدكتورة.

«هذا ليس...؟».

أجابته بصوت خالٍ من المرح: «السيّد شليغل؟ لا تقلق. إسحاق يعاني من مشاكل كثيرة ولكنّه لا يتخيّل أنّه أحد أنبياء العهد القديم. أضف إلى أنّه بالكاد نطق بكلمة واحدة منذ خمسة عشر عامًا».

توقفا أمام باب عند آخر الرواق. طرقت عليه نيسيم بلطف، ثمّ فتحته، وأطلّت برأسها إلى الداخل.

قالت بصوت لطيف ومهدئ: «مرحبًا إسحاق، لديك زائر. لا تخف، يريد أن يطرح عليك بعض الأسئلة وحسب. هل هذا ممكن؟»

إن كان الرجل قد أعطى إجابة، فإنّ بن-روي لم يسمعها.

قالت وهي تتراجع نحو الرواق: «يمكنك البقاء لعشرين دقيقة. سوف أعود عند انتهاء الوقت. وتذكّر، هذا ليس مخفرًا للشرطة، لذا كن لطيفًا معه. اتفقنا؟».

نظرت في عيني التحرّي للحظة، ثمّ هزّت رأسها بتحيّة، وعادت أدراجها، فيما أصدر حذاؤها صوتًا مكتومًا فوق الرخام الأملس. تردّد بن-روي غير واثق ممّا ينتظره، وغير مرتاح أيضًا، إذ إنّه لطالما كره هذه الأماكن التي تجرّدها شدّة النظافة والتعقيم من أيّ طابع وتضفي عليها جوًّا منوّمًا وكأنّ الهواء نفسه مخدّر، ثمّ دخل عبر الباب وأغلقه خلفه.

وجد نفسه في غرفة مشمسة تحتوي على سرير وطاولة وتمتلئ جدرانها من السقف إلى الأرض، وكأنّها مكسوة بورق الجدران، بعشرات وعشرات الرسوم البسيطة بأقلام التلوين الخشبيّة، كتلك التي تجدها في غرف الأطفال. كان شليغل يجلس أمامه على مقعد قرب النافذة. بدا رجلاً ضعيفًا ومنهكًا، وكان يرتدي بيجاما خضراء فاتحة وينتعل خفًّا منزليًا. كان يحدّق إلى المنظر الصخري في الخارج ويحمل بين يديه النحيلتين كتابًا أخضر مغضّن الغلاف.

«سيّد شليغل».

لم يجب الرجل. وقف بن-روي لبعض الوقت ثمّ تناول مقعدًا خشبيًّا بلا ظهر وعبر الغرفة ليجلس أمامه.

كرّر وهو يحاول التحدّث بصوت ناعم غير مخيف: «سيّد شليغل، أنا آرييه بن-روي. أنا من شرطة القدس، أريد أن أطرح عليك بعض الأسئلة عن شقيقتك حنّا».

لـم يبـدُ أنّ الرجـل لاحـظ وجوده أساسًـا، بل واصل التحديق عبـر النافذة بعينيه الغائرتين والتائهتين.

ألـحّ عليـه قائـلاً: «أعـرف مـدى صعوبة ذلك بالنسـبة إليك، ولكنّنـي أحتاج إلى مسـاعدتك. أنا أحاول القبض على قاتل شـقيقتك. هل ستسـاعدني، سيّد شليغل؟ هل ستجيب عن بعض الأسئلة؟ أرجوك».

لا شيء. لا تجاوب من أيّ نوع كان بل مجرّد نظرة جامدة وفارغة وخالية من التعبير.

«أرجوك، سيّد شليغل؟».

لا شيء أيضًا.

«هل تسمعني، سيّد شليغل؟».

صمت تام.

«سيّد شليغل؟».

صمت تام.

«تبًّا».

رفع بن-روي يديه إلى الأعلى وطقطق أصابعه خلف رأسـه. لو كان يسـتجوب مشتبهًا به لكان ضغط عليه وهدّده وطلب معرفة المعلومات، ولكن كما قالت الطبيبة، هذا ليس مخفرًا للشرطة ولا يمكنه استعمال أساليب ضابط الشرطة.

مضت بضع دقائق جلس خلالها الرجلان صامتين وكأنّهما يلعبان الشـطرنج ثمّ استسـلم بـن-روي علـى اعتبـار أنّه لا جدوى من الحديـث، فوقف وتجوّل في الغرفة وهو يتأمّل الرسوم التي تكسو الجدران. لا بدّ أنّه ثمّة مائة منها. في البداية لم يلاحظ مـا تصـوِّره كلّ منهـا بالضبـط بـل نظر حوله من دون اهتمام مفترضًـا أنّها مجرّد تعبير عشـوائي لذهـن مختـلّ. ولكـن تدريجيًّا بـدأ يلاحظ أنّ تلك الخربشـات اليدويّة، وإن كانت صبيانيّة ويمكن لأي طفل في الخامسـة أن يرسـمها، لم تكن مجرّد صور غير مترابطة كما اعتقد في البداية. على العكس، حين ينظر إليها معًا يبدو أنّها تشكّل في الواقع شيئًا أشبه بحكاية جداريّة.

راح ينظر ببطء أكبر، ويركز على رسـم قرب الباب. كان ثمّة زورق مع مدخنة وخطـوط زرقـاء تصـوّر الأمواج وعلى ظهر المركب شـخصان نحيلان كعود الكبريت يمسـكان بيدي بعضهما. كانت الصورتان التاليتان تحتويان على المشـهد نفسـه، ولكنّ

الثالثة تصوّر الشخصين، اللذين ما زالا ممسكين بيديهما، معلّقين في الهواء أمام المركب وكأنّهما يقفزان في البحر. تذكّر القصّة التي روتها السيّدة واينبيرغ على أنّ شليغل وشقيقها أجبرا على السباحة نحو الشاطئ بعدما أعاد البريطانيون المركب الذي كانا يسافران على متنه إلى فلسطين نحو حيفا. فأجفل وهو يدرك أنّ الصورة تظهر بالضبط هذا المشهد.

فهمس قائلاً لنفسه: «إنّها حياته».

استدار قائلاً: «إنّها حياتك، أليس كذلك؟ هذه قصّة حياتك».

التفت إلى الجدار مجددًا ليتابع القصّة بأحداثها التالية ومن ثمّ الماضية، وكان يستدير ببطء وعيناه تنتقلان من صورة إلى أخرى بين أعلى الجدران وأسفلها وهو يربط أجزاء القصّة ببعضها.

كان كثير من الرسوم يتناسب مع أمور سبق واكتشفها عن حياة حنّا شليغل. فعلى الجدار الذي يعلو السرير مثلاً، ومن بين آخر رسوم المجموعة، رأى ثلاث صور لشخص قصير ونحيل يُضرب على رأسه من قبل شخص آخر، صورته أكبر، أمام خلفيّة صفراء اللون شبيهة بالصحراء، ربّما تشير إلى مقتلها في مصر. وكانت تحيط الباب مجموعة رسوم، أكثر من عشرين، جميعها باللون الأسود أو الرمادي، تصوّر فظائع أوشفيتز بطريقة غامضة - مدخنة يتصاعد منها الدخان، أسلاك شائكة، ستّة أجساد تتدلّى من مشنقة، وصورة فظيعة على الرغم من بساطتها لشخصين نحيلين ممدّدين على سريرين، تخرج من بطنيهما خطوط متعرّجة حمراء تشير إلى الدماء، ورُسمت حول فميهما خطوط سوداء فسّرها بن-روي بأنّها صراخ الألم.

ثمّة رسوم أخرى يصعب تفسيرها. فالصورة الأولى في القصّة مثلاً هي لمنزل كبير وردي اللون تسطع الشمس من خلفه وتطلّ من نوافذه أربعة وجوه مبتسمة. أهي من ذكريات حياة شليغل في طفولته؟ الأخ والأخت في المنزل مع والديهما قبل أن ينهار العالم؟ أم أنّ لها معنىً آخر مختلفًا تمامًا.

كذلك، ثمّة صورة متكرّرة تتخلّل الصور الباقية على مسافات منتظمة، وكأنّها لازمة في أغنية أو قصيدة، لمينورا ذات سبعة فروع باللون الأصفر الفاتح. ربّما تشير إلى إيمان الفنان وإرثه؟ أو أنّها مجرّد شكل يُشعر الرجل بالاسترخاء؟ لم تكن واضحة.

إلاّ أنّ مجموعة من الرسومات لفتت انتباه بن-روي على نحو خاص لأنّها بدت وكأنّها تصوّر نوعًا من الانتقال بين تفاؤل الطفولة في الصور القليلة الأولى المرسومة

بألوان زاهية وسعيدة، والظلال الكئيبة الداكنة لبقيّة المجموعة. كانت أربعًا، جميعها تصوّر مدخلاً أو بابًا ذا قنطرة، طويلاً جدًّا وضيّقًا، جوانبه محاطة بنبات اللبلاب الأخضر. كان في الصورة الأولى شخصان نحيلان، هما على الأرجح شليغل وأخته، يقفان وسط المدخل ويمسكان بيدي بعضهما وهما مبتسمان. وتصوّر الثانية المشهد نفسه تقريبًا، باستثناء أنّ الشخصين يختبئان الآن خلف أجمة ويشاهدان مجموعةً أخرى من الأشخاص يضربون الأرض بمعاولهم أمام البوابة. هنا تُقطع المجموعة بالصورة الأولى للمينورا والتي تتكرّر عبر المجموعة لاحقًا قبل أن تُستأنف الرواية برسم لشليغل وشقيقته وهما يهربان على ما يبدو من البوابة ويلحق بهم حاملو المعاول. أمّا الصورة الأخيرة فتظهر مخلوقًا شريرًا وضخمًا ذا عينين حمراوين شرستين يمسك بالشقيقين الأصغر حجمًا، كلّ منهما بيد. وفي هذه الصورة اختفت ابتساماتهما وحلّت مكانها ملامح الرعب واليأس.

كلّما نظر بن-روي إلى الصور الأربع شعر بحدس يخبره أنّها الرسوم الأهم في المجموعة كلّها، واللحظة التي انقلبت فيها حياة إسحاق وحنّا شليغل رأسًا على عقب وأنّ فيها يكمن سرّ حياة حنّا وموتها لاحقًا. حدّق إليها طويلاً وسجلّت عيناه جميع ضربات القلم ثمّ استدار وعاد إلى مقعده ليجلس من جديد.

«سيّد شليغل، هل لك أن تخبرني عن الصور المرسومة هناك خلف الطاولة؟ صور القنطرة».

طرح السؤال ولكنّه لم يكن يأمل الحصول على إجابة فعلاً. إلاّ أنّه فوجئ بشليغل يبعد عينيه ببطء عن النافذة لينظر إلى بن-روي أوّلاً ومن ثمّ إلى الكتاب القابع في حضنه، قبل أن يعود نظره إلى بن-روي مجددًا. قرّب التحرّي كرسيّه قليلاً بحيث أصبحت ركبتاه تلامسان ركبتي العجوز.

ألحّ عليه محاولاً الحفاظ على هدوء صوته وبطئه، وكأنّه يتقدّم على رؤوس أصابعه نحو طائر جريح ويبذل جهده لعدم إخافته: «إنّها مهمّة، أليس كذلك؟ إنّها اللحظة التي بدأت فيها الأحداث السيّئة تقع معكما أنت وأختك. وهي سبب مقتل أختك».

كانت جملته الأخيرة مجرّد ظنّ، ولكنّها ضربت وترًا حسّاسًا على ما يبدو لأنّ الرجل العجوز رفّ عينيه ثمّ بدأت دمعة واحدة تتكوّن في عينه اليسرى قبل أن تنحدر فوق جفنه الأسفل وكأنّها بهلوان يسير على حبل لتسقط أخيرًا على خدّه. سأله بن-روي بلطف: «ماذا حدث عند القنطرة؟ من هم الأشخاص الذين يحملون المعاول؟»

نظر شليغل مجددًا إلى الكتاب ثمّ رفع عينيه الرطبتين الرماديتين اللتين انعكست فيهما نظرة بعيدة كأنّه يحدّق إلى شيء ما داخل الغرفة ولكنّه بعيد جدًّا في الزمان والمكان.

«أرجوك إسحاق، ماذا حدث عند القنطرة؟ من هو العملاق ذو العينين الحمراوين؟».

لم يجب العجوز بل واصل التحديق إلى الفراغ وهو يهمهم بصوت منخفض ويده تداعب الكتاب في حضنه. حاول بن-روي إعادته إلى الواقع، ولكن من دون جدوى. فبعد تلك اللحظة القصيرة التي تواصل فيها معه عاد ليختفي في عالمه الخاص وكأنّه حصاة تغرق ببطء في أعماق بحيرة عميقة مظلمة. طرح عليه التحرّي مزيدًا من الأسئلة ثمّ أقرّ أنّها مضيعة للوقت وأنّ لحظة وعيه انقضت، فتنهّد ونظر إلى ساعته. كانت الدقائق العشرون قد انتهت تقريبًا وتناهى إليه صوت خطىً تقترب في الرواق.

تمتم قائلاً: «تبًّا».

راح يضرب أصابعه على ركبتيه مهزومًا ثمّ مدّ يده وأخرج من جيبه القارورة فخرجت معها خطأً ورقة مغضّنة - نسخة عن صورة لبيت جانسن أرسلها له خليفة عبر الفاكس عصر اليوم الفائت. كان قد أحضرها معه على أمل أن يخبره شليغل شيئًا عنها ولكنّه يعلم الآن عدم جدوى ذلك. انحنى ووضعها في سلّة المهملات قرب كرسيّ العجوز قبل أن يجلس مجددًا ويفتح القارورة ويأخذ منها جرعة طويلة.

كان ينوي شرب ما يستطيع قبل وصول الدكتورة نيسيم بحيث لم يلحظ شليغل وهو ينحني ببطء ليُخرج الورقة من سلّة المهملات ويحدّق إلى الصورة البيضاء والسوداء. ولم يلاحظ بن-روي ما فعله العجوز إلاّ بعد ما قضى على محتويات القارورة وراح يبحث عن الغطاء.

قال وهو يعيد القارورة إلى جيبه متحدّثًا إلى نفسه: «هل حرّكت شيئًا في ذهنك؟ ولكن أظنّ أنّه لم يبقَ في ذهنك شيء ليتحرّك، أليس كذلك؟»

إن كان العجوز قد سمع التعليق الساخر، فإنّه لم يظهر ذلك. ما فعله هو أنّه أمسك الصورة باتجاه بن-روي ثمّ فتح فمه وأطلق صرخةً تصمّ الآذان لم يسبق للتحرّي أن سمع مثلها من قبل. ربّما لم يحصل على جميع الأجوبة التي أرادها ولكنّ أمرًا واحدًا كان واضحًا على الأقلّ: إسحاق شليغل يعرف بالضبط من يكون بيت جانسن، وهو يشعر بالرعب منه.

القاهرة

في اللحظة التي غادر فيها خليفة متاهة المدينة القديمة وخرج من أسوارها إلى العالم الخارجي، شعر بأنّ اللقاء الذي جرى في الكنيس تراجع من ذهنه وكأنّه ضباب الصباح وتبخّر تحت أشعة الشمس المشرقة. وحين وصل إلى محطة المترو كان يبذل جهدًا لتذكّر تفاصيل الكنيس من الداخل ومظهر الرجل الذي التقاه هناك بدقّة. وبعودته إلى المعادي، كان يسير في شوارعها المظلّلة بالأشجار نحو شقّة آل غراتز وقد بدأ يتساءل فعلاً ما إذا كان ذلك مجرّد حلم يقظة طويل. والأشياء التي تذكرها بوضوح هي العينان الزرقاوان والمصباح ذو الفروع السبعة. إلاّ أنّها ابتعدت تمامًا عن ذهنه حين انعطف عند زاوية الشارع ورأى مجموعة من سيّارات الشرطة والإسعاف متجمعة أمام مبنى شقّة آل غراتز. كان المبنى يحتوي على عشرات السكان الآخرين إلاّ أنّه أدرك على الفور بشكل فطري أنّ صديقي بيت جانسن هما محور هذا التجمهر، فراح يعدو مسرعًا.

حين وصل إليهم أبرز بطاقته وسأل أحد رجال الشرطة: «ماذا يجري؟»

أجال الرجل: «إطلاق نار، قتيلان».

«يا إلهي! متى؟»

«منذ ساعتين، أو ربّما أكثر. لست واثقًا فقد وصلت للتو».

راح خليفة يلوم نفسه لأنّه لم يتوقّع شيئًا كهذا ثمّ اجتاز الشريط ودخل المبنى متوجهًا بسرعة نحو الطابق الثالث وتمثال حورس الخشبي لا يزال بيده.

كانت شقّة آل غراتز مليئة بالناس – رجال شرطة، مصوّرون، فريق الطبّ الشرعي بملابسهم البيضاء وقفّازاتهم المطاطيّة – تتردّد فيها أصداء الحديث الذي يرافق عادةً هذا النوع من المشاهد، والذي يتراوح بين الإثارة والتوتر. سأل عن الشخص المسؤول فأشير له نحو باب في منتصف الرواق تقريبًا صدر منه وميض كوميض الكاميرات. تقدّم نحوه وبعد لحظة من التردّد – كان يفكر: «هذه غلطتي، أنا السبب» – دلف إلى الداخل.

وجد نفسه في غرفة نوم يحتلّ جدارها المقابل سرير كبير مزدوج وبدا الجدار الذي يعلوه ملوثًا برذاذ الدماء المتخثّرة. وكان السرير نفسه مكسوًا بما اعتقده خليفة في البداية ملاءة ما، قبل أن يدرك بعد قليل أنّه علم كبير أحمر يحمل في وسطه صورة صليب معقوف. كان العلم مضرّجًا بالدماء، وسطحه مغضنًا وكأنّ شخصًا ما كان ممدّدًا فوقه. وكان الهواء لا يزال يحمل رائحة الكورديت الحادّة فضلاً عن رائحة أخرى لم يتمكّن من تحديدها تشبه رائحة اللوز المحروق. كما رأى كيسًا أسود ممدّدًا على

الأرض قرب السرير، كان سطحه ناعمًا ولامعًا وكأنّه شرنقة ضخمة.

«من أنت؟»

التفت ليرى رجلاً بدينًا ملتحيًا ينظر إليه، بدا أنّه التحرّي المكلّف بالقضيّة. تقدّم منه خليفة وأبرز بطاقته مجدّدًا ثمّ شرح له سبب وجوده.

«ماذا حدث؟»

أجاب الرجل وهو يخرج من جيبه شوكولاته مارس ويفتح الغلاف: «نوع من اتفاق على الانتحار، هذا ما يبدو. الرجل فجّر دماغه» - وكز كيس الجثّة بمقدمة حذائه - «والمرأة شربت نصف زجاجة من حمض البروسيك. سمع الجيران طلقة الرصاص فاتصلوا بنا. ما من فريق ثالث متورّط على ما يبدو».

تناول قضمة كبيرة من الشوكولاته من دون أن يزعجه منظر الدماء على الجدران والسرير.

تابع قائلاً وفمه ممتلئ بالشوكولاته: «لم تسبق لي رؤية شيء كهذا، كلاهما ممدّدان على السرير يدًا بيد، والمكان أشبه بالمسلخ. هو يرتدي بذلة عسكريّة وهي بثوب زفاف. ربّاه، كم هذا غريب».

حشر بقيّة الشوكولاته في فمه ثمّ استدار وأشار إلى أحد المصوّرين بأنّه يريد مزيدًا من الصور للعلم الملوّث بالدماء. أخرج خليفة سجائره فتلقّى نظرة مستاءة من أحد رجال فريق الطبي الشرعي المنحني إلى الأرض، فأعادها إلى جيبه مجددًا.

قال لنفسه: «ملعونة، هذه القضيّة ملعونة. مهما فعلت وأينما ذهبت أصل إلى طريق مسدود وموت ورعب. أكرهها، كم أكرهها».

سأل بعد قليل: «أين جثّة المرأة؟»

استدار التحرّي قائلاً: «نعم؟ آه، أخذوها إلى مستشفى السلام الدولي ليغسلوا معدتها أو أيًّا يكن ما يقومون في مثل هذه الحالات».

مرّت ثانية قبل أن يفهم خليفة معنى ذلك.

ارتعش جسده: «اعتقدت... قيل لي إنّ الاثنين توفيا».

«ماذا؟ كلاّ، كلاّ، المرأة ظلّت على قيد الحياة، وإن كانوا قد لحقوا بها في اللحظة الأخيرة. لو مرّت عشرون دقيقة أخرى للحقت بزوجها». ثمّ وكز الكيس مرّة أخرى بقدمه قبل أن يضيف: «محظوظة. أو غير محظوظة، بحسب نظرتك للأمور. كانت ترتدي ثوب زفاف. هذا أغرب شيء-»

لم تسنح له الفرصة بمتابعة جملته لأنّ خليفة استدار خارجًا من الغرفة وانطلق مسرعًا.

أوقفت ليلى سيّارتها المستأجرة من نوع رينو كليو خضراء اللون، وتركت المحرّك شغّالاً ثمّ انحنت لتنظر إلى أسوار قصر مونسيغور في الأعلى. ظلّت كذلك لبعض الوقت، تتأمّل الجدران الرماديّة والصخرة الأشبه بالجمجمة التي بني عليها القصر، وكأنّه سفينة تعلو موجة مدّية كبيرة. ثمّ استقامت في مقعدها وألقت نظرة على الخريطة الموضوعة على المقعد المجاور قبل أن تنطلق مجدّدًا متابعةً طريقها.

احتاجت إلى عشرين دقيقة أخرى لتصل إلى كاستيلومبر. كانت قد اشترت دليلين سياحيّين في تولوز، وذلك من حسن حظّها لأنّها ما كانت لتعثر على قرية كاستيلومبر بسهولة لولاهما. فالقرية لا تتعدّى أن تكون أكثر من مجموعة من المنازل والمزارع المبعثرة التي لا تظهر على الخريطة حتّى، وما كان الحظ ليحالفها أبدًا في العثور على بقايا القصر الذي كان يقع على بعد ثلاثة كيلومترات خارج القرية وبعيدًا عن الطريق. وحتى بوجود الدليلين لم يكن العثور على القصر سهلاً أبدًا. إذ اضطرت إلى القيادة عبر طريق منحدر مليء بالحفر يرتفع بين التلال، ثمّ سارت عبر حقلين من المستنقعات ومن ثمّ عبر أيكة كثيفة من الأشواك والأشجار الضخمة، قبل أن تصعد في طريق شديد الانحدار لا بدّ أنّه كان في ما مضى أفضل حالاً لأنّه يصعب تمييزه اليوم من بين النباتات التي تكسوه. كان موقع القصر بعيدًا ومخفيًا إلى حدّ أنّها فكرت أن تعود أدراجها معتقدةً أنّها أخطأت الطريق، ولكنّ الأيكة انفرجت فجأةً أمامها لتجد نفسها أمام شرفة عشبيّة واسعة تمتدّ على سفح التلّ وتطلّ على مناظر رائعة للتلال المحيطة بها والنهر الذي يجري في الأسفل. ثمّة لافتة خشبيّة مكسورة إلى جانبها كُتب عليها «قصر كاستيلومبر».

أيًّا يكن من دمر القصر فقد أتمّ عمله على أفضل وجه لأنّ شيئًا لم يتبقَّ منه تقريبًا، باستثناء بعض الأحجار المبعثرة وجدارين متداعيين – لا يتجاوز أطولهما ارتفاع الركبة – فضلاً عن عامود واحد ممدّد على جانبه بين الأعشاب وكأنّه جذع شجرة متعفّن. كانت الإشارة الوحيدة إلى وجود مبنىً فعليّ في ما مضى هي قنطرة رائعة في آخر الشرفة، طويلة وضيّقة جدًّا، مكسوّة بنبات اللبلاب الأسود المتعرّش، ترتفع قمّتها عاليًا وكأنّها تناطح السماء.

سارت ليلى نحوها مفترضةً أنّها باب أو بوابة لتدرك لاحقًا حين اقتربت منها أنّها بقايا نافذة جميلة الصنع نُقشت واجهتها بدقّة وبدت هنا وهناك، تحت غطاء اللبلاب، أزهار دقيقة منحوتة في الحجر. كان ثمّة شيء بالغ الكآبة فيها وهي تقف هناك بمفردها وكأنّها عين وحيدة تحدّق إلى التلال. بعد أن تأمّلتها قليلاً استدارت

وهي تشدّ سترتها حولها اتّقاء للرياح الباردة التي هبّت فجأة من الجنوب ثمّ راحت تتجوّل حول بقايا القصر.

مهما يكن ما فعله الألمان هنا، يبدو أنّهم لم يتركوا أثرًا لهم. وبعد عشرين دقيقة شعرت بالملل وبدأت تعود أدراجها من الطريق الذي أتت منه عبر الأيكة. سمعت أثناء ذلك حركة بين الأغصان في الأسفل تبعتها خطوات بطيئة، وازداد الصوت ارتفاعًا إلى أن خرجت امرأة متقدّمة في السنّ حمراء الوجه من بين النباتات ووصلت إلى الشرفة. كانت تنتعل حذاءً عاليًا وترتدي معطفًا بنيًا سميكًا وتحمل بيدها سلّة من القش شبه ممتلئة بحبّات الفطر.

قالت المرأة حين رأت ليلى: «بونجور» ولكنّ لكنتها القويّة مدّت الكلمة بحيث خرجت منها «بانجووور».

ردّت ليلى التحية مضيفةً من باب اللياقة ثناءً على كميّة الفطر التي جنتها المرأة.

أجابتها مبتسمة: «آه، ليست سيئة، فموسمها لم يحن بعد، ولكن يمكن العثور على بعضها إن عرفت أين تبحثين. أنت إسبانيّة؟»

«فلسطينيّة».

رفعت المرأة حاجبيها وبدت متفاجئة بعض الشيء.

«أنت في عطلة؟».

«أنا صحفيّة».

«آه».

تقدّمت نحو أقرب قطعة حجريّة لتضع عليها السلّة ثمّ راحت تقلّب محتوياتها وتفحصها.

قالت بعد صمت وجيز: «أفترض أنّك هنا لكتابة مقال عن الألمان».

ارتعشت ليلى ودسّت يديها في جيبي السترة.

«هل تذكرينهم؟».

هزّت المرأة رأسها: «ليس فعلاً، فقد كنت في الخامسة من عمري حينها. أذكر أنّهم أقاموا في منزل في آخر القرية وأنّ أبي أمرنا بعدم الذهاب نحوهم وعدم الاقتراب من القصر، في ما عدا ذلك...».

هزّت كتفيها مخرجةً حبّة فطر صفراء كبيرة ثمّ اشتمّت غطاءها المجعّد قبل أن تهزّ رأسها راضيةً وتريها لليلى قائلةً: «جيرول».

انحنت ليلى واشتمّت رائحة الفطر الغنيّة.

قالت لها: «رائحتها جميلة». ثمّ قرّرت أن تسأل على كل حال: «ماذا تظنّين أنّهم وجدوا هنا؟».

قالت المرأة وهي ترجع حبّة الفطر إلى السلةّ: «لا أظنّهم وجدوا شيئًا. إنّها قصّة جيّدة ولكنّ الحقيقة أنّ الناس كانوا يحفرون هنا منذ قرون بحثًا عن كنز مدفون. ولو كان ثمّة شيء فعلاً لكان اكتُشف منذ وقت طويل قبل وصول الألمان، أو هذا ما أظنّه. مع أنّه ثمّة آخرون لا يوافقونني الرأي».

سُمع صوت رعد بعيد.

سألتها ليلى: «ألم تسمعي عن الصندوق الذي أخذوه معهم؟».

لوّحت المرأة بيدها قائلةً: «آه، سمعت عنه ولكنّني لم أرَه أبدًا. وحتّى لو أخذوا معهم صندوقًا هذا لا يعني أنّ فيه شيئًا بالضرورة. ربّما كان مليئًا بالصخور أو فارغًا. لا، أظنّها مجرّد أساطير، هراء تامّ».

أخرجت حبّة فطر أخرى لتفحصها ثمّ رمتها جانبًا.

«إن كنت تريدين قصّة عن كاستيلومبر، يجدر بك الكتابة عن الولدين».

قطّبت ليلى جبينها: «الولدين؟»

«الولدان اليهوديّان، التوأم. أعتقد أحيانًا أنّهما السبب الذي يجعل كلّ من في القرية يتحدّث عن الكنز والصناديق وما إلى ذلك، لنسيان ما حدث لهما وتحويل الانتباه عنهما».

عبست ليلى مجددًا من دون أن تفهم: «أيّ توأم؟»

توقفت المرأة قليلاً ثمّ وضعت السلّة جانبًا وجلست على الحجر. سُمع صوت رعد ضعيف وراحت الأشجار تهمس للرياح التي عصفت بأغصانها.

قالت وهي تحدّق إلى التلال المكسوّة بالغابات: «أرسلهما والداهما إلى هنا من باريس بعد أن اجتاحها الألمان. دفعا مالاً لمزارع محلّي لاصطحابهما إلى هنا ظنًّا أنّهما سيكونان أكثر أمانًا هنا في الجنوب، بعيدًا عن المنطقة المحتلّة لكونهما يهوديين. كما قلت لك، لم أكن قد تجاوزت الخامسة حينها ولكنّني أذكرهما جيّدًا، لا سيّما الفتاة. فقد كنّا نلعب معًا مع أنّها كانت أكبر سنًّا، عشرة أو أحد عشر عامًا. كان اسمها حنّا واسم الصبي إسحاق». تنهّدت وهزّت رأسها مضيفة: «كم كان ذلك فظيعًا». ثمّ نظرت نحو ليلى وتابعت: «فقد عثر عليهما الألمان هنا في القصر وهما يلعبان. لم يقصدا إيذاء أحد فهما مجرّد طفلين، ولكنّ ذلك لم يشكّل فرقًا لديهم. لم يكن يفترض بأحد الاقتراب من القصر. فالرجل المسؤول – رجل فظيع وماكر – أحضرهما إلى القرية

وأوقفهما في الشارع. لن أنسى ما حييت كيف وقفا جنبًا إلى جنب مرعوبين، صغيرين، وكان الرجل يصرخ أنّه إن عصا أحد ما الأوامر مجددًا سيلقى مصير هاتين الحشرتين اليهوديتين. هكذا كان يدعوهما، حشرتين يهوديتين. ثمّ راح يضربهما أمامنا بيديه إلى أن غاب الصغيران عن الوعي. ولم يفعل أحد في القرية شيئًا لمساعدتهما، لم يرفع أحد صوته حين رماهما في الشاحنة وانطلق بعيدًا».

هزّت رأسها بحزن قبل أن تضيف: «إسحاق وحنّا، هذا كان اسمهما. أتساءل أحيانًا ما حلّ بهما، أظنّهما ماتا في غرف الغاز. ينبغي عليك الكتابة عنهما، فهما سرّ كاستيلومبر الحقيقي وليس ذاك الهراء عن الكنز المدفون. ولكن، كونك فلسطينيّة، ربّما لا تهمّك هذه المسائل».

أشاحت بنظرها مجددًا نحو التلال، ثمّ نهضت متنهّدةً، وتناولت سلّتها وهي تنظر إلى السماء التي تلبدّت بالغيوم وقالت إنّ عليها العودة.

«سررت بلقائك، أرجو أن تستمتعي بإقامتك هنا».

ابتسمت ولوّحت بيدها مودّعة، ثمّ استدارت، وابتعدت لتختفي بين الأشجار وسلّتها تتأرجح في يدها. سُمع صوت رعد ثالث، أقرب هذه المرّة، وبدأ المطر ينهمر بقطرات كبيرة وكأنّ السماء تنتحب.

القاهرة

«آه، يا أنطون المسكين. حبيبي أنطون، لماذا لم نمت معًا؟ كما كان يفترض بنا. لماذا تعذبني هكذا؟»

مدّت إينغا غراتز يدها فوق السرير وأمسكت برسغ خليفة. كانت قبضتها باردة ورطبة وقويّة على نحو غريب. أُجفل الضابط مشمئزًّا من لمستها، وكأنّها عنكبوت كبير سام لفّ قوائمه حول ذراعه. ولكنه لم يقم بأي حركة لسحب يده، فقد شعر بأنّ التحقيق بأكمله أصبح يعتمد على هذا اللقاء، وإن كان السماح للمرأة العجوز بإمساك يده سيشجعها على الحديث وإخباره بما تعرف، فلتفعل حتّى وإن كان ذلك يسبّب له بعض الغثيان.

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة ليلاً. فقد أمضى خمس ساعات يروح ويجيء أمام غرفتها ويدخّن وهو يتذكّر تكرارًا المشهد الذي رآه في الشقّة، بانتظار أن تستعيد وعيها. وحين استفاقت أخيرًا، لم يكن الأطبّاء يرغبون بإدخاله لأنّها لا تزال ضعيفة على حدّ قولهم وأنّ عليه الانتظار حتّى صباح اليوم التالي. إلاّ أنّه أصرّ على رؤيتها وهدّد برفع المسألة إلى أعلى مستوى إلى أن سمحوا له أخيرًا بمقابلتها لمدّة

خمس عشرة دقيقة، بحضور ممرضة.

كانت تتمتم وهي تشدّ أصابعها حول رسغه، فيما خرج صوتها مبهمًا ربّما بسبب الأدوية: «حشرات. لا بدّ أنّك توافقني على ذلك. جميعهم حشرات، طفيليّات. كنّا نسدي خدمة إلى العالم، عليكم أن تشكرونا».

حدّقت إلى خليفة بوجه شاحب في ظلّ المصباح الموضوع إلى جانب السرير، وكان ثمّة أنبوبان بلاستيكيان يخرجان من أنفها وكأنّهما دودتان تزحفان من داخل جمجمتها. ثمّ استدارت وبدأت تبكي. كان ثمّة أنبوب آخر مثبّتًا في ذراعها بدأت تشدّه بيدها الأخرى ما دفع الممرضة إلى الاقتراب لإبعاد يدها بلطف ووضعها تحت الأغطية. حلّ صمت طويل لم يعكّره سوى صوت تنفس العجوز غير المنتظم وصوت رذاذ مياه من حديقة المستشفى.

قالت أخيرًا من دون أن تنظر إليه، بصوت شبه مسموع أشبه بالهمس: «ديتر».

«عفوًا؟»

«ذاك هو اسم بيت الحقيقي، ديتر، ديتر هوث».

احتاج الضابط إلى لحظة لإقامة الرابط وحين فعل خفض رأسه وتنهّد، وارتسمت ابتسامة ضعيفة على زاويتي فمه، لم تكن تعبّر عن المرح بل كانت نوعًا من لوم الذات. يا إلهي! هوث - هذا ما همست به حنّا شليغل لجمال منذ خمسة عشر عامًا وهي تُحتضر على أرض المعبد في الكرنك. هوث، وليس ثوث. طيلة هذا الوقت كان يلاحق الاسم الخطأ. أخذ يتساءل عن الأمور الأخرى التي أخطأ بها. سألها: «هل كان... نازيًا؟»

هزّت رأسها بضعف: «جميعنا كنّا كذلك، وكنّا فخورين بانتمائنا، بخدمة بلدنا والفوهرر. لا أحد يفهم ذلك الآن، ولكنّه كان رجلاً طيّبًا، رجلاً عظيمًا. كان بإمكانه أن يجعل العالم مكانًا أفضل».

التفتت نحوه بنظرة عاجزة ومتوسلة، مع أنّه أصبح يرى الآن في أعماقها شيئًا آخر لم يلاحظه من قبل، وهو القسوة. وكأنّ جسدها الضعيف لم يكن سوى غطاء يخفي بداخله كائنًا شرّيرًا مختلفًا. صرّ أسنانه وقد تضاعف اشمئزازه من قبضة يدها الرطبة.

سألها: «وحنّا شليغل؟ هو الذي قتلها؟ بيت جانسن - ديتر هوث».

هزّت رأسها مجددًا بضعف: «عرفت من يكون وأتت بحثًا عنه، تلك الحشرة. لم يتوقفوا أبدًا عن البحث».

زمّت فمها ورفعت عينيها نحو السقف فيما بدأ جسدها يهتزّ وكأنّها تتلقّى صدمات

كهربائيّة صغيرة. صمتت مجدّدًا وبدا صوت دقات الساعة المعلّقة على الجدار قويًّا جدًّا في ذاك الصمت، ثمّ بدأت تتحدّث مجددًا ببطء وتروي قصّة حياتها شيئًا فشيئًا – كان اسمها الحقيقي إلزا فاوخ، زوجة فولفغانغ فاوخ، وكلاهما حارسان سابقان في معتقل رافنسبروك – وقصّة صديقهما ديتر هوث: من كان، من أين أتى، عمله مع وحدات النخبة النازية. تركها خليفة تتحدّث براحتها وعلى طريقتها وكان يطرح من وقت إلى آخر سؤالاً أو يعطي تعليقًا حين يبدو أنّها تضيع تسلسل القصّة. باستثناء ذلك أصغى إليها بصمت وراحت مختلف عناصر القضيّة والأسئلة التي حيّرته خلال الأسبوعين الماضيين تتّضح تدريجيًّا.

تمتمت وهي تحدّق إلى السقف بعينين نصف مغمضتين: «جميعنا خرجنا معًا في نهاية الحرب، نيسان 1945. أنا، فولفغانغ، ديتر، رجل آخر يدعى يوليوس شيختمان. ذهب يوليوس إلى جنوب أميركا، ونحن إلى مصر. كانت لدى ديتر معارف استطاعوا مساعدتنا».

وجد خليفة مكانًا لقطعة أخرى من الأحجية.

قال: «فاروق الحكيم».

هزّت رأسها: «كان ديتر يعرف عائلته. حينها كان شابًا، كاتبًا. ولكنّه كان ذكيًّا وطموحًا. كنّا قد أحضرنا معنا المال، سبائك الذهب، كلّ ما وقعت أيدينا عليه. فدفعنا إلى فاروق وساعدنا على الاختفاء. ولاحقًا أتى آخرون ونظّم فاروق المسائل لأجلهم. كنّا ندفع لفاروق أجرًا سنويًا فيما ضمن ألاّ يطرح أحد الأسئلة. كانت صفقة جيّدة بالنسبة إليه».

هنا تذكر لقاءه مع الرئيس محفوظ. أخبرت الحكيم عن جانسن ولكنّه قال أن نتركه خارج الموضوع، وأنّ جرّه في القضيّة سوف يزيد الأمور سوءًا. سوف يضاعف غضب اليهود. لا عجب في ذلك فالتحقيق مع جانسن كان ليكشف مسألة النازيين ويظهر مصر وكأنّها جنّة للقتلة ومجرمي الحرب، ولكان حرم الحكيم من وظيفته الثانية المربحة. كان من الأفضل بكثير ترك جانسن وشأنه وإدانة شخص آخر بمقتل شليغل، حتّى وإن كان ذاك الشخص بريئًا تمامًا.

كانت العجوز تقول: «عشنا حياةً جيّدة. فتحنا عملاً وتعرّفنا على أصدقاء جدد. وكان عددنا كبيرًا في إحدى الفترات، ولكنّهم رحلوا جميعهم الآن. أنا وفولفغانغ وديتر كنّا آخرهم. لم يتبقّ غيري الآن».

تنهّدت وتقلّبت قليلاً تحت الأغطية فيما ظلّت يدها ممسكة بذراع خليفة.

«كان علينا توخي الحذر بالطبع، لا سيّما بعد ما حدث ليوليوس. فقد شنقه

هـؤلاء الأوغـاد. ولكنّنـا عمومًـا تدبرنـا أمرنا واهتممنا بشـؤوننا الخاصـة. اعتقدنا أنّنا سنمضي بقيّة حياتنا بهدوء وسلام».

قال خليفة: «إلى أن وصلت حنّا شليغل».

تقلّص وجهها عند سماع الاسم وابتعدت شفتاها عن أسنانها فشعر خليفة أنّه لا ينظر إلى كائن بشري بل إلى حيوان شرس، كلب أو ذئب.

تمتمـت قائلـةً: «اللـه أعلـم كيف عثـرَت على ديتر، فقـد كان حريصًا جدًّا وبذل جهده لإخفاء آثاره. زيّف موته قبل أن نغادر برلين، إذ ترك ممتلكاته الشـخصيّة على جثّة ليبدو وكأنّه هو الذي قُتل أثناء القصف الروسـي. ولكن هكذا هم اليهود، أليس كذلك؟ مصاصو دماء. دائمًا يطاردون بحثًا عن الدم. دائمًا، دائمًا، دائمًا».

كانـت قـد بـدأت تضطـرب وتتقلّـب في سـريرها، بينما خرجت أنفاسـها قصيرة وحـادّة. تقدّمـت الممرضـة مجـددًا ووضعت يدها على جبين المـرأة الرمادي محاولةً تهدئتها. استغلّ خليفة الفرصة ليحرّر ذراعه عاجزًا عن احتمال لمستها، وكأنّ احتكاكه بها سـيعديه وينقل السـمّ إلى مجرى دمه. أبعد كرسـيّه عن مرمى يدها ثمّ كتف سـاقيه وانتظرها لتستجمع قواها مجددًا.

استأنفت حديثها بعد أن هدّأتها الممرضة: «لم يخبرنا بالقصّة كاملةً. شيء ما عن فرنسا، تنقيب... لم يكن واضحًا أبدًا. كلّ ما قاله أنّه أرسلها إلى المعتقلات عام 1943 وبعـد أربعـة وخمسـين عامًـا اتّصلت به من فندق في الأقصـر وطلبت مقابلته». هزّت رأسها مضيفةً: «اعتقد في البداية أنّها تسعى لابتزازه وأنّها يهوديّة طمّاعة. ولكن حين التقيا، بدأت الغبيّة تصرخ متحدّثة عن العدالة والانتقام وأنّها تحمل سكينًا ستقتله بها. صحيح أنّه كان في السـبعين حينها، ولكنّه ما زال قويًا. فضربها بقوّة ثمّ قضى عليها بعصاه. أو على الأقلّ ظنّ أنّه قضى عليها، فقد سـمعنا من فاروق أنّها كانت لا تزال حيّة حين تركها». وعلّقت غاضبة: «إنّهم كالصراصير، يصعب القضاء عليهم تمامًا».

راح خليفـة يهـزّ رأسـه وهـو لا يصـدّق أذنيه. كيف يمكن قول أمـور كهذه بكلّ هذا البرود والبسـاطة ومن قبل امرأة عجوز أيضًا. قال لنفسـه، «لا أفهم ذلك. كلّ ما يتعلّق بهذه القضيّة، وأينما قادني البحث فيها، أشـعر وكأنّني في عالم غريب. وكأنّني أتلمّس الطريق في غرفة مظلمة تعطلت فيها حواسي وغرائزي ولـم تعد لكلّ ما أعرفه وأقدّره أي أهمية».

سألها: «ماذا عن شقّة حنّا شليغل؟ هل جانسن هو من طلب منكما إحراقها؟»

هـزّت العجـوز رأسـها: «اتّصـل بنا وشـرح لنـا ما حدث. حذرنا مـن أنّها تركت ربّما ملاحظات أو تفاصيل عن كيفية وصولها إليه. كان قد أخذ محفظتها ووجد فيها

العنوان. فاتّصل فولفغانغ بشريك له في القدس وطلب منه تولّي المسألة».
أغلقت عينيها وراحت أصابعها القبيحة تشدّ بطرف الملاءة.

«المسكين ديتر لم يعد كما كان بعد ذلك. جميعنا تغيّرنا ولكنّه عرف الأسوأ. كان مذعورًا، ظنّ أنّه سيأتي المزيد منهم وأنّهم سيأخذونه إلى إسرائيل لمحاكمته. فلم يعد يقابل أحدًا ووضع الأقفال على جميع نوافذه ولم يكن ينام إلاّ ومعه مسدّس تحت السرير. وحين مات فاروق العام الماضي ازداد خوفًا لأنّنا خسرنا برحيله من كان يحمينا. هذا ما سبّب له السرطان على ما أظنّ. القلق المتواصل والخوف من وجود من يلاحقه. ربّما قتلها في الكرنك ولكنّ تلك اليهوديّة الحقيرة انتصرت عليه في النهاية، انتصرت علينا جميعًا في النهاية. هذا ما يفعلونه دومًا، هؤلاء الحثالة. طفيليات».

بدت أنّها استنفدت قواها، فقحّت الممرضة الواقفة بقرب السرير وربّتت على ساعتها مشيرةً إلى أنّ الوقت قد حان لإنهاء المحادثة. هزّ خليفة رأسه ثمّ نهض واستدار نحو الباب ثمّ عاد مجدّدًا.

«يبدو أنّ السيّد جانسن كان يحاول قبل وفاته الاتصال بالمناضل الفلسطيني الملثّم. قال إنّ لديه سلاحًا يمكن استعماله ضدّ اليهود. هل تعرفين شيئًا عن ذلك؟»

فوجئ بالمرأة تضحك، وبدت ضحكتها أشبه ببقبقة مستنقع من الوحل.

قالت وقد بدا أنّ شيئًا من القوّة عاد إلى صوتها: «لغز ديتر، هكذا كنّا نسميه أنا وفولفغانغ. كان يتحدّث عنه دائمًا ويخبرنا كيف وجد شيئًا يساعد على تدمير اليهود، كان يقول دومًا: ما زلت أستطيع إيذاءهم يا إينغا، ما زلت أستطيع إيذاء أولئك الأوغاد».

ضحكت مجدّدًا ثمّ خفضت يديها وغرقت في الوسائد.

سألها خليفة: «هل تحدّث يومًا عن ماهية هذا الشيء؟»

«كلاّ، أبدًا».

«أين؟»

هزّت كتفيها قليلاً: «أظنّه ذكر مرّة خزنة ودائع. ولكنّه قال مرّة أخرى إنّه ترك التفاصيل مع صديق قديم. من يعلم؟ كان ديتر شديد التكتم».

تنهّدت وهي تحدّق إلى السقف.

«جيل جديد، هذا ما كان يتطلّع إليه. شخص يمكنه إعطاءه له، يساعد في استعادة مجد ألمانيا مجددًا. ولكنّ السنوات مرّت ولم يحدث ذلك ثمّ اكتشف أنّه مصاب

بالسرطان فقرّر إعطاءه للفلسطينيين. سأعطيه إلى شعب يحتاج إليه، هذا ما قاله. فأرسلنا رسالة لأجله».

ضاقت عينا خليفة: «رسالة».

«إلى امرأة فلسطينيّة في القدس، ظنّ ديتر أنّها تستطيع مساعدته. المدني، ذاك كان اسمها، ليلى المدني. لا أعلم ما إذا كانت قد ردّت عليه آمل أن تكون قد فعلت. علينا أن نواصل الكفاح وأن نمنع اليهود من تسيير كلّ شيء على هواهم، هؤلاء الحثالة، الطاعون. كنّا نسدي خدمة للعالم، لا بدّ أن توافقني على ذلك، بالتأكيد أنت توافقني. نحن حلفاؤكم في النهاية، لطالما كنّا كذلك».

كانت تغمض عينيها تدريجيًّا فيما أصبح صوتها أكثر ضعفًا وبعدًا. حدّق إليها خليفة محاولاً الشعور بشيء من الشفقة ولكنّه لم يُفلح، فتوجّه نحو الباب. حين وصل كانت قد تمكّنت من رفع نفسها قليلاً لتناديه.

«سأكون بأمان أليس كذلك؟ لن تخبر الإسرائيليين؟ سوف تحميني؟ هم أعداؤك في النهاية».

توقف للحظة ولكنّه لم يجب بل خرج إلى الرواق وأغلق الباب خلفه.

مخيّم قلنديا للاجئين، بين القدس ورام الله

نهض يونس أبو جيش قبل شروق الشمس وبعد ساعتين فقط من النوم المضطرب. وبعد أن توضأ عند المغسلة خارج منزلهم الرمادي في المخيّم، عاد إلى غرفته وبدأ يصلّي الفجر محاولاً إبقاء صوته منخفضًا لكي لا يوقظ إخوته الأربعة الأصغر سنًّا الذين يشاطرونه الغرفة.

كانت قد مضت ثلاثة أيام منذ أن تلقّى اتّصال الملثّم، لاحظ خلالها المقرّبون منه التغيير الجذري الذي طرأ عليه. فوجهه النحيل والغائر أساسًا بدا أكثر التصاقًا بجمجمته فيما ازدادت عيناه اتساعًا وسوادًا، وكأنّهما مياه سوداء عميقة لا يمكن سبر أغوارها. حتّى أطباعه تغيّرت على نحو جذري. فقد كان في السابق كثير الكلام والمرح إلاّ أنّه انغلق الآن على نفسه وابتعد عن الآخرين وراح يمضي الوقت وحده في الصلاة والتأمل.

شعرت والدته بالخوف من التغيير المفاجئ الذي طرأ على مظهر ابنها وطبعه، فسألته أكثر من مرّة: «ما الخطب يا يونس، هل أنت مريض؟ هل نطلب طبيبًا؟».

كان يرغب بأن يشرح لها حاله ويخفّف الحمل عن كتفيه، ولكنّه منع من بحث

المسألة مع أيّ شخص آخر فما كان منه سوى أن طمأن والدته وكلّ من سأله بأنّه بخير وأنّ باله مشغول ببعض المسائل ولا شيء يدعو للقلق. وأنّهم سيفهمون عندما يحين الوقت المناسب.

أنهى صلاته بالتشهّد ثمّ وقف وأخذ يحدّق إلى أصغر إخوته، محمّد ذي الستّة أعوام، النائم على فراش على الأرض. كان تنفسه ناعمًا ويده النحيلة ممدّدة إلى جانبه وكأنّه يمدّها ليطال شيئًا. لم تكن المرّة الأولى التي يشعر بها بالرعب مما طُلب منه ومن فكرة أنّه يبتعد إلى الأبد عن أحبائه. ولكنّ خوفه لم يدم سوى للحظات لتحلّ مكانه على الفور قناعة أنّ حبّه لهم هو الذي يدفعه إلى سلوك هذا الطريق.

انحنى ومرّر يده فوق شعر الصبي وأخذ يخبره هامسًا كم يحبّه وكم هو آسف للألم الذي قد يسبّبه له، ثمّ نهض وتناول القرآن عن رفّ قرب سريره قبل أن يخرج ليتابع إعداد نفسه تحت سماء الفجر الرماديّة الباردة.

القدس

كانت الساعة الحادية عشرة صباحًا حين عادت ليلى أخيرًا إلى شقّتها الواقعة شرق القدس، في نهار شديد الحرارة على نحو غير معتاد في هذا الوقت من السنة. هكذا غلّفت المدينةَ غيومٌ منخفضة وثقيلة أشبه بالشاش الدبق.

ألقت هاتفها المحمول وحقيبتها على الأريكة ثمّ استمعت إلى الرسائل المسجلّة على المجيب الآلي - الإهانات والتهديدات المعتادة وسؤال الناشرين عن المقالات، ثمّ خلعت ملابسها وذهبت للاستحمام.

راحت المياه تسيل على رأسها ووجهها وهي تفكر ماذا تفعل الآن وفي أيّ اتجاه تذهب.

مهما يكن ما وجده هوث في كاستيلومبر - على الرغم من تشكّك الفرنسيّة العجوز صاحبة سلّة الفطر، كانت ليلى واثقة بأنّ هوث قد وجد شيئًا بالفعل - يبدو أنّه اختفى مجددًا في الفوضى التي عمّت عند انتهاء الحرب العالميّة الثانية وإن تُركت أي سجلاّت، فإنّها لم تكن معلنة. وعلى الرغم من وجود آلاف، لا بل عشرات آلاف الصفحات من الملفات والوثائق النازيّة التي لم تُفحص بدقّة على حدّ قول جان ميشال دوبون، سوف تحتاج إلى أشهر وسنوات للحصول على المعلومات التي تبحث عنها. هذا إن كانت المعلومات موجودة أساسًا.

ماذا أيضًا؟ هنالك الصبي الفلسطيني الذي سلّمها الرسالة الغامضة. بإمكانها الحصول على مزيد من المعلومات عن هويته وتتبّعه لتصل إلى مرسل الرسالة، أو

أن تعود إلى كنيسة القيامة وتتحدّث مجددًا إلى الأب سيرجيوس لترى ما إذا كان قد فاتها شيء خلال لقائهما الأوّل، مفتاح ما يقودها إلى ما عثر عليه ويليام دو رولينكور تحت أرض الكنيسة المرصوفة.

ولكنّها وجدت الخيارين غير مجديين. فقد أكّد لها الأب سيرجيوس عدم وجود أدلّة عمّا عثر عليه دو رولينكور كما أنّ محاولة البحث عن الصبي الفلسطيني هي أشبه بمن يبحث عن إبرة في كومة لا بل حقل من قشّ، فالبلد مليء بهم. كيفما قلّبت المسألة شعرت بأنّها أمام طريق مسدود.

تنهّدت يائسةً وهي تغلق المياه الساخنة وتفتح المياه الباردة وحدها لتتركها تنعش وجهها وجسدها. في تلك اللحظة لمع شيء في أعماق ذهنها، وكأنّها نصف فكرة أو ذكرى على علاقة بالمشكلة التي تشغلها. إلاّ أنّها اختفت على الفور وكأنّها شهاب ظهر فجأة واختفى في السماء، فانتابها شعور مزعج بأنّها فوّتت أمرًا هامًا. أغلقت صنبور الماء ثمّ أغلقت عينيها وهي تحاول العودة بذهنها إلى الخلف: الصبي الفلسطيني، الأب سيرجيوس، الكنيسة، الأرض المرصوفة. الأرض، تلك هي. أرض الكنيسة المرصوفة. لماذا هي مهمة؟ ماذا تحاول أن تتذكر؟

تمتمت قائلةً: «هيّا، بماذا كنت أفكر؟ ما كانت تلك الفكرة؟».

ظلّ ذهنها فارغًا للحظة، ثمّ سمعت صوتًا ضعيفًا. كلاك. صدىً غريبًا لشيء يطرق على الأرض. كلاك، كلاك، كلاك. ما كان ذاك بحقّ الله؟ مطرقة؟ إزميل؟ لا تذكر. فتحت عينيها ثمّ أغلقتهما مجددًا وأجبرت نفسها على التفكير في شيء آخر وكأنّها تحاول الالتفاف على الصوت من الخلف، والتقاطه من دون أن ينتبه وقبل أن يهرب. نجحت في ذلك. بالطبع! كان ذاك صوت عصا اليهودي العجوز الذي ذكره الأب سيرجيوس. يأتي كلّ يوم بانتظام، كالساعة، مقتنعًا أنّ دو رولينكور وجد الوصايا العشر أو تابوت العهد أو سيف الملك داوود - نسيت أيًّا منها. شيء يهودي قديم.

يومها صرفت النظر عن الرجل على اعتباره أحد المضلّلين الذين يحومون حول قصّة دو رولينكور كالفراشات حول النور. وعلى الأرجح هذا ما هو عليه. ولكن بعد ما اكتشفه عن سرّ كاستيلومبر، وما يربطه باليهوديّة والتاريخ اليهودي، باتت تتساءل ما إذا كان ذاك العجوز يعرف شيئًا لمساعدتها. صحيح أنّها كمن يتعلّق بأوهام ولكن بما أنّ بقيّة الاحتمالات غير واردة فإنّ الأوهام هي كلّ ما بقي لديها. على الأقلّ الأمر يستحق المتابعة حتّى وإن لم تصل لشيء، وهذا هو المرجح.

خرجت من حوض الاستحمام، وتناولت منشفةً لتجفّف نفسها قبل أن تتوجه إلى غرفة النوم. أخرجت سروالاً وقميصًا ثمّ سمعت طرقًا مفاجئًا على باب المنزل.

نادت الطارق قائلةً: «انتظر».

إلاّ أنّ الطارق لم يسمع أو لم يكن مستعدًا للانتظار لأنّ الطرق تواصل بقوّة وإلحاح أكبر وبدا أنّ الشقّة بأكملها تهتزّ تحت ضرباته. انزعجت وساورتها الشكوك فجأةً - فالطرق عنيف جدًّا ليكون من قبل فتحي أو أيّ شخص تعرفه - فارتدت سروال جينز وقميصًا قطنيًّا ثمّ تناولت منشفةً صغيرة وراحت تجفّف شعرها الرطب وهي تتوجه نحو الباب. وقفت على رؤوس أصابعها وحدّقت عبر العين في الباب.

رأت رجلاً ضخمًا عريض الكتفين يقف في الخارج، إسرائيلي، ذا وجهه حاد الملامح وأنف كبير، دسّ في حزامه مسدّسًا. شعرت لسبب ما بانزعاج فوري منه وكأنّه خطر داهم.

«نعم؟»

تجمّد الرجل، وظلّت إحدى يديه مرفوعة، ثمّ انحنى قليلاً إلى الأمام بحيث ملأت عينه العين في الباب.

قال بخشونة: «شرطة القدس، افتحي الباب».

كان بن-روي قد انطلق فور انتهاء مكالمته مع خليفة، وقطع المسافة من مخفر الشرطة إلى طريق نابلس في أقلّ من ثلاث دقائق، متجاوزًا إشارتين حمراوين ومتفاديًا بالكاد اصطدامًا مع رجل حريدي عجوز يقطع الشارع من دون أن يكلّف نفسه عناء النظر إلى السيّارات القادمة.

هوث، غراتس، شليغل، المجموعة النازية الهاربة - كانت قصّة رائعة لا بل مذهلة. ولكنّها مخيّبة للأمل أيضًا لأنّ المصري بدا أنّه حلّ القضيّة بأكملها بمفرده وأنّ مساهمته ببعض التفاصيل لم تؤدِّ فعلاً إلى حلّها.

ولكنّ ما يثيره الآن لم تكن روعة القصّة ولا الخيبة، بل ما قاله خليفة في نهاية المكالمة عن ليلى المدني والرسالة التي أرسلها هوث طالبًا مساعدتها في الاتّصال بالملثّم. كان الأدرينالين هو الذي يدفعه الآن، أدرينالين المحارب الشرس الذي يجد نفسه أخيرًا بعد أشهر من المعاناة على وشك مواجهة عدوّ طال انتظاره.

لطالما عرف أنّه سيواجهها لاحقًا، أو على الأقلّ هذا ما اعتقده خلال العام الماضي منذ أن قرأ المقال الذي كتبته. لم يستطع إعطاء سبب واضح لهوسه بها أو تفسير منطقي للإزعاج الذي تسبّب له. بالطبع، عند النظر للموضوع عن كثب - وهذا ما كان يفعله خلال الشهور الاثني عشر الماضية - يمكن رؤية بعض مواضع الخلل في نسيج حياتها وعملها، كالمقابلات التي أجرتها تقريبًا مع كلّ شاب فجّر نفسه، اللعنة، تقريبًا مع كلّ

واحد منهم! ولكن لا شيء واضح أو مؤكّد. لا شيء بالتأكيد يبرّر درجة الشكّ والحقد التي تولّدها فيه. كلّ ما يعرفه هو أنّها بذاك المقال جعلت من نفسها الرابط البشري الملموس الوحيد مع الرجل الذي فجّر حبيبته غاليا ولذلك لم يشكّ للحظة واحدة في أنّ طريقيهما سيتقاطعان يومًا ما. ولكنّه لم يتوقع أن يحدث ذلك نتيجة لهذه القضيّة. وربّما لم يكن كذلك. ربّما كان هذا ما جعله يشارك في التحقيق أساسًا - إدراك غير واعٍ أنّه سيكون السبب الذي سيجمعهما أخيرًا. لم يتمكّن من تحديد السبب ولم يكترث فعلاً. المهم هو أنّه بعد عام من المراقبة والانتظار، من البحث والتتبّع، أتت أخيرًا لحظة اللقاء وجهًا لوجه والنظر في عينيها لمعرفة ما سيراه فيهما.

كرّر وهو يسدّد لكمة أخرى إلى الباب: «هيّا، افتحي».

أتى صوتها من الجانب الآخر: «البطاقة أوّلاً».

بحث بن-روي في جيبه وهو يتمتم غاضبًا ثمّ أخرج بطاقة الشرطة وأمسكها أمام عين الباب. بعد صمت طويل، أطول بكثير ممّا يلزمها لقراءة تفاصيل البطاقة، وكأنّها تتعمّد أن تجعله ينتظر، وأن يعرف أنّها لا تخشاه، سمع صوت طقطقة وفُتح الباب.

قالت ليلى وهي تفرك شعرها بالمنشفة: «يسرّني دائمًا استقبال الشرطة الوطنيّة الإسرائيليّة».

كانت أقصر طولاً ممّا توقع وأكثر نحافةً، بحيث بدت مراهقة تقريبًا بثديها الصغير المشدود ووركيها الضيقين، وهي تفاصيل لا يمكن رؤيتها في الصور وفي الجلوس أمام شقّتها ليلة بعد ليلة وهو يراقبها تروح وتجيء أمام النافذة. رأى فيها صلابةً أيضًا وقسوةً، لا سيّما في عينيها الخضراوين الزمرّديّتين. كانت تنظر إليه من دون أن يرفّ لها جفن، من دون أن يرهبها حجمه أو قدرته على حملها ورميها بيد واحدة.

سألته: «نعم؟».

كان لا يزال مستغرقًا بتفاصيل مظهرها إلى حدّ أنّه لم يسمع السؤال على الفور فكرّرت سؤالها.

«نعم؟».

هزّ رأسه: «لديّ بعض الأسئلة». وتقدّم خطوة لدخول الشقّة.

وضعت يدها على حاجب الباب معيقةً طريقه.

«ليس من دون مذكّرة. ألديك مذكرة؟»

لم يكن يملك واحدةً.

قال غاضبًا: «يمكنني الذهاب لإحضار مذكّرة وحين أعود لن أكون بهذا اللطف».

أجابته ساخرة: «أنا أرتجف من الخوف. والآن، إمّا أن تريني المذكّرة أو تسأل ما تريد من مكانك. وعليك أن تسرع لأنّني تأخرت على موعد».

بدت هادئة، واثقة من نفسها، متعالية، وللحظة وجيزة ذكّرته بلقائه الأوّل بغاليا، حين أوقفها خلال المظاهرة المعادية للاستيطان وعاملته بالازدراء نفسه. تقلّصت ملامحه وكأنّ المقارنة صدمته، ثمّ تقدّم نصف خطوة بحيث ملأ جسده إطار الباب.

«تلقّيت مؤخرًا رسالة، رسالة تطلب منك المساعدة للاتصال بالملثّم».

لم تقل شيئًا.

«هل تعرفين عمّا أتحدّث؟».

بعد صمت قصير بدت وكأنّها تفكر كيف تجيب، ألقت المنشفة على كتفها ثمّ أجابت أنّها تلّقت فعلاً تلك الرسالة.

«وماذا حدث؟».

حلّ صمت آخر وفكرت مجددًا بجوابها.

«لا شيء. قرأتها، ثمّ مزّقتها ورميتها. تمامًا كما أفعل بالرسائل التافهة».

تفحص بن-روي ملامحها بحثًا عن إشارات للكذب - تقلّص الفم، تمدّد بؤبؤ العين، تعرّق. ولكنّه لم يجد شيئًا، وهي إمّا تقول الحقيقة أو أنّها أكثر براعة بكثير من أيّ شخص عرفه حتّى الآن.

قال محاولاً اختبارها: «لا أصدقك».

ضحكت ليلى من دون أن تبعد عينيها عن عينيه وقالت: «لا آبه ماذا تصدّق. تلقّيت الرسالة، قرأتها ثمّ رميتها. وقبل أن تسأل، كلاّ، ليست موجودة في سلّة مهملاتي. مع أنّني واثقة أنّك إن ذهبت إلى مستوعب النفايات البلدي ستحتاج إلى أسبوعين لإيجادها».

ضمّ قبضتيه مقاومًا الرغبة في صفعها.

«ما كان فحوى تلك الرسالة؟».

«يبدو أنّك تعرف أصلاً».

«ماذا كانت تقول بالضبط؟».

كتفت ذراعيها متنهدةً، وكأنّها معلمة تتحدّث إلى تلميذ مشاغب.

«لا يمكنني إخبارك ماذا كانت تقول بالضبط لأنّني لم أكلّف نفسي عناء حفظها عن ظهر قلب. أنا أحاول الاتصال بالملثّم، أعتقد أنّك تستطيعين مساعدتي، سوف أدفع لك ما تطلبين - شيء من هذا القبيل. مجرّد هراء. لم أقرأها جيّدًا، وإن كنت

تريـد النسـخة الكاملـة عليك الاتصال بزملائك في الشـين بيـت. أفترض أنّهم هم من أرسلوها».

مجدّدًا، وعلى الرغم من أنّه لم يحوّل نظره عنها ولم يفوّت أيًا من كلماتها، إلاّ أنّه فشل بإيجاد أي إشارة إلى أنّها تكذب، أو رؤية أيّ نفاق في ملامحها أو صوتها. وقد أزعجه ذلك لأنّ فطرته كانت تقول إنّها تكذب عليه، وبالتالي إمّا أن تكون فطرته مخطئـة ورادارة معطّـلاً تمامًـا أو أنّهـا تتمتّـع بدرجـة خارقة من السيطرة على الذات. وحدهما عيناها رأى في أعماقهما شيئًا آخر غير الذي تظهره، وكأنّه تعكّر طفيف في أعمـاق الميـاه إلاّ أنّـه لـم يتمكـن مـن تحديد ما إذا كان كذبًـا أو ناحية أخرى مختلفة تمامًا من ذاتها. قد تكون مجرّد خدعة ضوء.

ألـحّ قائـلاً: «هـل ذكـرت الرسـالة سـلاحًا، شـيئًا يمكـن اسـتعماله لإيـذاء دولة إسرائيل؟».

أجابته أنّها لا تذكر شيئًا مماثلاً وأنّها لكانت اهتمّت أكثر في تلك الحالة.

«هل يعني لك اسم ديتر هوث شيئًا؟»

كلاّ.

«بيت جانسن؟».

الجواب نفسه.

«سبق أن سمعت عن دايفيد بيكهام، إن كان هذا يهمّك».

وهكـذا تابـع بـن-روي إمطارها بالأسـئلة التي ردّت عليها بازدراء وسـخرية إلى نفدت أسئلته وسكت.

سألته وهي تضع يديها على وركيها وتحدّق إليه: «أهذا كلّ شيء؟ صحيح أنّني مستمعة ولكن لديّ ما أقوم به».

بدأ الهاتف يرنّ خلفها.

كرّرت: «أهذا كلّ شيء؟».

حـدّق إليهـا ويـداه مقبوضتـان، مدركًا أنّه لم يحصل على ما يريد من هذا اللقاء. لقد ربحت، في هذه الجولة على الأقلّ.

أجاب: «كلّ شيء حتّى الآن».

«حسنًا، أنت تعرف أين تجدني. وكما سبق وقلت، يسرّني دائمًا استقبال الشرطة الوطنيّة الإسرائيليّة».

حيّته بهزّة من رأسها مشيرةً أنّ عليه التراجع وبدأت تغلق الباب. إلاّ أنّها أطلّت

برأسها من الفتحة والهاتف لا يزال يرنّ خلفها.

«فقط لأخذ العلم، لا فكرة لديّ إطلاقًا عمّن يكون الملثّم أو عن مكانه أو كيفيّة إيجاده. أنا واثقة أنّ هذا لن يمنعكم من المجيء مجددًا وإزعاجي، ولكنّني فكرت أن أذكره على كل حال، ربّما تستوعبونه في النهاية».

فُتح المجيب الآلي في المكتب وتردّد صدى صوتها المسجّل عبر الشقّة: «لا أستطيع الإجابة الآن. اترك رسالةً وسوف أعيد الاتصال لاحقًا».

ثمّ أضافت: «وللمناسبة، لا أدري أيّ عطر تستعمل ولكنّه مقرف. يجدر بك أن تجرّب عطرًا آخر».

ضاقت عينا بن-روي. خلفها، ارتفع رنين قصير أعقبه صوت آخر في المدخل عميق وخشن.

«ليلى! أنا ماغنوس توبينغ. خطر لي الاتصال بك للاطمئنان إن كنت قد وصلت بخير، ولأقول لك...حسنًا، سُعدت حقًّا بالتعرّف عليك. أيضًا، نسيت أن أخبرك حين كنت هنا نقطة مثيرة للاهتمام لأجل المقال الذي تكتبينه. يبدو أنّ عالم الآثار الألماني، ذاك الذي كان ينقّب في كاستيلومبر، ديتر هوث، كان يملك قدمًا ذات أصابع متّحدة. ظننت أنّك ستحبّين تلوين مقالك بهذه المعلومة. على كل حال، اتّصلي بي إن أحببت. أتمنّى لك التوفيق».

سُمعت رنّة أخرى ثمّ ساد الصمت.

حدّقت ليلى إلى بن-روي وحدّق بن-روي إلى ليلى. وبعد توقّف قصير، رفع الإسرائيلي يده مزمجرًا لدفع الباب ودخول الشقّة ولكنّها كانت أسرع منه. أُغلق الباب في وجهه، ثمّ سمع طقطقة الأقفال وصوت أقدام تعدو.

صرخ قائلاً: «أيّتها الكاذبة الحقيرة!»

أخرج مسدّسه من حزامه وتراجع خطوةً ثمّ وجّه للباب ضربة بكتفه. ظلّ الباب مقفلاً، فحاول مجددًا عن مسافة أبعد. سُمع صوت طقطقة ولكنّ الباب بقي صامدًا.

«أيّتها العربيّة الكاذبة الحقيرة!»

حاول للمرّة الثالثة وهو يزمجر كالثور المجروح، فاستسلم الباب أخيرًا. اندفع متعثّرًا إلى الأمام ولكنّه استعاد توازنه وراح ينظر حوله بشراسة. كانت حقيبتها وهاتفها المحمول على الأريكة، ولكن لا أثر لها. ركض نحو المكتب وغرفة النوم، ولكنّه لم يجد أحدًا. رأى في الحمّام الدرجات الإسمنتيّة المؤدية إلى السطح والباب المفتوح في الأعلى فصعد كلّ ثلاث درجات معًا ليصل إلى السطح. كانت السماء فوقه رحبة وبيضاء والمدينة مترامية حوله. لا أحد. استدار ليعود وهو يفكر أنّها قد تكون في الشقّة،

ولكنّه سمع بوق سيّارة في الأسفل. فتوجّه إلى الدرابزين الصدئ المحيط بالسطح وحدّق إلى شارع نابلس الممتدّ تحته. رآها على الفور وهي تعدو بين السيّارات وكانت بعيدة عنه بحيث يستحيل عليه اللحاق بها.

صرخ عاجزًا: «أيّتها الحقيرة! أيّتها الكاذبة اللعينة!»

إن كانت قد سمعته فإنّها لم تُبدِ أي إشارة بل أسرعت إلى الأمام وعبرت شارع السلطان سليمان لتختفي بين الحشود أمام باب العامود. راح يعدو خلفها وهو يكيل لها الشتائم ثمّ أخرج هاتفه المحمول من جيبه وطلب رقمًا.

«مكتب المهمّات؟ بن-روي. أريد إطلاق إنذار فوري ضدّ ليلى المدني. ليلى المدني. نعم، الصحفيّة. أمر عاجل. إنّها في مكان ما في المدينة القديمة. أكرّر، أمر عاجل».

الأقصر

«السابعة والنصف، الثامنة على الأكثر. حالما أنتهي من جميع المسائل هنا. أنا أيضًا أحبّك، أكثر من أيّ شيء في العالم».

وضع خليفة شفتيه على السماعة وأرسل قبلة عبر الخطّ بعينين شبه مغلقتين وكأنّه يقبّل فم زينب لا السطح البلاستيكي البارد للسماعة، ثمّ أقفل الخطّ واستراح على كرسيّه وهو يحدّق إلى تمثال حورس الخشبي الذي اشتراه من القاهرة بعينين حمراوين ومنتفختين من شدّة التعب.

أوشكت القضيّة على الانتهاء والحمد لله. كان قد أخبر بن-روي بكلّ شيء ولم يتبقَّ عليه سوى طباعة تقرير للرئيس حسّاني وتحريك بعض العجلات البيروقراطيّة - نقل الآثار الموجودة في قبو جانسن إلى متحف الأقصر وتقديم طلب لإصدار عفو بعد الوفاة عن محمّد جمال - وبعدها يمكنه أن يغسل يديه من هذه القضيّة الملعونة ويستعيد حياته الطبيعيّة.

كان بحاجة إلى عطلة لتمضية بعض الوقت بمفرده مع عائلته بعيدًا عن أفكار الموت والقتل والكره. ربّما يمكنهم السفر جميعًا إلى أسوان لزيارة صديقه شعبان الذي يعمل هناك في فندق كاتاراكت القديم أو إمضاء بضعة أيام في الغردقة، وهي رحلة تحدّثوا عنها طويلاً لكنّهم لم ينفذوها أبدًا. أجل، هذا ما سيفعله، سيأخذ عائلته إلى الشاطئ. سوف تكون رحلةً مكلفة بالنسبة إليه ولكن لا بأس، سيتدبّر المال. ابتسم وهو يتخيّل وجهَي علي وبطّة حين يخبرهما عن الرحلة التي يخطّط لها، ثمّ تنهّد وأشعل سيجارة كليوباترا وانحنى فوق مكتبه.

فقبل أن يتمكن من التفكير بالعطل وإقفال القضيّة نهائيًّا ودفن ملفها في أرشيف القسم المظلم، ما زال ثمّة خيط واحد لم يتمكن من حلّه: ماهية «السلاح» الغامض الذي كان يحاول بيت جانسن تسليمه للملثّم.

كان موضوعًا جانبيًّا يمكنه ببساطة غضّ النظر عنه. ففي النهاية توصل إلى ما كان يسعى إليه: أثبت أنّ جانسن هو الذي قتل حنّا شليغل وكشف سبب ذلك وما دفع الحكيم للحرص على حمايته. أمّا موضوع السلاح فهو ذو أهميّة ثانويّة، ربّما يعني الإسرائيليين ولكن لا علاقة له بالتحقيق. على الرغم من ذلك، وعلى الرغم من الإحساس الذي كان يحذره من أنّ متابعة البحث في هذا الموضوع لن تجلب له سوى مزيدًا من المشاكل والإرباك والألم، ظلّ جزء منه - الجزء «العنيد، المتيبّس» كما يسمّيه الرئيس حسّاني - متمسكًا بذاك الخيط.

سحب نفسًا من سيجارته ثمّ أخرج الملاحظات التي دوّنها أثناء مقابلته لإينغا غراتز. أخذ يقرأ ما قالته المرأة العجوز حين سألها عن السلاح. أظنّه ذكر مرّة خزنة ودائع. ولكنّه قال مرّة أخرى إنّه ترك التفاصيل مع صديق قديم. من يعلم؟

فيما يتعلّق بخزائن الودائع، كان يعلم من خلال بحث أجراه سابقًا خلال التحقيق بأنّ أيًّا من المصارف المصريّة الكبرى لا يحتوي على خزينة ودائع باسم بيت جانسن. وبعد جولة سريعة أجراها بعد حديثه مع بن-روي، تأكّد أنّ اسم ديتر هوث غير موجود في سجلاّتهم أيضًا. ثمّ وسّع تحقيقه ليشمل مصارف أصغر حجمًا ومصارف خاصة ودوليّة، هذا قبل أن يبدأ البحث لدى مصارف خارج مصر. ولكن حتّى لو اتّصل بجميع مصارف مصر والعالم بأسره، شعر بأنّه لن يتوصل لشيء. فبعد ما عرفه عن بيت جانسن وما اكتشفه خلال الأسبوعين الفائتين، أصبح يعلم أنّ العجوز حريص جدًّا وبارع جدًّا في إخفاء أثره، لا سيّما إن تعلّق الأمر بشيء بتلك الأهميّة. وإن كان يملك صندوقًا في مكان ما فإنّه سيخفيه جيّدًا بحيث يصعب بالتأكيد إيجاده من دون بحث عميق ومعقّد.

هكذا يبقى لديه التعليق الآخر الذي قالته المرأة عن الصديق القديم. أيّ صديق؟

فكّر في الموضوع في طريق عودته من القاهرة، إذ راح يقلّب كلام المرأة في ذهنه ويراجع جميع جوانب القضيّة محاولاً معرفة الشخص الذي أشار إليه جانسن والذي قد يثق به بما يكفي لتسليمه معلومات من هذا النوع. من الواضح أنّ الزوجين غراتز لا يعرفان شيئًا. والحكيم احتمال وارد ولكنّه توفي الآن، شأنه شأن جميع أفراد

المجموعة الهاربة التي انتمى إليها جانسن. ربّما كان شخصًا لم يتوصّل إليه أثناء التحقيق أو أحد معارف جانسن أثناء انتمائه إلى وحدات النخبة النازيّة أو عمله كعالم آثار. أو ربّما شخص أقدم، مدفون في غياهب الزمن، والعثور عليه أصعب من العثور على خزنة الودائع. شعر بأنّ الأمل مفقود تمامًا.

راجع الملاحظات مرّة واثنتين وثلاث، ثمّ تنهّد وسار نحو نافذة المكتب.

تمتم قائلاً لنفسه: «انس الأمر، لمرّة واحدة في حياتك لا تكن عنيدًا ومتيبّس الرأس وانس الأمر».

أنهى سيجارته ثمّ انحنى من فوق النافذة وراح يحدّق إلى المشهد في الأسفل: سائح يتحدّث مع صاحب أحد المتاجر، عجوزان جالسان على طاولة إلى الرصيف يلعبان السيغا، صبي يربّت على ظهر كلب ألزاسي كبير والكلب يحرّك قائمتيه ويهزّ ذيله مستمتعًا بهذا الاهتمام. ذكّره هذا المشهد للحظة بمشهد آخر رآه من قبل مع أنّه لم يتمكن من تحديده. وبعدما فكر للحظة أهمل المسألة وعاد إلى المكتب لترتيب ملاحظاته.

وجد تحت كومة من الأوراق كيس الأدلّة الذي يحتوي على مسدّس جانسن، وتحت كومة أخرى وجد مفاتيح منزل الرجل ومحفظته. أخذ المحفظة وراح يحدّق إليها ثمّ وضعها جانبًا وتابع عمله. ولكنّه توقف مجددًا وتناول المحفظة وقد قلّص العبوس وجهه فجأةً. قلّبها بيده ثمّ نظر إلى النافذة قبل أن يفتحها ويُخرج من أحد الجيوب الداخليّة الصورة المغضّنة بالأسود والأبيض لجانسن وهو صبي، مقرفِص قرب كلبه الألزاسي. هنا، تردّدت في ذهنه كلمات كارلا شاو التي قالتها تلك الليلة حين قابلها في فندق مينّا-را.

أرمينيوس، إنّه حيوان كان يربّيه بيت في طفولته ولطالما تحدّث عنه. كان يقول أنّه الصديق الوحيد الحقيقي الذي حصل عليه، والشخص الوحيد الذي وثق فيه حقًّا. كان يتحدّث عنه وكأنّه كائن بشريّ.

خزنة ودائع، صديق قديم.

همس قائلاً: «تبًّا». وعلا وجهه تعبير تراوح بين الحماسة والتردّد.

تردّد قليلاً ثمّ انحنى وتناول سمّاعة الهاتف.

احتاجَ إلى اتّصالين. مصرف الإسكندريّة، فرع الأقصر، حساب خزنة ودائع باسم السيّد أرمينيوس.

«اللعنة».

«هيّا، هيّا. أين أنت؟»

نظرت ليلى إلى ساعتها مدركةً أنّ كلّ دقيقة تقرّب الإسرائيليين منها ثمّ تراجعت نحو الظلال التي تغلّف جوانب كنيسة القيامة، بينما راح قلبها ينبض بقوّة بحيث بدا لها وكأنّ جدران البناء بأكمله تهتزّ تحت ضربات مطرقة حديديّة ضخمة.

لم تكن تملك أدنى فكرة كيف اكتشف التحرّي أمر الرسالة وطلب المساعدة للاتصال بالملثّم وديتر هوث. ولكن ما تعرفه – وما عرفته منذ اللحظة التي وقعت عليه عيناها – أنّه كان خطيرًا، لا بل أخطر من أيّ إسرائيلي واجهته حتّى الآن، باستثناء هار-زيون ربّما. لهذا السبب كذبت عليه، ولهذا السبب هربت (ولاحظت أثناء ذلك سيّارة البي أم البيضاء القديمة المركونة في الخارج، نفس السيّارة التي رأتها مرّات عديدة من قبل مركونة أمام شقّتها ليلاً). ولهذا السبب أتت لرؤية اليهودي العجوز والحصول على آخر فرصة لإلقاء بعض الضوء على ما وجده دو رولينكور تحت الكنيسة. كانت مغامرةً غير مضمونة، إذ إنّ العجوز قد يكون مجنونًا أو خرِفًا، وربّما الاثنين. ولكنّه الخيار الوحيد المتبقّي، عليها أن تكتشف مع ماذا تتعامل... همست وهي تضرب العامود الداكن بقبضتها: «هيّا، أرجوك! أين أنت؟».

مرّت عشرون دقيقة أخرى، ببطء ضاعف من توترها، وأوشكت على الاستسلام مقتنعةً أنّ العجوز لن يأتي حين سمعت أخيرًا الصوت الذي كانت تنتظره بيأس – صوتًا بعيدًا لطرق العصا المنتظم.

دخل العجوز إلى القاعة المستديرة كما فعل أوّل مرّة رأته فيها، ودخل مكعّب الضريح. أخرج يرمولكًا وكتاب توراة صغير من جيبه وبدأ يصلّي، فيما راح جسده يميل إلى الأمام والخلف ويتصاعد صوته المنخفض في القبّة مثل حفيف الأوراق في الهواء. لازمت مكانها إلى أن انتهى وهي تراقب وتنتظر. وحين أعاد القلنسوة والكتاب إلى جيبه، تقدّمت وهي تلقي نظرة متوترة إلى مدخل الكنيسة ثمّ توجهت نحوه ولمست مرفقه بلطف.

«عذرًا».

استدار مترنحًا وكأنّه دمية ميكانيكيّة معطلة.

«أتساءل ما إذا كنت تستطيع أن تحدثني عن رجل يدعى ويليام دو رولينكور. أخبرني أحد الكهنة هنا أنّك تعرف عنه شيئًا ربّما».

بدا عن قرب أكثر تقدّمًا في السنّ ممّا بدا لها من بعيد. كان جسده محنيًا ووجهه مكسوًا بالتجاعيد العميقة بحيث بدا وكأنّ أقلّ حركة ستتسبّب بانهياره. كانت تفوح

منه رائحة كريهة، رائحة ملابسه المتسخة ممتزجة بشيء أعمق وأكثر بدائيّة – رائحة الفقر والفشل والفساد. عيناه وحدهما كانتا مختلفتين. فعلى الرغم من اصفرارهما، كانتا يقظتين وتوحيان أنّ ذهنه ما زال سليمًا، على الرغم من شيخوخة جسده.

أضافت وهي تلقي نظرة قلقة أخرى إلى المدخل: «لن آخذ الكثير من وقتك، مجرّد دقيقتين، خمس على الأكثر».

لم يقل شيئًا بل اكتفى بالتحديق إليها بفم نصف مفتوح، بدا أشبه بفُتحة في قطعة جلد بالية. وبعد صمت مضطرب، لم يعكّره سوى صوت رفرفة أجنحة صادر عن حمامة تدور داخل قبّة القاعة المستديرة البيضاء والذهبيّة، هزّ العجوز رأسه ثمّ استدار مبتعدًا. افترضت أنّه لن يتحدّث إليها وغاص قلبها خوفًا. إلاّ أنّه لم يتوجّه إلى المدخل بل سار نحو المقعد الذي جلست عليه منذ أربعة أيام مع الأب سيرجيوس واستراح عليه وهو يشير إليها لكي تنضمّ إليه. ألقت نظرة أخرى نحو باب الكنيسة ثمّ ذهبت للجلوس بقربه.

قال لها وهو يميل فوق عصاه: «أنت امرأة عربيّة، أليس كذلك؟ الصحفيّة».

كان صوته متقطّعًا وكأنّه آتٍ عبر اتّصال هاتفي سيئ. أجابته أنّها صحفيّة.

هزّ رأسه: «أعرف عملك». توقف للحظة ثمّ تابع: «هُراء. كذب، تعصّب، معاداة للساميّة. إنّه يثير اشمئزازي. أنت تثيرين اشمئزازي».

مال برأسه نحوها ثمّ أبعده وأخذ يحدّق إلى الأرض.

«ولكن لأكون عادلاً، ليس بقدر ما أشمئز من نفسي. عقابي الأبدي هو أن أعيش في عالم، الوحيدون الذين يرغبون بالإصغاء إليّ من أهله هم آخر من أودّ التحدّث إليهم».

ابتسم قليلاً بتعبير بعيد كلّ البعد عن المرح ثمّ انحنى إلى الأمام ووجّه عصاه نحو خطّ من النمل التي كانت تسير على طول شقّ بين البلاط.

«مضت ستّون عامًا وأنا أحاول إخبارهم. كتبت الرسائل وأخذت المواعيد، ولكنّ أحدًا منهم لم يشأ الإصغاء. وكيف يصغون إليّ بعدما فعلته؟ ربّما لو كنت أملك دليلاً لأريتهم إيّاه ولكنّني لا أملك. لا أملك سوى كلمتي ولن يستمعوا إليها، ليس بعد ما فعلته. لذا ربّما عليّ الشعور بالامتنان لاهتمامك. مع أنّني أشكّ في أنك ستصدّقيني من دون دليل، وأنا لا أملك دليلاً. لا صور ولا وثائق ولا شيء. الأمل مفقود، لم يترك هوث شيئًا».

حرصت على عدم مقاطعة مناجاته لنفسه، مع أنّها كانت يائسة لتوجيه الحديث نحو ويليام دو رولينكور وخائفةً من دخول الإسرائيليين في أي لحظة لاعتقالها. إلاّ

أنّ جملتـه الأخيـرة أوقفتها، فاسـتدارت نحـوه وتراجعت مخاوفها إزاء ما قاله العجوز للتوّ.

«هل عرفت ديتر هوث؟».

«ماذا؟» كان العجوز ما زال يحدّق إلى صفّ النمل. «آه، أجل. كنت أعمل لديه، في مصر، الإسكندريّة. كنت مختصًّا بالإيبيغرافيا».

بين ليلة وضحاها انتقل هوث وفريقه من مصر، التي كانوا ينقّبون فيها في موقع خارج الإسكندريّة، وعادوا إلى برلين لأجل اجتماع في غاية السرّية مع هيملر. تقلّصت معدة ليلى وهي تتذكر كلمات جان ميشـال دوبون. إنّه يعرف شـيئًا بالفعل. يا إلهي، إنّه يعرف شيئًا بالفعل. إلاّ إذا...

«اعتقدت أنّ هوث كان معاديًا للساميين. لماذا-»

«يوظّـف شـخصًا مثلي؟» ارتسـمت ابتسـامة مـرّة أخرى على وجـه العجوز فيما راحت يداه تطبقان وتنفتحان حول قبضة العصا. تابع قائلاً: «لأنّه لم يكن يعرف أنّني يهـودي بالطبـع. أحـدًا منهـم لم يعـرف ذلك، لا يانكون ولا سـيفيرز ولا راينرث. لم يشكّ أحد في ذلك. كيف يشكّون وقد كنت أكبر معادٍ لليهود بينهم».

تنهّـد بصـوت يائس ثمّ اسـتند إلى العامود الـذي كان يرتفع خلف المقعد وأخذ يحدّق إلى القبّة فوقه.

«لقد خدعتهم جميعًا، كنت شـديد الذكاء. رافقتهم إلى السـباقات وغنيّت معهم وشاركتهم في إحراق الكتب. كنت نازيًا مثاليًّا. هل تعرفين لماذا؟ لأنّني أحببت التاريخ وأردت أن أكون عالم آثار. هل تصدقين؟ قطعت جذوري لأنّني أردت صنع حفر في الأرض. وبما أنّني يهودي لم أكن أملك المؤهلات اللازمة في تلك الأيام، فقرّرت أن أكون واحدًا منهم. هكذا غيّرت اسمي وحصلت على الأوراق المزوّرة وانضممت إلى الحزب النازي. خنت كلّ شيء، لأنّني أردت صنع حفر في الأرض. لا عجب أنّهم لا يستمعون إليّ. يهودي أدار ظهره لشعبه. موسر. لا عجب في ذلك».

نظـر إليهـا بعينين دامعتين ثمّ أشـاح بنظره مجـددًا. لاحظت انزعاجه وعرفت أنّ عليها أن تكون حذرة. ولكن لا وقت لذلك.

سألته محاولةً إخفاء الإلحاح الذي بدا في صوتها: «ماذا حدث في الإسكندريّة؟ ماذا عنيت حين قلت إنّك لا تملك صورًا أو وثائق؟» لم يجب بل حدّق إلى شـعاع الشمس الذي كان يتخلّل زجاج القبّة، وكأنّه حبل سميك من الذهب.

صمتت ليلى للحظة ثمّ قالت من دون أن تعي فعلاً كيف سيساعد ذلك: «أعرف هذا الشعور، الكذب، الوحدة. أفهمك. نحن متشابهان، أرجوك ساعدني، أرجوك».

تناهى إليهما من الخلف صوت صراخ وخطوات مسرعة، فأجفلت والتفتت. ولكنّ الضجيج كان صادرًا عن كاهنين يعقوبيين سريانيين يسرعان للصلاة، وكان ثوباهما الأسودان يرفرفان حولهما كالأجنحة، فاستدارت على الفور. حدّق العجوز إليها مباشرةً وبدا وكأنّ عينيه تغوصان في عينيها، فيما ارتجفت شفته السفلى قليلاً. حلّ صمت آخر لا يُحتمل.

قال بصوت مسموع بالكاد: «الرابع من تشرين الثاني».

«عفوًا؟»

«يومها عثرنا عليها. الرابع من تشرين الثاني. اللوحة المنقوشة».

كان صوته منخفضًا إلى حدّ أنّ ليلى احتاجت إلى الانحناء نحوه لتسمع ما يقول.

«بعد ستّة عشر عامًا من اكتشاف كارتر لتوت عنخ أمون. أمر مثير للسخرية: أهم اكتشافين في تاريخ علم الآثار حدثا في التاريخ نفسه. مع أنّ اكتشافنا كان هو الأهم، أهم بكثير. مجرّدُ حضوره استحقّ تقريبًا جميع الأكاذيب والخيانات».

سُمعت جلبة أخرى خلفهما - أصوات، خطوات على الأرض الحجريّة - وتقدّمت مجموعة من السيّاح نحو القاعة المستديرة، جميعهم يرتدون قمصانًا صفراء متشابهة. غير أنّها بالكاد لاحظت دخولهم.

تمتم العجوز: «نعم، استحقّ تقريبًا الأكاذيب. تقريبًا، ليس تمامًا».

أنّ وهو يرفع يدًا مرتجفة ليمسح زاوية فمه حيث تكوّنت بقعة من اللعاب بين شفتيه العليا والسفلى.

«كانت لوحةً من الحجر الرملي. مستطيلة بهذا الحجم»، رفع يده الأخرى ليشير إلى المقاييس، ثمّ تابع: «من أوائل العهد البيزنطي، نحو عام 336 م. حكم قسطنطين الأوّل. كانت عبارة عن إعلان إمبراطوري لمواطني الإسكندريّة. وقد أعيد استعمالها في أساسات مبنىً إسلامي شيّد لاحقًا ولهذا السبب ظلّت في حالة جيّدة».

شعرت ليلى بقلبها ينبض ورئتيها تنعصران، كما كان يحدث حين كانت طفلة وهي تحاول أن ترى كم يمكنها أن تحبس نفسها بين أضلاعها. راحت تتوسّله في سرّها، أخبرني، هيّا أخبرني.

تابع: «كانت تعلن إتمام وتكريس كنيسة القيامة، هذه الكنيسة. كما وصفت اعتناق قسطنطين للمسيحيّة وعبادته لإله واحد ورفضه جميع الأديان الأخرى. أشياء عاديّة، لا شيء خارج عن المعتاد. باستثناء الجزء الأخير، كان الجزء الأخير هو المهم».

كان السيّاح قد تجمعوا بقمصانهم الصفراء أمام الضريح وبدأ دليلهم يشرح لهم

تاريخ الكنيسة وكان أحدهم، شابًّا ذا شعر لامع يصل طوله إلى كتفيه يأخذ صورًا بهاتفه المحمول وكان الجهاز يصدر صوتًا مع كلّ لقطة.

همس العجوز وهو يهزّ رأسه من جانب إلى آخر: «في البداية لم نصدّق الأمر، lukhnos megas, candelabrum iudaeorum. ظنّنا أنّنا فهمنا الجملة خطأً وأنّها تشير إلى شيء آخر. فالأمر لا يصدّق بكلّ بساطة. لقد ظنّ الجميع أنّها بقيت في روما، وأنّ جايسريك والفاندال حملاها معهما عام 455 حين خرّبا المدينة».

عضّت ليلى شفتها مربكة: «لا أفهم، ماذا حملا؟ ماذا تعني؟».

لا يبدو أنّه سمعها.

«كانت هنا لمدّة مائتين وخمسين عامًا، في معبد السلام. منذ أن أعادها تيتوس من أنقاض القدس. أخذها تيتوس من القدس وبعد قرنين ونصف أعادها قسطنطين. هذا ما كانت اللوحة تقوله. ولهذا السبب كان الأمر لا يصدّق. كانت تسجّل كيف أعيدت من روما ودُفنت في غرفة سريّة تحت كنيسة قسطنطين الجديدة، هبة من الربّ الواحد، رمز نور المسيح الأبدي».

مدّ يدًا مرتجفة وقال: «كانت هناك، أمام أعيننا، لمدّة ثمانمائة عام. مخبأة، منسية، إلى أن عثر عليها ويليام دو رولينكور. حاولت إخبارهم، أخبرتهم حين عدت بعد انتهاء الحرب، أخبرتهم أثناء الاستجواب، كنت أخبرهم منذ ذلك الحين. ولكنّهم لم يصدّقوني، ليس بعد ما فعلت ومن دون دليل. ولا دليل لدي، لقد احتفظ هوث بكلّ شيء. كانت هنا أمامنا».

كانت ليلى عاجزةً عن السيطرة عن خيبتها، فقد كان يتحدّث بالألغاز!

سألته هامسةً: «ما هي؟ ما التي كانت هنا أمامنا؟ ماذا دفن قسطنطين تحت الكنيسة؟» فتح عينيه ونظر إليها. سُمعت طقطقة أخرى حين أخذ السائح لقطة أخرى بهاتفه.

«قلت لك. candelabrum iudaeorum, lukhnos megas, lukhnos iudieown».

ارتفع صوتها ليملأ أرجاء القاعة المستديرة ويلفت إليها انتباه عدد من السيّاح: «ولكنّني لا أفهم! ما هذا؟ لا أفهم».

بدا أنّ العجوز أجفل من الحدّة التي بدت في صوتها وبعد صمت قصير أخذ يشرح لها.

همست حين انتهى: «ربّاه، آه يا إلهي!»

ظلّت ساكنة للحظة من شدّة الصدمة. ثمّ حدّقت إلى صاحب الهاتف ونهضت مسرعةً نحوه.

كانت خزنة الودائع جاهزةً حين وصل خليفة إلى مصرف الإسكندريّة، موضوعةً على طاولة في إحدى غرف الطابق السفلي للمصرف. أدخلته مساعدة المدير، وكانت امرأة متوسطة السنّ طلت شفتيها بأحمر الشفاه وعقدت وشاحًا حريريًا على رأسها. ملأت معه بعض الأوراق ثمّ فتحت باب الخزنة وتركته قائلةً إنّها ستكون في الخارج إن احتاج إلى شيء. انتظر حتّى أغلق الباب وهو يطرق على الطاولة بأصابعه وشعر بأنّ الجدران الخالية من النوافذ تضيّق الخناق حوله. أخيرًا أخذ نفسًا عميقًا وكأنّه على وشك القفز في حوض من المياه الجليديّة ثمّ فتح الصندوق ونظر إلى الداخل.

كان أوّل ما رآه هو محفظة، محفظة نسائيّة بلاستيكيّة فوق ملف سميك من الكرتون. تناول المحفظة وفتحها وقد أدرك حتّى قبل أن يفحص محتوياتها أنّها محفظة حنّا شليغل. كانت تحتوي على بعض الجنيهات المصريّة وأوراق نقديّة إسرائيليّة، بطاقة هوية خضراء، وفي أحد الجيوب الجانبيّة، كانت صورتا هوية صغيرتين بالأسود والأبيض أطرافهما بالية بسبب قدمهما. أخرجهما ووضعهما جنبًا إلى جنب على الطاولة. كانت إحداهما صورةً عائليّة لرجل وامرأة وطفلين صغيرين، لا بدّ أنّهم حنّا شليغل وإسحاق شليغل مع والديهما. يقف الأربعة أمام باب منزل كبير وهم يبتسمون ويلوّحون للكاميرا. وكانت الصورة الأخرى للولدين، في سنّ أكبر، وهما جالسان في الجزء الخلفي من عربة خشبيّة يضحكان. كانت أرجلهما تتدلّى من طرف العربة وتحيط كلّ منهما كتف الآخر بذراعه.

لطالما تصوّر خليفة شليغل أنّها امرأة عجوز، جثّة مشوّهة ومكسوّة بالدماء ممدّة على أرض الكرنك. وهاتان الصورتان من طفولتها - طفلة في غاية الجمال والبراءة غير مدركة للفظائع التي تنتظرها – سبّبتا له إزعاجًا يفوق كلّ ما واجهه خلال التحقيق. حدّق إليهما طويلاً وقد صدمه مدى شبهها بابنته بشعرها الأسود الطويل وساقيها النحيلتين ثمّ تنهّد ووضع الصورتين والمحفظة جانبًا محوّلاً انتباهه إلى الملف.

مهما يكن ما توقّع إيجاده – وخلال الأيام الفائتة تدافعت إلى ذهنه مئات الأفكار المجنونة حول سلاح هوث الغامض - سبّبت له محتويات الملف خيبة أمل كبيرة. لا شكّ في أنّها مثيرة للاهتمام والتساؤل، ولكنّها لم تحمل الاكتشاف الذي كان يَعد نفسه به. صور ووثائق، هذا كلّ ما وجده حين حلّ العقدة التي ربطت الملف وفتحه. كان يحتوي على مجموعة منوّعة من الوثائق التي تبيّن بعد أن تفحصها عن كثب أنّها على علاقة أقرب بالأسلحة والإرهاب منها بالآثار والتاريخ. ثمّة رسوم وخرائط ونسخ عن صفحات من كتب لم يسمع عنها سابقًا (Historia Rerum in Partibus

(Transmarinis Gestarum; Massaoth Schel Rabbi Benjamin)، صور لكلّ شيء من مواقع تنقيب وأقسام داخليّة لكنائس إلى قوس نصر كبير نُقشت عليه صورة تمثّل حشدًا من الرجال بالملابس الرومانيّة يحملون مصباحًا ضخمًا ذا سبعة فروع (قوس تيتوس في روما، استنادًا إلى ملاحظة مكتوبة على الجهة الخلفيّة للصورة). ولكنّ شيئًا على الإطلاق لا يشير إلى سلاح من أيّ نوع يمكن استعماله، على حدّ قول السيّدة غراتز، «للمساعدة على تدمير اليهود».

تابع تصفّح المجموعة بذهول وقرأ بعض الأوراق بسرعة وبعضها الآخر بتفصيل أكبر: رسم لنقش قديم باليونانيّة، اللاتينيّة والقبطيّة؛ صورة مكبّرة لجملة لاتينيّة مكتوبة بخطّ اليد («Credo id Castelombrium unde venerit relatum esse et ibi sepultum esse ne quis invenire posset»)؛ كيس بلاستيكي يحتوي على ورقة قديمة مصفرّة كُتبت عليها ستّة أسطر من الحروف العشوائيّة ووُقّعت بالحرفين GR.

لم تكن لديه أي فكرة على الإطلاق عن معناها، مع أنّه كلّما أمعن النظر فيها شعر بأنّ عناصرها غير منتقاة عشوائيًّا كما خُيّل له في البداية، لا بل إنّها على العكس مترابطة وتشكّل جزءًا من مشروع بحث واحد. إلاّ أنّه لم يستطع معرفة ماهية هذا المشروع، وعلى الرغم من افتتانه بكل ما هو تاريخي، لم تكن لديه النيّة ببذل أي محاولات لاكتشافها. المهم أنّه كلّما بحث في محتويات الملف ازداد قناعةً أنّ تباهي هوث بامتلاكه سلاحًا سريًّا، قوّة هائلة يمكن استعمالها ضدّ اليهود، لم يكن أكثر من مجرّد تباهٍ. تفاخر فارغ لرجل عجوز وحيد وخائف يائس لإقناع الآخرين، وإقناع نفسه ربّما، بأنّه ما زال شخصًا يُحسب له ألف حساب.

تمتم خليفة وهو يوشك على الانتهاء: «كنت تكذب، أليس كذلك؟ لم تكن تملك أيّ سلاح. كنت تكذب، أيّها المجرم العجوز المجنون».

ابتسم مرتاحًا لأنّ مخاوفه كانت بلا أساس ثمّ أشعل سيجارةً وتناول آخر عناصر المجموعة – مغلّف بنّي كُتب على ظاهره كلمة «كاستيلومبر». كان يحتوي على صور بالأسود والأبيض، الأولى هي عبارة عن لقطات عامة لبقايا مبنى قديم كما يبدو ومكسو بالعشب – كانت النافذةُ الطويلة المقوّسة الشكلَ الهندسي الوحيد الذي يمكن تمييزه – بينما تُظهر الصور الباقية عمليّة حفر خندق وسط تلك البقايا للمبنى، وتقوم بالحفر مجموعة من الرجال الذين يستعملون المعاول والحفارات الآليّة.

بدأ يتصفّحها بسرعة في البداية ومن ثمّ ببطء أكبر بحيث انغمس على الرغم من نفسه في عمليّة الحفر. مع كلّ لقطة كان يبدو الخندق أعمق وأوسع. وعلى عمق نحو ثلاثة أمتار بدأ صندوق بالظهور – بدا من أنّه من الذهب نظرًا للمعان سطحه

المعدني - وبدا بقربه جزء من فرع أو ذراع مقوّسة. ظهرت ذراع مشابهة قربها، ومن ثمّ أخرى قبل أن يظهر المزيد من الصندوق الذي بدا أنّه مزوّد بصندوق أعلى فوقه. ثمّ تبيّن لاحقًا أنّهما ليسا صندوقين على الإطلاق بل طبقتان لقاعدة يخرج من وسطها جذع سميك باتجاه الأذرع المقوّسة. هكذا انكشف الشيء الغريب إنشًا تلو الآخر من تحت الأرض، وصُوّرت كلّ مرحلة منه بالتفصيل، إلى أن انتُشل في الصور الأخيرة من أعماق الأرض ورُفع من الخندق قبل أن يوضع على قماش مشمّع أمام النافذة الحجريّة، التي بدت وكأنّها تحيط به مثل إطار صورة.

حدّق خليفة إلى الصورة الأخيرة لدقيقة تقريبًا، وكانت سيجارته تحترق بين إصبعيه من دون أن يلاحظها. انحنى وبحث بين الأوراق التي تفحصها سابقًا ثمّ أخرج صورةً لقوس نصر نُقش عليه مصباح ذو سبعة فروع. حمل الصورتين بقرب بعضهما وقارن مصباح القوس والمصباح الذي استُخرج أثناء التنقيب. كانا متشابهين.

عاد إلى ذهنه اللقاء الغريب الذي تمّ في الكنيس في القاهرة. تُدعى مينورا... مصباح الربّ، رمز قوّة عظيمة بالنسبة إلى شعبي. الرمز، علامة العلامات.

حدّق إلى الصورتين وأخذت عيناه تتنقّلان بينهما ثمّ وقف وتوجّه نحو الباب كانت مساعِدة المدير تنتظره في الخارج.

سألته: «هل كلّ شيء على ما يرام؟»

أجاب: «نعم، نعم. كنت أتساءل... هل يمكن إرسال فاكس إلى القدس من هنا؟».

القدس

استندت ليلى إلى جدار الزنزانة وحدّقت إلى السقف وهي تضمّ ركبتيها إلى صدرها وتلف ذراعيها حول كاحليها. كانت تحتاج إلى دخول الحمّام وألقت نظرة على حوض الألومينوم المثبّت في زاوية الغرفة، ولكنّها قاومت الرغبة باستعماله كانت تعرف أنّها مراقبة ولم تشأ إرضاءهم بأن تكشف نفسها بتلك الطريقة. سوف تضطرّ إلى استعماله في النهاية ولكنّها ما زالت قادرة على الاحتمال. تنهّدت وضمّت ساقيها محاولةً تجاهل المستطيل الزجاجي الأسود المثبّت في الباب الحديدي أمامها. تمّ القبض عليها لحظة خروجها من كنيسة القيامة، منذ أربع ساعات. كانوا فرقةً كاملة، بمن فيهم التحرّي الذي استجوبها في الشقّة. وجّهوا السلاح إلى رأسها وأجبروها على الركوع وكبّلوا يديها. لم تقاوم لأنّها عرفت أنّ ذلك سيصعّب عليها الأمور. تركوها تنتظر في المخفر لبعض الوقت ثمّ بدأ الاستجواب واستمرّ لساعتين، بمفردها هي

والتحرّي. هذه المرّة، أخبرته كلّ شيء: ويليام دو رولينكور، كاستيلومبر، ديتر هوث، المينورا - كلّ ما اكتشفته خلال الأيام القليلة الفائتة. ليس لأنّها كانت خائفة - علمًا أنّها لم تشعر بالارتياح لطريقة تحديقه إليها، وكأنّ عينيه تخترقان جمجمتها للوصول إلى عقلها وكشف أفكارها العميقة. تعاونت لأنّها لم تجد جدوى من الاستمرار بالكذب فقد بدا أنّه يعرف كلّ شيء عن المصباح ويمكنه الوصول إلى التفاصيل الأخرى واحدًا تلو الآخر من خلال دفتر ملاحظاتها والاتّصال بالناس الذين تحدّثت إليهم. كان الهروب مضيعةً للوقت. أملها الوحيد الآن هو أن يدرك معنى اكتشاف المينورا ومدى خطورة وقوعها في أيدٍ خاطئة، وأن يقبل العرض الذي قدّمته له في نهاية الاستجواب.

قالت وهي تنظر في عينيه وتصارعهما: «أنت بحاجة إليّ. أنا لا آبه بالمينورا ولكنّني أفكر في ما سيحدث لو وصلت إلى يديّ الملثّم. عليك أن تسمح لي بمساعدتك، لأنّه إن وصل الملثّم إليها أوّلاً...»

شكّت في أن يكون قد اقتنع ولكنّها فعلت ما في وسعها. أمّا إن كان مقدّرًا لها أن تؤدّي دورًا أكبر في هذا الموضوع، فهذا أمر لا يعلمه إلاّ الله. ليس في يدها الآن سوى الجلوس والانتظار.

ضمّت ساقيها بقوّة أكبر وأسندت جبهتها على ركبتيها ثمّ أغمضت عينيها وامتلأ رأسها بصورة مزعجة لمينورا ذهبيّة لم يخرج من مصابيحها النور بل خطوط لزجة من الدّم الأحمر.

في الجهة المقابلة من الباب وقف بن-روي يحدّق إليها عبر نافذة المراقبة فيما راحت الأفكار تدور في رأسه بلا توقّف. المينورا، الملثّم، مقال الجريدة، غاليا، العطر؛ جميعها تصادمت في رأسه، ظهرت واختفت، امتزجت وتفرّقت. إلاّ أنّ فكرةً واحدة ظلّت ثابتةً وسط ذاك الإعصار: يمكن للمينورا أن تساعدني.

ولكنّه لا يعرف كيف بعد، ليست لديه خطّة واضحة. كلّ ما عرفه أنّها كانت الفرصة التي طالما انتظرها، الوسيلة التي لن تعيد إليه حبيبته غاليا بالتأكيد ولكنّها ستمنحه فرصة الانتقام لها. سيكون المصباح سلاحه وطُعمه أيضًا. أجل، هكذا سيستعمله، كطُعم لجذب قاتل حبيبته، للوصول إلى الملثّم أو لجلب الملثّم إليه.

تناول جرعة من قارورته ثمّ توجّه إلى مكتبه عبر الرواق. أقفل الباب خلفه ثمّ سار نحو المكتب وأخرج الصور التي أرسلها له المصري بالفاكس.

تمتم تمامًا كما فعل أوّل مرّة رآها: «ربّاه، يا إلهي».

حدّق إلى الصور بيدين مرتجفتين أمام هول ما يرى. وبعد أن أعادها إلى مكانها تناول الهاتف وطلب رقمًا. بعد خمس رنّات أجابه صوت من الطرف الآخر.

قال بصوت منخفض وأصابعه تمسك بالقلادة الفضيّة المتدلّية من عنقه: «شالوم، هل يمكنك التحدّث؟ حدث أمر معي وأريد إخبارك به».

القدس

كان في قلب الحيّ اليهودي في المدينة القديمة، في الطرف الجنوبي للكاردو، داخل غرفة زجاجيّة سميكة، مينورا ذهبيّة - ستّ أذرع مقوّسة نحو الخارج تتفرّع من جذع مركزي، ثلاث من كلّ جهة، وترتفع كلّها كالشجرة من قاعدة مثمنة الأضلاع ذات طبقتين. يفيد النقش المرافق أنّها تقليد دقيق للمينورا الأصليّة، المينورا الحقيقيّة، تلك التي صنعها الصائغ العظيم بيزاليل، وأوّل مينورا من هذا النوع منذ سقوط الهيكل قبل ألفي عام.

مع غياب الشمس وحلول الليل تدريجيًّا، وقف باروخ هار-زيون أمام المصباح ثمّ أرجع رأسه إلى الوراء وانفجر ضاحكًا بصوت عميق ملأه الفرح. كان في الليلة الماضية يصلّي لأجل إشارة تؤكّد له أنّ ما يقوم به كان صحيحًا وأنّ الدّم والرعب كانا ضروريين. وها قد أتت تلك الإشارة. واضحة، حادّة، لا لبس فيها. المينورا الحقيقيّة، بعد مئات السنين. وظهرت له هو، دونًا عن جميع الناس. راح يضحك بلا توقّف. خلفه، تقدّم حارسه آفي خطوة إلى الأمام.

«ماذا نفعل؟».

رفع هار-زيون يده المكسوّة بالقفاز ولمس الغرفة الزجاجيّة، فيما بدأت ضحكته تخفت تدريجيًّا.

أجاب: «لا شيء، ليس بعد. سوف ننتظر لنرى. لا يجب أن يعرفوا أنّنا نعرف، ليس بعد».

هزّ آفي رأسه: «لا أصدّق ذلك. ما زلت أعجز عن التصديق».

«هذا ما قالوه جميعًا يا آفي، جميع من دعاهم الربّ. إبراهيم، موسى، إليا، يونس - جميعهم شكّوا في البداية، ولكن صوته، هو من كشف لنا هذا الشيء العظيم. وما كان ليكشفه لو لم يقصد أن يصل إلينا. إنّها الإشارة. لقد حان الوقت. فليباركنا الربّ، لأنّنا سوف نرى الهيكل يرتفع مجدّدًا في أيامنا».

حرّك كتفيه وهو يشعر بجلده يتقلّص تحت القميص ثمّ اقترب من الغرفة الزجاجيّة. من كان ليظنّ ذلك؟ من كان ليتخيّل؟ إلاّ أنّه طالما عرف أنّه سيكون

الشخص المختار، سيكون مخلّص شعبه. والآن كلّ ما عليه هو الانتظار. فليتتبّع بن-روي الموضوع وحين يتمّ العثور عليها...

همس قائلاً: «شكرًا لك أيّها الربّ، لن أخذلك. أعدك، لن أخذلك».

الأقصر

«أنت تدين لي إذًا بخمسة عشر جنيهًا. أتلعب مرّة أُخرى؟»

أنهى خليفة فنجان الشاي ثمّ نهض وأغلق صندوق النّرد مشيرًا إلى أنّه لا يريد أن يلعب أكثر.

قال زنجبيل وهو ينفخ دخان الشيشة: «جبان».

أجاب خليفة وهو يفتح محفظته ويعدّ خسائره: «لطالما كنت وسأبقى. مع أنّني لا أخشى الآن أن أخسر أمامك بل أخشى التأخّر على زينب، إنّها تعدّ الطعام ووعدتها بالعودة عند الساعة الثامنة».

نفخ صديقه غيمة من الدخان المشبع برائحة التفاح ثمّ أطلق تعليقًا ساخرًا عن أنّ خليفة يخشى زوجته.

«حان الوقت ليعود الضابط إلى البيت!».

ضحك خليفة. لم يكن هذا المزاح حسن النيّة يزعجه إطلاقًا، لا بل استمتع به هذا المساء لأنّه شعر بأنّه عاد إلى حياته الطبيعيّة بعد مشاكل الأسبوعين الفائتين. وبعد أن حيّا الموجودين تناول الكيسين اللذين وضعهما قربه على الأرض وغادر المقهى. ظلّ يسمع أصوات الموجودين لعدّة أمتار قبل أن تذوب في ضجيج السوق.

شعر أنّه في حالة ممتازة، لم يشعر بها منذ سنوات، وكأنّ حملاً ثقيلاً قد أزيح عن كاهله. كان قد سلّم التقرير النهائي للرئيس حسّاني وأرسل جميع الوثائق التي وجدها عن المينورا للإسرائيليين ليفعلوا بها ما شاؤوا، وها هو يتوجّه الآن إلى المنزل بكيسين أحدهما مليء بالمنشورات عن منتجع الغردقة على البحر الأحمر. لم يزعجه سوى أمر واحد. فحين طلب من الرئيس حسّاني إرسال نسخة من التقرير إلى الرئيس محفوظ، قال له إنّ العجوز قد توفي الليلة الماضية. أحزنه الخبر ولكن ليس كثيرًا. فكما قال محفوظ نفسه، توفي وهو يعلم على الأقلّ أنّه فعل الصواب في النهاية.

توقف لتحيّة مندور، تاجر القمصان، الذي أصبحت عادته بملاحقة المارّة وبعرض فضائل بضاعته تجذب السيّاح بحدّ ذاتها، ثمّ تابع طريقه والكيسان يتأرجحان في يده وهو يفكّر في البحر والأمواج وعائلته. قبل أن يدرك، كان يقف أمام المبنى الرمادي الذي يعيش فيه والذي كان واحدًا من صفّ من المباني المتشابهة التي تمتدّ

في الطرف الشمالي للمدينة.

توقّف قليلاً لإنهاء سيجارته ثمّ صعد السلّم الإسمنتي إلى الطابق الرابع وأدخل المفتاح في قفل الباب. لم يفتحه على الفور بل ترك المفتاح فيه وخلع حذاءه ثمّ انحنى وأخرج من أحد الكيسين حذاءً مطاطيًّا رخيصًا انتعله، وقناعًا وأنبوب غطس وضع الأوّل على وجهه والثاني في فمه. بعدها دخل إلى الشقّة غير قادر على السيطرة على انفعاله للمزحة التي سيقوم بها.

ناداهم قائلاً بصوت متقطّع بسبب القطعة المطاطيّة الموضوعة بين شفتيه: «مرحبًا، أنا هنا!»

لم يُجب أحد، فتقدّم في المدخل وهو يتساءل أين هم.

كرّر بصوت أعلى: «أنا هنا! ها قد أتى غطاس أعماق البحار!»

لم يرد أحد. أطلّ إلى المطبخ فرآه فارغًا ثمّ التفّ حول النافورة التي تتوسط الردهة وتوجّه نحو غرفة المعيشة في آخر الشقّة وهو يتقدّم منحنيًا كالبطة. اعتقد للحظة أنّهم ربّما كانوا هم الذين يمزحون معه. كم سيضحكون! كان باب غرفة المعيشة نصف مغلق فتوقّف ورفع قناعه ثمّ فتح الباب ودخل وهو يقلّد بذراعيه حركة السبّاحين.

«آه، المكان رائع هنا مع الأسماك و–»

توقّف حين رأى زينب، علي وبطّة جالسين على الأريكة بوجوههم الشاحبة والخائفة. أمامهم رأى رجلين أحدهما واقف والآخر جالس، يرتديان ملابس رماديّة. بدا واضحًا من زيّهما أنّهما ينتميان إلى جهاز أمن الدولة.

تقدّم علي ووقف إلى جانبه بعينين مغرورقتين بالدموع: «بابا! يريدون أن يأخذوك! يقولون إنّ أحدهم يريد التحدّث إليك، سوف يأخذونك إلى السجن».

نزع خليفة القناع وأنبوب الغطس وألقى نظرة على زينب التي بدت مذعورة.

سأل بصوت حاول أن يبدو فيه هادئًا وقويًّا أمام عائلته: «ما كلّ هذا؟».

نهض الرجل الجالس، الذي بدا الأكبر سنًّا وقال: «كما قال الصبي، يرغب أحدهم بطرح الأسئلة عليك. يتعيّن عليك المجيء معنا الآن ومن دون جدال».

نظر إلى مرافقه وابتسما.

«مع أنّك قد ترغب بتغيير حذائك، لا أظنّك تحتاج إليه إلى حيث سنذهب».

ثمّة سيّارة ليموزين بانتظارهم في الشارع – سوداء، لامعة، نوافذها داكنة؛ تعجّب

كيف لم يرَها وهو آتٍ. قاده الرجلان نحو المقعد الخلفي، فجلس الأصغر سنًّا إلى جانبه بينما توجّه الأكبر سنًّا إلى المقعد الأمامي قرب السائق. كان ثمّة رجل ثالث بالزيّ الرمادي نفسه جالسًا خلف المقود. شغّل المحرّك حتّى قبل أن تغلق الأبواب تمامًا، وانطلقت السيّارة على الطريق غير المستوي بسلاسة ورشاقة النمر. حاول خليفة أن يسأل عمّا يجري وإلى أين يؤخذ، وما إذا كانت لذلك علاقة ببيت جانسن وفاروق الحكيم، كما كان يشكّ. ولكنّ الرجال لم يقولوا شيئًا بل واصلوا التحديق أمامهم بتعابير من ينفّذ الأوامر. بعد قليل توقّف عن محاولة التواصل معهم وأشعل سيجارةً ثمّ راح يحدّق من النافذة ويلعن نفسه على سذاجته. كيف تخيّل أنّه يستطيع كشف شخص واسع النفوذ مثل الحكيم من دون أن يدفع الثمن. فالجهاز يهتمّ دائمًا بعناصره ويعاقب من يتعرّض لهم. كم كان ساذجًا. كان طرف سيجارته يرسم خطوطًا برتقاليّةً أمام النافذة المظلمة بسبب ارتجاف يده.

توجّهوا أوّلاً إلى وسط الأقصر، فافترض أنّهم ذاهبون إلى أحد المكاتب الحكوميّة العديدة المنتشرة وسط البلدة. ولكنّهم اجتازوا المنطقة ثمّ انعطفوا في طريق رئيسي وتوجّهوا شرقًا، نحو المطار، ما ضاعف من قلقه. حاول مجدّدًا أن يسأل الرجال عن وجهتهم لكنّهم رفضوا الإجابة. فشعر أنّ الصمت يضغط على رئتيه وكأنّ صدره ينعصر ويمنعه من التنفس.

في المطار كان الحاجز الأمامي مفتوحًا أمامهم من دون سؤال. فتجاوزوا موقف السيّارات ودخلوا بوابة جانبيّة تقود إلى المدرج. كان مؤشر السرعة يقارب 150 كلم/ساعة حين ضغط السائق على دوّاسة السرعة وقادهم عبر المدرج الفارغ نحو أبعد زاوية في سور المطار. توقّفوا هناك بقرب مروحيّة كانت محرّكاتها تعمل. اقتيد إلى خارج السيّارة فسأل مرّة ثالثة بصوت يائس عمّا يجري وإلى أين يأخذونه وما الذي سيحدث له. إلاّ أنّ الرجلين التزما الصمت وقاداه إلى حجرة المروحية حيث أجلساه على مقعد جلدي وطلبا منه تثبيت حزام الأمان.

أُغلق الباب وأُعطيت التعليمات للطيّار، فانطلقت المروحية تسير على المدرج، وأبطأت قليلاً وكأنّها تستجمع قوّتها قبل أن تسرع مجددًا وترتفع برشاقة في الهواء. حدّق خليفة إلى مبنى المطار الغارق بالنور وهو يبتعد ببطء تحته ثمّ استند على ظهره وأخذ يحدّق إلى سقف الحجرة. كان يسمع أحد الرجلين وهو يتمتم خلفه متحدّثًا عبر هاتف محمول.

من الغريب، نظرًا للظروف أنّه غفا قليلاً لأنّه لم يشعر بعد ذلك سوى بيد تهزّ كتفه وصوت يطلب منه النهوض. فكّ حزام الأمان ونزل إلى الأرض مجددًا. ظنّ

للحظة وجيزة أنّ الإقلاع لم يكن سوى حلم وأنّهم ما زالوا في الأقصر. ولكن حين نظر عبر باب المروحية والسلّم المؤدي إلى المدرج، أدرك أنّ ما جرى لم يكن حلمًا لأنّه في مطار جديد هذه المرّة، أصغر من مطار الأقصر ومختلف عنه، كما كان الهواء عابقًا برائحة غير مألوفة لم يتمكن من تحديدها في البداية ثمّ أدرك أنّها رائحة ملح البحر. أين هم بحقّ...؟ نظر إلى ساعته وأدرك أنّهم بالتأكيد ليسوا في الغردقة لأنّ رحلتهم كانت طويلة واستغرقت نحو خمسين دقيقة. الإسكندريّة؟ بور سعيد؟ ولكنّ رحلتهم لم تكن طويلة إلى هذا الحدّ. أين هم إذًا؟ شرم الشيخ؟ نعم، لا بدّ أنّهم في شرم الشيخ، أو طابا. أجل شرم الشيخ أو طابا، مع أنّه لا يفهم ماذا يفعلون في شبه جزيرة سيناء. ولكن من الواضح أنّ هذا لم يكن مقصدهم الأخير لأنّه رأى حين وصل إلى أسفل السلّم مروحيّة أخرى بانتظاره. بالكاد وجدوا الوقت للصعود على متنها الطويل الضيّق وتثبيت أحزمة الأمان قبل أن تدور محرّكاتها وتقلع في الهواء نحو سماء الليل.

همس خليفة قائلاً: «ليكن الله بعوني». وراح يتذكر جميع القصص التي سمعها عن الأشخاص الذين رماهم الجهاز من المروحيّات وتُركت جثثهم لتتحلّل بين الصخور والرمال.

طاروا شمالاً كما بدا من موقع القمر من النافذة. كانت حجرة المروحية ترتج إثر هدير المحرّكات وهم يطيرون فوق منظر صحراوي فضّي اللون بدا سطحه مخططًا بالوديان وكأنّها أفاعٍ تزحف على أرض الصحراء. مرّت عشرون دقيقة قبل أن يهبطوا مجدّدًا لتستقرّ المروحية فوق الرمال وتتوقّف شفراتها تدريجيًّا لتُغرق الحجرة بصمت ثقيل ومخيف. مال أحد الرجلين وربّت على ذراع خليفة.

«قف».

فكّ حزامه بيدين مرتجفتين وتبع الرجلين إلى مقدّمة الحجرة. فتحا الباب فبدا منه مستطيل مظلم لم يرَ عبره سوى صخور ومنحدرات تحت سماء مليئة بالنجوم.

«اخرج».

تردّد خليفة. لماذا أحضراه إلى هنا؟ ماذا سيفعلانه به؟ ثمّ قفز وأحدث حذاؤه صوتًا مكتومًا فوق أرض الصحراء الرمليّة بينما اكتسى ساعداه بطفح جلدي سبّبه البرد. أمّا الرجلان فبقيا خلفه عند باب المروحية.

قال أحدهما: «إلى هناك، اذهب».

رفع الرجل مسدّسه مشيرًا إلى اليمين نحو مبنىً حجري منخفض على بعد نحو مائة متر على أسفل انحدار صخري، معالمه غير واضحة ونوافذه مضاءة بضوء

أصفر خافت وكأنّها أعين وحش يحدّق إليه. أهو مأوى للبدو؟ أم مركز قديم لجيش الحدود؟ في الحالتين شعر خليفة بالاضطراب. التفت نحو الرجلين ولكنّهما رفعا مسدّسيهما ولوّحا له للتقدّم، فسار قُدمًا.

توقّف على بعد خمسين مترًا ونظر إلى الخلف ليلاحظ للمرّة الأولى وجود مروحيّتين أخريين مركونتين جنبًا إلى جنب على مسافة من تلك التي أتى بها. ثمّ تابع طريقه وهو يزداد قناعةً أنّ نهايته ستكون هنا وسوف يتمّ إعدامه. فما من تفسير آخر لوجوده في هذه البقعة المهجورة في هذا الوقت من الليل. ربّما يجدر به محاولة الهروب والاختباء بين الصخور، على الأقلّ ستكون فرصة للنجاة مع أنّها غير مضمونة إطلاقًا. لكنّه لم يتمكن من ذلك، لم يتمكن من مدّ ساقيه بالطاقة الكافية لذلك، فاكتفى بالتقدّم إلى أن وصل إلى المبنى ووقف على درجة أمام بابه الحديدي الصدئ.

ألقى نظرة أخيرة نحو المروحية ثمّ تمتم بصلاة بعد أن أصبح أكيدًا أنّ حياته شارفت على نهايتها. رفع يدًا مرتجفة وفتح الباب. خطا إلى الداخل وهو يتساءل ما إذا كان قد سمع بالفعل صوت الطلقة التي قتلته أم أنّ كلّ ما حوله سوف يختفي ببساطة لينتقل فجأةً إلى عالم مختلف تمامًا.

«مساء الخير، أيّها الضابط. نعتذر على إحضارك إلى هنا بهذه الطريقة، ولكن نظرًا للظروف لم نجد خيارًا آخر. تفضّل واشرب الشاي».

صحراء سيناء، قرب الحدود مع الأراضي المحتلّة

راح خليفة يرفّ عينيه. كان يقف في غرفة بسيطة منخفضة - جدران حجريّة، أرض إسمنتيّة عالية، سقف مموّج - مضاءة بقنديلين وُضع كلّ منهما في زاوية من الزوايا فوق طاولتين متداعيتين، أضاءا الغرفة بنور برتقالي ثقيل ومرتعش. كان أمامه ثلاثة رجال جالسين في مقاعد بالية، وكان ثمّة رجل رابع يقف في زاوية الغرفة متكئًا على الجدار، وجهه شبه مختفٍ في الظلّ. كان الهواء ثقيلاً وعابقًا برائحة الكاز والسيجار.

كانت ردّة الفعل الفوريّة لخليفة هي شعور غامر بالراحة. فقد انتابته نشوة عارمة، من الواضح أنّه لم يتمّ إحضاره لهذا المكان ليُقتل. وسرعان ما حلّت مكانها الصدمة، ذلك أنّ أحد الجالسين على المقاعد لم يكن سوى أحمد غلامي، وزير خارجية بلده، بنظارته المربّعة السميكة وشعره الفضّي. فتح خليفة فمه ليقول شيئًا ويسأل عمّا يحدث ولكنّ الكلمات لم تخرج من فمه، فأغلقه بعد قليل. ساد صمت

طويل والأربعة يحدّقون إليه، لم يكسره سوى هسيس المصابيح الناعم وصرير النوافذ الحديديّة الصدئة. أخيرًا أشار غلامي إلى تُرمس موضوع على الطاولة بقربه.

كرّر قائلاً: «أرجوك أيّها الضابط، تناول بعض الشاي. أعتقد أنّك تحتاج إليه بعد رحلتك. وأغلق الباب لو سمحت... إنّها ليلة باردة».

أغلق خليفة الباب وسار نحو الطاولة ليملأ كوبًا بلاستيكيًّا من الترمس. أشار له غلامي ليجلس على مقعد منخفض قربه فيما بقي الرجل الواقف في مكانه وأزاح الآخران مقعديهما ليجلسا بمواجهة خليفة تمامًا.

كان أصغرهما رجلاً وسيمًا في أواخر الثلاثينيات من عمره، شعره أسود ويضع كفيّة حمراء وبيضاء على كتفيه. تعرّف عليه الضابط على الفور، إنّه صائب مرصودي، الناشط الفلسطيني الذي دخل معترك السياسة وأصبح بطلاً، ليس بالنسبة إلى شعبه وحسب، بل والعالم العربي بأكمله بعدما تزّعم الانتفاضة الأولى في أواخر الثمانينيات (ما زال خليفة يذكر صور مرصودي على التلفزيون وهو ملفوف بالعلم الفلسطيني وراكع يصلّي أمام صفّ من الدبّابات الإسرائيليّة). الرجل الآخر الأكبر سنًّا، كان متوسط الطول ونحيلاً جدًّا يضع قلنسوة بيضاء على رأسه ويتدلّى السيجار من بين شفتيه. كان خدّه الأيمن يحمل ندبةً على شكل منجل تمتدّ من عينه حتّى ذقنه. شعر خليفة أنّه رأى الرجل من قبل ولكنّه عجز عن تحديد المكان بالضبط. ثمّ تذكر بعد بضع ثوانٍ أنّه رآه في شقّة جانسن في الليلة الأولى التي زار فيها المكان وذلك في صورة على غلاف مجلّة تايم. ماسان، مابان؟ شيء من هذا القبيل. سياسي أم أنّه جندي؟ كان إسرائيليًّا على كل حال. أمّا الرجل الرابع، الواقف، فلم يتمكن من تحديد هويّته مع أنّ شيئًا ما في شكله الضخم المتثاقل والطريقة التي يشرب بها باستمرار من قارورته الفضّية لم يُعجب خليفة. قاسٍ، وثمل أيضًا كما يبدو من مظهره. مثير للاشمئزاز. حدّق إليه قليلاً ثمّ خفض نظره وتناول رشفة من الشاي.

قال غلامي وهو يخرج مسبحةً من جيبه ويبدأ بتمرير حبّاتها بين أصابع يده اليسرى: «إذًا، ها نحن جميعنا هنا، فلنبدأ».

التفت إلى خليفة قائلاً: «أوّلاً، عليّ التشديد أيّها الضابط على السرّية التامة لما ستسمعه الليلة. السرّية التامة. أنت لم تأتِ إلى هنا ولم ترَ هؤلاء الأشخاص. هذا اللقاء لم يحدث أبدًا، هل هذا واضح؟»

كان رأس الضابط يعجّ بالأسئلة التي يودّ طرحها فضلاً عن بعض التعليقات المنتقاة عن الطريقة التي عومِل بها. ولكنّه لن يقولها أمام شخص واسع النفوذ كوزير خارجية بلده فاكتفى بقول «نعم، سيّدي». نظر غلامي في عينيه وحبّات المسبحة تتقاطر

بين أصابعه بصوت ناعم ثمّ هزّ رأسه واستراح في مقعده كاتفًا ساقيه.

«صائب مرصودي، أعتقد أنّه غني عن التعريف».

أشار إلى صاحب الكفيّة الذي هزّ رأسه نحو خليفة. كانت يداه كما لاحظ مشدودتين إلى حدّ أنّ العقد على وشك أن تخرج من جلده.

تابع غلامي وهو يشير برأسه نحو مدخّن السيجار: «اللواء يهودا ميلان، جندي سابق في بلده وهو الآن واحد من أكثر رجال السياسة احترامًا فيها وأكثرهم تنوّرًا وشجاعةً برأيي».

هزّ ميلان أيضًا رأسه نحو خليفة وهو يأخذ نفسًا بطيئًا من سيجاره.

أشار غلامي بالمسبحة إلى الرجل الذي يقف في الزاوية وقال: «التحرّي آرييه بن-روي، أعتقد أنّك تعرفه أصلاً».

رفع خليفة يده بالتحيّة من باب اللياقة وقد انزعج لأنّه لم يكتشف هوية الرجل سابقًا. لم يبذل بن-روي جهدًا لردّ التحيّة بل اكتفى بالتحديق إليه بتعابير عدائيّة. تابع غلامي: «أكرّر أيّها الضابط أنّ ما ستسمعه الليلة لا يجب أن يخرج من بين هذه الجدران الأربعة ومن رأسك. فثمّة أمور كثيرة على المحكّ، أكثر بكثير ممّا تتخيّل، ولن أخاطر بها في أحاديث طائشة. أهذا مفهوم؟».

تمتم خليفة مجددًا: «نعم سيّدي»، وكان يائسًا ليعرف ما الذي يحدث ولكنّه يشعر أنّ موقعه لا يسمح له بالسؤال وأنّ سبب وجودهم هنا لن يُكشف له إلاّ بحسب جدول غلامي. حدّق إليه وزير الخارجية من خلال نظارته السميكة ذات الإطار الأسود ثمّ التفت إلى ميلان ومرصودي، فهزّ كلاهما رأسه وكأنّهما يقولان: «حسنًا، أخبره».

استراح غلامي في مقعده وحدّق إلى حبّات المسبحة قائلاً: «حسنٌ جدًّا». حين تحدّث مجددًا أتى صوته منخفضًا وكأنّه كان قلقًا من أن يسمعه أحد حتّى هنا وسط الصحراء المهجورة. «خلال الشهور الأربعة عشر الماضية جعلت حكومة جمهوريّة مصر العربيّة هذا البناء مكانًا آمنًا ومحايدًا للسيّد مرصودي واللواء ميلان لكي يلتقيا ويتحدّثا فيه، بعيدًا عن الإعلام وضغوط الأوضاع السياسيّة المحليّة في بلادهم. لقد أمضى الرجلان حياتيهما وهما يناضلان لأجل شعبيهما، وقد مُني الاثنان بخسائر عظيمة على المستوى الشخصي باسم هذين الشعبين» - تحرّك ميلان في مقعده وألقى نظرة سريعة نحو بن-روي - «وقد توصّل كلّ منهما بشكل مستقلّ إلى الاستنتاج بأنّ شعبيهما متوجّهان إلى كارثة ما لم يتمّ إيجاد طريقة جديدة تمامًا لتعاملهما معًا، طريق مختلف يسلكانه. وكان هدفهم هنا هو محاولة إيجاد ذاك الطريق، ووضع مقترحات من أجل تسوية قابلة للتطبيق ودائمة إن شاء الله، للنزاع الذي يمزّق تلك البلاد منذ

زمن طويل».

مهما كان ما توقّعه خليفة، إلاّ أنّه لم ينتظر ذلك. عضّ شفته وتنقلّت عيناه من غلامي إلى مرصودي إلى ميلان ومن ثمّ إلى غلامي، وشعر بالخوف يتسلّل إلى أضلاعه مثل سبّاح يعرف أنّه بعيد عن الشاطئ ولكنّه بدأ يدرك أنّه أبعد بكثير ممّا تخيّل.

حلّ صمت قصير تردّدت فيه أصداء كلمات غلامي وكأنّها آتية من أعماق كهف مظلم، ثمّ أشار وزير الخارجية نحو مرصودي ودعاه للكلام. مال الفلسطيني إلى الأمام.

قال وعيناه البنّيتان تلمعان في ضوء القناديل: «لن أضيع وقتك بالتفاصيل أيّها الضابط. كلّ ما ينبغي أن تعرفه حاليًا هو أنّ لقاءاتنا هنا خلال الشهور الأربعة عشر الماضية، والتي لم تخلُ من الكلمات المرّة، أؤكد لك» – ألقى نظرة نحو ميلان – «أنتجت مجموعة من المقترحات المتقدّمة باسم السلام والتي تشتمل على مخاطر أعظم وتنازلات أكبر ممّا تمّ التفكير فيه من قبل لدى كلاّ الطرفين».

كان ثمّة كوب من الماء قربه على الأرض رفعه وتناول رشفةً صغيرة منه.

«أفهم أنّنا مجرّد أفراد ولا نمثّل حكومتينا ولا نملك أيّ دعم رسمي لهذه المحادثات. لا نملك سلطةً شرعيّة لتنفيذ المقترحات التي توصلنا إليها. كلّ ما نملكه، لأنّنا تمامًا كما شرح السيّد غلامي أمضينا وقتًا طويلاً ونحن نحارب لأجل قضيّتينا، هو الإيمان وثقة أكثريّة شعبينا. ما يكفي من الثقة والإيمان على ما أظنّ لكي يصغوا إلى أفكارنا ويدعموها لأنّها لو أتت من شخص آخر لاعتبروها مثاليّة لا جدوى منها أو خيانةً عُظمى».

نفث ميلان بقربه غيمة من الدخان وبدا أنّ الندبة الممتدّة فوق خدّه تلمع في الضوء الخافت وكأنّها عرق من الكريستال.

قال الإسرائيلي وهو يتابع الحديث بصوته العميق والبطيء: «نحن لا نسير وراء أوهام. المقترحات التي وضعناها هي مثار جدل كبير وسوف تحتاج إلى تضحيات عُظمى من كلاّ الطرفين كما أنّ تطبيقها سيكون محفوفًا بالألم والنزاع والشكّ. وسوف تستغرق الجراح وقتًا طويلاً لتندمل، جيلاً، جيلين، وربّما ثلاثة. وحتّى عندئذٍ، سوف يكون ثمّة أشخاص من كلاّ الطرفين رافضين الانضمام لنا».

قال مرصودي: «ولكن على الرغم من ذلك، لدينا اعتقاد أنّنا لو استطعنا إقناع أغلبيّة شعبنا بقبولنا، تبقى هذه المقترحات الفرصة الأفضل، وربّما الوحيدة لإيجاد حلّ واقعي ودائم للمشاكل التي تمزّق أرضنا. كما أنّنا نعتقد أنّهم حين يروننا واقفين معًا

جنبًا إلى جنب، بعد أن كنّا طويلاً عدوّين لدودين واتّحدنا الآن لأجل السلام، فإنّ الأغلبيّة سوف تقتنع. عليهم أن يقتنعوا بصراحة. لأنّ ما يجري الآن...»

هزّ كتفيه وسكت. راح ميلان يدخّن من سيجاره وغلامي يمرّر حبّات المسبحة بين أصابعه، وفي الزاوية، كان بن-روي يعبث بالقارورة وقد قلّص العبوس جبهته، إلاّ أنّ خليفة لم يعرف ما إذا كان ذلك بسبب عدم موافقته على ما سمع أو بسبب أفكار أخرى تدور في رأسه الضخم. تناول رشفة أخرى من الشاي الذي بدأ يبرد ثمّ أخرج سيجارةً وأشعلها. مرّت خمس عشرة ثانية، عشرون.

قال بصوت ضعيف أشبه بصوت طفل جالس في غرفة مليئة بالكبار: «لا أفهم، ما علاقة ذلك بالحكيم؟».

بدا الإرباك للحظة على وجه غلامي ثمّ ضحك حين أدرك ما يدور في رأس خليفة.

هزّ رأسه قائلاً: «هل ظننت... فاروق الحكيم كان مجرّد نذل. إنّه مصدر خزي لمهنته وبلاده. لقد أسديت لنا خدمة حين كشفت أمره. اطمئنّ، نحن لم نحضرك إلى هنا عقابًا على كشفك أسراره الصغيرة القذرة».

أخذ خليفة نفسًا متوترًا من سيجارته ثمّ نفث الدخان قبل أن يبلغ رئتيه.

«إذًا لماذا؟ لماذا تخبرونني بكلّ ذلك؟».

نظر غلامي في عينيه للحظة ومن ثمّ إلى ميلان. استند الإسرائيلي إلى ظهر مقعده وراح يحدّق إلى خليفة. حلّ صمت طويل.

سأله أخيرًا: «ماذا تعرف عن المينورا أيّها الضابط؟».

فوجئ المحقّق مجددًا. تردّد مربكًا أمام نظرة ميلان الثاقبة.

«لا أفهم ما علاقة-»

وضع غلامي يده على ذراعه برفق وحزم ليشير له أنّ عليه الإجابة عن السؤال. فهزّ خليفة كتفيه عاجزًا.

«لا أعرف. إنّها... كانت موجودة في معبد القدس وضاعت حين سقطت المدينة في أيدي الرومان...»

راح يخبرهم بكلّ شيء وجده خلال اليومين الأخيرين، ولم يكن بالكثير. أصغى ميلان بصمت وعيناه مثبّتتان عليه. حين انتهى، نهض الإسرائيلي وتوجّه نحو ترمس الشاي وصبّ لنفسه فنجانًا وهو يحدّق إلى شعلة القنديل المتراقصة التي حوّلت لون دخان سيجاره إلى البرتقالي بحيث بدا وكأنّه محاط ببطانيّة من النار. حلّ صمت طويل آخر ثمّ بدأ ميلان يتحدّث بصوت عميق وأجشّ أكثر من قبل، بدا بالكاد مسموعًا.

«كلّ ديانة أيّها الضابط لديها شيء أو رمز مقدّس أكثر من أيّ الأشياء الأخرى، يجسّد جوهر تلك الديانة. بالنسبة إلى المسيحيين، فهو الصليب الأصلي، وإلى المسلمين فإنّه الكعبة في مكّة. أمّا الشعب اليهودي، شعبي، فلديه المصباح القدّس. (آية من التوراة)- لطالما كان المصباح بالنسبة إلينا نور الخلق والإيمان والكينونة. لهذا السبب، ومن بين جميع محتويات الهيكل القديم، هي التي احتلّت المكانة الأعلى. ولهذا السبب اختيرت في أيامنا رمزًا لدولة إسرائيل. لأنّه ما من شيء أثمن أو أكثر قداسة منها وما من رمز أصدق تعبيرًا عنها وعمّا نسعى أن نكون عليه كشعب. لأنّ نور المينورا المقدّسة مستمدّ ببساطة من نور الله. لا يمكنني صراحةً أن أعبّر بما يكفي عن قوّتها ومعناها».

أخذ نفسًا طويلاً وبطيئًا من سيجاره واختفى وجهه خلف ستارة كثيفة من الدخان.

استدار نحو خليفة ببطء وانعكس ظلّه على الجدار خلفه، ثمّ قال: «والآن أيّها المحقّق، وبفضلك، فإنّ المينورا الأصليّة، المينورا الأولى، مينورا المينورات التي صنعها بيزاليل في الأزمان السحيقة والتي اعتُقد أنّها ضاعت للأبد، عادت فجأةً بعد كلّ هذه القرون. لن أتمكن أبدًا من شرح أهمية ذلك، والأهمّ خطورته».

ارتفع صوته قليلاً عند تلك الكلمة الأخيرة التي تردّدت أصداؤها وملأت الغرفة. والخوف الذي كان ينتاب خليفة خلال الدقائق العشر الأخيرة، نتيجةً لشعوره بأنّه يتورّط في أمر يفوق قدرته على الفهم، أصبح فجأةً أكثر حدّة.

«ولكنّ هذا لا-»

شدّ غلامي مجددًا على ذراع خليفة مشيرًا له أن يصمت ويصغي. سحب ميلان نفسًا من سيجاره من دون أن يرفع عينيه عن وجه خليفة.

«من الخصائص الغريبة في المنطقة التي نعيش فيها أيّها المحقّق، هي أنّ الرموز كانت دائمًا أهمّ من حياة البشر. فموت الإنسان قد يكون مأساويًّا ولكنّ الحزن يختفي مع الزمن. أمّا انتهاك قدسيّة شيء ما فلا تُنسى ولا تُغتفر أبدًا. تخيّل ردّة فعل شعبك مثلاً لو قام الإسرائيليون بهدم الكعبة. إن المينورا مهمّة بالنسبة إلينا. ولو وقع شيء بهذه الأهميّة في أيدٍ خاطئة، يدي شخص كالملثّم، ودنّسه أو دمّره، تأكّد بأنّ الجرح الذي سيتسبّب به سيكون أعمق من ألف عمليّة تفجيريّة، لا بل عشرة آلاف. فمن الممكن تجاوز الخسائر البشريّة، أمّا خسارة شيء مقدّس فألمها لا يموت أبدًا. لا بعد جيل ولا جيلين ولا ثلاثة، ولا ثورة الغضب التي تنتج عنها».

نفض الرماد من طرف سيجاره ثمّ رفع يده وفرك عينيه. بدا وجهه متعبًا فجأة

وكتفاه منخفضتين وكأنّ شيئًا ما يضغط عليهما من الأعلى.

«إنّ شعبينا يترنّحان على حافة الهاوية أيّها الضابط. ونظنّ أنّنا نستطيع إنقاذهما، حتّى الآن بالرغم من الدمّ الذي سُفك. ولكن لو تمّ العثور على المينورا من قبل الملثّم أو جماعات أصوليّة يهودية، وهي كثيرة أؤكّد لك، وجميعها ينتظر رايةً كتلك ليجمع خلفها قوى التعصّب» - في زاوية الغرفة تحرّك بن-روي بانزعاج وراحت أصابعه تعبث بالمينورا المعلّقة حول عنقه - «صدّقني لو حدث ذلك سوف نُقذف جميعنا في الفراغ ولن تجدي أي عمليّة سلام على الأرض لإخراجنا منه».

كانت سيجارة خليفة تحترق بين إصبعيه مخلّفةً خطًّا من الرماد تدلّى من طرفها. كان يشعر بشيء ما على وشك أن يُقال، شيء لا يريد سماعه.

تمتم بضعف: «الملثّم لا يعرف شيئًا عن المينورا. لقد مات هوث قبل أن يتمكن من إخباره».

هزّ مرصودي رأسه: «لا يمكننا أن نكون واثقين من ذلك. نعرف أنّ هوث كان يفعل كلّ شيء بوسعه للاتّصال بالملثّم. ربّما فشل وربّما لا. ربّما كان الملثّم يبحث عن المينورا ونحن نتحدّث الآن، هو أو أشخاص آخرون. لا يمكننا المخاطرة».

جفّ حلق خليفة وتقلّصت معدته. إنّهم يقومون بمناورة ضدّه، كان يشعر بذلك. يحشرونه في الزاوية كما كان يحدث حين كان طفلاً، حين اعتادت عصابة من الأطفال الأكبر سنًّا مطاردته في أزقة الجيزة إلى أن يلحقوا به في النهاية ويضربوه.

كرّر سائلاً: «لمَ تخبرونني بذلك؟».

سُمعت ضحكة ساخرة من زاوية الغرفة.

«لماذا بحقّ الله تظنّ أنّهم يخبرونك بذلك؟».

كانت تلك هي المرّة الأولى التي يتحدّث فيها بن-روي.

«أنت من بدأ ذلك، ساعد الآن على إنهائه».

نظر خليفة حوله وشعر بأنّ جبينه ينبض ألمًا، وكأنّ فيه شيئًا حيًّا يدّق صدغيه من الداخل.

«ماذا يعني، ساعد على إنهائه؟ لماذا أحضرتموني إلى هنا؟».

بدا يائسًا. نزع غلامي نظارته ليتفحصها ثمّ أعادها مجددًا. بدا وجهه مثل ميلان متعبًا ومتقلّصًا فجأة.

قال بهدوء: «يجب العثور على المينورا أيّها الضابط. يجب العثور عليها بسرعة ومن دون أن يدرك أيّ فريق آخر أنّها لا تزال موجودة».

حلّ صمت قصير بعد ما قاله ثمّ نهض خليفة واقفًا.

«كلاّ».

صدر رفضه بصوت عالٍ أجفله إلاّ أنّه عجز عن إيقاف نفسه حتّى أمام شخص بنفوذ غلامي. لم يشأ المشاركة بذلك. لم يشأ أن يعرف شيئًا عن إسرائيل أو اليهود أو المينورات. لم يرغب أن يعرف أبدًا، منذ البداية، مهما يكن ما قالته زينب السعي نحو ما لا يفهم لكي يصبح شخصًا أفضل. كلّ ما أراده هو أن يعيش حياةً عاديّة وطبيعيّة مع عائلته، وأن يتابع عمله ويرتقي السلّم. ولكنّ ما يُطلب منه الآن كان أكبر بكثير من قدراته.

كرّر وهو يهزّ رأسه: «كلاّ».

«ماذا تعني، كلاّ؟».

تقدّم بن-روي خطوةً وعيناه ملتهبتان غضبًا، إلاّ أنّ خليفة تجاهله ووجّه حديثه إلى غلامي.

«أنا رجل شرطة. ليس لهذا... علاقة بي!»

همس بن-روي غاضبًا: «بل له علاقة بك. ألم تسمع؟».

تجاهله خليفة: «هذا ليس مسؤوليّتي. لا أريد المشاركة به، لا أريد التورّط بهذا الموضوع».

قال بن-روي بوجهه المحمّر: «من يأبه بما تريد؟ ثمّة أمور أكثر أهميّةً هنا».

«أرجوك، آرييه». حاول ميلان وضع يده على كتف بن-روي ولكنّه أبعدها قائلاً: «من يظنّ نفسه!»

«آرييه!»

«لا يريد التورّط بالموضوع. من يظنّ نفسه، هذا المسلم الوقح!»

تقدّم خليفة وقد شدّ قبضتيه. لا يذكر أنّه فقد أعصابه تمامًا أكثر من مرّتين أو ثلاث في حياته وتلك إحداها.

قال غاضبًا ولم يعد يأبه بالمكان أو الأشخاص الموجود معهم: «كيف تجرؤ! كيف تجرؤ أيّها اليهودي اللعين المتعجرف!»

«خليفة!»

نهض كلّ من غلامي ومرصودي أيضًا.

راح بن-روي يكيل الشتائم وهو يلوّح بيديه قائلاً: «سأقتله!»

تمكن ميلان من الإمساك بسترته وراح يشدّه إلى الخلف، فيما وقف مرصودي

أمام خليفة الذي كان يتقدّم أيضًا فأمسك بكتفيه وصدّه.

أخذ بن-روي يطلق الشتائم وهو يلوّح بإصبعه نحو المصري الذي راح يردّها له، كلّ بلغته. أخيرًا صرخ غلامي «كفى!» فصمت الاثنان وظلاّ يتنفسان بسرعة. تبادل غلامي ومرصودي وميلان النظرات ثمّ أمر وزير الخارجيّة خليفة بمغادرة الغرفة حتّى يهدأ. فألقى نظرة غاضبة على بن-روي ثمّ توجّه نحو الباب ليفتحه ويخرج قبل أن يغلقه خلفه بقوّة. راح يتنفس بعمق الهواء النظيف البارد والمنعش ثمّ توجّه نحو صفّ من الصخور السوداء على بعد ثلاثين مترًا. جلس عليها وأشعل سيجارةً.

مرّت بضع دقائق في صمت تام لم يعكّره سوى صوت النسيم. كانت السماء فوقه مضاءة بعدد لا يُحصى من النجوم البرّاقة. أخيرًا فُتح الباب مجددًا وتوجّه شخص نحوه، كان مرصودي.

سأله الفلسطيني وهو يضع يده على كتفه: «إزيّك؟ هل أنت بخير».

هزّ الضابط رأسه: «أنا آسف. كان عليّ...»

شدّ مرصودي على كتفه مطمئنًا: «صدّقني، هذا ليس شيئًا مقارنةً بما سمعه هذا المكان خلال الشهور الأربعة عشر الماضية. إنّه وقت صعب ولا مفرّ من الكلام القاسي».

شدّ على كتفه مجددًا ثمّ جلس بقربه. غلّفهما صمت طويل. كان العالم المحيط بهما ساكنًا تمامًا، كذاك السكون التام الذي لا تشهده سوى في الصحارى وأعالي الجبال. أخيرًا رفع مرصودي ذراعه وأشار إلى السماء.

سأله: «هل ترى هناك، تلك المجموعة من النجوم البرّاقة؟ كلاّ، هناك. أجل، هناك. نسمّيها الدبابة. وذاك الخطّ من النجوم في الأسفل هو طريق الجرّارات، وتلك إلى جانبها هي البارجة، وهناك، المسدّس. تبع خليفة حركة إصبع الفلسطيني يراقبه وهو يرسم ببطء الشكل الذي أصبح يبدو بالفعل وكأنّه دبابة».

وجّه مرصودي يده نحو مجموعة أخرى: «وهناك، الكلاشينكوف، هل ترى ذراعه وفُوّهته؟ وهناك القنبلة اليدويّة: الجسم، الذراع والخيط. في جميع أنحاء العالم يحدّق الناس إلى السماء ويرون الجمال. أمّا في فلسطين فلا نرى سوى أسلحة حرب».

تناهى إليهما عواء ذئب من بعيد، ثمّ اختفى الصوت على الفور. سحب خليفة نفسًا من سيجارته وشدّ سترته حوله من البرد.

همس قائلاً: «لا أستطيع ذلك، أنا آسف ولكنّني لا أستطيع العمل معهم».

ابتسم مرصودي بحزن ثمّ أرجع رأسه إلى الخلف وحدّق إلى سماء الليل.

«أتظنّني لا أشعر بالشيء نفسه؟ لقد مات أبي في سجن إسرائيلي، وحين كنت في التاسعة شاهدت أخي يُقتل بقذيفة أمام عيني. هل تظنّ أنّني أريد التحدّث معهم بعد كلّ ذلك، أن آتي إلى هنا وأتفاوض. صدّقني، لديّ أسباب لكرههم أكثر بكثير من أسبابك».

واصل التحديق إلى السماء بوجه بدا شديد الشحوب في ضوء القمر.

قال بهدوء: «ولكنّني أتيت إلى هنا وتحدّثت معهم. وهل تعرف؟ خلال الشهور الماضية، أصبحنا أنا ويهودا صديقين. نحن من أمضينا حياتنا نحارب بعضنا، أصبحنا صديقين مقرّبين».

أنهى خليفة سيجارته ورماها في الظلال، واستمرّ عقبها يومض لبعض الوقت قبل أن ينطفئ تدريجيًّا.

تمتم قائلاً: «إنّه بن-روي. لو كان شخصًا آخر... ولكنّ بن-روي... إنّه خطير. أرى ذلك في عينيه. كلّ ما فيه يوحي بالخطر. ببساطة لا أستطيع العمل معه».

وضع مرصودي يديه في جيبي بنطاله.

«لديك زوجة أيّها المحقّق؟».

أجاب خليفة بهزّة من رأسه.

«يبدو أنّ بن-روي كان على وشك الزواج».

«وماذا إذًا؟».

«قبل شهر من زفافه قُتلت خطيبته في عمليّة تفجيرية تبّناها الملثّم».

هزّ خليفة رأسه قائلاً: «الله أكبر. لم أكن أعرف».

هزّ مرصودي كتفيه ثمّ أخرج يديه من جيبيه ورفع إصبعين مربّتًا على شفتيه مشيرًا إلى خليفة أنّه يرغب بسيجارة. أخرج المصري علبة السجائر وأشعل له واحدةً، فأضاء وجه الفلسطيني الوسيم بشعلة القدّاحة للحظة قبل أن يغيب في الظلال مجددًا.

قال بهدوء: «بعد ستّة أيام سيتمّ تنظيم سباق في وسط القدس. وقد اخترنا أنا ويهودا ذاك السباق كمكان للإعلان عمّا كنّا نقوم به خلال هذا العام. سوف نعرض مقترحاتنا ونعلن عن تشكيل حزب سياسي جديد، حزب إسرائيلي فلسطيني مشترك للتعاون والسلام، سوف يعمل على تنفيذ مقترحاتنا. وكما قال يهودا سوف يستغرق الأمر سنوات، لا بل أجيالاً ولكنّني أعتقد حقًّا أنّنا نستطيع النجاح. أمّا إن وقعت المينورا في أيدٍ خاطئة فإنّ كلّ ما عملنا لأجله، وكلّ آمالنا وأحلامنا...»

أخذ نفسًا آخر طويلاً وراح يحدّق إلى الأرض.

«ساعدنا أيّها الضابط. من مسلم إلى مسلم، من رجل إلى رجل، من كائن بشري إلى كائن بشري آخر. أرجوك ساعدنا».

لم يسع خليفة قول شيء. أطلق تنهيدةً عميقة وراح يحرّك قدمه فوق الرمال ثمّ هزّ رأسه موافقًا. مدّ مرصودي يده وشدّ على كتفه مجددًا ثمّ شبك ذراعه وقاده نحو البناء.

استمرّ الاجتماع لساعة أخرى تولّى أثناءها خليفة وبن-روي معظم الحديث. كانا يتكلّمان ببرود ويتجنّبان النظر إلى بعضهما. راجعا جميع المعلومات التي لديهما عن هوث والمينورا وحاولا تضييق البحث ووضع خطوط التحرّك المحتملة. أمّا الرجال الآخرون فأصغوا إليهما بصمت مطلقين تعليقًا من وقت إلى آخر. كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل حين سكتا أخيرًا.

قال ميلان: «ثمّة أمر أخير يتعيّن علينا مناقشته، ويتعلّق بالمدني. ماذا نفعل بها؟».

أنهى غلامي محتويات الفنجان الذي كان يحمله بيده، ثمّ سأل: «ألا يمكن إبقاؤها في السجن حتّى انتهائنا؟».

هزّ مرصودي رأسه: «إنّها معروفة جيّدًا لدى شعبي ومحبوبة من قبلهم. إبقاؤها قيد الاعتقال سوف يلفت الانتباه. وهذا أمر علينا تجنّبه في الوقت الحاضر». سأل غلامي وهو يسحق الكوب ويرميه في سلّة المهملات: «إذًا؟».

لم يجب أحد بل حدّقوا جميعًا إلى الفراغ غارقين في أفكارهم. كانت الظلال قد أصبحت أكثر كثافة لأنّ الكاز أشرف على نهايته. مرّت دقيقة كاملة.

«يمكنها العمل معي».

كان بن-روي هو الذي تحدّث، فنظر إليه الجميع.

قال: «إنّها تعرف بقدر ما نعرف عن هوث واكتشاف المينورا وربّما أكثر. كما أنّها تفهم ما يمكن أن يحدث لو وضع الملثّم يديه عليها. علينا الاستفادة منها».

بدا اقتراحًا معقولاً وافق عليه غلامي ومرصودي وميلان. وحده خليفة بدا متردّدًا ووجهه يعلوه العبوس. راح يحدّق إلى وجه بن-روي، وبالطريقة التي يرطب بها شفتيه بلسانه كما يحدث في استجوابات الشرطة حين يكون المستجوَب متردّدًا جدًّا ويحاول إخفاء شيء ما. قال لنفسه، ثمّة ما لا نعرفه هنا، ثمّة ما لم تخبرنا به. ليست كذبة، بل مجرّد... أجندة أخرى. أم أنّه يكره الرجل إلى حدّ أنّه لا يصدّق كلّ ما يقول؟ قبل أن يتمكن من اتّخاذ قرار، وقف غلامي وأعلن انتهاء الاجتماع.

أثناء توجّههم نحو المروحيّات، وجد خليفة نفسه يسير خلف بن-روي الذي كان يفوقه طولاً وعرضًا. بعد كلّ ما حدث تلك الليلة، لم يشعر بالرغبة بالتحدّث إليه أكثر ممّا تستدعي المهمة التي بين أيديهم. ولكنّ لياقته غلبت عليه فتقدّم بقرب الإسرائيلي وقال له إنّه على الرغم مما قيل الليلة فإنّه يشعر بالأسف لموت خطيبته وأنّ لديه زوجةً وأطفالاً ويتخيّل مدى صعوبة فقدان شخص يحبّه بهذا القدر. نظر إليه بن-روي ثمّ تمتم بشتيمة وتابع طريقه.

تناهى إليهما صوت غلامي أمامهما: «إنّها مصادفة غريبة، أليس كذلك؟ مصري وإسرائيلي وفلسطيني بدأوا هذه العمليّة واستمرارها يعتمد الآن على مصري وإسرائيلي وفلسطينية. أحبّ أن أرى في ذلك إشارة حسنة».

قال ميلان: «أرجو أن تكون كذلك».

قال مرصودي: «إن شاء الله».

مخيّم قلنديا للاجئين، بين القدس ورام الله

كان المغلّف ينتظر يوسف أبو جيش حين استيقظ فجرًا عند باب منزله، مع أنّه لم يكن يملك أدنى فكرة عمّن أرسله وكيف ومتى. كان يحتوي على ورقة مطبوعة تخبره أنّ استشهاده سوف يتمّ بعد ستّة أيام، عند الساعة الخامسة تمامًا من بعد ظهر ذاك اليوم، وعليه الوقوف أمام الهاتف العمومي عند زاوية شارعي أبو طارق وابن خلدون شرق القدس، لتلقّي الأوامر الأخيرة.

قرأ الملاحظة ثلاث مرّات ثمّ خرج إلى الممرّ الضيّق القذر الممتدّ خلف المنزل وأحرقها. وبينما راحت الورقة تتكوّر وتسودّ لتتحول إلى رماد، شعر بتقلّص مفاجئ في معدته قبل أن يسقط على ركبتيه ويبدأ بالتقيؤ بلا توقف.

القسم الثالث

بعد ثلاثة أيام

الأقصر

«ما هذا؟ ماذا وجدت؟»

انحنى خليفة فوق الدرابزين وكان صوته ملحًّا ومتحمسًا.

«إطار درّاجة، أيّها الضابط».

«تبًّا! هل أنت واثق؟»

«أعتقد أنّ رجالي يعرفون شكل الدرّاجة حين يرونها».

«تبًّا!»

بصق الضابط سيجارته على الأرض وأطفأها بقدمه وهو يتمتم غاضبًا. كان يقف أمامه نحو خمسين عاملاً بجلاّبياتهم الملوّثة بالتراب متكئين على مجارفهم وسط بقايا حديقة ديتر هوث التي أصبحت أرضها المزروعة بالورود والأعشاب ممتلئة بالحفر وتلال الرمال والوحل. كان العمّال الذين يحفرون منذ ثلاثة أيام بلياليها من الفلاحين الذين استقدمهم من قرى في الضفّة الغربيّة لنهر النيل ومن أفضل منقّبي الآثار في مصر. ولو كان ثمّة شيء مدفون في الحديقة لكانوا عثروا عليه بالتأكيد. إلاّ أنّهم لم يجدوا شيئًا، بل مجرّد أنبوبين من الإسمنت وبقايا متحلّلة لزورق خشبي، والآن جزء من درّاجة. من الواضح أنّ ديتر هوث لم يخبّئ المينورا هنا، وهذا كان ظنّ خليفة دائمًا.

حدّق إلى الفوضى التي تحيط به بيأس ثمّ أشعل سيجارة أخرى وأشار لرئيس العمّال أن يأمر عمّاله بجمع عدّتهم والانصراف، ثمّ استدار للتجوّل داخل الفيلا. هنا أيضًا كان الخراب يعمّ المكان، فقد تمّ انتزاع قسم كبير من بلاط الأرض فيما كانت الكتب والأوراق مبعثرة في كلّ مكان والجفصين الأبيض الذي يكسو الجدران والسقف ممتلئًا بالثقوب نتيجةً لثلاثة أيام من البحث الجنوني. ثلاثة أيام من البحث غير المجدي لأنّ المينورا لم تظهر هنا أيضًا ولم يتمّ العثور على أي إشارة إلى مكانها أو حتّى ذكر لها.

وقف خليفة وسط الردهة والسيجارة تتدلّى من شفتيه والفوضى تحيط به، وأقرّ أنّه وصل إلى طريق مسدود. تمّ البحث أيضًا في مكتب جانسن في فندق مينّا-را –

أصبح يدرك الآن أنّ اسمه ليس سوى لعب على كلمة مينورا - وفي منزله السابق في الإسكندريّة وحتّى في سيّارته المرسيدس الزرقاء، ولكن عبثًا، ما فيش حاجة. كان الاحتمال الوحيد المتبقي هو أن تكون إينغا غراتز صديقة هوث قد أخفت شيئًا خلال المقابلة التي تمّت تلك الليلة، إلاّ أنّ المرأة العجوز أصيبت بالغيبوبة بعد بضع ساعات من مغادرته المستشفى ويقول الأطبّاء إنّه من المستبعَد أن تستفيق منها سريعًا، هذا إن نجت. ولم يكن ثمّة شخص آخر للتحدّث إليه ولا مكان آخر للبحث فيه. أيًّا يكن ما فعله هوث بالمصباح، لا يبدو أنّ الإجابة موجودة في مصر.

مكث في الفيلا لعشرين دقيقة أخرى وهو يتنقّل بلا هدف من غرفة إلى أخرى، غير واثق ممّا إذا كان يتعيّن عليه الشعور بالراحة لأنّه فعل ما في وسعه وأصبح قادرًا على الانسحاب من الموضوع من دون أن يُمسّ شرفُه، أم بالخيبة لأنّه لم يتوصّل إلى نتيجة. أخيرًا أقفل المنزل وعاد إلى المحطة للاتّصال ببن-روي وإخباره أنّ البحث لم يثمر عن شيء. لن يكون الإسرائيلي سعيدًا بذلك. فمن خلال المحادثات التي تمّت بينهما خلال الأيام القليلة الماضية، والتي كانت قصيرة ومتوترة، كان واضحًا أنّ بحثه لم يؤدِّ إلى نتيجة أفضل. وكان الوقت والخيارات تنفد منهما من دون أن يتمّ العثور على المصباح.

القدس

حين أخذا يسيران عبر أراضي مركز كفار شاول للأمراض العقليّة، بين المساحات المزروعة بالأزهار الجميلة والأبنية الحجريّة الجذّابة، رغبت ليلى أن تشير إلى تاريخ المكان وأن تسأل بن-روي ما إذا كان يعرف أنّ الأبنية القديمة كانت تشكّل جزءًا من قرية دير ياسين الفلسطينيّة التي شهدت عام 1948 مجزرةً فظيعةً على أيدي اليهود، راح ضحيّتها رجال ونساء وأطفال قتلوا بدمٍ بارد. إلاّ أنّ نظرةً واحدة إلى مرافقها - عيناه الحمراوان من قلّة النوم وفمه المشوب بامتعاض دائم كما يبدو من كثرة التوتر والاستياء - كانا كافيين لإخبارها أنّه لن يرحّب بتلك المعلومات. فقرّرت التزام الصمت ومتابعة طريقها بهدوء.

تحقيق إسرائيلي فلسطيني مشترك، هذا ما عرضه عليها حين دخل إلى زنزانتها منذ ثلاثة أيام. اقترح أن يعمل الاثنان معًا كفريق في محاولة لإيجاد المينورا، بالإضافة إلى شاب آخر يُدعى خليفة يتابع الموضوع في مصر. وأكّد لها أنّ الموضوع يتمّ بموافقة رسميّة وبسرّية تامة وأنّه يهدف إلى المصلحة العليا للبلاد. هل هي مستعدّة؟ هل تقبل بالمساعدة؟

بالطبع فاجأها ذلك وأثار شكوكها أيضًا مع أنّها هي من عرض فكرة التحقيق المشترك في البداية (ولم تصدّق للحظة واحدة أنّه سيقبل به). إلاّ أنّ اللمعان القلق في عينيه ومحاولته غير الناجحة تمامًا أن يبدو هادئًا وعقلانيًّا، كلّ ما فيه كان يشير إلى أنّ عرضه يهدف إلى أكثر ممّا باح به، إلى أجندة سرّية. إلاّ أنّ أمورًا كثيرة كانت على المحكّ، وهذا ما جعلها تقبل. وقد قبلت على الفور ومن دون شروط بأن تفعل ما يُطلب منها.

لم تتوقّع أيضًا إصراره على أن تنتقل للإقامة في شقّته في القدس الغربيّة. هنا أيضًا أمرتها كلّ ذرّة في جسدها أن ترفض لأنّ هذا الترتيب لا علاقة له بالحجّة التي أعطاها، وهي أنّ ذلك سوف يسهّل عليهما العمل معًا من دون إثارة الشكوك، بل وهو يسهّل عليه في الواقع مراقبتها ومتابعة جميع تحرّكاتها. ولكنّها لم تبح بمخاوفها هنا أيضًا بل قالت إنّها فكرة جيّدة نظرًا للظروف وعرفت أنّها إن أرادت متابعة البحث عن المينورا عليها أن تلعب وفقًا لقوانينه. على كل حال ونظرًا لخطورة الموضوع، كانت تريد مراقبته هي الأُخرى.

هكذا وقّع على نماذج إخلاء السبيل وأوصلها إلى شقّتها لإحضار حاسوبها المحمول وتغيير ملابسها. لاحظت على الفور أنّ المكان قد فُتّش بدقّة أثناء غيابها. اصطحبها بعد ذلك إلى شقّته في روميما. كان قد حوّل غرفة الجلوس إلى مكتب مؤقّت عملا فيه ثلاثة أيام في جوّ خانق ومتوتر. كانا يباشران العمل كلّ صباح، اتّصالات هاتفيّة، رسائل إلكترونيّة، بحث على الإنترنت، يلاحقان كلّ خيط يجدانه. فيمضيان النهار بطوله على هذا الشكل ويعيشان على القهوة والسندويشات، وفي حالة بن-روي، على جرعات متواصلة من الشراب. كانت تنهار في ساعات الصباح الأولى على الأريكة فتنام لبضع ساعات نومًا مضطربًا بينما يختفي هو في غرفة نومه. ولا يبدو أنّه يحصل على كثير من النوم فيها لأنّها استيقظت فجأةً عدّة مرّات في الليل لتسمعه وهو يروح ويجيء ويهمس في هاتفه المحمول، كما وجدته مرّةً واقفًا في الممرّ يحدّق إليها وكان وجهه شاحبًا شحوب الأموات وشفتاه ترتجفان. حاولت بضع مرّات في البداية أن تكسر الجليد وتفتح معه حديثًا لتسأله عن ماضيه وعن صورة المرأة الشابة على رفّ الكتب، أيّ شيء، إلاّ أنّه عبس وقال لها إنّها هنا لكي تساعد على إيجاد المينورا وليس لكتابة قصّة حياته اللعينة. فتابعت عملها محاولةً التركيز عليه في ذاك الجوّ الخانق من الكراهية والشكّ المتبادلين.

تمحورت تحقيقاتهما منذ البداية حول زيارة هوث لداشاو. كانا شبه واثقين أنّ

الصنـدوق الـذي أحضـره معـه كان يحتوي على المينورا. ولكـن إلى أين أخذه في ما بعد؟ لماذا طلب السـجناء السـتّة؟ تلك كانت الأسـئلة التي ينبغي الإجابة عنها وهي الأسئلة التي فشلا في حلّها. اتّصلا بخبراء في داشاو، وخبراء بالرايخ الثالث، وخبراء بأنينيربـي، وخبـراء بتتبّـع الكنـوز النازيّة المنهوبة وحتّى خبـراء بالبنية التحتيّة للنقل في ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية. بحثا وسألا ولكن بلا جدوى. معظمهم لم يسمع حتّـى بهـوث، ومـن سـمع به منهم لـم يتمكن من إعطاء أيّ سـبب لزيارته للمخيّم أو المـكان الـذي ذهـب إليه لاحقًا. اتّصلت مجددًا بماغنوس توبينغ- نعم، سـوف تحبّ تنـاول العشـاء معـه حيـن تـزور بريطانيا مرّةً أخرى - وبجان ميشـال دوبون وعدد من أصدقائه وشركائه، ولكن عبثًا. لا أحد يعرف شيئًا.

خلال ثلاثة أيام طويلة من البحث الشـاقّ لم يتمكنا سـوى من إيجاد معلومتين جديدتيـن: نـوع الشـاحنتين اللتيـن أتـى بهما هوث - أوبل بليتـز، ثلاثة أطنان، إحدى وسائل المواصلات المعتادة لدى الجيش الألماني - ومن أرشيف ياد فاشيم، أسماء السـجناء السـتّة الذين طلبهم هوث: جانيك ليبرمان، أفرام بريختر، يتسـحاق ألدشتاين، يتسحاق فايس، إريك بلوم، مارك فيسير. كان السجناء الأربعة الأوائل يهودًا والسجينان الأخيران شيوعيّين. غير أنّ أيًّا منهم لم يعد إلى المعتقل وجميع المحاولات لتتبّعهم ومعرفـة مـا إذا كانـوا قـد ظلّـوا علـى قيد الحياة باءت بالفشـل. باختصـار، وصلا إلى طريق مسدود.

لهذا السبب وبعد ثلاثة أيام، غادرا أخيرًا شقّة بن-روي وتوجّها إلى كفار شاول. ذلـك أنّ الخيـار الوحيـد المتبقّـي هو أن تكون حنّا شـليغل خلال بحثها عن هوث قد تتبّعت أثر المينورا أيضًا، وأعطت تلك المعلومات لشقيقها إسحاق.

قـال بـن-روي فـي الطريـق: «إنّها مضيعـة للوقت، فالرجل لم يتفـوّه بكلمة منذ خمسة عشر عامًا. إنّه مختلّ تمامًا».

ولكنّه الاحتمال الوحيد الباقي.

كما تمّ الاتفاق على الهاتف، توجّها إلى مركز الطبّ النفسي للعجزة في الجناح الشمالي حيث التقيا د. غيلدا نيسيم، المرأة التي رافقت بن-روي في زيارته السابقة. حيّتهمـا بهـزّة مـن رأسـها، ثمّ ألقت نظرة متشـكّكة نحو ليلى قبـل أن تصطحبهما عبر الأبواب الزجاجيّة للجناح والرواق خفيف الإضاءة. كانت أحذيتهم تصدر صوتًا مكتومًا فوق الأرض الرخاميّة المصقولة وهدير المكيّفات يملأ المكان بهسيس مخيف. حين

وصلوا إلى غرفة شليغل أعطتهما محاضرة موجزة وأخبرتهما أنّ مريضها عانى من اضطراب شديد بعد زيارة بن-روي السابقة، وأنّها لن تسمح بإزعاجه مجدّدًا بتلك الطريقة، وأنّهما يملكان خمس عشرة دقيقة لا أكثر. ثمّ فتحت الباب ووقفت جانبًا. دخل بن-روي وتردّدت ليلى قبل أن تتبعه. فتحت الطبيبة فمها على وشك إعطاء مزيد من التعليمات إلاّ أنّ بن-روي استدار وشكرها ثمّ أغلق الباب في وجهها وهو يتمتم بشتيمة.

لم تتغيّر الغرفة منذ زيارته الأخيرة: السرير، الطاولة، الرسوم المعلّقة على الجدران، وعلى كرسي قرب النافذة جلس إسحاق شليغل ببيجامته وجسده النحيل، نظره مثبّت على الكتاب المغضّن نفسه الموضوع على حضنه. أخذ بن-روي مقعدًا، وجلس أمامه، أمّا ليلى فبقيت في مكانها، وراحت تتأمل الجدران مركزةً على الرسوم العديدة للمينورا ذات السبعة فروع.

بدأ التحرّي الحديث على الفور: «أنا آسف لإزعاجك مجددًا سيّد شليغل، ولكنّني أحتاج إلى طرح مزيد من الأسئلة عن شقيقتك حنّا».

حاول الحفاظ على نبرة هادئة ومطمئنة لكي لا يخيف العجوز، ولكنّه لم ينجح. فحالما سمع شليغل صوته، اتّسعت عيناه خوفًا، وبدأ يتأرجح إلى الأمام والخلف في كرسيّه ويداه تطبقان وتنفتحان حول الكتاب، فيما صدر أنين ضعيف من فمه. عضّ بن-روي شفته، فمزاجه لم يكن مناسبًا للتعامل مع هذا النوع من الحالات.

قال وهو يرسم ابتسامة غير متعاطفة تمامًا على وجهه: «لا تخف فنحن لن نؤذيك. نودّ التحدّث إليك وحسب، ولن نبقى مطوّلاً أعدك».

أدّت محاولاته مجددًا إلى مفعول عكسي ذلك أنّ الأنين أصبح أعلى والاهتزاز أقوى.

«أعرف مدى صعوبة ذلك، سيّد شليغل وأنا آسف لأنّني أزعجتك من قبل، ولكنّ الموضوع في غاية-»

تقلّصت يدا شليغل، ورفعهما إلى جانبي رأسه، وكأنّه ملاكم يحاول توجيه عدد من اللكمات فيما تحوّل أنينه إلى نحيب عالٍ ملأ الغرفة. تقلّص فم بن-روي وشدّ قبضتيه غضبًا.

«اسمع يا شليغل، أعرف أنّك-»

«بربّك!» تقدّمت ليلى، وألقت على التحرّي نظرة حادّة، وكأنّها تقول له «ما خطبك بحق الله؟» ثمّ انحنت بقرب العجوز، وأمسكت يديه بين كفيها. راحت

تتحدّث إليه بلطف، وتربّت على بشرته الرقيقة: «لا بأس، لا بأس، اهدأ».

بدأ يهدأ على الفور تقريبًا واهتزازه يخفّ تدريجيًّا، أمّا نحيبه فراح ينخفض إلى أن أصبح أقرب إلى هدير ثلاجة.

قالت بلطف وهي تتابع التربيت على يد العجوز: «هذا جيّد، لا حاجة إلى الخوف سوف يكون كلّ شيء على ما يرام، لا داعٍ للخوف».

راقبها بن-روي، ولمع في عينيه تردّد وجيز، وكأنّه انزعج أو ارتبك من إظهارها لهذا الحنان. فرفع قارورته، وجلس خلفها وتناول جرعة سريعة. واصلت ليلى التحدّث إلى العجوز لتهدئته، وراحت تغنّي له التهويدة القديمة التي اعتاد والدها على غنائها لها حين كانت طفلة، إلى أن هدأ تمامًا، وانخفضت عيناه الرماديّتان إلى حضنه، فيما شدّ يده حول يديها. استمرّت لنصف دقيقة أخرى، وحين شعرت أنّها حصلت على قدر من ثقته، استدارت لتركع أمامه، وأدارت ظهرها لبن-روي.

قالت بلطف، وبدا صوتها أقرب إلى الهمس: «إسحاق، نحن بحاجة إلى مساعدتك. هل ستساعدنا؟».

أطلق بن-روي خلفها صوتًا ساخرًا، ولكنّها تجاهلته مركزةً اهتمامها على العجوز الخائف الجالس أمامها.

«هل لك أن تخبرنا عن المينورا يا إسحاق؟ لقد رأيتها، أليس كذلك؟ أنت وحنّا، في القصر القديم. كما في رسومك، هل تذكر؟ في كاستيلومبر، حين كنتما صغيرين».

اكتفى شليغل بالتحديق إلى كتابه وشمس الصباح الباكر ترسل أشعتها عبر النافذة فوق وجهه الشاحب، بينما تواصل الأنين في الخروج من حنجرته.

شدّت على يده متمنيةً بصمت أن يتحدّث إليها: «أرجوك إسحاق، نحن نحاول إيجاد المينورا لحمايتها. هل تعرف أين هي؟ هل تعرف ما حلّ بها؟».

لا جواب.

سألته مرارًا وتكرارًا محاولةً السيطرة على إحباطها والحفاظ على صوتها الهادئ، ولكنّه لم يعطِ أيّ جواب أو إشارة إلى الفهم أو التواصل. فتنهّدت وسحبت يدها من يده، وخفضت رأسها معترفةً أنّ بن-روي كان على حقّ وأنّ مجيئهما لم يكن سوى مضيعة للوقت.

«أصفر».

بدت الكلمة أقلّ من همس وأقرب إلى نسيم مرّ بشفتي شليغل، قد يكون كلمة

أو لا يكـون. نظـرت إليـه ليلـى معتقـدةً أنّهـا تتخيّل، كان العجوز لا يـزال يحدّق إلى كتابه.

«أصفر».

بدت الكلمة أقوى هذه المرّة مع أنّها لا تزال منخفضة وبالكاد مسموعة. شعرت ببن-روي خلفها يتوتّر وينحني إلى الأمام.

مدّت يدها ووضعتها على يد شليغل مجددًا.

«ما هو الأصفر، إسحاق؟ ماذا تعني؟».

رفع العجوز نظره ببطء ونظر إلى عيني ليلى للحظة. بدت عيناه تلمعان بضعف وكأنّهما ضوء ساطع يُرى من خلف زجاج محجّر. سحب يده من يدها ثمّ رفعها مشيرًا بإصبعه المرتجف إلى يمينه، نحو الرسوم الأربعة التي تصوّر القنطرة في كاستيلومبر، وبينها الرسم الخامس للمينورا ذات السبعة فروع.

همس للمرّة الثالثة: «الأصفر». وكان جسده يرتجف بأكمله من الجهد الذي بذله وهو يحاول إخراج تلك الكلمات منه.

انحنى بن-روي نحوه بحيث ضغطت ركبتاه على ظهر ليلى: «ماذا تعني بالأصفر؟ أنّ المينورا صفراء؟»

تابع العجوز الإشـارة بيده للحظة طويلة، ثمّ خفض ذراعه وشـدّ يديه بقوّة على الكتاب.

«انظر إلى الأصفر».

التفتـت ليلـى ونظـرت إلى بن-روي بحيرة، ثمّ التفتت مجدّدًا إلى وجه العجوز، ووضعت يديها على يديه.

«ماذا قالت لك حنّا، إسحاق؟ هل حنّا قالت ذلك؟».

كان شليغل يشدّ على الكتاب ويعصره.

كرّر: «انظر إلى الأصفر».

قال بن-روي بصوت قويّ: «ولكن ما معنى هذا، ما هو الأصفر؟».

لم يقل شليغل شيئًا بل استمرّ بالشدّ على الكتاب.

ألـحّ عليـه التحـرّي: «الصـورة الصفـراء؟ هل هـذا ما كانت تعنيـه؟ أن ننظر إلى الصورة الصفراء؟ صورة المينورا؟».

حلّ الصمت ثمّ صدرت ضجّة حين أرجع بن-روي مقعده ونهض ليسـير نحو رسـم المينورا ويحدّق إليه بحثًا عن معنىً خفي في ذاك الرسـم البسـيط الأصفر. لا

شـيء. نـوع الصـورة عن الجدار ونظر إلى الصفحـة الخلفيّة، كانت خالية تمامًا. ألقى نظرةً نحو ليلى ثمّ بدأ يتفحص جميع صور المينورا في الغرفة وينزعها بحركة ازدادت اضطرابًا من دون أن يجد شيئًا. أمّا شليغل فواصل التحديق إلى حضنه.

همست ليلى وهي تشدّ على يديه: «أرجوك إسحاق! ماذا كانت حنّا تعني؟ ماذا أرادت أن تقول لنا؟ أرجوك!».

شعرت بأنّه يتراجع ليغرق مجدّدًا في عالمه الخاص. واصلت الضغط عليه والشدّ على يديه وهي تفرك بلطف راحتيه النحيلتين محاولةً إخراج معلومة أخيرة منه. ولكنّ لحظة الوعي انقضت فجلست يائسةً على الأرض تحدّق إلى السقف وتهزّ رأسها.

لكم بن-روي الجدار بيده وتمتم: «تبًّا!»

لاحقًـا، خـلال عودتهمـا الصامتة عبر أبنية المستشـفى، والتي لم يسـمعا خلالها سوى زقزقة العصافير بين أشجار السرو وصوت كرة الطاولة تُقذف في مكان ما إلى يمينهما، جاهد بن-روي وهو يفكر في ما ستكون عليه الخطوة التالية وكيف سيتمكن من نيل مبتغاه.

فباسـتثناء الدقائـق القليلـة التـي اسـتراح فيهـا لم ينم منذ اثنتين وسـبعين سـاعة. كان مشـتّتًا على نحو رهيب والفوضى تعمّ رأسـه إلى حدّ أنّه لم يعد واثقًا تمامًا ممّا يفعل أو من سبب ما يفعله. منذ ثلاثة أيام بدا كلّ شيء واضحًا: المقال، المقابلات، العطر- كان كلّ شيء مترابطًا. ما كان عليه سوى مراقبتها عن كثب وانتظار الإشارات حتّى تظهر. ولكنّ الإشـارات لـم تظهر، كانت ذكيّة جدًّا وشـديدة السـيطرة على نفسـها إلى حدّ أنّ الشـكوك بدأت تسـاوره وبدأ يتسـاءل ما إذا كان قد فهم الموضوع بأكمله على نحو خاطئ (والطريقة التي تعاطت بها مع شـليغل الآن... هل يمكن لشـخص مثلها أن...؟). بالتأكيد، ما زال الحدس موجودًا، ولكن هل يمكنه أن يثق به؟ أن يثق بنفسـه؟ لا يعرف، لم يعد يعرف بعد الآن. ولن يعرف أبدًا حتّى يجد المينورا حينها فقط سوف تقوم-

«ماذا سنفعل الآن؟».

«ماذا؟» كان لا يزال مستغرقًا في حلم اليقظة.

كرّرت ليلى: «ماذا سنفعل الآن؟».

هزّ رأسـه محاولاً إعادة نفسـه إلى الواقع: «نصلّي أن يكون خليفة قد عثر على شيء».

«وإن لم يفعل؟».

«نعود إلى الهاتف ونبقى إلى أن نجد ما نبحث عنه».

أبطأ سيره ونظر إليها. بدت عيناه مليئتين بالشكّ والكراهية، ثمّ أشاح نظره عنها وواصل نزول التلّ وسارت ليلى في أعقابه. صعدا إلى سيّارته التي قادها خارج بوابة المستشفى الحديديّة البيضاء وانعطف نحو الطريق الرئيسي باتجاه وسط القدس. في تلك اللحظة لمحت ليلى سيّارة زرقاء مركونة في موقف مهجور في الزاوية المقابلة لمدخل المستشفى، كان سائقها منحنيًا إلى الأمام فوق المقود يحدّق إليهما مباشرةً كما يبدو. لم يدم المشهد سوى جزء من الثانية قبل أن يتجاوزا المكان ويتخذان طريقهما نحو المدينة.

خلفهما شغّل آفي شتاينر محرّك سيّارته.

تمتم في جهاز اللاسلكي: «حسنًا، لقد انطلقا مجدّدًا. كانفي نيشاريم، شرقًا. أنا خلفهما».

انطلق في أثرهما وتجاوز السيّارات إلى أن أصبح خلفهما مباشرةً.

الأقصر

عاد خليفة إلى مكتبه وهو يأكل قطعة لفت مخلّل من كيس الطُرشي الذي اشتراه في طريق عودته من فيلا هوث، ثمّ تنهّد، ورفع سمّاعة الهاتف، وطلب رقم بن-روي مكرهًا. رنّ الهاتف أربع مرّات قبل أن يجيب الإسرائيلي من دون تحيّة كعادته.

«إذًا؟».

أجاب المصري: «لا شيء».

«تبًّا!».

«وأنت؟».

«اللعنة، وكيف يبدو لك الأمر؟».

هزّ خليفة رأسه متسائلاً ما إذا كان بإمكان الرجل تركيب جملة لا تحتوي على شتيمة. هذا مستحيل...

سأله محاولاً التحدّث بنبرة متمدّنة، وعدم التوقّف عند أطباع الإسرائيلي الكريهة: «هل قابلت شقيقها مجددًا؟».

«كنت عنده للتوّ».

«وماذا حدث؟».

«تبًّا لـه، إنّـه معتـوه. يجلس هناك طيلة الوقت وهـو يعبث بكتابه ويصدر أصواتًا غريبة».

سـمع صوتًا أنثويًا - صوت ليلى المدني على ما يعتقد - يسـأل بن-روي عمّا يُقال فأجاب الإسرائيلي بنبرة عنيفة: «هلاّ انتظرت قليلاً!»

ثـمّ عصـف صـوت بن-روي مجددًا عبر الهاتف: «ولم تجد شـيئًا على الإطلاق في منزل هوث؟ هل أنت واثق؟».

أجاب خليفة: «أنا واثق، بحثت في كلّ إنش منه».

«والحديقة؟».

«والحديقة أيضًا».

«وماذا عن-»

«وسـيّارته وفندقه، كما قامت شـرطة الإسـكندريّة بتفتيش منزله السـابق. لم يتبقَّ أيّ مكان للبحث، بن-روي. لا يوجد شيء هنا، في مصر».

«لا بدّ أنّك فوّت شيئًا ما».

شدّ خليفة قبضته وأجاب: «كلاّ لم أفوّت شيئًا. قلت لك لا يوجد شيء هنا».

«حسنًا، واصل البحث».

«ألا تسمع؟ لم يعد يوجد أيّ مكان لأبحث فيه، ماذا تريدني أن أفعل؟ أن أحفر الأقصر بأكملها؟».

«أجل، إن كان هذا ضروريًّا! علينا إيجادها، عليّ أن-»

توقّف الإسـرائيلي فجأةً وكأنّه يمنع نفسـه من قول شـيء لا يريده. ثمّ تابع بعد قليـل محـاولاً الحفـاظ على هدوئـه: «أنت تعرف مدى خطـورة الأمر. واصل البحث وحسب».

تنهّد المصري. وكأنّه يتحدّث إلى جدار أصمّ! تمتم غاضبًا: «حسنًا، حسنًا، سوف أرى ماذا يمكنني أن أفعل». ومال لإغلاق الخطّ.

«ماذا عن الكتاب؟».

«ماذا؟».

«قلت إنّ شقيق شليغل لديه كتاب».

حلّ صمت قصير آخر بدا فيه بوضوح وكأنّ السؤال طرح الإسرائيلي أرضًا، ثمّ سمع حديثًا قصيرًا خافتًا بينه وبين ليلى. بعد ذلك، تناهى إليه صوت فرامل قوي إلى حـدّ جعلـه يبعـد السـمّاعة عن أذنه وصرير إطارات وكأنّ السـيّارة تغيّر اتّجاهها، تبعته

أصوات أبواق غاضبة.

«بن-روي؟».

صرخ الإسرائيلي: «سأعيد الاتصال بك!» ثمّ قال لليلى: «تبًّا، لماذا لم تنتبهي-».

وقُطع الخطّ.

القدس

شقّ الشاب طريقه بحذر عبر موقع بناء حاملاً بيده اليمنى حقيبةً ثقيلة. كان يتوقّف من وقت إلى آخر للتأكّد من أنّ أحدًا لا يتبعه أو يراقبه، مع أنّه لا ضرورة لذلك لأنّ الموقع كان مهجورًا خلال الأشهر الخمسة الماضية كما أنّه يقع في أطراف المدينة على مسافة بعيدة من الأماكن المأهولة. تجاوز كومة من الأحجار ثمّ التفّ حول شبكة من الخنادق ارتفعت منها صفوف من القضبان الحديديّة الصدئة قبل أن يصل أخيرًا إلى شاحنة ذات حاوية معدنية كبيرة وسط الموقع، بابها مثبّت بقفل مهترئ. وبعد ما ألقى نظرة أخرى حوله، أخرج قطّاعة من الحقيبة وكسر القفل ثمّ فتح الباب ودخل. كان جوّها حارًا ورطبًا تثقله رائحة الغبار والقار، وفي آخرها كومة مغضّنة من القماش المشمّع، كانت هي محتويات الشاحنة الوحيدة. توجّه نحوها وأخفى الحقيبة تحتها بحذر قبل أن يعيد القماش إلى شكله الأساسي ثمّ خرج وأقفل الباب بقفل جديد. ألقى حوله نظرة أخيرة مطوّلة ثمّ أخرج مفتاحًا من جيبه ودفنه في التراب عند الزاوية الأماميّة اليسرى للشاحنة، قبل أن يقوم ويسرع عائدًا، فيما تراقصت شراريب التاليت كاتان تحت قميصه وكأنّها أعشاب مائيّة تتمايل تحت الماء.

القدس

«تبًّا، لمَ لم تقولي لنا ذلك من قبل؟».

أجابت د. غيلدا نيسيم بصوت لاذع وهي تسير أمامهم في الرواق نحو غرفة إسحاق شليغل: «لأنّكما لم تسألا. قد أكون طبيبةً نفسيّة ولكنّني لا أقرأ أفكار الناس! ولو سمحت انتبه لكلامك!»

فتح بن-روي فمه وهو على وشك الصراخ في وجهها، ولكنّه تمكن من السيطرة على نفسه، واكتفى بإطلاق أنين غاضب. أمّا ليلى فأسرعت الخطى حتّى أصبحت بمحاذاة الطبيبة.

«قلتِ إنّ شقيقته أعطته إيّاه قبل أن تسافر إلى مصر؟».

هزّت نيسيم رأسها، وبدا بوضوح أنّها تحاول السيطرة على أعصابها: «مرّت بنا السيّدة شليغل في طريقها إلى المطار، وأمضت خمس عشرة دقيقة معه، أعطته الكتاب ثمّ رحلت. وكانت تلك آخر مرّة رآها فيها. منذ ذلك الحين لم يترك الكتاب يغيب عن نظره».

تمتم بن-روي في سرّه محدّقًا إلى الجزء الخلفي من رأس الطبيبة: «اللعنة!»

وصلوا إلى غرفة شليغل، ولكنّ الطبيبة لم تتوقّف بل قادتهما عبر الرواق إلى الخارج. مرّوا بسلسلة من الأبواب الزجاجيّة في آخر المبنى، وهي تشرح لهما أنّ مريضها يحبّ الجلوس تحت أشعة الشمس في هذا الوقت من النهار. صعدوا عددًا من الدرجات حتّى وصلوا إلى فسحة مزروعة بأزهار الجيرانيوم والخزامى ثمّ ساروا في طريق حجري أبيض ضيّق حتّى وصلوا إلى أعلى المجمّع. امتدّت هناك هضبة مكسوّة بالأعشاب ومحاطة بأشجار الصنوبر، يعمّها السكون. هواؤها مشبع برائحة الصنوبر فيما انتشرت حولها غابات جبال الخليل. أشارت نيسيم نحو شخص يجلس وحيدًا على مقعد إسمنتي في طرف الهضبة، وانسحبت بعد أن ألقت نحو بن-روي نظرةً حادّة من فوق نظارتها. واصل الاثنان طريقهما نحو المقعد، ثمّ وقف بن-روي خلفه، وجلست ليلى بقرب العجوز. كان الكتاب لا يزال في حضنه، فوضعت ليلى يدها برفق على ذراعه.

قالت: «مرحبًا مجددًا، إسحاق». صمتت قليلاً ثمّ أضافت: «هل يمكننا رؤية كتابك، الذي أعطتك إيّاه حنّا؟ هل يمكننا الاضطلاع عليه؟».

كانت تخشى أن يرفض السماح لهما برؤيته ويُصاب بالذعر من طلبها. عوضًا عن ذلك، تنهّد وكأنّه ارتاح لأنّ أحدهم طرح عليه هذا السؤال أخيرًا، فرفع يديه، وسمح لها بأخذ الكتاب من حجره. انحنى بن-روي إلى الأمام وأمال رأسه لإلقاء نظرة.

كان كتابًا ورقي الغلاف، رقيقًا ومغضّنًا جدًّا، غلافه أخضر، طُبعت عليه شجرة صنوبر بسيطة، وكُتب تحتها العنوان التالي بالإنكليزيّة Summer Walks in the Berchtesgaden National Park (نزهات صيفيّة في حديقة بيرختسغادن الوطنيّة). نظرت ليلى إلى بن-روي رافعةً حاجبيها ثمّ فتحت الكتاب على صفحة الفهرس.

كان يضمّ عشر نزهات، لكلّ منها اسم - طريق كونيغسي، طريق فاتسمان، طريق

فايستاني – فضلاً عن رموز بالألوان تتناسب على ما يبدو مع علامات ملوّنة على الأرض. آخرها كان طريق هوهر غول، أشير إليه باللون الأصفر.

همست ليلى وراح نبضها يتسارع: «انظر إلى الأصفر».

لم يقل بن-روي شيئًا بل أتى للجلوس قربها. راحت تتصفّح الكتاب بسرعة بحثًا عن القسم الذي تريده.

أعلنت أخيرًا وهي تفتح الكتاب في حضنها: «طريق هوهر غول».

كان الفصل يبدأ شأنه شأن الفصول الأخرى برسم بسيط بالحبر الأسود. كان الرسم هنا عبارة عن جبل، قمّته مسطّحة وشديدة الانحدار، يمتدّ منها جبل طويل ينحدر نحو اليمين قبل أن ينتهي عند جرف بُنِي عليه كما يبدو منزل صغير. تبع ذلك ذكر لبعض الوقائع الأساسيّة حول الطريق – طولها 19 كيلومترًا، مدّتها 5-6 ساعات، مستوى الصعوبة 3 (من 5) – خريطة رُسم عليها الطريق بخطّ متعرّج، ومن ثمّ نص من ستّ صفحات، يصف الرحلة بالتفصيل ويضمّ معلومات إضافيّة عن الكائنات النباتيّة والحيوانيّة وبعض المعلومات التاريخيّة، إلخ. وبعد نحو ثلثي النص، في نهاية إحدى الصفحات، حُدّدت فقرة باللون الأحمر:

اعبر الطريق واسلك الاتجاه المعاكس تمامًا، خلف محطّة ضخّ مهجورة. بعد ثلاثين دقيقة من الصعود – القاسي في بعض الأماكن – تصل إلى فسحة أمام مدخل منجم مِلح مهجور اسمه بيرغ-أولميفيرغ (لمزيد من المعلومات عن مناجم الملح التقليديّة في المنطقة راجع المقدّمة صفحة 4). إن كان الطقس صحوًا، سوف ترى فوقك على ارتفاع شديد قمّة هوهر غول العظيم (2522 م)، وإلى اليمين، عامود الراديو وسطح كيلشتاينهاوس، أو عشّ النسر، وهو منزل كان يتناول فيه هيتلر الشاي في ما مضى (انظر الملاحظة). يُطلّ المكان على مناظر رائعة لأوبيرزالتزبورغ، بيرشتيسغادن ونهر بيرشتيسغادنير آشي. يتواصل الطريق نحو اليسار، قرب كومة الحجارة الصغيرة (انظر الملاحظة في الصفحة التالية).

تبادلت ليلى وبن-روي نظرات حائرة، غير واثقين من علاقة ذلك بديتر هوث والمينورا. قلّبت الصفحة، ورأت أنّ الملاحظة المذكورة حُدّدت هي أيضًا بالأحمر. كان عنوانها «هياكل هوهر غول العظميّة». نظرا إلى بعضهما مجدّدًا ثمّ بدآ القراءة.

في أيار عام 1961، وعند تلك البقعة من الركام الحجري، تمّ العثور على ستّة هياكل عظميّة من قبل متجوّلين عابرين بعد ليلة من الأمطار الغزيرة غير الاعتياديّة التي أدّت إلى زوال التراب عن القبر السطحي الذي دُفنوا فيه. كانوا جميعهم ذكورًا قُتلوا بالرصاص. وتشير بقايا القماش أنّهم كانوا ضحايا معتقل، مع أنّ هوياتهم لم تُحدّد أبدًا، ولا سبب وجودهم هناك في أعلى هضاب هوهر غول. هم مدفونون الآن في مقبرة بيرشتيسغادن. وعند المرور بالمكان، من المعتاد إضافة حجر صغير إلى الركام تعبيرًا عن الاحترام.

حلّ صمت قصير حاولا فيه استيعاب المعلومات ثمّ قالا في الوقت نفسه: «سجناء داشاو».

كانت الحماسة بادية في صوتهما. أعطت ليلى الكتاب لبن-روي، وبدأت تبحث في حقيبتها، ثمّ أخرجت دفترها، وتصفحته فيما أصدرت الأوراق صوت حفيف سريع بين أصابعها.

تمتمت قائلةً: «جان ميشال دوبون، قال شيئًا عن النازيين، كيف...»

وجدت الصفحة التي تريدها، وراحت تمرّر إصبعها عليها وهي تقرأ: «في نهاية الحرب قام النازيون بإرسال الكنوز المنهوبة إلى الخارج أو إخفائها في أماكن سرّية داخل ألمانيا، في مناجم مهجورة عادةً».

نظرا إلى بعضهما مجددًا، ثمّ بدأ كلاهما بالعمل. أخذت ليلى الكتاب، وبدأت تدوّن تفاصيل عن المنجم وموقعه، ولكنّ خطّها كان سيئًا بسبب الحماسة إلى حدّ أنّها اضطرّت بعد قليل إلى تمزيق الصفحة والبدء بالكتابة مجدّدًا. أمّا بن-روي فنهض يتحدّث بسرعة على هاتفه وصوته يعلو وينخفض وهو يروح ويجيء ويحرّك يده اليسرى في الهواء، وكأنّه يحاول تسريع الأمور.

بعد خمس دقائق تمّ ترتيب كلّ شيء: مقعدان في رحلة الساعة الحادية عشر والربع من مطار بن-غوريون إلى فيينا، ومن ثمّ رحلة أخرى إلى زالتسبورغ، أقرب مطار إلى بيرشتيسغادن، وهناك سوف تنتظرهما سيّارة مستأجرة. وإن تمّت الرحلة من دون أيّ تأخير غير متوقّع، سيكونان في ألمانيا قبل حلول المساء.

قال بن-روي وهو يعبر التلّ: «فلنسرع، إن فوّتنا هذه الطائرة لن نجد طائرة أخرى قبل الغد».

«وماذا عن خليفة؟»

«تبًّا له. أصبحنا نعرف مكانها الآن، لم تعد له علاقة بالموضوع».

اختفى مسرعًا نحو السيّارة. أمّا ليلى فاستدارت نحو شليغل الذي جلس صامتًا وبلا حراك طيلة الوقت، يحدّق إلى التلال. أخذت يديه بين يديها، ووضعت الكتاب فيهما.

همست قائلةً: «شكرًا لك إسحاق. لن نخذل حنّا، أعدك».

تردّدت، ثمّ انحنت وقبّلت خدّ الرجل العجوز. هزّ رأسه بضعف شديد، وبدا أنّه يتمتم شيئًا لم تفهمه ليلى، ربّما قال «أختي». شدّت على ذراعه، ثمّ وقفت ولحقت ببن-روي وهرول الاثنان إلى الشارع. كانت لا تزال تحمل بيدها الورقة المغضّنة التي مزقتها من دفتر الملاحظات، وحين وصلا إلى السيّارة رمتها في حاوية على جانب الطريق قبل أن تركب السيّارة وتغلق الباب.

راقبهما آفي شتاينر من مكانه المقابل للمستشفى وهما ينطلقان ويختفيان بين السيّارات. ثمّ تمتم بشيء ما في اللاسلكي، وشغّل محرّك سيّارته ليخرج من الموقف قبل أن يتوقف عند الحاوية ويترجّل من السيّارة.

القدس

كان هار-زيون قرب الهاتف حين بدأ يرنّ. راح يحدّق من نافذة الشقّة وهو يدلّك بشرة صدره وذراعيه بالمرهم. مال ورفع السمّاعة، وتقلّص وجهه قليلاً أثناء ذلك. على الرغم من استعمال المرهم، إلاّ أنّ بشرته بدت أكثر اشتدادًا في الأشهر الأخيرة. ردّ على الهاتف، وأخذ يصغي بصمت إلى صوت المتحدّث. أخذ تعبير الألم الذي قلّص وجهه يتحوّل تدريجيًّا إلى عبوس تركيز ومن ثمّ إلى ابتسامة.

قال أخيرًا: «جهّز طائرة السيسنا وتحدّث إلى أيّ شخص نعرفه في المطار، سوف نحتاج إلى زرع جهاز تعقّب للتأكّد. قابلني في الأسفل بعد عشرين دقيقة. آه أجل آفي، أنا آتٍ، أنا آتٍ بالتأكيد».

أعاد السمّاعة إلى مكانها، ثمّ عصر المزيد من المرهم في يده، وراح يدلّك به معدته ببطء وهو يحدّق إلى المدينة القديمة تحته، بقببها وأبراجها، والحائط الغربي الذي كان مرئيًّا بالكاد. وللحظة واحدة ووجيزة سمح لنفسه بأن يحلم: جيش، جيش عظيم، يضمّ كلّ اليهود، يسيرون أمام الحائط وهم يحملون المينورا فوق رؤوسهم قبل أن يصلوا إلى جبل الهيكل ويدمّروا الأضرحة العربيّة. ثمّ أغلق المرهم، ودخل غرفة نومه للاستعداد.

«حسنًا، هلاّ أخبرته أن يتصل بي؟ خليفة. خليفة! خ-ليي-فة. أجل، بالطبع يعلم... ماذا؟ نعم أمر مستعجل! مستعجل جدًّا. عفوًا؟ حسنًا، حسنًا، شكرًا، شكرًا!»

أغلق خليفة الهاتف بعنف. جلس في مكانه للحظة وهو يفرك جبينه ثمّ وقف وخرج من المكتب. سار عبر الرواق إلى غرفة أخرى، وأخرج أطلسًا من أحد الرفوف على الجدار. عاد إلى مكتبه، وأخذ يمرّر إصبعه على الفهرس، ثمّ فتح الكتاب على الصفحة المقصودة، وبدأ يتبع خطوط الطول والعرض بأصابعه إلى أن وجد الاسم الذي يريد: زالتسبورغ. أشعل سيجارةً وبدأ يحدّق إليه.

مضت ساعة منذ أن تحدّث مع بن-روي، وانتظر كي يعيد الإسرائيلي الاتصال به كما اتفقا، وحين لم يسمع منه شيئًا اتّصل على هاتفه المحمول لأنّه أراد أن يعرف ما إذا وجدا شيئًا لدى شقيق شليغل. اتّصل مرّتين ليجد الخطّ مشغولاً، وفي المرّة الثالثة وجد الهاتف خارج الخدمة. بدأ ينتابه شعور غير مريح من دون أن يفهم السبب، وراح هذا الشعور يزداد قوّة مع مرور الوقت إلى أن اقتنع أخيرًا أنّه ثمّة خطب ما، فاتّصل بمخفر دايفيد.

كما حدث في المرّة الأولى، تمكن بصعوبة من التحدّث أخيرًا إلى سكرتيرة أخبرته بإنكليزيّة متعثّرة أنّ التحرّي بن-روي سافر منذ بعض الوقت مع زميلة له إلى النمسا، إلى زالتسبورغ. لكنّها لم تكن تملك فكرة عن سبب ذهابهما أو تاريخ عودتهما كما أنّها لا تملك حريّة إعطائه المعلومات حتّى وإن كانت تملكها. أراد أن يضغط عليها، ويطلب التحدّث مع شخص أعلى، ولكنّ ذلك سوف يضطره إلى شرح سبب إلحاحه للاتّصال بالتحرّي. وبما أنّ موضوع المينورا اللعينة يُفترض أن يكون سرّيًا، اضطر إلى التراجع، وطلب منها إخبار بن-روي لكي يتصل به.

تمتم وهو يحدّق إلى الأطلس المفتوح أمامه: «ماذا يفعل هناك بحقّ الله؟ ماذا...؟»

فُتح باب المكتب، وأطلّ منه محمّد ساريا.

«ليس الآن يا محمّد».

«الديّ-»

«قلت ليس الآن! أنا مشغول».

كان صوته أكثر حدّة مما أراد، لكنّ الأخبار التي أتته عن بن-روي شتّتت ذهنه ولم يكن في مزاج يسمح له بتبادل المزاح. بدت الخيبة على وجه ساريا أمام

عصبيّة خليفة ولكنّه لم يقل شيئًا، بل اكتفى بهزّ كتفيه، ورفع يديه، وكأنّه يعتذر قبل أن ينسحب مغلقًا الباب خلفه. فكّر خليفة باللحاق به، فهو لم يعامل مساعده يومًا بهذه الطريقة، ولكنّه كان شديد الاضطراب. فأنهى ما بقي من سيجارته، ورمى عقبها من النافذة ثمّ دفن وجهه في يديه.

لا بدّ أنّهما وجدا شيئًا، كان هذا واضحًا. وشيئًا هامًّا بالتأكيد ليستدعي السفر إلى النمسا. تساءل للحظة وجيزة ما إذا كان يبالغ بردّة فعله وما إذا كان سبب صمت بن-روي بريئًا، كأن يكون قد نسي الاتصال به في غمرة حماسته أو أنّ الإرسال كان معطّلاً ولم يسمح له الوقت باستعمال هاتف عمومي.

ولكن لا. كلّما فكر في الأمر وراجع ما حدث في الأيام القليلة الماضية، وما رآه وسمعه من بن-روي، ازداد ثقةً أنّ الإسرائيلي تعمّد استبعاد خليفة من الصورة في اللحظة الحاسمة. لماذا؟ لأمر شخصي؟ لأنّ بن-روي لم يحبّه؟ أم أراد أن ينسب الفضل في إيجاد المينورا لنفسه؟ أم أنّه ثمّة أمر أهمّ أو لعبة أكثر مكرًا، أو أجندة أوسع نطاقًا؟ لم يكن يملك أدنى فكرة. كلّ ما يعرفه هو أنّ الإسرائيلي ليس جديرًا بالثقة.

أشعل سيجارةً أخرى، وأخذ يطرق بأصابعه على المكتب ثمّ اتّخذ قراره. رفع السمّاعة، وطلب رقم المحمول الذي أعطاه إيّاه غلامي في الليلة الماضية للضرورة. بعد خمس رنّات سمع رسالة صوتيّة، فأغلق الخطّ، ثمّ طلب الرقم مجددًا ليحصل على النتيجة نفسها. اتّصل بمكتب غلامي، كان الوزير في اجتماع مع الرئيس ولن يكون حرًّا قبل آخر النهار، كما طلب عدم إزعاجه مهما كانت الظروف. اللعنة.

نهض متوجّهًا إلى النافذة، وشدّ يديه على إطارها، ثمّ عاد إلى مكتبه، واتصل بأحد معارفه في جريدة الأهرام ليسأل ما إذا كان بإمكانه الاتصال بصائب مرصودي. فأعطاه رقم شخص في رام الله، وهذا الأخير أعطاه رقم شخص ثالث في القدس، ومنه حصل على رقم آخر في رام الله أعطاه رقم هاتف في غزّة، ليقال له هناك أنّ لا فكرة لديهم عن مكان مرصودي. تبًّا!

تابع الاتصالات وحين لم يصل لنتيجة خرج لغسل وجهه محاولاً إعادة الصفاء إلى ذهنه. وفي طريقه مرّ بمكتب رأى فيه محمّد ساريا جالسًا وحده أمام المكتب يتناول غداءه. شعر بالذنب للطريقة التي عامله بها فأطلّ من الباب.

«محمّد؟».

رفع ساريا رأسه.

«أنا آسف، لم أعنِ أن أتحدّث إليك بهذا الشكل كنت...»

لوّح المساعد بيده التي أمسك فيها بصلةً: «نسيت الأمر».

«هل كان الموضوع هامًا؟».

قضم ساريا البصلة وهو يقول: «إنّه يتعلّق بتلك البوابة».

هزّ خليفة رأسه من دون أن يفهم.

«أنت تعلم الصورة التي أعطيتني إيّاها، الصورة السلبيّة. تلك التي وجدتها في فيلا جانسن».

كان خليفة قد نسي أمرها تماماً في خضمّ الأحداث.

«اسمع هل يمكننا التحدّث عنها لاحقًا؟ في الوقت الحاضر ليست القبور في أولوياتي».

قال ساريا: «بالتأكيد، مع أنّني لهذا السبب فكرت في أنّ الموضوع قد يهمّك».

هزّ خليفة رأسه قائلاً: «ماذا تعني؟».

«في الواقع، ليست قبرًا».

«ليست... ما هي إذًا؟».

«إنّها منجم في ألمانيا. تحديدًا، منجم ملح».

وقف خليفة عند الباب للحظة، ثمّ دخل الغرفة قائلاً: «تابع، ماذا لديك؟».

حشر نائبه ما تبقى من البصلة في فمه، ثمّ انحنى، وأخرج ملفًا ورقيًا كبيرًا من تحت المكتب. أخرج منه أوّلاً ورقةً مليئة بالملاحظات ومن ثمّ ثلاث صور كبيرة والصورة السلبيّة التي وجدها خليفة في الفيلا.

أشار للصورة السلبيّة قائلاً: «سحبتها بمقاسات عاديّة، ولكنّها لم تكن أكثر وضوحًا. وحين طلبت من الشباب في محلّ التصوير تكبيرها، وجدت شيئًا مثيرًا للاهتمام».

حمل الصورة المكبّرة الأولى. كان الباب نفسه الذي يتذكره خليفة: باب مظلم عند قاعدة جدار عالٍ من الصخور الرماديّة المسطحة. ولكن تبدو الآن في أعلاه كلمات منقوشة في الحجر وباهتة جدًّا بحيث لم تظهر في الصورة السلبيّة. انحنى يحدّق إلى الكلمات.

قرأ وهو يلفظ بصعوبة: «Glück Auf».

شرح ساريا قائلاً: «تعني حظًا سعيدًا. إنّها عبارة ألمانيّة، لقد تحدّثت مع سفارتهم».

«وتمكنوا من التعرّف على القبر من خلالها وحسب؟».

صحّح ساريا: «المنجم، كلاّ لم يتمكنوا. هذه تحيّة تقليديّة بين عمّال المناجم على ما يبدو، تستعمل في جميع أنحاء ألمانيا».

«إذًا كيف؟».

«خطر لي أن أطلب من الشباب تكبير الجزء الأعلى للباب، و...» حمل الصورة الثانية، «هل تلاحظ شيئًا؟».

تفحص خليفة الصورة التي بدت مثل سابقتها باستثناء نقطة بيضاء صغيرة عند الزاوية اليمنى أعلى الباب، تحت حرف «f» لعبارة Glück Auf.

«ما هذا؟».

قال ساريا مبتسمًا: «ممتاز! ستكون تحرّيًا جيّدًا».

أمسك الصورة الثالثة التي بدت غير واضحة ولا تحتوي سوى على جزء صغير من إطار الباب وكلمة Auf، وتحتها أحرف مطليّة على الصخر على مساحة لا تتجاوز حجم قطعة نقديّة معدنيّة، وكانت غير واضحة ولكنّها مقروءة: SW16.

قال: «لم أظنّها هامة في البداية ولكنّني أرسلتها للسفارة على كل حال. فاتّصلوا بخبير مناجم في ألمانيا ووصلتني النتيجة أخيرًا هذا الصباح. تبيّن في الواقع أنّها-»

«جزء من نظام ترقيم؟».

«بالضبط. يُستعمل في بلدة تدعى» - راجع الورقة المليئة بالملاحظات - «بيرشتيسغادن. لتحديد مناجم الملح القديمة وهذا المنجم يدعى» - راجع الورقة مجدّدًا - «بيرغ-أولميفيرغ. مهجور منذ أواخر القرن التاسع عشر. حتّى إنّهم أرسلوا لي خريطةً وبعض المعلومات عن تاريخه. يا لهم من شعب عملي، هؤلاء الألمان».

بحث في الملف مجددًا، وأخرج مجموعة من أوراق الفاكس أعطاها لخليفة الذي جلس على طرف المكتب. كانت تضمّ ستّ صفحات مكتوبة بالألمانيّة - لا فائدة منها لأنّه لا يفهم اللغة - وخريطة وصورة لجبل. لم يكن واثقًا ولكنّ قمّته المسطحة وشديدة الانحدار تشبه كثيرًا اللوحة الزيتيّة المعلّقة في منزل هوث. شعر بتقلّص في صدره وتسارع نبضه.

«هذه البلدة، بيردير - لا أعرف ماذا تدعى، أين تقع بالضبط؟».

صحّح مساعده: «بيرشتيسغادن. جنوب ألمانيا، قرب الحدود مع النمسا».

حلّ صمت قصير، ثمّ نهض خليفة، وأسرع نحو مكتبه. كان الأطلس لا يزال مفتوحًا، فتناوله، وبدأت عيناه تتجوّلان فوق الصفحة. احتاج إلى خمس ثوانٍ لإيجاد

البلدة. كانت تقع على مسافة تقلّ عن عشرين كلم من زالتسبورغ، وهي أقرب مطار منها. تناول الهاتف وطلب رقمًا. بعد ثلاث رنّات سُمع صوت الرئيس حسّاني عبر الخطّ.

«سيّدي؟ خليفة. أحتاج إلى طلب للحصول على نفقات سفر».

سُمع صوت ثرثرة منخفضة.

عضّ شفته وهو يجيب: «أخشى أنّ المكان أبعد من ذلك قليلاً، سيّدي. النمسا».

فجأةً أصبح صوت الثرثرة أعلى بكثير.

مطار بن-غوريون

ريثما ذهبا لإحضار جوازي السفر وعبرا مسافة الستّين كلم التي تفصلهما عن المطار، كانت رحلتهما إلى فيينا على وشك الانطلاق. أبرز بن-روي بطاقته للمرور عبر نقطة الأمن الأساسيّة في قاعة المسافرين - كانت تلك المرّة الأولى والوحيدة التي تعبر فيها ليلى تلك النقطة من دون أن تخضع لاستجواب دقيق ومطوّل - وتوجّها مباشرةً إلى مكتب التفتيش. ولكنّ عبور نقطة الأمن الثانية عند مدخل ردهة المسافرين كان أكثر صعوبة لأنّ أحد الحرّاس أصرّ على اصطحاب ليلى إلى حجرة خاصة لتفتيشها، على الرغم من إصرار بن-روي أنّها تحت وصايته ولا تشكّل تهديدًا. وحين حصلت أخيرًا على إذن المرور، كانت الطائرة على وشك الإقلاع.

قالت ليلى بصبر نافد حين أعاد لها الموظف حقيبتها بعد أن فتّش محتوياتها بدقّة: «غبي!»

حملت الحقيبة على كتفها، واستدارت لتسير خلف بن-روي الذي كان متجهًا نحو بوابة المسافرين. أثناء ذلك، لمحت شخصًا طويلاً، مفتول العضلات، شبه مختفٍ خلف عامود وراء حجيرات مراقبة الجوازات، بدا أنّه يحدّق إليها مباشرةً. التقت أعينهما للحظات وجيزة ثمّ تراجع واختفى عن ناظرها.

في الخارج، عبر آفي شتاينر موقف السيّارات وصعد في الجزء الخلفي من سيّارة فولفو.

«إنّهما على وشك الإقلاع».

هزّ هار-زيون رأسه، ثمّ مال إلى الأمام، وربّت على كتف السائق. انطلقت السيّارة وعبرت بوابة الأمن في آخر المطار ومنها إلى المدرج. تجاوزا صفًّا من حجيرات البضائع قبل أن يتوقفا قرب هانغار بدت من بابه المفتوح طائرة من نوع سيسنا. كان أربعة رجال آخرون - طويلو القامة ووجوههم خالية من التعابير - ينتظرونهم قرب

الطائرة وكلّ منهم يضع اليرمولك على رأسه ويمسك بحقيبة من القنّب. ترجّل هار-زيون وشتاينر وحيّا الستّة بعضهم بهزّة من رؤوسهم، ثمّ اختفوا داخل الطائرة قبل أن يُغلق الباب خلفهم، وتبدأ المحرّكات بالهدير.

مصر

كان خليفة قد فوّت الرحلة المباشرة الوحيدة التي تتمّ يوميًّا من مصر إلى النمسا، فاضطر للبحث عن رحلة بديلة إلى زالتسبورغ عبر عاصمة أوروبيّة أخرى. بعد ساعة من الاتصالات لم يجد سوى رحلة متعبة عبر روما وإينسبروك، وبذلك لن يصل إلى مبتغاه إلاّ بعد منتصف الليل. عندها سيكون بن-روي بالتأكيد قد وصل إلى المنجم ونفّذ خطّته وغادر. بدأ يظنّ أنّه يضيع وقته وأنّه لن يتمكن من اللحاق بالإسرائيلي قبل أن يجد ما يريده في اتصاله الأخير: رحلة سياحية مباشرة من الأقصر إلى ميونيخ، تنطلق عند الساعة 1:15 ظهرًا. كانت ميونيخ على بعد 180 كلم فقط عن بيرشتيسغادن، وكان هذا أفضل الحلول في الوقت الحاضر.

بالكاد وجد الوقت للاتصال بزينب وإخبارها أنّه سيذهب في رحلة عمل قصيرة - «لا شيء يدعو إلى القلق، سأعود غدًا في مثل هذا الوقت» - قبل أن ينطلق نحو المطار. تمّت الأمور بسرعة كبيرة إلى حدّ أنّه لم يلاحظ سوى حين أصبح على متن الطائرة بأنّها المرّة الأولى التي يغادر فيها وطنه الأمّ مصر.

زالتسبورغ

حطّت الطائرة في فيينا عند الساعة 3:30، وحطّا في زالتسبورغ بعد ساعة، ثمّ استقلاّ السيّارة المستأجرة وانطلقا جنوبًا. قاد بن-روي السيّارة، وراحت ليلى تقرأ الخريطة، فيما أحاطت بهما جبال الألب البافاريّة بمنحدراتها الشاهقة المكسوّة بالأشجار. ومع أنّ أسفلها لم يكن مكسوًّا بالثلوج، إلاّ أنّها في الأعلى، حيث تفسح غابات شجر البتولا والدردار والعرعر المجال لصفوف كثيفة من شجر البيسيّة وصنوبر الجبال، كان كلّ شيء ملفوفًا بالضباب الأبيض. ومع أنّ شيئًا لم يقال بينهما، إلاّ أنّهما كانا يتأمّلان المكان بقلق متعاظم خشية أن يعجزا عن بلوغ هدفهما بعد هذه الرحلة الطويلة. ولكن لم يكن من الممكن فعل شيء الآن، فسارا بصمت ثمّ انعطفا عن الطريق الرئيس بعد عشرة كيلومترات، وسارا في طريق يؤدّي مباشرة إلى بيرشتيسغادن، وإلى يمينهما امتدّ نهر راح يجري ويسابقهما.

لاحظت ليلى أنّ بن-روي كان ينظر باستمرار في المرآة مع أنّ الطريق خلفهما كان خاليًا تمامًا.

ميونيخ

حطّت رحلة خليفة قبل عشرين دقيقة من الوقت المحدّد، ولكنّه أضاع هذا الوقت وأكثر في قسم مراقبة الجوازات. إذ واجه صعوبةً، حتّى مع بطاقة الشرطة المصريّة التي يملكها، في إقناع الموظفة أنّه ليس مهاجرًا غير شرعي يحاول التسلّل إلى البلاد للاستفادة من نظام الضمان الاجتماعي فيها (وتذكرته مفتوحة المدّة وعجزه عن تحدّث اللغة لم يسهّلا الأمور). حين أقنعها أخيرًا، واشترى الخريطة واستقلّ سيّارة الفولكسفاغن بولو المستأجرة ليخرج من المطار ويسلك الطريق الرئيس شرقًا، كانت آخر خيوط الشمس تختفي خلف ضباب الغسق.

في ظروف أخرى كان ليأخذ الأمور ببطء أكبر ويعطي نفسه الوقت لاستيعاب محيطه. كانت المراعي الخضراء والهضاب المكسوّة بالغابات والقرى الجميلة بكنائسها المقبّبة ومنازلها ذات القرميد الأحمر غريبةً عنه جدًّا ومختلفة تمامًا عن مشاهد الصحراء الملتهبة التي تكوّن عالمه. ولكن لا الوقت ولا مزاجه يسمحان بذلك الآن، بل راح يقود بأقصى سرعته متجاهلاً الإشارات التي تحدّد السرعة القصوى عند 130كلم بالساعة.

مرّة واحدة خلال رحلته، سمح لتركيزه أن يشتّ قليلاً. كان قد توقّف عند محطة للتزوّد بالوقود وشراء بعض السجائر وفي طريقه إلى السيّارة لاحظ بقعة صغيرة من الثلج فوق مساحة خضراء إلى جانب المحطة، لم تكن تتجاوز في مساحتها حجم بطانيّة طفل صغير. يبدو أنّها آخر ما تبقّى من غطاء الثلوج الشاسع. لم تسبق له رؤية الثلج من قبل، الثلج الحقيقي، فما بالك بلمسه. ومع أنّه كان يسمع صوت الثواني وهي تتكّ في رأسه، إلاّ أنّه لم يقاوم رغبته في السير نحوها ووضع يده على سطح الثلج البارد، حيث أبقاها للحظة وكأنّه يربّت على ظهر حيوان غير مألوف. ثمّ أسرع نحو السيّارة وانطلق مجدّدًا.

قال لنفسه ويده ما زالت تخزه من البرد: «انتظر حتّى تخبر زينب، لن تصدّق أبدًا. ثلج! الله أكبر!»

بيرشتيسغادن

توقّفا عند متجر للخرضوات على بعد خمسة كيلومترات من بيرشتيسغادن لشراء مصابيح وملابس شتويّة، ثمّ انعطفا يسارًا عن الطريق العام، وبدآ بصعود التلال. مع

أنّ الظلام كان قد بدأ يحلّ إلاّ أنّ السـماء كانت صافية مزيّنة هنا وهناك بأولى نجوم المساء وببدر نشر نوره الفضّي في كلّ مكان. ثمّة مجموعات من الأنوار الوامضة هنا وهنـاك تشـير إلـى قـرى ومـزارع معزولة فيما كانت أضواء السـيّارات تنير ظلام طريق بيرشتيسـغادن – زالتسـبورغ الرئيس الممتدّ في الأراضي المنخفضة خلفهما. لم يلتقيا سـيّارات أخرى في طريقهما وبعد أن عبرا قرية أوبيرو بمنازلها ذات القرميد الأحمر والأخضـر، غابـت الأضـواء أيضًـا لتتركهما في عالم من الصمت والسـكون يخلو من أيّ أثر بشري باستثناء الطريق نفسه، ولافتة كبيرة تطلّ من وقت إلى آخر لتعلن أنّهما يسيران على طريق تدعى روسفيلد – هوهن – رينغشتراسي.

سـألها بن–روي وهو يضيء مصابيح السـيّارة الأماميّة: «هل أنت واثقة أنّنا على الطريق الصحيح؟»

هزّت رأسها وهي تمرّر إصبعها على الخريطة قائلةً: «إنّه يلتفّ حول هوهر غول ومن ثمّ نحو بيرشتيسغادن مجددًا. واستنادًا إلى كتاب شليغل يبدأ الطريق المؤدي إلى المنجم بعد أعلى نقطة فيه تمامًا. علينا أن نبحث عن مبنىً قديم».

ألقـى الإسـرائيلي نظـرة أخـرى على المرآة ثمّ داس علـى الفرامل ودخل منعطفًا ضيّقًـا قبـل أن يسـرع مجـددًا، وكانت الرمال تتطاير والمصابيـح تحفر بأنوارها الظلمة التي تغلفهما.

كانا في تلك المرحلة فوق خطّ الثلج وكلّ ما يحيط بهما مغلّف بوشـاح أبيض لامع. كان الثلج يغطي الأرض والأشـجار ويتراكم في جدران بيضاء على ارتفاع متر تقريبًا من كلا الجانبين. أمّا الطريق فكان خاليًا من الثلوج ما سمح لهما بمتابعة المسير إلى الأعلى عبر سلسلة من المنعطفات التي ازدادت حدّة إلى أن بدأت تستوي أخيرًا. فسارا لمسافة كيلومتر تقريبًا في طريق مسطّح بين غابات الصنوبر الكثيفة قبل أن يبدآ بالانحدار مجدّدًا. عندها التقطت أضواء السيّارة عند نهاية منعطف طويل مبنىً صغيرًا وقديمًا مبنيًّا في مساحة خالية من الأشجار إلى يسار الطريق، وكانت جدرانه الحجريّة المتداعية مكسـوّة بطبقة سـميكة من الثلوج. حين وصلا إليه أبطأ بن–روي من سـرعة السـيّارة، وأشـارت ليلى إلى لافتة خشـبيّة صغيرة إلى جانب الطريق رُسـم عليها سهم أصفر موجّه نحو الأعلى إلى الأشجار التي تعلوها.

قالت: «طريق هوهر غول».

أوقفـا السـيّارة، وترجّـلا منهـا. وقفـا للحظـة يتأمـلان محيطهمـا، وكان الصمت يغلّفهمـا والبخـار الجليـديّ يتصاعـد مـن فميهما، ثـمّ قاما بانتعـال الجزمتين، وارتداء المعطفين ووضع القفازين وأضاءا المصباحَين، وبدآ سـيرهما داخل الغابة. سـلكا ما

كان ليبدو طريقًا في طقس أكثر دفئًا ولكنّه الآن مجرّد ممرّ مكسو بالثلوج يرتفع نحو الأعلى بين أشجار الصنوبر الكثيفة.

لـم تكـن مسـافة المائتي متر الأولى صعبـة جدًّا لأنّ الانحدار كان خفيفًا وكانت أقدامهما تنغرس في ثلوج لا تتجاوز مستوى الكاحل. ولكن تدريجيًّا أصبح الارتفاع أكثر قسوةً والثلجُ أكثر عمقًا حتّى غمر ركبهما، وفي بعض الأحيان أفخاذهما، ما بطأ من مسـيرتهما وجعلها أكثر صعوبةً وإجهادًا. كان البرد شـديدًا، وكانا يفقدان تدريجيًّا القـدرة علـى تحديـد الاتجـاه، فيتوقفـان تكـرارًا للتأكّد من أنّهما مـا زالا على الطريق الصحيح الذي ظلّ ينعطف إلى الأمام والخلف وكأنّه يتعمّد إرباكهما. ولولا الأسهم الصفراء التي كانت مثبّتة على مسافات منتظمة على جذوع الأشجار، ولولا معرفتهما أنّ عليهما الاستمرار بالتقدّم نحو الأعلى، لفقدا منذ فترة طويلة كلّ إحساس بالمكان الذي يقصدانه.

أشار كتاب إسحاق شليغل إلى أنّ الوصول إلى المنجم يحتاج إلى ثلاثين دقيقة مـن الصعـود. ولكـن فـي الظـروف التي كانا يسـيران فيها، احتاجا إلى سـاعة ونصف تقريبًا قبل أن تبدأ الأرض بالاسـتواء تحت أقدامهما ليصلا إلى مسـاحة واسـعة خالية من الأشـجار عند أسـفل جدار صخري أسـود، وكان جسـداهما مغطّيين حتّى الخصر بطبقة رقيقة من الثلج.

قالت ليلى وهي تلهث: «الحمد لله».

قربها، أخرج بن-روي قارورته من جيبه، وتناول سلسـلةً من الجرعات الطويلة وهو يقحّ.

اسـتراحا لنصـف دقيقـة، ثـمّ سـارا خطوتين إلـى الأمام وهما يجاهـدان لالتقاط أنفاسـهما، ثـمّ رفعـا مصباحَيهما، وسـلّطا الضـوء على الجدار الصخـري أمامهما إلى أن وجـدا مدخـل المنجـم. كان عبـارة عن مسـتطيل مظلم، ثُبّتـت عليه قطع رقيقة من الخشب لمنع أيّ شخص من الدخول. تبادلا نظرة سريعة، ذلك أنّ البخار المتصاعد من أنفاسهما كان يخفي معظم ملامح الآخر، ثمّ سارا في طريق متعرّج بين الصخور المكسوّة بالثلوج إلى أن وصلا إلى المنجم.

ثلاث ضربات غير قويّة فعلاً كانت كافية لكسر الحاجز الخشبي ونزعه عن الباب. فبدا خلفه ممرّ مظلم يمتدّ في سفح التلّ، سقفه مدعوم على مسافات منتظمة بدعائم خشـبيّة، وجوانبه الضيّقة غارقة بالسـواد. شـعرت للحظة وجيزة أنّها تعيش كابوسـها المتكرّر - الزنزانة تحت الأرض، الحيوان الزاحف، الظلام الدامس والمخيف نفسه -

قبل أن تعود إلى الواقع حين سمعت بن-روي يتقدّم في الظلام. تبعته وهي تشعر أنّ الجدران تطبق عليها ونبضها يتسارع، واستمرّا بالسير لعشرة أمتار تقريبًا قبل أن يتوقّف الإسرائيلي فجأةً ويسدّ بقامته الممرّ بكامله.

«تبًّا!»

«ماذا؟»

«تبًّا!»

وقفت بقربه، وسلّطت نور مصباحها إلى الأمام. كان الطريق ينتهي على بعد أربعين مترًا، تسدّه كومة هائلة من الصخور الناتجة عن انهيار سقف المنجم.

كرّر بن-روي: «تبًّا!»

بيرشتيسغادن

وصل خليفة إلى بيرشتيسغادن من الشمال، على الطريق من باد رايشنهال، وكان قلب السيّارة قد أصبح مثقلاً بدخان السجائر التي ملأت أعقابها المنفضة. توقّف أمام محطة قطار البلدة ليراجع الخريطة، ثمّ انطلق مجدّدًا وهو يلقي نظرةً متفحصة على مجموعة من الرجال الذين يسيرون في الجهة المقابلة من الشارع مرتدين السراويل القصيرة - يا الله، في هذا الطقس! - قبل أن ينعطف فوق نهر بيرشتيسغادنر آشي ويتوجّه صعودًا خارج البلدة نحو الجبال.

استنادًا إلى الخريطة التي أرسلها الألمان إلى ساريا، يمكن الوصول إلى منجم بيرغ-أولميفيرك عبر طريق يؤدي إلى الأعلى ويتفرّع من طريق روسفيلد-هوهن-رينغشتراسي التي يسير عليها الآن. ولكنّهم لم يوضحوا أين يبدأ ذاك الطريق بالضبط أو إن كان يحمل إشارةً ما، لا في الخريطة المرسلة بالفاكس ولا بتلك التي اشتراها في المطار. وكلّما قاد خليفة سيّارته صعودًا وازداد الثلج عمقًا وغابات الصنوبر كثافةً، تعاظم قلقه وهو يفكر في أنّه ما لم يقع على إشارة تقول «المنجم من هنا»، لن يتمكن من إيجاد ذاك المكان اللعين.

كان قد بدأ يتساءل في الواقع ما إذا كان يجدر به العودة إلى أقرب قرية للحصول على مزيد من التفاصيل، حين خرج من أحد المنعطفات إلى ما بدا أنّه أعلى نقطة في الطريق، وسقطت أضواء السيّارة على واجهة مبنىً حجري قديم في مساحة خالية من الأشجار إلى اليمين. رأى بقربه سيّارة متوقفة إلى جانب الطريق وآثار أقدام تختفي في الغابة إلى الأعلى. لا بدّ أنّه بن-روي. توقف، وأطفأ المحرّك وترجّل من السيّارة.

ظنّ أنّ البرد قارس في الأسفل، ولكنّه لا يقارن أبدًا بالجوّ الجليدي الذي يحيط به الآن. شعر أنّ هواء الجبال يجرّده من ملابسه، وكأنّه يقف عاريًا في برّاد ضخم. وللحظة أحسّ أنّ أنفاسه على وشك أن تتوقف وكأنّه تلقّى لكمة في معدته. وحتى حين تمالك نفسه بما يكفي لوضع سيجارة في فمه وإشعالها، كانت أسنانه تصطكّ بقوّة إلى حدّ عجز معه عن سحب أيّ نفس منها.

راح يقفز قليلاً محاولاً بعث شيء من الدفء في جسده ثمّ انحنى إلى داخل السيّارة ووضع في جيوبه كلّ الأوراق التي وجدها - خرائط، مستندات تأجير السيّارة، وحتّى كتيّب الفولكسفاغن - ثمّ أغلق الباب، وأقفل السيّارة، وراح يسير في الغابة. كان حذاؤه يغرق في الثلج وأشجار الصنوبر تلتف حوله وكأنّها قضبان قفص هائل.

تمكنا من إزاحة عدد من الصخور الصغيرة من أعلى كومة الصخور آملين أن يكون الانهيار محدودًا وأن يتمكنا من العبور إلى الجهة المقابلة. ولكن عبثًا، فخلف الصخور الصغيرة وجدا صخورًا أكبر وأكبر وألواحًا هائلة منها. كان من الصعب إزالتها حتّى بوجود عشرة أشخاص ومعدّات رفع مناسبة. أمّا بمفردهما وبيديهما فكان ذلك مستحيلاً. حاولا لثلاثين دقيقة بعد أن ثبّتا مصباحيهما فوق دلو قديم على الأرض ثمّ استسلما.

قالت ليلى وهي تمسح العرق الذي تكوّن على جبينها برغم البرد: «إنّها مضيعة للوقت. لا مجال للعبور، هذا مستحيل».

لم يقل بن-روي شيئًا بل اتكأ على الجدار وهو يلهث. ثمّ تمتم بشتيمة وتناول أحد المصباحين، وبدأ يسير عائدًا نحو مدخل المنجم. ظلّت ليلى في مكانها للحظة ثمّ تقدّمت وتناولت المصباح الثاني. أثناء ذلك، سقط ضوؤه على الأرض والتقط ما بدا وكأنّه ثلم في الصخر عند قدميها. كان عرضه لا يتجاوز بضعة سنتيمترات ويمكن رؤيته بصعوبة من تحت الغبار والأوساخ التي تكسو الأرض. سلّطت الضوء عليه وهي عابسة، ثمّ ركعت، وأمسكت المصباح بيد فيما مسحت الغبار عن الأرض باليد الأخرى. بدا الثلم أكثر ثمّ بدت أثلام أخرى أيضًا. مسحت الأرض بقوّة أكبر فرأت أنّ الأثلام ممتدّة بخطوط متوازية، مجموعة منها متجهة نحو الرواق الممتدّ من المدخل وحتّى كومة الصخور، أمّا الأخرى فتنعطف عند النقطة التي ركعت عليها وتمتدّ مباشرةً إلى الجدار بين دعامتين خشبيتين.

نادت بن-روي وهي تواصل مسح الغبار عن الأرض: «انظر إلى هذا».

كان بـن-روي قـد وصـل تقريبًـا إلى مدخل المنجم، فتوقف واسـتدار. صرخت قائلةً: «كانت توجد سكّة حديد هنا، على الأرض. إنّها تمتدّ إلى داخل المنجم ولكنّها تتفرّع هنا».

تردّد الإسرائيلي، ثمّ عاد، وسلّط مصباحه ليتّحد ضوؤه مع مصباحها وينير الأثلام المتوازية. حدّق إليها ثمّ تراجع، وسلّط ضوء المصباح على المنطقة التي تختفي فيها الخطوط في الجدار. قامت ليلى بالمثل. على الرغم من أنّ الجدار قاتم وغير مستوٍ، ولكن حين نظرا إليه الآن عن كثب لاحظا أنّ ذاك الجزء من الصخور كان أفتح لونًا من باقي الجدار ومن نوعية مختلفة قليلاً. تقدّم إليه بن-روي ومرّر يده على سطحه، ثمّ وجّه له لكمة خفيفة.

قال: «إنّه من الإسـمنت! ثمّة فتحة هنا ولكنّ أحدهم سـدّها بحيث بدت تشبه بقيّة النفق».

«هل تظنّ...؟».

لم يجب بل وجّه لكمة أقوى إلى الجدار. لم تكن ليلى واثقة ولكنّها شعرت أنّ الصوت يشـير إلى وجود تجويف خلفه. رأت معولاً قديمًا موضوعًا على الأرض في الجوار فتناولته وضربت به الجدار. تردّد الصوت الأجوف مجددًا بقوّة أكبر. نظرا إلى بعضهمـا، ثـمّ أخـذ منها بن-روي المعول وناولها مصباحه وبدأ يضرب. ضربة، اثنتان، ثلاث وظهر شقّ صغير. عدّل وقفته، وأعطى نفسه مجالاً أكبر لرفع المعول، ثمّ استأنف الهجوم. اتّسع الشقّ، وتمدّد، وتفرّعت منه شقوق أخرى، وكان الصوت الأجوف يزداد ارتفاعًا مع كلّ ضربة إلى أن سقط لوح كبير من الإسمنت على الأرض كاشفًا عن جدار من أحجار الفحم الخام. عليه، كُتبت بطلاء أبيض الكلمات: MEIN EHRE...

« HEISST TREUE»، همسـت ليلـى ببقيّـة الجملـة التـي كانت لا تزال مختفية خلـف الجـدار الإسـمنتي. نظـرت إلـى بـن-روي قائلـةً: «إنّها شـعار وحـدات النخبة النازيّة».

تمتم قائلاً: «هوث، أيّها النازي الحقير الماكر!»

طرق بيده على الأحجار لفحص متانتها ثمّ اسـتعمل رأس المعول ليوسّـع فتحة الإسـمنت. فسـقطت على الفور، وخلال دقيقة كان قد أزال الجدار الإسـمنتي. خفض المعول، وراح يضرب به على جدار الفحم الذي ارتجف ولكنّه ظلّ في مكانه. ضرب مجددًا بكلّ قوّته، فانهار هذه المرّة بصوت عالٍ مخلّفًا فجوة مستطيلة مظلمة. استعاد مصباحه من ليلى وانحنى إلى الأمام مسلّطًا الضوء في الفجوة.

«أوي فاي!»

«ماذا ترى؟».

«أوي فاي!»

«ماذا؟».

تراجع بن-روي مفسحًا المجال لليلى لتأخذ مكانه. فرفعت مصباحها وقرّبت وجهها من الفجوة لتحدّق إلى الظلام، وكان البخار المتصاعد من فمها يتمايل في ضوء المصباح. كان يمتدّ أمامها نفق آخر، أضيق من النفق الأساسي ويلتقي به عند زاوية مستقيمة. سلّطت الضوء على الجدران لترى عشرات وعشرات من الصناديق، بعضها خشبي والآخر معدني، بعضها كبير والآخر صغير ومعظمها يحمل على ما بدا دمغة الصليب المعقوف وإشارة SS.

همست: «يا إلهي!»

تأمّلت المشهد لثلاثين ثانية، ثمّ شعرت بالتوتر فجأةً لأنّها تدير ظهرها لبن-روي، فاستدارت مجددًا. كان الإسرائيلي يقف خلفها مباشرةً وفي يده إزميل حديدي صدئ عثر عليه فيما كانت تحدّق عبر الفجوة. خافت للحظة معتقدةً أنّه على وشك مهاجمتها ولكنّه أعطاها الإزميل ببساطة وتناول المعول عن الأرض حيث تركه.

قال: «فلنهدم الجدار».

احتاجا إلى أقلّ من خمس دقائق لتوسيع الفجوة إلى فتحة يمكن عبورها. ثمّ تركا الأدوات، ودخل بن-روي أوّلاً فيما بدا أنّ تنفسهما المضطرب يملأ المكان وكأنّهما يقفان داخل رئة حجريّة شاسعة.

راحا يمرّران مصباحيهما إلى الأمام والخلف محاولين عبثًا أن يتبينا مدى طول الممرّ ثمّ سارا نحو أقرب صندوق وقرفصا أمامه. كان صندوقًا معدنيًّا مكعّبًا رُسم على غطائه بالرذاذ الأسود جمجمة مع عضمتين متقاطعتين. نزع بن-روي الأقفال وفتحه.

قال غاضبًا: «اللعنة!»

كان الصندوق يحتوي على دزينتين من المتفجرات البلاستيكيّة الملفوفة بورق مشّمع. حدّقا إليها بعصبيّة ثمّ انتقلا إلى الصندوق التالي، وكان خشبيًّا ومستطيلاً، وُضعت على سطحه عَتَلة (أداة لرفع الأشياء الثقيلة). فتناولها بن-روي وفتح بها الغطاء ومسح طبقة من القش ليجد تحتها بنادق من نوع موسر، وفي زاوية الصندوق كميّة من الذخيرة.

تمتمت ليلى: «إنّها أسلحة، مجرّد أسلحة قديمة».

أخرجا إحدى البنادق وتفحصاها، بدت أنّها صالحة تمامًا للاستعمال ولم تتأثر بتخزينها لمدّة ستّين عامًا في منجم مظلم. ثمّ أعاداها إلى الصندوق، وبدآ يسيران داخل النفق ويتوقفان كلّ بضعة أمتار لفتح صناديق أخرى. كان معظمها يحتوي على أسلحة ومعدّات تدميريّة، فضلاً عن أشياء أخرى. فأحد الصناديق كان يحتوي على مئات الصلبان الحديديّة، فيما ضمّ آخر رزمًا مرتبة من الأوراق النقديّة، وآخر زجاجات شراب مكسوّة بالغبار. كان ثمّة صندوق صغير مسطح مسنود على الجدار على مسافة عشرين مترًا تقريبًا داخل النفق عُلّقت عليه بطاقة كتب عليها: 1 فيرمير، 1بروغيل، 2ريمبراندت.

كانت ليلى تتمتم طيلة الوقت: «يا إلهي، يا إلهي».

كانت المجموعة رائعة ولكنّهما لم يجدا أثرًا للمينورا، فواصلا السير قُدمًا في أعماق الجبل إلى أن بدا لهما بعد خمسين مترًا أنّ النفق يتسّع ويلفه ظلام دامس أكثر من قبل. سلّطا ضوء المصباحين إلى الأمام والخلف محاولين تبيّن الطريق ثمّ سارا لمسافة عشرين مترًا أخرى قبل أن تختفي جدران النفق ليجدا نفسيهما عند مساحة واسعة ومسطحة يحدّقان إلى الفراغ.

قالت ليلى هامسةً: «إنّها مغارة».

سارا إلى الأمام إلى حيث أقيم نظام مصعد بدائي يوصل إلى أرض المغارة في الأسفل – مجرّد مصطبة خشبيّة مسطحة مزوّدة بسكّة يدويّة من الجانبين، تسير فوق سكّة أفقيّة مثبّتة في الصخور. تفحصاها بأقدامهما بحذر للتأكّد من أنّ الخشب ما زال متينًا ثمّ وقفا عليها ووجّها المصباحين إلى الأسفل.

مع الظلام الدامس الذي يغلّف المكان، كان من المستحيل تكوين فكرة عن حجم المغارة. وبما أنّ ضوء المصباحين بدأ يضعف حين وجّهاهما إلى السقف، كما خفت تمامًا قبل أن يتمكنا من رؤية الجدار المقابل، لم يدركا سوى أنّ المغارة كانت كبيرة، وكبيرة جدًّا. وفي الأسفل، على عمق عشرة أو خمسة عشر مترًا، أمكنهما رؤية مزيد من الصناديق، لا بل كثير من الصناديق الأخرى.

تمتم بن-روي: «كم يوجد من هذه الأشياء هنا؟»

مرّرا المصباحين حولهما لدقيقة محاولَين تكوين صورة عن محيطهما ثمّ راحا يبحثان عن طريقة لتشغيل المصعد. كان ثمّة صندوق تحكّم مثبّت على إحدى السكّك اليدويّة مع سلك كهربائي طويل يتدلّى منه فضلاً عن رافعة مثبّتة عليه. شدّ بن-روي الرافعة ولكنها لم تعمل.

قال: «الطاقة مقطوعة».

وضع العتلة التي كان لا يزال يحملها، وانحنى من فوق الدرابزين موجّهًا مصباحه في الظلام محاولاً تحديد مكان مصدر الكهرباء الذي يزوّد المصعد بالطاقة. رأى مزيدًا من الأسلاك المتشابكة في أرض المغارة، بعضها يمتدّ بين الصناديق وأحدها، وهو الأكثر سماكةً، يمتدّ على الجدار الصخري قرب المصعد. تتبّعه بمصباحه حتّى وصل إلى المساحة الأرضيّة الواسعة لينتهي عند باب منخفض على بعد بضعة أمتار إلى يسار فتحة النفق. توجّها نحوها ودخلا إلى غرفة صغيرة محفورة في الصخور ليجدا أنّ السلك ينتهي عند مولّد كهربائي كبير تتدلّى منه ذراع آليّة صدئة.

سألته ليلى: «أتظنّه ما زال يعمل بعد كلّ هذا الوقت؟».

قال بن-روي وهو يعطيها مصباحه: «ثمّة طريقة واحدة لمعرفة ذلك».

أمسك الذراع بيديه الاثنتين، وشدّها فتحرّكت نصف دورة ولكن لم يحدث شيء. حاول مجددًا من دون جدوى. فقرفص ليعطي نفسه مجالاً أكبر وحاول رفع الذراع مجدّدًا، فصدر عن المولّد صوت يشبه القحّة الضعيفة وارتجف قليلاً.

قالت ليلى: «هيّا».

حاول بن-روي من جديد عدّة مرات وفي كلّ مرّة كان يُحدث أثرًا أكبر إلى أن دبّت الحياة في الآلة عند المحاولة التاسعة، وأضاءت الأنوار قلب الكهف. فأسرعا عائدين نحو المصعد.

صرخت ليلى: «تبًّا».

كما أدركا في البداية كانا يقفان على شرفة طبيعيّة عند طرف مغارة واسعة يبلغ ارتفاعها ثلاثين مترًا وعرضها أربعين فيما يصل طولها إلى سبعين مترًا. كانت جدرانها وسقفها مخطّطة بأشرطة متمايلة من الصخور الرماديّة والبرتقاليّة. ولكنّ المغارة نفسها لم تكن هي التي أثارت ذهولهما، بل محتوياتها. فالنفق كان يحتوي على عشرات الصناديق، أمّا المغارة - التي تنيرها أضواء مسلّطة من ثمانية مصابيح ضخمة - فكانت تضمّ مئات الصناديق المكدّسة في صفوف تتخلّلها ممرّات ضيّقة تمتلئ بأغراض مختلفة - تماثيل، مسدّسات، لوحات، براميل وقود، وحتّى زوجان من الدرّاجات الناريّة القديمة. وكان يتدلّى من السقف في آخر المغارة علم كبير يغطي تقريبًا كامل الجدار خلفه - أحمر أبيض وأسود مع صليب معقوف في الوسط.

كرّرت ليلى: «تبًّا».

تقدّما نحو المصعد مجددًا حاملين المصباحين بأيديهما وهدير المولّد يتردّد

خلفهما.

تمتمت قائلةً: «لن نعثر عليه أبدًا، سوف نحتاج إلى أيام وأسابيع».

لم يقل بن-روي شيئًا بل راح يجوّل نظره حول المغارة. بعد عشر ثوانٍ أشار بالمصباح قائلاً: «كلاّ، لن نحتاج إلى ذلك».

كان يمتدّ تحتهما على طول المغارة، من المصعد حتّى الجدار الخلفي ممشى مركزي عريض، كان الجزء الوحيد الخالي من الأغراض. في نهايته، رأى صندوقًا واحدًا كبيرًا مكعّبًا بارتفاع رجل تقريبًا، موضوعًا تحت العلم النازي مباشرةً وكأنّه وُضع جانبًا عن عمد.

قال: «ذاك هو».

همست ليلى: «نعم، نعم».

حدّقا إليه ثمّ تناول بن-روي العتلة، وحرّك رافعة المصعد. سُمعت طقطقة عالية ثمّ بدأت المصطبة الخشبيّة تهبط ببطء محدثةً جلبة قبل أن تقف على بعد بضعة سنتيمترات من أرض المغارة. نزلا عنها وبدآ يسيران من دون أن تحدث أقدامهما أيّ صوت فوق الأرض الحجريّة المسطحة، بينما ارتفعت الصناديق كالجدران من الجانبين. بدت المغارة أوسع وأكثر رهبة وهما يريانها من الأرض. في منتصف الطريق توقف هدير المولّد للحظة مغرقًا المكان بالظلام الدامس لبضع ثوانٍ قبل أن يستعيد أنفاسه وتعود الأنوار من جديد. توقّفا ليريا ما إذا كان ذلك سيحدث مجددًا ثمّ تابعا السير نحو العلم النازي الذي بدا أكبر من هنا، واقتربا أكثر من الصندوق إلى أن توقّفا على بعد مترين منه. كانت أنفاسهما سريعة ومضطربة والعرق يلمع فوق جبينيهما. أعطى بن-روي العتلة لليلى.

«الأولويّة للسيّدات».

تردّدت وهي تلاحظ تمدّد حدقتيه فجأةً وشعرت أنّ ما كان يخطّط له خلال الأيام القليلة الماضية يقترب سريعًا من نهايته. تناولت العتلة ووضعت مصباحها جانبًا ثمّ تقدّمت نحو الصندوق.

قالت وهي ترسم ابتسامة متوترة على وجهها: «حانت لحظة الحقيقة».

همس بن-روي: «أجل، هذا صحيح».

كانت الزاوية الخلفيّة اليسرى للصندوق متضرّرة، إذ بدا الخشب مكسورًا ومتشقّقًا، فتوجّهت نحوها، وأدخلت رأس العارضة في الفجوة وبدأت ترفع الغطاء. كان مثبّتًا جيّدًا وبذلت جهدًا لتحريكه فيما وقف بن-روي يراقبها.

قال بعد لحظة: «غاليا».

«عفوًا؟».

«كان اسمها غاليا».

سحبت العارضة، وأزاحتها قليلاً ثمّ ضغطت عليها بكلّ ثقلها.

«اسم من؟».

«الصورة في غرفة الجلوس، صورة المرأة التي سألتني عنها. اسمها غاليا».

نظرت إليه. عمّ يتحدّث بحقّ الله.

قالت: «حسنًا».

«خطيبتي».

كرّرت: «حسنًا».

كان الغطاء قد بدأ ينفتح الآن والمسامير تئنّ وهي تُنتزع واحدًا تلو الآخر. انتقلت إلى جانب الصندوق ومن ثمّ إلى الجهة الأمامية بحيث أصبح ظهرها إلى بن-روي وهي تشدّ وترفع. خلفها بدأ الإسرائيلي ينقل مصباحه من يد إلى أخرى وعيناه مثبّتتان على الجزء الخلفي من رأسها.

«كنّا ننوي الزواج».

لم يكن يتبقّى سوى مسمارين. بدأت ترى تحت الغطاء كومة من القش الأصفر.

قال: «قرب بحر الجليل، عند شروق الشمس. المكان جميل في هذا الوقت من النهار».

رمت عليه ليلى نظرة من فوق كتفها وهي تتساءل عن السبب الذي يدعوه لقول ذلك لها، ثمّ عادت توجّه انتباهها إلى الصندوق.

سألته: «ماذا حدث؟ تخلّت عنك؟».

استقرّ المصباح في يد بن-روي اليمنى.

«بل قُطّعت أشلاءً».

توترت كتفا ليلى.

«قبل أسبوع من الزواج، في القدس في ساحة هاجر. الملثّم».

سُمع صوت تمزّق قوي مع استسلام آخر مسمار ثمّ رُفع الغطاء وسقط على الأرض محدثًا جلبةً. بالكاد لاحظت ذلك وقد بدأت تستوعب ما يحدث. قتلوا خطيبته

اللعينة والآن...

شعرت أنّ بن-روي يتقدّم خلفها ويرفع يديه. فاستدارت غاضبة ويائسة ورفعت العتلة بما تبقّى لها من قوّة محاولةً إبعاده وحماية نفسها. إلاّ أنّه كان مستعدًا لها فتفادى الضربة ولكمها على جانب وجهها بالمصباح فارتمت على الأرض.

قالت مختنقةً ومربكة وهي تشعر بركبته تضغط على ظهرها وهو يثبّتها على الأرض: «عليك أن تصدّقني، أنا لست...»

سمعته يفتح سحاب حقيبتها ويبحث في محتوياتها ثمّ أدخل يده تحت ذقنها ورفع رأسها إلى الأعلى. كان يزمجر كالحيوان المسعور.

قال غاضبًا: «أنا أستعمل مانيو أيّتها العربيّة الحقيرة المجرمة! هل تفهمين؟ أنا أستعمل مانيو! والآن أين هو؟ أخبريني! أخبريني وإلاّ كسرت عنقك!»

لم يكن الصعود إلى المنجم بالصعوبة التي توقّعها خليفة، مع أنّ الرحلة لم تكن سهلةً، لا سيّما الجزء الأخير منها حين بدأ البرد يلسع يديه وقدميه فعلاً. ولكنّ آثار أقدام بن-روي وليلى سهّلت عليه تبيّن الطريق، كما أنّه كان يتوقّف كلّ مائة متر تقريبًا لإشعال ورقة من الأوراق التي أحضرها معه، وهذا ما ساعده على عدم التجلّد حتّى الموت.

توقّف في الأعلى عند طرف الغابة لالتقاط أنفاسه وكان السكون يعمّ المكان باستثناء صوت تنفسه وتكسّر الأغصان المجلّدة، ثمّ توجّه نحو المنجم. حين راح يتقدّم عبر الباحة، أخذ يسمع صوتًا آخر شبيهًا بالهدير ولكنّه ضعيف جدًّا. راح الصوت يزداد قوّة وحين بلغ مدخل المنجم تأكّد أنّه هدير مولّد كهربائي.

دخل ثمّ توقّف ليصغي. كان الصوت يأتي من الداخل بالتأكيد مع أنّ اتجاهه ليس واضحًا. أمال رأسه إلى الأمام وراح يحدّق إلى الظلام، إلاّ أنّه لم يميّز سوى جزء صغيرًا من الجدار والأرض تحته مباشرةً في الضوء المنبعث من القمر، والباقي كان غارقًا في ظلام دامس. أشعل قدّاحته وحملها عاليًا وبدأ يشقّ طريقه في الممرّ وهدير المولّد يزداد قوّة مع كلّ خطوة، فيما ازدادت ضربات قلبه عنفًا.

سار عشرين مترًا ثمّ توقّف. كان يرى شيئًا أمامه، أشبه بضباب يطوف في الهواء بقرب الجدار الأيمن للنفق، وكلّما اقترب ازداد الضباب كثافةً وقربًا إلى أن أدرك أنّ ما أمامه ليس رؤيا وهميّة بل هالة من الضوء المنبعث من فتحة في الجدار الأيمن. وصل إليها وانحنى لينظر عبرها إلى النفق الممتدّ وراءها.

تمتم وهو يتأمّل صفوف الصناديق والمغارة المضاءة بنور ساطع في آخر النفق: «الله أكبر!»

وهو يعبر الفتحة سمع صراخ امرأة. وقف يصغي وحين سمعه مجددًا تابع سيره. وجد على مسافة مترين صندوقًا مفتوحًا مليئًا بالبنادق. كانت من نوع موسر، وهو نفسه الذي كان يُستعمل أثناء التدريب في كليّة الشرطة. تناول إحداها وتفحصها ثمّ لقّمها بالرصاص واحتفظ بعدد من الرصاصات الاحتياطيّة في جيبه وتابع سيره. كان الوهج يزداد قوّة في آخر النفق وصوت المولّد يرتفع إلى أن وصل أخيرًا إلى الباحة الحجريّة الواسعة التي كانت ليلى وبن-روي يقفان عليها قبل ربع ساعة.

في الوقت نفسه توقّف المولّد مجددًا، فانطفأت الأضواء وكان قد لحظ بالكاد السقف العالي المقوّس المقبّب والصناديق المكدّسة والعلم النازي الكبير المعلّق على الجدار الخلفي قبل أن يغرق كلّ شيء في الظلام. توقّف في مكانه لبضع ثوانٍ بدت بالنسبة إليه وكأنّها دهر قبل أن يعود المولّد إلى الحياة من جديد. زال الظلام بالسرعة نفسها التي خيّم بها وحلّ مكانه ضوء ساطع. سار إلى طرف الشرفة الحجريّة ثمّ ركع على إحدى ركبتيه ورفع البندقيّة محرّكًا فوّهتها فوق بحر الصناديق في الأسفل.

«بن-روي!»

لم يجب أحد.

«بن-روي! هل أنت هنا؟».

لم يجب أحد وكان على وشك الصراخ مرّة ثالثة حين أتاه صوت الإسرائيلي فجأة من الأسفل وكأنّه ذئبٌ هائج.

«خليفة، أيّها الأحمق! ما الذي أتى بك إلى هنا؟».

سمع حركةً في الأسفل ثمّ خرج بن-روي من بين صندوقين وفي يده مسدّس فيما قبض باليد الأخرى على عنق ليلى. جرّها إلى وسط الباحة المركزيّة ودفعها على ركبتيها. كان الدم يسيل من أنفها فيما ظهر أثر كدمة على أعلى خدّها الأيسر.

فكّر خليفة: «حقير، أيّها اليهودي الحقير».

صوّب البندقيّة نحو أحد البراميل وقال: «بن-روي! اترك المسدّس».

كان فم الإسرائيلي يتقلّص يمينًا ويسارًا وبدت عيناه واسعتين وحمراوين، وكأنّه أصيب بمسّ من الجنون.

«خليفة، أصغِ إليّ!»

صرخ المصري وهو يضع إصبعه على الزناد: «لقد كنت أفضل الرماة في صفّي

وأنا أصوّب البندقيّة بين عينيك، والآن اترك المسدّس».

«اسمع أيّها الأحمق!»

«اترك المسدّس!»

«إنّه آتٍ! هل تفهم؟ الملثّم. إنّه آتٍ إلى هنا! من أجل المينورا! إنّها تعمل لحسابه، هذه اللعينة تعمل لحسابه».

أمامه كانت ليلى تحدّق إلى خليفة بعينين مذعورتين ومتوسلتين. هزّت رأسها قليلاً وهي تحرّك فمها قائلةً لا. تحرّك خليفة قليلاً محاولاً إبقاء البندقيّة ثابتة بالرغم من ارتجاف يديه.

«لن أكرّر قولي مجددًا يا بن-روي. دع المسدّس وابتعد عنها».

صرخ الإسرائيلي: «بربّك يا خليفة، لقد اعترفت بذلك. إنّها تعمل لحسابه وهو في طريقه إلى هنا! لقد قتل غاليا وهو الآن قادم إلى هنا!»

كان صوته قد ارتفع وأصبح أقرب إلى الصراخ. شعر خليفة أنّ الإسرائيلي محطّم وكأنّه يصاب بالانهيار.

صرخ قائلاً: «اترك المسدّس وسوف نتحدّث».

«لا وقت لذلك أيّها الأحمق! إنّه آتٍ! الملثّم آتٍ!»

أمسك بشعر ليلى ووضع المسدّس عند الجزء الخلفي من رأسها ثمّ صرخ قائلاً: «أخبريه! أخبريه بما قلته لي!»

«بن-روي، دعها!»

«أخبريه أيّتها الحقيرة!»

«بن-روي!»

«أخبريه كيف تجنّدين منفذي العمليات التفجيريّة! كيف أنّ ذاك المقال بأكمله كان كذبة! أخبريه أيّتها العربيّة المجرمة!»

كان يهزّها إلى الأمام والخلف كأنّها دمية من قماش.

صرخت قائلةً: «أرجوك!»

صرخ خليفة بتحذير آخر وحين بقي الإسرائيلي على موقفه ضغط على الزناد مصوّبًا نحو الأرض إلى يساره. أصابت الرصاصة الحجر ثمّ قُذفت على الجدار الخلفي قبل أن تغيب بين الصناديق. جمد بن-روي وراحت أنفاسه تخرج قصيرةً ويائسة وعيناه تلتهبان بنظرة الممسوس. ظلّ في مكانه للحظة ثمّ حرّر شعر ليلى وتراجع خطوةً والمسدّس لا يزال في يده. هيّأ خليفة البندقية لإطلاق رصاصة أخرى

فيما ارتمت ليلى على الأرض.

قالت وهي تقحّ محاولةً التقاط أنفاسها: «الحمد لله»، ثمّ نظرت إلى خليفة وأضافت: «إنّه يعمل لحساب هار-زيون، محاربي داوود. إنّهم يعرفون كلّ شيء عنّا ويتبعوننا».

انفجر الإسرائيلي يضحك غير مصدّق وعيناه تتنقلان بشراسة من خليفة إلى ليلى ومن ثمّ إلى خليفة.

«هراء، إنّها تكذب!»

«إنّها الحقيقة! لقد رأيتهم في القدس، في المطار. كان يزوّدهم بالمعلومات طيلة الوقت».

«خليفة، إنّها تكذب!»

قالت وهي تنهض وتتراجع نحو أحد الصناديق: «كان يلعب بنا جميعًا، أنت، أنا، الجميع. إنّه ينتمي إلى شايالاي دافيد، وهم آتون لأجل المصباح. سوف يشعلون حربًا».

«لا تصدّقها!»

«علينا إخراجه قبل أن يفوت الأوان».

«أيّتها العربيّة الكاذبة...»

تقدّم خطوةً وهو يرفع مسدّسه فأطلق خليفة رصاصة أخرى تنقلت على جدران المغارة قبل أن تختفي بين الصناديق.

صرخ قائلاً وهو يلقّم البندقية مجددًا: «هذا آخر إنذار، والآن اترك المسدّس!»

صرخ الإسرائيلي والشرر يتطاير من عينيه: «أنت لا تدري ما تفعل! أرجوك خليفة، عليك أن تصدّقني. كنت أراقبها وأتبعها. إنّها تعمل لحساب الملثّم!»

بدأ يتلعثم، فبذل جهدًا خارقًا ليسيطر على نفسه ويتحدّث ببطء أكبر.

قال وهو يسحب أنفاسًا عميقةً، وبدا صوته متوترًا بسبب الجهد الذي يبذله لكي يسيطر على نفسه: «اسمع، لقد كتبت مقالاً منذ عام. بعد وفاة غاليا مباشرةً. مقابلة مع الملثّم. قالت إنّه يستعمل عطر مانيو، وقالت إنّها عرفته. ولكنّني أستعمل مانيو ولم تعرفه. كنت أستعمل مانيو وسألتني أيّ عطر أستعمل. لم تعرفه، لم تعرفه!»

نظر خليفة مذهولاً إلى ليلى التي رفعت حاجبيها وكأنّها تقول «أنا أيضًا لا أفهم». انتبه بن-روي إليهما فهزّ رأسه غاضبًا.

صرخ: «حبًّا بالله، عليك أن تصدّق! كانت القصّة مختلقة، هي من ألّفها. العطر،

الاجتماع، المقال بأكمله كان من اختراعها، لكي تحمي الملثّم الحقيقي وتبعد عنه الشكوك. لكي تحمي سيّدها».

كان صوته يتسارع من جديد فجاهد للسيطرة على أعصابه ورفع يده ليمسك المينورا المتدلّية من عنقه.

«لقد تحرّيت عنها منذ ذاك المقال، لمدّة سنة كاملة. قابلَت كلّ منفذي التفجيرات يا خليفة، كلّ منفذ تفجير تابع للملثّم، قابلَتهم جميعًا. قابلَت كلّ واحد منهم. هكذا يجنّدهم، من خلالها. تقابلهم وتتأكّد من أنّهم مناسبون ثمّ تمرّر له أسماءهم. هكذا تسير الأمور، هذا هو النظام. إنّها غارقة فيه حتّى أذنيها!»

«إنّه مجنون!»

«إذًا اشرحي الأمر!»

كان يصرخ وهو يحدّق إليها بعينين شرستين وكبيرتين وكأنّهما ستنفجران من رأسه. تابع مضيفًا: «اشرحي كيف يصدف أنّ كلّ من ينفذ عملية تفجير للملثّم تكونين قد أجريت معه مقابلة!»

صرخت وهي تهزّ رأسها بعجز وقد بدأ صوتها يعلو هي أيضًا: «لا أستطيع! إنّها مصادفة... لا أدري! لقد مررت بكلّ ذلك مع الشين بيت بعد أن كتبت المقال».

بحث بن-روي في جيبه ثمّ أخرج قطعةً معدنيّةً صغيرة بحجم علبة سجائر ورفعها في الهواء قائلاً: «كان لديها جهاز تتبّع معها، حبًّا بالله! كان في حقيبتها يا خليفة! الملثّم يتبعنا، إنّه يتبعنا!»

صرخت: «لقد فتشوا حقيبتي في المطار، لا يمكن أن أعبر ومعي شيء كهذا».

«إذًا كيف؟ كيف؟».

صرخت وهي ترفع يدها إلى جبينها وقد انتابها فجأة التوتر والإرباك: «لا أدري! لا بدّ أنّ أحدهم قد زرعه فيها. لا أدري!»

صرخ الإسرائيلي من دون أن يبذل مزيدًا من الجهد للحفاظ على هدوئه: «أيّتها الكاذبة الحقيرة! لا تصدّق كلمةً منها يا خليفة، هذا تمثيل. إنّها تعمل لحساب الملثّم وهذا ما كانت تفعله دائمًا. إنّها قاتلة! قتلت حبيبتي غاليا!»

صرخت قائلةً: «جميعنا قتلة من وجهة نظرك! كلّ فلسطيني، كلّ عربي. الملثّم قتل خطيبته ونحن الملامون، ولهذا السبب باع نفسه لهار-زيون».

«هراء، كاذبة!»

«إنّهم يتبعوننا!»

«لا تصدّقها يا خليفة! إنّها مجرّد-»

انطلقت رصاصة ثالثة أسكتتهما قبل أن تختفي من دون أن تحدث أذىً، وتردّدت أصداؤها في أرجاء المغارة. تراجعت ليلى إلى أحد الصناديق فيما وقف بن-روي ويداه إلى جنبيه يحدّقان كلاهما إلى الأعلى من دون حراك، وكأنّهما متهمان ينتظران صدور الحكم. عضّ خليفة على شفته ومسح نقطة عرق سقطت على جفنه محاولاً فهم ما يحدث. لم يكن لديه شكّ في أنّ ليلى تقول الحقيقة عن بن-روي. ولكن كان يرى في عيني الإسرائيلي، في الطريقة التي يدافع فيها عن نفسه... محمّد جمال، ذكّره به أثناء استجوابه في قضيّة شليغل منذ كلّ تلك السنوات، الغضب اليائس نفسه والاحتجاج الجنوني والعينين الواسعتين في دفاعه عن نفسه. وتبيّن أنّ جمال كان يقول الحقيقة. ولكن بن-روي... تردّدت كلمات والده في ذهنه: احذرهم يا يوسف، احذر اليهود دومًا.

رفّ جفنه مبعدًا نقطة عرق أخرى ثمّ حدّق إلى ليلى وبن-روي قبل أن يلقّم البندقية.

«بن-روي، اترك المسدّس».

«كلاّ!»

«اتركه واركع على ركبتيك!»

«أنت لا تدري ماذا تفعل! أنت لا تدري ماذا تفعل، أيّها العربي الأحمق-»

انطلقت رصاصة أخرى حطّت على بعد أقلّ من إنش من قدم بن-روي اليمنى. نظر الإسرائيلي إلى الأسفل ومن ثمّ إلى الأعلى وإلى جانبه. كانت عيناه ملتهبتين وفمه متقلّصًا غضبًا ثمّ أطلق صوتًا يائسًا وعاجزًا قبل أن يضع مسدّسه جانبًا ويركع على ركبتيه. أسرعت ليلى، وتناولت السلاح، ثمّ تراجعت، وطلبت منه أن ينبطح على بطنه.

قال خليفة: «كم يحتاج محاربو داوود قبل أن-»

سكت حين شعر بفوّهة مسدّس باردة تلتصق بعنقه.

«أظنّ أنّ هذا يجيب على سؤالك. والآن ضع البندقية على الأرض وارفع يديك».

فكّر خليفة للحظة في أن يحذّر ليلى، ولكنّه سيكون عملاً انتحاريًّا فوضع البندقيّة على الأرض وشبك أصابعه خلف رأسه. سُحبت البندقية، وقامت يد خشنة بشدّ ذراعه

خلف ظهره ثمّ رفعته على قدميه وأدارته.

كانوا ستّة بمن فيهم الرجل الذي يقبض على ذراعه، بدت عليهم ملامح القسوة والجدّية كانوا يرتدون سترات تقي من الثلج وقلنسوات سوداء. خمسة منهم كانوا مسلحين برشاشات من نوع أوزي، أمّا السادس وهو أكبرهم، وهو الذي تحدّث منذ قليل، فكان مربّع القامة يضع قفازًا في يديه ووجهه شاحبًا ومحاطًا بلحية كثيفة، ويحمل مسدّسًا من نوع هيكلر وكوش. شعر أنّ الخوف أجلى ذهنه لكي يتذكره على الفور من الصورة التي رآها على مغلّف مجلّة تايم في منزل بيت جانسن: باروخ هار-زيون.

فكر قائلاً لنفسه: «بن-روي، أيّها الحقير. أيّها اليهودي الكاذب».

تبادلوا الحديث بلغة لم يفهمها، عبريّة على الأرجح، وفيما سار أحدهم نحو طرف الشرفة دفعه الرجل الذي يمسك ذراعه بحيث أصبح ينظر مجددًا إلى بحر الصناديق في الأسفل. حينها كانت ليلى قد شعرت بأنّ شيئًا ما يدور في الأعلى فتراجعت نحو أحد الصناديق وقد شحب وجهها فيما ظلّ مسدّسها موجّهًا نحو بن-روي الذي بقي ممدّدًا على الأرض. للحظة خاف خليفة من أن يبدأ الإسرائيليون بإطلاق النار إلاّ أنّهم وقفوا يحدّقون إليها وأسلحتهم متدلية إلى جوانبهم، بينما تقدّم رجل طويل وحليق بدا أنّه اليد اليمنى لهار-زيون - نحو طرف الشرفة الحجريّة وانحنى يحدّق إلى المصعد في الأسفل.

دار حديث آخر ثمّ علّق الرجل الحليق سلاحه على كتفه، وتراجع، وبدأ ينزل إلى الأسفل مستعملاً إحدى سكك المصعد العامودية كسلّم. مرّت ثلاثون ثانية ثمّ سُمع صوت الآلة حين بدأ المصعد صعوده وأخذ الرجل يرتفع ببطء وكأنّه يطير في الهواء. حين أصبح بمستوى الشرفة أوقف المحرّك. أشار هار-زيون برأسه ثمّ انتقلوا جميعًا إلى المصطبة. كانت ذراع خليفة لا تزال مثبّتة خلف ظهره وفوّهة الرشاش تضغط على أذنه. هزّ رأسه مرّة أخرى، ثمّ بدأوا النزول إلى أن توقّفت المصطبة في الأسفل.

على الأرض كان بن-روي يحاول رفع رأسه ليرى ما يحدث. كانت ليلى قد سارت نحو وسط الممشى، ورفعت مسدّسها قليلاً، وكأنّها تحاول أن تقطع عليهم الطريق. حين وصلوا إليها حاول خليفة أن يلفت انتباهها وأن يشير لها أن تبقى هادئة ولا تقوم بعمل أحمق، ولكنّ انتباهها كان مركزًا على هار-زيون. للحظة وقف الاثنان يحدّقان إلى بعضهما بعضًا، عيناه رماديّتان وقاسيّتان كالغرانيت وعيناها خضراوان وشرستان، فيما بدا شيء من التحدّي على فمها. أخيرًا هزّت رأسها وسلمت مسدّسها

إلى أحد رجال هار-زيون قبل أن تمسح الدم عن فمها وتقف جانبًا.

«استغرقتَ وقتًا طويلاً».

كان ما يحدث غير متوقع إلى حدّ أنّ خليفة احتاج إلى بعض الوقت لاستيعاب ما قالته فعلاً. حينها فتح فمه مذهولاً. على الأرض كان بن-روي يرفع رأسه في زاوية غير طبيعيّة محاولاً النظر إليهم من خلف كتفه، وبدا أنّه هو أيضًا لم يفهم ما يحدث على الفور، إذ كانت عيناه تنتقلان بينهم وتتعاقب التعابير على وجهه قبل أن تكتسحه أخيرًا ملامح الرعب وعدم التصديق.

همس وهو يشيح بنظره ويضغط جبينه على الأرض الحجريّة الباردة: «آه يا إلهي، لا يا إلهي أرجوك».

للحظة بقي الجميع بلا حراك ثمّ بدأ بن-روي ينهض ببطء أوّلاً على ركبتيه ومن ثمّ على قدميه، مترنحًا. تراجعت ليلى لتقف مع الإسرائيليين، ونظرت قليلاً إلى خليفة فيما بدا شيء من الاحمرار على خدّيها، لم يعرف المصري ما إذا كان ناتجًا عن شعور العار أم عن عاطفة مختلفة تمامًا. أمّا بن-روي فلم يعد يلاحظها بل كان نظره مركزًا على هار-زيون وحسب.

تمتم بصوت متوتر بسبب الغضب الذي يحاول أن يكظمه: «الفلسطينيون ليسوا بهذه البراعة. فالطريقة التي تعمل بها جماعة الإخوان متطورة جدًّا بالنسبة إلى خليّة فلسطينيّة متمرّدة. لا بدّ أن يكون الداعم جهة خارجيّة».

كان خليفة ما زال يحاول استجماع أفكاره لفهم ما يحدث.

تمتم قائلاً: «لا أفهم». وراح ينظر من بن-روي إلى ليلى إلى هار-زيون ومن ثمّ إلى بن-روي مجددًا. كان وجه هذا الأخير شاحبًا تمامًا كالمرمر الأبيض.

«كما قلت لك يا خليفة. إنّها تعمل لحساب الملثّم. تجنّد منفذي العمليات التفجيريّة وتكتب مقالات ملفّقة عنه، تمامًا كما قلت. إلاّ أنّني فوّت أمرًا واحدًا». وهنا تقلّصت قبضتاه، فأضاف من دون أن يرفع عينيه عن هار-زيون: «تبيّن أنّ الملثّم كان يقتل شعبه».

احتاج المصري إلى بعض الوقت لفهم ذلك وترتيب أفكاره.

«هل تعني...؟».

كان جسد بن-روي قد بدأ يرتجف بأكمله.

زمجر قائلاً: «إنّه الملثّم، هو رأس الأفعى. منفذو العمليات عرب والسيّد إسرائيلي. كان يذبح شعبه، يذبح شعبه!»

حدّق خليفة إليهم مذهولاً، وبدا وكأنّ المغارة بأكملها تتقلّص حولهم. حلّ صمت قصير ثمّ أطلق بن-روي صرخة غضب مرعبة واندفع إلى الأمام. كان رجلاً قويًّا ولكنّه زائد الوزن ومرهق أمام محترفين. لذا، وقبل أن يقترب من هدفه، تقدّم اثنان من رجال هار-زيون وتصدّيا له ببرود ودقّة، فسحق الأوّل معدته بضربة من عقب رشاشه جعلته يسقط على الأرض، فيما استدار الآخر خلفه ولوى ذراعه خلف ظهره وأوقفه مجددًا. توتر خليفة، وشدّ قبضتيه، ولكنّه لم يتمكّن من فعل شيء مع المسدّس المثبّت في جانب رأسه. حدّقت ليلى إلى الأرض وازداد احمرار خدّيها عمقًا وانتشارًا.

قال بن-روي وهو يحاول استرجاع أنفاسه ويقاوم اليد التي تمسك بذراعه: «لماذا؟ لماذا بربّكم؟»

حرّك هار-زيون كتفيه محاولاً أن يخفّف من تقلّص بشرته المحروقة التي راحت تزداد اشتدادًا تحت سترته مسببةً له الحكاك.

أجاب بصوت بارد ومتزن مقارنةً بصوت بن-روي: «لإنقاذ شعبنا».

«بذبحه؟».

«بأن أثبت له أنّه لا يمكن عقد صلح مع العرب. بأنّ هدفهم هو دائمًا تدميرنا وأنّه لا خيار لدينا للبقاء سوى معاملتهم بالمثل».

اندفع بن-روي نحوه وهو يصارع الرجل الذي يقبض على ذراعه ثمّ بصق في وجه هار-زيون قائلاً: «قتلتها! قتلتها أيّها الحيوان القذر!»

حرّك هار-زيون كتفيه مجددًا، وبدا وجهه خاليًا.

«لو كان ثمّة خيار آخر لأخترته مسرورًا، ولكن هذا هو الطريق الوحيد. على شعبنا أن يرى العرب كما هم على حقيقتهم».

صرخ بن-روي: «ألا تقوم حماس بواجبها؟ والجهاد الإسلامي؟».

«لا للأسف».

«للأسف؟»

أجاب هار-زيون بنبرة قاسية بعض الشيء: «نعم للأسف. لأنّه مهما قتلوا منّا إلاّ أنّنا نحاول إقناع أنفسنا دائمًا أنّنا لو تفاوضنا وقدّمنا بعض التنازلات، سوف يكون كلّ شيء على ما يرام وسيتركوننا نربّي أولادنا بسلام وأمان».

«أنت مجنون!»

أجاب هار-زيون وقد بدا الانزعاج على وجهه بوضوح: «كلاّ، المجانين هم من يتحدّثون عن التسوية والانسحاب! والتسوية هي التي أضرمت النيران في أفران

أوشفيتز، والانسحاب هو الذي حفر قبور بابي يار. والآن ننوي ارتكاب الخطأ نفسه، الخطأ الذي ارتكبناه دائمًا، عامًا بعد عام، قرنًا بعد قرن، الخطأ الأعظم للشعب اليهودي: التصديق للحظة واحدة بأنّ الغويم أهل للثقة، ويمكنهم أن يكونوا أصدقاء لنا ولا يريدون مسحنا عن وجه الأرض!»

كان صوته قد بدأ يرتفع والكلمات تنطلق من فمه كالرصاص.

قال غاضبًا: «لسنا بحاجة إلى عمليات سلام ومعاهدات واتفاقات وخرائط طرق ومؤتمرات. إن أردنا البقاء لا نحتاج سوى إلى شيء واحد، ألا وهو الغضب. الغضب نفسه الذي كنّا ضحيّته خلال تاريخنا الطويل المظلم. هذا ما سيحمينا ويعطينا القوّة على الاستمرار، وهذا ما قدّمه الملثّم. لهذا السبب صنعناه، ولهذا السبب وُجد».

سكت، وبدا جبينه الشاحب يتصبّب عرقًا فيما أخذت رعشات خفيفة تجتاح جسده بسبب الحكاك الذي ينتاب بشرته والذي أصبح لا يُحتمل، كما يحدث دائمًا حين يتخلّف عن دهن جلده بالمرهم في الوقت المحدّد. حدّق إليه بن-روي بعينين متعبتين وكان قد توقّف عن محاولات تحرير ذراعه، وراح يفتح فمه ويغلقه عاجزًا عن إيجاد الكلمات المناسبة للتعبير عن مدى غضبه.

همس أخيرًا: «خائن».

تقلّصت شفتا هار-زيون، ونظر إلى عيني التحرّي، ثمّ رفع يده المغطاة بالقفاز إلى الرجل الحليق الذي تقدّم، ومن دون أن يبدو أنّه أرجع ذراعه إلى الخلف، وجّه لكمة بقبضته إلى أسفل بطن بن-روي.

تمتم خليفة وهو يشدّ قبضتيه عاجزًا: «الله أكبر!»

أطلق بن-روي صرخةً عميقة وبدأ يسقط، إلاّ أنّه رُفع مجددًا ووجّهت له ضربة أخرى فوق صدره تحت حنجرته تمامًا ثمّ تُرك ليسقط على ركبتيه ومن ثمّ مرفقيه.

قال هار-زيون وهو يقف أمامه وقد عاد صوته إلى برودته وتوازنه: «ثمّة خائن واحد هنا وهو أنت، أنت وخطيبتك أيضًا بعد الذي سمعته عنها. ثمّة قتلى أندم عليهم ولكنّها ليست من بينهم».

تمتم بن-روي بشيء ما، وحاول رفع ذراعه ولكنّ الضربات التي تلقّاها استنفدت قوّته. أشار هار-زيون مجددًا فوجّه له الرجل الحليق ركلة في جانب رأسه شقّت أعلى أذنه وجعلته يرتطم بأحد الصناديق.

صرخ خليفة الذي لم يعد يقوى على السيطرة على نفسه وقد أنساه اشمئزازه ممّا يراه السلاحَ الموجّه إلى عنقه: «كفى! كفى بربّكم!»

استدار هار-زيون ببطء وتصلّب وحدّق إلى المصري بنظرة مستاءة ثمّ قال شيئًا بالعبريّة. فانخفض السلاح وشعر بقبضة تمسك عنقه وتخنقه. على الأرض جاهد بن-روي للجلوس والدم ينزف من أذنه.

قال: «اتركه يا هار-زيون، لا علاقة له بكلّ هذا».

قال هار-زيون ساخرًا: «هل تسمعون؟ يديننا لأنّنا ندافع عن شعبنا فيما يدافع هو عن صديقه العربي. صدّقوني، قد يكون هذا الحقير أيّ شيء ولكنّه بالتأكيد ليس يهوديًّا».

أشار للرجل الحليق الذي رفع قدمه مجددًا وركل بن-روي بين ساقيه فتشنّج التحرّي ألمًا. ثمّ توجّه نحو خليفة ومن دون أن يتوقّف وجّه له لكمةً مباشرةً في بطنه. تمّت الضربة بدقّة وتحكّم وكأنّه جرّاح يشرّح جثّةً. ومع أنّ خليفة قد ضُرب مرارًا من قبل - فنصف شبابه قضاه في الشجارات بالأيدي في أحياء الجيزة الفقيرة التي نشأ فيها - ولكنّه لم يعرف شيئًا كهذا من قبل. بدا أنّ الضربة وصلت إلى منتصف تجويف معدته، فسحقت أعضاءه الحيويّة، وسحبت الهواء من رئتيه. راحت الأفكار والصور تدور في ذهنه - زينب، بقعة الثلج قرب المحطة، ذاك الرجل الغريب أزرق العينين في الكنيس في القاهرة - قبل أن يزول الألم فجأةً ومن دون توقّع للحظة من الزمن ويجد أنّه ينظر في عيني ليلى المدني.

همس: «لماذا؟».

إن كانت قد أجابت فهو لم يسمع شيئًا لأنّ لحظة الصفاء تلك اختفت على الفور. فارتبك ذهنه وانخفض رأسه ثمّ غرق كلّ شيء في الظلام.

لا يعرف كم دام غيابه عن الوعي ولكن ليس طويلاً على ما يبدو لأنّه حين استفاق كان يُجَرّ في الباحة المركزيّة من قبل اثنين من الإسرائيليين وكانت الفكرة الأولى التي خطرت له: «إنّهم يتلفون حذائي الجميل!» كان بن-روي أمامه، يسير وهو يعرج فيما ثُبّت رشاش في الجزء الخلفي من رأسه، وبدا عنقه وسترته ملوثين بالدماء التي سالت من أذنه المجروحة. كان هار-زيون وليلى في آخر المغارة يراقبان الرجل الحليق وهو يحاول خلع اللوح الأمامي لصندوق المينورا بواسطة عتلة صغيرة. وحين آتيا نحوه سقط اللوح محدثًا صريرًا، وبدت من تحته طبقة سميكة من القش التي كان الذهب يلمع من تحتها.

حين أدرك الإسرائيليان أنّ أسيرهم استعاد وعيه، أنهضاه ودفعاه بخشونة نحو

أحد الصناديق. شعر بموجة من الغثيان تجتاحه، وراح كلّ شيء يدور حوله قبل أن يستقرّ مجددًا. كان بن-روي إلى جانبه، وللحظة التقت أعينهما فاطمأنّ كلّ منهما إلى وجود الآخر وأنّه بخير قبل أن يوجّها انتباههما مجدّدًا إلى ما يحدث أمامهما.

حلّ الصمت لبعض الوقت ثمّ تقدّم هار-زيون ومساعده وبدآ يبعدان القشّ. كانا يحجبان بجسديهما المنظر عن خليفة الذي لم يتمكن سوى من رؤية لمحات من ذاك الشيء - ذراع مقوّسة، زاوية قاعدة، ومضات من الذهب - ولم يتمكن من رؤيته تمامًا إلاّ بعد أن أزيل القش تمامًا وابتعد الرجلان جانبًا.

بالطبع، رآها من قبل في الصورة التي وجدها في خزنة ديتر هوث المصرفيّة. ولكنّها كانت بالأبيض والأسود ولم تلتقط الروعة الكاملة لتلك التحفة التي ينظر إليها الآن. كانت بطول رَجُل تقريبًا، قاعدتها مؤلفة من طبقتين مثمّنتي الأضلاع يخرج منها جذع عامودي وتتفرّع من جانبيه ست أذرع ثلاث من اليمين وثلاث من اليسار، واحدةً فوق الأخرى، وكلّ منها متوّجة، شأنها شأن الجذع، بقاعدة مصباح صغيرة. ذاك كان الشكل الأساسي للمينورا، ولكنّها كانت تشتمل على أكثر من ذلك بكثير. ففروعها مزخرفة بدقّة بأشكال جميلة تشبه أزهار اللوز، وحول قاعدتها نُقشت أشكال نافرة من الفاكهة والأوراق والأزهار، وبدت مليئةً بالحياة إلى حدّ أنّك تشعر وكأنّك تستطيع شمّ عبيرها. كان لونها الذهبي عميقًا إلى حدّ يميل إلى الاحمرار ومقاساتها متوازنة ومتماثلة إلى حدّ لا تبدو معه معدنيّة على الإطلاق بل وكأنّها شيء حيّ ينمو ويتنفس. على الرغم من الألم والإرهاق إلاّ أنّ خليفة شعر بالرهبة أمامها، وراح يهزّ رأسه أمام روعتها. أمّا ردّ فعل الإسرائيليين فكان أكثر حدّةً، كان بن-روي يتمتم تكرارًا «أوي فاي»، فيما لانت تعابير وجه هار-زيون الصخري في ذهول أشبه بذهول طفل.

شخص واحد بدا غير متأثر بكلّ ما يجري، وكان ليلى. فقد وقفت بعيدة بعض الشيء عن الجميع محبوسة في أفكارها، ولكنّ وجهها لم يكشف أي عاطفة باستثناء اللون الأحمر الذي ما زال يعلو خدّيها والطريقة التي تشدّ بها يديها وترخيهما. للحظات وجيزة كانت عيناها تلتقيان بعيني خليفة قبل أن تشيح بنظرها على الفور عاجزةً عن تحمّل نظرته.

مرّت بضع دقائق وقف خلالها الجميع يحدّقون إلى المينورا وجمالها وكان ذهولهم يتعاظم كلّما تبيّن لهم أكثر مدى غناها ودقّة زخرفتها إلى أن تحدّث الرجل الحليق وكسر الصمت.

قال بصوت خشـن وقاسٍ، كصخرة رُميت في بركة سـاكنة: «علينا إخراجها من هنا».

لـم يجـب هار-زيـون علـى الفور بل ظلّ يحدّق إلى المينورا بعينين دامعتين. ثمّ هزّ رأسه وأشار لثلاثة من رجاله. تقدّموا وهم يعلّقون رشاشاتهم بأعناقهم ثمّ امسكوا بالمصباح وعدّوا واحد، اثنان، ثلاثة، قبل أن يبدأوا بالرفع. على الرغم من عضلاتهم المفتولة لم يتمكنوا من رفعها على أكتافهم إلاّ بعد أن انضمّ إليهم رجل رابع، وبدت وجوههم متقلّصة وهم يسيرون بها مترنّحين.

وجّه شـتاينر مسدّسـه نحو خليفة وبن-روي وبدأت المجموعة تسـير في الباحة وتتوقّـف كلّ عشـرين متـرًا ليلتقـط حاملـو المصباح أنفاسـهم. وصلوا أخيـرًا إلى آخر المغـارة فأنزلوهـا علـى الرافعـة التي أصـدرت صوتًا تحت ثقلها. ركب الإسـرائيليون بقربها، وذهبت ليلى معهم ثمّ حُرّكت رافعة التحكّم وظلّ التحرّيان على أرض المغارة يراقبـان المصطبـة الخشـبيّة وهـي ترتفع ببطء أمامهما. توقّفـت على ارتفاع ثلاثة أمتار وصُوّب نحوهما صفّ من الرشاشات.

قال هار-زيون بابتسامة المنتصر: «هنا نفترق أيّها السيدان، نحن برعاية الله لنبدأ بإعادة بناء الهيكل وتدشين العهد الذهبي الجديد لشعبنا. وأنتما...»

حـدّق إليهمـا للحظـة، وحرّك كتفيه محاولاً تخفيف قبضة جلده المحروق الذي يعصر جسده. ثمّ أشار لرجاله ليطلقوا النار.

«لا!»

تردّدت صرخة ليلى في أرجاء المغارة.

صرخت مجددًا: «لا!» وكرّرت: «لا!»

نظر رجال هار-زيون إلى قائدهم ولكنّه لم يعطِ أي إشارة لا بإطلاق النار ولا بسحب الأسلحة، فظلّوا في مكانهم وأصابعهم على الزناد. في الأسفل تبادل بن-روي وخليفة نظرة.

صرخت ليلى للمرّة الرابعة: «لا!»

كان صوتهـا يائسًـا وهسـتيريًّا تقريبًـا. أرادت أن تتحـدّث مـن قبـل حيـن ضربوا الرجلين ولكنّها لم تتمكن، إذ خنقها العار والإحسـاس بالذنب. أمّا الآن فلم تسـتطع منـع نفسـها ولـم تكـن تعـي تمامًـا ما تقول ولكن تشـعر أنّ وجودهـا توقّف عند هذه اللحظة وأنّها على الرغم من كلّ شـيء، على الرغم من سـنوات الكذب والخيانة، لا تسـتطيع أن تقف سـاكتة وهي ترى شـخصين يُقتلا بدم بارد أمامها. بالطبع لا معنى

لذلك، فيداها ملوثتان بدماء الكثيرين ممّن قُتلوا على مرّ السنوات بسبب أفعالها. ما فعلته لا يُغتفر ولا هي تسعى للغفران، بل كلّ ما تعرفه أنّها حين وقفت تحدّق إلى الرجلين، بوجهيهما الشاحبين المستسلمين، رنّ صوت أبيها فجأةً في رأسها بوضوح وقوّة أكثر من أيّ وقت مضى، وتذكرت الكلمات التي قالها ليلة مقتله:

لا يمكنني أن أترك شخصًا يموت بين الغبار كالكلاب يا ليلى، أيًّا يكن.

حالما سمعت تلك الكلمات شعرت بتوق قويّ للشعور أنّها ما زالت تحمل في أعماقها شيئًا من والدها، القليل من نوره الجميل، أنّها ما زالت ابنته مهما يكن العالم الذي صنعته لنفسها مظلمًا.

سارت نحو مقدّمة المصعد والتقت عيناها بعيني خليفة للحظة قبل أن تستدير نحو الإسرائيليين وتسدّ بجسدها النحيل خطّ النيران.

صرخت لهار-زيون: «لقد ربحت، ألا ترى ذلك؟ لقد ربحت، دعهما وشأنهما بحقّ الله. أوقف القتل لمرّة واحدة واتركهما».

حلّ الصمت لبعض الوقت فيما كانت المغارة تنبض بهدير المولّد الكهربائي والمينورا تلمع تحت وهج الأضواء. أخيرًا، هزّ هار-زيون رأسه ببطء.

«إنّها على حقّ. حان الوقت للكف عن القتل».

استرخى جسد ليلى قليلاً ولكنّها توترت مجددًا على الفور حين رأت الابتسامة الباردة التي علت وجه هار-زيون «أو على الأقلّ قتلُ البعض. هذان» - وأشار بتصلّب نحو خليفة وبن-روي - «لا تعني حياتهما شيئًا. أمّا الملثّم فأظنّ أنّه قام بمهمته. كما قالت آنسة مدني، لقد ربحنا. وبوجود المينورا معنا لن يوقفنا شيء. قريبًا سوف نستغني عن من نلقي التهمة عليهم وكلّ الجهاز التابع لهم، كلّ الجهاز».

أثناء قول جملته الأخيرة نظر إلى مساعده حليق الرأس وأشار برأسه في الوقت نفسه نحو ليلى. فهزّ الرجل رأسه وتقدّم بهدوء إلى الأمام ثمّ دفع ليلى عند صدرها إلى الخلف لتطير عن المصطبة في الهواء . شعرت للحظة أنها معلّقة في مكانها وتحوم في الفضاء وكأنها تتدلّى من سطح المغارة ثمّ أخذت تهبط إلى الأسفل قبل أنّ ترتطم بالأرض .

قال هار-زيون: « شكراً آنسة مدني، ستكون دولة إسرائيل ممتنة لجهودك إلى الأبد. أكنت عربية أم لا، إلاّ أنّك استحققت لقب إيشيت حاييل، المرأة الشجاعة».

عرفت على الفور أنّ ظهرها كُسر، فضلاً عن كثير من الأعضاء الأخرى على الأرجح مع أنّها لم تكن واثقة بعد أن فقدت كلّ إحساس من عنقها إلى الأسفل

على ما يبدو. لا أهميّة لذلك، لأنّها ستموت قريبًا على كل حال، وهذا أفضل بالنسبة إليها.

الغريب أنّ حواسها الأخرى أصبحت فجأةً أكثر حدّة وكأنّها تعوّض عن فقدانها الإحساس بالألم. فقد امتلأ أنفها برائحة خشب الصنوبر الغنيّة الذي صُنعت منه الصناديق، فيما بدأت أذناها تلتقط أصواتًا ما كانت لتسمعها في الظروف العاديّة. والأغرب أنّها أصبحت قادرةً على رؤية أربعة أو خمسة أشياء مختلفة من دون أن تحرّك رأسها. كانت ترى هار-زيون يقف فوق المصعد وهو يضحك مع أتباعه، وبن-روي إلى يسارها قليلاً ينظر إليها مصدومًا على نحو فاجأها نظرًا لمدى بغضه لها، فيما ركع إلى يمينها خليفة وأمسك بيدها - كيف وصل إليها بهذه السرعة؟ حتّى إنّها كانت ترى وجهها، وكأنّها تقف فوق نفسها وتنظر إلى الأسفل وهي تبتسم ابتسامة بعيدةً عن المرح والرضى وأقرب إلى الوحدة اليائسة والمتناهية التي لم تجد تعبيرًا آخر تتمحور فيه.

لطالما عرفت أنّ الأمر سينتهي بها على هذا النحو. منذ أن عادت من إنكلترا قبل كلّ تلك السنوات وبدأت تعمل كجاسوسة لهار-زيون والمخابرات العسكريّة الإسرائيليّة. ولكنّ الظروف الدقيقة فاجأتها - كهف هائل مليء بالكنوز النازيّة المنهوبة، يا إلهي! - أمّا عنف هذه النهاية فلم يكن مفاجأة. وبصراحة استغربت أن تستمرّ كلّ هذا الوقت.

بقربها كان خليفة يقول شيئًا مع أنّها لم تسمع صوته، وهذا غريب نظرًا للأصوات الأخرى الأكثر انخفاضًا التي كانت تلتقطها. غير أنّها لم تكن بحاجة إلى الاستماع لأنّها استطاعت أن تفهم من حركة شفتيه. كان يردّد حركة واحدة، سؤالاً، السؤال نفسه الذي سألها إيّاه من قبل.

لماذا؟

ماذا يمكنها أن تقول؟ لا شيء. كانت تودّ لو تشرح الأسباب وتخبر شخصًا واحدًا على الأقلّ، كتلك الاعترافات التي تتمّ على فراش الموت. ولكن كيف لها ذلك؟ كيف يمكن أن تجعله يفهم، أو أن تجعل أيًّا كان يفهم؟ بأنّها لم تفعل ذلك لأيٍّ من الأسباب المعتادة التي تدفع الناس إلى الخيانة - المال، الإكراه، الأيديولوجيّة. لقد فعلته لأنّ ليلة عيد ميلادها الخامسة عشرة، وفي شارع قذر في طرف مخيّم جباليا للاجئين، تحت سماء مزيّنة بالنجوم ومع نُباح الكلاب الشرسة في البعيد، رأت الشخص الأحبّ إلى قلبها أكثر من أيّ شيء في العالم، أباها الجميل الشجاع

الطيّب، أعظم رجل في العالم، يُضرب حتّى الموت بعصا بايسبول، من قِبل شعبه. لهذا السبب اتّصلت بهار-زيون وعرضت العمل لحسابه. لهذا السبب شاركت في كذبة الملثّم. ولهذا السبب، حالما اكتشفت أمر المينورا اتّصلت بهار-زيون من كنيسة القيامة وفعلت ما في وسعها لتضمن وصوله إليها. لأنّهم قتلوا الشخص الوحيد الذي أحبّته حقًّا ولأنّها كرهتهم جميعًا منذ تلك اللحظة وأقسمت على أن تجعلهم يدفعون الثمن حتّى آخر فلسطيني مهما كلّفها الأمر. ذاك كان السبب، ذاك كان جوابها، ولكن كيف تشرح؟ كيف تجعله يفهم؟ كيف تحدّثه ولو عن جزء بسيط من البؤس، والألم، والحقد، والعذاب الذي عاشت فيه كلّ تلك السنوات؟ لم تستطع، كان هذا مستحيلاً ويتجاوز قدراتها. كانت الحال كذلك دائمًا، لطالما كانت وحيدة.

نظرت إلى وجه خليفة - كان وجهه لطيفًا، شجاعًا، ووسيمًا يشبه والدها كثيرًا - وحاولت أن تشدّ على يده. في اللحظة نفسها، بتلك القدرة الغريبة على رؤية عدّة أشياء والتي بدا أنّها اكتسبتها نتيجة سقوطها، رأت هار-زيون يمدّ يده ويصوّب مسدّسه مباشرةً إلى رأسها. فقالت في نفسها: «هيّا لقد آن الأوان. على الأقلّ حاولت أن أفعل شيئًا جيّدًا قبل أن أموت، شيئًا واحدًا قد يفتخر به أبي».

أغلقت عينيها ورأت نفسها مجددًا ممدّدة في أسفل الفجوة، ممسكةً بيديّ أبيها وشعرها الأسود ملوّث بدمائه.

«آه يا إلهي، بابا. يا إلهي، بابا حبيبي».

ثمّ سُمع دويّ الرصاص.

اهتزّ رأسها وظهرت فيه فجوة سوداء فوق حاجبها الأيسر فيما راح شريط من الدم يسيل فوق خدّها وذقنها إلى الأرض مكوّنًا بقعةً لزجة. ظلّ خليفة جامدًا للحظة من أثر الصدمة ويدها تتدلّى في يده فيما تردّد صدى الطلقة بعنف في أنحاء المغارة. ثمّ هزّ رأسه ووضع يدها برفق قبل أن ينهض ويتراجع ليقف قرب بن-روي ويحدّق الاثنان إلى صف الرشاشات المصوّبة نحوهما.

كان عليه أن يشعر بالرعب، برعب أكبر ممّا يشعر به نظرًا لما سوف يحدث له. إلاّ أنّه كان هادئًا، إمّا بسبب الضربة التي تلقّاها أو لأنّ موته كان محتّمًا إلى حدّ أنّ جسده لم يرَ جدوى من القلق حيال ذلك. كان همّه مركزًا على زينب والأطفال، وأنّه لن يُدفن على الأرجح دفنًا يليق بمسلم. ولكنّه كان واثقًا أنّ الله يتفهّم، فهو يتفهّم كلّ شيء ولهذا السبب هو... الله.

نظر إلى بن-روي والتقت أعينهما. كان ثمّة أشخاص آخرون يفضّل الموت معهم. ولكن ربّما كان حكمه قاسيًا بعض الشيء على الشابّ. صحيح أنّه جلف ومتكبّر وميّال إلى النزاع، ليس من نوع الأشخاص الذين يختارهم كأصدقاء، ولكنّه شرطي جيّد وبدا أنّه تدبّر أمره جيّدًا. ومن يعلم، ربّما لو كانت زوجته هي التي قُتلت بهذا الشكل لانتهى به الأمر مثل بن-روي، لا أحد يدري. حاول أن يقول شيئًا، أن يعتذر ويقرّ بأنّ وثوقه بليلى على حساب بن-روي لم يأتِ نتيجةً لتقديره الموضوعي للوضع بل ثمرة أحكام مسبقة عمياء جعلته غير قادر ببساطة على تصديق يهودي وتكذيب عربيّة. إلاّ أنّه لم يجد الكلمات المناسبة فالتزم الصمت مجدّدًا. حدّقا إلى بعضهما للحظة طويلة ثمّ هزّا رأسيهما، ونظرا إلى المصعد وقد توتّرت أيديهما بانتظار الرصاصات.

فجأةً عمّ الظلام المكان.

ظنّ خليفة للحظة أنّه مات. ثمّ أدرك على الفور من صرخات رجال هار-زيون أنّ المولّد توقّف من جديد وانطفأت الأنوار. كان ذلك مفاجئًا جدًّا إلى حدّ أنّه لم يتحرّك على الإطلاق بل وقف جامدًا في مكانه. إلاّ أنّ ردّ فعل بن-روي كان أسرع، فأمسك قبّة قميص خليفة بخشونة ودفع بنفسه معه بعيدًا عن خطّ النيران. بعد أقلّ من ثانية مزّقت الرشاشات السكون بطلقات حمراء وبيضاء راحت ترتطم بالأرض ثمّ تندفع بين الصناديق. تعثر الشرطيّان وسقطا ولكنّهما تمكنا من النهوض والاختباء عند الجدار الصخري تحت المصعد تمامًا. سُمعت صرخات أخرى ثمّ توقّف إطلاق النار فجأةً. جمدا في مكانهما محاولين تبيّن المكان في الظلام.

حين توقّف المولّد في المرّات السابقة عاد للعمل على الفور تقريبًا، ولكنّه ظلّ صامتًا هذه المرّة. سمعا همسًا وتمّ إشعال مصباح ومن ثمّ آخر ثمّ سُمع صرير حين بدأ أحدهم يتسلّق سكّة المصعد العاموديّة نحو الشرفة في محاولة لإعادة تشغيل المولّد. فوُجّه أحد المصابيح إلى الأعلى لإنارة طريق المتسلّق بينما راح المصباح الآخر يتجوّل فوق الصناديق المكدّسة أمامهما من أجل العثور عليهما. ويبدو أنّ احتمال وجودهما تحت المصعد مباشرةً لم يخطر لرجال هار-زيون، ليس بعد على الأقلّ.

همس بن-روي بصوت شبه مسموع وهو يكوّر يده حول أذن خليفة: «علينا التحرّك. يجب أن نختبئ بين الصناديق».

شدّ خليفة على ذراعه مشيرًا له أنّه فهم. سُمعت صرخة من الأعلى تفيد أنّ المتسلّق وصل إلى الشرفة وهو يتوجّه الآن نحو غرفة المولّد.

همس بن-روي مجددًا: «علينا التحرّك، لا وقت لدينا».

مرّت عشرون ثانية، وكلاهما يحاول بجنون إيجاد الطريقة المناسبة، ذلك أنّهما في اللحظة التي سيخرجان فيها من تحت المصطبة سيُكتشف أمرهما. أخيرًا، مدّ خليفة يده يائسًا إلى جيب سترته وأخرج رزمة الخمس رصاصات التي وضعها سابقًا وضغطها على ذراع بن-روي. عرف الإسرائيلي على الفور بماذا يفكر.

همس قائلاً: «ارمِها إلى اليسار ونحن نذهب إلى الأمام، ونمسك بأيدي بعضنا».

«ماذا؟».

«لكي لا نُضِع بعضنا أيّها الأحمق!»

سُمع من الأعلى جلبة معدنيّة حين بدأ مرافق هار-زيون يحرّك ذراع المولّد. في الوقت نفسه ابتعد الضوء عن الصناديق، وبدأ يمشّط الأرض أسفل المولّد. توقّف للحظة على جثّة ليلى ثمّ بدأ يتجّه إلى الخلف نحو مخبئهما. كانت مسألة ثوانٍ قبل أن يُكتشف أمرهما. أمسك خليفة بيد بن-روي، ثمّ أرجع يده الأخرى، وقذف الرصاصات بكلّ قوّته نحو الزاوية البعيدة للمغارة. شعر أنّها ظلّت في الهواء طويلاً وكان الضوء قد أصبح أمام حذائيهما حين سقطت أخيرًا وسُمعت قرقعة عالية.

كان الأثر فوريًّا. ابتعد الضوء على الفور، وسُمعت خطوات حين توجّه الإسرائيليون إلى الجانب الأيسر من المصعد وتبع ذلك إطلاق رصاص عنيف يصمّ الآذان. في اللحظة التي بدأ فيها الهجوم انطلق خليفة وبن-روي يركضان يدًا بيد إلى الأمام في الظلام الدامس، آملَين أن يكونا على خطّ الممشى المركزي، ويخشيان مع كلّ خطوة أن يرتطم وجهاهما بأحد الصناديق أو أيّ عائق آخر. إلاّ أنّهما واصلا طريقهما يقودهما الخوف والأدرينالين، وقطعا قرابة نصف طول المغارة قبل أن يبطئا من سرعتهما ويتركا أيديهما لتلمّس الطريق في أحد الممرّات الضيّقة بين الصناديق. أخذا يتعثّران بالأغراض المختلفة التي تسدّ الممرّ. خلفهما بدأ إطلاق النار يخفّ تدريجيًّا إلى أن توقّف تمامًا.

وقفا محاولين التقاط أنفاسهما والظلام يحيط بهما من كلّ جانب، ولم يخرق السكون سوى ضجّة ذراع المولّد وأصوات الإسرائيليين التي كانت منخفضة في البداية إلاّ أنّها بدأت تدريجيًّا تزداد إلحاحًا. أمال بن-روي رأسه يصغي.

همس قائلاً: «اللعنة».

«ماذا؟».

«حريق».

«ماذا؟»

«الرصاص أشعل الصناديق».

وهو يتحدّث بدآ يشمّان رائحة الخشب المحترق.

قال بن-روي: «المكان قنبلة موقوتة وسوف ينفجر في أي لحظة!»

كان خليفة يعرف ذلك، فقد رأى بأمّ عينيه محتويات المغارة: براميل وقود، صناديق ذخيرة، متفجّرات، أكوام من الخشب الجاف.

همس غاضبًا: «تبًّا! تبًّا!»

أشعل قدّاحته، وكوّر يده حول الضوء لإخفائه ثمّ بدأ يبحث حوله عن شيء، أيّ شيء يمكنهما استعماله لمواجهة الرجال والخروج من المغارة. كان رجال هار-زيون يصرخون الآن بذعر متزايد مع اشتداد الحريق وانتشاره كما يبدو. وراح ضجيج المولّد يزداد إلحاحًا.

قال بن-روي: «هيّا! نحتاج إلى مسدّسات!»

«لا أجد أي مسدّسات!»

راح خليفة يبحث أكثر في الممرّ غير آبه بالضجّة التي يصدرها ويحرّك شعلته في أنحاء المكان. وجد لوحات ومنحوتات وما بدا وكأنّه جزء من شمعدان كبير. ولكنّه لم يعثر على أسلحة، وبدأ يفقد الأمل حين أبعد صندوقًا مليئًا بالأوراق النقديّة ليجد تحته صندوقًا معدنيًّا طويلاً. حين فتحه رأى دزينةً من مسدّسات شمايسر الجديدة، وكان ثمّة صندوق مشابه آخر مجاور يحتوي على ذخيرة.

تمتم قائلاً: «الحمد لله».

تناول أحد المسدّسات، وأعطى رزمتين من الذخيرة لبن-روي، ثمّ تناول واحدًا آخر وراح يتحقّق منه للتعرف إلى طريقة استعماله حين انطلق صوت الرصاص من جديد فجأةً. انخفضا معتقدَين أنّ الرصاص موجّه إليهما ليُدركا بعد قليل من صرخات رجال هار-زيون أنّه صندوق ذخيرة ينفجر.

همس بن-روي: «سوف ينفجر الجبل كالبركان».

وقفا وبدآ يسيران في الممرّ فيما ارتفعت هالة برتقاليّة كثيفة في المغارة إلى يمينهما. حين وصلا إلى أوّل الممرّ سُمع صوت انفجار عنيف - قد يكون برميل وقود، أو ربّما عدّة براميل - تبعه على الفور هدير المولّد الذي عاد أخيرًا للعمل وأغرق المغارة بنور أبيض ساطع. أطلق رجال هار-زيون صرخة فرح واستأنف المصعد

حركته البطيئة. حدّق بن-روي إلى الممشى ثمّ سحب رأسه مجددًا.

همس قائلاً: «إنّه في منتصف الطريق. سوف أتولّى أمر الرجل الواقف على الشرفة. سأعدّ إلى ثلاثة، اتفقنا؟»

رفعا مسدّسيهما.

«واحد... اثنان...»

سُمع صوت انفجار قوي وبدت المغارة بأكملها تهتزّ وترتجف.

«ثلاثة!»

وانطلقا عبر الممشى.

كان الحريق أسوأ ممّا توقّع خليفة إذ بدا أنّه التهم خلال دقائق جدارًا كاملاً من الصناديق إلى يمينهما. وراح اللهيب يلتهم محتوى الصناديق ويمتدّ إلى جدران المغارة فيما تطايرت الشرارات الملتهبة في الهواء كاليراعات. أمّا الدخان الرمادي فراح يرتفع ببطء نحو السقف.

رأى كلّ ذلك في نظرة خاطفة قبل أن يركع على ركبتيه ويفتح النار فيما راح المسدّس يرتجّ بين يديه. فعل بن-روي إلى جانبه الشيء نفسه وأمطر الجهة المقابلة من المغارة بسلسلة متواصلة من الرصاصات.

بدا أنّ الهجوم فاجأ هار-زيون وأتباعه. فأصاب بن-روي الرجل الواقف على الشرفة فيما قتل خليفة اثنين آخرين على المصعد، وارتطم الثاني برافعة المصعد فعكس حركته. عندها توقّفت المصطبة ثمّ سُمع صرير قويّ قبل أن تبدأ بالنزول من جديد، أمّا المينورا فكانت قابعة في الوسط وفروعها الذهبيّة تلمع في ضوء النيران المستعرة.

ولكنّ انتصارهما لم يدم طويلاً. فبعد لحظة الإرباك الأولى انبطح الإسرائيليون الثلاثة الباقون – هار-زيون، شتاينر، ورجل آخر – على أرض المصعد، وردّوا الهجوم بدقّة كبيرة. فاضطرّ خليفة إلى التراجع في الممرّ بين الصناديق فيما بقي بن-روي في مكانه ثمّ اختبأ في ممرّ آخر في الجانب المقابل من الممشى.

صرخ قائلاً: «لا تدعهم يصِلون إلى ذراع التحكّم».

ولكنّ أحد الإسرائيليين كان يفعل ذلك بالضبط يغطّيه هار-زيون وشتاينر. فتدحرج على المصطبة ووصل إلى الجثّة التي سقطت على ذراع التحكّم. أطلق خليفة سلسلة من الطلقات نحوه، ولكنّه اضطر إلى التراجع على الفور. أمّا بن-روي فكان أكثر حظًّا إذ خرج من مخبئه وأطلق الرصاص نحو خاصرة الإسرائيلي مباشرةً،

فارتفع في الهواء قبل أن يسقط مجددًا عند قاعدة المينورا.

كان المصعد قد أصبح الآن على الأرض تقريبًا. وفي محاولة أخيرة يائسة لتحريكه إلى الأعلى، راح شتاينر يفرغ رشاشه في الممشى ويصرخ بشيء لهار-زيون. فغطّاه هذا الأخير بمسدّسه إلى أن سار فوق المصطبة وأبعد الجثّة ثمّ أمسك بمقبض التحكّم وعكَس اتجاه المصعد. توقّف المصعد للحظة، وكأنّه يلتقط أنفاسه، ثمّ عاد يرتفع محدثًا جلبة قويّة.

أطلق هار-زيون صرخة انتصار سرعان ما ماتت على شفتيه لأنّ مسدّسه نفد من الذخيرة. لو كان رجلاً عاديًا يتمتع بحريّة الحركة لما احتاج سوى إلى ثوانٍ لإعادة ملء خزّان المسدّس. ولكن نظرًا إلى التصلّب الذي تسبّبه له بشرته المحروقة لم يكن قادرًا على التصرّف بتلك السرعة. فصرخ بشيء ما وردّ عليه شتاينر مشيرًا إلى أنّه هو أيضًا قد نفد من الذخيرة فرأى بن-روي فرصته في تلك اللحظة الوجيزة.

صرخ لخليفة لكي يتبعه، ثمّ زحف من مخبئه، وبدأ يعدو نحو المصعد. زلّت قدمه حين انفجر شيء ما خلفه هزّ المغارة بأكملها ثمّ انطلق مجدّدًا، وضغط إصبعه على الزناد. أخطأت الطلقات الأولى هدفها وضاعت في اللهيب المشتعل إلى اليمين أو أصابت الجدار الذي يعلو المصعد. ولكنّ المحاولة الثالثة أصابت هدفها فاستقرّت الرصاصات في عنق شتاينر وصدره ودفعته إلى السكّك العاموديّة التي يسير عليها المصعد. جمد في مكانه للحظة والدم يندفع من فمه فيما علا الذهول وجهه. ثمّ أخذ جسده ينزلق ببطء أثناء ارتفاع المصطبة ليُحتجز تحت الدواليب المعدنيّة التي تسير على السكّة ويعيق سيرها. سُمع صرير الدواليب وهي تحاول مقاومة العائق قبل أن ينفجر المحرّك ويتوقّف المصعد على ارتفاع متر ونصف من الأرض.

كان هار-زيون لا يزال يحاول يائسًا إعادة ملء المسدّس وهو يصرخ من الألم لأنّ بشرته الجافة كانت تتشقّق وتتمزّق تحت ملابسه مع كلّ حركة. لاحظ بن-روي عجزه فأبطأ من سرعته ثمّ بدأ يمشي. اقترب منه ورفع المسدّس وضغط فوّهته على رأس هار-زيون، غير آبه على ما يبدو بالنيران التي تحيط بهم.

همس قائلاً: «هذا لأجل غاليا».

كانت الطلقة على وشك الخروج. لطالما حلم بتلك اللحظة في العام الماضي، أن يضع مسدّسًا في رأس الرجل الذي قتل خطيبته وأن يذبحه تمامًا كما ذُبحت غاليا. ولكن حين أتت تلك اللحظة ولم يعد بحاجة سوى إلى أن يضغط على الزناد، عجز

عن فعل ذلك. ليس هكذا، ليس بدم بارد. عضّ على شفته وهو يرغب بإطلاق النار والاستسلام لحقده ولكنّه لم يستطع. ما زال ثمّة صوت ضعيف في أعماقه - صوتها - يقول له إنّ ذلك لن يكون صحيحًا وأنّه سيؤذيه عوضًا عن أن يشفي غليله. بدا أنّ هار-زيون لاحظ تردّده.

فقال له وهو يميل برأسه لينظر إلى بن-روي: «ساعدني، افعل بي ما تريد حين نخرج ولكن ساعدني لإنقاذ المينورا».

حدّق إليه بن-روي بيد مرتجفة ووجهه يتصبّب عرقًا من شدّة الحرارة المتعاظمة. أخيرًا أبعد المسدّس وبدأ هار-زيون ينهض على الفور وهو يعتصر ألمًا.

قال بصوت مختنق: «علينا أن نرفعها. نحتاج إلى حبل أو سلك، أين العربي؟».

نظر بن-روي حوله، اعتقد أنّ خليفة كان خلفه مباشرةً وأنّه تبعه حين ركض نحو المصعد. ويبدو أنّ المصري حاول فعل ذلك، ولكن حين خرج من مخبئه حدث انفجار قوي - نفس الانفجار الذي جعل بن-روي يتعثّر - وسقطت فوقه نصف دزينة من الصناديق فغاب عن الوعي. كان ممدّدًا وسط الممشى على بطنه وفوقه صندوق كبير يسمّر ساقيه. ركض بن-روي نحوه ورفع الصندوق ثمّ ركع بقربه.

اعتقد في البداية أنّه ميت. ولكنّه تحسّس نبضه، وحين اطمأن إلى أنّه ما زال حيًّا رفعه بخشونة على كتفه، فالوقت لم يكن يسمح له بالقلق لاحتمال وجود كسور، وأسرع نحو المصعد وهو يقحّ بسبب الدخان. كان هار-زيون قد وجد حبلاً راح يلفه حول جذع المينورا.

قال: «سوف نرفع المصباح أوّلاً ثمّ نعود لأجله، ساعدني».

هزّ بن-روي رأسه قائلاً: «سوف أخرجه أوّلاً».

«كلاّ! علينا إنقاذ المينورا!»

كرّر بن-روي: «سأخرجه أوّلاً». ورفع خليفة ووضعه على المصطبة ثمّ صعد عليها قبل أن يحمله على كتفه مجدّدًا. هنا شعر بفوّهة مسدّس تلتصق بقوّة بالجزءالخلفي من عنقه.

قال هار-زيون: «أعدت ملأه. والآن اتركه».

حلّ صمت قصير، وانفجر برميل وقود آخر في الجهة المقابلة فيما اندفعت النيران إلى الأعلى لتلامس تقريبًا سقف المغارة وتلتهم العلم النازي الضخم. أبعد بن-روي المسدّس، ثمّ توجّه نحو إحدى السكك. فرفع هار-زيون المسدّس وأطلق طلقة في الهواء.

صرخ قائلاً: «اتركه! ألا تفهم؟ علينا إنقاذ المينورا. اتركه وساعدني!»

صرخ بن-روي وهو يتفحص السكّة بعينيه: «إن قتلتني لن تخرج من هنا. سوف أصعد به ثمّ أعود».

صرخ هار-زيون وهو يطلق رصاصة تحذيريّة أخرى: «كلاّ! علينا إنقاذها الآن! الآن! هل تفهم؟».

تجاهله التحرّي، فسار فوق جثّة شتاينر، وأمسك بأحد القضبان المعدنيّة الأفقيّة التي تمتدّ بين السكك على شكل سلّم وبدأ يصعد، أمّا جسد خليفة فتدلّى عن كتفه وكأنّه دمية كبيرة من القماش. خلفه كان هار-زيون يصرخ ويلوّح بمسدّسه.

«علينا إنقاذها! ألا تفهم؟ هذا دينك! دينك!»

واصل بن-روي الصعود وذهنه مركز على المهمة التي بين يديه. راح يتسلّق كلّ درجة على حدة، وقد انتفخت عيناه من أثر الجهد فيما راحت هبّات اللهب تحرق ذراعيه وخدّيه. تمكن من تسلّق الربع الأوّل من السكّة، ولكنّه بدأ ينهار في منتصف الطريق ذلك أنّ ألم عضلات ساقيه أصبح لا يُحتمل. فصار تقدّمه أبطأ وراح حمله يستنفد قواه. حاول أن يفكر بغاليا، بعائلته، بآل باتشينو، أيّ شيء يشغله عن ألم أطرافه وإنهاك جسده. تمكن من قطع ثلاثة أرباع المسافة وأصبح على بعد ثلاثة أمتار من الشرفة، ولكنّه توقّف هناك وقد أدرك أنّه لا يستطيع التقدّم وأنّ طاقته قد استُنفدت تمامًا حتّى إنّه لم يعد قادرًا على النزول مجددًا.

راح يفكر ويداه ترتجفان مع الجهد الذي يبذله للتمسّك بالسكّة: «عليّ أن أُسقِطه. إن لم أُسقطه سأسقط معه».

لا يدري لماذا بدأ فجأةً في تلك اللحظة اليائسة بتلاوة الشيما. لم يدرك حتّى أنّه يتلوها إلاّ بعد أن ردّد بضعة سطور. بدت وكأنّها صعدت من أعماقه، كالمياه التي تخرج من ينبوع. قبل موت غاليا كان يتلوها كلّ يوم، ولكنّه لم يفعل ذلك أبدًا خلال العام الماضي. وها هو الآن يتمتم بها من جديد.

راح صوته يعلو والتمتمة تتحوّل إلى نشيد، والنشيد إلى أغنية، تمامًا كما علّمه الحاخام غيشمان العجوز في الصفوف العبريّة قبل كلّ تلك السنوات.

شعر وهو يغني أنّ القوّة تعود إلى أطرافه، أوّلاً ببطء ومن ثمّ بسرعة أكبر. راحت الطاقة تملأ جسده ولم يدرك أنّه يتسلّق الدرجات واحدةً تلو الأخرى إلى أن وصل إلى الشرفة. هنا بدأ يعدو، يعدو بالفعل، عبر النفق الأوّل نحو العالم الخارجي. وصل إلى الفتحة التي في الجدار فعبرها ثمّ سلك الممرّ الرئيس وكانت أطراف خليفة تتأرجح

فوق كتفه ودويّ الانفجارات يتردّد خلفه إلى أن وصل إلى مدخل المنجم وخرج إلى الليل. راحت قدماه تدوسان فوق الثلج، وبدت السماء فوقه مضاءة بالنجوم.

وقف هناك يعبّ الهواء البارد والنظيف بعد جوّ المغارة العابق برائحة الدخان، ثمّ حمل خليفة نحو كومة الأحجار إلى جانب الباحة ومدّده على الأرض. أنّ وتمتم بشيء، ولكنّ بن-روي لم يكن يملك الوقت للبقاء بقربه فوضع بعض الثلج على وجه المصري محاولاً إنعاشه قبل أن يركض عائدًا إلى المنجم.

حين وصل إلى الشرفة الحجريّة كانت المغارة تبدو بكاملها فريسةً للنيران، ذلك أنّ اللهب كان يرتفع ويدور في كلّ مكان ملتهمًا الصناديق والجدران والسقف. أثناء غيابه، بدا أنّ هار-زيون تمكّن من الصعود إلى الشرفة، وترك طرف الحبل هناك قبل أن ينزل مجددًا لسببٍ ما. كان يقف الآن على المصطبة وكأنّه على جزيرة صغيرة في بحر من النيران وينظر حوله برعب إلى جدار اللهب المقترب. ناداه بن-روي.

صرخ هار-زيون حالما سمع صوت التحرّي: «حاولت إخراجها بنفسي ولكنّها ثقيلة جدًّا! ابدأ بالسحب! عليّ أن أدعمها من الأسفل».

راح بن-روي يحمي وجهه من اللهب الذي أصبح الآن لا يُحتمل ثمّ أمسك بطرف الحبل، وتراجع بضعة أمتار، وبدأ يرفع المينورا ببطء عن المصطبة بينما أمسك هار-زيون بقاعدتها وراح يرفع هو الآخر. حين أصبحت عالية بما يكفي وقف تحتها ودعمها بكتفيه، ثمّ بدأ يتسلّق سكّة المصعد درجة درجة وهو يصرخ ألمًا. فبشرته كانت تتمزّق تحت سترته، وكأنّها قميص من المناديل الورقيّة، وراح الدمّ يفور من ذراعيه وساقيه وفي قفازاته وحذائه.

صرخ قائلاً: «يا إلهي، أرجوك يا إلهي!»

رفعاها إلى مسافة ثلاثة أمتار عن أرض المغارة قبل أن يُطلق انفجار آخر كتلةً من اللهب التي اندفعت في وجه بن-روي ودفعته إلى الخلف، فيما انزلق الحبل من بين يديه وسقطت المينورا عن المصطبة مجددًا. وقف في مكانه للحظة غير قادر على التركيز ثمّ نهض وسار نحو الشرفة.

همس قائلاً: «أوي فاي».

في الأسفل كان هار-زيون ممدّدًا تحت قاعدة المينورا يحدّق إلى الأعلى عبر فروعها التي بدت وكأنّها قضبان قفص. كان الدمّ يسيل من زاوية فمه مع أنّه بدا وكأنه لا يزال حيًّا لأنّ شفتيه كانتا تتحرّكان ويداه تقبضان وتفلتان ذراعي المينورا الخارجيتين. كان اللهب يحيط الآن بالمصطبة وراح بن-روي يراقب برعب النيران

وهي تلتهمها والمينورا تميل من أثر الحرارة وأذرعها تلتوي. بدا أنّ الذهب يُنتزع عنها وكأنّه جلد متقشّر ليكشف عن شيء أسود تحتها إلى أن ذابت بأكملها وتحوّلت إلى سائل غطى جثّة هار-زيون.

راقب المشهد حتّى النهاية وحين أصبح عاجزًا عن احتمال الحرارة استدار عائدًا عبر النفق. أثناء ذلك هزّ انفجار عظيم المغارة خلفه وتلاه انفجار ثانٍ وثالث. ثمّ تجمّعت أصواتها تدريجيًّا في زئير واحد يصمّ الآذان واندفعت كتل اللهب عبر النفق خلفه. ركض وعبَر الفجوة في الجدار ثمّ قطع الممرّ الرئيس وخرج إلى الليل. بالكاد وجد الوقت ليركض نحو خليفة ويجرّه بعيدًا قبل أن يُسمع انفجار هائل وتندفع النيران من فم المنجم وكأنّها قطار سريع لتمتدّ عبر الباحة وتشعل الأشجار في طرف غابة الصنوبر. بدا أنّ المشهد سيدوم إلى الأبد إذ راحت الأرض تهتزّ وترتجف تحتهما والشظايا تتطاير في كلّ مكان قبل أن يهدأ كلّ شيء أخيرًا وتتراجع النيران ببطء إلى أن تقتصر على شعلة متردّدة حول مدخل المنجم.

خلف الركام، استعاد خليفة وعيه، ثمّ رفع يده، وأمسك بذراع بن-روي.

قال بصوت أجش: «شكرًا لك، شكرًا لك».

كان الإسرائيلي يهزّ رأسه وهو يلوّح بذراعيه وكأنّه يطوف في حوض سباحة.

همس قائلاً: «كانت مصنوعة من الرصاص، مكسوّة بالذهب وداخلها من رصاص».

ضحك ساخرًا وهو يتناول قبضة من الثلج ويضعها على أذنه المجروحة.

«يهود نموذجيّون، أليس كذلك؟ لا يفوّتون فرصة لتوفير المال».

قرّرا أنّه من الأفضل لهما الخروج من ألمانيا بأسرع ما يمكن. فأجرى بن-روي بضعة اتصالات من هاتفه المحمول ولكنّه لم يتمكّن من إيجاد رحلة إلى الأراضي المحتلّة فحجز تذكرتين في رحلة إلى القاهرة مباشرةً من زالتسبورغ، عند الساعة السادسة صباحًا.

قال: «سوف أسافر إلى مطار بن-غوريون من هناك، أفضل من الانتظار هنا».

قادا سيّارتيهما إلى المطار، ثمّ قاما بتسليمهما، واغتسلا، وناما بضع ساعات وسافرا في الوقت المحدّد. حين أصبحا في الهواء استغرق بن-روي في النوم مجددًا على الفور. حاول خليفة القيام بالمثل ولكنّه لم يتمكن من ذلك على الرغم من شدّة إرهاقه، فجلس يرتشف قهوته وهو يحدّق من النافذة ويراقب خطًّا أحمر باهتًا يلوّن السماء شرقًا وينتشر تدريجيًّا إلى أن ألهب الأفق كلّه.

كان ثمّة ما يزعجه مع أنّه لم يعد ثمّة داعٍ لذلك. فأحداث الليلة الماضية أنهت قضيّة شليغل ووصلت بالتحقيق إلى أبعد ما يمكن. مع ذلك كان لديه شعور – لم يكن شعورًا بالفعل بل فكرة غير واضحة تومض في ذهنه – أنّه لم يمسك بعد بالطرف الآخر للخيط وأنّه ثمّة تفصيل صغير ما زال ينقص لاكتمال الصورة تمامًا.

أنهى قهوته، وقاوم الرغبة بالتسلّل إلى الحمّامات لتدخين سيجارة، وراح يتأمّل طلوع الفجر وذهنه يراجع بشكل مفكّك كلّ ما حدث خلال الأسابيع الماضية ويتنقّل بين الأشخاص والأماكن والأحداث قبل أن ينتهي به الأمر في وادي الملوك الذي بدأت فيه القضيّة أساسًا. زنجبيل، أمنحوتيب الثاني، ابنه علي الذي كان يتحدّث عن الفراعنة والكنوز والأفخاخ المستعملة لخداع اللصوص.

«قهوة؟».

كانت المضيفة منحنية نحوه وهي تحمل صينية. تناول فنجانه، ثمّ استعاد حبل أفكاره.

حور عنخ أمون، وزير الفرعون تحتموس الثاني. كان قد تمّ اكتشاف قبره منذ بضعة أشهر في سقارة وكانت الغرفة التي دُفن فيها لا تزال على حالها، ممتلئة حتّى السقف بمجموعة رائعة من الكنوز، بما في ذلك ضريح رائع من الحجر الرملي جعله أحد أهم المكتشفات التي تمّت مؤخرًا. والمثير هو أنّه تحت الغرفة الرئيسة، عثر فريق التنقيب على غرفة إضافيّة سرّية كانت تحتوي على مجموعة أكثر روعة من التحف، وعلى ضريح أجمل احتوى على جثّة مالك القبر الفعليّة. فتبيّن أنّ الغرفة العلويّة كانت مجرّد تمويه لخداع اللصوص وجعلهم يظنّون أنّهم عثروا على الكنز، فيما كان الكنز الحقيقي تحت أقدامهم.

نفخ على قهوته، وراح يتأمّل السماء التي كانت تلمع الآن بأشعة حمراء وذهبيّة، وتنقلت أفكاره إلى أن راحت تحوم حول ذاك اللقاء الغريب في مدينة القاهرة القديمة، في كنيس بن عزرا. ما كان اسم ذلك الرجل؟ شوبو ها-أور؟ كلاّ، شومو، شومير. أجل كان اسمه شومير ها-أور، بدا غريبًا من الطريقة التي كان يتوقّعه فيها كما أخبره كلّ شيء عن مينورا الكنيس.

على غرار جميع النسخ المقلّدة، ليست سوى ظلّ للأصل... تلك كانت جميلة جدًّا. سبعة فروع، أعمدة على شكل أزهار، كؤوس كاللوز، سُبكت بأكملها من كتلة ذهب واحدة، كانت أجمل ما وقعت عليه عينا بشر.

وهو بالطبع يوافقه على ذلك، فقد كانت جميلةً بالفعل، تحفةً رائعة وإن كان

قلبها من رصاص.

في بابل، هذا ما تقوله لنا النبوءة. في بابل سيتمّ العثور على المينورا الحقيقيّة، في منزل آبنر.

خلفه كانت المضيفة قد بدأت تقدّم الفطور وصوتها يتناهى إليه وهي تسأل الركّاب ما إذا كانوا يرغبون بفطور مطهوّ أو كونتينينتال.

بابل. كتلة ذهب واحدة.

كان ثمّة ما يزعجه.

حور عنخ أمون. غرفة مزيّفة. خداع اللصوص.

يزعجه فعلاً.

وصل الفطور إليهما، وبدأت المرأة بتقديمه. استيقظ بن-روي، وطلب الفطور المطهو، أمّا خليفة فاختار الكونتينينتال.

«شومير ها-أور».

«ماذا؟».

سأل خليفة: «هل يعني الاسم شومير ها-أور شيئًا بالعبريّة؟».

كان بن-روي ينزع الغطاء البلاستيكي عن طبقه.

أجاب: «حارس النور، حامي النور، شيء من هذا القبيل. لماذا؟»

لم يجب المصري بل راح يحدّق إلى صينيته. منذ بضع دقائق كان يتضوّر جوعًا أمّا الآن فقد اختفت شهيّته فجأةً.

القاهرة

حطّت الطائرة بعد الساعة الحادية عشرة بقليل في صباح مشمس ودافئ. كانت السماء زرقاء ينيرها في الوسط قرص الشمس الذهبي.

أراد بن-روي إيجاد رحلة على الفور ولكن لا رحلات قبل المساء، فوافق على مرافقة خليفة في سيّارة الأجرة والذهاب إلى السفارة الإسرائيليّة للاستحمام وتغيير ملابسه وإيجاد طبيب يداوي أذنه. أعطى خليفة التعليمات للسائق بالعربيّة، وانطلقت السيّارة.

لم يتحدّثا أثناء الرحلة بل جلسا يحدّقان من النافذة إلى شوارع المدينة. حين وصلا إلى نهر النيل انعطفت السيّارة جنوبًا على طول الكورنيش، وسارت لبضعة كيلومترات قبل أن تنعطف إلى داخل المدينة من جديد وتحيك طريقها في الشوارع

المزدحمة. وصلت أخيرًا في زاوية لتدخل شارعًا واسعًا وخاليًا فيه محطّة مترو من جهة ومن الجهة المقابلة سور يحيط بأشجار وكنائس وتوقفت هناك.

لم تسبق لبن-روي زيارة القاهرة من قبل ولكنّه كان واثقًا أنّ تلك ليست السفارة الإسرائيليّة. فسأل خليفة منزعجًا عمّا يحدث.

أجاب المصري وهو يترجل: «أودّ التحقّق من أمر ما، لن يستغرق سوى بضع دقائق. أعتقد أنّه عليك المجيء أنت أيضًا».

تمتم بن-روي منزعجًا، ولكنّ خليفة أصرّ عليه فترجّل من السيّارة. دفعا للسائق، ثمّ عبرا الطريق، ونزلا الدرجات الحجريّة. عبرا السور ليصلا إلى شارع ضيّق ومرصوف تحيط به جدران عالية أحجارها حمراء وصفراء. كان المكان شديد السكون والهدوء والجوّ ثقيلاً ورطبًا.

سأل بن-روي وهو يحدّق حوله: «أيّ مكان هذا بحقّ الله؟».

أجاب خليفة وهو يخرج سيجارةً ويشعلها: «يُدعى مصر القديمة. إنّه الجزء الأقدم من المدينة، وترجع أجزاء منه إلى عهد الرومان»، أخذ نفسًا من سيجارته ثمّ أضاف: «مع أنّني أذكر أنّه كان يحمل اسمًا آخر حينها، كان يُدعى بابل، بابل مصر».

رفع الإسرائيلي حاجبيه وكأنّه يقول «هل يُفترض أن يعني لي ذلك شيئًا؟» ولكنّ خليفة لم يجب بل وضع سيجارة الكليوبترا في فمه، ولوّح بيده مصطحبًا إيّاه عبر الشارع. كانا يمرّان من وقت إلى آخر بباب أو نافذة مغلقة ولكنّهما لم يصادفا أشخاصًا آخرين ولم يسمعا أي أصوات باستثناء الأصوات الصادرة عن خطواتهم، وكما تناهى إليهما مرّة غناء بعيد، ناعم. انعطفا يمينًا ومن ثمّ يسارًا قبل أن يصلا إلى باحة مفتوحة محاطة بالأشجار ارتفع في وسطها كنيس بن عزرا.

سأل الإسرائيلي مجددًا عمّا يجري، ولم يجب خليفة بل رمى سيجارته بعيدًا وأومأ لبن-روي لدخول المبنى. توقفا لدقيقة في المدخل يتأمّلان المنبر الرخامي والشرفات الخشبيّة والسقف والجدران المزخرفة بدقّة متناهية ثمّ توجّها نحو الضريح الخشبي العالي في الجهة المقابلة من الكنيس والمحاط من الجهتين بالمينوراتين النحاسيّتين.

«أهلاً يا يوسف، عرفت أنّك ستعود».

كما في زيارته السابقة، كان خليفة واثقًا أنّ الكنيس كان خاليًا. ولكن ها هو ذا الرجل الطويل أبيض الشعر مجدّدًا يجلس في الظلال تحت الشرفة. رفع يده محيّيًا

يحدّق إليهما قبل أن يقف ويتقدّم نحوهما. عرّفه خليفة على مرافقه.

«آرييه بن-روي، من الشرطة الإسرائيليّة».

هزّ الرجل رأسه وكأنّه يتوقّع هذه الإجابة وتوقفت عيناه على المينورا المتدلّية من عنق بن-روي. شعر خليفة بشيء من الارتباك ذلك أنّه بعد قدومه لم يعد واثقًا من كيفيّة التعبير عمّا يدور في ذهنه، حتّى إنّه لم يكن واثقًا ممّا يدور في ذهنه. ولكن بدا على الرجل أنّه فهم ما يجري لأنّه تقدّم نحوه ووضع يده على كتفه.

قال بلطف: «أُحضرَت إلى هنا منذ زمن سحيق، منذ سبعين جيلاً. وقد أمر بذلك ماتياس، الكاهن الأعلى، حين عرف أنّ المدينة المقدّسة ستسقط بأيدي الرومان».

قطّب خليفة جبينه.

«تقصد...»

هنا أيضًا بدا أنّ الرجل فهم ما يفكر فيه خليفة قبل خليفة نفسه: «الأخرى؟ الصائغ إليازار هو الذي سبكها لتضليل الأعداء. أمّا الأصليّة فأُرسلت إلى مصر مع أحد أجدادي بانتظار حلول زمن أفضل. وكانت عائلتنا تحرسها منذ ذلك الحين».

فتح بن-روي فمه، ثمّ أغلقه مجدّدًا ذاهلاً وحلّ صمت طويل.

سأل خليفة أخيرًا: «ولم تخبر أحدًا أبدًا؟».

هزّ العجوز كتفيه: «لم يحِن الوقت المناسب».

«وهل حان الآن؟».

«أجل، حان الوقت الآن بعد أن تحقّقت جميع العلامات».

فوجئ خليفة حين رأى عينيّ العجوز تفيضان بالدموع، دموع الفرح لا الحزن. حدّق إلى التحرّي، ثمّ التفت نحو المينورا الأقرب إليه، ومدّ يده ليلمس أحد فروعها.

ردّد بصوت منخفض بدا بعيدًا فجأةً وكأنّه صدىً آتٍ من مكان وزمان بعيدين: «ثمّة ثلاث علامات. الأولى، يأتي أصغر الاثني عشر وبيده نسر، والثانية يقف ابن لإسماعيل وابن لإسحاق معًا كصديقين في بيت الله، والثالثة يصبح الأسد والراعي واحدًا وفي عنقهما مصباح. حين تتحقّق هذه العلامات، يحين الوقت المناسب».

حلّ صمت آخر بدا فيه أنّ كلمات الرجل تعلّقت في هواء الكنيس البارد ثمّ استدار نحوهما مجدّدًا وعيناه الزرقاوان تلمعان تأثّرًا.

قال مبتسمًا لخليفة: «مجيئك إلى هنا حقّق العلامة الأولى. فأصغر أبناء يعقوب الاثني عشر هو يوسف، وأحضرت معك نسرًا. والعلامة الثانية» - مدّ يديه وأحاط الشرطيّين بهما - «حقّقتماها معًا، لأنّ المسلمين متحدّرون من إسماعيل والشعب

اليهودي متحدّر من شقيقه إسحاق. مسلم ويهودي جنبًا إلى جنب في بيت الله. أمّا العلامة الثالثة...»

أشار برأسه إلى قلادة بن-روي.

سأله خليفة بصوت بدا غريبًا بالنسبة إليه: «الأسد؟ الراعي؟»

لم يقل الرجل شيئًا بل نظر إلى بن-روي.

تمتم الإسرائيلي: «إنّه اسمي. آرييه يعني بالعبريّة أسدًا وكلمة روي تعني راعيًا. اسمع، معنى كلّ هذا بربّك؟».

اتّسعت ابتسامة الرجل الذي راح يضحك ثمّ قال: «دعني أريك يا صديقي، سأريكما أنتما الاثنين شيئًا أُخفي لسبعين جيلاً والآن حان أخيرًا الوقت لكشفه».

أمسك بذراعيهما وقادهما إلى الزاوية الخلفيّة للكنيس، ثمّ أخرج مفتاحًا وفتح بابًا منخفضًا في الألواح الخشبيّة التي تغطي الجدران.

شرح وهو يقودهما عبر سلّم نحو قبو كبير مرصوف خالٍ باستثناء كومة من الكراسي الخشبيّة وحصيرة كبيرة مفروشة في وسطه: «تمّ بناء هذا الكنيس في أواخر القرن التاسع على أنقاض كنيسة قبطيّة قديمة، بنيت بدورها على أنقاض بناء أقدم يعود إلى العهد الروماني. وحين أتى أجدادي إلى هنا كان البناء منزلاً لزعيم المجموعة اليهوديّة في بابل، وكان رجلاً بالغ الحكمة يدعى آبنر».

سار نحو الحصيرة ثمّ انحنى وأمسك بزاويتيها.

«لم يبقَ شيء من المنزل الأصلي باستثناء جزء صغير هو عبارة عن قبو عميق جدًّا كان يستعمل لتخزين الشراب. ظلّ هذا الجزء على حاله بينما تعاقبت القرون والأبنية فوقه ببطء».

أزاح الحصيرة جانبًا فكشف عن بلاطة حجريّة ذات تجويف في وسطها، أكبر من البلاطات المحيطة بها وأنعم، وبدت أقدم نوعًا ما، أقدم بكثير. رفعها بمساعدة التحرّيين فظهرت فُتحة بدا خلفها درج بالٍ يؤدي إلى الأسفل. لم يكن خليفة واثقًا ولكنّه لمح نورًا في الأسفل.

قال الرجل: «تعالا، إنّها بالانتظار».

قادهما عبر الدرج نحو ممرّ مقوّس ذي سقف مطنّف وجدران حجريّة مكسوة بالغبار. كان الضوء واضحًا الآن، نور غني ودافئ صادر من الزاوية في آخر الممرّ. ساروا نحوه، وكان يزداد قوّة مع كلّ خطوة ويصبح أكثر عمقًا وكثافة. وكانا يشتمّان عطرًا خفيفًا في الهواء، بالكاد ملحوظًا ولكنّ مفعوله غريب سبّب لهما شيئًا من

الدوار. وصلا إلى آخر الممرّ وانعطفا عند الزاوية ثمّ وقفا مذهولين.

قال بن-روي مختنقًا من شدّة التأثر: «يا إلهي».

كانا أمام قبو صخري سقفه وجدرانه خشنة وغير مستوية وقلبه مضاء بنور، وكان النور يصدر عن مينورا ذات سبعة فروع شبيهة بتلك التي وجدوها في المنجم ولكنّها مختلفة تمامًا في الوقت نفسه. فذهبها كان أغنى وأكثر جمالاً بكثير، وشكلُها أكثر تناسقًا، وزخرفتها دقيقة ومليئة بالحياة إلى حدّ أنّ الأزهار والأوراق الحقيقيّة تبدو إلى جانبها تقليدًا.

نظر التحرّيان إلى بعضهما للحظة قبل أن يستديرا نحوها مجدّدًا. تبعا الرجل الأشيب إلى أن وقفا أمام الشمعدان مباشرةً وأغرقهما بنوره الذي بدا كموجة من الذهب.

سأل بن-روي بصوت مسموع بالكاد: «هل تُبقي المصابيح مشتعلة؟».

أجاب الرجل: «لم يمس أحد المصابيح منذ أن أحضرت المينورا إلى هنا. تمّ إشعالها حينها وظلّت مشتعلة مذ ذاك. لم تحترق الفتائل أبدًا ولم ينفد الزيت».

هزّا رأسيهما متعجبين وتقدّما قليلاً للتحديق إلى الشعلات. لم تكن تشبه أيّ شعلة رآها خليفة من قبل.

بعد ذلك، حين صعدا مجددًا إلى الكنيس لم يكن الرجل هناك. ناداياه ولم يجيبهما فتجوّلا لبضع دقائق ثمّ خرجا مجددًا.

وصلا عند الظهيرة ولكنّ الفجر كان يشرق مجدّدًا، وكأنّ هذا المكان لا يخضع لقوانين الزمان الطبيعيّة. حدّقا شرقًا إلى السماء الورديّة التي تعلو هضاب المقطّم ثمّ سارا بضع خطوات وجلسا على مقعد تحت شجرة غار هندي ضخمة. عندها تقدّم منهما صبي صغير يرتدي جلاّبية بيضاء ويحمل صينيّة وُضع عليها فنجانان من الشاي، وبدت عيناه الزرقاوان بلون الياقوت الأزرق.

قال وهو يقدّم لهما الشاي: «قال جدّي أن أعطيكما الشاي حين تخرجان. سوف يكون بانتظاركما في الكنيس حين تصبحان جاهزين».

أخذا الشاي قبل أن يجري مبتعدًا. أشعل خليفة سيجارةً، وأخذ يتأمل آخر النجوم التي ما زالت تومض في السماء، وحلّ صمت طويل.

سأل أخيرًا: «إذًا، ماذا نفعل بها؟».

انحنى بن-روي الجالس بقربه ينفخ على الشاي وتمتم قائلاً: «أمورًا جيّدة،

نحاول أن نحدث فرقًا».

«ماذا؟».

«هذا آخر ما قالته لي غاليا قبل أن تموت. افعل أشياء جيّدة، حاول أن تحدث فرقًا. كانت هذه آخر جملة بيننا».

نظر إلى خليفة، ثمّ خفض نظره مجددًا وأضاف: «لم أخبر أحدًا بذلك من قبل».

ابتسم المصري وارتشف الشاي. كان حلوًا جدًّا وقويًّا جدًّا، وكان السائل صافيًا ومحمّر اللون، أشبه بلون الياقوت، تمامًا كما يحبّه.

قال بن-روي بعد صمت قصير آخر وهو يرتشف شرابه: «سوف تسبّب المشاكل إن عرف الناس بوجودها. فثمّة أشخاص آخرون على شاكلة هار-زيون حاليًّا وملثّمون آخرون أيضًا».

أخذ خليفة نفسًا من سيجارته، وكان قرص الشمس يرتفع من خلف التلال ببريق ناري أحمر.

تابع بن-روي: «إنّها... قويّة جدًّا و... مميّزة جدًّا، ولا أظنّ أننا مستعدّون لها. فالأمور معقدة بما يكفي حاليًّا».

وضع فنجانه جانبًا وكتف ذراعيه. طار من فوقه طائرا وروار من بين الأغصان وحطّا على الأرض، وراحا ينقرانها بمنقاريهما الطويلين الشبيهين بالأشواك ويتنقلان إلى الأمام والخلف. نظر الرجلان إلى بعضهما، ثمّ هزّا رأسيهما وقد أدرك كلّ منهما ما يفكر فيه الآخر.

سأل بن-روي: «موافق؟».

قال خليفة وهو ينهي سيجارته ويطفئها تحت حذائه: «موافق».

«سوف أتصل بميلان وأخبره أنّها بأمان. لن يرغب بمعرفة المزيد».

«هل هو أهل للثقة؟».

ابتسم بن-روي قائلاً: «يهودا؟ أجل هو أهل للثقة. لهذا السبب اتصلت به وأخبرته عن المينورا. إنّه شخص طيّب تمامًا كابنته».

«ابنته؟».

قال بن-روي: «ظننت أنّني أخبرتك، أنا واثق من ذلك».

«أخبرتني بماذا؟».

مرّر الإسرائيلي يده في شعره وقال: «يهودا ميلان هو والد غاليا».

كانا يخشيان أن يُحزن قرارهما الرجل العجوز. ولكن حين أخبراه، هزّ رأسه وابتسم ابتسامته الغامضة.

«كانت مهمتنا حراسة المينورا، وكشف مكانها عندما يحين الوقت المناسب. وقد نفذنا تلك المهمة ولم يعد يُتوقّع منّا شيء».

سُمع وقع أقدام، وأتى الصبي الصغير يعدو إلى داخل الكنيس، ثمّ وقف بقرب جدّه. وضع العجوز ذراعه حول كتفيه.

سأله خليفة: «ماذا ستفعل الآن؟».

هزّ العجوز كتفيه: «الآن؟ نحن نعتني بهذا المكان وهو منزلنا. لن يتغيّر شيء، لن يتغيّر شيء».

«والمينورا؟».

«المينورا ستبقى حيث هي».

شدّ الصغير بثوب جدّه، ثمّ وقف على رؤوس أصابعه، وهمس شيئًا في أذنه. ضحك العجوز، وقبّل الصبي على جبينه.

«قال لي أن أخبركما أنّني حين أموت وأرحل عن هذا العالم ويصبح هو الموكل بالعناية بالمينورا، يمكنكما المجيء لرؤيته متى شئتما».

ابتسم الشرطيّان.

«اذهبا بأمان الله يا صديقيّ».

نظر في أعينهما للحظة وانتاب الرجلين فجأةً إحساس غريب بالخفّة وكأنّهما يطيران في الهواء. ثمّ حيّاهما العجوز بهزّة من رأسه وأخذ بيد الصبي وسارا نحو الظلال تحت شرفة الكنيس الخشبيّة ثمّ اختفيا وكأنّهما لم يكونا موجودين.

حين غادرا الكنيس، رفع بن-روي يده فجأةً إلى أذنه.

قال: «لقد شُفيت أذني».

القاهرة

«النداء الأخير لرحلة خطوط الطيران المصريّة رقم 431 إلى أسوان عبر الأقصر».

كانت الساعة السادسة مساءً وكان خليفة أخيرًا في طريقه إلى المنزل. كان يستطيع إيجاد مكان في رحلة أبكر، ولكن حين تحدّث مع زينب أصرّت عليه أن يقوم ببعض الزيارات ما دام في القاهرة. هكذا تناول الفطور مع صديقيهما القديمين

توفيق ونوال في مقهى غروبي في ميدان طلعت حرب، ثمّ أمضى النهار في متحف الآثار مع صديقه البروفيسور الحبيبي، الذي عاد مؤخرًا من رحلته إلى أوروبا، قبل أن يعود إلى غروبي للقاء صديق طفولته الذي تمكن من تناول ستّ قطع من الحلوى وثلاث قطع من البسبوسة وشريحة من القطيف المكسو بالعسل قبل أن يعلن قائلاً إنّه سيكتفي بهذا القدر، «فنحن مدعوون على العشاء اليوم ولا أريد إفساد شهيّتي».

والآن أصبح خليفة جاهزًا للعودة.

«النداء الأخير لرحلة خطوط الطيران المصريّة رقم 431».

كان يرى من الجهة المقابلة لحواجز الأمن آخر الركاب وهم يتوافدون عبر الأبواب الزجاجيّة إلى الباص الذي سيقلّهم إلى الطائرة. التفت يتأمل قاعة المسافرين بحثًا عن بن-روي الذي حجز مكانًا في رحلة الساعة الثامنة مساءً، واتّفق معه على اللقاء هنا للوداع. كان المكان يعجّ بالسيّاح، بمن فيهم مجموعة كبيرة من النساء الإنكليزيّات اللواتي كنّ يعتمرون لسبب ما قبّعات السومبريرو المكسيكيّة. ولكنّه لم يجد أثرًا للإسرائيلي. انتظر دقيقة أخرى وهو يسمع النداء مجدّدًا ثمّ بدأ يتوجّه إلى نقطة الأمن.

«خليفة!»

كان الإسرائيلي يشقّ طريقه بين النساء الإنكليزيّات وهو يحمل كيسين كبيرين بيديه. فتقدّم المصري للقائه.

«اعتقدتك لن تتمكن من المجيء».

«لم أعثر فورًا على القاعة اللعينة».

وضع بن-روي الكيسين ومسح العرق عن جبينه ثمّ أخرج قارورته الفضّية وفتح الغطاء وأخذ جرعة طويلة. حين أنزلها لاحظ نظرة الاستنكار العابرة على وجه خليفة.

قال بصوت خشن: «لا تنظر إليّ هكذا، إنّه ذاك الشراب، ماذا تسمونه، الخبيزة؟».

«كركديه؟».

«نعم هذا هو، منعش جدًّا، فكرت أنّ الوقت قد حان، أنت تعرف... لأغسل جسمي قليلاً».

ابتسم خليفة، ثمّ نظرا إلى بعضهما، وحوّلا نظرهما مجدّدًا. لم يكن أيّ منهما يعرف ما يقول. نظر خليفة إلى الكيسين ولاحظ محتوياتهما.

سأله متفاجئًا: «دفاتر تلوين؟»

«مـاذا؟ آه نعـم. كنـت أتجـوّل فـي البلدة وكانت تبـاع بالتنزيلات. فثمّة مدرّسـة تعرفت عليها، تعمل في مدرسة يعلّمون فيها الأطفال الفلسطينيين والإسرائيليين معًا، ولا يسـتطيعون...» توقف الإسـرائيلي وشـعر فجأة بالارتباك. تابع متمتمًا: «على كل حال فكرت في أنّها ستستعملها».

هزّ خليفة رأسه قائلاً: «أظنّ أنّها جميلة، تلك المدرّسة».

«أجل في الواقع، شعرها طويل...»

توقف بن-روي مجددًا، وعبس وهو يلاحظ أنّه خُدع ودُفع على قول شـيء لا يريد قوله.

«تبًا لك، خليفة».

لـم تكـن نبرتـه تحتـوي على أيّ مكر بل بدت نظرة مرحة خلف عبوسـه. ارتفع النداء مجدّدًا.

«النداء الأخير لرحلة خطوط الطيران المصريّة رقم 431. نرجو من جميع الركاب التوجّه إلى باب المسافرين على الفور».

قال خليفة: «هذه رحلتي».

سكتا محاولين إيجاد الكلمات المناسبة ثمّ مدّ بن-روي يده.

«مع السلامة يا صاحبي».

ضحك خليفة: «ظننتك قلت إنّك لا تتحدّث العربيّة».

قال بن-روي: «سألت شخصًا في السفارة. فكرت في أنّها ستكون، أنت تعلم، لائقة».

هزّ خليفة رأسه، ثمّ مدّ يده وصافح الإسرائيلي قائلاً: «شالوم، شافير».

هـذه المـرّة كان بـن-روي هـو الـذي ضحـك: «ظننتـك قلـت إنّـك لا تتحدّث العبريّة».

قال خليفة: «بحثت عن الجملة في قاموس، فكرت في أنّها ستكون... لائقة».

ظلاّ ممسكين بيديّ بعضهما للحظة، ثمّ كرّرا وداعهما وبدآ يبتعدان. كان خليفة يعبر حاجز الأمن حين سمع صوت بن-روي خلفه.

«انتظر! انتظر!»

عاد من خلف الحاجز.

تمتم بن-روي: «سوف أنسى نفسي يومًا ما». وراح يبحث في أحد الكيسين، ثمّ أخرج رزمةً صغيرةً أعطاها لخليفة.

«هذه لزوجتك وأولادك، حلوى تقليديّة لدينا، تدعى حلفا. اشتريتها من السفارة».

اعترض المصري، ولكنّ بن-روي لوّح بيده، ثمّ بحث في جيبه وأخرج علبةً صغيرةً أخرى ملفوفة بورقة بنيّة.

«وهذه لك أنت، مجرّد تذكار صغير».

اعترض خليفة مجددًا، ولكنّ الإسرائيلي أسكته ووضع العلبة في جيب المصري. وقفا يحدّقان إلى بعضهما للحظة وبدا في أعينهما شيء من التردّد وكأنّهما يقاومان رغبةً ما خشية أن تكون غير ملائمة. أخيرًا تقدّما خطوةً واحتضنا بعضهما، واختفى خليفة بين ذراعي الإسرائيلي الضخم.

«إلى اللقاء قريبًا».

ابتسم خليفة وكان وجهه ملتصقًا في صدر بن-روي.

«إلى اللقاء قريبًا».

ظلاّ كذلك للحظة ثمّ ابتعدا، وسار كلّ منهما في طريقه من دون أن ينظر خلفه.

حين أصبح خليفة في الطائرة التي تحمله جنوبًا إلى منزله وعائلته، المكان الوحيد الذي أراد الذهاب إليه، مدّ يده إلى جيبه وأخرج العلبة التي أعطاه إيّاها بن-روي. تأملها وهو يشعر أنّه يعرف محتواها، أمسكها بيده مبتسمًا، وأسند رأسه إلى النافذة يحدّق إلى نهر النيل الممتدّ في الأسفل، ذاك الشريان الأزرق الذي وهب الحياة والأمل لصحراء قاحلة.

القدس

كان حشدًا كبيرًا، عدّة آلاف متجمهرة في شارع الملك سليمان، يقفون جنبًا إلى جنب على الدرج الحجري نصف الدائري المؤدي إلى باب العامود - رجال ونساء، شيوخ وشباب، إسرائيليون وفلسطينيون، يحملون لافتات وصورًا لأحبّاء راحوا ضحيّة العنف بين الشعبين. كانوا ينظرون جميعهم إلى المنبر الذي أقيم أمام الباب، ويقف عليه رجلان، أحدهما يرتدي يرمولْكًا أبيض والآخر كفيّة، يقفان جنبًا إلى جنب أمام

مكبّر صوت واحد. وكان يعلو التصفيق من وقت إلى آخر، ولكنّ الحشد كان هادئًا عمومًا يصغي إلى ما يُقال.

وسط هذا الازدحام، شقّ يونس أبو جيش طريقه ببطء وقد أحكم تثبيت السترة المملوءة بالمتفجرات حول جسده. كان وجهه رماديًّا والعرق يتصبّب منه. كما طُلب منه، ذهب إلى حجرة الهاتف العمومي عند تقاطع شارع أبو طالب وابن خلدون. هناك أعطاه رجال الملثّم الأوامر الأخيرة: إحضار السترة من موقع البناء المهجور، التوجّه إلى باب العامود، الاقتراب قدر الإمكان من المنبر وشدّ الحبل.

تمتم وهو يسير إلى الأمام بحذر خشية انفجار القنبلة: «الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر».

كان الرجلان الواقفان أمامه يتحدّثان بالدور، فيميل أحدهما نحو مكبّر الصوت ثمّ يبتعد مجدّدًا.

«... انتهاء العنف... تضحيات باسم السلام... الحقد أم الأمل... فرصتنا الأخيرة...»

كان يسمع بالكاد صوتيهما، ضائعًا في الإعصار الذي يعصف بذهنه. وصل إلى أسفل الدرج ثمّ سار نحو المنبر ووقف تحت المتحدّثين تمامًا.

أدخل يده في السترة وهو يشعر بالغثيان والرعب وشدّ أحد الحبلين لتسليح المتفجرات، ثمّ مدّ يده وأمسك بالحبل الثاني.

«... عالم جديد... معًا كأصدقاء... أمل من اليأس... النور لا الظلام...»

شدّ قليلاً ثمّ توقّف. شدّ مجدّدًا ثمّ جمدت يده وظلّ في مكانه ممسكًا بالحبل بينما عانق الرجلان بعضهما وبدأ الحشد يغني من حوله...

النهايـــة

مسرد

آبّا: أب (بالعبريّة).

محمود عبّاس: خليفة ياسر عرفات كرئيس للسلطة الفلسطينيّة. ولد عام 1935. معروف أيضًا بلقب أبو مازن.

أبـو سـمبل: موقـع أثـري جنوب مصـر، يضم أحد أعظـم الآثار المصريّـة، وهو معبد الشمس لرمسيس الثاني.

أبو زعبل: سجن مصري قرب القاهرة.

أبيدوس: مدفن بعض الفراعنة الأوائل. يقع على بعد 90 كلم شمال الأقصر.

أهل الكتاب: التسمية الإسلاميّة لليهود والمسيحيين.

عيش بلدي: نوع من الخبز يُصنع من دقيق القمح الكامل.

أخناتون: فرعون الأسـرة الثامنة عشـرة، حكم من 1353 إلى 1335 قبل الميلاد، وهو أب توت عنخ أمون.

الأهرام: الصحيفة المصريّة الأكثر مبيعًا.

الأخبار: صحيفة مصريّة.

عالم سمسم: برنامج مصري للأطفال.

الوادي الجديد: سجن مصري في واحة خرجة.

العمارنـة: الاسـم المعاصـر لأختاتون، وهي مدينة بناهـا الفرعون أخناتون على الضفّة الشرقيّة للنيل في منتصف الطريق الفاصل بين القاهرة والأقصر.

أمنحوتـب الأوّل: فرعـون مـن الأسـرة الثامنة عشـرة. حكم مـن 1525 إلى 1504 قبل الميلاد. لم يتم العثور على قبره حتّى الآن.

أمنحوتـب الثانـي: فرعـون من الأسـرة الثامنة عشـرة. حكم مـن 1427 إلى 1401 قبل الميلاد.

أمنحوتـب الثالـث: فرعون من الأسـرة الثامنة عشـرة. حكم مـن 1391 إلى 1353 قبل الميلاد. هو أب أخناتون، جدّ توت عنخ أمون.

ييغال عمير: متطرف يهودي، قام باغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحاق رابين عام 1995.

عنخ: رمز على شكل صليب، هو رمز الحياة في مصر القديمة.

قلعة أنطونيا: قلعة محاذية لمجمّع الهيكل في القدس القديمة. بناه هيرودس الكبير.

ياسـر عرفات: الزعيم الفعلي للشـعب الفلسـطيني منذ أواخر الستينيات حتّى وفاته في تشـرين الثاني من عام 2004. وتولّى رئاسـة السـلطة الفلسـطينيّة منذ عام 1996. ولد عام 1929. يُعرف أيضًا بلقب أبو عمّار.

أرمينيوس: بطل محارب ألماني قديم. عاش بين عامي 18 ق.م. و21 م. اشتُهر بانتصاره على الجيش الروماني في معركة تُوْيتوبيرغر فالد (9 م.).

أشكِلون: سجن إسرائيلي.

عامي عايالون: الرئيس السابق للشين بيت (1996-2000).

بابا غنّوج: طبق مصري مؤلّف من الباذنجان المهروس والطحينة.

جزيرة الموز: موقع طبيعي خلاّب في الأقصر.

بار ميتزفا: احتفال يهودي يُقام لمناسبة وصول الفتى لسنّ البلوغ.

إيهود باراك: رئيس وزراء إسرائيلي سابق (1999-2001).

مروان البرغوتي: ناشط وسياسي فلسطيني شعبي، ولد عام 1958. سجنه الإسرائيليون عام 2002.

بسبوسة: فطائر حلوة مصريّة مصنوعة من السميد والجوز والعسل.

باتيا غور: كاتبة إسرائيليّة شعبيّة.

جامعة بير زيت: جامعة فلسطينيّة في رام الله.

بني حسن: مقبرة هامة من المملكة الوسطى تقع في الضفّة الشرقيّة للنيل، في منتصف الطريق بين المنيا وملاّوي.

بيزاليل: حِرفي يهودي محترم من زمن الخروج. هو الذي صنع تابوت العهد والمينورا الأولى.

بورشت: حساء الشمندر.

بوخنفالد: معتقل نازي في ألمانيا.

بتنايا: منطقة في القاهرة معروفة بإيوائها للسارقين وتجّار المخدرات.

قبّالا: تعاليم صوفيّة يهوديّة.

كاليش: عربة يجرّها حصان.

كامب ديفيد: منتجع ريفي في ماريلاند لرئيس الولايات المتحدة. شهد محادثات سلام فاشلة في تموز من عام 2000 بين رئيس الوزراء الإسرائيلي في ذلك الحين إيهود باراك وياسر عرفات.

كاردو: شارع مسقوف في الحي اليهودي في القدس القديمة. كان سابقًا الشارع الرئيس في القدس الرومانيّة.

هاورد كارتر: عالم آثار إنكليزي اكتشف عام 1922 قبر توت عنخ أمون. عاش بين عامي 1874-1939.

جان فرانسوا شامبوليون: عالم فرنسي حلّ الرموز الهيروغليفيّة. عاش بين عامي 1790-1832.

شيكاغو هاوس: منزل البعثة الأثريّة لجامعة شيكاغو في الأقصر.

نايدلاخ الدجاج: حساء الدجاج مع الزلابية، وهو طبق يهودي شعبي.

قسطنطين الأوّل: يُعرف بالعظيم. وهو الإمبراطور الروماني الأوّل الذي اعتنق المسيحيّة. عاش بين عامي 274-337 م.

محمد دحلان: سياسي وناشط فلسطيني ولد عام 1961.

داوود: عاش قبل الميلاد بأحد عشر إلى عشرة قرون. وهو أب سليمان.

ديبير (قدس الأقداس): الجزء الأكثر قداسة في الهيكل القديم.

دير البحري: موقع المعبد الجنائزي للملكة حتشبسوت (حكمت بين 1473-1458 ق.م.). يقع على الضفّة الغربيّة للنيل في الأقصر.

دير البرشة: مقبرة من المملكة الوسطى تقع على الضفّة الشرقيّة للنيل، مقابل بلدة الملاّوي الحديثة.

دير ياسين: قرية فلسطينيّة سابقة على أطراف القدس. كانت مسرحًا لمجزرة شائنة

نفّذها اليهود عام 1948.

دويتشيه أورينت – غيزيلشافت: جمعيّة شرقيّة ألمانيّة. وهي مؤسّسة تُعنى بدراسة تاريخ الشرق الأدنى ومواقعه الأثريّة.

جلاّبيّة: عباءة تقليديّة يرتديها الرجال والنساء في مصر.

دجوسر: فرعون من الأسرة الثالثة. حكم بين 2630-2611 ق.م. يُعتبر هرمه المدرّج في سقارة أوّل مبنى أثري حجري في العالم.

دُنم: مقياس للأرض يُعادل ربع آكر.

المدرسة التوراتيّة: معهد أُسّس عام 1890 لدراسة التوراة وآثار الأرض المقدّسة.

الأسرة الثامنة عشرة: يُقسم تاريخ مصر إلى ممالك (القديمة والمتوسطة والجديدة) تُقسم بدورها إلى أُسر. تضم الأسرة الثامنة عشرة أربعة عشر حاكمًا وتغطّي المرحلة الممتدّة بين 1550-1307 ق.م. وهي أولى الأُسر الثلاث للمملكة الجديدة (1550-1070 ق.م.).

إيليا: نبي.

الكاب: موقع أثري على الضفّة الشرقيّة للنيل، يقع على بعد 70 كلم جنوب الأقصر. تمتاز البلدة بأسوارها التي تعود إلى أوائل عهد الأُسر (2975-2920 ق.م.).

صائب عريقات: سياسي وأكاديمي فلسطيني ولد عام 1955.

إيريتز إيزراييل ها-شليما: تعني حرفيًّا «كامل إسرائيل الكبرى»، أي كامل الأرض التي وعد الله بها إبراهيم في الكتاب المقدّس.

معبر إيريتز: المعبر الرئيس بين إسرائيل وقطاع غزّة.

إيفين شيتيا: تعني حرفيًّا «حجر الأساس». وهي الصخرة الظاهرة من جبل موريا التي بُني عليها الهيكل القديم.

عزرا: مشرّع يهودي قديم.

الخزف: مادّة مصنوعة من الكوارتز المعرّض للحرارة ذات طبقة خارجيّة لامعة. استُعملت كثيرًا في مصر القديمة لصناعة المجوهرات والأواني الصغيرة...

فَريد: نوع من السجائر في الشرق الأوسط.

فتح: حركة فلسطينيّة أسّسها ياسر عرفات في أواخر الخمسينيّات. كما أنّها اختصار لاسم المنظّمة «حركة التحرير الفلسطينيّة».

فروم: كلمة ييديّة تعني الالتزام الديني الصارم.

عطية جديس: مصوّر مصري شهير عاش بين 1887-1972.

غايسيرك: ملك الفاندال بين 428-477 م. نهب روما عام 455 م.

جبل دوشا: موقع أثري في شمال السودان.

سمك غيفيلتيه: طبق يهودي تقليدي مؤلّف من السمك المسلوق.

غولدستار: نوع من الشراب الإسرائيلي.

باروخ غولدشتاين: متطرف يهودي أطلق النار على تسعة وعشرين مصليًا مسلمًا في الخليل في عام 1994 وقتلهم قبل أن يُضرب حتّى الموت. وقد اعتُبر بطلاً من قبل المستوطنين اليهود اليمينيين.

غويم: تعبير ييديّ إزدرائي يُطلق على غير اليهود.

غروبي: سلسلة مقاهٍ شهيرة في القاهرة.

غروس-روزِن: معتقل نازي في بولندا.

غوش شالوم: تعني حرفيًّا «جبهة السلام»، وهي مجموعة إسرائيليّة مناصرة للسلام.

هآريتس: صحيفة يوميّة إسرائيليّة.

هالاخاه: مجموعة القوانين اليهوديّة، الخطيّة والشفهيّة.

هالاّ: رغيف مَجدول يتناوله اليهود يوم السبت.

حماس: حركة إسلاميّة قوميّة فلسطينيّة مناضلة، تأسّست عام 1987. وتشتمل الكلمة بالإضافة إلى معناها الحرفي على الأحرف الأولى من اسم الحركة «حركة المقاومة الإسلاميّة». وقد تمّ اغتيال رئيسها، الشيخ أحمد ياسين، من قبل الإسرائيليين، عام 2004.

حانوكّا: احتفال يهودي يُقام في ذكرى انتصار يهودا المكابي على اليونان السلوقيين وتطهير الهيكل.

الحرم الشريف: موقع في القدس القديمة يضم المسجد الأقصى وصخرة القبّة، ثالث

موقع مقدّس في العالم الإسلامي.

حريدي: اليهودي الأرثوذكسي المتشدّد.

حسيدي: فرع من فروع اليهوديّة الأرثوذكسيّة المتشدّدة.

خواجة: تسمية مصريّة للأجانب.

هازّان: قائد جوقة الترتيل في الكنيس.

حزب الله: مجموعة إسلاميّة شيعيّة مناضلة، مركزها لبنان.

حورمحيب: آخر فرعون في الأسرة الثامنة عشرة. حكم بين عامي 1319-1307 ق.م.

معركة حطّين: وقعت عام 1187، هُزم فيها الصليبيون على يد صلاح الدين.

حورس: ابن إيزيس وأوزيريس. يُصوّر على شكل جسد إنسان ورأس صقر.

هامفي: اختصار لاسم سيّارة.

انتفاضة: ثورة شعبيّة نفذّها فلسطينيو الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة. دامت الانتفاضة الأولى من عام 1987 حتّى 1993. واندلعت الانتفاضة الثانية، أو انتفاضة الأقصى، عام 2000.

إسحاق: ابن إبراهيم وشقيق إسماعيل من أبيه. ويُقال إنّ الشعب اليهودي يتحدّر من إسحاق.

إسماعيل: الابن الأكبر لإبراهيم، من هاجر، ويُقال إنّ الشعب العربي يتحدّر من إسماعيل.

إيزيس: هي زوجة أوزيريس وأم حورس، وهي حامية الأموات.

الجهاد الإسلامي: مجموعة إسلاميّة فلسطينيّة مناضلة، أُسّست في أواخر السبعينيّات.

يعقوب: هو ابن إسحاق وحفيد إبراهيم.

إيرميا: نبي يهودي عاش في القرن السادس قبل الميلاد. توقع بدمار معبد سليمان على يد البابليين، ويُقال إنّه توفي في مصر.

جون غيشالا: أحد قادة الثورة اليهوديّة ضدّ روما بين عامي 66-70 م. حُكم عليه

بالسجن المؤبّد بعد سقوط القدس عام 70 م.

يونس: نبي عبري.

يهودا المكابي: قائد عسكري يهودي عاش في القرن الثاني قبل الميلاد واستعاد القدس من أيدي اليونان السلوقيين.

مير كاهان: متطرّف يهودي ولد في بروكلين. دعا إلى الطرد الإجباري لجميع العرب من أرض إسرائيل التوراتيّة. ولد عام 1932 وقُتل عام 1990.

قَطيف: قمح مشقوق منقوع بالعسل، وهو تحلية شعبيّة في مصر.

كين: نعم بالعبريّة.

كيروفا: صلاة يهودية يتمّ إنشادها.

كيتزيوت: سجن إسرائيلي معروف بقسوته يقع في صحراء النقب.

خاغوغي ديريف: طبق أرمني تقليدي مؤلّف من أوراق العريش المحشوّة.

كيدّوش: صلاة يهودية تقام يوم السبت وفي الاحتفالات.

كلوغ إز مير: تعبير ييدي يعني يا ويلي.

نايدل: زلابية.

كنيست: تعني حرفيًّا «جمعيّة». وهو مجلس النواب الإسرائيلي.

كوهينيم (جمع): كهنة المعبد بالوراثة.

كور: موقع أثري شمال السودان.

المنجنيق: آلة حربيّة لقصف الأحجار الضخمة.

مشربيّة: أشغال خشبيّة مصريّة قديمة.

ماتميديم: طلاّب يهود يكرّسون أنفسهم لدراسة التلمود.

ماتزا: خبز غير مخمّر يتناوله اليهود في احتفالات عيد الفصح.

موريستان: منطقة في الحي المسيحي في مدينة القدس القديمة.

ميا شاريم: ضاحية من ضواحي القدس شمال المدينة القديمة تمامًا.

جوزيف مينغيلي: طبيب نازي، يُلقّب بملاك الموت. هرب إلى أميركا الشماليّة بعد

الحرب وتوفي في البرازيل عام 1979.

مينورا: شمعدان ذو سبعة فروع، أحد أقدم رموز اليهوديّة وهو شعار دولة إسرائيل.

ميرينبتاه: فرعون ينتمي إلى الأسرة التاسعة عشرة، حكم بين 1224-1214 ق.م.

ميشوغينا: كلمة ييديّة تعني «مجنونًا».

ميزوزا: صندوق صغير يحتوي على جمل من سفر التثنية، يُعلّق على أبواب منازل اليهود الأرثوذكس.

ميدان التحرير: محور مدينة القاهرة الحديثة.

مِشنة: مجموعة القوانين اليهوديّة الشفهيّة، جُمعت في القرن الثاني الميلادي.

موسر: كلمة ييديّة تعني خائنًا.

جبل موريا: موقع المعبد القديم في القدس، الذي يُفترض أن يكون إبراهيم قد أوشك على ذبح ابنه إسحاق فيه.

حسني مبارك: رئيس جمهوريّة مصر منذ العام 1981.

نيبيّش: كلمة ييديّة تعني ضعيف الإرادة أو خجولاً.

نميس: غطاء للرأس كان يضعه فراعنة مصر القدماء.

اللغة الأوكسيتانيّة: لهجة فرنسيّة اختفت الآن إلى حدٍّ كبير، واستُعملت في منطقة لانغدوك جنوب فرنسا. وهي لغة شعراء التروبادور في العصور الوسطى.

اتفاقيّات أوسلو للسلام: مجموعة من مقترحات السلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين، تمت المفاوضات فيها سريًّا في أوسلو ووُقّعت في واشنطن عام 1993.

أوستراكون: قطعة خزف أو جير تحمل صورة أو نصًّا.

السلطة الفلسطينيّة: هيئة فلسطينيّة حاكمة شبه مستقلّة تمتد سلطتها على الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة. نشأت عن اتفاقيّات أوسلو عام 1993.

بي أوت (جمع) (Pe'ot): خصل شعر يضعها اليهود الأرثوذكس.

السلام الآن: حركة السلام الإسرائيليّة الرئيسة. أسّست عام 1978.

بيزا (Pesah): عيد الفصح. احتفال يهودي يُقام في ذكرى الخروج من مصر.

بيلوم: رمح كان يستعمله الجنود الرومان.

قصر دوش: موقع لمعبد روماني قديم يقع قرب واحة خرجة.

قبّة الصخرة: المزار الإسلامي الرئيس في القدس.

قفطان: عباءة طويلة الكمين.

أحمد قريع: رئيس الوزراء الفلسطيني منذ عام 2003. يُعرف أيضًا بكنية أبو علاء. ولد عام 1937.

رفح: بلدة فلسطينيّة في قطاع غزّة على الحدود المصريّة. شهدت عام 2004 عمليّة عسكريّة إسرائيليّة جائرة راح ضحيّتها عدد كبير من المدنيين الفلسطينيين.

جبريل راجوب: ناشط وسياسي فلسطيني ولد عام 1953.

حرب رمضان: الاسم العربي لحرب يوم كيبور التي وقعت عام 1973.

رمسيس الثاني: ثالث فراعنة الأُسرة التاسعة عشرة. حكم بين عامي 1290–1224 ق.م. وهو أحد أعظم فراعنة مصر القديمة.

رمسيس الثالث: فرعون من الأُسرة العشرين. حكم بين 1194–1163 ق.م. ويُعتبر معبده الجنائزي في مدينة حابو أحد أجمل الآثار المصريّة.

رمسيس السادس: فرعون من الأُسرة العشرين. حكم بين 1151–1143 ق.م.

رمسيس التاسع: فرعون من الأُسرة العشرين. حكم بين 1112–1100 ق.م.

الرمسيوم: المعبد الجنائزي لرمسيس الثاني، يقع على الضفّة الغربيّة للنيل في الأقصر.

راشي: عالم ومعلّق يهودي، عاش بين 1040–1105 م. اسمه الحقيقي هو سولومون بن إسحاق.

روديف: كلمة عبرية تعني خائنًا.

روميما: ضاحية من ضواحي القدس، في الشمال الغربي للمدينة.

روزيكروشي: عضو جمعيّة دينيّة سريّة، شعارها الوردة والصليب.

صابرا: لقب اليهودي بالولادة. والكلمة تعني أيضًا نبتة الصبّار، إذ يُفترض بالإسرائيليين أن يكونوا مثل الصبّار، شائكين من الخارج وليّنين من الداخل.

صبرا وشاتيلا: مخيّمان للّاجئين الفلسطينيين في بيروت الغربيّة، شهدا مجزرة رهيبة عام 1982.

صلاح الدين: قائد عسكري مسلم عظيم عاش بين عامي 1138-1193.

سقّارة: مدينة موتى العاصمة المصرية القديمة في ممفيس. وهي عبارة عن مقبرة صحراويّة واسعة تغطي مساحة 7 كلم^2، وتضم هرم دجوسر المدرّج الشهير، على بعد 20 كلم جنوب القاهرة.

شلومو أرتزي: موسيقار إسرائيلي.

سفاردي: يهودي إسباني الأصل.

سيتي الأوّل: فرعون من الأُسرة التاسعة عشرة، وهو أب رمسيس الثاني. حكم بين 1306-1290 ق.م.

شعبان عبد الرحيم: مغنٍّ مصري.

شَبَت: كلمة عبرية تعني السبت اليهودي.

شَبتي: وجه صغير على شكل مومياء يُصنع عادةً من الخشب أو الخزف ويوضع في القبر لتأدية مهام معيّنة للميت في الحياة ما بعد الموت.

شدوف: رافعة خشبيّة تُستعمل لرفع الماء من النيل.

آرييل شارون: جنرال وسياسي إسرائيلي، ولد عام 1928.

شيما: الصلاة المركزيّة اليهوديّة، تتألّف من ثلاثة مقاطع من التوراة: سفر التثنية 6: 4-9، سفر التثنية 11: 13-21، سفر العدد 15: 37-41.

شين بيت: قسم الأمن الداخلي الإسرائيلي. وهو يوازي مكتب التحقيقات الفدراليّة.

شيشة: نوع من النرجيلة يُدخّن في الشرق الأوسط.

شتيتل: كلمة ييديّة تعني «بلدة صغيرة»، وتُستعمل في المستوطنات في أوروبا الشرقيّة التي تضم سكانًا يهودًا عمومًا.

شترايميل: قبعة كبيرة من الفرو يعتمرها اليهود المتشددون.

شول: كلمة ييديّة تعني «كنيسًا».

شوما: عصا.

سيغا: لعبة مصرية شبيهة بالداما.

سيمون بار-جورا: أحد قادة الثورة اليهوديّة ضد روما عام 66-70 م. أُعدم بعد سقوط القدس عام 70 م.

سليمان: ملك إسرائيل في القرن العاشر قبل الميلاد. وهو ابن داوود.

سجق: طبق أرمني تقليدي.

نجمة داوود: نجمة ذات ستّ زوايا، وهي من أولى الرموز اليهوديّة. تُعرف بالعبريّة ماغن دافيد، أي تُرس داوود.

طاولة خبز التقدمة: هي أحد أكثر الأشياء قداسة في معبد القدس القديم. وكان يُوضع عليها الخبز المقدّس المستعمل في الصلوات.

تاليت: شال للصلاة يضعه اليهود أثناء العبادة.

تاليت كاتان: رداء شبيه بالقميص مع شراريب على زواياه، يرتديه اليهود الأرثوذكس تحت ملابسهم اليوميّة.

تالميد حاخاميم (جمع): تعني حرفيًا «أتباع الحكيم»، أي المنصرفين إلى دراسة القانون اليهودي.

التلمود: مجموعة الآراء والجدالات العلميّة حول القانون اليهودي.

تمر هندي: شراب منعش مصنوع من التمر.

طرحة: رداء تقليدي يُوضع على الرأس تستعمله النساء في مصر.

طيبة: بيرة فلسطينيّة.

تيفيلا (جمعها تيفيلين): صندوق صغير يحتوي على مقاطع من التوراة. يحزمه اليهود الأرثوذكس إلى جبهاتهم وأذرعهم أثناء بعض الصلوات.

تلّ الفراعنة: موقع أثري شمال مصر.

ترمس: نوع من الحبوب.

جبل طيبة: سلسلة تلال تقع على الضفّة الغربيّة لنهر النيل في الأقصر.

ثالوث طيبة: أمون، موت وخونسو، الآلهة المصرية القديمة الثلاث.

طوبة: رداء أو قفطان مطرّز ترتديه النساء الفلسطينيّات.

تيش باف (Tish B'Av): تعني حرفيًّا «التاسع من نيسان»، وهو تاريخ تمّ فيه حسب الروزنامة اليهوديّة تدمير الهيكل الأوّل والثاني من قبل البابليين والرومان على التوالي. وفي هذا اليوم يحزن اليهود حزنًا عظيمًا.

تيتوس: ابن الإمبراطور فيسباسيان. هو الذي قاد الجيش الروماني الذي احتلّ القدس عام 70 م. حكم كإمبراطور بين 79-81 م.

التوراة: هو النص المركزي في الديانة اليهوديّة ويضمّ الكتب الخمسة الأولى من الكتاب المقدّس.

طُرلي: كسرولة أو يخنة مصرية تقليديّة.

طُرشي: مزيج من الخضار المخللّة، وهي وجبة خفيفة شعبيّة في مصر.

توريا: مجرفة.

تونا الجبل: موقع أثري على الضفّة الغربيّة للنيل قرب بلدة ملاّوي.

تحتموس الثاني: فرعون من الأُسرة الثامنة عشرة. حكم بين 1492-1479 ق.م.

أم علي: تحلية مصرية شعبيّة مؤلّفة من الكعك المنقوع بالحليب والسكّر والزبيب والقرفة.

الفاندال: قبيلة جرمانيّة نهبت روما عام 455 م.

فيسباسيان: إمبراطور روما بين 69-79 م.

وادي حلفا: بلدة شمال السودان، وهي موقع لآثار هامة من زمن الفراعنة.

ورد النيل: نبتة مائيّة مصريّة معروفة.

الحائط الغربي: يؤلّف بقايا حائط الدعم للهيكل القديم في القدس، وهو الجزء الوحيد المتبقي من البناء بعد أن دمرّه الرومان عام 70 م. يُعرف أيضًا بحائط المبكى، ويُسمّى بالعبريّة كوتيلاً. وهو الموقع الأكثر قداسة في العالم اليهودي.

ياد فاشيم: نُصُب تذكاري ومتحف في القدس.

يارتسايت: ذكرى وفاة قريب أو محبوب.

يارمولْك: غطاء للرأس يضعه اليهود أثناء الصلاة، ويضعه اليهود الأرثوذكس طيلة الوقت.

يثرب: الاسم الأصلي للمدينة المنوّرة.

يديعوت أحرنوت: الصحيفة اليوميّة الإسرائيليّة الأكثر تداولاً.

ييشيفا: مدرسة دينيّة يهوديّة مخصصة لدراسة التلمود.

يوتزيم (جمع): كلمة ييديّة تعني حمقى.

يويا وتجويو: زوجان نبيلان عاشا في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وهما جدّا توت عنخ أمون.

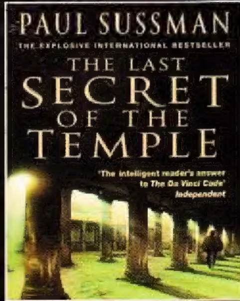
صندوق زيداكا: صندوق خيري يُثبّت في كثير من المنازل اليهوديّة.

زيميروت (جمع): تعني حرفيًّا «أغانيَ». وهي ترانيم ينشدها اليهود أثناء الصلاة.

زونا: كلمة عبريّة تعني مومسًا.

لغز عمره ألفي عام – سباق جنوني مع الزمن...

القـــدس، 70 م. فيمـا كانـت فيالـق الرومـان تحـاصـر الهيكل، يُعطى سرّ لصـبي صـغير عـليه أن يحمـيه بحياته...

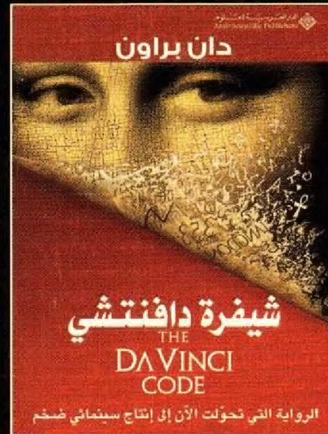


جنـوب ألمانيـا، كانـون الأوّل/ديسمبر 1944. يقوم ستّة سجناء بجرّ صندوق غامض إلى منجم مهجور. هم أيضاً يبذلـون حياتهم للحفاظ على السرّ: يُقتلون من قبل حرّاسهم النازيين...

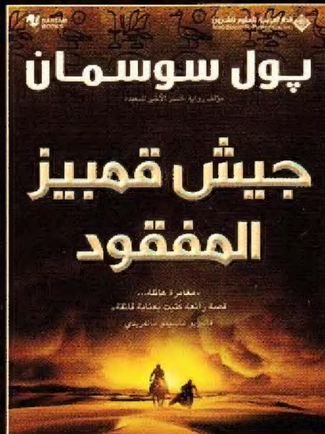
مصـر، وادي الملوك، الزمن الحاضر. يتمّ العثور علـى جثّة بين الآثار. يتبيّن أنّ القضـيّة بسـيطة ولكن كلّما كشف المحقّق يوسـف خليفة من شرطة الأقصر المزيد عن الضـحيّة، ازداد اضـطرابه، ثمّ يَقلِب التحقيق حياته رأسًـا على عقب. ومع أنّ خليفة لم يكن يعرف بعد، إلاّ أنّ التحقيق سـيقوده إلى تحفة ضـاعت منذ زمن بعيد، يمكنها، إن وقعت في أيدٍ شريرة، أن تحوّل الشرق الأوسط إلى بركة من الدماء. كان يسير في طريق وعر – ولم يكن بمفرده.

من أورشـليم، الصـليبيين، الكاثـار الهراطقة، والمخطوطات المشـفرة إلى المعتقلات النازيّـة والكنز النازي الغامض وحروب الزمن الحاضر، تأخذك رواية «آخر أسرار الهيكل» في مغامرة شيّقة تقطع الأنفاس.

اقرأ أيضاً:



صدر للمؤلف أيضاً:





ISBN 978-9953-87-025-0
9 789953 870250



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

تصميم الغلاف: سامح خلف